

لإمام أهل السُّنة والجماعة

أبي محمد حسن بن علي بن خلف البربهاري

المتوفّى سنة ٣٢٩هـ

رحمه الله تعالى

شرح الشيخ العلامة

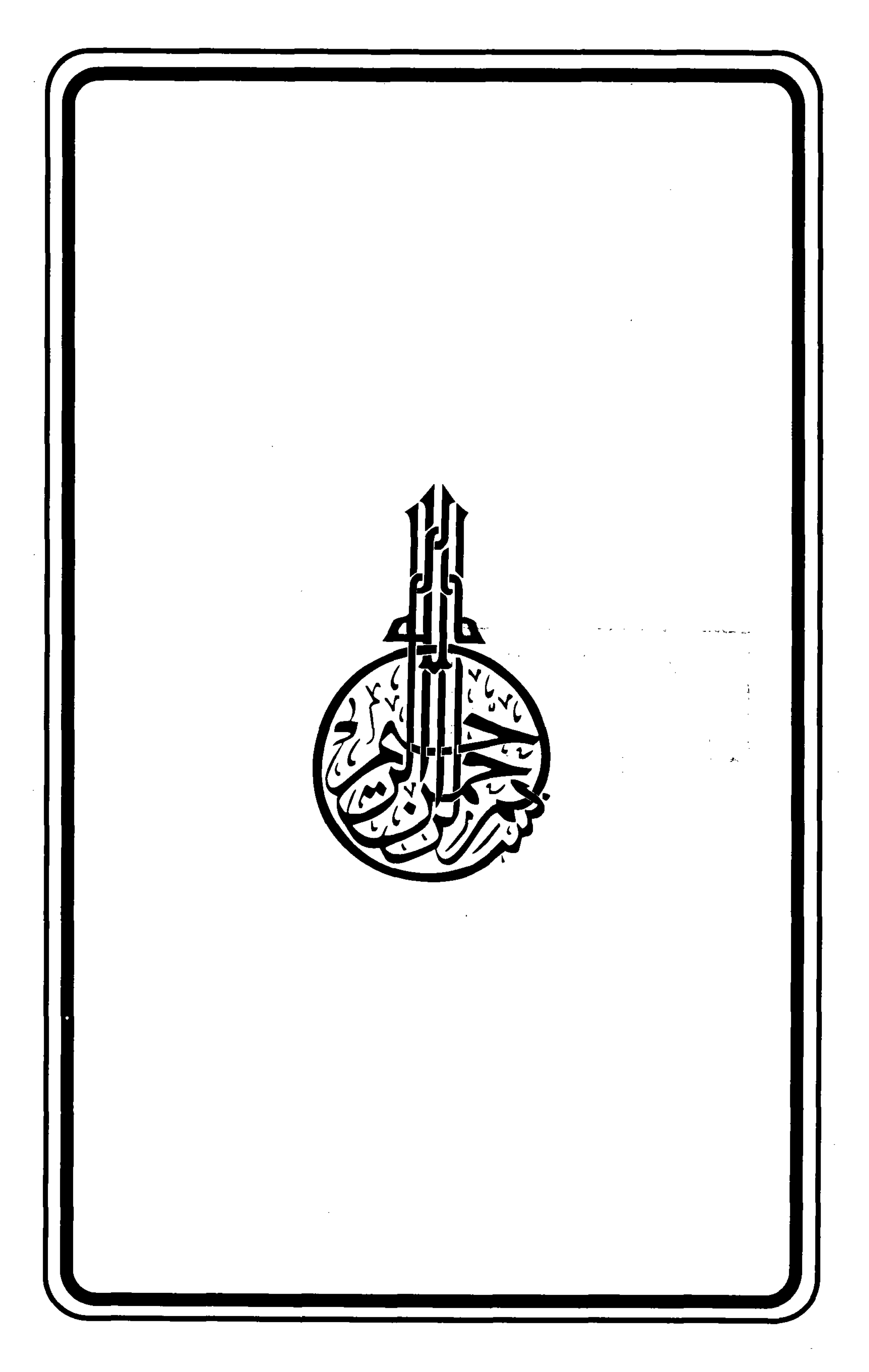
صالح بن فوزان الفوزان

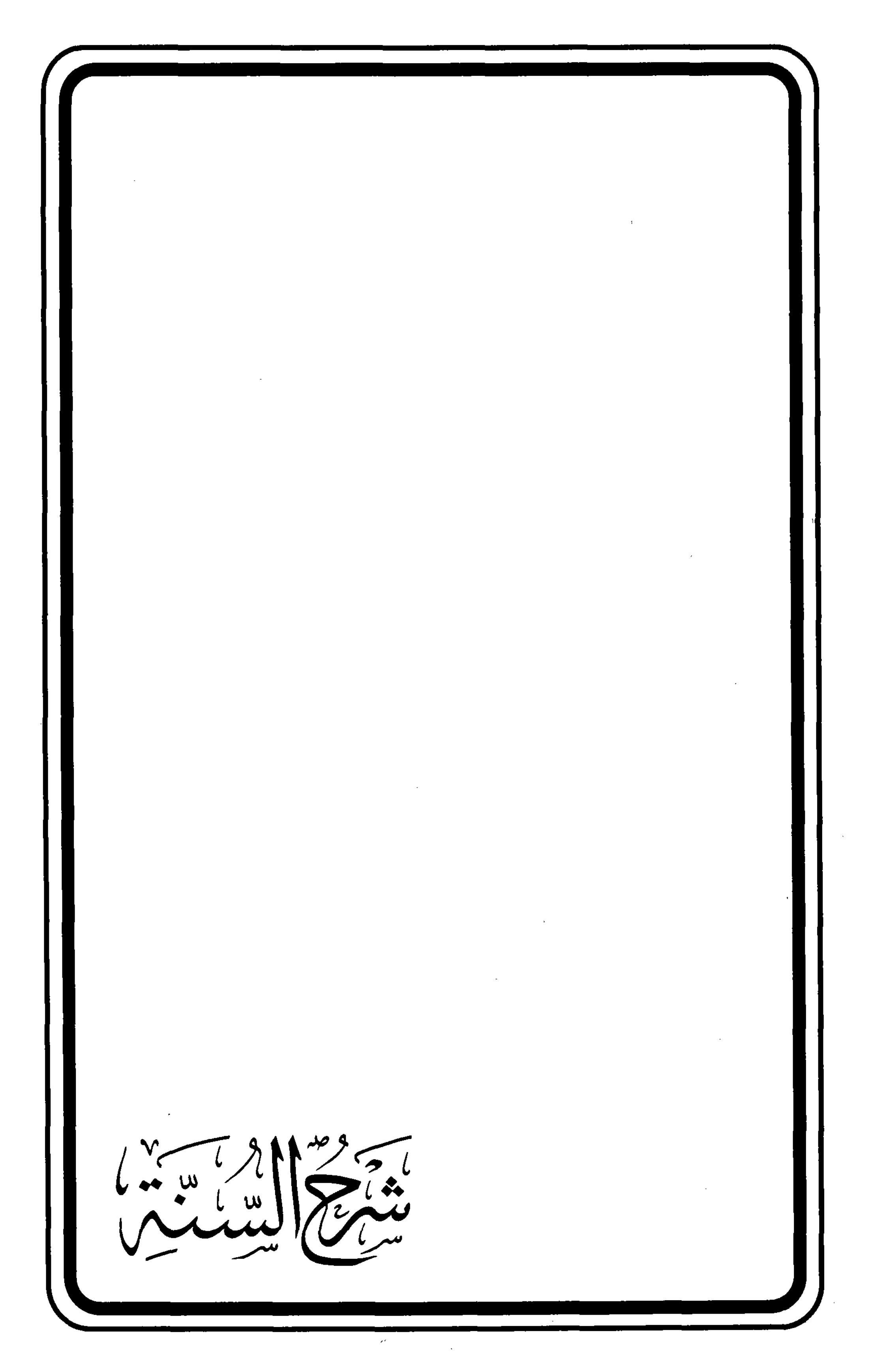
عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

اعتنى بها

محمد بن إبراهيم بن عبد العزيز الشامي




بسم الله الرحمن الرحيم


شرح السنة

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع : ١٩٠٩٥/ ٢٠٠٨

دار ابن حزم

طبع ـ نشر ـ توزيع

٢٢ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية

تليفون ٠٢٢٥١٤٣١٤١ ـ تليفاكس : ٠٢٢٥١١١٧٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد:

لن يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ولا يخفى على عاقلٍ أن أول هذه الأمة كانوا يتعلمون العلم للعمل به، لا أن يركنوا إلى ما علموا دون عملٍ، كما هو حالنا الآن نسأل الله العافية.

وفيه قال ابن قتيبة: «قد كُنّا زمانًا نعتذرُ من الجهل، فقد صِرْنا الآنَ نحتاجُ إلى الاعتذارِ من العلم».

فالعلم مرغوب لا شك فيه، ولكن العمل به مطلوب لا غنى عنه، والعلم يقدم العمل «لأنه أصله وشرطه، والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه»[1]، فلولا

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٦٥).

العمل ما كان للعلم فائدة، وكما قيل:

وعالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عباد الوثن

ولا يحسبن أحد أن العلم غاية، بل «العلم خادم العمل، والعمل غايةُ العلم، فلولا العملُ لم يطلب علمٌ، ولولا العلم لم يطلبُ عملٌ»[1]، وصدق ابن رشد حين قال: «كان العلم في الصدور، واليوم صار في الثياب».

واعلم علمني الله وإياك؛ أن أصل العلم والعمل الإخلاص، «فينبغي للعالِمِ أن يتكلم بنيةٍ، وحسنُ قصدٍ»[2]، «وقد كان السلف يطلبون العلم لله، فنبلوا، وصاروا أئمة يقتدى بهم»[3]، «واليوم يكثرون الكلام، مع نقص العلم، وسوء القصد»[4].

ومن ذلك يتلخص لدينا أن العلم لابد أن يعمل به، وأن العمل ينبغي له من علم، ولابد لهما من الإخلاص، فنسأل الله التوفيق والإخلاص، قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: «من أراد أن يأكل الخبز بالعلم فلتبكي عليه البواكي».

وفي الختام أتوجه إلى الله تعالى بأن يتقبل منا هذا العمل ويجعله نافعًا لنا وللمسلمين أجمعين، وأن يجزي من قاموا على هذا العمل خير الجزاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله..

وَكَتَبَهُ

محمد بن إبراهيم بن عبد العزيز

---

(١) «اقتضاء العلم العمل» (ص ١٥٨) نقله الخطيب عن بعض الحكماء.

(٢) «السير» (٤/ ٤٩٤).

(٣) «السير» (٩/ ٥٨٥).

(٤) «السير» (٤/ ٤٩٤).

ترجمة للإمام البربهاري

اسمه وكنيته ونسبه:

هو الإمام، القدوة، شيخ الحنابلة وكبيرهم في عصره، أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البَرْبَهَاري وهذه النسبة إلى (بَرْبَهَارْ)، وهي الأدوية التي تجلب إلى الهند.

موطنه ونشأته:

لم تذكر المصادر شيئًا عن مولده ونشأته، لكن الذي يبدو أنه بغدادي المولد والنشأة، وذلك لشهرته فيها بين عامَّة الناس فضلًا عن خاصَّتهم، وقد صحب البربهاري جماعة من أصحاب إمام أهل السنَّة والجماعة أحمد بن حنبل رحمه الله وأخذ العلم عنهم، وجُلُّهم بغداديون، وهذا ما يدلُّ على أنه نشأ في وسط عِلمي سُنِّي، مما كان له كبير الأثر على شخصيته.

شيوخه، طلبه للعلم:

لقد كان البربهاري رحمه الله مبَرَّزًا في طلبه للعلم، وحريصًا على تحصيله، حيث تَلَقَّى العلم على جماعة من كبار أصحاب الإمام أحمد بن حنبل، ومن بينهم:

١- أحمد بن محمد بن الحجاج بن عبدالعزيز أبو بكر المروزي: الإمام، القدوة، الفقيه، المحدث، نزيل بغداد، صاحب الإمام أحمد.

٢- سهل بن عبد الله بن يونس التستري أبو محمد: الإمام، العابد، الزاهد، له مواعظ وأحوال وكرامات.

مكانته العلمية:

لقد كان الإمام البربهاري رحمه الله إمامًا مَهيبًا، قَوَّالًا بالحقِّ، داعية للسنَّة واتباع الأثر، له صيت عند السلطان وجلالة، وكان مجلسه عامرًا بحِلق الحديث والأثر والفقه، يحضره كثير من أئمَّة الحديث والفقه.

قال أبو عبدالله الفقيه: إذا رأيتَ البغدادي يحب أبا الحسن بن بشار، وأبا محمد البربهاري، فاعلم أنَّه صاحب سنَّة.

ثناء العلماء عليه:

قال ابن كثير: «العالم الزاهد، الفقيه الحنبلي، الواعظ ... وكان شديدًا على أهل البدع والمعاصي، وكان كبير القدر تُعظِّمه الخاصَّة والعامَّة ...».

وقال ابن أبي يعلى: «... شيخ الطائفة في وقته، ومتقدِّمُها في الإنكار على أهل البدع، والمبايَنَة لهم باليد واللسان، وكان له صيت عند السلطان، وقَدَمٌ عند الأصحاب، وكان أحد الأئمَّة العارفين، والحفاظ للأصول المتقنين، والثقات المؤمنين».

زهده وورعه:

لقد عُرف الإمام البربهاري بالزهد والورع، وقد ذكر أبو الحسن بن بشار قال: «تَنَزَّه البربهاري من ميراث أبيه عن سبعين ألف درهم».

وقال ابن أبي يعلى: «كان للبربهاري مجاهَدات ومقامات في الدِّين كثيرة».

موقفه من أهل البدع:

لقد كان الإمام البربهاري رحمه الله شديدًا على أهل البدع والأهواء، منابِذًا لهم باليد واللسان، وهو في هذا كلِّه متَّبع لمسلك أهل السنَّة والجماعة في معاملة أهل البدع والأهواء؛ فقد كان رحمه الله حريصًا على صفاء هذا الدين، وإبعاد كل ما عَلِق به من البدع والأهواء، من التَّجَهُّم، والاعتزال، والتَّمَشْعُرِ، والتَّصَوُّف، والتَّشَيُّع، والتَّرَفُّض...

ومن تلاميذه:

١ - الإمام القدوة الفقيه أبو عبدالله بن عبيد الله بن محمد العكبري، الشهير بابن بَطَّة، توفي في المحرَّم من سنة سبع وثمانين وثلاثمائة.

٢- والإمام القدوة الناطق بالحكمة محمد بن أحمد بن إسماعيل البغدادي أبو الحسين بن سمعون، الواعظ، صاحب الأحوال والمقامات، توفي في نصف ذي القعدة من سنة سبع وثمانين وثلاثمائة[1].

محنته ووفاته:

لَـمَّا كان الإمام البربهاري رحمه الله له من الصِّيت والهيبة عند العامَّة والخاصَّة، وله من الحضوة عند السلطان قدرًا كبيرًا، ما فتئ أهل الأهواء والبدع المعادين له يُؤَلِّبون السلطان ويغيظون قلبَه عليه، حتى أمر الخليفة القاهر وزيرَه ابن مقلة في سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة بالقبض على البربهاري وأصحابه، فاستتر البربهاري، وقبض على جماعة من كبار أصحابه، وحُمِلوا إلى البصرة، وعاقب الله تعالى ابن مقلة على فعله ذلك، بأن سَخِطَ عليه القاهر، وهرب ابن مقلة وعزله القاهر عن وزارته، وطرح في داره النار، وقبض على القاهر بالله يوم الأربعاء لستٍّ من شهر جمادى الآخرة سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة، وحُبِسَ وخُلِعَ وسُمِلَتْ عيناه في هذا اليوم حتى سالتا جميعًا؛ فعمي، ثم تفضَّل الله تعالى وأعاد البربهاري إلى حِشمته، حتى إنه لما توفي أبو عبد الله بن عرفة وحضر جنازته أماثل أبناء الدنيا والدين، وكان المقدِّم على جماعتهم في الإمامة: البربهاري، وذلك في صفر سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وفي هذه السنة ازدادت حشمة البربهاري، وعلَت كلمته، وظهر أصحابه، وانتشروا في الإنكار على المبتدعة.

رحم الله الإمام البربهاري، فقد كان إمامًا، قدوةً، سُنِّيًّا، سيفًا مصلتًا على أهل البدع والزندقة.

---

(١) ترجمته في: «العبر» (٢/ ١٧٢)، و«السير» (١٦/ ٥٠٥).

قَالَ البَرْبَهَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: الحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِلإِسْلام، وَمَنَّ عَلَيْنَا بِهِ، وَأَخْرَجَنَا فِي خَيْرِ أُمَّةٍ، فَنَسْأَلُهُ التَّوفِيقَ لِمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَالحِفْظَ مِمَّا يَكْرَهُ وَيَسْخَطُ.

الشَّرْح

هَذِهِ خُطْبَةُ الكِتَابِ، فَبدَأَ بـ«الحَمْدُ لله»، عَمَلًا بالسُّنَّةِ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْمَدُ اللهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ فِي كِتَابَاتِه وَمُخَاطَبَاتِه، وَهَكَذَا كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ وَأَهْلُ العِلْمِ، يَبْدَءونَ كُتُبَهُمْ بـ«بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيم» اقْتِدَاءً بالكِتَابِ العَزِيزِ، وبـ«الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِين» اقْتِدَاءً بِفِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْطُبَ أَوْ يَتكَلَّمَ أَوْ يُنَبِّهَ عَلَى شَيْءٍ؛ يَحْمَدُ اللهَ وَيثْنِي عَلَيهِ، ثُمَّ يُبَيِّنُ مَا يُرِيد بَيَانَهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، فَالمُؤَلِّفُ نَهَجَ هَذَا المَنْهَجَ مُقْتَدِيًا بِمَنْ سَلَفَ وَهُوَ البُدَاءَةُ بـ«الحَمْدُ لله».

وَمَعْنَى (**الحَمْدُ لله**) أَيْ: جَمِيعُ المَحَامِدِ لله ﷻ، «**الحَمْدُ**»: هُوَ المَدْحُ وَالثَّنَاءُ عَلَى المَمْدُوحِ فَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يُحْمَدُ لِذَاتِهِ وَيُحْمَدُ لأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيُحْمَدُ سُبْحَانَهُ عَلَى أَفْعَالِهِ، فَلَهُ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الحَمْدِ، لأَنَّ جَمِيعَ النِّعمِ مِنْهُ سُبْحَانَهُ، وَأَمَّا غَيْرُهُ فَيُحْمَدُ عَلَى قَدْرِ مَا يُسْدِي مِنَ الجَمِيلِ، وَلَكِنَّ الحَمْدَ المُطْلَقَ الكَامِلَ الشَّامِلَ هُوَ لله ﷻ، فَلا يَجُوزُ لَكَ أَنْ تَقُولَ: «الحَمْدُ لِفُلانٍ» بمَعْنَى الاسْتِغْرَاقِ، هَذَا لايَجُوزُ إلاَّ لله، كَمَا فِي القُرْآنِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٢-٣]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:١].

أَمَّا أَنْ تَقُولَ: «أَشْكُرُ فُلانًا»، أَوْ «أَحْمَدُ فُلانًا عَلَى كَذَا وَكَذَا» بمَعْنَى تَخْصِيصِ الشَّيْءِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ حَمْدْتَهُ أَوْ شَكَرْتَهُ عَلَيْهِ فَلا بَأْسَ، أَمَّا أَنْ تَقُولَ: «الحَمْدُ لِفُلانٍ» فَهَذَا لايَجُوز إِلاَّ فِي حَقِّ الله ﷻ.

وَ(الله) اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى، وَمَعَنْاهُ: المَأْلُوهُ المَعْبُودُ، لأَنَّ الأُلُوهِيَّة مَعْنَاهَا العُبُودِيَّةُ.

وَهُوَ اسمٌ لايُطْلَقُ إلاَّ عَلَى الله، وَلَم يتسمَّ بِهِ أَحَدٌ غَيْرَ الله أَبَدًا، حَتَّى الجَبَابِرَة وَالكَفَرَةَ وَالمَلاحِدَةَ مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ سَمَّى نَفْسَهُ «الله» فِرْعَونٌ مَا قَالَ: «أَنَا اللهُ»، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] فَهَذَا اسْمٌ خَاصٌّ بالله ﷻ.

و(وربِّ العَالَمِيْنَ) الرَّبُّ مَعْنَاهُ: المَالِكُ المُتَصَرِّفُ، وَ«العَالَمِينَ»: جَمْعُ عَالَمٍ، وَهُوَ جَمِيعُ المَخْلُوقَاتِ، وَاللهُ هُوَ رَبُّهَا وخَالِقُهَا وَمُدَبِّرُهَا وَمَعْبُودُهَا وَإِلَهُهَا.

قَوْلُهُ: (الحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِلإِسْلامِ) الإِسْلامُ أَكْبَرُ نِعْمَةٍ، قَالَ تعالَى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣]، فَبالإِسْلام تَمَّتِ النِّعْمَةُ عَلَى المُسْلِمِينَ، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس:٥٨] فَضْلُ الله: هُوَ الإِسْلامُ وَالرَّحْمَةُ هِى القُرْآنُ، فَلْيَفْرَحُوا بالإِسْلامِ وَبالقُرْآنِ.

وَهَذاَ فِيهِ الاعْتِرَافُ مِنْكَ بِأَنَّ الفَضْلَ لله فِي هِدايَتِكَ لِلإِسْلام، وبِإِرْشَادِكَ إِلَيْهِ، وتَثْبِيتِكَ عَلَيْهِ، هَذاَ فَضْلٌ مِنَ الله، لا بحَوْلِكَ، وَلا بقُوَّتِكَ، وَإِنَّمَا هُوَ تَوْفِيقٌ مِنَ الله ﷻ، فَهُوَ الَّذِي هَدَاكَ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ أَهْلُ الجنة إِذَا دَخَلُوا الجَنَّةَ يَوْمَ القِيَامةَ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

قَوْلُهُ: (وَمَنَّ عَلَيْنَا بِهِ) الإِسْلامُ مِنَّةٌ مِنَ الله ﷻ، وَإِلاَّ فَاللهُ لا يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْء لأَحَدٍ، وَإِنَّمَا هُوَ يَتَفَضَّلُ عَلَى عَبَادِهِ بالإِسْلامِ، وَبالنِّعَمِ، وَبالعَافِيَةِ، وَبالأَرْزَاقِ.

قَوْلُهُ: (وَأَخْرَجَنا فِي خَيْرِ أُمَّةٍ) أَخْذًا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، فَقَولُهُ: ﴿كُنتُمۡ﴾ هَذاَ خِطَابٌ لِلْمُسْلِمِيْنَ، ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾ أَيْ: خَيْرَ الأُمَمِ، وَ(الأُمَّةُ) المُرَادُ بهَا الجَمَاعَةُ، ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ تَأَمَّلْ

قَوْلَهُ: ﴿لِلنَّاسِ﴾، فَخَيْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ لا يَقْتَصِرُ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا يَتَعَدَّى لِلنَّاسِ فِي الدَّعْوَةِ وَالجِهَادِ وَالتَّعْلِيمِ وَالإِرْشَادِ، لا يَكْفِي أَنْ يَتعَلَّمَ الإِنْسَانُ وَيَعْمَلَ فِي نَفْسِهِ وَيَتْرُكَ الآخَرِينَ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَنْشُرَ الدَّعْوَةَ، وَيَنْشُرَ العِلْمَ، وَيَنْشُرَ الخَيْرَ، وَيَدْعُوَ إِلَى اللهِ وَيَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنكَرِ، فَيَكُونَ عُضْوًا عَامِلًا فِي مُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَوْلُهُ: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ مَعْنَاهُ: مَا أُخْرِجُوا لأَنْفُسِهِمْ فَقَطْ، وَإِنَّمَا أَخْرَجَهُمُ اللهُ لِلنَّاسِ.

قَوْلُهُ: (**فَنَسْأَلُهُ التَّوفِيقَ لِمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى**) الإِنْسَانُ يَسْأَلُ اللهَ الثَّبَاتَ، وَلَوْ كَانَ يَعْرِفُ الحَقَّ، وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَعْتَقِدُهُ، فَلا يَأْمَنُ أَنْ يَزِيغَ وَأَنْ يُفْتَنَ، بِأَنْ تَأْتِيَ فِتَنٌ وَتَجْتَاحَهُ، وَيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»[1]، وَقَالَ الخَلِيلُ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ - فِي دُعَائِهِ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦] خَافَ عَلَى نَفْسِهِ، وَهَكَذَا كُلَّمَا قَوِيَ إِيمَانُ الإِنْسَانِ بِاللهِ فَإِنَّهُ يَخَافُ وَلا يَأْمَنُ الفِتَنَ، وَلا يُزَكِّي نَفْسَهُ، بَلْ يَسْأَلُ اللهَ الثَّبَاتَ، وَحُسْنَ الخَاتِمَةِ دَائِمًا وَأَبَدًا، وَيَخَافُ مِنْ سُوءِ الخَاتِمَةِ، وَيَخَافُ مِنَ الفِتَنِ، وَيَخَافُ مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلالِ، وَمِنْ دُعَاةِ السُّوءِ.

قَوْلُهُ: (**وَالحفظ مما يكره ويسخط**) فَيُوَفِّقُنَا لِمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنَ الأَعْمَالِ وَالأَقْوَالِ وَالاعْتِقَادَاتِ، وَيُجَنِّبُنَا مَا يُسْخِطُهُ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ وَالاعْتِقَادَاتِ، فَهُوَ الهَادِي ﷻ، وَهُوَ الْمُوَفِّقُ، وَهُوَ الدَّالُّ وَالْمُرْشِدُ.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤)، وأحمد (٣/ ١١٢، ٢٥٧)، والحاكم في «المستدرك» (١٩٢٧)، وغيرهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٨٧)، وقد ورد هذا الحديث عن جمع من الصحابة منهم جابر بن عبد الله وعائشة وأم سلمة وغيرهم رضي الله عنهم.

[١] قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: اعْلَمُوا أَنَّ الإِسْلامَ هُوَ السُّنَّةُ، وَالسُّنَّةَ هِيَ الإِسْلامُ، وَلا يَقُومُ أَحَدُهُمَا إِلاَّ بِالآخَرِ.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (**اعْلَمْ**) هَذِهِ كَلِمَةٌ لِلاهْتِمَامِ، وَمَعْنَى «اعْلَمْ»: أَيْ تَعَلَّمْ، وكَيْفَ تَعْلَمُ أَنَّ الإِسْلامَ هُوَ السُّنَّةُ؟ إِذَا تَعَلَّمْتَ عِلِمْتَ ذَلِكَ.

فَـ«اعْلَمْ» كَلِمَةٌ يُؤْتَى بِهَا لِلاهْتِمَامِ لِمَا بَعْدَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ**﴾ [محمد:١٩] يَعْنِي اعْلَمْ مَعْنَى «لا إله إلا الله»، وَاعْمَلْ بِهِ، ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [المائدة:٩٨]، فَتَأْتِي كَلِمَةُ «اعْلَمْ» أَوْ «اعْلَمُوا» لِلاهْتِمَامِ لِمَا بَعْدَهَا.

قَوْلُهُ: (**الإِسْلامُ هُوَ السُّنَّةُ، وَالسُّنَّةَ هِيَ الإِسْلامُ**)، يَعْنِي: الإِسْلامُ هُوَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، وَكُلُّ الرُّسُلِ جَاءوا بِالإِسْلامِ، فَكُلُّ نَبِيٍّ دَعَا إِلَى اللهِ، وَجَاءَ بِشَرِيعَةٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَذَلِكَ هُوَ الإِسْلامُ، فَالإِسْلامُ عِبَادَةُ اللهِ عز وجل وَحدهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِمَا شَرَعَهُ، وَقَدْ شَرَعَ اللهُ لِلأَنْبِيَاءِ شَرَائِعَ إِلَى آجَالٍ، ثُمَّ يَنْسَخُهَا، فَإِذَا نُسِخَتْ كَانَ العَمَلُ بِالنَّاسِخِ هُوَ الإِسْلامُ، إِلَى أَن نُسِخَتْ تِلْكَ الشَّرَائِعُ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، يَقُولُ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿**لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ [الرعد:٣٨-٣٩]، فَالإِسْلامُ هُوَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، مِنَ الدَّعْوَةِ وَالعَمَلِ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِحَسَبِهِ، إِلَى أَنْ جَاءَتْ بَعْثَةُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فَصَارَ الإِسْلام هُوَ مَا جَاءَ بِهِ دُونَ غَيْرِهِ، فَمَنْ بَقِيَ عَلَى الأَدْيَانِ السَّابِقَةِ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ، حَيْثُ لَمْ يَنْقَدْ للهِ عز وجل، وَلَمْ يُطِعْ هَذاَ الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم لأَنَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ قَدِ انْتَهَى وَنُسِخَ، وَالبَقَاءُ عَلَى المَنْسُوخِ

لَيْس دِيناً لله عَجَّلَ، إِنَّمَا العَمَلُ بالنَّاسِخِ هُوَ الدِّينُ.

قَوْلُهُ: (**وَالسُّنَّةُ هِيَ الإِسْلامُ**) لا فَرْقَ بَيْنَهُمَا، إِذَا فَسَّرْنَا السُّنَّةَ بالطَّرِيقَةِ فَلا فَرْقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الإِسْلامِ.

قَوْلُهُ: (**وَلايَقُومُ أَحَدُهُمَا إِلاَّ بِالآخَرِ**) لا يَقُومُ الإِسْلامُ إِلاَّ بالسُّنَّةِ، وَلا تَقُومُ السُّنَّةُ إِلاَّ بالإِسْلامِ، فَالَّذِي يَدَّعِي الإِسْلامَ وَلا يَعْمَلُ بالسُّنَّةِ - أَيْ: طَرِيقَةِ الرَّسُولِ ﷺ -؛ لَيْسَ بِمُسْلِمٍ، وَالَّذِي يَعْلَمُ السُّنَّةَ وَلا يُسْلِمُ لله؛ لَيْسَ بمُسْلِمٍ وَإِنْ عَرَفَ السُّنَّةَ، فَلَا بُدَّ مِنَ الجَمْعِ بَيْنَهُمَا.

[٢] قَالَ المُؤَلِّفُ ﷺ: فمِنَ السُّنَّةِ لُزُومُ الجَمَاعةِ، فَمَنْ رَغِبَ غَيْرَ الجَمَاعة وَفَارقَهَا؛ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِهِ، وَكَانَ ضَالًّا مُضِلًّا.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (**فَمِنَ السُّنَّةِ لُزُومُ الجَمَاعِةِ**) مَا دَامَ الأَمْرُ كَذَلِكَ، وَأَنَّ الإِسْلامَ هُوَ السُّنَّةُ، وَالسُّنَّةُ هِيَ الإِسْلامُ، فَالسُّنَّةُ أَنْوَاعٌ، (**فَمِنَ السُّنَّةِ لُزُومُ الجَمَاعِةِ**) أَيْ: لُزُوم جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ، وَالمُرَادُ بالجَمَاعةِ هُنَا: جَمَاعَةُ المُسْلِمِينَ الَّذِيْنَ عَلَى الحَقِّ.

أَمَّا الجَمَاعَاتُ الَّتِي لَيْسَتْ عَلَى الحَقِّ فَهَذِهِ لا تُسَمَّى الجَمَاعَةَ الحَقِيْقِيَّةَ، كُلُّ جَمَاعَةٍ اجتَمَعَتْ عَلَى ضَلالَةٍ أَوْ عَلَى مَنْهَجٍ مُخَالِفٍ لِلإِسْلامِ أَوْ عَلَى طَرِيقَةٍ مُخَالِفَةٍ لِلإِسْلامِ فَلا تُسَمَّى الجَمَاعَةَ الحَقِيْقِيَّةَ المَطْلُوبَةَ المَمْدُوحَةَ.

فَالجَمَاعَةُ المُرادَةُ هُنَا: هُمْ أَهْلُ الحَقِّ، وَلَيْسَ مِنْ لازِمِ ذَلِكَ أَنْ يَكُونُوا كَثِيرِينَ، بَلْ لَوْ كَانَ وَاحِدًا عَلَى الحَقِّ فَإِنَّهُ يُسَمَّى جَمَاعَةً، فَالجَمَاعَةُ: هِيَ مَنْ كَانَ عَلَى الحَقِّ، قَلَّ أَهْلُهُ أَوْ كَثُرُوا، فَتَلْزَمُ مَنْ كَانَ عَلَى الحَقِّ، وَلا تُخَالِفِ الجَمَاعَةَ الَّتِي عَلَى الحَقِّ، بَلْ تَكُونُ مَعَهُمْ عَلَى الحَقِّ، فَمَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ فَسَيَأْتِي بَيَانُه.

وَلُزُومُ الجَمَاعَة، يَعْنِي عَدَمَ الخُرُوجِ عَنْهَا وَالاخْتِلافَ عَلَيْهَا.

قَوْلُهُ: (**فَمَنْ رَغِبَ غَيْرَ الجَمَاعة وَفَارَقَهَا؛ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِهِ**) هَذا نصٌ حديث: «**مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيْدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِهِ**»(١) فَهَذاَ وَعِيدٌ شَدِيدٌ، فَإِنْ كَانَتِ المُفَارَقَةُ فِي العَقِيدَةِ بَحيثُ يَعْبُدُ غَيْرَ الله فَهَذَا كُفْرٌ، وَإِنْ كَانَتِ المُفَارَقَةُ دُونَ ذَلِكَ فَهِيَ ضَلالٌ. فَمُفَارَقَةُ الجَمَاعَةِ لا خَيْرَ

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٨٦٣)، وأحمد (٤/ ١٣٠، ٢٠٢)، والحاكم (٤٠٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٢٤).

فيْهَا، وَفِي الحديث: «عَلَيكُمْ بالجَمَاعَةِ فَإِنَّ يَدَ الله عَلَى الجَمَاعَةِ».

وَلَمَا أَخبَرَ النَّبِيُّ ﷺ حُذَيْفَةَ بنَ اليَمَانِ بِمَا يَحْصُلُ مِنَ الفِتَنِ وَالتَّفَرُّقِ قَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ: مَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ تَلْزَمَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِمَامَهُمْ»[1] فالجَمَاعَة لا تكُونُ إلاَّ بأَمْرَيْنِ:

الأَمْرُ الأَوَّلُ: أَنْ يكُونَ مَنْهَجُهَا الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ. لَيْسَ مَنْهَجُهَا مَذْهَبَ فُلانٍ وَلا قَوْلَ فُلانٍ، بَلِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.

الأَمْرُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ لَهَا إِمَامٌ مُسْلِمٌ يَقُودُهَا، وَتَرْجِعُ إِلَيْهِ، لا يُمْكِنُ أَنْ تَجْتَمِعَ جَمَاعَةٌ بِدُونِ إِمَام، لَابُدَّ مِنْ إِمَامٍ يَكُونُ مَرْجِعًا لَهَا؛ وَلِهَذا قَالَ لِحُذَيْفَةَ: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ» قَالَ: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلا إِمَامٌ؟» قَالَ: «تَعْتَزِلُ تِلْكَ الفِرقَ»[2] أَمَرَهُ أَنْ يَعْتَزِلَ تِلْكَ الفِرَقَ فَلا يَكُونُ إلاَّ مَعَ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلا يَكُونُ مَعَ جَمَاعَاتٍ غَيْرِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، بَلْ يَبْقَى وَحْدَهُ عَلَى الحَقِّ إِلَى أَنْ يَأْتِيَهُ المَوْتُ وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ.

فَهَذاَ فِيهِ أَنَّهُ لا يَكُونُ الإِنْسَانُ مَعَ الجَمَاعَاتِ الْمُخَالِفَة لِمَنْهَجِ الحَقِّ، ولا يَكُونُونَ جَمَاعَةً إلاَّ بشَرْطَيْنِ: أَنْ يكُونَ مَنْهَجُهُمُ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَمَنْهَجَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَأَنْ يكُونَ لَهُمْ إِمَامٌ مُسْلِمٌ يَقُودُهُمْ وَيَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، فَلا دِينَ إِلَّا بجَمَاعَةٍ، وَلا جَمَاعَةَ إِلَّا بإِمَام، وَلا إِمَامَ إلاَّ بسَمْعٍ وَطَاعَةٍ، هَذَا مَنْهَجُ الْمُسْلِمِينَ، وهَذَا هُوَ السُّنَّةُ الَّتِي يَشْرَحُهَا رحمه الله.

وفِي هَذاَ نَهْيٌ عَنِ الشُّذُوذِ فِي الآرَاءِ وَالمخَالَفَاتِ، وَأَنَّ الإِنْسَانَ يَلْزَمُ الجَمَاعَةَ مَا دَامُوا لَيْسُوا عَلَى ضَلالٍ.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤١١، ٦٦٧٣)، ومسلم (١٨٤٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) انظر الحديث السابق.

قَوْلُهُ: (**خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِهِ**) كَانَ مِنْ عَادَةِ العَرَبِ أَنَّهُم يَضَعُونَ لِلأَغْنَامِ رِباطًا فِي رِقَابِهَا، حَتَّى لا تَتفرَّق وتَضِيعَ، ويَأْكُلَهَا الذِّئْبُ، وَهَذِهِ الأَرْبطَةُ تَكُونُ مُتَّصِلَةً بحَبْلٍ وَاحِدٍ يَجْمَعُهَا مِنْ أَجْلِ المُحَافَظَةِ عَلَيْهَا، فَشَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ لُزُومَ الجَمَاعَةِ بِهَذَا الأَمْرِ، فَإِنَّ الجَمَاعَةَ هِيَ الرِّبَاطُ الوَاقِي مِنَ المَهَالِكِ، كَالرِّبَاطِ الَّذِي يَكُونُ فِي رِقَابِ الأَغْنَامِ يَحْفَظُهَا مِنَ الذِّئْبِ، وَمِنَ الضَّيَاعِ.

قَوْلُهُ: (**وَكَانَ ضَالًّا مُضِلًّا**) ضَالًّا فِي نَفْسِهِ عَنِ الطَّرِيقِ، مُضِلًّا لِغَيْرِهِ، ضَالًّا فِي نَفْسِهِ، ومُضِلًّا لِمَنِ اقْتَدَى بِهِ وَاتَّبَعَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء:١١٥]، فَالوَاجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَتَّبعَ سَبيلَ المُؤْمِنِيْنَ، ولا يُخَالِفَهُمْ، وَلا يَشِذَّ عَنْهُمْ.

[٣] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالأَسَاسُ الَّذِي تُبْنَى عَلَيْهِ الجَمَاعَةُ: هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَرَحِمَهُمُ اللهُ أَجْمَعِيْنَ، وَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، فَمَنْ لَمْ يَأْخُذْ عَنْهُمْ؛ فَقَدْ ضَلَّ وَابْتَدَعَ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَالضَّلالَةُ وَأَهْلُهَا فِي النَّارِ(١).

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَالأَسَاسُ الَّذِي تُبْنَى عَلَيْهِ الجَمَاعَةُ) مَنِ الجَمَاعَةُ الَّذِيْنَ هَذَا شَأْنُهُمْ؟ هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ مِنَ التَّابِعِيْنَ، وَأَتْبَاعِ التَّابِعِيْنَ، وَالقُرُونِ المُفَضَّلَةِ، هَؤُلاءِ هُمُ الجَمَاعَةُ، وَمَنِ اقْتَدَى بِهِمْ مِنَ المُتَأَخِّرِيْنَ، هَؤُلاءِ هُمُ الجَمَاعَةُ الَّذِيْنَ يَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ مَعَهُمْ، وَلَو نَالَهُ مَا نَالَهُ مِنَ الأَذَى، وَمِنَ التَّهْدِيدِ، وَمِنَ التَّعْيِيرِ، وَمِنَ التَّهَجُّمِ، يَصْبِرْ عَلَى هَذَا، وَيَتَحَمَّلْ، مَا دَامَ أَنَّهُ عَلَى الحَقِّ، فَلا يَنْحَرِفْ عَنِ الحَقِّ، بَلْ يَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَهُ، وَإِلاَّ فَإِنَّهُ سَيَكُونُ هَدَفًا لِلْمُغْرِضِيْنَ ودُعَاةِ السُّوءِ، وَدُعَاةِ الضَّلالِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠]، وَقَالَ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ المُهَاجِرِيْنَ وَالأَنْصَارَ فِي سُورَةِ الحَشْرِ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠]، فَالمُتَأَخِّرُ يَقْتَدِي بِالمُتَقَدِّمِ مِنْ أَهْلِ الحَقِّ وَأَهْلِ الخَيْرِ وَلَو كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ زَمَانٌ طَوِيلٌ، يَلْزَمُ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مَهْمَا كَلَّفَه ذَلِكَ، فَهُوَ يَصْبِرُ.

---

(١) كما في الحديث: «كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار».
أخرجه النسائي (١٥٧٨)، وابن خزيمة (١٧٨٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/١٨٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٥٣).

قَوْلُهُ: (**أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ** ﷺ) مِنَ المُهَاجِرِيْنَ وَالأَنْصَارِ، لأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِيْنَ صَحِبُوا الرَّسُولَ ﷺ، وَجَاهَدُوا مَعَهُ، وَنَصَرُوُه، وَتَحَمَّلُوا الدِّينَ، ونَقَلُوهُ لَنَا، فَهُمُ الوَاسِطَةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ رَسولِ الله ﷺ فَالَّذِيْنَ يَسُبُّونَ الصَّحَابَةَ أَوْ يَتَنَقَّصُونَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَهْدِمُوا الإِسْلامَ، لَكِنَّهُمْ جَاءوا بِهذِهِ الحِيْلَةِ، فَإِذَا تَكَلَّمُوا فِي الصَّحَابَةِ وَأَسْقَطُوا قِيمَتَهُمْ مَاذا يَبْقَى حِينَئِذٍ مِنَ الوَاسِطَةِ بَيْنَنَا وبَيْنَ الرَّسُولِ ﷺ؟ فَقَصْدُهُمْ قَطْعُ الصِّلَةِ بالسَّابقِيْنَ الأَوَّلِيْن مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، حَتَّى تَضِلَّ الأُمَّةُ، وَإِلاَّ فَمَا الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى سَبِّ الصَّحَابَةِ؟ هَلْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الصَّحَابَةِ مُشَاحَنَةٌ فِي مَالٍ أَوْ نَحْوِهِ؟ هَلِ الصَّحَابَةُ آذَوْهُمْ وبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الصَّحَابَةِ قُرُونٌ مُتَطَاوِلَةٌ؟

فَالَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى هَذَا بُغْضُ القُلُوبِ، لأَنَّ الصَّحَابَة هُمُ الَّذِيْنَ حَمَلُوا هَذَا الديْن، فَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَقْطَعُوا الصِّلَةَ بَيْنَ الرَّسُولِ ﷺ وَبَيْنَ أُمَّتِهِ حَتَّى يَسْقُطَ هَذَا الدِّيْنُ، هَذَا هُوَ قَصْدُهُمْ.

قَوْلُهُ: (**وَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ**) أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالَّذِيْنَ جَاءوا مِنْ بَعْدِهِمُ، الَّذِيْنَ اتَّبَعُوهَمْ بإِحْسَانٍ؛ هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ، أَيْ أَهْلُ الطَّرِيقَةِ الصَّحِيحَةِ، وَهِيَ السُّنَّةُ الَّتِي يَشْرَحُهَا فِي هَذَا الكِتَابِ.

وَهُمُ الجَمَاعَةُ الحَقِيقِيَّةُ، وَأَمَّا اجْتِمَاعُ غَيْرِهِمْ عَلَى أُمُورٍ بَاطِلَةٍ؛ فَهَؤُلاءِ لا يُسَمَّونَ الجَمَاعَةَ وَإِنْ كَانُوا عَدَدًا كَثِيْرًا، ﴿**تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ**﴾ [الحشر:١٤] فَالجَمَاعَةُ مَنْ كَانُوا عَلَى الحَقِّ، فَالَّذِي يَقُولُ: أَنَا مَعَ الحِزْبِ الفُلاني هَذَا الحِزْبُ جَمَاعَةٌ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ: الْزَمُوا الجَمَاعَةَ وَهَؤُلاءِ جَمَاعَةٌ، فَنَقُولُ لَهُمْ: مِنْ قَالَ لَكُمْ إِنَّ هَؤُلاءِ هُمُ الجَمَاعَةُ؟ الجَمَاعَةُ مَنْ كَانُوا عَلَى الحَقِّ، مَنْ كَانُوا عَلَى السُّنَّةِ، هَؤُلاءِ هُمُ الجَمَاعَةُ.

قَوْلُهُ: (فَمَنْ لَمْ يَأْخُذ عَنْهُمْ فَقَدْ ضَلَّ وَابْتَدَعَ) من لَمْ يَأْخُذ دِيْنَهُ عَنِ الصَّحَابَةِ، الَّذِيْنَ هُمْ نَقَلَةُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ فَلَيْسَ عَلَى الحَقِّ، فَإِذَا طُعِنَ فِيْهِمْ بَطَلَ نَقْلُهُمْ وَالعِيَاذُ بِالله. وَقَصْدُ أَعْدَاءِ الله وَرَسُولِهِ إِبْطَالُ الإِسْلام لَكِنْ جاءوا بِهَذِهِ الحِيْلَةِ الخَبِيْثَةِ؛ لأَجلِ أَنْ يَفْصِلُوا بَيْنَ المُتَأَخِّرِيْنَ وَالمُتَقَدِّمِيْنَ مِنَ المُسْلِمِينَ حَتَّى يَسْهُل ابْتِلاعُ المُتَأَخِّرِيْنَ، ويَسْهُلَ اجْتِرَارُهُمْ، أَمَّا إِذا ارْتَبَطُوا بِالجَماعَةِ الأُوْلَى، وَبالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَلَنْ يَسْهُل، بَلْ يَسْتَحِيلُ اجْتِرَارُهُمْ بِإِذْنِ الله.

قَوْلُهُ: (فَقَدْ ضَلَّ) أَيْ: ضَاعَ عَنِ الحَقِّ (وَابْتَدَعَ).

البِدْعَةُ: مَا كَانَ مِنَ العِبَادَات أَوِ الاعْتِقَادَاتِ أَوِ الأَقْوَالِ ولَيْسَ عَلَيْهِ دَلِيْلٌ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، قَالَ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[١]، وَفِي رِوَايَةٍ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذاَ مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[٢]، وَقَالَ: «**وَإِيَّاكُم وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بدْعَةٍ ضَلالَةٌ**»[٣].

فَالبِدْعَةُ: مَا أُحدِث فِي الدِّيْنِ وَهُوَ لَيْسَ مِنْهُ، وَكَيْفَ يُعْرَفُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُ؟

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ دلِيْلٌ فَهُوَ لَيْسَ مِنَ الدِّيْنِ، لأَنَ اللهَ - جَلَّ وَعَلا - يَقُول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣] فَالدِّيْنُ كَامِلٌ - وَلله الحَمْدُ -، لايَقْبَلُ الزِّيَادَات، فَما عَلَيْنَا إِلاَّ أَنْ نَعْرِفَ الدِّيْنَ الَّذِي أَكْمَلَهُ اللهُ ﷻ، فَنَتَمَسَّك بِهِ، وَنَتْرُكَ مَا عَدَاهُ مِنَ الزِّيَادَاتِ، وَالاسْتِحْسَانَاتِ، وَالإِضَافَاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، لأَنَّهَا تُبْعِدُ عَنِ الله - جَلَّ وَعَلا -، وَسَيَأْتِي تَوضِيحُ أَنَّ «**مَا أَحْدَثَ قَوْمٌ بدْعَةً إِلاَّ نُزِع مِثْلُهَا**

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٥٥٠)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٥) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني في «المشكاة» (١٦٥).

مِنَ السُّنَّةِ»، فَهَذَا هُوَ الطَّرِيقُ الصَّحِيحُ الْمُسْتَقِيمُ؛ لُزُومُ الجَمَاعَةِ، ولُزُومُ السُّنَّةِ، وَتَرْكُ البِدَعِ.

قَوْلُهُ: (**وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**) فَلَيْسَ هُنَاكَ بِدْعَةٌ حَسَنَةٌ كَمَا يَقُولُهُ بَعْضُهُمْ، بَلِ البدَعُ كُلُّهَا ضَلالَةٌ بنَصِّ حَدِيثِ الرَّسُولِ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «**فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**»[1]، فَالبدَعُ فِي الدِّينِ لَيْسَ فِيهَا شَيْء حَسَنٌ أَبَدًا، بَلْ كُلُّهَا ضَلالَةٌ وَهَذَا كَلامُ الرَّسُولِ ﷺ الَّذِي لا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى.

قَوْلُهُ: (**وَالضَّلالَةُ وَأَهْلُهَا فِي النَّارِ**) الضَّلالُ وَأَهْلُ الضَّلالِ فِي النَّار إِمَّا بكُفْرِهِمْ، وَإِمَّا بمَعْصِيَتِهِمْ، فَالبدَعُ لَيْسَتْ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ، مِنْهَا مَا هُوَ كُفْرٌ، صَاحِبُهُ مُخَلَّدٌ فِي النَّار كَالاسْتِغَاثَةِ بالأَمْوَاتِ، وَدُعَاءِ الأَمْوَاتِ، وَالذَّبْح لِغَيْرِ الله، وَالنَّذْرِ لِغَيْرِ الله، فَهذِهِ بدَعٌ كُفْرِيَّةٌ، وَكَذَا نَفْيُ أَسْمَاءِ الله وَصِفَاتِهِ كَمَا قَالَتِ الجَهْمِيَّةُ الَّذِيْنَ يَجْحَدُونَ الأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ، فَهَذَا كُفْرٌ وَالعِيَاذُ بالله، لأَنَّهُم وَصَفُوا اللهَ بأَنَّهُ لَيسَ له أَسْمَاءٌ وَلا صِفَاتٌ، فَيَكُونَ إِذًا مَعْدُومًا، لأَنَّ الْمَوجُود لَابُدَّ لَهُ مِنْ صِفَاتٍ، وَالَّذِي لَيسَ لَهُ صِفَاتٌ هُوَ المَعْدُومُ، وَلِذَلِكَ حَكَمَ الأَئِمَّةُ بتَكْفِيرِ الجَهْمِيَّةِ، الَّذِيْنَ قَالُوا: القُرْآنُ مَخْلُوقٌ فَجعَلُوا القُرْآنَ - الَّذِي هُوَ كَلامُ الله وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيله - جَعَلُوهُ مَخْلُوقًا مِثْلَ المَخْلُوقَاتِ، وَقَالُوا: اللهُ لايَتَكَلَّمُ، فَشَبَّهُوهُ بالجَمَادِ، وَالَّذِي لايَتَكَلَّمُ لا يَكُونُ إِلَهًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا**﴾ [الأعراف:١٤٨]، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الَّذِي لا يَتكَلَّمُ لا يَكُونُ إلهًا، وَالجَهْمِيَّةُ يَقُولُونَ: الله لا يتكلم، إِذًا لَيْسَ هُوَ بإِلَهٍ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ، وفِي سورة طه: ﴿**أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا**﴾ [طه:٨٩] يَعْنِي العِجْلَ، لَوْ كَلَّمُوهُ لا يَرْجِعُ إِلَيْهِمُ

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

الجَوَابَ، فَهَلْ هَذَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا؟! وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام لِعَبَدَةِ الأَصْنَامِ: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾، قَالُوا لَهُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾، قَالَ لَهُم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:٦٦- ٦٧].

اللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:١٦٠]، وَصَفَ نَفْسَهُ بأَنَّهُ يَقُولُ ويتكَلَّمُ، فَالَّذِي لا يَتكَلَّمُ لَيْس بإِلَهٍ، ولِذَلِكَ كَفَّرَ كَثِيرٌ مِنَ الأَئِمَّةَ أَئِمَّةَ الجَهْمِيَّةِ، دُونَ مُقَلِّدِيهِمْ وَأَتْبَاعِهِمُ الَّذِيْنَ لَمْ يَتبَيَّنْ لَهُمُ الحَقُّ، وَإِنَّمَا قَلَّدُوا عَنْ جَهْلٍ، فَهَؤُلاءِ فِيْهِم نَظَرٌ، لَابُدَّ مِنَ البَيَانِ لَهُمْ، فَإِنْ أَصَرُّوا فَإِنَّه يُحْكَمُ بكُفْرِهِمْ.

❦

[٤] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَقَالَ عُمَرُ بن الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا عُذْرَ لأَحَدٍ فِي ضَلالَةٍ رَكِبَهَا حَسِبَهَا هُدًى، وَلا فِي هُدى تَرَكَهُ حَسِبَهُ ضَلالَةً، فَقَدْ بُيِّنَتِ الأُمُورُ، وثَبَتَتِ الحُجَّةُ، وَانْقَطَعَ العُذْرُ».

الشَّرْحُ

قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (لاعُذْرَ لأَحَدٍ...) لأَنَّ اللهَ بَيَّنَ الحَقَّ، وَفَصَّلَهُ فِي القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، فَلا عُذْرَ لأَحَدٍ حِينئِذٍ فِي ضَلالَةٍ، لأَنَّ التَّقْصِيرَ جَاءَ مِنْ قِبَلِهِ، حَيْثُ لَمْ يَبْحَثْ عَنِ الحَقِّ، وَلَمْ يَسْأَلْ أَهْلَ العِلْمِ، فَالضَّلالُ جَاءَ مِنْ قِبَلِهِ، فَهُوَ الَّذِي فَرَّطَ.

قَوْلُهُ: (حَسِبَهَا هُدًى) فِيهِ بَيَانُ أَنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا وَاللهُ - جَلَّ وعَلا - يَقُول: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٣٧] فَحُسْبَانُهُمْ لا يَشْفَعُ لَهُمْ، لأَنَّهم لَيس لَهُمْ عُذْرٌ حَيْثُ لَمْ يُرَاجِعُوا الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ حَتَّى يَعْرِفُوا الحَقَّ مِنَ البَاطِلِ، وَإِنَّمَا رَكِبوا أَهْوَاءَهُمْ، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، وَمَعَ هَذاَ حَكَمَ اللهُ بكُفْرِهِمْ وَضَلالِهِمْ، فَبِمُجَرَّدِ أَنَّ الإِنْسَانَ يَحْسَبُ أَنَّهُ عَلَى حَقٍّ لا يَصِيرُ هَذاَ عُذْرًا لَهُ، إلاَّ إِذَا لَمْ يَبْلُغْهُ شَيْءٌ مِنَ الوَحْيِ الإِلَهِيِّ المُنَزَّلِ عَلَى الرُّسلِ لأَنَّ الوَاجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الكِتَابَ وَالسُّنَّةِ، وَلا يَبْقَى عَلَى ظَنِّهِ وَحُسْبَانِهِ، وَعَلَى مَا يَقُولُهُ لَهُ غَيْرُهُ أَنَّه حَقٌّ، فَهَذَا لَيْسَ بعُذْرٍ.

وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:٣٠]، انْظُرْ كَيْفَ اتَّخَذُوا شَيَاطِيْنَ الإِنْسِ وَالجِنِّ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللهِ، وَيَتَّبِعُونَهُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُهْتَدُونَ؟! فَهَلِ الشَّيَاطِيْنُ تُرِيدُ لَهُمُ الخَيْرَ؟! قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦]، انْظُر قَوْلَهُ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ هَذاَ عُقُوبَةٌ

لَهُ، ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ٣٦ وَإِنَّهُمْ﴾ أَي: الشَّيَاطِيْنَ ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يَحْسَبُ الأَتْبَاعُ أَنَّهُمْ مُهتَدونَ، فَلَمْ يَنْفَعْهُمْ ذَلِكَ، وَلا عُذْرَ لَهُمْ فِيهِ، لأَنَّهُم بَلَغتهُمْ دَعْوَةُ الرُّسُلِ فَلَمْ يَقبَلُوهَا.

وَإِنَّمَا العُذْرُ يَكُونُ فِي المَسَائِلِ الاجْتِهادِيَّةِ الَّتِي يَسُوغُ فِيهَا الاجْتِهَادُ، فَيَجْتَهِدُ الإِنْسَانُ، ويَبْذُلُ وُسْعَهُ وَطَاقَتَهُ فِي البَحْثِ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّ هَذا هُوَ الحَقُّ، فَهَذا مَعْذُورٌ لِقَوْلِهِ ﷺ: «**إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنِ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ**»[1].

هَذاَ فِي المَسَائِلِ الاجْتِهادِيَّةِ، أَمَّا المَسَائِل التَّوْقِيفِيَّةُ وَهِي أُمُورُ العَقِيدَةِ فَلَيْسَ لأَحَدٍ أَنْ يَجْتَهِدَ فِيهَا، بَلِ الوَاجِبُ اتِّبَاعُ الدَّلِيلِ، وَلا مَجَالَ فِيهَا للاجْتِهَادِ.

قَوْلُهُ: (**وَلا فِي هُدىً تَرَكَهُ حَسِبَهُ ضَلالَةً**) لَيْسَ الأَمْرُ عَلَى الحُسْبَانِ وَالظَّنِّ، فَيَأْخُذَ ضَلالَةً يَحْسَبُهَا هُدى، أَوْ يَتْرُكَ حَقًّا يَظُنُّهُ ضَلالَةً، ظَنُّهُ لا يَشْفَعُ لَهُ، لأَنَّ الهُدَى وَالضَّلالَ قَدْ بَيَّنَهُمَا اللهُ فِي القُرْآنِ، وبَيَّنَهُمَا الرَّسُولُ ﷺ فِي السُّنَّةِ، و بَيَّنَهُمَا السلف فِي سِيَرَتِهِمْ وَعَقِيدَتِهِمْ، فَالحَقُّ وَاضِحٌ وَللهِ الحَمْدُ، وَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ أَنَّ الحَقَّ وَاضِح مِنَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةِ وهَدْيِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، لَيْسَ فِيهِ غُمُوضٌ وَلا لَبسٌ، كَمَا حَصَلَ لِلأُمَمِ السَّابِقَةِ لَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ وَالْتبَسَ عَلَيْهِمُ الحَقُّ، وحُرِّفَتِ الكُتُبُ وَغُيِّرَتْ، أَمَّا هَذِهِ الأُمَّةُ فَيَبْقَى وَاضِحًا، وَالكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مَحْفُوظانِ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّغْيِيرِ، فَلَيْسَ لأَحَدٍ عُذْرٌ حِينَئِذٍ.

قَوْلُهُ: (**فَقَدْ بُيِّنَتِ الأُمُورُ**) نَعَمْ قَدْ بُيِّنَتِ الأُمُورُ، لَكِنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى بَحْثٍ وَإِلَى طَلَبٍ، بأَنْ يَتَعَلَّمَ الإِنْسَانُ، وَيَتَفَقَّهَ، وَيَأْخُذَ العِلْمَ عَنِ العُلَمَاء، لا يَأْخُذُ العِلْمَ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ عَنْ مِثْلِه مِنَ الجُهَّالِ، أَوِ المُتَعَالِمِينَ، أَوْ مِنَ الكُتُبِ، بَلْ يَأْخُذُ العِلْمَ عَنْ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٩١٩)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

أَهْلِهِ، لأَنَّ هَذاَ العِلْمَ يُتَلَقَّى عَنِ العُلَماءِ، فَالعِلْمُ بالتَّلَقِّي، وَلَيْسَ بالأَخْذِ مِنَ الكُتُبِ، الكُتُبُ إِنَّما هِيَ أَدْوَاتٌ فَقَطْ لِلْبحْثِ يَشْرَحُهَا العُلَماءُ، وَأَمَّا الوُصُولُ إِلَى الحَقِّ فَهَذا يُؤْخَذُ عَنْ أَهْلِ العِلْمِ، وَيُرْوَى عَنْهُمْ، خَلَفًا عَنْ سَلَفٍ.

قَوْلُهُ: (**وثَبَتَتِ الحُجَّةُ، وَانْقَطَعَ العُذْرُ**) مَا لأَحَدٍ عُذْرٌ، فَهَذَا الدِّيْنُ صَانَهُ اللهُ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّغْيير، وَصَارَ الحَقُّ وَاضِحًا لا لَبْسَ فِيهِ، بخِلافِ الأُمَم السَّابقَةِ فَإِنَّهَا لَمَّا طَالَ عَلَيْهَا الأَمَدُ حَرَّفُوا كُتُبَهُمْ وَغَيَّرُوهَا، وَبَدَّلُوهَا فَالْتَبس الحَقُّ وَخَفِي.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَذَلِك أَنَّ السُّنَّةَ وَالجَمَاعَةَ قَدْ أَحْكَمَا أَمْرَ الدِّينِ كُلَّهُ، وَتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ، فَعَلَى النَّاسِ الاِتِّبَاعُ.

الشَّرْحُ

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وذَلِك أَنَّ السُّنَّةَ وَالجَمَاعَةَ قَدْ أَحْكَمَا أَمْرَ الدِّينِ كُلَّهُ**) «**ذَلِكَ**» إِشَارَةٌ إِلَى مَا سَبَقَ مِنَ الحَثِّ عَلَى لُزُومِ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ.

وَقَدْ سَبَقَ بأَنَّ المَرادَ بأَهْلِ السُّنَّةِ المُتَمَسِّكُونَ بسُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ وبطَرِيقَتِهِ؛ هؤلاء هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ، وَالجَمَاعَةِ: هُمُ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا عَلَى الحَقِّ، وَلَمْ يَتفَرَّقُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ**﴾ [آل عمران:١٠٣]، اجْتَمَعوا عَلَى الحَقّ وَلَمْ يَتفَرَّقُوا عَنْهُ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِيهِ، هؤُلاءِ هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَماعَة، أَمَّا ﴿**ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا**﴾ فَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُول لِنَبيِّهِ ﷺ: ﴿**لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ**﴾ [الأنعام:١٥٩].

(**وَذلِكَ أَنَّ السُّنَّةَ وَالجَماعَةَ أَحْكَمَا**) أَيْ: أَتْقَنَا، فَالإِحْكَامُ مَعْنَاهُ: الإِتْقَانُ، أَتْقَنَا أَمْرَ الدِّيْنِ كُلَّهُ، فَالدِّيْنُ كُلُّهُ مَحْصُورٌ فِي السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ كَمَا قَالَ ﷺ: «**فَإِنَّهُ مِنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بسُنَّتِي**»[^1]، لا يَقِي مِنْ شَرِّ هَذَا الاخْتِلافِ إِلاَّ التَّمسُّكُ بسُنَّة الرَّسُولِ ﷺ وَهِي مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فِي العَقِيدَةِ، وَالعِبَادَةِ وَالمُعَامَلاتِ، وَالأَخْلاقِ، وَالآدَاب، وَهُمُ الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ، مِنْ بَيْنِ ثَلاثٍ وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً، قَالُوا: مِنْ هِيَ يَا رَسُوَل الله؟ - فَهَذِه الَّتِي اسْتُثْنِيَتْ مِنْ هَذِهِ الفِرَقِ جَمَاعَةٌ مُتَمَيِّزَةٌ فَمَنْ هِيَ؟ - قَالَ ﷺ فِي بَيَانِهَا: «**مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»[^2] مَا عَلَيْهِ الرَّسُولُ

[^1]: (١) صحيح: سبق تخريجه.
[^2]: (٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١)، وأحمد =

ﷺ وَأَصْحَابُهُ هُوَ السُّنَّةُ، فَمَنْ لَزِمهُ نَجا، وَلِذلِكَ سُمُّوا بالفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ.

قَوْلُهُ: (وَتَبيَّنَ لِلنَّاسِ، فَعَلَى النَّاسِ الاِتِّبَاعُ) تبيَّنَ لِلناسِ أَنَّ أَمْرَ الدِّيْنِ كُلِّهِ فِي لُزُومِ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ، فَلَنْ يُخَالِف مَا عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ إلاَّ أَهْلُ الضَّلالِ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، فَمَنْ تَرَكَ الحَقَّ وَقَعَ فِي الضَّلالِ، وَالحَقُّ هُوَ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ دُونَ غَيْرِهِمْ.

= (٢/ ٣٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٠٣).

[٥] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّ الدِّيْنَ إِنَّما جَاءَ مِنْ قِبَلِ اللهِ - تَبَارَكَ وتَعَالَى -، لَمْ يُوضَعْ عَلَى عُقُولِ الرِّجَالِ وَآرَائِهِمْ، وَعِلْمُهُ عِنْدَ اللهِ، وَعِنْدَ رَسُولِهِ، فَلا تَتَّبِعْ شَيْئًا بِهَوَاكَ؛ فَتَمْرُقَ مِنَ الدِّينِ فَتَخْرُجَ مِنَ الإِسْلامِ؛ فَإِنَّهُ لا حُجَّةَ لَكَ، فَقَدْ بَيَّنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأُمَّتِهِ السُّنَّةَ، وَأَوْضَحَهَا لأَصْحَابِهِ، وَهُمُ الجَمَاعَةُ، وَهُمُ السَّوَادُ الأَعْظَمُ، وَالسَّوَادُ الأَعْظَمُ: الحَقُّ وَأَهْلُهُ، فَمَنْ خَالَفَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ فَقَدْ كَفَرَ.

الشَّرْح

الدِّيْن إِنَّما جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَهُوَ الَّذِي شَرَعَ الدِّيْنَ سُبْحَانَهُ، فَلَيْسَ لأَحَدٍ أَنْ يُشَرِّعَ دِيْنًا لَمْ يَأْذَنِ اللهُ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١] هَذَا اسْتِنْكَارٌ وَتَحْذِيْرٌ، فَالدِّيْنُ هُوَ مَا شَرَعَهُ اللهُ، وَبَلَّغَهُ رَسُولُهُ ﷺ، هَذاَ هُوَ الدِّيْنُ الَّذِي قَالَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا - فِيهِ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣] هَذَا هُوَ شَرِيعَةُ الأَنْبِيَاءِ خُصُوصًا هَؤُلاءِ الخَمْسَةُ أُولُو العَزْمِ، هَذاَ دِينُهُمْ، فَمَنْ حَادَ عَنْهُ أَوِ اخْتَلَفَ عَنْهُ هَلَكَ وَضَلَّ، وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى تَوحِيد اللهِ ﷻ، وَتَرْكِ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، وَالتَّقَيُّدِ بِمَا شَرَعَهُ اللهُ ﷻ، وَالابْتِعَادِ عَمَّا حَرَّمَهُ اللهُ، هَذاَ هُوَ الدِّيْنُ.

قَوْلُهُ: (لَمْ يُوضَعْ عَلَى عُقُولِ الرِّجَالِ وَآرَائِهِمْ) لَيْسَ الدِّين مَا اسْتَحْسَنَهُ الرِّجَالُ أَوْ رَأَوْهُ، فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ دِينَ اللهِ، هَذَا دِينُ النَّاسِ الَّذِي أحدَثُوهُ، أَمَّا دينُ اللهِ ﷻ فهو الَّذِي شَرَعَهُ، أَمَّا مَا رَآه الرِّجَالُ بآرَائِهِمْ فَهَذَا لَيْسَ هُوَ دِينَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِنَّما هُوَ دِينُ مِنْ رَآه، فَلا يُنْسَبُ إِلَى اللهِ مِنَ الدِّيْنِ إِلاَّ مَا شَرَعَهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ

ﷺ، وَمَا شَرَعَهُ غَيْرُهُ لايُنْسَبُ إِلَى الله، وَإِنَّمَا يُنْسَبُ إِلَى مِنْ شَرَعَهُ، وَاللهُ بريءٌ مِنْهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١].

قَوْلُهُ: **(وَعِلْمُهُ عِنْدَ الله وَعِنْدَ رَسُولِهِ)** ﷺ، أُمُورُ الدِّيْنِ تَوْقِيفِيَّةٌ، لَابُدَّ مِنَ الأَدِلَّةِ عَنِ الله وَرَسُولِهِ فِي أُمُورِ الدِّيْنِ، يُتَقَيَّدُ بِمَا جَاءَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ أُمُورِ الدِّيْنِ، وَتُتْرَكُ الْمُحْدَثَاتُ وَالبدَعِ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، وَإِنْ كَانَ أَهْلُهَا يَرَوْنَهَا دِيْنًا، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَى الله بِهَا، فَنَحْنُ لا نَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، وَلا نُؤْمِنُ بِهَا، لأَنَّ دِين الله مَا شَرَعَهُ هُوَ وَرَسُولُهُ.

لأَنَّ الدِّيْنَ مَبْنِيٌّ عَلَى العِلْمِ الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِ الله وِرسُولِهِ، وَلا تَتَّبعْ أَهْوَاءَ النَّاسِ، وَآرَاءَ النَّاسِ، وَمَا اسْتَحْسَنُوهُ، وَمَا تَتَابَعُوا عَلَيْهِ، وَهُوَ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ فِي كِتَابِ الله أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، كَمَا قَالَ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ -: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا ما لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[1]، وَفِي رِوَايَةٍ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[2] فَالَّذِي يُرِيُد أَنْ يَكُونَ عَمَلُهُ صَالحًا مُفِيْدًا فَعلَيْهِ بِأَمْرَيْنِ:

الأَمْرُ الأَوَّلُ: إِخْلاصُ دِينِه لله مِنَ الشِّرْكِ.

وَالأَمْرُ الثَّانِي: اتِّبَاعُهُ سُنَّةَ رَسُولِ الله ﷺ وَإِخْلاصُهُ مِنَ البدَعِ وَالْمُحْدَثَاتِ.

وَسَيَجِدُ الإِنْسَان مُخَالِفات فِي العَقِيدَةَ، ومُخَالِفات فِي العِبَادَات كَثِيْرة، النَّاس لَهُمْ أَهْوَاءُ وَلَهُمْ رَغَبَات وَلَهُمْ آرَاء وَلَهُمْ طُرُق، فَنَحْنُ لا نتبع النَّاس، بَلْ نَعْرِضُ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ عَلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَمَا وَافَقَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَهُوَ حَقٌّ وَمَا خَالَفَهُمَا فَهُوَ بَاطِلٌ.

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

(٢) صحيح: سبق تخريجه.

قَوْلُهُ: (فَلا تَتَّبِعْ شَيْئًا بِهَوَاكَ)، لا تَتَّبِعْ شَيْئًا بِهَوَاكَ وَرَغْبَتِكَ، وَلَكِنْ يَكُونُ هَوَاكَ وَرَغْبَتُكَ تابعَيْنِ لِمَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، فَلا تَهْوَى إِلاَّ مَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَلا تَرْغَبْ إِلاَّ مَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ، هَذاَ هُوَ سَبِيلُ النَّجَاةِ.

إِذاَ اتَّبَعْتَ هَوَاكَ صِرْتَ مِنَ الَّذِيْنَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا الوَحْيَ المُنَزَّلَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٤٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية:١٨-١٩] فَأَنْتَ بَيْنَ أَمْرينِ: إِمَّا أَنْ تَتَّبِعَ الدِّيْنَ الصَّحِيحَ، وَإِمَّا أَنْ تَتَّبِعَ الهَوى، لا ثَالِثَ لَهُمَا.

قَوْلُهُ: (فَتَمْرُقَ مِنَ الدِّينِ فَتَخْرُجَ مِنَ الإِسْلامِ) مَنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَإِنَّهُ يَمْرُقُ مِنَ الدِّيْنِ، وَلَو عَلَى المَدَى البَعِيدِ، أَوَّلُ شَيْءٍ يَتَسَاهَلُ فِي المُخَالَفَةِ وَالهَوَى، ثُمَّ يَتَعَاظَمُ اتِّبَاعُ الهَوَى إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدِّيْنِ، فَيَصِيرُ دِينُهُ هَوَاهُ، كَمَا قَالَ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً﴾ [الجاثية:٢٣] فَالهَوَى إِلَهٌ آخَرُ، وَلَيْسَ الشِّرْكُ مَقْصُورًا عَلَى عِبَادَةِ الصَّنَمِ أَوْ الوَثَنِ، بَلْ هُنَاكَ شَيْء آخَرُ وَهُوَ الهَوَى، فَقَدْ لا يَعْبُدُ الإِنْسَانُ الأَصْنَامَ، وَالأَشْجَارَ وَالأَحْجَارَ، وَلا يَعْبُدُ القُبُورَ، لَكِنْ يَتَّبِعُ هَوَاهُ، فَهَذا عَبْدٌ لِهَوَاهُ فَعَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَحْذَرَ، وَلايَتَّبِعَ إِلاَّ مَا وَافَقَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ.

قَوْلُهُ: (فَإِنَّهُ لا حُجَّةَ لَكَ، فَقَدْ بَيَّنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأُمَّتِهِ السُّنَّةَ وَأَوْضَحَهَا لأَصْحَابِهِ) لا حُجَّةَ لِمَنْ خَالَفَ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، لأَنَّهُ ضَلَّ بَعْدَ البَيَانِ، وَبَعْدَ العِلْمِ ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣] لَيْسَ جَاهِلًا، بل يَعْرِفُ

الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَيَعْرِفُ أَقْوَالَ أَهْلِ العِلْمِ، لَكِنَّهَا لا تُوافِقُ هَوَاهُ، فَيَتْرُكُهَا وَيَأْخُذُ مَا يُوَافِقُ هَوَاهُ، هَذَا هُوَ الضَّلالُ وَالعِيَاذُ بِاللهِ، فَاتِّبَاعُ الهَوَى خَطِيرٌ جِدًّا، فَعَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَحْذَرَ مِنِ اتِّبَاعِ الهَوَى، قَالَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا - لِنَبِيِّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: ﴿**وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ**﴾ [ص:٢٦]، ولابنِ الجَوزيِّ رحمه الله كِتَابٌ فِي مُجَلَّدٍ ضَخْمٍ اسْمُهُ «ذَمُّ الهَوَى» أَوْرَدَ فِيهِ مِنَ الأَدِلَّةِ وَأَقْوَالِ أَهْلِ العِلْمِ وَالحِكَمِ الَّتِي تُحَذِّرُ مِنِ اتِّبَاعِ الهَوَى.

فَالوَاجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ هَوَاهُ، فَإِنَّهُ قَدْ يَسْلَمُ مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ وَالأَحْجَارِ وَالأَشْجَارِ وَالقُبُورِ، وَيَعْرِفُ التَّوْحِيدَ وَيَعْرِفُ السُّنَّةَ، لَكِنْ لَمْ يَسْلَمْ مِنِ اتِّبَاعِ هَوَاهُ، وَهَذِهِ مُصِيبَةٌ عَظِيمَةٌ، فَعَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَحْذَرَ مِنِ اتِّبَاعِ هَوَاهُ، ويكُونَ هَوَاهُ تبعًا لِمَا جَاءَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ قال ﷺ: «**لايُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبعًا لِمَا جئتُ بِهِ**»[1] صَحَّحَهُ النَّوَوِيُّ فِي «الأَرْبعِينَ»، وَقَالَ: «رُوِّيناهُ فِي كِتَابِ الحُجَّةِ بِإِسْنَادٍ صَحِيْحٍ».

وَالرَّسُولُ ﷺ مَا تَرَكَ شَيْئًا إِلاَّ وَبَيَّنَهُ لأُمَّتِهِ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ: «مَا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَطَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي الهَوَاءِ إِلاَّ وَذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا» مَا تَرَكَ شَيْئًا مِمَّا تَحْتَاجُهُ البَشَرِيَّةُ، مِمَّا يُقَرِّبُهَا إِلَى اللهِ، وَيُبْعِدُهَا عَنِ الكُفْرِ وَالضَّلالِ إِلاَّ بَيَّنَهُ، وقَدْ قَالَ ﷺ: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي: كِتَابَ اللهِ وسُنَّتِي**»[2].

تَرَكَ أُمَّتَهُ عَلَى البَيْضَاءِ لَيْلِهَا كَنَهَارِهَا، وَلَمَّا أَكْمَلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ، وَأَتَمَّ بِهِ

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة»، وضعفه الشيخ الألباني في «ظلال الجنة» (١٥).

(٢) حسن: حسنه الشيخ الألباني في «منزلة السنة في الإسلام» ص(١٨) وعزاه للحاكم.

النِّعْمَةَ انْتَقَلَ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ، بَعْدَمَا بَلَّغَ البَلاغَ المُبِيْنَ، وَأَوْضَحَ السُّنَّةَ لأَصْحَابِهِ وَقَالَ فِي خُطْبَةِ حَجَّةِ الوَدَاعِ: «**أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»[1].

قَوْلُهُ: (**وَهُمُ الجَمَاعَةُ، وَهُمُ السَّوَادُ الأَعْظَمُ**) أَصْحَابُهُ ﷺ هُمُ الجَمَاعَةُ، أَيْ: هُمْ أَصْلُ الجَمَاعَةِ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ، كَمَا قَالَ ﷺ: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ**»[2] الصَّحَابَةُ، وَالتَّابِعُونَ، وَأَتْبَاعُ التَّابِعِيْنَ، وَهُمُ القُرُونُ المُفَضَّلَةُ، هَؤُلاءِ هُمُ الجَمَاعَةُ، وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ فَهُوَ تابعٌ لَهُمْ، يَتَّبِعُ الأَصْلَ الَّذِي عَلَيْهِ صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ**﴾ [التوبة: ١٠٠].

هُمُ الجَمَاعَةُ الَّذِيْنَ أَمَرَنَا اللهُ أَنْ نَكُونَ مَعَهُمْ، وَأَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نَكُونَ مَعَهُم، وَنَهَانَا عَنْ مُفَارَقَتِهِمْ، وَهُمُ السَّوَادُ الأَعْظَمُ الَّذِي عَلَى الحَقِّ، وعَلَى الهُدَى، فَالَّذِيْنَ يُجَهِّلُونَ السَّلَفَ، وَيُقَلِّلُونَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وِيقُولُونَ: هُمْ رِجَالٌ وَنَحْنُ رِجَالٌ، وَيَقُولُونَ: لا مَانِعَ مِنْ أَنْ نُحْدِثَ أَشْيَاءَ وَلَسْنَا مُلْزَمِيْنَ باتِّبَاعِ السَّلَفِ وَأَقْوَالِ السَّلَفِ؛ فَهَذَا ضَلالٌ وَالعِيَاذُ بِاللهِ، هَذَا فَصْلٌ لآخِرِ هَذِهِ الأُمَّةِ عَنْ أَوَّلِهَا، وَإِذَا انْفَصَلَ آخِرُهَا عَنْ أَوَّلِهَا هَلَكَتْ، وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُهْلِكُوا الأُمَّةَ، فَجَاءُوا بِهَذِهِ الحِيلَةِ: وَهِيَ فَصْلُ الآخِرِينَ عَنْ أَوَّلِ الأُمَّةِ.

يُوجَدُ الآنَ مَنْ يُحَذِّرُ مِنْ مَذْهَبِ السَّلَفِ، ويُحَذِّرُ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَى أَقْوَالِهِمْ، وَيَقُولُ: هَذَا زَمَانٌ مَضَى، فَيُحَذِّرُ مِمَّا عَلَيْهِ السَّلَفُ، وَيَحُثُّ عَلَى الابْتِكَارِ فِي الدِّيْنِ!

الدِّيْنُ تَوْقِيفِي، وَهُوَ اتِّبَاعٌ، وَلَيْسَ ابْتِدَاعًا وَابْتِكَارًا، الابْتِكَارُ يكُونُ فِي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٦٥٤)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٥٠٨)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

الصِّناعَاتِ وَالمَنَافِع الدُّنْيوِيَّةُ، أَمَّا الدِّيْنُ فلا يُحْدَثُ فِيهِ شَيْء بَعْدَ وَفاةِ الرَّسُولِ ﷺ؛ لأَنَّ التَّشْرِيعَ انْتَهَى بوَفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ فَما عَلَيْنا إلاَّ الاتِّبَاعُ وَألاَّ نُحْدِثَ شَيْئًا مِنْ عِنْدِنَا، وِنَقُولُ: هَذاَ هُوَ الَّذِي يصْلحُ لِهَذَا العَصْرِ.

الإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: «لايُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إلاَّ مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا» الَّذِي أَصْلَحَ أَوَّلَهَا هُوَ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، فَلا يُصْلِحُ آخِر هَذِهِ الأُمَّةِ إلاَّ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَاتِّبَاعُ هَدْيِ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

قَوْلُهُ: (**وَالسَّوَادُ الأَعْظَمُ: الحَقُّ وَأَهْلُهُ**) السَّوَادُ هُمْ أَهْلُ الحَقِّ، وَأَهْلُهُ المُتَمَسِّكُونَ بِهِ، وَلَيْسَ مَعْنَى السَّوَادِ الأَعْظَم مُجَرَّدَ الكَثْرَةِ، مَعْنَى السَّوَادِ الأعْظَمِ: مَنْ كَانَ عَلَى الحَقِّ، وَلَو كَانُوا قَلِيلِيْنَ، فَهُمُ السَّوَادُ الأَعْظَمُ، حَتَّى وَلَو كَانَ رَجُلًا وَاحِدًا، مِنْ كَانَ عَلَى الحَقِّ فَهُوَ السَّوَادُ الأَعْظَمُ، لا نَنْظُرْ لِلكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا نَنْظُرُ لِمَا هُوَ عَلَيْهِ، فَقَدْ تَكُونُ الكَثْرَةُ عَلَى ضَلالٍ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ [الأنعام:١١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ [يوسف:١٠٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۢ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ**﴾ [الأعراف:١٠٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ**﴾ [المائدة:٤٩]، فَالكَثْرَةُ لا يُغْتَرُّ بِهَا، وَلا تُتَّبَعُ إلاَّ إذا كَانَت عَلَى الحَقِّ، مَن كَانَ عَلَى الحَقِّ فَهُوَ الجَمَاعَة سَوَاءٌ كَانُوا قَلِيلِيْنَ أَوْ كَثِيْرِين، الضَّابطُ: هُوَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، هَلْ هُوَ حَقٌّ أَوْ بَاطِل، فَإِنْ كَانَ حقًّا فَهُمُ الجَمَاعَةُ وَلَو لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ إلاَّ وَاحدٌ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا فَهُوَ الضَّلالُ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ النَّاسِ.

قَوْلُهُ: (**فَمَنْ خَالَفَ أَصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ فِي شَيْء مِنْ أَمْرِ الدِّينِ فَقَدْ كَفَرَ**) «كَفَرَ» يَحْتَمِلُ الكُفرَ الأَكْبَرَ، وَيَحْتَمِلُ الكُفْرَ الأَصْغَرَ، بِحَسَبِ المُخَالَفَةِ، فقَوْلُهُ: (**فَقَدْ كَفَرَ**) لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ كَفَرَ الكُفْرَ المُخْرِجَ مِنَ المِلَّةِ مُطْلَقًا، قَدْ يَكُونُ هَذَا، وَقَدْ يَكُونُ الكُفْرَ الأَصْغرَ، المُهِمُّ أَنَّ مُخَالَفَةَ السَّلَفِ كُفْرٌ، قَدْ يَكُونَ أَكْبَرَ وَقَدْ

يَكُونُ أَصْغَرَ، حَسَبَ المُخَالَفَةِ.

أَوْ أَنَّ المُرَادَ أَنَّهُ إِذاَ خَالفَهُمْ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ بالشَيْء اليَسِيرِ، ثُمَّ بالتَّدَرُّج يَخْرُجُ مِنَ الدِّيْنِ بالكُلِّيَّةِ، فَيَئولُ أَمْرُهُ إِلَى الكُفْرِ، إِذَا اسْتَمْرَأَ المُخَالَفَةَ فيَئولُ أَمْرُهُ إِلَى الكُفْرِ الأَكْبَرِ، فَيَخْرُجَ مِنَ الدِّيْنِ كُلِّهِ، يَتَدَرَّجُ بِهِ الشَّيْطَانُ وَالهَوَى وَالنَّفْسُ الأَمَّارَةُ بالسُّوءِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ الدِّيْنِ كُلِّهِ.

[٦] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ لَمْ يَبْتَدِعُوا بِدْعَةً قَطُّ حَتَّى تَرَكُوا مِنَ السُّنَّةِ مِثْلَهَا، فَاحْذَرِ الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَالضَّلالَةُ وَأَهْلُهَا فِي النَّارِ.

الشَّرْح

هَذِهِ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَهِي مَأْثُورَةٌ عَنِ السَّلَفِ: «**أَنَّ النَّاسَ مَا أَحْدَثُوا بِدْعَةً إِلاَّ فَقَدُوا مِثْلَهَا مِنَ السُّنَّةِ**». لأَنَّهُ لا تَجْتَمِعُ السُّنَّةُ وَالبِدْعَةُ، إِلاَّ وَتُخْرِجُ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى، فَلا يَكُونُ الإِنْسانُ مُبْتدِعًا وسُنِّيًّا، بَلْ إِمَّا أَنْ يكُونَ مُبْتدِعًا، وَإِمَّا أَنْ يكُونَ سُنِّيًّا، لا يجتمعان فِيهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ تُخرِجَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى، وَهَذَا مِنْ مَضَارِّ البِدَعِ.

وَهَذِهِ الحِكْمَةُ المَأْثُورَةُ ثَابِتَةٌ بِالتَّجْرِبَةِ، وَشَاهِدُ هَذَا وَدَلِيْلُهُ: أَنَّكَ تَجِدُ أَصْحَابَ البِدَعِ يُبْغِضُونَ الأَحَادِيثَ الصَّحِيحَة، وَيُبْغِضُونَ السُّنَنَ، وَأَعْدَى عَدُوٍّ لَهُمْ، وَأَبْغَضُ مَا يَسْمَعُونَ؛ أَنْ يُقَالَ: الحَدِيثُ الفُلانِيُّ يَنْهَى عَنْ هَذَا، أَوْ يُحَرِّمُ هَذَا، لا يُرِيدُونَ أَنْ يَسمَعُوا الأَحَادِيثَ وَالسُّنَنَ الَّتِي تُخَالِفُ مَا هُمْ عَلَيْهِ، فَهَذِهِ عَلامَةٌ عَلَى أَنَّهَا لا تَجْتَمِعُ السُّنَّةُ وَالبدْعَة. أَمَّا الَّذِي عَلَى السُّنَّةِ فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَ حَدِيثًا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِنَّهُ يَفْرَحُ بِذَلِكَ فَيُضِيفُ خَيْرًا إِلَى خَيْرٍ، وَيُضِيفُ عِلْمًا إِلَى عِلْم، صَاحِبُ السُّنَّةِ يَفْرَحُ بِأَحَادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ بَيْنَمَا صَاحِبُ البدعَةِ يَنْفِرُ مِنْ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ، هَذاَ شَيْء وَاضِحٌ فِي المُبتَدِعة أَنَّهُمْ يُحَارِبُونَ السُّنَنَ لأَنَّهَا تَقْضِي عَلَى مَا عِنْدهُمْ مِنَ البِدَعِ.

وهذا فِيهِ التَّنْفِيرُ مِنَ البدَعِ، وَأَنَّهَا تُرَحِّلُ مَحَبَّةَ السُّنَنَ وَتُرَحِّلُ مَحَبَّةَ السُّنَنِ مِنَ القُلُوبِ.

قَوْلُهُ: (**فَاحْذَرِ المُحَرَّمَاتِ مِنَ الأُمُورِ**): لأَنَّ المُحَرَّمَاتِ لا خَيْرَ فِيْهَا سَوَاءٌ

مُحَرَّمَاتُ الشِّرْكِ أَوِ الكُفْرِ، أَوِ المَعَاصِي، لأَنَّ اللهَ لايُحَرِّمُ شَيْئًا وَفِيهِ خَيْرٌ، إِنَّمَا يُحَرِّمُ مَا هُوَ شَرٌّ مَحْضٌ، أَوْ شَرٌّ رَاجِحٌ أَوْ شَرٌّ مُسَاوٍ، فَإِذَا اجْتَمَعَ فِي الشَّيْءِ خَيْرٌ وَشَرٌّ فَإِنْ كَانَ الشَّرُّ أَكْثَرَ أَوْ مُسَاوِيًا فَتَجَنَّبْهُ، وَإِنْ كَانَ الخَيْرُ أَكْثَرَ فَلا مَانِعَ مِنْ أَخْذِهِ، وَيُغْتَفَرُ الشَّرُّ اليَسِيرُ مَعَ الخَيْرِ الكَثِيرِ.

قَوْلُهُ: (**فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعةٍ ضَلالَةٌ**): هَذَا نَصُّ حَدِيثِ العِرْبَاضِ[1] بنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ مَوْعِظَةً وَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، وذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، فقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا، قَالَ: «**أُوصِيكُمْ بتقْوَى اللهِ وَالسّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ - وَفِي رِوَايَةٍ: عَبْدٌ حَبَشِي كَأَنَّ رَأسَهُ زَبِيبَةٌ - فَإِنَّهُ مِنْ يَعِش مِنْكُم فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدينَ المَهدِيِّيْنَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بهَا، وَعضُّوا عَلَيْهَا بالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ...**» هَذَا تَحْذِيرٌ «إِيَّاكَ» كَلِمَةُ تَحْذِيرٍ، «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعةٍ ضَلالَةٌ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**وَكُلَّ بِدْعةٍ ضَلالَةٌ**».

كُلُّ مُحْدَثَةٍ فَهِي بِدْعَةٌ، وَالمُرَادُ «مُحْدَثَةٌ» فِي الدِّينِ، أَمَّا المُحْدَثَاتُ فِي أُمُورِ العَادَاتِ وَالمَنَافِعِ وَالمَآكِلِ وَالمَشَارِبِ وَالمَلابسِ، فَهَذِهِ بدَعٌ لُغَوِيَّةٌ، لَيَسَتْ بدَعًا شَرْعِيَّة، لَكِنَّ المُحْدَثَاتِ فِي الدِّينِ هِيَ البدَعُ المُحَرَّمَةُ، وَهَذَا فِيهِ رَدٌّ عَلَى الَّذِيْنَ يُقَسِّمُونَ البدَعَ إِلَى بدَعٍ حَسَنَةٍ، وَبدَعٍ سَيِّئَةٍ، وَبدَعٍ مُبَاحَةٍ، وَيَقُولُونَ تَعْتَرِيهَا الأَحْكَامُ الخَمْسَةُ، فَهَذَا غَلَطٌ لأَنَّ البدَعَ فِي الدِّينِ كُلَّهَا ضَلالَةٌ، بنَصِّ الرَّسُولِ ﷺ قَالَ: «**فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعةٍ ضَلالَةٌ**»، وَأَظُنُّهُمْ أَدْخلُوا البدَعَ اللُّغَوِيَّةَ وَسَمَّوْهَا بدَعًا حَسَنَةً والبِدَعُ اللُّغَوِيَّةُ مُبَاحةٌ مِثْلُ بِنَاءِ المَدَارِسِ وَبِنَاءِ

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

الأَرْبطَةِ لِطَلَبَةِ العِلْمِ، وَمِثْلُ نَقْطِ المَصَاحِفِ، وَنَحْوِهَا سَمَّوهَا بدَعًا حَسَنَةً، وَهَذِهِ لَيْسَت بدَعًا، هَذِهِ تَابعَةٌ للسُّنَنِ، وَإِحْيَاءٌ للسُّنَنِ، فَبِنَاءُ المَدَارِسِ وَالأَرْبطَةِ لِطَلَبَةِ العِلْمِ، وَطَبْعُ المَصَاحِفِ وَنَقْطُهَا، هَذِهِ كُلُّهَا مِنَ الإعَانَةِ عَلَى العِلْمِ، فَهِيَ حَسَنَةٌ، وَهِيَ سُنَنٌ، فَهُمْ إِمَّا أَخَذُوا السُّنَنَ الحَسَنَةَ وَسَمَّوْها بدَعًا، وَإِمَّا أَنَّهُمْ سَمَّوا الأُمُورَ العَادِيَّةَ بدَعًا، وَهِيَ لاتَدْخُلُ فِي الدِّيْنِ، لأَنَّهَا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا فَلا تَدْخُلُ فِي الدِّيْنِ.

قَوْلُهُ: (**وَالضَّلالَةُ وَأَهْلُها فِي النَّار**) كَمَا فِي الحَدِيثِ: «**وَكَلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ**»، وَكَمَا فِي حَدِيثِ الفِرَقِ: «**وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِيَن فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إلاَّ وَاحِدَةً**»[1] فَهَذَا دليْلٌ عَلَى أَنَّ أَهْلَ البِدَعِ يَكُونُونَ فِي النَّار وَيَتَفَاوَتُونَ، مِنْهُم مِنْ يَكُونُ فِي النَّار لِكُفْرِهِ، وَمِنْهُم مِن يَكُونُ فِي النَّارِ لِمَعْصَيتِهِ، مِنْهُم مِنْ يُخَلَّدُ فِي النَّار، وَمِنْهُم مِنْ لا يُخَلَّدُ، وَيَكُونُ حُكْمُهُ حُكْمَ أَصْحَابِ الكَبَائِرِ.

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

[٧] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاحْذَرْ صِغَارَ المُحْدَثَاتِ مِنَ الأُمُورِ، فَإِنَّ صِغَارَ الْبِدَعِ تَعُودُ حَتَّى تَصِيرَ كِبَارًا، وكَذَلِكَ كُلُّ بِدْعَةٍ أُحْدِثَتْ فِي هَذِهِ الأُمَّة كَانَ أَوَّلُهَا صَغِيرًا يُشْبهُ الْحَقَّ، فَاغْتَرّ بذَلِكَ مِنْ دَخَلَ فِيْهَا، ثُمَّ لَمْ يَسْتَطِعِ الْخُرُوجَ مِنْهَا، فَعَظُمَتْ وَصَارَتْ دينًا يُدانُ بهَا، فَخَالَفَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ فَخَرَجَ مِنَ الإِسْلاَمِ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (**وَاحْذَرْ صِغَارَ المُحْدَثَاتِ مِنَ الأُمُورِ**) يَقُول: لاتَتَسَاهَلْ بشَيْء مِنَ البدْعَةِ وَلَو كَانَ صَغِيرًا، فَإِنَّهُ يَكْبُرُ، وَيَنْضَافُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ، وهَذاَ مِنْ مَفَاسِدِ البِدَعِ؛ لأَنَّهُ إِذاَ انْفَتحَ بَابُ البدَع زَادَتْ، فَلا يُتَسَاهَلُ فِيهَا، وَيُقَالُ: هَذِهِ بدْعَةٌ صَغِيرَةٌ وَلا تَضُرُّ، البدْعَةُ مِثْلُ الجَمْرَةِ وَلَو كَانَتْ صَغِيرَةً فَهِيَ تَكْبُرُ حَتَّى تُحْرِقَ البَيْتَ أَوِ المَتْجرَ أَوِ البَلَدَ كُلَّهُ: **وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ**.

فَلا يُتهَاوَنُ بِهَا، بَلْ يُسَدُّ بَابُ البدَع نِهَائيًّا، وقَدْ قال الرَّسُولُ ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأَمُورِ**» «**إِيَّاكُمْ**»: تَحْذِيرٌ مِنْ مُحْدَثَاتِ البدَع مُطْلَقًا، سَوَاءٌ كَانَتْ مُحْدَثَاتٍ صَغِيرَةً أَوْ مُحْدَثَاتٍ كَبيرَةً لَمْ يَسْتَثْنِ الرَّسُولِ ﷺ شَيْئًا مِنَ البدَع، فَنَهْيُهُ عَامٌّ فِي جَمِيع البدَع، وَقَالَ: «**وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا**».

قَوْلُهُ: (**وكَذَلِكَ كُلُّ بِدْعَةٍ أُحْدِثَتْ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ كَانَ أَوَّلُهَا صَغِيرًا يُشْبهُ الْحَقَّ فَاغْتَرَّ بذَلِك مِنْ دخل فِيْهَا، ثم لَمْ يستطع الخروج مِنْهَا**) الفِتَنُ أَوَّلَ مَا حَدَثَتْ فِي الأُمَّةِ بسَبَبِ التَّسَاهُل مَعَ أَهْلِ الإِفْسَادِ، حَتَّى عَاثُوا فِي الأَرْضِ فَسَادًا، وغَسَلُوا أَدمِغَةَ الشَّبَابِ وَالعوَامِّ، وَحَشَوْهَا مِنَ الشَّرِّ حَتَّى حَصَلَتِ الفِتَنُ فِي الإِسْلامِ، وَبيْنَ الْمُسْلِمِينَ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ.

هَذَا كُلُّهُ بسَبَبِ التَّغَاضِي عَنْ أَهْلِ الشَّرِّ وَتَرْكِهِمْ حَتَّى يَسْتَفْحِلَ الأَمْرُ،

فَلَا بُدَّ مِنَ الحَزْمِ، وَسَدِّ البَابِ فِي هَذَا الأَمْرِ، وَلايَعْصِمُ مِنَ البدَعِ بَعْدَ اللهِ - جَلَّ وَعَلا - إِلاَّ العِلْمُ النَّافِعُ، أَمَّا الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ فَهَذَا يَنْجَرِفُ مَعَ البدَعِ، ويَظُنُّها طَيِّبَةً، لأَنَّه لا يَدْرِي عَنِ البدَعِ، فَلا يُنْجِي مِنَ البدَعِ إِلاَّ مَا أَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ: «**فَعَلَيْكُمْ بسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ**»[1] هَذَا هُوَ الَّذِي يَعْصِمُ مِنَ البدَعِ، وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى تَعَلُّمٍ وَتَفَقُّهٍ فِي دِينِ اللهِ، وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ السَّلَفُ أَفْقَهَ الأُمَّةِ؛ كَانُوا أَشَدَّ حَذَرًا مِنَ البدعِ، وَأَشَدَّ تَحْذِيرًا مِنَ البدَعِ، لِعِلْمِهِمْ بِمَا تَجُرُّهُ إِلَيْهِ.

الفِتَنُ إِذاَ اشْتَعَلَتْ فَإِنَّهَا تَأتِي عَلَى الأَخْضَرِ وَاليَابسِ، تَأْتِي عَلَى الكَبيرِ وَالصَّغيرِ، تَأْتِي عَلَى العُلَمَاءِ وَعَلَى غَيْرِهِمْ، تَأْتِي عَلَى جَميعِ النَّاسِ، وَلا يَسْتَطِيعُونَ الخَلاصَ مِنْهَا، وَلَو تَخَلَّصُوا مِنْهَا مَا تَخَلَّصَ مِنْهَا أَهْلُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ وَمَنْ حَوْلَهُمْ، فَهِي مِثْلُ النَّارِ إِذاَ اشْتَعَلتْ فِي الحَطبِ الهَشِيمِ، يَصْعُبُ إِطْفَاؤُهَا، لَكِنَّ القَضَاءَ عَلَيْهَا أَوَّلَ مَا تَحْدُثُ سَهْلٌ، أَمَّا القَضَاءُ عَلَيْهَا بَعْدَمَا تعْظُمُ وَتَتَغَلَّظُ فَإِنَّهُ صَعْبٌ، فَيَجِبُ الحَزْمُ مَعَهَا، وَعَدَمُ التَّسَاهُلِ فِيْهَا.

وَلَمَّا كَانَ السَّلَفُ فِي القُرُونِ المُفَضَّلَةِ مُحَاصِرينَ لِلْبدَعِ وَلا يَسْمَحُونَ بشَيْءٍ مِنْهَا؛ كَانَتِ القُرُونُ المُفَضَّلَةُ أَنْقَى عُصُورِ الأُمَّةِ، ولِهَذَا أَثْنَى عَلَيْهَا رَسُولُ الله ﷺ بقَوْلِهِ: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ**»[2] لأَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَتَسَاهَلُونَ مَعَ البدَعِ، كَانُوا يُحَاصِرونَهَا، وَكَانَ أَهْلُهَا يَخْتَفُونَ مِنْ قُوَّةِ أَهْلِ الحَقِّ، فلَمَّا انْقَضَتِ القُرُونُ المُفَضَّلَةُ نَشِطَتِ البدَعُ وَأَهْلُها وَالشُّرُورُ، وَاشْتَعَلَتِ الفِتَنُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، لَكِنَّ اللهَ - جَلَّ وَعلا - تَكَفَّلَ بِحِفْظِ هَذاَ الدِّيْنِ، فَالدِّيْن مَحْفُوظٌ ولله الحَمْدُ، لَكِنَّ الهَلاكَ يكُونُ عَلَى أَهْلِ الدِّيْنِ، هُمُ الَّذِيْنَ يَهْلَكُونَ، وَأَمَّا الدِّيْنُ فَإِنَّهُ مَحْفُوظٌ بِحِفْظِ اللهِ ﷻ، وَيُقَيِّضُ اللهُ لَهُ مِنْ يَنْصُرهُ وَيَقُومُ بِهِ، قَالَ تَعالَى:

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

(٢) صحيح: سبق تخريجه.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨]، وقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤] فَاللهُ لا يُضَيِّعُ دينَه، لَكِنْ نَحْنُ الَّذِيْنَ نَضِيعُ إذا ضَيَّعْنَا دِينَنَا، وَتَمَالأْنَا مَعَ الْمُبْتَدِعَةِ، وَأَصْحَابِ الإِحْدَاثَاتِ، وَتَسَاهَلْنَا مَعَهُم فَإِنَّنَا نَحْنُ الَّذِيْنَ نَضِيعُ، وَرُبَّمَا تَنْشَبُ الفِتَنَةُ وَالقِتَالُ وَتُسْفَكُ الدِّمَاءُ بِسَبَبِهَا، وَلا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَخَلَّص مِنْهَا.

قَوْلُهُ: (**فَعَظُمَتْ وَصَارتْ دِيْنًا يُدَانُ بِهَا**) أيْ: أَنَّ البدَعِ إِذَا تُركتْ تَصِيرُ هِي الدِّيْنَ فِيمَا بَعْدُ، وَقَدْ سَبَقَ قَوْلُهُ: «مَا أَحْدَثَ النَّاسُ بدْعَةً إِلاَّ رُفِعَ مِثْلُهَا مِنَ السُّنَّةِ» حَتَّى تَصِيرَ البدَعُ هِيَ الدِّيْنَ، وَتُرْفَعُ السُّنَنُ وَتَصِيْرُ البِدَعُ هِيَ الدِّيْنَ عِنْدَ هَذَا الْمُجْتَمَعِ، وَلَيْسَ مَعَنْى ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ الأُمَّةِ كَذَلِكَ، لَكِنَّ الْمُجْتَمَعَ الَّذِي يَسْمَحُ لِلبدَعِ أَنْ تَنْتَشِرَ فِيهِ تَصِيْرُ هِي الدِّيْنَ فِيهِ، لَكِنْ لَيْسَ مَعْنَى هَذَا أَنَّ الدِّيْنَ انْقَضَى، بَلْ يَقُومُ أُنَاسٌ آخَرُونَ فِي بقعةٍ ثانيةٍ، أَوْ فِي بلدٍ آخر، يقيض الله لهذا الدِّينِ مَنْ يَنْصُرُهُ وَيَحْمِيهِ وَيُحَافِظُ عَلَيْهِ.

وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ أَنَّهُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ تُتَّخَذُ السُّنَنُ بدَعًا وَالبدَعُ سُنَنًا، حَتَّى إِذَا غُيِّرَتْ يُقَالُ: غُيِّرَ الدِّيْنُ، وَإِذَا أَنْكَرْتَهَا قَالُوا لَكَ: تُنْكِرُ الدِّيْنَ!

قَوْلُهُ: (**فَخَالَفَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ فَخَرَجَ مِنَ الإِسْلاَمِ**) يَعْنِي أَنَّ صَاحِبَ البدْعَةِ يَتَجَارَى بِهِ الأَمْرُ حَتَّى يَكُونَ دِيْنُه كُلُّهُ بدَعًا وَيَخْرُجَ مِنَ الإِسْلامِ إِذَا لَمْ يَبْقَ فِي دِينه شَيْء مِنَ السُّنَنِ.

[٨] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: فَانْظُرْ - رَحِمَكَ اللهُ - كُلَّ مَنْ سَمِعْتَ كَلَامَهُ مِنْ أَهْلِ زَمَانِكَ خَاصَّةً فَلَا تَعْجَلَنَّ، وَلَا تَدْخُلَنَّ فِي شَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى تَسْأَلَ وَتَنْظُرَ: هَلْ تَكَلَّمَ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَرَضِيَ اللهُ عَنْهُم أَوْ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ؟ فَإِنْ أَصَبْتَ فِيهِ أَثَرًا عَنْهُمْ فَتَمَسَّكْ بِهِ، وَلَا تُجَاوِزْهُ لِشَيْءٍ، وَلَا تَخْتَرْ عَلَيْهِ شَيْئًا فَتَسْقُطَ فِي النَّارِ.

الشَّرْح

لا تَسْتَعْجِلْ فِيمَا تَسْمَعُ مِنَ النَّاسِ خُصُوصًا عِنْدَ تَأَخُّرِ الزَّمَانِ، وَكَثْرَةِ مَنْ يَتكَلَّمُ وَيُفْتِي وَيَنْتَصِبُ لِلْعِلْمِ وَالقَوْلِ، وَخُصُوصًا لَمَّا جَدَّتْ وَسَائِلُ الإِعْلَامِ، وَصَارَ كُلٌّ يَهْذُو وَيَتكَلَّمُ بِاسْمِ العِلْمِ وَبِاسْمِ الدِّيْنِ، حَتَّى أَهْلُ الضَّلالِ وَالفِرَقِ الضَّالَّةِ وَالْمُنْحَرِفَةِ صَارُوا يَتكَلَّمُونَ بِاسْمِ الدِّيْنِ الآنَ فِي الفَضَائِيَّاتِ، فَالخَطَرُ عَظِيمٌ جِدًّا، فَعَلَيْكَ أَيُّهَا المُسْلِمُ وَطَالِبُ العِلْمِ بِالذَّاتِ أَنْ تَتَثَبَّتَ وَلا تَسْتَعْجِلْ مَعَ كُلِّ مَا تَسْمَعُ، عَلَيْكَ بِالتَّثَبُّتِ، وَمَعْرِفَةِ مَنِ الَّذِي قَالَ هَذَا؟ وَمِنْ أَيْنَ جَاءَ هَذَا الفِكْرُ؟ ثُمَّ مَا مُسْتَنَدَاتُهُ، وَأَدِلَّتُهُ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؟ ثُمَّ أَيْنَ تَعَلَّمَ صَاحِبُهُ؟ وَعَمَّنْ أَخَذَ العِلْمَ؟ فَهَذِهِ أُمُورٌ تَحْتَاجُ إِلَى تَثَبُّتٍ خُصُوصًا فِي هَذَا الزَّمَانِ، فَمَا كُلُّ قَائِلٍ حَتَّى وَلَو كَانَ فَصِيحًا وَبَلِيغًا وَيُشَقِّقُ الكَلامَ وَيَأْخُذُ بِالأَسْمَاعِ. لاتَغْتَرَّ بِهِ حَتَّى تَرَى مَدَى مَا عِنْدَهُ مِنَ العِلْمِ وَالفِقْهِ، فَرُبَّمَا يَكُونُ كَلامُهُ قَلِيلًا لَكِنَّهُ فَقِيهٌ، وَرُبَّمَا يَكُونُ كَلامُهُ كَثِيرًا لَكِنَّهُ جَاهِلٌ لَيْسَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ الفِقْهِ، بَلْ عِنْدَهُ سِحْرُ الكَلامِ حَتَّى يَغُرَّ النَّاسَ، وَيَتَظَاهَرُ بِأَنَّهُ عَالِمٌ، وَبِأَنَّهُ فَاهِمٌ، وَبِأَنَّهُ مُفَكِّرٌ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، حَتَّى يَغُرَّ النَّاسَ، وَيُخْرِجَ بِهِمْ عَنِ الحَقِّ، فَلَيْسَ العِبْرَةُ بِكَثْرَةِ الكَلامِ وَشَقْشَقَتِهِ، بَلِ العِبْرَةُ بِمَا فِيهِ مِنَ العِلْمِ، وَمَا فِيهِ مِنَ التَّأْصِيلِ، وَرُبَّ كَلامٍ قَلِيلٍ مُؤَصَّلٍ يَكُونُ أَنْفَعَ بِكَثِيرٍ مِنْ كَلامٍ مُشَقْشَقٍ لا تُمْسِكُ مِنْهُ فَائِدَةٌ إِلَّا القَلِيلَ، وَهَذَا

هُوَ الوَاقِعُ فِي زَمَانِنَا يَكْثُرُ الكَلامُ وَيَقِلُّ العِلْمُ، يَكْثُرُ القُرَّاءُ وَيَقِلُّ الفُقَهَاءُ، وَالفِقْهُ لَيْسَ بِكَثْرَةِ الكَلامِ أَوْ كَثْرَةِ القِرَاءَةِ أَوْ جَوْدَةِ الكَلامِ، أَوْ حُسْنِ التَّعْبِيرِ، يَقُولُ الشَّاعِرُ:

فِي زُخْرفِ القَوْلِ تَزْيِينٌ لِبَاطِلِهِ ... وَالحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ

تَقُولُ هَذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ ... وَإِنْ تَشَأْ قُلْتَ ذَا قَيْءُ الزَّنَابِيرِ

إِنْ شِئْتَ أَنْ تَمْدَحَ العَسَلَ تَقُولُ: هَذَا «مُجَاجُ النَّحْلِ»، وَإِنْ ذَمَمْتَهُ قُلْتَ: هَذَا «قَيْءٌ»، بَدْلُ، وَبَدَلُ «النَّحْل» تَقُول: «الزَّنَابِير»، فَالبَلِيغُ يَقْلِبُ الحَقَّ بَاطِلًا، وَالبَاطِلَ حَقًّا بِبَلاغَتِهِ، فَاحْذَرْ مِنْ هَذَا، وَلِهَذَا حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ فَصِيحِ اللِّسَانِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ البَقَرَةُ بِلِسَانِهَا، حَذَّرَ مِنْ هَذَا، وَقَالَ: «**إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا**»[1] يَعْنِي يَسْحَرُ الأَسْمَاعَ.

فَقَوْلُهُ: (**فَانْظُرْ - رَحِمَكَ الله - كُلَّ مَنْ سَمِعْتَ كَلَامَهُ مِنْ أَهْلِ زَمَانِكَ خَاصَّةً فَلَا تَعْجَلَنَّ، وَلَا تَدْخُلَنَّ فِي شَيْءٍ مِنْهُ**) هَذَا فِي وَقْتِ المُؤَلِّفِ، وَالمُؤَلِّفُ يَكَادُ يَكُونُ مُعَاصِرًا لِلإِمَامِ أَحْمَدَ، لأَنَّهُ مِنْ تَلامِيذِ تَلامِيذِهِ، يَقُولُ: لاتَعْجَلْ فِي قَبُولِ كَلامِ أَهْلِ زَمَانِكَ حَتَّى تَتَثَبَّتَ مِنْهُ، أَيْنَ هُوَ مِنْ عَصْرِنَا الآنَ! عَصْرِ الأَهْوَاءِ وَعَصْرِ الجَهْلِ، وَعَصْرِ اخْتِلاطِ العَالَمِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، حَتَّى أَصْبَحَ يَمُوجُ بِالفِتَنِ وَالشُّرُورِ وَالأَفْكَارِ، وَالعَدُوُّ الآنَ يُرِيدُ قَلْبَ الدِّيْنِ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ، يُرِيدُنَا أَنْ نَكُونَ تَبَعًا لَهُ، وَيَفْرِضُ عَلَيْنَا أَفْكَارَهُ، وَيَفْرِضُ عَلَيْنَا سِيَاسَتَهُ، فَعَلَيْنَا أَنْ نَتَثَبَّتَ فِي هَذَا الأَمْرِ، وَنَتَوَقَّفَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الأُمُورِ، وَأَنْ نُقْبِلَ عَلَى تَفَهُّمِ كَلامِ الله وَكَلامِ رَسُولِهِ، وَنَتَفَقَّهَ فِي دِينِ الله ﷻ.

فَالفِقْهُ فِيهِ عِصْمَةٌ مِنَ الفِتَنِ، وَالفِقْهُ هُوَ الفَهْمُ، قَدْ يَكُونُ الإِنْسَانُ كَثِيرَ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥١) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

الحِفْظِ لَكِنْ لَيْسَ عِنْدَهُ فَهْمٌ، فَيَكُونُ هُوَ وَالعَامِّيُّ سَوَاءً، بَلْ رُبَّمَا يَكُونُ العَامِّيُّ أَحْسَنَ مِنْهُ لأَنَّهُ يَتَوَقَّفُ، وَيَعْرِفُ جَهْلَهُ، وَهَذَا لايَعْرِفُ أَنَّهُ جَاهِلٌ، لَيْسَتِ المَسْأَلَةُ كَثْرَةَ حِفْظٍ أَوْ كَثْرَةَ كَلامٍ، المَسْأَلَةُ مَسْأَلَةُ فِقْهٍ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «**رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**»[1] فَقَدْ يَحْفَظُ الإِنْسَانُ وَيَنْقُلُ وَيَرْوِي، لَكِنْ يَكُونُ هُنَاكَ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، «**رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ وَهُوَ غَيْرُ فَقِيهٍ**» هُوَ حَامِلٌ وَنَاقِلٌ لَكِنَّهُ لَيْسَ بِفَقِيهٍ. فَالفِقْهُ هِبَةٌ مِنَ اللهِ يُعْطِيهَا اللهُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، لَكِنْ إِذَا اسْتَغَلَّهَا وَنَمَّاهَا انْتَفَعَ بِهَا، وَإِنْ أَهْمَلَهَا ضَاعَتْ.

قَوْلُهُ: (**فَلَا تَعْجَلَنَّ، وَلَا تَدْخُلَنَّ فِي شَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى تَسْأَلَ وَتَنْظُرَ: هَلْ تَكَلَّمَ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَ رضي الله عنهم**) هَذِهِ وَصِيَّةٌ عَظِيمَةٌ، إِذَا أَعْجَبَكَ كَلامٌ مِنْ أَحَدٍ فِي الدِّيْنِ، أَمَّا الكَلَامُ الَّذِي فِي أُمُورِ الدُّنْيَا فَلَيْسَ مَوْضُوعَ البَحْثِ، لَكِنْ إِذَا أَعْجَبَكَ كَلامٌ فِي الدِّيْنِ فَلا تَعْجَلْ حَتَّى تَنْظُرَ فِيهِ، هَلْ هُوَ مُؤَسَّسٌ عَلَى حَقٍّ وَأَدِلَّةٍ، أَمْ هُوَ مِنَ الرَّأْسِ وَمِنَ الفِكْرِ، فَهَذَا غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ اتْرُكْهُ، أَمَّا إِنْ كَانَ مُؤَسَّسًا وَمُؤَصَّلًا عَلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهَذَا حَقٌّ، فَلا تَعْجَلْ فِي أَخْذِ الكَلامِ عَلَى عَوَاهِنِهِ، حَتَّى وَلَو أَعْجَبَتْكَ فَصَاحَتُهُ وَبَلاغَتُهُ وَقُوَّتُهُ وَجَزَالَتُهُ، لاتَعْجَلْ فِيهِ حَتَّى تَنْظُرَ، وَتَعْرِضَهُ عَلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتَنْظُرَ مَنْ قَالَهُ هَلْ هُوَ فَقِيهٌ أَمْ لَيْسَ بِفَقِيهٍ؟ حَتَّى تَسْأَلَ أَهْلَ العِلْمِ عَنْهُ، وَتَنْظُرَ هَلْ قَالَهُ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ أَوْ لَمْ يَقُولُوهُ. وَهَذَا مَا حَذَّرْتُ مِنْهُ مَرَّاتٍ، أَقُولُ: لاتُحْدِثُوا اجْتِهَادَاتٍ وَآرَاءً وَأَقْوَالًا وَعِبَارَاتٍ لَمْ تُسْبَقُوا إِلَيْهَا، خُذُوا القُدْوَةَ مِنَ السَّلَفِ وَمِنْ كَلامِ السَّلَفِ، لَوْ أَتَيْتَ بِشَيْءٍ لَمْ تُسْبَقْ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ يَكُونُ شُذُوذًا، وَخَطَرُهُ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِ.

فَكَلامُ الصَّحَابَةِ هُوَ المِيزَانُ، لأَنَّهُمْ تَلامِيذُ الرَّسُولِ ﷺ، يُنْظَرُ قَوْلُهُم فِي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٦٥٤)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

الآيَةِ، بِمَاذَا فَسَّرُوهَا، وَفِي الحَدِيثِ، بِمَاذَا شَرَحُوهُ، تَأْخُذُ مِنْ كَلامِهِمْ وَتَفْسِيرِهِمْ لأَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الحَقِّ مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ لأَنَّهُمْ تَلامِيذُ الرَّسُولِ ﷺ وَسَمِعُوا التَّأْوِيلَ وَالتَّفْسِيرَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَتَلَقَّوْهُ مِنْهُ، فَهُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَى الحَقِّ. وَلا عِبْرَةَ بِقَوْلِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الصَّحَابَةَ لا عِبْرَةَ بِهِمْ، هُمْ رِجَالٌ وَلَهُمْ أَفْكَارُهُمْ، وَنَحْنُ رِجَالٌ وَلَنَا أَفْكَارُنَا، وَالزَّمَانُ تَغَيَّرَ!

فَالدِّيْنُ بَاقٍ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَلايَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الزَّمَانِ، وَهُوَ شَامِلٌ لِلزَّمَانِ وَالمَكَانِ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَتَغَيَّرُ: الاجْتِهَادَاتُ البَشَرِيَّةُ الَّتِي تُخْطِئُ وَتُصِيبُ، أَمَّا الدِّيْنُ نَفْسُهُ فَلا يَتَغَيَّرُ، لأَنَّهُ صَالِحٌ لِكُلِّ زَمَانٍ وَلِكُلِّ مَكَانٍ لأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ. وَلِهَذَا يُوصُوْنَ وَيَقُولُونَ: عَلَيْكُمْ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِفَهْمِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، لاتُحْدِثْ فَهْمًا مِنْ عِنْدِكَ أَوْ مِنْ عِنْدِ المُتَأَخِّرِيْنَ.

قَوْلُهُ: (**أَوْ أَحَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ**) أَيْ قَالَهُ أَحَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ المُعْتَبَرِينَ، مِنَ الأَئِمَّةِ الَّذِيْنَ يَسِيرُونَ عَلَى مَنْهَجِ صَحَابَةِ الرَّسُولِ ﷺ لأَنَّهُمْ هُمُ الرُّوَاةُ عَنِ الصَّحَابَةِ، وَالصَّحَابَةُ هُمُ الرُّوَاةُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ.

قَوْلُهُ: (**فَإِنْ أَصَبْتَ فِيهِ أَثَرًا عَنْهُمْ فَتَمَسَّكْ بِهِ**) إِذَا وَجَدْتَهُ مُوَافِقًا لِقَوْلِهِمْ فَتَمَسَّكْ بِهِ.

قَوْلُهُ: (**وَلَا تُجَاوِزْهُ لِشَيْءٍ**) وَلا تُجَاوِزْ قَوْلَ السَّلَفِ لِرَأْيِ فُلانٍ وَفُلانٍ مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ.

قَوْلُهُ: (**وَلَا تَخْتَرْ عَلَيْهِ شَيْئًا فَتَسْقُطَ فِي النَّارِ**) وَلا تَخْتَرْ عَلَى مَا جَاءَ عَنِ السَّلَفِ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ المُتَأَخِّرُونَ فَتَسْقُطَ فِي النَّارِ، لأَنَّكَ خَالَفْتَ طَرِيقَ الجَنَّةِ، وَطَرِيقُ الجَنَّةِ هُوَ مَا عَلَيْهِ ﴿**ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء:٦٩] هَذَا هُوَ طَرِيقُ الجَنَّةِ، وَمَا خَالَفَهُ

فَهُوَ طَرِيقُ النَّارِ، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، سَبِيلُ اللهِ وَاحِدٌ، أَمَّا غَيْرُهُ فَهِيَ سُبُلٌ كَثِيْرَةٌ، كُلُّ شَيْطَانٍ لَهُ سَبِيلٌ وَلَهُ طَرِيْقٌ مِنْ شَيَاطِيْنِ الإِنْسِ وَالجِنِّ، فَهِيَ طُرُقٌ كَثِيْرَةٌ تُوقِعُ مَنْ يَسْلُكُهَا فِي حَيْرَةٍ، لَكِنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَاحِدٌ لَيْسَ فِيهِ اخْتِلافٌ، وَلا تَضِيعُ إِذَاسَلَكْتَهُ أَبَدًا.

[٩] قَالَ المُؤَلِّفُ ﷺ: وَاعْلَمْ أَنَّ الخُرُوجَ عَنِ الطَّرِيقِ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَجُلٌ قَدْ زَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ، وَهُوَ لَا يُرِيدُ إِلَّا الخَيْرَ؛ فَلَا يُقْتَدَى بِزَلَّتِهِ فَإِنَّهُ هَالِكٌ، وَرَجُلٌ عَانَدَ الحَقَّ وَخَالَفَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ المُتَّقِينَ؛ فَهُوَ ضَالٌّ مُضِلٌّ، شَيْطَانٌ مَرِيدٌ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ، حَقِيقٌ عَلَى مَنْ عَرَفَهُ أَنْ يُحَذِّرَ النَّاسَ مِنْهُ، وَيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ قِصَّتَهُ، لِئَلَّا يَقَعَ فِي بِدْعَتِهِ أَحَدٌ فَيَهْلِكَ.

الشَّرْحُ

لَمَّا وَصَفَ الشَّيْخُ ﷺ فِي الكَلامِ السَّابِقِ الطَّرِيقَ الصَّحِيحَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَسِيرَ عَلَيْهِ المُسْلِمُ فِي عَقِيدَتِهِ وَدِينِهِ: ذَكَرَ أَنَّ مَنْ يَخْرُجُ عَنْ هَذَا الطَّرِيقِ فَهُوَ أَحد رَجُلَيْنِ:

▪ **الرَّجُلُ الأَوَّلُ**: مَنْ خَرَجَ غَيْرَ مُتَعَمِّدٍ، بَلْ يُرِيدُ الخَيْرَ لَكِنَّهُ سَلَكَ طَرِيْقَ غَيْرِ الخَيْرِ، وَالاجْتِهَادُ لا يَكْفِي، وَإِنْ كَانَتْ نِيَّةُ صَاحِبِهِ صَالِحَةً، وَمَقْصِدُهُ حَسَنًا، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، فَهَذَا يُعْتَبَرُ مُخْطِئًا، وَمَنْ وَافَقَهُ عَلَى ذَلِكَ وَسَارَ مَعَهُ عَلَى الخَطَإِ وَهُوَ يَعْلَمُ خَطَأَهُ فَهُوَ هَالِكٌ، لأَنَّ هَذَا طَرِيْقُ هَلاكٍ حَتَّى وَلَو لَمْ يَتَعَمَّدْ صَاحِبُهُ الخُرُوجَ وَإِنَّمَا هُوَ يَلْتَمِسُ الخَيْرَ.

وَهَذَا هُوَ حَالُ الكَثِيْرِ مِنَ الَّذِيْنَ يَبْتَكِرُونَ ابْتِكَارَاتٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ فِي عِلْمِ العَقِيدَةِ، فَهَذَا أَمْرٌ لايَجُوزُ، وَلايُتَابَعُونَ عَلَيْهِ، وَصَاحِبُهُ لَيْسَ عَلَى صَوَابٍ، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فَأَيُّ سَبِيلٍ يُخْرِجُنَا عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ فَنَحْنُ نَرْفُضُهُ وَلَو كَانَ صَاحِبُهُ يَقْصِدُ الخَيْرَ وَنِيَّتُهُ طَيِّبَةٌ، فَنَحْنُ لا نُتَابِعُهُ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ إِنِ اسْتَمَرَّ عَلَى خَطَئِهِ فَسَيَئُولُ إِلَى الهَلاكِ، لأَنَّ مَنْ تَرَكَ الطَّرِيقَ

الصَّحِيحَ فِي سَفَرِهِ وَأَخَذَ طَرِيْقَ مَضْيَعَةٍ هَلَكَ.

▪ **أَمَّا الرَّجُلُ الآخَرُ**: فَهُوَ المُتَعَمِّدُ لِلْخُرُوجِ، فَهُوَ يَعْرِفُ الحَقَّ، وَيَعْرِفُ أَنَّ مَا خَرَجَ إِلَيْهِ بَاطِلٌ لَكِنْ يَتَعَمَّدُ الخُرُوجَ عَنِ الحَقِّ، بِقَصْدِ إِضْلَالِ النَّاسِ.

الأَوَّلُ قَصْدُهُ إِصْلاحُ النَّاسِ لَكِنَّهُ لَمْ يَسْلُك الطَّرِيقَ الصَّحِيحَ، وَالثَّانِي قَصَدَ إِضْلالَ النَّاسِ، وَصَرْفَهُمْ عَنِ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، فَهَذَا شَيْطَانٌ، لأَنَّ الشَّيَاطِيْنَ يُخْرِجُونَ النَّاسَ عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، يَقُول إِبْلِيسُ لِرَبِّهِ ﷻ: ﴿**لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الأعراف:١٦] يُرِيدُ أَنْ يَصْرِفَهُمْ عَنْهُ إِلَى الطُّرُقِ المُنْحَرِفَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ ضَرَبَ لِهَذَا مَثَلًا حِيْنَمَا خَطَّ خَطًّا مُسْتَقِيمًا، وَخَطَّ حَوْلَهُ خُطُوطًا أُخْرَى، فَقَالَ لِلْخَطِّ المُسْتَقِيم: «**هَذَا صِرَاطُ الله**» وَقَالَ لِلخُطُوطِ الأُخْرَى: «**وَهَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهَا**»[1] هَذَا مِثَالٌ وَاضِحٌ، وَيُطَابِقُهُ مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ هُنَا، فَإِنَّ الَّذِي يَخْرُجُ بِالنَّاسِ عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ إِلَى السُّبُلِ المُحْدَثَةِ المُبْتَدَعَةِ، لا يُرِيدُ لَهُمُ الخَيْرَ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ لَهُمُ الهَلاكَ وَهُوَ شَيْطَانٌ، سَوَاءٌ كَانَ مِنْ شَيَاطِيْنِ الجِنِّ أَوْ مِنْ شَيَاطِيْنِ الإِنْسِ، عَلَيْنَا أَنْ نَحْذَرَ مِنْ هَذَا أَشَدَّ مِنَ الحَذَرِ مِنَ الأَوَّلِ، لأَنَّ هَذَا مُتَعَمِّدٌ لإِضْلالِ النَّاسِ.

قَوْلُهُ: (**فَهُوَ ضَالٌّ مُضِلٌّ، شَيْطَانٌ مَرِيدٌ**) أَيْ: هُوَ ضَالٌّ فِي نَفْسِهِ، وَمُضِلٌّ لِغَيْرِهِ، وَهُوَ شَيْطَانٌ مَرِيدٌ، مُتَمَرِّد، يُرِيدُ صَرْفَ النَّاسِ عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ.

قَوْلُهُ: (**حَقِيقٌ عَلَى مَنْ عَرَفَهُ أَنْ يُحَذِّرَ النَّاسَ مِنْهُ، وَيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ قِصَّتَهُ، لِئَلَّا يَقَعَ فِي بِدْعَتِهِ أَحَدٌ فَيَهْلِكَ**) أَيْ: هَذَا الَّذِي خَرَجَ عَنِ الحَقِّ مُتَعَمِّدًا لا يَجُوزُ السُّكُوتُ عَنْهُ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يُكْشَفَ أَمْرُهُ، وَيُفْضَحَ خِزْيُهُ حَتَّى يَحْذَرَهُ النَّاسُ،

---

(١) حسن: أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦/ ٣٤٣)، وأحمد (١/ ٤٣٥)، والدارمي (٢٠٢)، وابن حبان (٦، ٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وحسنه الشيخ الألباني في «المشكاة» (١٦٦).

وَلا يُقَالُ: النَّاسُ أَحْرَارٌ فِي الرَّأْيِ، حُرِّيَّةُ الكَلِمَةِ، احتِرَامُ الرَّأْيِ الآخَرِ! كَمَا يُدَنْدِنُونَ بِهِ الآنَ، مِنِ احْتِرَامِ الرَّأْيِ الآخَرِ، فَالمَسْأَلَةُ لَيْسَتْ مَسْأَلَةَ آرَاءٍ، المَسْأَلَةُ مَسْأَلَةُ اتِّبَاعٍ، نَحْنُ قَدْ رَسَمَ اللهُ لَنَا طَرِيْقًا وَاضِحًا، وَقَالَ لَنَا سِيْرُوا عَلَيْهِ حِينَمَا قَالَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣] فَأَيُّ شَخْصٍ يَأْتِيْنَا وَيُرِيدُ مِنَّا أَنْ نَخْرُجَ عَنْ هَذَا الصِّرَاطِ فَإِنَّنَا: أَوَّلًا: نَرْفُضُ قَوْلَهُ، وَثَانِيًا: نُبَيِّنُ وَنُحَذِّرُ النَّاسَ مِنْهُ، وَلا يَسَعُنَا السُّكُوتُ عَنْهُ، لأَنَّنَا إِذَاسَكَتْنَا عَنْهُ اغْتَرَّ بِهِ النَّاسُ؛ لاسِيَّمَا إِذَا كَانَ صَاحِبَ فَصَاحَةٍ وَلِسَانٍ وَقَلَمٍ وَثَقَافَةٍ، فَإِنَّ النَّاسَ يَغْتَرُّونَ بِهِ، وَيَقُولُونَ هَذَا مُؤَهَّلٌ، هَذَا مِنَ الْمُفَكِّرِينَ، كَمَا هُوَ الحَاصِلُ الآنَ، فَالمَسْأَلَةُ خَطِيْرَةٌ جِدًّا.

وَهَذَا فِيهِ وُجُوبُ الرَّدِّ عَلَى الْمُخَالِفِ، عَكْس مَا يَقُوْلُهُ أُولَئِكَ يَقُولُونَ: اتْرُكُوا الرُّدُودَ، وَدعوا النَّاسَ كُلٌّ لَهُ رَأْيُهُ وَاحْتِرَامُهُ، وَحُرِّيَّةُ الرَّأْيِ وَحُرِّيَّةُ الكَلِمَةِ. بِهَذَا تَهْلِكُ الأُمَّةُ، السَّلَفُ مَا سَكَتُوا عَنْ أَمْثَالِ هَؤُلاءِ، بَلْ فَضَحُوهُمْ وَرَدُّوا عَلَيْهِم، لِعِلْمِهِمْ بِخَطَرِهِمْ عَلَى الأُمَّةِ، ونَحْنُ لايَسَعُنَا أَنَّ نَسْكُتَ عَنْ شَرِّهِمْ، بَل لَا بُدَّ مِنْ بَيَانِ مَا أَنْزَلَ اللهُ، وَإِلاَّ فَإِنَّنَا نَكُونُ كَاتِمِيْنَ، مِنَ الَّذِيْنَ قَالَ اللهُ فِيْهِم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُولَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]، فَلا يَقْتَصِرُ الأَمْرُ عَلَى الْمُبْتَدِعِ، بَلْ يَتَنَاوَلُ الأَمْرُ مَنْ سَكَتَ عَنْهُ، فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُهُ الذَّمُّ وَالعِقَابُ، لأَنَّ الوَاجِبَ البَيَانُ وَالتَّوْضِيحُ لِلنَّاسِ، وَهَذِهِ وَظِيْفَةُ الرُّدُودِ العِلْمِيَّةِ الْمُتَوَفِّرَةِ الآنَ فِي مَكْتَبَاتِ الْمُسْلِمِينَ كُلِّهَا تَذُبُّ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَتُحَذِّرُ مِنْ هَؤُلاءِ، فَلا يُرَوِّجُ هَذِهِ الفِكْرَةَ - فِكْرَةَ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ وَحُرِّيَّةِ الكَلِمَةِ وَاحْتِرَامِ الآخَرِ: - إِلاَّ مُضَلِّلٌ كَاتِمٌ للحَقِّ.

نَحْنُ قَصَدْنَا الحَقَّ، مَا قَصَدْنَا أَنْ نُجَرِّحَ النَّاسَ أَوْ نَتَكَلَّمَ فِي النَّاسِ، القَصْدُ هُوَ بَيَانِ الحَقِّ، وَهَذِهِ أَمَانَةٌ حَمَّلَهَا اللهُ العُلَمَاءَ، فَلا يَجُوزُ السُّكُوتُ عَنْ أَمْثَالِ

هَؤُلاءِ، لَكِنْ مَعَ الأَسَفِ لَوْ يَأْتِي عَالِمٌ يَرُدُّ عَلَى أَمْثَالِ هَؤُلاءِ قَالُوا: هَذَا مُتَسَرِّعٌ... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الوَسَاوِسِ، فَهَذَا لا يُخَذِّلُ أَهْلَ العِلْمِ أَنْ يُبَيِّنُوا لِلنَّاسِ شَرَّ دُعَاةِ الضَّلالِ، لا يُخَذِّلُهُمْ.

[١٠] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّهُ لايَتِمُّ إِسْلامُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ مُتَّبِعًا مُصَدِّقًا مُسَلِّمًا، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ قَدْ بَقِيَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ الإِسْلامِ لَمْ يَكْفِنَاهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَدْ كَذَّبَهُمْ، وَكَفَى بِهَذَا فُرْقَةً وَطَعْنًا عَلَيْهِمْ، فَهُوَ مُبْتَدِعٌ ضَالٌّ مُضِلٌّ، مُحْدِثٌ فِي الإِسْلاَمِ مَا لَيْسَ مِنْهُ.

الشَّرْحُ

هَذَا تَتِمَّةٌ لِلكَلامِ السَّابِقِ، فَقَوْلُهُ: (لاَ يَتِمُّ إِسْلاَمُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ مُتَّبِعًا مُصَدِّقًا مُسَلِّمًا) مُتَّبِعًا لا مُبْتَدِعًا، مُصَدِّقًا لا شَاكًّا أَوْ مُتَرَدِّدًا، (مُسَلِّمًا) يَعْنِي مُسَلِّمًا لِلكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لأَنَّ هَذِهِ الأُمُورَ مَحَلُّ تَسْلِيمٍ، وَلَيْسَتْ مَحَلَّ جِدَالٍ، نُسَلِّمُ للهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَلا نُجَادِلُ فِي هَذَا الأَمْرِ، أَوْ نُدْلِي بِرَأْيِنَا - كَمَا يَقُولُونَ - مَعَ كَلامِ اللهِ وَكَلامِ رَسُولِهِ.

قَوْلُهُ: (فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ قَدْ بَقِيَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ الإِسْلاَمِ لَمْ يَكْفِنَاهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَدْ كَذَّبَهُمْ) أَيْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ الصَّحَابَةَ قَصَّرُوا فِي بَيَانِ الحَقِّ وَتَوْضِيحِهِ، وَحَمْلِهِ لِلنَّاسِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، وَيَزْعُمُ أَنَّ لَهُ مَجَالًا أَنْ يَتَكَلَّمَ أَوْ يُضِيفَ شَيْئًا؛ فَهَذَا يُرِيدُ الشَّرَّ بِالنَّاسِ، لأَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم مَا تَرَكُوا مِمَّا سَمِعُوا مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ رَأَوْهُ شَيْئًا إِلاَّ بَلَّغُوهُ لِلأُمَّةِ بِأَمَانَةٍ، وَبَيَّنُوهُ لِلأُمَّةِ، وَلِذَلِكَ يُقَدَّمُ تَفْسِيرُ الصَّحَابَةِ عَلَى تَفْسِيرِ غَيْرِهِمْ؛ لأَنَّهُم تَلامِيذُ الرَّسُولِ ﷺ، وَسَمِعُوا مِنْهُ ﷺ القُرْآنَ، وَسَمِعُوا مِنْهُ الأَحَادِيثَ، وَسَمِعُوا مِنْهُ بَيَانَ القُرْآنِ، وَرَأَوْا عَمَلَهُ ﷺ، فَنَقَلُوا ذَلِكَ بِأَمَانَةٍ، فَهُمْ لَمْ يَتْرُكُوا شَيْئًا.

فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُم قَصَّرُوا وَتَرَكُوا شَيْئًا لَمْ يُبَلِّغُوهُ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ مُفْتَرٍ، ضَالٌّ مُضِلٌّ، يُشَكِّكُ النَّاسَ فِي دِينِ اللهِ، وَفِي حَمَلَتِهِ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ

يُخَوِّنُ الصَّحَابَةَ، كَمَا هِيَ طَرِيقَةُ أَهْلِ البِدَعِ، يُخَوِّنُونَ الصَّحَابَةَ وَيَتَّهِمُونَهُمْ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يُسْقِطُوا الوَاسِطَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَيَجِبُ الحَذَرُ مِنْ هَؤُلاءِ، وَأَنْ نَعْلَمَ قَدْرَ الصَّحَابَةِ وَمَكَانَتَهُمْ رضي الله عنهم.

مِنْ أَيْنَ جَاءَنَا هَذَا القُرْآنُ، وَهَذِهِ الأَحَادِيثُ، وَهَذَا الفِقْهُ؟ إِلاَّ مِنْ حَمْلِهِمْ وَتَحَمُّلِهِمْ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، هُمُ الَّذِينَ حَمَلُوهُ لَنَا، وَرَوَوْهُ لَنَا كَامِلًا، كُلٌّ عَلَى قَدْرِ مَا وَهَبَهُ اللهُ، وَكُلٌّ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِ، مَا تَرَكُوا شَيْئًا مِنْ دِينِ اللهِ إِلاَّ بَلَّغُوهُ كَمَا تَحَمَّلُوهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُمْ مَوْضِعُ الثِّقَةِ، لأَنَّ اللهَ اخْتَارَهُمْ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ، وَالحَمْلِ عَنْهُ، وَالرِّوَايَةِ عَنْهُ، اخْتَارَهُمُ اللهُ لِذَلِكَ، فَيَأْتِي مَنْ يَتَّهِمُهُمْ بِالتَّقْصِيرِ! أَوْ يَتَّهِمُهُمْ بِالنَّقْصِ! لا يَقُولُ هَذَا إِلاَّ ضَالٌّ مُضِلٌّ، يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ صِلَةَ الأُمَّةِ بِصَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَبِالتَّالِي يَقْطَعُ صِلَتَهُمْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، نَحْنُ مَا حَضَرْنَا مَجَالِسَ الرَّسُولِ ﷺ وَلا سَمِعْنَاهَا، وَبَيْنَنَا وَبَينَهُ قُرُونٌ، فَالصَّحَابَةُ الأَكْرَمُونَ رضي الله عنهم هُمُ الَّذِينَ بَلَّغُونَا عَنِ الرَّسُولِ ﷺ فَمَقَامُ الصَّحَابَةِ فِي الدِّيْنِ مَقَامٌ عَظِيمٌ، وَلا يُتَّهَمُونَ أَنَّهُم أَخْفَوا شَيْئًا، أَوْ كَتَمُوا شَيْئًا وَلَمْ يُبَيِّنُوهُ.

قَوْلُهُ: (**فَهُوَ مُبْتَدِعٌ ضَالٌّ مُضِلٌّ، مُحْدِثٌ فِي الإِسْلاَمِ مَا لَيْسَ مِنْهُ**) هَذَا هُوَ قَصْدُهُ، أَنْ يُحْدِثَ فِي الإِسْلامِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَلا يَتَمَكَّنُ مِنْ ذَلِكَ إِلاَّ إِذَا طَعَنَ فِي الصَّحَابَةِ وَخَوَّنَهُمْ وَكَذَّبَهُمْ، حِينَئِذٍ هُوَ يَبْتَكِرُ مِنْ عِنْدِهِ أَشْيَاءَ، وَيَقُولُ: هَذَا هُوَ الدِّيْنُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ نَسِيرَ عَلَيْهِ، هَذَا هَدَفُهُمْ مِنْ تَكْذِيبِ الصَّحَابَةِ وَتَخْوِينِهِمْ وَتَنَقُّصِهِمْ أَنْ تَسْنَحَ لَهُمُ الفُرْصَةُ لِيَضَعُوا لِلنَّاسِ دِينًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، وَبِحَسَبِ عُقُولِهِمْ وَآرَائِهِمْ، وَأَنْ نَأْخُذَ عَنْ شُيُوخِ الضَّلالِ وَأَئِمَّةِ الضَّلالِ، الَّذِيْنَ بَدَّلُوا بِسُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ الكَذِبَ، وَزَيَّفُوا مَشَايِخَ وَأَسَانِيدَ مِنْ عِنْدِهِمْ لِمَصَادِرِ الإِسْلامِ، وَهَذَا شَيْءٌ وَاضِحٌ مَوْجُودٌ فِي تُرَاثِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ.

لكن - بِحَمْدِ الله - أَنَّهُ بَقِيَ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الضَّلالِ محَاصَرًا تكْشِفُهُ أَضْوَاءُ الحَقِّ وَأَنْوَارُ الوَحْيِ، تَكْشِفُ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ هَذَا الكَذِبِ الكَثِيْرِ المُدَوَّنِ فِي كُتُبِهِمْ.

[١١] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّهُ لَيْسَ فِي السُّنَّةِ قِيَاسٌ، وَلاَ تُضْرَبُ لَهَا الأَمْثَالُ، وَلا تُتَّبَعُ فِيهَا الأَهْوَاءُ، بَلْ هُوَ التَّصْدِيقُ بِآثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، بِلا كَيْفٍ وَلاَشَرْحٍ، وَلاَ يُقَالُ: لِمَ؟ وَلاَ كَيْفَ؟

الشَّرْحُ

السُّنَّةُ المُرَادُ بِهَا هُنَا: العَقِيدَةُ، لأَنَّ هَذاَ الكِتَابَ فِي مَوضُوعِ العَقِيدَةِ، وَالعَقِيدَةُ هِيَ السُّنَّةُ، وَهَذَا الكِتَابُ اسْمُهُ: «شَرْحُ السُّنَّةِ»، سُمِّيَتْ سُنَّةً لأَنَّ السُّنَّةَ هِيَ الطَّرِيقُ، والعَقِيدَةُ تَوْقِيفِيَّة، لا مَجَالَ لِلزِّيَادَةِ فِيْهَا أَبَدًا، مَدَارُهَا عَلَى مَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَا خَالَفَ مَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّهُ بَاطِلٌ وَضَلالٌ. فَهَذاَ مَعْنَى قَوْلِ العُلَمَاءِ: إنَّ العَقِيدَةَ تَوْقِيفِيَّة، لايَدْخُلُهَا القِيَاسُ، لأَنَّ القِيَاسَ إِنَّمَا هُوَ فِي مَسَائِلِ الفِقْهِ، هِيَ الَّتِي يَدْخُلُهَا القِيَاسُ، وهِيَ أَحْكَام الحَلالِ وَالحَرَام، أَمَّا مَسَائِلُ العَقِيدَةِ فَلَيْسَ فِيْهَا قِيَاسٌ، وَإِنَّمَا هِيَ تَسْلِيمٌ وَانْقِيَادٌ لِـمَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ مِنْ غَيْرِ تَدَخُّلٍ.

قَوْلُهُ: (**وَلاَ تُتَّبَعُ فِيهَا الأَهْوَاءُ**) يَعْنِي لا يُقَالُ فِي العَقِيْدَةِ مَا وَافَقَ الهَوى يُؤْخَذُ، وَمَا خَالَفَ الهَوَى يُرَدُّ، كَمَا هِيَ طَرِيقَةُ أَهْلِ الضَّلالِ، وَلذَلِكَ سُمُّوا أَهْلَ الأَهْوَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ**﴾ [القصص:٥٠] فَمَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلْعَقِيْدَةِ الثَّابِتَةِ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ إِنَّمَا يَتَّبِعُ هَوَاهُ، وَلِذَلِكَ يُسَمَّى أَهْلُ البِدَعِ فِي العقِيدَةِ: أَهْلَ الأَهْوَاءِ، لأَنَّهُمْ اتَّبعُوا أَهوَاءَهُم كَمَا فِي الآيَةِ: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ**﴾.

قَوْلُهُ: (**بَلْ هُوَ التَّصْدِيقُ بِآثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِلا كَيْفٍ وَلاَشَرْحٍ، وَلاَ يُقَالُ: لِمَ، وَلاَ كَيْفَ؟**) أَيِ: التَّسْلِيْمُ لأَقْوَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ

وَأُمُورِ العَقِيدَةِ، **(بلا شَرْحٍ)** يَعْنِي بِلا شَرْحٍ يُخَالِفُ مَعْنَاهَا الصَّحِيحَ وَهُوَ الشَّرْحُ الَّذِي يُخَالِفُ مَدْلُولَ النُّصُوصِ، وَهَذَا انْتَشَرَ فِي الجَهْمِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ وَالأَشَاعِرَةِ كَزَعْمِهِم أَنَّ المُرَادَ بِاليَدِ: القُدْرَةُ، وَالمُرَادَ بِالوجْهِ: الذَّاتُ، وَالمُرَادَ بِالاسْتِوَاءِ: الاسْتِيلاءُ. هَذاَ شَرْحٌ بَاطِلٌ، لَيْسَ هَذَا هُوَ مَعْنَى هَذِهِ النُّصُوصِ، فَقَوْلُهُ: **(بلا شَرْحٍ)** يَعْنِي بِلا شَرْحٍ بَاطِلٍ، أَمَّا شَرْحُهَا بِمَعْنَى بَيَانِ مَعْنَاهَا الصَّحِيحِ فَهَذَا حَقٌّ.

[١٢] فَالكَلامُ والخُصُومَةُ وَالجِدَالُ وَالمِرَاءُ مُحْدَثٌ يَقْدَحُ الشَّكَّ فِي القَلْبِ، وَإِنْ أَصَابَ صَاحِبُهُ الحَقَّ وَالسُّنَّةَ.

الشَّرْحُ

هَذِهِ الأُمُورُ: الكَلامُ وَالجِدَالُ، وَالخُصُومَاتُ، الَّتِي حَصَلَتْ بَيْنَ الفِرَقِ كُلُّهَا أُمُورٌ مُحْدَثَةٌ، وَالَّذِي سَبَّبَهَا هُوَ اتِّبَاعُ الأَهْوَاءِ، وَمَنْ كَانَ هَوَاهُ تَابِعًا لِـمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ فَإِنَّهُ لايكُونُ عِنْدَهُ شَكٌّ وَلا مِرَاءٌ وَلا جِدَالٌ وَلا خُصُومَةٌ، لأَنَّهُ مُسَلِّمٌ مُنْقَادٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة:٣٨]، ﴿**فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ**﴾ [طه:١٢٣]، المَسْأَلَةُ مَسْأَلَةُ اتِّبَاعٍ وَانْقِيَادٍ وَتَسْلِيمٍ لأَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ مِنْ غَيْرِ جِدَالٍ وَمُخَاصَمَاتٍ.

ومَا وَقَعَ أَهْلُ الضَّلالِ فِي الخُصُومَاتِ وَالجِدَالِ إِلاَّ بِسَبَبِ أَنَّهُم لَمْ يُسَلِّمُوا للهِ وَلِرَسُولِهِ كَمَا سَلَّمَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَلِذَلِكَ تَجِدُونَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ -وَللهِ الحَمْدُ- مُتَّحِدِينَ لَيْسَ بَيْنَهُمُ اخْتِلافٌ فِي أَمْرِ العَقِيدَةِ، إِنَّمَا الخِلافُ عِنْدَ الفِرَقِ الضَّالَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ**﴾ [البقرة:١٣٧] ومِصْدَاقُ هَذاَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿**وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام:١٥٣].

قَوْلُهُ: (**وَإِنْ أَصَابَ صَاحِبُهُ الحَقَّ وَالسُّنَّةَ**) أَيْ: فَهُوَ مُخْطِئٌ لأَنَّهُ أَصَابَهُمَا مِنْ غَيْرِ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، لأَنَّ الطَّرِيقَ الصَّحِيحَ: هُوَ التَّسْلِيْمُ، وَعَدَمُ الخَوْضِ وَالجِدَالِ وَالمِرَاءِ الَّذِي يَشْحَنُ القُلُوبَ، وَيَبْعَثُ عَلَى الأَحْقَادِ، وَيَبْعَثُ أَيْضًا عَلَى أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ التَّكْفِيرُ، لأَنَّ الفِرَقَ الضَّالَّةَ يُكَفِّرُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيُضَلِّلُ بَعْضُهَا بَعْضًا، ﴿**كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾ [الروم:٣٢] كُلُّ وَاحِدٍ يَعْتَبِرُ أَنَّ مَا هُوَ عَلَيْهِ هُوَ الصَّحِيحُ، أَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ الَّذِينَ سَلَّمُوا الأَمْرَ وانْقَادُوا فَإِنَّهُم لَمْ

يَحْصُلْ بَيْنَهُمْ خِلافٌ وَللهِ الحَمْدُ، وَلايُكَفِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَلايُضَلِّلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، بَلْ يُثْنِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، ويَقْتَدِي بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، لأَنَّهُم عَلَى طَرِيْقٍ صَحِيْحٍ، إِنَّمَا تَحْصُلُ الإِحَنُ وَالأَحْقَادُ، وَالتَّكْفِيرُ وَالتَّضْلِيلُ بِسَبَبِ مُخَالَفَةِ الحَقِّ، وَالأَخْذِ بِالآرَاءِ وَالأَفْكَارِ، لا شَكَّ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَنْتَصِرَ لِرَأْيِهِ، وَلا يَقْبَلُ أَنْ تَقُولَ لَهُ: أَنْتَ مُخْطِئ، مَعْنَى هَذا أَنَّكَ تَتَّهِمُ عَقْلَهُ بِالنَّقْصِ، وَهُوَ لايَرْضَى بِهَذَا، لَكِنْ إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِ الحَقِّ إِذاَ أَخطَأَ أَنْتَ أَخْطَأْتَ الدَّلِيلَ، أَخْطَأْتَ السُّنَّةَ، فَإِنَّهُ يَقْبَلُ؛ لأَنَّ قَصْدَهُ الحَقُّ، ولَيْسَ قَصْدُهُ الانْتِصَارَ لِرَأْيِهِ، فَإِذَا قُلْتَ: يَا فُلانُ، أَنْتَ أَخطَأْتَ السُّنَّةَ، وَأَخْطَأْتَ الدَّلِيلَ، فَإِنَّهُ يَقْبَلُ وَيَتَرَاجَعُ، أَمَّا إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِ الهَوَى: أَنْتَ أَخطَأْتَ؛ فَإِنَّهُ يَغْضَبُ وَيَشْتَدُّ، وَهَذِهِ عَلامَةُ أَهْلِ الأَهْوَاءِ، أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَنْتَصِرَ لـهَوَاهُ، أَمَّا صَاحِبُ الحَقِّ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَنْتَصِرَ لِلْحَقِّ وَهُو يَبْحَثُ عَنِ الحَقِّ، وَالحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ أَيْنَمَا وَجَدَهَا أَخَذَهَا.

[١٣] وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّ الْكَلاَمَ فِي الرَّبِّ تَعَالَى مُحْدَثٌ، وَهُوَ بِدْعَةٌ وَضَلالَةٌ، وَلاَ يُتَكَلَّمُ فِي الرَّبِّ إِلاَّ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ﷻ فِي الْقُرْآنِ، وَمَا بَيَّنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ، فَهُوَ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - وَاحِدٌ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

[١٤] رَبُّنَا أَوَّلٌ بِلاَ مَتَى، وَآخِرٌ بِلاَ مُنْتَهَى، يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ اسْتَوَى، وَعِلْمُهُ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَلاَ يَخْلُو مِنْ عِلْمِهِ مَكَانٌ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (أَنَّ الْكَلاَمَ فِي الرَّبِّ تَعَالَى مُحْدَثٌ، وَهُوَ بِدْعَةٌ وَضَلالَةٌ) أَي: الكَلامُ فِي ذَاتِ الرَّبِّ ﷻ وفِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ أَمْرٌ مُحْدَثٌ، أَحْدَثَهُ أَهْلُ الضَّلالِ الَّذِيْنَ لايُسَلِّمُونَ لِلنُّصُوصِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُم خَشْيَةٌ للهِ ﷻ، فَهُمْ يَتَكَلَّمُونَ فِي ذَاتِ الرَّبِّ وَيَتَكَلَّمُونَ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيَجْحَدُونَ وَيَنْفُونَ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ أَوْ مَا أَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ، وَيَأْتُونَ مِنْ عِنْدِهِمْ بِآرَاءٍ وَيَقُولُونَ: هَذِهِ هِيَ الصَّوَابُ، يَتَكَلَّمُونَ فِي تَفْسِيرِ النُّصُوصِ بِغَيْرِ تَفْسِيرِهَا، أَوْ أَنَّهُم يَقُولُونَ: مَا نَفْهَمُهَا فَنُفَوِّضُهَا إِلَى اللهِ، وَيَصِيرُ كَلامُ اللهِ وَكَلامُ رَسُولِهِ بِمَنْزِلَةِ الكَلام الأَعْجَمِيِّ الَّذِي لا يَفْهَمُهُ العَرَبُ، فَالوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ أَنْ يَسْتَمِرُّوا عَلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، وَعَلَى طَرِيْقِ السَّلَفِ، وَأَلَّا يَلْتَفِتُوا لِـهَؤُلاءِ الْمُضَلِّلِيْنَ، الَّذِيْنَ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، يُجَادِلُونَ فِي القُرْآنِ، وَيُجَادِلُونَ فِي السُّنَّةِ، شَأْنُهُمُ الجِدَالُ، فَهَؤُلاءِ يَجِبُ الحَذَرُ مِنْهُم، هؤُلاءِ لَيْسُوا مُتَّبعِينَ، وَإِنَّمَا هُمْ مَبْتَدِعُونَ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ.

قَوْلُهُ: (وَلاَ يُتَكَلَّمُ فِي الرَّبِّ إِلاَّ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ﷻ فِي الْقُرْآنِ) لَـمَّا نَهَى عَنِ الجِدَالِ فِي اللهِ ﷻ، وَالخُصُومَاتِ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ؛ بَيَّنَ الوَاجِبَ، وَهُوَ: أَنْ نُقِرَّ القُرْآنَ وَالسُّنَّةَ كَمَا جَاءَا، عَلَى مَعْنَاهَا الْـمَأْخُوذِ مِنَ اللُّغَةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا

القُرْآنُ وَالسُّنَّةُ؛ فَالعِلْمُ مَعْرُوفٌ مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ، كَذَلِكَ الوَجْهُ مَعْرُوفٌ، وَالعَيْنُ، وَاليَدُ، والاسْتِوَاءُ، وَالعُلُوُّ، كُلُّ هَذِهِ وَأَمْثَالُهَا مَعْرُوفٌ مَعْنَاهَا فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا القُرْآنُ، أَمَّا أَهْلُ الضَّلالِ فَيَقُولُونَ: لَيْسَ هَذَا الكلامُ عَلَى ظَاهِرِهِ، وانْقَسَمُوا إِلَى قِسْمَيْنِ:

- قِسْمٌ قَالُوا: نَتَوَقَّفُ، وَنَقُولُ: ظَاهِرُهَا غَيْرُ مُرَادٍ، ولا نَفْهَمُ المُرَادَ مِنْهَا، وَهُمُ المُفَوِّضَةُ.
- وَقِسْمٌ هُمُ المُؤَوِّلَةُ - وَهُوَ الأَكْثَرُ - أَوَّلُوهَا بِغَيْرِ مَعْنَاهَا الصَّحِيحِ.

فَضَلُّوا، وَأَضَلُّوا، وَشَغَلُوا النَّاسَ، وَشَحَنُوا الكُتُبَ بِهَذِهِ المُنَاظَرَاتِ وَالمُجَادَلاتِ بِغَيْرِ طَائِلٍ.

فَالوَاجِبُ التَّسْلِيْمُ لِمَا فِي القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ مِنْ أَسْمَاءِ الله وَصِفَاتِهِ، عَلَى مُرَادِ الله ورَسُولِهِ، لأَنَّ اللهَ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ ﷻ، وَأَعْلَمُ بِغَيْرِهِ، وَأَعْلَمُ الخَلْقِ بِالله هُوَ رَسُولُ الله ﷺ، أَمَّا نَحْنُ فَعِلْمُنَا قَاصِرٌ، نَحْنُ لا نعلم كَثِيْرًا مِمَّا فِي أَنْفُسِنَا مِنَ التَّفَاصِيلِ وَالعُرُوقِ وَالحَوَاسِّ، هُنَاكَ أَشْيَاءُ لانَعْرِفُهَا، هَلْ تَعْرِفُ الرُّوحَ مَا هِيَ؟ العَقْلُ مَا هُوَ؟ إِذَا كُنْتَ لاتَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ جِسْمِكَ وَلا مِنْ نَفْسِكَ؛ فَكَيْفَ تَتَكَلَّمُ فِي ذَاتِ الله ﷻ الَّتِي لايَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ: **﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾** [طه:١١٠]، هَذَا خَارِجٌ عَنْ مَعْلُومَاتِهِمْ وَعَنْ تَصَوُّرَاتِهِمْ، وَلا يُقَاسُ اللهُ بِخَلْقِهِ ﷻ، هَذاَ مِنْ تَنَقُّصِ الله ﷻ، فَهُوَ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيْلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ، كَمَا يَقُولُ شَيْخُ الإِسْلامِ رَحِمَهُ اللهُ فِي الوَاسِطِيَّةِ.

قَوْلُهُ: (**وَمَا بَيَّنَ رَسُولُ الله ﷺ لأَصْحَابِهِ**) مَدَارُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ عَلَى الكِتَابِ والسُّنَّةِ، وَتَفْسِيْرُهَا أَيْضًا فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلُغَةِ العَرَبِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الشَّرْعُ، وَلانَذْهَبُ لِمَنْطِقِ أَرِسْطُو أَوْ أَفْلاطُونَ أَوْ فُلانٍ أَوْ عَلَّانٍ، هَذاَ مِنَ التَّجَنِّي عَلَى شَرِيعَةِ الله ﷻ.

وَمِنِ اسْتِبْدَالِ الوَحْيِ بالمَنْطِقِ وَعِلْمِ الكَلامِ، وَمَاذَا جَنَى عِلْمُ الكَلامِ وَالجِدَالِ عَلَى هَؤُلاءِ مِنَ الضَّلالِ وَالخَيْبَةِ وَالخُسْرَانِ ولَم يَصِلُوا إِلَى نَتِيجَةٍ، وَهَذَا بِإِقْرَارِهِمْ.

أَفْنَوْا أَعْمَارَهُمْ بِالجِدَالِ وَالخُصُومَاتِ وَأَقَرُّوا فِي نِهَايَةِ الأَمْرِ أَنَّهُم مَا وَصَلُوا إِلَى نَتِيجَةٍ، وَلَو أَنَّهُم سَلَّمُوا لله وَلِرَسُولِهِ لاسْتَرَاحُوا.

وَلِهَذَا يَقُولُ قَائِلُهُمْ:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ العُقُولِ عِقَالُ ... وَأَغْلَبُ سَعْيِ العَالَمِينَ ضَلالُ

وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... إِلاَّ أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

فَقَدْ صَارُوا فِي شَكٍّ وَفِي رَيْبٍ، أَمَّا الَّذِيْنَ سَلَّمُوا لله وَلِرَسُولِهِ فَقَدِ اسْتَرَاحُوا مِنْ هَذَا.

وَيَقُولُ أَهْلُ الضَّلالِ أَيْضًا:

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ المَعَاهِدَ كُلَّهَا ... وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ المَعَالِمِ

فَلَمْ أَرَ إِلاَّ وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ ... عَلَى ذِقْنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ

طَافَ المَعَاهِدَ كُلَّهَا، مَعَاهِدَ الكَلامِ وَالمَنْطِقِ وَالجِدَالِ، وَسَيَّرَ طَرْفَهُ بَيْنَهَا فَلَمْ يَجِدْ فِيْهَا مَا يَشْفِي العَلِيلَ وَقَالَ: «لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الكَلامِيَّةَ، وَالمَنَاهِجَ الفَلْسَفِيَّةَ؛ فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَلِيلًا، وَلا تَرْوِي غَلِيلًا وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ القُرْآنِ؛ اقْرَأْ فِي الإِثْبَاتِ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وَاقْرَأْ فِي النَّفْيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

قَوْلُهُ: (فَهُوَ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - وَاحِدٌ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾) هُوَ سُبْحَانَهُ وَاحِدٌ، لايُشَارِكُهُ أَحَدٌ لا فِي ذَاتِهِ ولا فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ،

وَلا فِي خَلْقِهِ وَأفعَالِهِ، ولا فِي عِبادَتِهِ، لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ، فَلِماذَا تُتْعِبُ نَفْسَكَ؟! أَنْتَ مَخْلُوقٌ وَهُوَ خَالِقٌ، فكَيْفَ يُحِيطُ المَخْلُوقُ بِالخَالِقِ - جَلَّ وَعَلا -؟! فَأَنْتَ مَجَالُكَ أَنْ تُسَلِّمَ للهِ وَلِرَسُولِهِ، وَلا تُجَادِلْ وَلا تُمَارِ، وَلاتُتْعِبْ نَفْسَكَ وَتُتْعِبِ الآخَرِينَ، هَذاَ هُوَ الوَاجِبُ وَالفَرْضُ، وَلِذَلِكَ الصَّحَابَةُ لَمْ يَتكَلَّفُوا هَذاَ التَّكَلُّفَ، وَلا تَوَقَّفُوا عِنْدَ آيَةٍ أَوْ عِنْدَ حَدِيْثٍ، بَلْ يُقرُّونهَا وَيُسَلِّمُونَ لَهَا وَيَعْتَقِدُونَ مَا فِيْهَا، وَلا حَصَلَ عِنْدَهُم مَشَاكِلُ قَطُّ فَالمَجَالُ هُوَ مَجَالُ التَّسْلِيْمِ وَالانْقِيَادِ، وَلا نَخُوضُ فِي العَقَائِدِ بِمَا خَاضَ بِهِ أَهْلُ الجَدَلِ وَأَهْلُ الكَلامِ وأَهْلُ المَنْطِقِ؛ فتَكُونُ النَّتِيْجَةُ كَمَا أَقَرُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الحَيْرَةِ وَالاضْطِرَابِ، وَعَدَمِ الوُصُولِ إِلَى نَتِيْجَةٍ، كَمَا قَالَ أَحَدُهُمْ.

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا إِلاَّ أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا قَالَ فُلانٌ وَقَالَ فُلانٌ، وَإِنْ قَالَ كَذَا فَالجَوابُ كَذَا.

قَوْلُهُ: (**رَبُّنَا أَوَّلٌ بِلَا مَتَى، وَآخِرٌ بِلَا مُنْتَهَى**) اللهُ - جَلَّ وَعَلا - أَوَّلٌ بِلا بِدَايةٍ وَآخِرٌ بِلا نِهَايَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ**﴾ [الحديد:٣] أَسْمَاءٌ مُتَقَابِلَةٌ، الأَوَّلُ يُقَابِلُهُ الآخِرُ، الظَّاهِرُ يُقَابِلُهُ البَاطِنُ، وَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ فِي قَوْلِهِ: «**أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيس قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْس بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْس فَوْقَكَ شَيءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْس دُونَكَ شَيْءٌ**»[١] هَذَا تَفْسِيْرُ الرَّسُولِ ﷺ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ يُفَسِّرُ غَيْرَ تَفْسِيرِ الرَّسُولِ ويَقُولُ: الظَّاهِرُ يَعْنِي ظَهَرَ لِلْعُقُولِ وَظَهرَ بِالْبَرَاهِيْنِ، وَلَيْس مَعْنَاهُ أَنَّهُ فَوْقَ المَخْلُوقَاتِ أَوْ أَنَّهُ عَالٍ عَلَى العَرْشِ...! فَهذَا بَاطِلٌ، مُخَالِفٌ لِتَفْسِيرِ الرَّسُولِ ﷺ. أَعْلَمُ النَّاسِ بِاللهِ هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَدْ فَسَّرَ هَذِهِ الآيَةَ بِتَفْسِيرٍ وَاضِحٍ، بِأَنَّ «الأَوَّلَ» هُوَ الَّذِي لَيْسَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

قَبْلَهُ شَيْءٌ (أَوَّلٌ بِلا بِدَايَةٍ)، وَ«الآخِرَ» هُوَ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، (آخِرٌ بِلا نِهَايَةٍ)، وَ«الظَّاهِرُ» الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، فَوْقَ مَخْلُوقَاتِهِ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام:٦١] لَهُ فَوْقِيَّةُ الذَّاتِ، وَفَوْقِيَّةُ القَدْرِ، وَفَوْقِيَّةُ القَهْرِ ﷻ، «وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ» يَعْنِي أَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَهُوَ مَعَ كَوْنِهِ عَالِيًا عَلَى مَخْلُوقَاتِهِ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ بَوَاطِنِهِمْ وَمَا تُخْفِيهِ صُدُورُهُمْ، ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥].

ثُمَّ يَأْتِي مَنْ يَقُولُ: اللهُ - جَلَّ وَعَلا - لا فَوْقَ، وَلا تَحْتَ، وَلايَمْنَةَ، وَلايَسْرَةَ، وَلا دَاخِلَ العَالَمِ وَلا خَارِجَهُ، فَهَذاَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ مَعْدُومٌ، كَمَا فِي كُتُبِ عُلَمَاءِ الكَلامِ.

قَوْلُهُ: (يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ اسْتَوَى) فَكَوْنُهُ يَعْلَمُ مَا فِي الأَرْضِ وَمَا تَحْتَ الأَرْضِ وَمَا تَحْتَ الثَّرَى لا يَتَنَافِي مَعَ كَوْنِهِ فَوْقَ العَرْشِ، لأَنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلا - يُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلا يُحِيطُ بِهِ ﷻ شَيْءٌ، وَالخَلْقُ كُلُّهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ صَغِيرٌ كَلا شَيْءٍ، وَهُوَ العَظِيمُ، الكَبِيرُ، المُتَعَالِ، الجَلِيْلُ ﷻ، فَلا نَقِيسُهُ بِأَنْفُسِنَا، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧]، المَخْلُوقَاتُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ كَلا شَيْءٍ، وَإِنْ كَانَتْ فِي أَنْظَارِ النَّاسِ عَظِيمَةً لَكِنْ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ كَلا شَيْءٍ أَمَامَ عَظَمَتِهِ ﷻ، لَكِنْ هَؤُلاءِ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ حِيْنَ جَحَدُوا قُدْرَتَهُ وَعَظَمَتَهُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الحج:٧٣-٧٤] مَا عَرَفُوا عَظَمَةَ اللهِ وَقُدْرَتَهُ وَجَلالَهُ وَعِلْمَهُ، فَهُمْ يَقِيسُونَهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلِذَلِكَ تَنَقَّصُوا اللهَ ﷻ.

إِذَا كُنْتُمْ بِأَجْمَعِكُمْ مِنْ أَوَّلِكُمْ إِلَى آخِرِكُمْ ،وَجِنّكُمْ وَإِنْسِكُمْ لَوِ اجْتَمَعْتُمْ لِخَلْقِ ذُبَابٍ - أَقَلِّ شَيْءٍ - لا تَسْتَطِيعُونَ، وَخُصُوصًا الَّذِيْنَ تَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِ الله مِنَ الآلِهَةِ وَالأَرْبَابِ ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾، لَوْ تَجْمَعُ مَهَرَةَ الأَطِبَّاءِ وَالحُذَّاقَ فِي العَالَمِ وَالصُّنَّاعَ وَالمُخْتَرِعِيْنَ وَتَقُولُ لَهُمْ: أَوْجِدُوا لَنَا ذُبَابًا لا يَسْتَطِيعُونَ، مَعَ أَنَّهُم يُسْتَطِيعُونَ أَنْ يَبْنُوا البَوَاخِرَ الهَائِلَةَ وَالَّتِي فِيْهَا مَطَارَاتٌ وَتَحْمَلُ الطَّائِرَاتِ، وَيَبْنُوا الطَّائِرَاتِ الكَبِيْرَةَ، يَقْدِرُونَ عَلَى صُنْعِ هَذِهِ الأَشْيَاءِ، أَمَّا خَلْقُ الذُّبَابِ، وَإِيْدَاعُ الرُّوحِ فِيهِ؛ فَلا يَسْتَطِيعُونَ، هُمْ يُصَوِّرُونَ صُورَةَ الذُّبَابِ، وَالإِنْسَانِ، وَالسَّبُعِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، لَكِن لايَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَجْعَلُوهُ يَمْشِي وَيَتَكَلَّمُ، إِنَّما يُخَطِّطُونَ فَقَطْ تَخْطِيطًا لَكِنَّ نَفْخَ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ الله - جَلَّ وَعَلا -، فَكَيْفَ يُقَاسُ الخَالِقُ - جَلَّ وَعَلا - بِالمَخْلُوقِ؟! لا تَبْلُغُهُ العُقُولُ والأَوْهَامُ، وَلا تَتَخَيَّلُهُ الأَفْكَارُ ﷻ.

قَوْلُهُ: (يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ اسْتَوَى) لايَتَنَافِي اسْتِوَاؤُهُ عَلَى العَرْشِ مَعَ كَوْنِهِ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، فَلا يُقَالُ: إِنَّهُ إِذَا اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَكونُ بَعِيدًا عَنِ النَّاسِ، وَلا يَسْمَعُ، وَلا يرَى، فَهذَا تَشْبِيْهٌ للرَّبِّ بِالمَخْلُوقِ.

فَاللهُ - جَلَّ وَعَلا-: الأَشْيَاءُ عِنْدَهُ سَوَاءٌ، لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ﷻ، القَرِيبُ وَالبَعِيدُ، وَأَوَّل الخَلْقِ وَآخِرُهُ، وَالدُّنْيَا وَالآخِرَةُ كُلُّ شَيْءٌ هُوَ فِي عِلْمِ الله ﷻ، وَلِذَلِكَ هَذَا الكَوْنُ الهَائِلُ يَسَيِّرُهُ سُبْحَانَهُ بِقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَصَنْعَتِهِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر:٤١] سَيْرُ الأَفْلاكِ، سَيْرُ الشَّمْسِ وَالقَمرِ، عَلَى هَذَا الحِسَابِ الدَّقِيقِ الَّذِي لا يَتَخَلَّفُ، وَلا يَغْلَطُ، وَلايُخْطِئُ، هَذَا مَنِ الَّذِي نَظَّمَهُ هَذَا التَّنْظِيمَ؟ هُوَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -.

القَمرُ، وَالنُّجُومُ، مُنظَّمَةٌ سَائِرَةٌ كَمَا هِيَ، إِلَى أَنْ يَشَاءَ اللهُ نِهَايَةَ هَذِهِ الدُّنْيَا، وَالانْتِقَالَ إِلَى الآخِرَةِ، الَّذِي نَظَّمَهَا حَكِيمٌ عَلِيمٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

النَّاسُ لَمَّا يَرَوْنَ آلَةً دَقِيقَةً يَتعَجَّبُونَ مِنْ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ، وَهَذَا الصَّانِعِ، وَهِي قِطْعَةٌ صَغِيْرَةٌ، فَكَيْفَ بِالكَوْنِ كُلِّهِ الَّذِي لايَتخَلَّفُ، مَنِ الَّذِي يُمِدُّهُ، وَمَنِ الَّذِي يَصُونُهُ؟ مَنِ الَّذِي يَصُونُ هَذاَ الكَوْنَ كُلَّهُ وَلايَتَغَيَّرُ، وَلا يَتخَلَّفُ، وَلايُقَصِّرُ فِيهِ شَيْءٌ؟ هُوَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -.

هَذِهِ المَخْلُوقَاتُ الصَّغِيْرُ مِنْهَا وَالكَبِيْرُ؛ مَنِ الَّذِي يَجْلُبُ لَهَا الأَرْزَاقَ؟ مَخْلُوقَاتٌ هَائِلَةٌ؛ مَنِ الَّذِي أَوْجَدَ لَهَا الرِّزْقَ كُلٌّ بِحَسَبِ حَالِهِ؟ هُوَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -.

فَالوَاجِبُ أَنْ نُسَلِّمَ لِمَا جَاءَ عَنِ اللهِ لأَنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ، وَنُسَلِّمَ لِمَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لأَنَّ الرَّسُولَ أَعْلَمُ الخَلْقِ بِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلا نَعْتَرِضَ، وَلانَتَدَخَّلَ بِعُقُولِنَا وَأَفْكَارِنَا.

فلا مُنَافَاةَ بَيْنَ كَونِهِ (**يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى وَهُوَعَلَى عَرْشِهِ اسْتَوَى**).

وقَوْلُهُ: (**وَعِلْمُهُ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَلايَخْلُو مِنْ عِلمِهِ مَكَانٌ**) عِلْمُهُ بِكُلِّ مَكَانٍ، ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ** ﴾ [آل عمران:٥]، ﴿**وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأنعام:٥٩] ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ**﴾ يَعْنِي بِالنَّوْمِ، ﴿**وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم**﴾ أَيْ: مَا كَسَبْتُمْ ﴿**بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ**﴾ [الأنعام:٦٠] تَقُومُونَ مِنَ النَّوْمِ، مَنِ الَّذِي أَنَامَكُمْ فِي الأَوَّلِ، وَمَنِ الَّذِي أَيْقَظَكُمْ؟ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَلَوْ فَكَّرْتَ فِي هَذاَ الكَوْنِ لَدَلَّكَ هَذاَ عَلَى عَظَمَةِ اللهِ، وَسَلَّمْتَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَوْ تَأَمَّلْتَ فِي كَلامِ الرَّسُولِ ﷺ وَمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الحَوَادِثِ المَاضِيَةِ وَالمُسْتَقْبَلَةِ، الَّتِي تَأْتِي كَمَا أَخْبَرَ ﷺ، مَنِ الَّذِي دَلَّهُ عَلَى هَذَا؟ هُوَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -، هُوَ الَّذِي أَوْحَى إِلَيْهِ، لَيْسَ

هُوَ مِنْ عِنْدِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ الله ﷻ، لَوْ نَزَّلْتَ الأَحَادِيث عَلَى الوَقَائِع فَإِنَّكَ تَتَعَجَّبُ، الرَّسُولُ ﷺ يَذْكُرُ لَنَا مِنْ سِيَرِ الأَنْبِيَاءِ، وَالأُمَمِ الشَّيْءَ الكَثِيْرَ مَعَ أَنَّ عَصْرَهُ مُتَأَخِّرٌ، مَنِ الَّذِي أَطْلَعَهُ عَلَى هَذَا؟ هُوَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -، فَهَذَا دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ الله، هَذَا القُرْآنُ العَظِيْمُ لايُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ مِنْ عِنْدِ غيْرِ الله ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨]، هُوَ مِنْ كَلام الله - جَلَّ وَعَلا-، وَإِنَّمَا الرَّسُولُ مُبَلِّغٌ عَنِ الله - جَلَّ وَعَلا -، ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام:١٩] فَهُوَ مُبَلِّغٌ عَنِ الله - جَلَّ وَعَلا -.

[١٥] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَلاَ يَقُولُ فِي صِفَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى: كَيْفَ؟ وَلِمَ؟ إِلاَّ شَاكٌّ فِي اللهِ تبارَكَ وَتَعَالَى.

الشَّرْح

لا يُسْأَلُ عَنِ الكَيْفِيَّةِ، وَلا يُسْأَلُ عَنِ التَّعْلِيلِ لِمَ قَالَ كَذَا؟ بَلْ يُسَلَّمُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، لأَنَّهُ لا يَعْلَمُ الكَيْفِيَّةَ إِلاَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

[١٦] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالقُرآنُ كَلامُ اللهِ وَتَنْزِيلُهُ وَنُورُهُ، وَلَيسَ مَخْلُوقًا؛ لأَنَّ القُرْآنَ مِنَ اللهِ، وَمَا كَانَ مِنَ اللهِ فَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ، وَهَكَذَا قَالَ مَالِكُ بنُ أَنَسٍ، وَأَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ، وَمَنْ قَبْلَهُمَا مِنَ الفُقَهاءِ وَمَنْ بَعْدَهُمَا، وَالمِرَاءُ فِيهِ كُفْرٌ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَالقُرآنُ كَلامُ اللهِ وَتَنْزِيلُهُ وَنُورُهُ، وَلَيسَ مَخْلُوقًا) مِنِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ: أَنَّ القُرْآنَ كَلامُ اللهِ، تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَسَمِعَهُ مِنْهُ جِبْرِيلُ وَنَزَل بِهِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، هَذِهِ عَقِيْدَةٌ لَمْ يُخَالِفْ فِيهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّائِرِيْنَ عَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنَّمَا خَالَفَ فِيهَا أَهْلُ الضَّلالِ مِنَ الجَهْمِيَّةِ أَتْبَاعِ الجَهْمِ بنِ صَفْوَانَ، وَأَفْرَاخِ الجَهْمِيَّةِ مِنَ المُعْتَزِلَةِ، وَالزَّيْدِيَّةِ، وَالشِّيْعَةِ، كُلُّ هَؤُلاءِ أَخَذُوا عَنِ الجَهْمِيَّةِ هَذِهِ المَسْأَلَةَ. وَكَذَلِكَ الإِبَاضِيَّةُ كُلُّهُمْ يَسِيرُونَ عَلَى هَذَا المَنْهَجِ المُخَالِفِ لِمَنْهَجِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، فَيَرَوْنَ أَنَّ القُرْآن مَخْلُوقٌ، لأَنَّ اللهَ عِنْدَهُم لا يُوْصَفُ بأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ، كَمَا أَنَّهُ لا يُوصَفُ بِالسَّمْعِ وَالبَصَرِ وَالعِلْمِ وَالإِرَادَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ، وَلا يُوْصَفُ بِأَنَّ لَهُ وَجْهًا، وَأَنَّ لَهُ يَدَينِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. وَقَصْدُهُم مِنْ هَذَا إِفْسَادُ العَقِيدَةِ وَإِنْ كَانُوا يَتَظَاهَرُونَ أَنَّ قَصْدَهُم تَنْزِيهُ اللهِ - جَلَّ وَعَلا - عَنْ مُشَابَهَةِ المَخْلُوقِيْنَ، وَهَذَا زَعْمٌ بَاطِلٌ، فَإِنَّ صِفَاتِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ لا تُشْبِهُ صِفَاتِ المَخْلُوقِيْنَ، الرَّبّ - جَلَّ وَعَلا - لَهُ أَسْمَاءٌ وَصِفَاتٌ تَلِيقُ بِهِ وَبِعَظَمَتِهِ، وَلِلْمَخْلُوقِيْنَ أَسْمَاءٌ وَصِفَاتٌ تَلِيقُ بِهِمْ وَبِبَشَرِيَّتِهِمْ فَلَا تَشَابُهَ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ مِنْ جِهَةِ الحَقِيْقَةِ وَالكَيْفِيَّةِ، وَإِنْ كَانَتْ تَشْتَرِكُ فِي المَعْنَى وَاللَّفْظِ، وَهَذَا مَا يُسَمَّى بِالمُتَوَاطِئِ، لَكِنَّهَا لاتَشْتَرِكُ فِي الحَقِيْقَةِ وَالكَيْفِيَّةِ. هَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَدَلِيْلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللهِ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ

﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦] أَضَافَ الكَلامَ إِلَى نَفْسِهِ ﷻ، وقَالَ فِي المُنَافِقِيْنَ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:١٥] أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ، وَالأَدِلَّةُ مِنَ السُّنَّةِ وَمِنْ إِجْمَاعِ الأُمَّةِ كَثِيْرَةٌ عَلَى هَذِهِ المَسْأَلَةِ، فَهِيَ مَسْأَلَةٌ يَقِيْنِيَّةٌ بِلا شَكٍّ، وَلا يُؤَثِّرُ فِيْهَا اخْتِلافُ أَهْلِ الضَّلالِ، بِأَنَّ القُرْآنَ كَلامُ اللهِ، وَهُوَ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِ كَلامِهِ سُبْحَانَهُ، اللهُ يَتَكَلَّمُ وَلا يَزَالُ يَتَكَلَّمُ مَتَى شَاءَ، إِذَا شَاءَ، بِمَا شَاءَ، مَوْصُوفٌ بِالكَلامِ، وَهَذَا القُرْآنُ مِنْ أَفْرَادِ كَلامِ اللهِ، تَكَلَّمَ بِالتَّوْرَاةِ، وَبِالإِنْجِيْلِ، وَبِالزَّبُورِ، يَتَكَلَّمُ بِالأَمْرِ وَالنَّهْيِ، يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ فَيَكُونُ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] فَأَثْبَتَ لِنَفْسِهِ القَوْلَ، ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ﴾ [آل عمران:٥٥] وَكَلَّمَ مُوسَى بِكَلامٍ سَمِعَهُ مُوسَى حِيْنَمَا أَرسَلَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ فَاللهُ جَلَّ وَعَلا مَوْصُوفٌ بِالكَلامِ، وَمِنْ كَلامِهِ القُرْآنُ الكَرِيمُ.

وَأَمَّا قَوْلُ أَهْلِ الضَّلالِ: إِنَّ إِضَافَتَهُ إِلَى اللهِ مِنْ إِضَافَةِ المَخْلُوقِ إِلَى خَالِقِهِ، مِثْلُ: نَاقَةِ اللهِ، وَبَيْتِ اللهِ، فَنَقُولُ: هَذَا مِنَ الافْتِرَاءِ وَالتَّلْبِيسِ، فَالمُضَافُ إِلَى اللهِ قِسْمَانِ:

- **أحدهما**: إِضَافَةُ مَعَانٍ.
- **الآخر**: إِضَافَةُ أَعْيَانٍ.

المَعَانِي: إِضَافَتُهَا إِلَى اللهِ إِضَافَةُ صِفَةٍ إِلَى مَوصُوفٍ، وَهِيَ إِضَافَةٌ حَقِيقِيَّةٌ، فَهِيَ مِنْ صِفَاتِهِ؛ كَالكَلامِ، وَالسَّمْعِ، وَالبَصَرِ.

وَإِضَافَة الأَعْيَانِ: كَالنَّاقَةِ، وَالبَيْتِ، هَذِهِ إِضَافَةُ مَخْلُوقٍ إِلَى خَالِقِهِ وَهِيَ إِضَافَةُ تَشْرِيْفٍ فَهُمْ خَلَطُوا بَيْنَ الأَمْرَيْنِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، وَلِذَلِكَ نَصَّ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ عَلَى هَذِهِ المَسْأَلَةِ فِي كُتُبِ العَقَائِدِ لِيَرُدُّوا عَلَى أَهْلِ الضَّلالِ. وَإِذَا كَانَ اللهُ لَيْسَ لَهُ كَلامٌ كَمَا يَزْعُمُونَ فَكَيْفَ يَأْمُرُ وَيَنْهَى؟ وهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّهَا

تَتعطَّلُ الأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ، وَيَنْهدِمُ أَصْلُ الأُصُولِ وَهُوَ القُرْآنُ، فَإِذَا انْهَدَمَ هَذَا الأَصْلُ انْهَدَمَ الإِسْلامُ، وَلَكِنْ هُمْ يَلُوذُونَ بِالتَّنْزِيهِ، وَلَيْسَ هَذَا هُوَ التَّنْزِيهَ، بل هَذَا تَعْطِيلٌ، وَهناك فَرْقٌ بَيْنَ التَّعْطِيلِ وَبَيْنَ التَّنْزِيهِ، التَّنْزِيهُ هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥] هَذَا هُوَ التَّنْزِيهُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ وَهُوَ نَفْيُ أَنْ يُشَبَّهَ المَخْلُوقُ بِالخَالِقِ أَوْ يُسَاوَى المَخْلُوقُ بِالخَالِقِ، هَذَا هُوَ الَّذِي يُنَزَّهُ اللهُ - جَلَّ وَعَلا - عَنْهُ، أَمَّا نَفْيُ الصِّفَاتِ فَهَذَا تَعْطِيلٌ نَاشِئٌ عَنِ التَّشْبِيهِ، فَهُمْ شَبَّهُوا أَوَّلًا ثُمَّ عَطَّلُوا ثَانِيًا، وَلَيْسَ تَنْزِيهًا، فَفَرْقٌ كبير، بَيْنَ التَّنْزِيهِ وَالتَّعْطِيلِ.

جَاءَتِ الأَشَاعِرَةُ بِشَيْءٍ عَجِيبٍ أَعْجَبَ مِنْ قَوْلِ الجَهْمِيَّةِ فَقَالُوا: كلامُ اللهِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: مَعَانٍ، وَأَلْفَاظٌ.

المَعَانِي هِيَ كَلامُ اللهِ، وَاللهُ يُوْصَفُ بِأَنَّ لَهُ كَلامًا وَهُوَ المَعْنَى القَدِيمُ القَائِمُ بِنَفْسِهِ، أَمَّا أَنَّ اللهَ يَتكلَّمُ بِحَرْفٍ وَبصَوْتٍ فَهَذَا منفِيٌّ عِنْدَهُمْ عَنِ اللهِ، وَيَقُولُونَ هُوَ مَعْنًى قَائِمٌ بِنَفْسِهِ ﷻ، وَأَمَّا اللَّفْظُ: فَهُوَ كَلامُ المَخْلُوقِ، أَيْ: هُوَ مِنْ كَلامِ جِبْرِيلَ أَوْ مِنْ كَلامِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَجَعَلُوا القُرْآنَ مُكَوَّنًا مِنْ شَيْئَيْنِ: مِنْ مَخْلُوقٍ، وَغَيْرِ مَخْلُوقٍ فَلا هُم صَارُوا مَعَ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَقَالُوا: القُرْآنُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَلا هُم صَارُوا مَعَ الجَهْمِيَّةِ وَقَالُوا: القُرْآنُ كُلُّهُ مَخْلُوقٌ، لكن كانُوا مُذَبْذَبِينَ، مِثْلَ مَقَالَةِ النَّصَارَى فِي المَسِيحِ: إِنَّهُ مُكَوَّنٌ مِنْ شَيْئَيْنِ: مِنَ اللاَّهُوتِ، وَالنَّاسُوتِ، وَيَقُولُونَ: اتَّحَدَ اللاَّهُوتُ بِالنَّاسُوتِ.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ هَذِهِ مَسْأَلَةٌ عَظِيمَةٌ جِدًّا، وَلا يَهُولَنَّكُمْ قَوْلُ المُخَذِّلِينَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّهُم مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَيَقُولُونَ: مَا تَحْتَمِلُ هَذِهِ المَسْأَلَةُ هَذَا الجِدَالَ، والإِمَامُ أَحْمَدُ مُبَالِغٌ فِي كَوْنِهِ امْتَنَعَ أَنْ يَقُولَ بِخَلْقِ القُرْآنِ، وَأَنَّ المَسْأَلَةَ لا تَحْتَمِلُ

كُلَّ هَذَا، هَذا مَوْجُودٌ فِي كِتَابَاتِ بَعْضِ مِنْ يَنْتَسِبُ إِلَى العِلْمِ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: مَا حَصَل بَيْنَ أَحْمَدَ وخُصُومِهِ خِلافٌ سِيَاسِيٌّ!

فَإِذَا تَأَمَّلْتَ وَجَدْتَ المَسْأَلَةَ لَيْسَتْ هَيِّنَةً، إِذَا نُفِي أَنْ يَكُونَ القُرْآنُ كَلامَ اللهِ فَماذَا يَبْقَى مَعَنا؟! إِذاَ عُطِّلَ الرَّبُّ مِنْ صِفَةِ الكَلامِ فَهَذَا نَقْصٌ فِي الرَّبِّ سُبْحَانَهُ؛ لأَنَّ الَّذِي لايَتَكَلَّمُ لَيْسَ بِإِلَهٍ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ عَابَ عَلَى اليَهُودِ لـَمَّا عَبَدُوا العِجْلَ فَقَالَ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾، فالرَّبُّ لَا بُدَّ أَنَّهُ يَتكَلَّمُ، وَيُدبِّرُ، ويأْمُرُ وَيَنْهَى، فَاللهُ إِذَا نُفِيَ عَنْهُ الكَلامُ صَارَ لا يَصْلُحُ لِلإِلَهِيَّةِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ. فَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ عَظِيمَةٌ، وَلِهَذَا فَإِنَّ الإِمَامَ أَحْمَدَ[1] رَحِمَهُ اللهُ وَقَفَ مَوْقِفَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ، وَلَمْ يَتنَازَلْ، وَلَمْ يَتَأَوَّلْ وَصَبرَ عَلَى المِحْنَةِ ، صَبرَ عَلَى السِّجْنِ وَعَلَى الضَّرْبِ، وَعَلَى الإِهَانَةِ مِنْ ثَلاثَةِ خُلَفَاءِ: المَأْمُونُ، وَالمُعْتَصِمُ، وَالوَاثِقُ، كُلُّهُمْ تَتَابَعُوا عَلَى تَعْذِيبِهِ، يُرِيدُونَ مِنْهُ أَنْ يَتَنَازَلَ، فَأَبَى رَحِمَهُ اللهُ وَثَبَتَ، وَفِي آخِرِ عَهْدِ الوَاثِقِ يُقَالُ: إِنَّهُ رَجَعَ لـَمَّا حَصَلَتْ عِنْدَهُ مُنَاظَرَةٌ بَيْنَ عَالِمٍ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَبَيْنَ بِشْرٍ المَرِيْسِيِّ، وَانْكَسَرَ المَرِيْسِيُّ؛ عِنْدَ ذَلِكَ تَرَاجَعَ الوَاثِقُ.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ هَذِهِ المَسْأَلَةَ عَظِيمَةٌ، وَهِيَ مُهِمَّةٌ جِدًّا لا يُتَهَاوَنُ بِهَا، وَلا يُقَالُ - كَمَا يَقُولُهُ بَعْضُ الجُهَّالِ وَالكُتَّابِ وَالمُثَقَّفِيْنَ، أَوِ الأَشَاعِرَةُ، أَوْ مِنْ نَحَا نَحْوَهُمْ-: هَذِهِ مَسْأَلَةٌ لا تَحْتَمِلُ كُلَّ هَذَا الاهْتِمَامَ، وَهَذِهِ الرُّدُودِ، وَقَدِ احْتَجَّ الإِمَامُ أَحْمَدُ عليهم بِقَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح:١٥] «قَالَ اللهُ» أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ الكَلامَ وَالقَوْلَ.

(وتَنْزِيلُهُ) أَيِ: القُرْآنَ، أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَقَالَ

(١) **انظر**: «البدعة الكبرى» في محنة الإمام أحمد في صفة الكلام للدكتور/ محمود عبد الرزاق الرضواني.

تَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥] فَهَذَا وَاضِحٌ وَجَلِيٌّ ومَعَ هَذَا فيأتِي مَنْ يَقُولُ: القُرآنُ مَخْلُوقٌ غَيْرُ مُنَزَّلٍ، واللهُ لَمْ يَتكَلَّمْ بِهِ، واللهُ لا يُوْصَفُ بِالكَلامِ! تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ.

قَوْلُهُ: (وَنُورُهُ) القُرآنُ يَوْصَفُ بِأَنَّهُ نُورٌ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢] وَيُسَمَّى رُوحًا، ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] رُوح؛ لأَنَّ القُلُوبَ تَحْيَا بِهِ، كَمَا أَنَّ الابْدَّانَ تَحْيَا بِالرُّوحِ، فَهُوَ رُوحُ القُلُوبِ، وَالرُّوحُ المَعْرُوفَةُ رُوحُ الابْدَّانِ، فَهُوَ نُورٌ، وَهُوَ رَوحٌ، وَهُوَ هُدًى، وَهُوَ تَذْكِرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ، وَلَهُ أَسْمَاءٌ كَثِيْرَةٌ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَتِهِ.

قَوْلُهُ: (لأَنَّ القُرْآنَ مِنَ اللهِ، وَمَا كَانَ مِنَ اللهِ فَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ) اللهُ - جَلَّ وَعَلا - بأسمائه وصفاته لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ، فَهُوَ خَالِقٌ وَغَيْرُهُ مَخْلُوقٌ، فَلا يُقَالُ: إِنَّ الأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ مَخْلُوقَةٌ، لأَنَّهَا مِنَ اللهِ، وَمَا كَانَ مِنَ اللهِ فَهُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، بِمَعْنَى أَنَّ اللهَ يُوصَفُ بِهَا، فَاللهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ خَالِقٌ، وَمَا عَدَاهُ فَهُوَ مَخْلُوقٌ.

قَوْلُهُ: (وَهَكَذَا قَالَ مَالِكُ بِنُ أَنَسٍ، وَأَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُمُ اللهُ) هَذَا قَوْلُ الأَئِمَّةِ، وَمِنْهُم مَالِكٌ إِمَامُ دَارِ الهِجْرَةِ، وَالإِمَامُ أَحْمَدُ، الَّذِي عُذِّبَ عَلَى هَذَا، وَأُوذِيَ رَحِمَهُ اللهُ وَصَبَرَ، وَغَيْرُهُمَا مِنْ أَئِمَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ، هَذَا قَوْلُهُمْ.

قَوْلُهُ: (وَمَنْ قَبْلَهُمَا مِنَ الفُقَهَاءُ وَمَنْ بَعْدَهُمَا) يَعْنِي لَمْ يَنْفَرِدِ الإِمَامُ مَالِكٌ وَالإِمَامُ أَحْمَدُ بِهَذَا، بَلْ قَالَ بِهِ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ والتَّابِعِيْنَ وَأَتْبَاعِ التَّابِعِيْنَ، وَمَنْ بَعْدَهُم مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَهُم مِنَ الأَئِمَّةِ.

قَوْلُهُ: (وَالمِرَاءُ فِيهِ كُفْرٌ) المِرَاءُ فِي القُرْآنِ هَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ أَوْ غَيْرُ مَخْلُوقٍ؟ أَوْ أَنَّ الإِنْسَانَ يَتَشَكَّكُ وَيَقُولُ: مَا أَدْرِي، المَسْأَلَةُ خِلافِيَّةٌ، كَمَا يَقُولُونَهُ الآنَ.

فَقَدْ ظَهَرتْ ظَاهِرَةٌ الآن؛ يَقُولُونَ: المَسْأَلَةُ خِلافِيَّةٌ، فَنَقُولُ: عِنْدَ الاخْتِلافِ

المُتَّبَعُ الدَّلِيلُ، فَمَا تُعُبِّدْنَا بِخِلافِ النَّاسِ وَأَقْوَالِ النَّاسِ، بَلْ تُعُبِّدْنَا بِالدَّلِيلِ، فَنَعْرِضُ الخِلافَ عَلَى الدَّلِيلِ، فَمَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ فَهُوَ الحَقُّ، ومَا خَالَفَ الدَّلِيلَ فَهُوَ البَاطِلُ، وَاللهُ لَمْ يَتْرُكْنَا لِلآرَاءِ وَالأَقْوَالِ وَالخِلافِ، بَلْ قَالَ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى:١٠]، فَيَجِبُ الرَّدُّ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ فيُؤْخَذُ مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ وَيُتْرَكُ مَا خَالفَ الدَّلِيلَ، وَأَمَّا الَّذِي يَأْخُذُ القَوْلَ الَّذِي يُوَافِقُ هَوَاهُ أَوْ شَهْوَتَهُ وَلَوخَالَفَ الدَّلِيلَ فَهَذَا ضَالٌّ، هَذَا يَعْبُدُ هَوَاهُ، أَمَّا الَّذِي يَعْبُدُ اللهَ فَيَأْخُذُ الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ.

[١٧] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِالرُّؤْيَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَرَوْنَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِأَعْيُنِ رُءوسِهِمْ، وَهُوَ يُحَاسِبُهُمْ بِلاَ حَاجِبٍ وَلاَ تُرْجِمَانٍ.

الشَّرْح

وَمِنْ مَسَائِلِ العَقِيدَةِ المُهِمَّةِ العَظِيمَةِ: إِثْبَاتُ أَنَّ المُؤْمِنِيْنَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ، كَمَا يَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، وَكَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ، كَمَا جَاءَ فِي الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، الَّتِي تَوَاتَرَتْ فِي إِثْبَاتِ المُؤْمِنِيْنَ رؤية رَبِّهِمْ، وَقَدْ سَاقَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ فِي «حَادِي الأَرْوَاحِ» الأَحَادِيثَ الوَارِدَةَ فِي هَذَا، وَتَوَسَّعَ فِي ذَلِكَ بِأَسَانِيدِهَا، وَهِيَ مُتَوَاتِرَةٌ فِي إِثْبَاتِ أَنَّ المُؤْمِنِيْنَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ عِيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ.

وخَالَفَ فِي ذَلِكَ أَهْلُ الضَّلالِ مِنَ الفِرَقِ الضَّالَّةِ كَالمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ ذَهَبَ مَذْهَبَهُمْ، فَنَفَوا الرُّؤْيَةَ، وَهِيَ مَذْكُورَةٌ فِي القُرْآنِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، جَاءَ فِي «صَحِيْحِ مُسْلِمٍ»[1]: أَنَّ الزِّيَادَةَ هِيَ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، وَالمَزِيدُ هُوَ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَجَاءَ فِي سُورَةِ القِيَامَةِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] نَاضِرَةٌ بِالضَّادِ مِنَ النَّضْرَةِ، وَهِيَ البَهَاءُ، ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين:٢٤] ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣] بِالظَّاءِ، أَيْ: بِأَبْصَارِهَا تَنْظُرُ إِلَى اللهِ - جَلَّ وَعَلا -، يَتَنَعَّمُونَ بِذَلِكَ أَشَدَّ مِمَّا يَتَنَعَّمُونَ بِنَعِيمِ الجَنَّةِ، هَذَا فِي القُرْآنِ الكَرِيْمِ، فِي سُورَةِ المُطَفِّفِيْنَ قَالَ فِي الكُفَّارِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] مَحْجُوبُونَ عَنْ رُؤْيَةِ اللهِ، فَإِذَا كَانَ الكُفَّارُ مَحْجُوبِيْنَ عَنْ رُؤْيَةِ اللهِ فَهَذَا دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّ المُؤْمِنِيْنَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ عَزَّ وَجَلَّ، وَذَلِكَ لأَنَّ المُؤْمِنِيْنَ آمَنُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١) من حديث صهيب رضي الله عنه.

وَلَمْ يَرَوْهُ، بَلِ اعْتَمَدُوا عَلَى البَرَاهِيْنِ فَآمَنُوا بِهِ، وَصَدَّقُوا رُسُلَهُ، فَآمَنُوا بِهِ وَلَمْ يَرَوْهُ فِي الدُّنْيَا؛ فَأَكْرَمَهُمُ اللهُ فِي الجَنَّةِ فَتَجَلَّى لَهُمْ وَرَأَوْهُ عِيَانًا، لَـمَّا آمَنُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ يَرَوْهُ، وَأَمَّا الكُفَّارُ فَلَـمَّا كَفَرُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا حَجَبَهُمُ اللهُ عَنْ رُؤْيَتِه يَوْمَ القِيَامَةِ جَزَاءً لَهُم ﴿**جَزَآءً وِفَاقًا**﴾ [النبأ:٢٦].

وَمِنَ الشُّبَهِ الَّتِي اعْتَمَدَ عَلَيْهَا الْمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِهِمْ: أَنَّ اللهَ قَالَ لِمُوسَى ﴿**لَن تَرَىٰنِي**﴾، وفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى**﴾ [الأعراف:١٤٣] قَالُوا: وَهَذَا دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّ اللهَ لا يُرَى، نَقُولُ: نَعَمْ هَذَا فِي الدُّنْيَا، لأَنَّ الوَاقِعَةَ هَذِهِ حَصَلَتْ فِي الدُّنْيَا ونَحْنُ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ اللهَ لا يُرَى فِي الدُّنْيَا، فَمُوسَى سَأَلَ أَنْ يَرَاهُ فِي الدُّنْيَا، قَالَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿**قَالَ لَن تَرَىٰنِي**﴾ يَعْنِي فِي الدُّنْيَا وَالنَّفْيُ، بـ(لَنْ) لا يَقْتَضِي التَّأْبِيدَ، بَلْ هُوَ نَفِي مُؤَقَّتٌ، فَهُوَ ﴿**قَالَ لَن تَرَىٰنِي**﴾ يَعْنِي: لَنْ تَرَانِي فِي الدُّنْيَا، وَفِي لُغَةِ العَرَبِ أَنَّ النَّفْي بـ(لَنْ) لا يَقْتَضِي التَّأْبِيد وَلِهَذَا يَقُولُ ابنُ مَالِكٍ فِي الكَافِيَةِ الشَّافِيَةِ فِي النَّحْوِ:

وَمَنْ يَرَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدًا ... فَقَوْلَهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

أَيْ أَنَّ (لَنْ) لا تَقْتَضِي النَّفْي المُؤَبَّدَ، وَالدَّلِيل أَيْضًا: أَنَّ اللهَ قَالَ فِي اليَهُودِ: ﴿**فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا**﴾ [البقرة:٩٤-٩٥] مَعَ أَنَّهُ جَاءَ أَنَّهُم فِي الآخِرَةِ يَتَمَنَّوْنَ المَوْتَ لِيَسْتَرِيحُوا مِنَ العَذَابِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ**﴾ [الزخرف:٧٧]، طَلَبُوا المَوْتَ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ (لَنْ) لَيْسَتْ لِلنَّفْيِ المُؤَبَّدِ، هَذَا هُوَ مُقْتَضَى اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَهُوَ مُقْتَضَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ القُرْآنُ.

قَالُوا أَيْضًا: مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ لايُرَى، قَوْلُهُ: ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ**﴾ [الأنعام:١٠٣] نَقُولُ لَهُمْ: هَذاَ لَيْسَ نَفيًا لِلرُّؤْيَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ نَفِي لِلإِدْرَاكِ، مَا قَالَ لَا تَرَاهُ الأَبْصَارُ، قَالَ: ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ**﴾ وَنَفْي الإِدْرَاكِ غَيْرُ نَفي

الرُّؤْيَة، فَالأَبْصَارُ تَرَاهُ لَكِنَّهَا لَا تُدْرِكُهُ، يَعْنِي لا تُحِيطُ بِهِ، فَالإِدْرَاكُ هُوَ: الإِحَاطَةُ بِالله - جَلَّ وَعَلَا -، فَهُم وَإِنْ رَأَوْهُ فِي الجَنَّة لَا يُحِيْطُونَ بِهِ ﷻ، فَالمَنْفِي هُوَ الإِدَرَاكُ الَّذِي بِمَعْنَى الإِحَاطَةِ، فَهِيَ تَرَاهُ لَكِنَّهَا لا تُدْرِكُهُ، لَكِنَّهَا تَرَاهُ بِمُوجِبِ الأَدِلَّة، وَالجَمْعُ بَيْنَ النُّصُوصِ هُوَ الوَاجِبُ، لأَنَّهُ إِذَاحَصَلَ شَيْءٌ مِنَ الاخْتِلافِ بَيْنَ النُّصُوصِ فَمَهْمَا أَمْكَنَ الجَمْعُ يُجْمَعْ بَيْنَهَا، وَهَذَا وَاضِحٌ وَالحَمْدُ لله، وَكَلامُ الله لا يَتَنَاقَضُ أَبَدًا، بَلْ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا، أَمَّا الَّذِي يَأْخُذُ آيَةً وَيَتْرُكُ الآيَةَ الأُخْرَى فَهَذَا مِنْ أَهْلِ الزَّيْغ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**﴾ [آل عمران:٧] فَالقُرْآنُ يُسْتَدَلُّ بِهِ كُلِّهِ ﴿**كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا**﴾[آل عمران:٧] كَمَا يَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْم، فَيُفَسِّرُ القُرْآنُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَلا يَخْتَلِفُ أَبَدًا، لأَنَّ اللهَ نَفَى عَنْهُ الاخْتِلافَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾ [النساء:٨٢] فَإِذَا أَشْكَلَتْ عَلَيْكَ آيَةٌ فَإِنَّكَ تَلْتَمِسُ فِي القُرْآنِ مَا يُفَسِّرُهَا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَإِنَّكَ تَذْهَبُ إِلَى السُّنَّةِ تَجِدُ فِي السُّنَّةِ مَا يُفَسِّرُهَا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي السُّنَّةِ مَا يُفَسِّرُهَا فَإِنَّكَ تَذْهَبُ إِلَى أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ الَّذِيْنَ رَوَوا عَنِ الرَّسُولِ ﷺ تَجِدُ فِي أَقْوَالِهِمْ مَا يُفَسِّرُ الآيَةَ الَّتِي أَشْكَلَتْ عَلَيْكَ، القُرْآنُ - وَلله الحَمْدُ - مَحْفُوظٌ فِي لَفْظِهِ وَفِي مَعْنَاهُ، لا يَتَعَارَضُ وَلا يَتَنَاقَضُ، إِنَّمَا التَّعَارُضُ فِي أَفْهَامِ البَشَرِ.

وكَذَلِكَ المُتَعَالِمُونَ الَّذِيْنَ لَمْ يَدْرُسُوا العِلْمَ وَلَمْ يَأْخُذوا قَوَاعِدَ الاسْتِدْلالِ وَالمَدَارِكِ، يَسْتَدِلُّونَ بِلا فِقْهٍ، وَيُثْبِتُونَ أَشْيَاءَ مَا أَثْبَتَهَا قَبْلَهُمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْم، بِسَبَبِ الجَهْلِ وَالتَّعَالُمِ، فَهَذِهِ القَضَايَا عَظِيمَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى تَعَلُّم، وَإِلَى دِقَّةٍ، وَإِلَى تَرَوٍّ، وَإِلَى تَثَبُّتٍ، لأَنَّ العَقِيدَةَ هِيَ الأَصْلُ، وَأي خَلَلٍ فِيْهَا فَهُوَ خَلَلٌ فِي الأَصْل فَهَذَا حَاصِلُ خَلافِ النَّاسِ فِي رُؤْيَةِ الله ﷻ يَوْمَ القِيَامَةِ فاللهُ لا يُرى فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا يَرَاهُ المُؤْمِنُونَ فِي الآخِرَةِ، ويُحْجَبُ عَنْهُ الكَافِرُونَ.

قَوْلُهُ: (**وَالإِيمَانُ بِالرُّؤْيَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ**) لِمَاذَا قَالَ: يَوْمَ القِيَامَةِ؟ لأَنَّهُ لا يُرَى - جَلَّ وَعَلا - فِي الدُّنْيَا.

قَوْلُهُ: (**يَرَوْنَ اللهَ ﷻ بِأَعْيُنِ رُءوسِهِمْ**) قَالَ: بِأَعْيُنِ رُءوسِهِمْ نَفْيًا لِتَأْوِيلِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: مَعْنَى «يَرَوْنَ رَبَّهُمْ»؛ أَيْ: بِقُلُوبِهِمْ، لا بِأَبْصَارِهِمْ.

قَوْلُهُ: (**وَهُوَ يُحَاسِبُهُمْ بِلاَ حَاجِبٍ وَلاَ تُرْجمَانٍ**) أَيْ: فِي يَوْمِ القِيَامَةِ عِنْدَ الحِسَابِ يَخْلُو العَبْدُ بِرَبِّهِ وَيُحَاسِبُهُ اللهُ عَلَى أَعْمَالِهِ بِلُغَتِهِ الَّتِي يَفْهَمُهَا العَبْدُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، التُّرْجُمَانُ: هُوَ الَّذِي يَنْقُلُ المَعْنَى مِنْ لُغَةٍ إِلَى لُغَةٍ أُخْرَى، كَالَّذِي يَنْقُلُ المَعْنَى مِنَ اللُّغَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ إِلَى اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ أَوِ العَكْسِ، لأَنَّ اللُّغَاتِ كَثِيرَةٌ.

[١٨] قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: وَالإِيْمَانُ بِالمِيزَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ، يُوزَنُ فِيهِ الخَيْرُ وَالشَّرُّ لَهُ كِفَّتَانِ وَلَهُ لِسَانٌ.

الشَّرْحُ

مِنْ مَسَائِلِ العَقِيدَةِ الإِيْمَانُ بِالمِيْزَانِ، الَّذِي تُوزَنُ بِهِ أَعْمَالُ العِبَادِ يَوْمَ القِيَامَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ**﴾ [الأعراف: ٨-٩]، فِي الآيَةِ الأُخْرى: ﴿**خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ**﴾ [المؤمنون:١٠٣]، إِذَا ثَقُلَ مِيْزَانُ الحَسَنَاتِ سَعِدَ العَبْدُ، وَإِذَا انْعَكَسَ وَثَقُلَتِ السَّيِّئَاتُ هَلَكَ العَبْدُ، ﴿**فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ**﴾ [القارعة:٦-١١]، وَهَذَا مِنْ عَدْلِ الله - جَلَّ وَعَلا -، أَنَّهُ يُوازِنُ بَيْنَ حَسَنَاتِهِمْ وَسَيِّئَاتِهِمْ بِمِيْزَانٍ يَرَوْنَهُ، مِيْزَانٍ مَحْسُوسٍ، لَهُ كِفَّتَانِ، وَلَهُ لِسانٌ، تُوْضَعُ الحَسَنَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالسَّيِّئَاتُ فِي كِفَّةٍ، كَمَا دلَّ عَلَى ذَلِكَ الكِتَابُ والسُّنَّةُ، خِلافًا لِلْمُعتَزِلَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: المُرَادُ بِالمَوَازِينِ والمِيْزَان: إِقَامَةُ العَدْلِ، وَإِلاَّ فَلَيْسَ هُنَاكَ مِيْزَانٌ مَحْسُوسٌ بِنَاءً عَلَى مَذْهَبِهِمُ البَاطِلِ؛ لأَنَّهُم يَعْتَمِدُونَ عَلَى عُقُولِهِمْ، وَلا يَعْتَمِدُونَ عَلَى النُّصُوصِ، فَالمِيْزان حَقِيْقِيٌّ، لَهُ كِفَّتَانِ، كَمَا جَاءَ فِي الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ.

قَوْلُهُ: (**يُوزَنُ فِيهِ الخَيْرُ وَالشَّرُّ**) أَي: الحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ.

قَوْلُهُ: (**لَهُ كِفَّتَانِ وَلَهُ لِسَانٌ**) لَهُ كِفَّتَانِ كَمَا جَاءَ فِي الأَحَادِيثِ، تُوضَعُ الحَسَنَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالسَّيِّئَاتُ فِي كِفَّةٍ، كَمَا فِي حَدِيْثِ [البِطَاقَةِ][١] فِي قِصَّةِ الَّذِي لَهُ

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٢/ ٢١٣)، وابن حبان (٢٢٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح =

تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍ مِنْهَا مدَّ البَصَرِ مَمْلُوءٌ بِالسَّيِّئَاتِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ لَكَ مِنْ حَسَنَةٍ؟ فَيقول: لا يَا رَبِّ، فيَتَعَاظَمُ هَذِهِ الصَّحَائِفَ الكَبِيْرَةَ وَيَقُولُ: لا يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: بَلَى، إِنَّكَ لاتُظْلَمُ عِنْدَنَا لَكَ حَسَنَةٌ، فَيُؤْتَى بِبِطَاقَةٍ فِيْهَا شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وشَهَادَةُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، فَتُوضَعُ فِي كِفَّةٍ، وَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ فَتَرْجَحُ البِطَاقَةُ، وَتَطِيشُ السِّجِلَّاَتُ، فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ. هَذَا دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ كِفَّتَيْنِ لِهَذَا المِيْزَانِ تُوْضَعُ فِيهَا الأَعْمَالُ يَوْمَ القِيَامَةِ.

(وَلَهُ لِسَانٌ) لِسَانُ المِيْزَانِ مَعْرُوفٌ عِنْدَ النَّاسِ يُسَمُّونَهُ قَلْبَ المِيْزَانِ الَّذِي يَمِيلُ يَمْنَةً أَوْ يَسْرَةً، فَإِذَا تَسَاوَتِ الكِفَّتَانِ اعْتَدَلَ قَلْبُ المِيْزَانِ، وَإِذَا رَجَحَتْ كِفَّةٌ مَالَ القَلْبُ.

= الجامع» (١٧٧٦).

[١٩] قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: وَالإِيمَانُ بِعَذَابِ القَبْرِ، وَمُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ.

الشَّرْحُ

كذَلِكَ مِنْ عَقِيْدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ: الإِيْمَانُ بِعَذَابِ القَبْرِ، وَنَعِيْمِ القَبْرِ، فَالمَيِّتُ إمَّا أَنْ يُعَذَّبَ فِي قَبْرِهِ، وَإِمَّا أَنْ يُنَعَّمَ، إِلَى أَنْ يُبْعَثَ يَوْمَ القِيَامَةِ.

وَالقَبْرُ: هُوَ مَنْزِلَةٌ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَلِذَلِكَ يُسَمَّى بِالبَرْزَخِ، لأَنَّ البَرْزَخَ: هُوَ الحَاجِزُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن:١٩-٢٠] لايَبْغِي المَالِحُ عَلَى العَذْبِ، وَلايَبْغِي العَذْبُ عَلَى المَالِحِ، لأَنَّ اللهَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا فَاصِلًا، لا يَخْتَلِطُ هَذَا بِهَذَا، فَالبَرْزَخُ: هُوَ الفَاصِلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، لأَنَّ الدُّورَ ثَلاثٌ:

- دَارُ الدُّنْيَا.
- ودَارُ البَرْزَخِ.
- ودَارُ القَرَارِ.

هَذِهِ الدُّورُ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا العِبَادُ، دَارُ الدُّنْيَا مَحَلُّ العَمَلِ، وَدَارُ البَرْزَخِ وَهِيَ مَحَلُّ الانْتِظَارِ، وَدَارُ القَرَارِ هِيَ دَارُ الجَزَاءِ. وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:٢] فَدَلَّ عَلَى أَنَّ المَقَابِر لَيْسَتْ مَحَلَّ إِقَامَةٍ بَلِ الإِنْسَانُ فِيْهَا مِثْلُ الزَّائِرِ الَّذِي يَزُورُ وَيَرْتَحِلُ، جَعَلَ المُكْثَ فِي المَقَابِرِ زِيَارَةً، لأَنَّهُ يُقِيمُ فِيْهَا ثُمَّ يَرْتَحِلُ.

لَكِنْ فِي فَتْرَةِ وُجُودِهِ فِي القَبْرِ أَوَّل مَا يُوْضَعُ فِي القَبْرِ وَيُسَوَّى عَلَيْهِ التُّرَابُ، وَيَنْصَرِفُ النَّاس عَنْهُ «وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ»، يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فِي القَبْرِ فَيُجْلِسَانِهِ وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَحْيَا حَيَاةً بَرْزَخِيَّةً، وَلَيْسَتْ مِثْلَ الحَيَاةِ الَّتِي فِي الدُّنْيَا،

فَيَسْأَلانِهِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَإِذَا أَجَابَ عَنْ هَذِهِ الأَسْئِلَةِ بجوابٍ صحيحٍ نَجَا، وَيَسْعَدُ سَعَادَةً لا شَقَاءَ بَعْدَهَا، وَيُوسَّعُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الجَنَّةِ، وَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُؤْمَرُ لَهُ بِفِرَاشٍ مِنَ الجَنَّةِ، فَلا يَزَالُ فِي نَعِيمٍ فِي قَبْرِهِ وَهَذَا أَمْرٌ غَيْبِيٌّ لا نَعْلَمُهُ، فَلَوْ فَتَحْنَا القَبْرَ مَا وَجَدْنَا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، لأَنَّهُ فِي عَالَمٍ وَنَحْنُ فِي عَالَمٍ آخَرَ.

وأمَّا المنافقُ والمُرْتَابُ فَإِنَّهُ يقولُ: «إِذَا قيلَ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ قال: لا أَدْرِي، مَنْ نَبِيُّكَ؟ لا أَدْرِي، مَا دِينُكَ؟ لا أَدْرِي»، حَتَّى وَإِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا مُتَعَلِّمًا وَيَحْفَظُ المُتُونَ وَالشُّرُوحَ، وَيَحْفَظُ اللُّغَةَ، وَهُوَ خَطِيبٌ مُصْقِعٌ، ومُتَحَدِّثٌ مُفَوَّهٌ، لَكِنْ إِذَا كَانَ لَيْس عِنْدَهُ إِيمَانٌ؛ فَإِنَّهُ يَتَلَعْثَمُ فِي القَبْرِ، ويَعْجَزُ عَنِ الجَوَابِ، عِنْدَمَا يُسْأَلُ عَنْ هَذِهِ المَسَائِلِ يَتَلَجْلَجُ، ويَقُولُ: «**هَا هَا لا أَدْرِى، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ، فيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلاعُهُ، وَيَأْتِيهِ مِنْ سَمُومِهَا وَحَرِّهَا، وَيُفْرَشُ لَهُ فِرَاشٌ مِنَ النَّارِ**»(١).

فَعَذَابُ القَبْرِ أَوْ نَعِيمُهُ ثَابِتَانِ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ قَالَ ﷺ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ: مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المسيحِ الدجالِ**»(٢) فَكَانَ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ.

وَفِي القُرْآنِ إِشَارَاتٌ إِلَى عَذَابِ القَبْرِ قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ**﴾ [السجدة:٢١] قالوا: هَذَا عَذَابُ القَبْرِ، وَقِيلَ: عَذَابُ الدُّنْيَا، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي فِرْعَونَ وَقَوْمِهِ: ﴿**ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ**﴾ [غافر:٤٦] يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد (٤/ ٢٨٧)، والحاكم (١٠٧) من حديث البراء ابن عازب، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٧٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣١١)، ومسلم (٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَعَشِيًّا هَذَا فِي القَبْرِ، لَمَّا مَاتُوا صَارُوا يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ غُدُوًّا وَعَشِيًّا فَإِذَا قَامَتِ القِيَامَةُ يُقَالُ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤] قالوا: معيشة ضَنْكًا فِي القَبْرِ، وَالعِيَاذُ بِاللهِ.

فالأَدِلَّةُ عَلَى عَذَابِ القَبْرِ مُتَوَاتِرةٌ فَمَنْ كَذَّبَ بِعَذَابِ القَبْرِ مِنَ المُعْتَزِلَةِ وَمَنْ نَحَا نَحْوَهُمْ فَإِنَّهُ مُخَالِفٌ لِلأَدِلَّةِ المُتَوَاتِرَةِ، وَيَكُونُ مُخْتَلَّ العَقِيدَةِ - وَالعِيَاذُ بِاللهِ -، وَفَاقِدًا لأَصلٍ مِنْ أُصُولِ العَقِيدَةِ، وَهُوَ الإِيْمَانُ بِعَذَابِ القَبْرِ، فَإِنْ كَانَ مُتَعَمِّدًا عَارِفًا بِالنُّصُوصِ لَكِنْ يُكَابِرُ وَيَنْفِي فَهُوَ كَافِرٌ، أَمَّا إِذَا كَانَ مُتَأَوِّلًا أَوْ مُقَلِّدًا أَوْ جَاهِلًا فَهَذَا لا يُكَفَّرُ، لَكِنْ يُضَلَّلُ وَلا يُكَفَّرُ.

قَوْلُهُ: (وَمُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ) «مُنْكَرٌ» وَ«نَكِيرٌ» اسْمَانِ لِلْمَلَكَيْنِ اللَّذين يَأْتِيَانِهِ فِي صُورَةٍ مُرَوِّعَةٍ، يُقَالُ لأَحَدِهِمَا: «المُنْكَرُ»، وَالآخَرُ: «النَّكِيرُ»، كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي الأَحَادِيثِ.

[٢٠] قَالَ المؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِحَوْضِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضٌ[١]، إِلاَّ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّ حَوْضَهُ ضَرْعُ نَاقَتِهِ.

الشَّرْح

كذَلِكَ مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ: الإِيمَانُ بِالحوضِ، فَالرَّسُولُ ﷺ لَهُ حَوضٌ، وَكُلُّ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ لَهُ حَوْضٌ تَرِدُهُ أُمَّتُهُ، لأَنَّ النَّاسَ يُصِيبُهُمْ عَطَشٌ شَدِيدٌ، فَيَحْتَاجُونَ إِلَى المَاءِ، وَحَوْضُ نَبِيِّنَا هُوَ أَعْظَمُ الحِيَاضِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهرٌ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ، وَآنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ يَشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَيُذَادُ عَنْهُ المُرْتَدُّونَ الَّذِينَ ارْتَدُّوا بَعْدَ الرَّسُولِ ﷺ وَ يُذَادُ عَنْهُ مَنْ كَذَّبَ بِهِ - وَاللهُ أَعْلَمُ- مِنْ أَهْلِ البِدَعِ.

قَوْلُهُ: (**وَلِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضٌ، إِلاَّ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّ حَوْضَهُ ضَرْعُ نَاقَتِهِ**) هَذَا الاسْتِثْنَاءُ لَمْ يَثْبُتْ فِيمَا أَعْلَمُ[٢]، وَالصَّوَابُ أَنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث.

---

(١) وصح ذلك من حديث سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لكل نبي حوضًا وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة**».
أخرجه الترمذي (٢٤٤٣)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٢١٢) وفي «مسند الشاميين» (٤/ ٣٠) وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢١٥٦).

(٢) وهو معنى لحديث موضوع أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٦٤- ٦٥) وعنه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ٢٤٤) وقال: «حديث موضوع لا أصل له».

[٢١] قَالَ المُؤَلِّف رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِشَفَاعَةِ رَسُولِ الله ﷺ لِلْمُذْنِبِيْنَ الْخَاطِئِيْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى الصِّرَاطِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ جَوْفِ جَهَنَّمَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَلَهُ شَفَاعَةٌ، وَكَذَلِكَ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحُونَ، وَلله بَعْدَ ذَلِكَ تَفَضُّلٌ كَثِيرٌ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَالْخُرُوجُ مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا احْتَرَقُوا وَصَارُوا فَحْمًا.

الشَّرْح

مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ: الإِيمَانُ بالشَّفَاعَةِ بِالشُّرُوطِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ - جَلَّ وَعَلا -: أَنْ تَكُونَ بِإِذْنِهِ، وَأَنْ يَكُونَ المَشْفُوعُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ الإِيْمَانِ، أَمَّا إِنْ كَانَ المَشْفُوعُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ الكُفْرِ فَإِنَّهَا لا تُقْبَلُ فِيهِ الشَّفَاعَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]؛ فَالكَافِرُ لَيْسَ فِيهِ شَفَاعَةٌ أَبَدًا، وَأَمَّا المُؤْمِنُ فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ ثَابِتَةٌ فِي حَقِّهِ إِذَا أَذِنَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -، وَأَعْظَمُ الشُّفَعَاءِ وَسَيِّدُ الشُّفَعَاءِ هُوَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ فَلَهُ شَفَاعَاتٌ خَاصَّةٌ بِهِ، وَهُنَاكَ شَفَاعَاتٌ يَشْتَرِكُ فِيهَا هُوَ وَغَيْرُهُ.

قَوْلُهُ: (**وَالإِيمَانُ بِشَفَاعَةِ رَسُولِ الله ﷺ لِلْمُذْنِبِيْنَ الخَاطِئِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَى الصِّرَاطِ**) الرَّسُولُ ﷺ هُوَ أَعْظَمُ مَنْ يَشْفَعُ يَوْمَ القِيَامَةِ، بَلْ إِنَّهُ يَشْفَعُ فِي أَهْلِ المَوْقِفِ كُلِّهِمْ، فإِنَّ اللهَ يُرِيحُهُمْ مِنَ المَوْقِفِ وَيُحَاسِبُهُمْ، لأَنَّهُ يَطُولُ عَلَيْهِم المَوْقِفُ، مَعَ الضَّنَكِ الشَّدِيدِ، وَالحَرِّ الشَّدِيدِ، وَالعَطَشِ الشَّدِيدِ وَالخَوْفِ الشَّدِيدِ، يَطُولُ عَلَيْهِم المَوْقِفُ، مَوْقِفُ الحَشْرِ، فَيَتَقَدَّمُونَ إِلَى أُولِي العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَدْعُوا اللهَ أَنْ يُرِيحَهُمْ مِنَ المَوْقِفِ، إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتُونَ إِلَى آدَمَ فَيَعْتَذِرُ، وَيَأْتُونَ إِلَى نُوحٍ فَيَعْتَذِرُ، وَيَأْتُونَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَيَعْتَذِرُ، وَيَأْتُونَ إِلَى مُوسَى فَيَعْتَذرُ وَيَأْتُونَ إِلَى عِيْسَى فَيَعْتَذِرُ، وَيَأْتُونَ إِلَى مُحَمَّدٍ

ﷺ فيقولُ: «**أَنَا لَهَا، ثُمَّ يَأْتِي وَيَخِرُّ سَاجِدًا تَحْتَ العَرْشِ**» لأَنَّهُ لا يَشْفَعُ لأَحَدٍ إلاَّ بِإِذْنِ الله، فَهُوَ يَخِرّ سَاجِدًا وَيَدْعُو رَبَّهُ حَتَّى يُقَالَ لَهُ: «**يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَيأْذَنُ اللهُ لَهُ بالشَّفَاعَةِ، فَيشْفَعُ فِي أَهْلِ المَحْشَرِ**»[١] فِي أَنْ يَنْتَقِلُوا مِنَ المَحْشَرِ إِلَى الحِسَابِ، وَهَذِهِ هِيَ الشَّفَاعَةُ العُظْمَى الَّتِي فَضَّلَهُ اللهُ بِهَا عَلَى الخَلْقِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾ [الإسراء:٧٩]، المَقَامُ المَحْمُودُ: هُوَ الشَّفَاعَةُ العُظْمَى، وَفِي الدُّعَاءِ الَّذِي يُقَالُ بَعْدَ الأَذَانِ: «**آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ**»[٢]، هَذِهِ الشَّفَاعَةُ العُظْمَى.

وَكَذَلِكَ يَشْفَعُ فِي أَهْلِ الكَبَائِرِ مِنَ الأُمَّةِ، يَشْفَعُ فِيهِمْ ﷺ إِمَّا أَلَّا يَدْخُلُوا النَّارَ، وَإِمَّا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا إِذَا دَخَلُوهَا، فَيَشْفَعُ فِيهِمْ ﷺ، وَهَذِهِ لَيْسَتْ خَاصَّةً بِهِ، فَهُوَ يَشْفَعُ، وَجَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ يَشْفَعُونَ، وَالأَوْلِيَاءُ يَشْفَعُونَ، وَالأَفْرَاطُ - وَهُمُ الَّذِينَ مَاتُوا صِغَارًا يَشْفَعُونَ فِي أَهْلِ الكَبَائِرِ، خِلافًا لِلْجَهْمِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ وَالخَوَارِجِ، وَالخَوَارِجُ هُمْ: الَّذِينَ يَخْرُجُونَ عَلَى الأَئِمَّةِ - أَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ - بِالسَّيْفِ، وَيَشُقُّونَ عَصَا الطَّاعَةِ، وَأَيْضًا الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ المُسْلِمَ بِالكَبَائِرِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ، هَؤُلاءِ هُمُ الخَوَارِجُ، سُمُّوا خَوَارِجَ لأَنَّهُم خَرَجُوا عَنِ المَشْرُوعِ، وَخَرَجُوا عَلَى وَلِيِّ الأَمْرِ، وَشَقُّوا عَصَا الطَّاعَةِ. هَؤُلاءِ يَنْفُونَ الشَّفَاعَةَ، وَيَقُولُونَ: مَنْ دَخَلَ النَّارَ لايَخْرُجُ مِنْهَا، ويستدلُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ**﴾ [البقرة:١٦٧] نَقُولُ: هَذِهِ فِي الكُفَّارِ، فَالكُفَّارِ لايَخْرُجونَ مِنَ النَّارِ، وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ المَقْصُودَةُ هُنَا فَهِيَ فِي أَهْلِ الإِيمَانِ مِنْ أَصْحَابِ الكَبَائِرِ، وَهِيَ ثَابِتَةٌ، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿**مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ**﴾ [البقرة:٢٥٥] دلَّ

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

عَلَى أَنَّهُ إِذَا أَذِنَ يَشْفَعُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦] هَذِهِ فِيهَا شَرْطَا الشَّفَاعَةِ:

- يَأْذَنُ اللهُ، هَذَا الشَّرْطُ الأَوَّلُ.
- وَيَرْضَى، هَذَا الشَّرْطُ الثَّانِي، يَرْضَى عَنِ المَشْفُوعِ فِيهِ، وَهُوَ لايَرْضَى إِلاَّ عَنِ المُؤْمِنِ، أَمَّا الكَافِرُ فَلا يَرْضَى عَنْهُ.

فَالمُخَالِفُونَ لأَهْلِ السُّنَّةِ فِي الشَّفَاعَةِ عَلَى طَرَفِي نَقِيضٍ: مِنْهُمْ مَنْ أَنْكَرَ الشَّفَاعَةَ، وَهُمُ الخَوَارِجُ، وَالمُعْتَزِلَةُ، الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ بالكَبَائِرِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ.

وَالطَّرَفُ الثَّانِي: مَنْ يَغْلُو فِي إِثْبَاتِ الشَّفَاعَةِ، وَهُمُ المُتَصَوِّفَةُ وَالقُبُورِيَّةُ، الَّذِينَ يَعْتَمِدُونَ عَلَى الشَّفَاعَةِ، وَيَلْجَئُونَ إِلَى القُبُورِ، وَيَسْتَغِيثُونَ بِالأَمْوَاتِ، يَطْلُبُونَ مِنْهُمُ الشَّفَاعَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨] يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَ اللهِ.

أَمَّا الوَسَطُ: فَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، لَمْ يَنْفُوا الشَّفَاعَةَ مُطْلَقًا وَلَمْ يُثْبِتُوهَا مُطْلَقًا، بَلْ أَثْبَتُوهَا بِالشَّرْطَيْنِ الوَارِدَيْنِ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. هَذَا حَاصِلُ البَحْثِ فِي الشَّفَاعَةِ.

وقَوْلُهُ: (**المُذْنِبِيْنَ الخَاطِئِيْنَ**) يَعْنِي تكون الشفاعة لِلمُؤْمِنِيْنَ المُذْنِبِيْنَ، الَّذِيْنَ لَمْ يَصِلُوا إِلَى حَدِّ الكُفْرِ.

(**وَعَلَى الصِّرَاطِ**) أَيْ: وَيَشْفَعُ النَّبِيُّ ﷺ لِلمُؤْمِنِينَ حالَ مُرُورِهِمْ عَلَى الصِّرَاطِ، ويَشْفَعُ لِمَنْ دَخَلَ النَّارَ بِإِخْرَاجِهِ مِنْهَا إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، فَيَشْفَعُ عَلَى الصِّرَاطِ إِذَا مَرَّ النَّاسُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الجِسْرُ المَنْصُوبُ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، يَمُرُّ

النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ البَصَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالفَرَسِ الجَوَادِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَرُكَّابِ الإِبِلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمَنْ يُخْطَفُ وَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ، كُلُّ الخَلائِقِ تَمُرُّ عَلَى هَذَا الجِسْرِ، المُؤْمِنُونَ وَالكُفَّارُ، وَلا يُنْجِيهِمْ إِلاَّ أَعْمَالُهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١] يَعْنِي عَلَى الصِّرَاطِ ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧١-٧٢] فَلا يَنْجُو إِلاَّ أَهْلُ التَّقْوَى، وَأَمَّا الكُفَّارُ فَإِنَّهُمْ يَهْلِكُونَ فِي جَهَنَّمَ - وَالعِيَاذُ بِالله - هَذَا هُوَ الصِّرَاطُ.

قَوْلُهُ: (وَللهِ بَعْدَ ذَلِكَ تَفَضُّلٌ كَثِيرٌ عَلَى مَنْ يَشَاءُ) وَقَدْ يُخْرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ بَعْضَ المُؤْمِنِيْنَ بِغَيْرِ شَفَاعَةِ الشَّافِعِيْنَ، بَلْ بِفَضْلِهِ ﷻ، يُخْرِجُ أُنَاسًا مِنَ النَّارِ بِفَضْلِهِ سُبْحَانَهُ، بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ مِنْ أَحَدٍ، بَلْ بِفَضْلِهِ - جَلَّ وَعَلا -.

قَوْلُهُ: (وَالخُرُوجُ مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا احْتَرَقُوا وَصَارُوا فَحْمًا) اللهُ - جَلَّ وَعَلا - أَخْبَرَ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ المُخَلَّدِينَ فِيهَا لا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلا يَحْيَونَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ٩-١٣] فَالَّذِي لا يَقْبَلُ المَوْعِظَةَ وَيَسْتَمِرُّ فِي غَيِّهِ فَهَذَا يَدْخُلُ جَهَنَّمَ، وَيَبْقَى فِيهَا لا يَحْيَا حَيَاةً مُرِيحَةً، وَلا يَمُوتُ مَوْتًا مُرِيحًا، بَلْ يَبْقَى فِي عَذَابٍ، أَمَّا مَنْ دَخَلَهَا مِنْ عُصَاةِ المُوَحِّدِيْنَ فَإِنَّهُ يَحْتَرِقُ وَيَصِيرُ فَحْمًا، ثُمَّ يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ، وَيُوْضَعُ فِي نَهْرٍ يُقَالُ لَهُ: نَهْرُ الحَيَاةِ، فَتَنْبُتُ أَجْسَامُهُمْ، فَإِذَا تَكَامَلَتْ أَجْسَامُهُمْ أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّةِ.

[٢٢] قَالَ المؤَلِّفُ ﵀: وَالإِيمَانُ بِالصِّرَاطِ عَلَى جَهَنَّمَ، يَأْخُذُ الصِّرَاطُ مَنْ شَاءَ اللهُ، وَيَجُوزُ مَنْ شَاءَ اللهُ، وَيَسْقُطُ فِي جَهَنَّمَ مَنْ شَاءَ اللهُ وَلَهُمْ أَنْوَارٌ عَلَى قَدْرِ إِيمَانِهِمْ.

الشَّرْحُ

مِمَّا يَجْرِي فِي يَوْمِ القِيَامَةِ: المُرُورُ عَلَى الصِّرَاطِ كَمَا مَرَّ ذِكْرُهُ.

وَالصِّرَاطُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الطَّرِيقُ، وَالمُرَادُ بِهِ هُنَا: الجِسْرُ المَضْرُوبُ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ دَقِيقٌ جِدًّا؛ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ، وَأَحَرُّ مِنَ الجَمْرِ، يَمُرُّ الخَلائِقُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، فَمَنْ نَجَا فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ لَمْ يَنْجُ هَلَكَ، وَمُرُورُ النَّاسِ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ البَصَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالبَرْقِ الخَاطِفِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كأجاويد الخيل، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كركاب الإبل، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْوًا عَلَى قَدَمَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْطَفُ ويُلْقَى فِي جَهَنَّمَ. وَهَذَا مَذْكُورٌ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، وَفِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم ٦٨-٧١] يَعْنِي جَهَنَّمَ، وَهَذَا الوُرُودُ هُوَ المُرُورُ عَلَى الصِّرَاطِ، فَهَذَا هُوَ الوُرُودُ المَذْكُورُ فِي القُرْآنِ، وَالخِطَابُ لِلْمُؤْمِنِيْنَ وَغَيْرِهِمْ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ يَمُرُّ عَلَيْهِ المُؤْمِنُونَ والكُفَّارُ وَالمُنَافِقُونَ وَكُلُّ الخَلق يَمُرُّونَ عَلَى هَذَا الصِّرَاطِ، فَمَنْ نَجَا مِنْهُ دَخَل الجَنَّةَ، وَمَنْ سَقَطَ هَلَكَ، ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ وَلا يُنَجِّي إِلاَّ التَّقْوَى، لا يُنَجِّي قُوَّةُ البَدَنِ، وَلا كَثْرَةُ المَالِ، وَلا الجَاهُ، مَا يُنَجِّي إِلاَّ تَقْوَى اللهِ ﷻ، هَذَا نَصُّ القُرْآنِ الكَرِيْمِ.

وَجَاءَتْ فِي السُّنَّةِ أَحَادِيثُ فِي أَهْوَالِ القِيَامَةِ وَمِنْهَا: المُرُورُ عَلَى الصِّرَاطِ،

فَلَا بُدَّ مِنَ الإِيْمَانِ بِالصِّرَاطِ وَالمُرُورِ عَلَيْهِ، وَلايَكْفِي الإِيْمَانُ بِذَلِكَ بَلْ لَا بُدَّ مِنَ العَمَلِ، فَيَسْتَعِدُّ الإِنْسَانُ لِلْمُرُورِ عَلَيْهِ بِالتَّقْوَى، وَهِيَ العَمَلُ الصَّالِحُ.

قَوْلُهُ: (يَأْخُذُ الصِّرَاطُ مَنْ شَاءَ اللهُ، وَيَجُوزُ مَنْ شَاءَ اللهُ) كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧٢] لأَنَّ الصِّرَاطَ عَلَيْهِ كَلالِيبُ تَخْطِفُ مَنْ أُمِرَتْ بِخَطْفِهِ.

(ويَجُوزُ) يَعْنِي: يَمُرُّ عَلَيْهِ.

قَوْلُهُ: (وَلَهُمْ أَنْوَارٌ عَلَى قَدْرِ إِيمَانِهِمْ) فِي يَوْمَ القِيَامَةِ أَهْلِ الإِيْمَان يَكُون لَهُمْ نور يمشون بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم:٨]، ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد:١٢]، الْمُنَافِقُونَ يُعْطَوْنَ نُورًا فِي الأَوَّلِ لأَنَّهُمْ دَخَلُوا فِي الإِسْلامِ وَأَظْهَرُوا الإِسْلامَ فَيُعَامَلُونَ بِمِثْلِ مَا أَظْهَرُوا، يُعْطَوْنَ نُورًا مِنْ بَابِ الخِدَاعِ، كَمَا أَنَّهُم خَادَعُوا بِإِسْلامِهِمْ فَيُعْطَوْنَ نُورًا خِدَاعًا لَهُمْ، ثُمَّ يَنْطَفِئُ نُورُهُمْ، وَيَبْقَوْنَ فِي ظُلْمَةٍ، ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا﴾ يَعْنِي: انْتَظِرُوا، لأَنَّهُم يَمْشُونَ خَلْفَ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿انظُرُونَا﴾ يَعْنِي انْتَظِرُونَا ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ يَعْنِي فِي الدُّنْيَا ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد:١٤-١٥] فَالإِيْمَانُ يَكُونُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ يَسِيرُ بِهِ صَاحِبُهُ، بَيْنَمَا الكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فِي ظُلْمَةٍ وَالعِيَاذُ بِالله لايَدْرُونَ أَيْنَ يَذْهَبُونَ.

[٢٣] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِالأَنْبِيَاءِ وَالمَلائِكَةِ.

الشَّرْح

مِنْ أُصُولِ الإِيْمَانِ وَأَرْكَانِ الإِيْمَانِ: الإِيْمَانُ بِالمَلائِكَةِ وَالأَنْبِيَاءِ، وَهَذَا كَمَا فِي حَدِيْثِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ حِيْنَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: (أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيْمَانِ؟ قَالَ: الإِيْمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)(١) وَفِي القُرْآنِ: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة:١٧٧]، وَفِي قوله تَعَالَى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة:٢٨٥].

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦]، فَيَجِبُ الإِيْمَانُ بَالمَلائِكَةِ كُلِّهِمْ مَنْ سَمَّى اللهُ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يُسَمِّ وَالمَلائِكَةُ: جَمْعُ مَلَكٍ، وَهُمْ عَالَمٌ مِنْ عَالَمِ الغَيْبِ، خَلَقَهُمُ اللهُ مِنَ النُّورِ، وَأَمَّا الجِنُّ فَاللهُ خَلَقَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَأَمَّا الإِنْسُ فَإِنَّ خَلْقَهُمْ مِنْ طِيْنٍ ثُمَّ مِنْ مَاءٍ مَهِيْنٍ، كَمَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ. فَالإِيْمَانُ بِالمَلائِكَةِ كُلِّهِمْ مَنْ سَمَّى اللهُ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يُسَمِّ نُؤْمِنُ بِهِمْ جَمِيعًا، أَمَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِبَعْضِهِمْ وَيَكْفُرُ بِبَعْضِهِمْ فَهُوَ كَافِرٌ بِالجَمِيعِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٩٧-٩٨]، فَالَّذِي يَكْفُرُ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩، ١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

بِمَلَكٍ وَاحِدٍ مِنَ المَلائِكَةِ كَافِرٌ بِجَمِيعِ المَلائِكَة، كَاليَهُودِ الَّذِيْنَ يَقُولُونَ: جِبْرِيلُ عَدُوٌّ لَنَا، لَوْ كَانَ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ غَيْرَ جِبْرِيلِ لأَطَعْنَاهُ، لَكِنْ نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ وَهُوَ عَدُوُّنَا فَلا نُؤْمِنُ بِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿**قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ**﴾ [البقرة:٩٧] لَيْسَ هُوَ مِنْ جِبْرِيلَ، إِنَّمَا هُوَ مِنَ اللهِ - جَلَّ وَعَلا - وجِبْرِيلُ إِنَّمَا هُوَ رَسُولٌ مِنَ اللهِ مُوْكَّلٌ بِالوَحْيِ.

وَمِنَ الطَّوَائِفِ الضَّالَّةِ المُنْتَسِبَةِ لِلإِسْلامِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ جِبْرِيلَ خَانَ الأَمَانَةَ، لأَنَّ الرِّسَالَةَ كَانَتْ لِعَلِي وَلَكِنَّ جِبْرِيلَ خَانَ الأَمَانَةَ وَأَدَّاهَا لِمُحَمَّدٍ ﷺ! قَالَ شَاعِرُهُمْ (خَانَ الأَمِيْنُ فَصَدَّهَا عَنْ حَيْدَر) يَعْنِي: عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه.

قَالَ المُؤَلِّفُ: (**وَنُؤْمِنْ بِالرُسُل وَالأَنْبِيَاء**)

- **وَالنَّبِيُّ**: مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ، وَلَمْ يُؤْمَرْ بِتَبْلِيغِهِ.
- **وَالرَّسُولُ**: مَنْ أُوحِي إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ.

وَالفَرْقُ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ أَنَّ الرَّسُولَ يُبْعَثُ بِشَرِيعَةٍ مُنَزَّلَةٍ عَلَيْهِ، بِخِلافِ النَّبِيِّ فَإِنَّهُ يُبْعَثُ بِشَرِيعَةٍ مُنْزَلَةٍ عَلَى مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ، كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّهُم بُعِثُوا بِرِسَالَةِ مُوسى عليه السلام بِالتَّوْرَاةِ ﴿**إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ**﴾ [المائدة:٤٤] فَهُم يَحْكُمُونَ بِالتَّوْرَاةِ الَّتِي أُنزِلَتْ عَلَى مُوْسَى عليه السلام، وَلَمْ يَأْتُوا بِشَرِيعَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ، بِخِلافِ الرَّسُولِ فَإِنَّهُ يَأْتِي بِشَرِيعَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ وَيُؤْمَرُ بِتَبْلِيغِهَا، أَمَّا النَّبِيُّ فَيُؤْمَرُ بِتَبْلِيغِ رِسَالَةِ مَنْ قَبْلَهُ، وَقَدْ يُوحَى إِلَيْهِ فِي قَضِيَّةٍ خَاصَّةٍ، هَذَا هُوَ الفَرْقُ، وَمَنْ كَفَرَ بِنَبِيٍّ وَاحِدٍ فَهُوَ كَافِرٌ بِالجَمِيعِ، كَافِرٌ حَتَّى بِالنَّبِيِّ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِهِ، لأَنَّ الأَنْبِيَاءَ إِخْوَةٌ، قَالَ ﷺ: «**الأَنْبِيَاءُ إِخوةٌ لِعَلاَّتٍ**»[1] سِلْسِلَةٌ وَاحِدَةٌ، طَرِيْقَتُهُمْ وَاحِدَةٌ،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٨)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فَمَنْ كَذبَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ فَهُوَ مُكَذِّبٌ بالجَمِيعِ، لأَنَّ الَّذِي مَعَ هَذَا مَعَ الآخَرِ، كُلُّهُمْ رُسُلُ الله. فَالَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِمُوسَى كَاليَهُودِ وَيَكْفُرُونَ بِعِيسَى وَبِمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا الصَّلاةُ وَالسَّلامُ -؛ فَهَؤُلاءِ كَافِرونَ بِجَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ، حَتَّى النَّبِيِّ الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُم يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَهُوَ مُوسَى عليه السلام، لأَنَّ فِي الكِتَابِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ذِكْرًا لِمُحَمَّدٍ ﷺ قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧] ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦] لَكِنْ حَمَلَهُمُ الحَسَدُ عَلَى الكُفْرِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ لأَنَّهم يُرِيدُونَ أَنْ لا تَخْرُجَ النُّبُوَّةُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَهُمْ يَحْتَكِرُونَ فَضْلَ الله، ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء:٥٤] فَالَّذِي حَمَلَهُمْ هُوَ الحَسَدُ وَالبَغْيُ، وَإِلاَّ فَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ الله؛ لأَنَّهم يَجِدُونَهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ. كَذَلِكَ عِيسَى عليه السلام بَشَّرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦] وَمَنِ الرَّسُولُ الَّذِي جَاءَ بَعْدَ عِيسَى؟ لَمْ يَأْتِ بَعْدَ عِيسَى رَسُولٌ إِلاَّ مُحَمَّدٌ ﷺ وَاسْمُهُ أَحْمَدُ، وَاسْمُهُ مُحَمَّد، وَلَهُ أَسْمَاءٌ كَثِيْرَةٌ؛ فَالَّذِي يَكْفُرُ بِعِيْسَى كَافِرٌ بِالجَمِيعِ، وَالَّذِي يَكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ كَافِرٌ بِالجَمِيعِ، وَلِهَذَا قَالَ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥] مَعَ أَنَّ أَوَّلَ الرُّسُلِ نُوحٌ وَهُمْ كَذَّبُوا نُوحًا، لَكِنْ قَالَ: كَذَّبُوا المُرْسَلِيْنَ يَعْنِي الَّذِينَ جَاءوا مِنْ بَعْدِهِ، لأَنَّ مَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ فَهُوَ مُكَذِّبٌ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٤١]، ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٧٦]، فَالَّذِي يَكْفُرُ بِوَاحِدٍ هُوَ كَافِرٌ بِالجَمِيعِ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن

يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء:١٥٠-١٥١] مَعَ أَنَّهُم يُؤْمِنُونَ ببَعْضٍ، لَكِنْ لا يَكْفِي الإِيْمَانُ بِالبَعْضِ، بل لَا بُدَّ مِنَ الإِيْمَانِ بِالجَمِيعِ لأَنَّهُم كُلَّهُمْ رُسُلُ الله، وَكُلُّهُمْ جَاءوا مِنْ عِنْدِ الله ﷻ، يُبَشِّرُ أَوَّلُهُمْ بِآخِرِهِمْ، وَيُؤْمِنُ آخِرُهُمْ بِأَوَّلِهِمْ عَلَيْهِم الصَّلاةُ وَالسَّلامُ. هَذَا مَذْهَبُ المُسْلِمِينَ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ.

[٢٤] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالإِيمَانُ بِأَنَّ الجُنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ، وَأَنَّهُمَا مَخْلُوقَتَانِ، الجُنَّةُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَسَقْفُهَا الْعَرْشُ، وَالنَّارُ تَحْتَ الأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَى، وَهُمَا مَخْلُوقَتَانِ، قَدْ عَلِمَ اللهُ تَعَالَى عَدَدَ أَهْلِ الجُنَّةِ وَمَنْ يَدْخُلُهَا، وَعَدَدَ أَهْلِ النَّارِ وَمَنْ يَدْخُلُهَا، لاتَفْنَيَانِ أَبَدًا، بَقَاؤُهُمَا مَعَ بَقَاءِ اللهِ أَبَدَ الآبِدِّينَ، وَدَهْرَ الدَّاهِرِينَ، وَآدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِي الجُنَّةِ الْبَاقِيَةِ المُخْلُوقَةِ، فَأُخْرِجَ مِنْهَا بَعْدَمَا عَصَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ.

الشَّرْحُ

مِنْ أَرْكَانِ الإِيمَانِ: الإِيْمَان بِاليَوْم الآخِرِ بِجَمِيعِ مَا فِيه، وَمِمَّا فِي اليَوْمِ الآخِرِ: الجَنَّةُ وَالنَّارُ، وَهُمَا دَارا الجَزَاءِ، فالمُؤْمِنُونَ فِي الجَنَّةِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلمُتَّقِيْنَ، وَالكُفَّارُ فِي النَّارِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِيْنَ، فَهُمَا دَارا الجَزَاءِ، والدُّنْيَا دَارُ عَمَلٍ لَيْسَ فِيْهَا جَزَاءٌ، والآخِرَةُ دَارُ جَزَاءٍ وَلَيْسَ فِيْهَا عَمَلٌ، فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالجَنَّةِ وَالنَّارِ فَهُوَ كَافِرٌ، لأَنَّهُ لَابُدَّ أَنْ يَشْمَلَ الإِيْمَانُ كُلَّ مَا صَحَّ فِي اليَوْمِ الآخِرِ وَمِنْ ذَلِكَ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، هَذَا مَذْكُورٌ فِي القُرْآنِ فِي مَوَاضِعَ، فَالَّذِي يَكْفُرُ بِهِمَا أَوْ يُؤَوِّلُهُمَا كَالقَرَامِطَةِ وَالبَاطِنِيَّةِ فَإِنَّهُمْ يُؤَوِّلُونَهُمَا فَهَؤُلاءِ كُفَّارٌ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلا بُدَّ مَنَ الإِيْمَانِ بِالجَنَّةِ وَالنَّارَ، وَأَنَّهُمَا دَارَانِ حَقِيقِيَّتَانِ، دَارٌ لِلْمُتَّقِيْنَ وَدَارٌ لِلكَافِرِيْنَ، وَهُمَا بَاقِيَتَانِ، وهُمَا مَوْجُودَتَانِ الآنَ، مَخْلُوقَتَانِ الآنَ، وَبَاقِيَتَانِ لا تَفْنَيَانِ قَالَ تَعَالَى فِي الجَنَّةِ: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران:١٣٣]، وَقَالَ فِي النَّارِ: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٣١]، وكَلِمَةُ (**أُعِدَّتْ**): دَليلٌ عَلَى أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ وَمُعَدَّةٌ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهَا تُخْلَقُ فِيْمَا بَعْدُ، بِدَلِيْلِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ أَشْيَاءَ تَدُلُّ عَلَى وُجُودِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، مِنْهَا قَوْلُهُ ﷺ: «**إِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جهَنَّمَ**»(١) وَقَالَ فِي شِدَّةِ البَرْدِ: «**جَعَلَ اللهُ لِجَهَنَّمَ نَفَسَيْنِ:**

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١١)، ومسلم (٦١٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وأخرجاه =

نَفَسًا فِي الصَّيفِ، وَذَلِكَ أَحَرُّ مَا تَجِدُونَ، وَنَفَسًا فِي الشِّتَاءِ، وَذَلِكَ شِدَّةُ البَرْدِ فَهوَ مِنْ زَمْهَرِيرِ جهَنَّمَ»(١) فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمَا مَوْجُودَتانِ، وَالجَنَّةُ كذَلِكَ مَوْجُودَةٌ أَعَدَّهَا اللهُ لِلمُتَّقِيْنَ، وَوَكَّلَ بِهِمَا مَلائِكَةً، وَفِي حَدِيْثِ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَأَنَّ عِيْسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»(٢) الشَّاهِدُ فِي قَوْلِهِ: «بِأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ»، وَفِي اسْتِفْتَاحِ النَّبِيِّ ﷺ لِصَلاةِ اللَّيْلِ أَنَّهُ قَالَ: «لِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ»(٣).

قَوْلُهُ: (وَأَنَّهُمَا مَخْلُوقَتَانِ) أَيْ: مَخْلُوقَتَانِ الآنَ.

قَوْلُهُ: (الجَنَّةُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَسَقْفُهَا الْعَرْشُ) هَذَا صَحَّ فِي الحَدِيثِ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» دَلَّ عَلَى أَنَّ الجَنَّةَ فِي السَّمَاءِ فِي عِلِّيِّيْنَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨] أَعْلَى شَيْءٍ، وَالنَّارُ فِي أَسْفَلِ سَافِلِيْنَ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ [المطففين: ٧-٨].

قَوْلُهُ: (قَدْ عَلِمَ اللهُ تَعَالَى عَدَدَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَمَنْ يَدْخُلُهَا) اللهُ - جَلَّ وَعَلا - عَلِمَ كُلَّ شَيْءٍ بِعِلْمِهِ الأَزَلِيِّ، وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ عَلِمَ أَهْلَ الجَنَّةِ وَمَنْ يَدْخُلُها وَعَلِمَ

= أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥١٢)، ومسلم (٦١٥، ٦١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٢٥٢)، ومسلم (٢٨) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٠٦٩)، ومسلم (٧٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أَهْلَ النَّارِ وَمَنْ يَدْخُلُهَا، لا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ ﷻ شَيْءٌ، كُلُّ شَيْءٍ عَلِمَهُ وَكَتَبَهُ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ.

قَوْلُهُ: **(لاتَفْنيَانِ أَبَدًا)** الجَنَّةُ وَالنَّارُ دَارَانِ بَاقِيَتَانِ لا تَفْنيَانِ أَبَدًا، وهَذَا فِيهِ رَدٌّ عَلَى مَنْ يَرَى أَنَّ الجَنَّةَ وَالنَّارَ تَفْنيَانِ، وَيقُولُونَ: لِئَلاَّ تُشَارِكَ اللهَ فِي البَقَاءِ، وَهُمُ الَّذِينَ يَمْنَعُونَ التَّسَلْسُلَ فِي المَاضِي، وَالتَّسَلْسُلَ فِي المُسْتَقْبَلِ، جَهْلًا مِنْهُم. وَنَقُولُ: هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ أَبَدِيَّةِ الله وَأَبَدِيَّةِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، أَبَدِيَّةُ الله - جَلَّ وَعَلا - لائِقَةٌ بِهِ، صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ - جَلَّ وَعَلا -، وَأَمَّا أَبَدِيَّةُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ فَهِيَ بِإِبْقَاءِ الله وَخَلْقِ الله ﷻ؛ فَهِيَ أَبَدِيَّةٌ مُكْتَسَبَةٌ، اللهُ - جَلَّ وَعَلا - هُوَ الَّذِي أَعْطَاهَا التَّأْبِيدَ، أَمَّا اللهُ - جَلَّ وَعَلا - فَأَزَلِيَّتُهُ وَأَبَدِيَّتُهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ.

قَوْلُهُ: **(بَقَاؤُهُمَا مَعَ بَقَاءِ الله أَبَدَ الآبِدِّيْنَ)** بَقَاؤُهُمَا مَعَ بَقَاءِ الله، وَبَقَاءُ الله لا نِهَايَةَ لَهُ، فَكَذَلِكَ بَقَاءُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ لا نِهَايَةَ لَهُمَا، وَلاتَشَابُهَ بَيْنَ البَقَائَيْنِ وَالأَبْدِيَّتَيْنِ، كَسَائِرِ الصِّفَاتِ.

قَوْلُهُ: **(وَدَهْرَ الدَّاهِرِيْنَ)** «دَهْرَ الدَّاهِرِيْنَ» تَأْكِيدٌ.

قَوْلُهُ: **(وَآدَمُ ﷺ كَانَ فِي الجَنَّةِ البَاقِيَةِ المَخْلُوقَةِ)** لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَحَصَلَ مَا حَصَلَ مِنْ إِكْرَامِ الله لَهُ، وَإِظْهَارِ فَضْلِهِ عَلَى المَلائِكَةِ حَسَدَهُ إِبْلِيسُ عَلَى ذَلِكَ وأبى أَنْ يَسْجُدَ لَهُ، وَعَصَى اللهَ ﷻ مِنْ بَابِ الحَسَدِ وَالكِبْرِ، اللهُ - جَلَّ وَعَلا - قَالَ لآدَمَ: ﴿**ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا**﴾ [البقرة:٣٥] فَهَبَطُوا إِلَى الأَرْضِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لآدَمَ لأَنَّهُ تَابَ إِلَى الله هُوَ وَزَوْجُهُ ﴿**قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ**﴾ [الأعراف:٢٣]، ﴿**وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ**﴾ [طه:١٢١-١٢٢] فَتَابَ آدَمُ وَحَوَّاءُ ﷤ إِلَى الله فَتَابَ اللهُ عَلَيْهِما، أَمَّا إِبْلِيسُ فَإِنَّهُ اسْتَمَرَّ فِي غَيِّهِ وَلَمْ يَتُبْ، وَلِذَلِكَ طَرَدَهُ اللهُ مِنْ رَحْمَتِهِ

وَلَعَنَهُ، وَجَعَلَهُ قَوَّادًا لِكُلِّ شَرٍّ.

قَوْلُهُ: (**فَأُخْرِجَ مِنْهَا بَعْدَمَا عَصَى اللهَ ﷻ**) إِخْرَاجُهُ مِنَ الجَنَّةِ عُقُوبَةً لَهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، لَكِنَّهُ تَابَ إِلَى اللهِ ﷻ كَمَا ذَكَرَ اللهُ ذَلِكَ فِي القُرْآنِ.

[٢٦] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالإِيْمَـانُ بالْـمَسِيحِ الدَّجَّالِ.

الشَّرْح

مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ: الإِيْمَانُ بِالمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ يَخْرُجُ فِي اليَهُودِ وَيَتْبَعُهُ اليَهُودُ، وَهُوَ المَهْدِيُّ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ اليَهُودُ، لأَنَّ المَهْدِيَّ كُلٌّ يَدَّعِيهِ، اليَهُودُ يَدَّعُونَهُ وَمَهْدِيُّهُمْ هُوَ المَسِيحُ الدَّجَّالِ، والشِّيْعَةُ يَنْتَظِرُونَ المَهْدِيَّ المُخْتَفِي فِي السِّرْدَابِ كَمَا يَقُولُونَ مِنْ ذُرِّيَّةِ الحُسَيْنِ رضي الله عنه، وأَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ يَنْتَظِرُونَ المَهْدِيَّ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُ الرَّسُولُ ﷺ فِي الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ المُتَوَاتِرَةِ فِي المَعْنَى وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَيْتِ الرَّسُولِ ﷺ وَمِنْ آلِ الحَسَنِ بن عَلِيٍّ، يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَيُبَايِعُهُ المُسْلِمونَ، وَيُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَيَمْلأُ الأَرْضَ عَدْلًا، وَيُصَلِّي بِالمُسْلِمينَ، وبَيْنَمَا هُمْ كَذلِكَ إِذْ خَرَجَ المَسِيحُ الدَّجَّالُ، فَلا يَزَالُ المُسْلِمونَ فِي عَنَاءٍ مِنْهُ حَتَّى يَنْزِلَ عِيْسَى ابنُ مَرْيَمَ عليه السلام. فهُنَاكَ مَسِيحَانِ:

- مَسِيحُ الضَّلالَةِ وَهُوَ الدَّجَّالُ.
- وَمَسِيحُ الهِدَايَةِ وَهُوَ عِيْسَى ابنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

وَالمَسِيحُ الدَّجَّالُ سُمِّيَ بالمَسِيحِ لِسُرْعَةِ سَيْرِهِ فِي الأَرْضِ، لأَنَّهُ يُهَيِّئُ اللهُ لَهُ مِنَ الأَسْبَابِ مَا يُمَكِّنُهُ مِنْ سُرْعَةِ السَّيْرِ فِي الأَرْضِ، لِلأذَى وَلِلشَّرِّ وَالفِتْنَةِ، وَسُمِّيَ بِالدَّجَّالِ مِنَ الدَّجلِ وَهُوَ الكَذِبُ، لأَنَّ الدَّجَّالَ: هُوَ المُبَالِغُ فِي الدَّجلِ وَهُوَ الكَذِبُ، لأَنَّهُ كَذَّابٌ، حَتَّى إِنَّهُ يَدَّعِي أَنَّهُ هُوَ اللهُ، وَيَفْتَتِنُ النَّاسُ بِسَبَبِهِ إِلاَّ مَنْ ثَبَّتَهُ اللهُ، وَمَعَهُ جَنَّةٌ وَنارٌ، وَيَعْمَلُ خَوارِقَ وَهِيَ: خَوَارِقُ شَيْطَانِيَّةٌ لَيْسَتْ كَرَامَاتٍ، وَإِنَّمَا هِيَ خَوَارِقُ شَيْطَانِيَّةٌ، يُجْرِيهَا اللهُ عَلَى يَدِهِ لِلْفِتْنَةِ وَابْتِلاءِ العِبَادِ.

فَخَطَرُهُ شَدِيدٌ وَلِذَلِكَ حَذَّرَتْ مِنْهُ الأَنْبِيَاءُ، وَأَكْثَرُ مَنْ حَذَّرَ مِنْهُ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ وَأَمَرَنَا أَنْ نَسْتَعِيذَ مِنْ فِتْنَتِهِ فِي صَلاتِنَا فِي التَّشَهُّدِ الأَخِيرِ، حَيْثُ نَسْتَعِيذُ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ: مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيْحِ الدَّجَّالِ.

وفِتْنَتُهُ هِيَ أَكْبَرُ فِتْنَةٍ تَجْرِي عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ - وَالعِيَاذُ بِاللهِ -، هَذَا هُوَ المَسِيْحُ الدَّجَّالِ. وبَيْنَمَا هُوَ كذَلِكَ قَدْ ضَايَقَ المُسْلِمِينَ وَآذَاهُمْ وَامْتَحَنَهُمْ وَإِذَا بِالمَسِيْحِ عِيْسَى ابنِ مَرْيَمَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، فَيَطْلُبُ الدَّجَّالَ وَيَقْتُلُهُ، وَيُرِيحُ المُسْلِمِينَ مِنْهُ، وَيَتَوَلَّى الأَمْرَ، وَيَعْدِلُ فِي الأَرْضِ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ، وَلا يَبْقَى دِيْنٌ إِلاَّ دِيْنَ الإِسْلام، تَبْطُلُ اليَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ وَأَدْيَانُ الكُفْرِ وَلا يَبْقَى إِلاَّ الإِسْلامُ، وَيَحْكُمُ بِشَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيَكُونُ تَابِعًا لَهُ، لأَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالمَسِيْحُ إِنَّمَا يَنْزِلُ تَابِعًا لِلرَّسُولِ ﷺ، وَحَاكِمًا بِشَرِيعَتِهِ شَرِيعَةِ الإِسْلامِ. هَذَا هُوَ مَا يَكُونُ مِنْ ظُهُورِ الدَّجَّالِ، وَمِنْ نُزُولِ المَسِيْحِ.

وسُمِّيَ عِيْسَى مَسِيحًا: قِيلَ لأَنَّهُ يَمْسَحُ ذَا العَاهَةِ فَيَبْرَأُ بِإِذْنِ اللهِ، وَهَذَا مِنْ مُعْجِزَاتِهِ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ -، أَنَّهُ يَمْسَحُ بِيَدِهِ عَلَى الأَعْمى وَالأَبْرَصِ وَالأَكْمَهِ فَيَزُولُ مَرَضُهُ بِمَسْحَتِهِ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ -، ولِذَلِكَ سُمِّيَ المَسِيْحَ بِمَعْنَى المَاسِحِ.

[٢٧] قَالَ المُؤَلِّفُ ﷺ: وَالإِيمَانُ بِنُزُولِ عِيسَى ابنِ مَرِيَمَ ﷺ، يَنْزِلُ فَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ، وَيَتَزَوَّجُ، وَيُصَلِّي خَلْفَ الْقَائِمِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَيَمُوتُ وَيَدْفِنُهُ المُسْلِمُونَ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (**وَالإِيمَانُ بِنُزولِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ**) وَهُوَ مِنْ عَلامَاتِ السَّاعَةِ الكُبرَى.

(**نُزُولُهُ**) يَعْنِي مِنَ السَّمَاءِ، لأَنَّ اللهَ رَفَعَهُ، لَمَّا أَرَادَ اليَهُودُ قَتْلَهُ وَجَاءوا إِلَيْهِ لِيُبَاشِرُوا قَتْلَهُ وَصَلْبَهُ وَدَخَلُوا عَلَيْهِ رَفَعَهُ اللهُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَهُمْ لايَشْعُرُونَ، وَأَلْقَى شِبْهَهُ عَلَى رَجُلٍ فَقَتَلُوا ذَلِكَ الرَّجُلَ يَظُنُّونَ أَنَّهُ المَسِيحُ، وَلَيْسَ هُوَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ**﴾ [النساء:١٥٧] فَأَلْقَى اللهُ شِبْهَهُ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ. قِيلَ: لأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ هُوَ الَّذِي دَلَّهُمْ عَلَيْهِ، فَعَاقَبَهُ اللهُ. وَقِيلَ: إِنَّهُ مِنْ أَتْبَاعِ عِيسَى مِنَ الحَوَارِيِّينَ قَالَ لَهُ عِيسَى ﷺ: سَيُلْقَى عَلَيْكَ شِبْهِي وَتَكُونُ لَكَ الجَنَّةُ، فَصَبَرَ الرَّجُلُ وَتَقَبَّلَ هَذَا الشِّبْهَ وَالقَتْلَ وَالصَّلْبَ، لأَنَّهُ يُرِيدُ الجَنَّةَ بِذَلِكَ.

قَوْلُهُ: (**يَنْزِلُ فَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ**) يَقْتُلُ الدَّجَّالَ بِبَابِ لُدٍّ وَهُوَ مَكَانٌ مَعْرُوفٌ، يَطْلُبُ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ ﷺ الدَّجَّالَ، فَإِذَا رَآهُ ذَابَ، كَمَا يَذُوبُ المِلْحُ فِي المَاءِ، ثُمَّ يَدْنُو مِنْهُ فَيَضْرِبُهُ بِحَرْبَتِهِ، فَيَقْتُلُهُ.

قَوْلُهُ: (**وَيَتَزَوَّجُ، وَيُصَلِّي خَلْفَ الْقَائِمِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ**)، قَوْلُهُ (**يَتَزَوَّجُ**) جَاءَ فِي بَعْضِ الآثَارِ لَكِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ، أَمَّا أَنَّهُ يُصَلِّي خَلْفَ المَهْدِيِّ فَهَذَا ثَابِتٌ، يَطْلُبُ مِنْهُ المَهْدِيُّ أَنْ يُصَلِّيَ بِالمُسْلِمِينَ، لأَنَّهُ يَنْزِلُ وَقْتَ صَلاةِ الفَجْرِ، والمُسْلِمونَ مُجْتَمِعُونَ لِلصَّلاةِ فَيَطْلُبُ مِنْهُ المَهْدِيُّ أَنْ يُصَلِّيَ بِالمُسْلِمِينَ، فَيَقُولُ المَسِيحُ: «**لا، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ أَئِمَّةٌ**»، فَيُصَلِّي خَلْفَ المَهْدِيِّ.

والقَائِمُ: هُوَ المَهْدِيُّ، مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ، اسْمُهُ كَاسْمِ الرَّسُولِ ﷺ، وَاسْمُ أَبِيْهِ كَاسْمِ أَبِي الرَّسُولِ، وَهُوَ مِنْ بَيْتِ الحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ رضي الله عنه. قَالُوا: الحِكْمَةُ وَاللهُ أَعْلَمُ: أَنَّ الحَسَنَ رضي الله عنه لَمَّا تَنَازَلَ عَنِ الخِلافَةِ لِمُعَاوِيَةَ رضي الله عنه مِنْ أَجْلِ حَقْنِ دِمَاءِ المُسْلِمِينَ، أَكْرَمَهُ اللهُ فَجَعَلَ المَهْدِيَّ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ.

قَوْلُهُ: (وَيَمُوتُ وَيَدْفِنُهُ المُسْلِمُونَ) هَذَا فِي القُرْآنِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء:١٥٩] فَهُوَ يَمُوتُ كَمَا يَمُوتُ كُلُّ البَشَرِ، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤] فَهُوَ يَمُوتُ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ - فِي آخِرِ عُمُرِهِ الَّذِي كَتَبَهُ اللهُ لَهُ، وَيَدْفِنُهُ المُسْلِمُونَ كَمَا يَدْفِنُونَ مَوْتَاهُمْ.

[٢٨] قَالَ المؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمانُ بِأَنَّ الإِيمانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، وَنِيَّةٌ وَإِصَابَةٌ، يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، يَزِيدُ مَا شَاءَ اللهُ، وَيَنْقُصُ حَتَّى لا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ.

الشَّرْحُ

الإِيْمانُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ التَّصْدِيْقُ الجَازِمُ، الَّذِي مَعَهُ ائْتِمانٌ ولا يَعْتَرِيهِ شَكٌّ، فَيُقَالُ: آمَنَ لَهُ أَيْ: صَدَّقَهُ، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف:١٧] أَيْ: لَسْتَ بِمُصَدِّقٍ لَنَا، ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت:٢٦] يَعْنِي: صَدَّقَ عَمَّهُ إِبْرَاهِيْمَ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ -.

أَمَّا الإِيْمانُ فِي الشَّرْعِ: فَإِنَّهُ اعْتِقَادٌ بِالقَلْبِ، وَنُطْقٌ بِاللِّسَانِ وَعَمَلٌ بِالجَوَارِحِ، يزِيدُ بالطَّاعَةِ وينْقُصُ بالمَعْصِيَةِ، لا يَكُونُ الإِيْمانُ إِلاَّ مِنْ مَجْمُوعِ هَذِهِ الأَشْيَاءِ، فَمَنْ آمَنَ بِقَلْبِهِ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِلِسَانِهِ لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا، لأَنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلا - قَالَ فِي الكُفَّارِ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]، وَقَالَ فِي فِرْعَونَ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:١٠٢] وَقَالَ - جَلَّ وَعَلا - عَنِ الكُفَّارِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِهِ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤] فَالإِيْمانُ بِالقَلْبِ وَحْدَهُ لا يَكْفِي كَما تَقُولُهُ المُرْجِئَةُ، وَلَيْسَ بِإِيْمانٍ. وكَذَلِكَ الإِيْمانُ بِاللِّسَانِ وَحْدَهُ أَيْضًا لا يَكْفِي، لأَنَّ هَذَا إِيْمانُ المُنَافِقِيْنَ ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:١١].

والإِيْمانُ بِالقَلْبِ وَالقَوْلِ بِاللِّسَانِ فَقَطْ لايَكْفِيانِ أَيْضًا كَما تَقُولُهُ بَعْضُ المُرْجِئَةِ. هَذَا لا يَكْفِي إِذ لَا بُدَّ مِنَ العَمَلِ بِالجَوَارِحِ، فَالَّذِي يُؤْمِنُ بِقَلْبِهِ وَبِلِسَانِهِ وَلَكِنَّهُ لايُصَلِّي أَبَدًا وَلا يَصُومُ، وَلا يُؤَدِّي حَجَّ الفَرِيضَةِ، وَلا يَعْمَلُ أَيَّ عَمَلٍ مِنَ الأَعْمالِ فهَذَا كَافِرٌ، وَلَو كَانَ يُؤمِنُ بِلِسَانِهِ وَيَنْطِقُ وَيَعْتَقِدُ بِقَلْبِهِ، وَيَشْهَدُ أَنْ

لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، لَكِنَّ تَرْكَهُ العَمَلَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ لايَجْعَلُهُ مُؤْمِنًا، إلاَّ إِذَا تَرَكَ العَمَلَ لِعُذْرٍ كَالْمُكْرَهِ وَالنَّاسِي وَالجَاهِلِ، وَكَذَا الَّذِي دَخَلَ فِي الإِسْلامِ ولَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ العَمَلِ؛ بِأَنْ أَسْلَمَ ثُمَّ مَاتَ فِي الحَالِ، فَهَذَا لا يُحْسَبُ عَلَيْهِ العَمَلُ لأَنَّهُ لَمْ يَتَمَكَّنْ، كَذَلِكَ المَخْبُولُ فِي عَقْلِهِ هَذَا لا يَتَمَكَّنُ مِنَ العَمَلِ، أَمَّا إِذَا كَانَ مُتَمَكِّنًا مِنَ العَمَلِ وَتَرَكَهُ نِهَائِيًّا فَهَذَا لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ.

بَعْضُهُمْ زَادَ فِي تَعْرِيفِ الإِيمَانِ - كَمَا ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ - مَسْأَلَةً رَابِعَةً وَهِيَ اتِّبَاعُ السُّنَّةِ، يَقُولُونَ: (**الإِيمَانُ: قَوْلٌ وَاعْتِقَادٌ وَعَمَلٌ وَسُنَّةٌ**). يَعْنِي: اتِّبَاعَ السُّنَّةِ، يَخْرُجُ بِذَلِكَ الْمُبْتَدِعَةُ الَّذِينَ لايَعْمَلُونَ بِالسُّنَّةِ، وَإِنَّمَا يَعْمَلُونَ بِالْمُحْدَثَاتِ وَهَذَا ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ هُنَا فِي قَوْلِهِ: (**نِيَّةٌ وَإِصَابَةٌ**) أَيْ: عَمَلٌ بِالسُّنَّةِ، أَمَّا الَّذِي يَعْمَلُ عَمَلاً خَاطِئًا بِالبِدَعِ وَالخُرَافَاتِ وَالْمُحْدَثَاتِ فَهَذَا لا يَكُونُ مُؤْمِنًا.

(**وَيَزِيدُ بِالطَّاعَةِ**) هَذَا مِنْ تَمَامِ التَّعْرِيفِ، أَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَهَذَا صَرِيحٌ فِي القُرْآنِ ﴿**وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى**﴾ [مريم:٧٦]، ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**﴾ [الأنفال:٢]، ﴿**وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا**﴾ [المدثر:٣١] هَذَا صَرِيحٌ أَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ، (**وَيَنْقُصُ بِالمَعْصِيَةِ**) لأَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي يَزِيدُ يَنْقُصُ، وأَيْضًا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**أَنَّ الَّذِي لا يُنْكِرُ الْمُنْكَرَ بِقَلْبِهِ لَيْسَ وَرَاء ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ**». دَلَّ عَلَى أَنَّ الإِيمَانَ يَضْعُفُ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ حَبَّةِ الخَرْدَلِ، وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**أَنَّهُ يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ**» فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الإِيمَانَ يَضْعُفُ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ حَبَّةِ الخَرْدَلِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ**﴾ [آل عمران:١٦٧] عِنْدَهُمْ إِيمَانٌ ضَعِيفٌ وَهُمْ لِلْكُفْرِ أَقْرَبُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الإِيمَانَ يَضْعُفُ، حَتَّى إِنَّ صَاحِبَهُ يَكُونُ أَقْرَبَ إِلَى الكُفْرِ - وَالعِيَاذُ بِالله -.

هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: (**وَيَنْقُصُ حَتَّى لا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ**) يَنْقُصُ حَتَّى لا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ وقَدْ يَبْقَى مِنْهُ مقْدَارُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ وَهَذِهِ تَنْفَعُ صَاحِبَهَا يَوْمَ القِيَامَةِ يُخْرَجُ بِهَا مِنَ النَّارِ، وَإِذَا لَمْ يَبْقَ حَبَّةُ خَرْدَلٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ الْمُخَلَّدِينَ فِيْهَا.

[٢٩] قَالَ المُؤَلِّفُ ﷺ: وَأَفْضَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ وَالأُمَمِ كُلِّهَا بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ، ثُمَّ عُثْمَانَ، هَكَذَا رُوِيَ لَنَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ؛ قَالَ: كُنَّا نَقُولُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا: إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانُ، وَيَسْمَعُ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَلا يُنْكِرُهُ.

الشَّرْحُ

أَفْضَلُ القُرُونِ: القَرْنُ الَّذِي بُعِثَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ، وهِيَ القُرُونُ المُفَضَّلَةُ، وأَفْضَلُ القُرُونِ المُفَضَّلَةِ: هُمُ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم، ثُمَّ الصَّحَابَةُ يَتَفَاضَلُونَ فَأَفْضَلُهُمْ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، الَّذِي آمَنَ بِالرَّسُولِ أَوَّلَ مَا جَاءَ ﷺ، وَآزَرَهُ وَدَافَعَ عَنْهُ، وَأَنْفَقَ أَمْوَالَهُ فِي نُصْرَتِهِ، وَلازَمَهُ حَتَّى مَاتَ، ثُمَّ تَوَلَّى الخِلافَةَ مِنْ بَعْدِهِ وَقَامَ بِهَا أَعْظَمَ قِيَامٍ، وَثَبَّتَ اللهُ بِهِ الدِّيْنَ، بَعْدَمَا تَزَلْزَلَتْ أَقْدَامُ النَّاسِ بِوَفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ، ثَبَّتَهُ اللهُ ثَبَاتَ الجِبَالِ، حَتَّى ثَبَّتَ بِهِ الأُمَّةَ، وَرَدَّ بِهِ المُرْتَدِّينَ وَالكُفَّارَ، فَوَطَّدَ الإِسْلامَ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ، ثُمَّ تُوُفِّيَ وَدُفِنَ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ، فَهُوَ صَاحِبُهُ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَهُوَ صَاحِبُهُ فِي الغَارِ، قَالَ تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠] فَهُوَ أَفْضَلُ الأُمَّةِ. ثُمَّ يَلِيهِ: عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه ثَانِي الخُلَفَاءِ ثُمَّ يَلِيهِ: عُثْمَانُ رضي الله عنه، ثُمَّ يَلِيهِ: عَلِيٌّ رضي الله عنه هؤُلاءِ همُ الخُلَفَاءُ الأَربَعَةُ الرَّاشِدُونَ رضي الله عنهم وَأَرْضَاهُمْ.

ثُمَّ بَقِيَّةُ العَشَرَةِ المُفَضَّلِيْنَ المَشْهُودِ لَهُمْ بِالجَنَّةِ، وَهُمُ: الخُلَفَاءُ الأَرْبَعَةُ، وَسَعْدُ ابنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَسَعِيدُ بنُ زَيْدِ بن عَمْرِو بنِ نُفَيلٍ، وَطَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِالله، وَالزُّبَيْرُ ابنُ العَوَّامِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ عَامِرُ بنُ الجَرَّاحِ، وَعَبْدُالرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ؛ فَهَؤُلاءِ هُمُ

العَشَرَةُ المَشْهُودُ لَهُمْ بِالجَنَّةِ، شَهِدَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ بِالجَنَّةِ، فَهُم أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ.

قال النَّبِيّ ﷺ: **«أبو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الجَنَّةِ، وَعَبْدُالرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ فِي الجَنَّةِ، وَسَعْدُ ابنُ أبِي وَقَّاصٍ فِي الجَنَّةِ وَسَعِيدُ بن زَيْدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ فِي الجَنَّةِ، وأبو عُبَيْدَةَ ابنُ الجَرَّاحِ في الجَنَّةِ»**(١).

ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِمْ: أَصْحَابُ غَزْوَةِ بَدْرٍ، ثُمَّ أَصْحَابُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ مِنَ المُهَاجِرِيْنَ وَالأَنْصَارِ، ثُمَّ الَّذِيْنَ أَسْلَمُوا وَهَاجَرُوا قَبْلَ الفَتْحِ، أَفْضَلُ مِنَ الَّذِيْنَ أَسْلَمُوا وَهَاجَرُوا بَعْدَ الفَتْحِ، فَهُمْ يَتَفَاضَلُونَ رضي الله عنهم، حَسَبَ سَابِقَتِهِمْ فِي الإِسْلامِ، وَمَقَامِهِمْ فِي الإِسْلامِ، وَلَهُمُ الفَضِيْلَةُ العَامَّةُ الَّتِي لايَبْلُغُهَا أَحَدٌ وَهِيَ: الصُّحْبَةُ لِرَسُولِ الله ﷺ، والهِجْرَةُ، فالمُهَاجِرُونَ أَفْضَلُ مِنَ الأَنْصَارِ، هَذِهِ فَضِيلَةٌ عَامَّةٌ لِجَمِيعِهِمْ، لاَ يَبْلُغُهَا أَحَدٌ مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَهُم، فَهُمْ أَفْضَلُ القُرُونِ وَخَيْرُ القُرُونِ رضي الله عنهم وَأَرْضَاهُمْ.

فَالَّذِي يَطْعَنُ فِيهِمْ أَوْ يُبْغِضُهُمْ كَافِرٌ بِالله، لأَنَّ اللهَ أَثْنَى عَلَيْهِم وَمَدَحَهُمْ وَاخْتَارَهُمْ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَالَّذِي يَطْعَنُ فِي الصَّحَابَةِ أَوْ يُكَفِّرُهُمْ أَوْ يَتَنَقَّصُهُمْ كَافِرٌ بِالله عز وجل، مُكَذِّبٌ لله وَلِرَسُولِهِ، لأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: **﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾** [التوبة:١٠٠]، **﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾** [الفتح: ١٨].

قَوْلُهُ: **(هكَذَا رُوِي لَنَا عَنِ ابنِ عُمَرَ؛ قَالَ: كُنَّا نَقُولُ وَرَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا: إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ثُمَّ عُثْمَانُ)** أَمَّا أَبُو بَكْرٍ

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٧٤٧) من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٠).

وَعُمَرُ فَهَذَا إِجْمَاعٌ، وَأَمَّا الْمُفَاضَلَةُ بَيْنَ عُثْمَانَ وَعَلي فَإِنَّهَا مَحَلُّ خِلافٍ، بَعْضُهُمْ يُفَضِّلُ عُثْمَانَ، وَبَعْضُهُمْ يُفَضِّلُ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا وَأَرْضَاهُمَا، أَمَّا أَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ فَهُمَا أَفْضَلُ الأُمَّةِ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا فِي الفَضِيلَةِ، أَمَّا فِي الخِلافَةِ: فَلا بُدَّ مِنْ هَذَا التَّرْتِيبِ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، فَمَنْ طَعَنَ فِي خِلافَةِ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلاءِ فَهُوَ ضَالٌّ.

يَقُولُ شَيْخُ الإِسْلامِ فِي الوَاسِطِيَّةِ: «مَنْ طَعَنَ فِي خِلافَةِ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلاءِ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ» لأَنَّهُ مُخَالِفٌ لإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، لأَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعُوا عَلَى تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ فِي الخِلافَةِ، ثُمَّ تَقْدِيمِ عُمَرَ بَعْدَهُ، ثُمَّ عُثْمَانَ، ثُمَّ عَلِيٍّ، فَالَّذِي يُقَدِّمُ عَلِيًّا وَيَقُول هُوَ أَحَقُّ بِالخِلافَةِ حَتَّى مِنْ أَبِي بَكْرٍ، وَالصَّحَابَةُ ظَلَمُوهُ وَأَخَذُوا الخِلافَةَ مِنْهُ! هَذَا تَضْلِيلٌ لِلأُمَّةِ - وَالعِيَاذُ بِالله - وَمُخَالَفَةٌ لِلنُّصُوصِ الوَارِدَةِ فِي تَرْتِيبِ هَؤُلاءِ الخُلَفَاءِ.

فَالتَّرْتِيبُ فِي الخِلافَةِ مَحَلُّ إِجْمَاعٍ، أَمَّا التَّرْتِيبُ فِي الأَفْضَلِيَّةِ بَيْنَ عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ فَهَذَا مَحَلُّ خِلافٍ، وَالصَّحِيحُ: أَنَّ عُثْمَانَ أَفْضَلُ، لأَنَّ الصَّحَابَةَ وفِيهِمْ عَلِيٌّ رضي الله عنه اخْتَارُوهُ خَلِيفَةً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَعَلِيٌّ مَوْجُودٌ، وَاخْتِيَارُ الصَّحَابَةِ لِعُثْمَانَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ أَفْضَلُ، وَيَقُولُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ: «رَأَيْتُ النَّاسَ لايَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ» فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَفْضَلُ.

ثُمَّ أَفْضَلُ النَّاسِ بَعْدَ هَؤُلاَءِ: عَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَسَعْدُ ابنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَسَعِيدُ بنُ زَيْدٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ عَامِرُ بنُ الجَرَّاحِ، وَكُلُّهُمْ يَصْلُحُ لِلْخِلاَفَةِ.

ثُمَّ أَفْضَلُ النَّاسِ بَعْدَ هَؤُلاَءِ: أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ، الْقَرْنُ الأَوَّلُ الَّذِي بُعِثَ فِيهِمُ: المُهَاجِرُونَ الأَوَّلُونَ، وَالأَنْصَارُ، وَهُمْ مَنْ صَلَّى إِلى الْقِبْلَتَيْنِ.

الشَّرْحُ

أَيْ: أفضلُ الصَّحابَةِ بَعْدَ الخُلَفاءِ الثَّلاثَةِ بَقِيَّةُ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ وَهُمْ هَؤُلاءِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ المؤلفُ رضي الله عنهم.

وَقَوْلُهُ: (**كُلُّهُمْ يَصْلُحُ لِلْخِلافَةِ**) أَيْ: أَصْحَابُ الشُّورَى الَّذِينَ فَوَّضَ إِلَيْهِمْ عُمَرُ رضي الله عنه اخْتِيَارَ الخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِهِ، لأَنَّ عُمَرَ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ جَعَلَ الشُّورَى فِي اخْتِيَار الخَلِيفَة يَرْجِعُ إِلَى هَؤُلاءِ البَاقِيْنَ، لأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَصْلُحُ لِلْخِلافَةِ فَرَدَّ الأَمْرَ إِلَيْهِمْ فَاخْتَارُوا عُثْمَانَ رضي الله عنه.

قَوْلُهُ: (**القَرْنُ الأَوَّلُ**) مِنَ القُرُونِ المُفَضَّلَةِ، وَهُمُ القَرْنُ الَّذِيْنَ بُعِثَ فِيهِم الرَّسُولُ ﷺ وَآمَنُوا بِهِ.

والأَصْحَابُ: جَمْعُ صَحَابِيٍّ، وَالصَّحَابِيُّ: مَنْ لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ مُؤْمِنًا بِهِ، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ.

- فَالَّذِي آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ يَلْقَهُ لَيْسَ صَحَابِيًّا كَالنَّجَاشِيِّ، إِنَّمَا يُعْتَبَرُ مِنَ التَّابِعِيْنَ.
- والَّذِي لَقِيَهُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَهَذَا لَيْسَ بِصَحَابِيٍّ، لأَنَّ المُشْرِكِيْنَ وَالكُفَّارَ لَقُوا

النَّبِيَّ ﷺ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ.

▪ والَّذِي لَقِيَهُ وآمن بِهِ ثُمَّ ارْتَدَّ بَطَلَتْ صُحْبَتُهُ، إِذَا مَاتَ عَلَى الرِّدَّةِ، أَمَّا لَوْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، وَرَجَعَتْ صُحْبَتُهُ.

وَلِهَذَا يَقُول الحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ رحمه الله فِي كِتَابِهِ «النُّخْبَةِ» فِي تَعْرِيفِ الصَّحَابِيِّ: «مَنْ لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ مُؤْمِنًا بِهِ، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَو تَخَلَّلَتْ رِدَّةٌ فِي الأَصَحِّ». يَعْنِي فِي أَصَحِّ قَوْلِي العُلَمَاءِ.

القَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهُ تَبْطُلُ صُحْبَتُهُ وَلَو تَابَ. لأَنَّ الرِّدَّةَ تُبْطِلُ الأَعْمَالَ الَّتِي قَبْلَهَا.

قَوْلُهُ: (القَرْنُ الأَوَّلُ الَّذِي بُعِثَ فِيْهِم: المُهَاجِرُونَ الأَوَّلُون، والأَنْصَار، وَهُمْ من صَلَّى إلى القِبْلَتَيْنِ) المُهَاجِرُونَ مُقَدَّمُونَ فِي الذِّكْرِ عَلَى الأَنْصَارِ، فدلَّ عَلَى أَنَّ المُهَاجِرِيْنَ أَفْضَلُ، بِفَضْلِ الهِجْرَةِ فِي سَبِيلِ الله ﷻ، لأَنَّهُمْ تركُوا أَوْطَانَهُمْ وَأَمْوَالَهُم، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَذْكُرُ المُهَاجِرِيْنَ قَبْلَ الأَنْصَارِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الآيَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة:١٠٠] ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر:٨] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الحشر:٩] يَعْنِي الأَنْصَارَ؛ فَيُقَدِّمُ ذِكْرَ المُهَاجِرِيْنَ عَلَى الأَنْصَارِ، ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة:١١٧] دَلَّ عَلَى أَنَّ المُهَاجِرِيْنَ أَفْضَلُ مِنَ الأَنْصَارِ. وَالأَنْصَارُ: جَمْعُ أَنْصَارِيٍّ، وَهُمُ: المُؤْمِنُونَ مِنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، أَهْلُ المَدِينَةِالَّذِيْنَ بَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ فِي بَيْعَةِ العَقَبَةِ، وَهَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﷺ، وَنَاصَرُوهُ وآزَرُوهُ وَآوَوْهُ، وَأَوَوا الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم مَعَهُ، قَالَ تَعَالَى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر:٩] كَانُوا فِي الأَوَّلِ يُسَمَّوْنَ: الأَوْسَ وَالخَزْرَجَ، ثُمَّ لَمَّا بَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ عَلَى النُّصْرَةِ سَمَّاهُمُ الأَنْصَارَ، أَيْ: أَنْصَارَ الرَّسُولِ ﷺ.

قَالَ المُؤَلِّفُ ﷺ: ثُمَّ أَفْضَلُ النَّاسِ بَعْدَ هَؤُلاَءِ: مَنْ صَحِبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمًا أَوْ شَهْرًا أَوْ سَنَةً أَوْ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ، نَتَرَحَّمُ عَلَيْهِمْ، وَنَذْكُرُ فَضْلَهُمْ، وَنَكُفُّ عَنْ زَلَلِهِمْ، وَلاَ نَذْكُرُ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلاَّ بِالْخَيْرِ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا»[١].

وَقَالَ سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ: «مَنْ نَطَقَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِكَلِمَةٍ؛ فَهُوَ صَاحِبُ هَوًى».

الشَّرْح

الصُّحْبَةُ تَتَفَاضَلُ: مِنْهَا صُحْبَةٌ كَثِيْرَةٌ وَمُلازَمَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ طَوِيلَةٌ أَوْ مَنْ لَهُ صُحْبَةٌ قَلِيلَةٌ، لَكِنَّ صَاحِبَهَا لَهُ فَضْلُ الصُّحْبَةِ وَلَو كَانَتْ صُحْبَتُهُ قَلِيلَةً.

قَوْلُهُ: (نَتَرَحَّمُ عَلَيْهِم وَنَذْكُرُ فَضْلَهُمْ وَنَكُفُّ عَنْ زَلَلِهِمْ) حَقُّهُمْ عَلَيْنَا: أَنَّنَا نَتَرَضَّى عَنْهُمْ، وَنَتَرَحَّمُ عَلَيْهِم، وَنَقْتَدِي بِهِمْ، وَنُثْنِي عَلَيْهِم، وَنَكُفُّ أَلْسِنَتَنَا عَنِ الطَّعْنَ فِيْهِم أَوْ فِي أَحَدٍ مِنْهُم، أَوْ أَنْ نَخُوضَ فِيمَا جَرَى بَيْنَهُمْ مِنَ الفِتْنَةِ وَالحُرُوبِ، لأَنَّ كلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُجْتَهِدٌ؛ فَمِنْهُمْ مُجْتَهِدٌ مُصِيبٌ لَهُ أَجْرَانِ، وَمِنْهُمْ مُجْتَهِدٌ أَخْطَأَ وَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالخَطَأُ مَغْفُورٌ، ثُمَّ أَيْضًا لَهُم مِنَ الأَعْمَالِ الجَلِيْلَةِ مَا يُكَفِّرُ مَا يَحْصُلُ مِنْ بَعْضِهِمْ مِنَ الخَطَإِ.

قَوْلُهُ: (وَلا نَذْكُرُ أَحَدًا مِنْهُمْ إلاَّ بِالخَيْرِ) لأَنَّهُم يُرِيدُونَ الحَقَّ وَاجْتَهَدُوا، وَكُلٌّ مِنْهُم عَمِلَ بِاجْتِهَادِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُصِيبٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُخْطِئٌ مَغْفُورٌ لَهُ، وَكُلُّهُمْ صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلا نَدْخُلُ فِيمَا جَرَى بَيْنَهُمْ. تَأَمَّلْ هَذِهِ

---

(١) صحيح: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٩٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٠٨) من حديث ابن مسعود ﷺ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٤٥).

الآيَة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ يَعْنِي بَعْدَ المُهَاجِرِيْنَ وَالأَنْصارِ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحشر: ١٠].

وَلِهَذَا يَقُول شَيْخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: «مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ: سَلامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لِصَحَابَةِ رَسُولِ الله ﷺ».

سَلامَةُ قُلُوبِهِمْ: فَلا يُبْغِضُونَ أَحَدًا مِنهُم، **وَسَلامَةُ أَلْسِنَتِهِمْ**: فَلا يَتكَلَّمُونَ فِي حَقِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَلا يَتَنَقَّصُونَهُ، والنَّبِيُّ ﷺ قَالَ فِي الحَدِيثَ الصَّحِيحِ: «**لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ**»[1] «**لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي**» ثُمَّ يَأْتِي مُتَخَلِّفُ عَقْلٍ مُهْتَزُّ الإِيمَانِ وفِيهِ هَوًى وَيتَكَلَّمُ فِي صَحَابَةِ الرَّسُولِ ﷺ! وَهَذَا لَوْ كَانَ مِنَ الفِرَقِ الضَّالَّةِ لَمْ نَسْتَكْثِرْ عَلَيْهِ، لَكِنَّ المُشْكِلَةَ أَنَّهُ يَنْتَسِبُ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَيَقُولُ: هَذَا مِنَ التَّحْقِيقِ التَّارِيخِيِّ!! وَهَلْ أَنْتَ مُكَلَّفٌ بِالتَّحْقِيقِ التَّارِيخِيِّ؟! تَدْخُلُ فِي شَيْءٍ لا تَدْرِي عَنْهُ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ خُطُورَةٌ وَتُشَكِّكُ النَّاسَ فِي صَحَابَةِ رَسُولِ الله، وَتُوْغِرُ قُلُوبَ النَّاسِ عَلَى صَحَابَةِ رَسُولِ الله ﷺ!! **الوَاجِبُ**: الإِمْسَاكُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ.

قَوْلُهُ: (لِقَوْلِ رَسُولِ الله ﷺ: «**إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا**») وَأَصْرَحُ مِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: «**لاتَسُبُّوا أَصْحَابِي**» هَذَا نَهْيٌ عَنْ سَبِّ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَالوَاجِبُ أَنَّنَا نَتَرَحَّمُ عَلَيْهِم، وَأَنْ نَسْتَغْفِرَ لَهُمْ عملًا بقولِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠] وَأَنْ نَكُفَّ أَلْسِنَتَنَا وَأَقْلامَنَا عَنِ الكَلامِ فِي صَحَابَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَنْ نُدَافِعَ عَنْهُمْ،

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٥٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وَنَرُدَّ عَلَى مَنْ يَتَنَقَّصُ أَحَدًا مِنَ الصَّحَابَةِ، وَنُبْطِلُ قَوْلَهُ، لأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِلْعَقِيْدَةِ الصَّحِيحَةِ، عَقِيْدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ.

وَشَيْخُ الإِسْلامِ فِي الوَاسِطِيَّةِ يَقُولُ: «مَا نُقِلَ عَنْهُمْ إِمَّا أَنَّهُ غَيْرُ صَحِيحٍ فَهُوَ مِنَ الكَذِبِ وَالدَّسِ، والصَّحِيحُ مِنْهُ صَاحِبُهُ مُجْتَهِدٌ، وَالمُجْتَهِدُ إِنْ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وأَيْضًا لَهُمْ مِنَ الفَضَائِلِ مَا يَغْمُرُ وَيُغَطِّي مَا يَحْصُلُ مِنْ بَعْضِهِمْ مِنَ الخَطَإِ». الرَّسُولُ ﷺ قَالَ فِي حَاطِبِ بنِ أبي بَلْتَعَةَ رضي الله عنه لَمَّا اجْتَهَدَ وَكَتَبَ لأَهْلِ مَكَّةَ، وَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ، قَالَ ﷺ: «**لا تَدْرِي يَا عُمَرُ، لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[1] وَكَانَ هَذَا الصَّحَابِيُّ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا.

قَوْلُهُ: (**وَقَالَ سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ: «مَنْ نَطَقَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِكَلِمَةٍ فَهُوَ صَاحِبُ هَوًى»**) لأَنَّهُ لا يَتَكَلَّمُ فِيهِم إِلاَّ صَاحِبُ هَوًى وَتَعَرُّضٍ لأَصحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

الوَاجِبُ لِصَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ المَحَبَّةُ، وَالإِجْلالُ وَالإِكْرَامُ، وَمَعْرِفَةُ قَدْرِهِمْ، وَالاقْتِدَاءُ بِهِمْ، لأَنَّهُم خَيْرُ القُرُونِ، وَلأَنَّهُم رَأَوا النَّبِيَّ ﷺ وَآمَنُوا بِهِ، صَحِبُوهُ وَنَصَرُوهُ، جَاهَدُوا مَعَهُ، وَتَحَمَّلُوا العِلْمَ عَنْهُ، فَهُمْ أَفْضَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ، بَلْ هُمْ أَفْضَلُ الخَلْقِ بَعْدَ النَّبِيِّينَ، لأَنَّ اللهَ اخْتَصَّهُمْ بِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَأَفْضَلِ المُرْسَلِيْنَ، فَلا يَطْعَنُ فِيهِم إِلاَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ غِلٌّ وَحِقْدٌ عَلَى الإِسْلامِ. فَهُوَ لا يَطْعَنُ فِيْهِم لأَشْخَاصِهِمْ، إِنَّمَا يَطْعَنُ فِيهِمْ لأَجْلِ مَا قَامُوا بِهِ مِنْ نُصْرَةِ هَذَا الدِّيْنِ، وَتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ بِأَمَانَةٍ.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٤٥)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فَالَّذِي يَطْعَنُ فِيْهِم إِنَّمَا يَطْعَنُ مِنْ أَجْلِ هَذَا، لأَنَّهُ حَاقِدٌ عَلَى الإِسْلام، وَموْتُورٌ مِنَ الإِسْلامِ فَهُوَ يَتَشَفَّى بِذَلِكَ، وَلأَجْلِ أَنْ يَقْطَعَ صِلَةَ الأُمَّةِ بِنَبِيِّهَا مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لأَنَّهُمْ هُمُ الوَاسِطَةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرَّسُولِ ﷺ فَهَذَا قَصْدُ مَنْ يَطْعَنُ فِيْهِم.

وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ المُهَاجِرِيْنَ والأَنْصَارَ فِي سُورَةِ الحَشْرِ قَالَ: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا**﴾ [الحشر:١٠] فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الَّذِي يَطْعَنُ فِيْهِم أَوْ فِي أَحَدٍ مِنْهُمْ إِنَّمَا هُوَ لِغِلٍّ يَجِدُهُ فِي قَلْبِهِ عَلَيْهِم، وَلِهَذَا قَالَ سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ الإِمَامُ الجَلِيْلُ: «**مَنْ نَطَقَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِكَلِمَةٍ فَهُوَ صَاحِبُ هَوًى**» فَالهَوَى هُوَ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى هَذَا، وَالهَوَى هُوَ بُغْضُهُمْ وَالحِقْدُ عَلَيْهِم، فَلِذَلِكَ تَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَطْعَنُ فِي صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدِ افْتُضِحُوا بِالكَذِبِ وَالكَرَاهِيَةِ بَيْنَ النَّاسِ، فَلا يَرَاهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ وَهُوَ يَكْرَهُهُمْ، لأَنَّ اللهَ وَضَعَ لَهُمُ البُغْضَ فِي الأَرْضِ، فَلا أَحَدَ يَرَى مَنْ يُبْغِضُ صَحَابَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلاَّ وَهُوَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ بُغْضًا لَهُمْ، وَكَرَاهِيَةً لَهُم، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ.

وَهَذَا لا يَضُرُّ صَحَابَةَ رَسُولِ اللهِ، وَلا يَضُرُّ الإِسْلامَ، فَالصَّحَابَةُ موفُورٌ لَهُمْ قَدْرُهُمْ وَأَجْرُهُمْ، وَالإِسْلامُ مُسْتَمِرٌّ وَيَنْتَصِرُ وَللهِ الحَمْدُ، وَإِنَّمَا هَؤُلاءِ يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ، لَكِنَّ الخَوْفَ عَلَى مَنْ يَقْرَأُ كُتُبَهُمْ مِمَّنْ لَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ، فَيَقَعُ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ عَلَى صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَتَأَثَّرُ بِذَلِكَ، وَكَمْ وَقَعَ مِنْ فَرِيسَةٍ مِنْ أَبْنَاءِ المُسْلِمِينَ بِسَبَبِ مُطَالَعَةِ كُتُبِ هَؤُلاءِ، لأَنَّهُ إِذَا قَرَأَهَا تَأَثَّرَ بِهَا، وَوَجَدَ فِي نَفْسِهِ بُغْضًا لِصَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَوْ عَلَى الأَقَلِّ يِقِلُّ قَدْرُهُمْ عِنْدَهُ وَيَنْقُصُونَ عِنْدَهُ.

فَهَذَا هُوَ الخَوْفُ عَلَى شَبِيبَةِ الـمُسْلِمِينَ، وَعَلَى الَّذِيْنَ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ العِلْمِ أَنْ يَتَأَثَّرُوا بِهَذِهِ الكُتُبِ الَّتِي تَطْعَنُ فِي صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ، لا سِيَّمَا وَأَنَّهَا تُنْشَرُ

الآنَ وتُنَمَّقُ، وتُخْرَجُ فِي أَحْسَنِ إِخْرَاجٍ مِنَ الطِّبَاعَةِ وَمِنَ التَّجْلِيدِ، وَيُرَوِّجُونَهَا فِي المَعَارِضِ، حَيْثُ يَجِدُونَ ذَلِكَ فُرْصَةً لَهُمْ لِيَنْشُرُوا وَيُشِيعُوا الوَقِيعَةَ فِي صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَلا شَكَّ أَنَّ الطَّعْنَ فِي صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ طَعْنٌ فِي الرَّسُولِ ﷺ إِذْ كَيْفَ يَكُونُ صَحَابَتُهُ مِنْ هَؤُلاءِ الَّذِيْنَ وَصَفُوهُمْ بِهَذِهِ الأَوْصَافِ القَبِيحَةِ؟ هَذَا طَعْنٌ فِي الرَّسُولِ ﷺ.

وَأَيْضًا؛ هُوَ تَكْذِيبٌ لِكِتَابِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ أَثْنَى عَلَى الصَّحَابَةِ فِي القُرْآنِ العَظِيمِ فِي آيَاتٍ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠]، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح:١٨-١٩]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ يَعْنِي صِفَتَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ، فَهُمْ مَذْكُورُونَ فِي التَّوْرَاةِ، كَمَا ذُكِرَ نَبِيُّهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ الَّذِي نَزَلَ عَلَى عِيْسَى ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لايَغْتَاظُ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ، وَلا يُبْغِضُهُمْ إِلاَّ كَافِرٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾، فَهَذِهِ هِي عَلامَةُ الكُفْرِ، فبغْضُ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كُفْرٌ وَنِفَاقٌ - وَالعِيَاذُ بِاللهِ -.

قَوْلُهُ: (بِكَلِمَةٍ فَهُوَ صَاحِبُ هَوًى) أَيْ: إِذَا تَكَلَّمَ فِي تَنَقُّصِ الصَّحَابَةِ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ فَهُوَ صَاحِبُ هَوًى.

إِذَا كَانَ هَذَا يَحْصُلُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ فَكَيْفَ بِالَّذِي يُؤَلِّفُ كُتبًا فِي سَبِّهِمْ وَالوَقِيعَةِ فِيْهِم، وَتَلَمُّسِ العَثَرَاتِ لَهُمْ، وَتَضْخِيمِهَا؟! كَيْفَ بِهَذَا؟! إِذَا كَانَ مَنْ نَطَقَ بِكَلِمَةٍ فِي صَحَابَةِ رَسُولِ الله فَهُوَ صَاحِب هَوًى، يَعْنِي يَتَّبِعُ هَوَاهُ، لأَنَّهُ مَا تَكَلَّمَ إِلاَّ لِهَوًى فِي نَفْسِهِ، وَبُغْضٍ لِصَحَابَةِ رَسُولِ الله.

[٣٠] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالسَّمْعُ والطَّاعَةُ للأئمَّةِ فِيمَا يُحِبُّ اللهُ وَيَرْضَى، وَمَنْ وَلِيَ الخِلافَةَ بِإجْمَاعِ النَّاسِ عَلَيهِ وَرِضَاهُمْ بِهِ؛ فَهُوَ أَمِيرُ المؤمِنينَ.

[٣١] وَلاَيَحِلُّ لأَحَدٍ أَنْ يَبِيتَ لَيْلَةً وَلاَ يَرى أَنَّ لَيْسَ عَلَيهِ إِمَام، بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا.

الشَّرْحُ

مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ المَبْنِيَّةِ عَلَى كِتَابِ الله وسُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِوُلاةِ أُمُورِ المُسْلِمِينَ، قَالَ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، ﴿مِنكُمْ﴾ يَعْني مِنَ المُسْلِمِينَ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أُوْصِيكُمْ بِتقْوَى الله، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ**»، فِي رِوَايَةٍ: «**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ**»(١)، وَفِي رِوَايَةٍ: «**عَبْدٌ مُجَدَّعُ الأَطْرَافِ**» يَعْنِي مُقَطَّعَ الرِّجْلَيْنِ وَاليَدَيْنِ، مَا دَامَ أَنَّهُ وَلِي أَمْرٍ، تَجِبُ طَاعَتُهُ بِالمَعْرُوفِ، فَهَذَا مِنْ أُصُولِ العَقِيدَةِ، والَّذِي يَخْرُجُ عَلَى أَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ يَكُونُ مِنَ الضَّالِّيْنَ، إِمَّا أَنَّهُ خَارِجِيٌّ، أَوْ مُعْتَزِلِيٌّ، أَوْ صَاحِبُ نِحْلَةٍ بَاطِلَةٍ تُخَالِفُ سُنَّةَ الرَّسُولِ ﷺ.

قَوْلُهُ: (**وَالسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِلأَئِمَّةِ فِيمَا يُحِبُّ اللهُ وَيَرْضَى**) بِهَذَا القَيْدِ فِيمَا يُحِبُّ اللهُ وَيَرْضَى، أَمَّا المَعْصِيَةُ فَلا يُطَاعُونَ فِيهَا، قَالَ ﷺ: «**لاطَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ**»(٢)، وقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ**»، وَلَيْس مَعْنَى

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

(٢) صحيح: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٨/ ١٧٠)، القضاعي في «مسند الشهاب» (٨٧٣) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٥٢٠).

ذَلِكَ أَنَّهُ إذا أَمَرَ وَلِيُّ الأَمْرِ بِمَعْصِيَةٍ مِنَ المَعَاصِي أَنَّهَا تَنْخَلِعُ إِمَامَتُهُ، بَلْ إِنَّهُ لا يُطَاعُ فِي هذه المَعْصِيَةِ، وَلَكِنْ يُطَاعُ فِيمَا لَيْسَ فِيهِ مَعْصِيَةٌ، وتَبْقَى وِلايَتُهُ، وَيُطَاعُ فِيمَا لَيْسَ بِمَعْصِيَةٍ.

قَوْلُهُ: **(وَمَنْ وَلِيَ الخِلافَةَ بِإِجْمَاعِ النَّاسِ عَلَيهِ، وَرِضَاهُمْ بِهِ؛ فَهُوَ أَمِيرُ المُؤْمِنِيْنَ)** هَذَا بَيَانٌ بِمَا تَنْعَقِدُ بِهِ الإِمَامَةُ، فَإِنَّ الإِمَامَةَ تَنْعَقِدُ بِأَحَدِ أُمُورٍ:

الأَمْرُ الأَوَّلُ: مَا ذَكَرَهُ المُؤَلِّفُ، وَهُوَ مَنِ اخْتَارَهُ المُسْلِمُونَ، وَالمُرَادُ بِالَّذِيْنَ يَخْتَارُونَ الإِمَامَ هُمْ أَهْلُ الحَلِّ وَالعَقْدِ مِنَ العُلَمَاءِ وَالأُمَرَاءِ وَأَصْحَابِ السِّيَاسَةِ، وَأُمَرَاءِ الأَجْنَادِ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّ اخْتِيَارَ الإِمَامِ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ وَالحَضَرِ وَالبَدْوِ، لأن النَّاسَ تَبَعٌ لأَهْلِ الحَلِّ وَالعَقْدِ، فَإِذَا اخْتَارَ أَهْلُ الحَلِّ وَالعَقْدِ إِمَامًا؛ وَجَبَ عَلَى البَقِيَّةِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَهَذَا كَمَا حَصَلَ فِي خِلافَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ الله ﷺ أَجْمَعُوا عَلَى بَيْعَةِ الصِّدِّيقِ، فكَانَتْ بَقِيَّةُ الأُمَّةِ تَابِعَةً لِمَنِ اخْتَارَ الصِّدِّيقَ، وَلَمْ يُفْتَحِ المَجَالُ لِكُلِّ أَحَدٍ لِيُشَارِكَ فِي الاخْتِيَارِ، لأَنَّ هَذَا مِنِ اخْتِصَاصِ أَهْلِ الحَلِّ وَالعَقْدِ. فَالمُسْلِمُونَ اخْتَارُوا أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه أَفْضَلَهُمْ، وَهَذَا اخْتِيَارٌ لَهُ أَدِلَّةٌ مِنْ سُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ.

أَوَّلُهَا: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ عَلَى الإِطْلاقِ، مَا خَالَفَ فِي هَذَا أَحَدٌ.

وَثَانِيهَا: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَعْطَى إِشَارَاتٍ بِاسْتِخْلافِهِ مِنْهَا: أَنَّهُ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ قَدَّمَهُ لِلصَّلاةِ لِيَؤُمَّ المُسْلِمِينَ فِي مِحْرَابِ رَسُولِ الله ﷺ، وَيَقِفَ مَوْقِفَ رَسُولِ الله ﷺ، هَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ هُوَ إِمَامُهُمْ فِي الخِلافَةِ، كَمَا هُوَ إِمَامُهُمْ فِي الصَّلاةِ، فَاخْتَارُوا أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه وقَالُوا: أَيَرْضَاكَ رَسُولُ الله ﷺ لِدِينِنَا، وَلا نَرْضَاكَ لِدُنْيَانَا؟! وَانْعَقَدَتْ بَيْعَتُهُ، وَأَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى ذَلِكَ مَنْ بَاشَرَ الاخْتِيَارَ وَمَنْ لَمْ يُبَاشِرْ فَهُوَ تَبَعٌ، وَالمُسْلِمُونَ جَمَاعَةٌ وَاحِدَةٌ وَيَدٌ وَاحِدَةٌ.

الأمر الثاني: وَلَمَّا حَضَرَتْ أَبَا بَكْرٍ الوَفَاةُ اخْتَارَ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ وَعَيَّنَهُ بَدَلًا عَنْهُ، فَسَمِعَ المُسْلِمُونَ وَأَطَاعُوا، وَهَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ طُرُقِ ثُبُوتِ الإِمَامَةِ وَهُوَ أَنْ يَخْتَارَ وَلِيُّ الأَمْرِ وَلِيًّا لِلْعَهْدِ يَخْلُفُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ كَمَا فَعَلَ أَبُو بَكْرٍ حَيْثُ اخْتَارَ عُمَرَ رضي الله عنه.

الأَمْرُ الثَّالِثُ: إِذَا تَغَلَّبَ وَاحِدٌ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَأَخْضَعَ النَّاسَ لإِمَارَتِهِ فَإِنَّهُ يَكُونُ أَمِيرًا وَإِمَامًا لَهُم، مِثْلَمَا حَصَلَ منْ عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوَانَ، فَإِنَّهُ لَمَّا حَصَلَ الاخْتِلافُ بَعْدَ وَفَاةِ يَزِيدَ بنِ مُعَاوِيَةَ، فَإِنَّ عَبْدَ المَلِكِ بنَ مَرْوَانَ بنِ الحَكَمِ قَامَ بِالأَمْرِ، وَكَانَ رَجُلًا شَهْمًا حَازِمًا قَوِيًّا وَنَفَعَ اللهُ بِهِ، وَانْعَقَدَتْ بَيْعَتُهُ، وَسَمِعَ المُسْلِمُونَ لَهُ، وَأَطَاعُوا، فَكَانَ فِي ذَلِكَ الخَيْرُ لِلْمُسْلِمِينَ.

فَهَذِهِ هِيَ الطُّرُقُ الَّتِي تَثْبُتُ بِهَا وِلايَةُ الإِمَامِ؛ إِمَّا بِاخْتِيَارِ أَهْلِ الحَلِّ وَالعَقْدِ، وَإِمَّا بِأَنْ يَعْهَدَ السَّابِقُ لِلاَّحِقِ، وَإِمَّا بِأَنْ يَتَغَلَّبَ وَاحِدٌ مِنَ المُسْلِمِينَ حِينَمَا يَكُونُ لَهُم إِمَامٌ، وَيَخْضَعَ النَّاسُ لَهُ، وَيَنْقَادُوا لَهُ، فَلا يَجُوزُ لأَحَدٍ أَنْ يَشُقَّ العَصَا.

وَقَوْلُهُ: (**بِإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ**) لا تَفْهَمْ مِنْ هَذَا أَنَّهُ لَابُدَّ مِنِ اخْتِيَارِ المُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ، وَلَكِنْ يَحْصُلُ ذَلِكَ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الحَلِّ وَالعَقْدِ، كَالحَاصِلِ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه وَكَالحَاصِلِ فِي خِلافَةِ عُثْمَانَ رضي الله عنه، فَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَارُوهُ هُمْ أَهْلُ الشُّورَى، وَهُمُ البَاقُونَ مِنَ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ، أَخْتَارُوهُ فَثَبَتَتْ إِمَامَتُهُ، وَلَمْ يَعْتَرِضْ أَحَدٌ عَلَى ذَلِكَ، بَلْ أَجْمَعُوا عَلَى إِمَامَةِ عُثْمَانَ رضي الله عنه.

قَوْلُهُ: (**لايَحِلُّ لأَحَدٍ أَنْ يَبِيتَ لَيْلَةً وَلاَ يَرَى أَنْ لَيْسَ عَلَيهِ إِمَامٌ، بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا**) هَذِهِ مَسْأَلَةٌ مُهِمَّةٌ جِدًّا وَهِيَ أَنَّهُ لايَجُوزُ للإِنْسَانِ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ، وَيَشُقَّ عَصَا الطَّاعَةِ فَإِنَّهُ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ «**وَبَاتَ لِيلَةً وَلَيْسَ لَهُ إِمَامٌ**» يَعْتَقِدُ إِمَامَتَهُ، فَهَذَا «**قَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِه**»[1]، بِمَعْنَى أَنَّهُ كَانَ مَعَ

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

الْمُسْلِمِينَ وَمُرْتَبِطًا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا خَرَجَ عَنْ طَاعَةِ الإِمَامِ فَإِنَّهُ قَطَعَ الارْتِبَاطَ بِالْمُسْلِمِينَ، مِثْلُ: صِغَارِ الأَغْنَامِ الَّتِي يُجْعَلُ لَهَا حَبْلٌ مُمْتَدٌّ وَفِيهِ دَرَكَاتٌ تُدْخَلُ فِيْهَا رُءوسُ صِغَارِ الغَنَمِ لِتَحْفَظَهَا مِنَ الضَّيَاعِ، يُسَمَّى الرِّبْقَ، فَشَبَّهَ اجْتِمَاعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى إِمَامٍ بِذَلِكَ، فَمَنْ خَرَجَ عَنْ طَاعَةِ الإِمَامِ فَقَدْ خَلَعَ هَذِهِ الرِّبْقَةَ وَتَعَرَّضَ لِلضَّيَاعِ وَلِلذِّئَابِ وَلِلأَهْوَاءِ. وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يُكْفُرُ، مَعْنَاهُ: أَنَّهُ فَارَقَ الجَمَاعَةَ، وَخَرَجَ عَنِ الطَّاعَةِ، فَصَارَ كَالبَهِيمَةِ الَّتِي خَرَجَتْ مِنَ الرِّبَاطِ، وَتَعَرَّضَتْ لِلسِّبَاعِ وَالنَّهْبِ وَالسَّلْبِ.

ولا يَقُلْ: أَنَا مَا بَايَعْتُ، وَلَيْسَ لِي إِمَامٌ، فَأَنْتَ وَاحِدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمَّا بَايَعَ أَهْلُ الحَلِّ وَالعَقْدِ فَأَنْتَ تَابِعٌ لَهُمْ.

[٣٢] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالحَجُّ وَالغَزْوُ مَعَ الإِمَامِ مَاضٍ، وَصَلاةُ الجُمُعَةِ خَلْفَهُمْ جَائِزَةٌ، وَيُصَلِّي بَعْدَهَا سِتَّ رَكَعَاتٍ، يَفْصِلُ بَيْنَ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ، هَكَذَا قَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ.

الشَّرْح

صَلاحِيَّاتُ الإِمَامِ كَثِيرَةٌ، وَمَحَلُّ إِحْصَائِهَا وَجَمْعِهَا وَالاطِّلاعِ عَلَيْهَا: الأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ الَّتِي أُلِّفَتْ فِي هَذَا، مِثْلُ «الأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ» لِلْمَاوَرْدِيِّ، وَ«الأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ» لأَبِي يَعْلَى الحَنْبَلِيِّ، وَكُتُبٌ أخرى أُلِّفَتْ فِي هَذَا فِيهَا بيانُ صَلاحِيَّاتِ الإِمَامِ، وَهَذَا مَذْكُورٌ فِي كُتُبِ الفِقْهِ، وَفِي كُتُبِ العَقَائِدِ أَيْضًا كَمَا هُنَا:

أَوَّلًا: أَنَّهُ يَتَوَلَّى صَلاةَ الجُمُعَةِ وَالعِيدَينِ، وَيُصَلِّي المُسْلِمُونَ خَلْفَهُ، إلاَّ أَنْ يَخْتَارَ هُوَ، وَيُخْلِفَ مِنَ العُلَمَاءِ أَوْ مِنْ طَلَبَةِ العِلْمِ مَنْ يُصَلِّي بِالنَّاسِ، لَكِنَّ الأَصْلَ أَنَّهُ أَحَقُّ بالإِمَامَةِ فِي الجُمُعَةِ وَالعِيدَينِ، فَإِنِ اسْتَخْلَفَ مَنْ يَقُومُ بِهَذَا فَلَهُ ذَلِكَ، وَهَذَا عَلَيْهِ العَمَلُ الآنَ.

ثَانِيًا: هُوَ الَّذِي يُقِيمُ الحَجَّ، وَيَقُودُ الحَجِيجَ، وَيَتَأَمَّرُ عَلَيْهِم، وَيَنْظُرُ فِي مَشاكِلِهِمْ.

ثَالِثًا: إِقَامَةُ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ مِنْ صَلاحِيَّاتِ الإِمَامِ هُوَ الَّذِي يَأْمُرُ بِهِ، وَهُوَ الَّذِي يُنَظِّمُ الرَّايَاتِ، وَهُوَ الَّذِي يَخْتَارُ الجُنُودَ وَالمُقَاتِلِينَ، وَيُؤَمِّرُ الأُمَرَاءَ، وَيُجَنِّدُ السَّرَايَا وَالجُيُوشَ، وَيُسَلِّحُ المُجَاهِدِينَ، وَيُوَجِّهُهُمْ إِلَى غَزْوِ العَدُوِّ، وُيعَيِّنُ لَهُمُ الجِهَةَ الَّتِي يَغْزُونَهَا، فَالجِهَادُ مِنْ صَلاحِيَّاتِ الإِمَامِ وَلَيْسَ الجِهادُ فَوْضَى، فَيَحْمِلُ كُلُّ مَنْ أَرَادَ حَمْلَ السِّلاحَ وَيَقْتُلُ ويَهْجُمُ وَيَقُولُ: أَنَا أُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، هَذَا لَيْسَ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللهِ، الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ مُنَظَّمٌ وَمَضْبُوطٌ بِضَوَابِطَ شَرْعِيَّةٍ، أَمَّا إِذَا دَخَلَتْهُ الفَوْضَى صَارَ تَخْرِيبًا، وَصَارَ ضَرَرُهُ أَكْثَرَ مِنْ نَفْعِهِ إِنْ كَانَ

فِيهِ نَفْعٌ، فَالضَّرَرُ النَّاجِمُ عَنْهُ أَكْثَرُ، فَالأُمُورُ لَهَا ضَوَابِطُ، وَالجِهَادُ أَمْرُهُ عَظِيمٌ، يَحْتَاجُ إِلَى انْضِبَاطٍ، ويَحْتَاجُ إِلَى تَقَيُّدٍ بِأَحْكَامِ الجِهَادِ المَذْكُورَةِ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَلامِ أَهْلِ العِلْمِ، لَيْسَ الأَمْرُ فَوْضَى، بِأَنْ يَأْتِي وَاحِدٌ مِنْ دُعَاةِ الفِتْنَةِ وَيَتَزَعَّمُ هَؤُلاءِ الغَالِينَ أَوِ المُتطَرِّفِيْنَ أَوِ الجُهَّالَ الَّذِينَ لا يَدْرُونَ يَتَزَعَّمُهُمْ وَيَقُولُ: نُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ. هَذَا يُعْتَبَرُ مِنَ الضَّرَرِ عَلَى الإِسْلامِ وَالمُسْلِمِين وَلَيْسَ هَذَا جِهَادًا؛ لأَنَّهُ لَمْ يَتَقَيَّدْ بِضَوَابِطِ الجِهَادِ، وَإِذَا لَمْ يَتَقَيَّدْ بِضَوَابِطِ الجِهَادِ صَارَ فَسَادًا وَلَيْسَ جِهَادًا، وَكُلُّ شَيْءٍ تَجَاوَزَ حَدَّهُ فَإِنَّهُ يَنْقَلِبُ إِلَى ضِدِّهِ، فَهُمْ يَقُولُونَ الآنَ لِمَنْ أَنْكَرَ عَلَيْهِم: أَنْتُمْ تَمْنَعُونَ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ، نَقُولُ: نَحْنُ لا نَمْنَعُ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ، لَكِنْ نَقُولُ: لَا بُدَّ أَنْ يَنْضَبِطَ الجِهَادُ بِالضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ، وَمَا تَعْمَلُونَهُ هَذَا فَوْضَى وَلَيْسَ جِهَادًا، واللهُ لَمْ يَأْمُرْ بِهَذَا.

فإِقَامَةُ الحَجِّ، وَالغَزْوِ، وَالجُمُعَةِ، والعِيدِ مِنْ صَلاحِيَّاتِ وَلِي الأَمْرِ.

قَوْلُهُ: (**وصَلاةُ الجُمُعَةِ خَلْفَهُمْ جَائِزَةٌ**) يَعْنِي وَلَو كَانَ عِنْدَهُم فِسْقٌ، وَلَو كَانَ عِنْدَهُم مَعَاصٍ؛ فَإِنَّهُ يُصَلَّى خَلْفَهُمْ؛ لأَنَّ فِي الصَّلاةِ خَلْفَهُمْ جَمْعًا لِلْكَلِمَةِ، وَأَيْضًا الفَاسِق إِذَا أَحْسَنَ فَأَحْسِنْ مَعَهُ، وَلِهَذَا لَمَّا قَالُوا لِعُثْمَانَ ﵁ وَهُوَ مَحْصُورٌ: إِنَّ فُلانًا يَؤُمُّ النَّاسَ، وَهُوَ لَيْسَ بِإِمَامٍ، وَإِنَّمَا هُوَ إِمَامُ فِتْنَةٍ. قَالَ: «**يَا بنَ أَخِي إِذَا أَحْسَنَ النَّاسُ فَأَحْسِنْ مَعَهُم، وَإِذَا أَسَاءوا فَتَجَنَّبْ إِسَاءَتَهُمْ**» فَإِذَا صَلَّى نُصَلِّي مَعَهُ إِذَا كَانَ وَلِي أَمْرٍ وَلَو كَانَ عِنْدَهُ فِسْقٌ أَوْ مُخَالَفَةٌ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ المَصْلَحَةِ؛ وَلأَنَّ الصَّلاةَ عِبَادَةٌ، والفَاسِقُ إِذَا صَلَّى يُشَجَّعُ عَلَى هَذَا، وَيُدْعَى لَهُ. وَقَدْ صَلَّى الصَّحَابَةُ خَلْفَ الأُمَرَاءِ الَّذِيْنَ عَلَيْهِم مُلاحَظَاتٌ كَالحَجَّاجِ وَغَيْرِهِ، صَلَّى خَلْفَهُمْ صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ امْتِثَالًا لأَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ، وَجَمْعًا لِلْكَلِمَةِ.

قَوْلُهُ: (**وَيُصلِّي بَعْدَهَا سِتَّ رَكَعَاتٍ**) هَذِهِ مَسْأَلَة فِقْهِيَّةٌ جَاءَتْ بِمُنَاسَبة ذِكْرِ صَلاةِ الجُمُعَةِ، فالجُمُعَةُ لَيْسَ لَهَا رَاتِبَةٌ قَبْلَهَا، فَمَنْ جَاءَ إِلَى المَسْجِدِ فَإِنَّهُ يُصَلِّي مَا

تَيَسَّرَ لَهُ وَيَجْلِسُ يَنْتَظِرُ، وَإِنِ اسْتَمَرَّ فِي الصَّلاةِ حَتَّى يَحْضُرَ الإِمَامُ فَهُوَ أَفْضَلُ، عَلَى أَنَّهُ نَفْلٌ مُطْلَقٌ لَيْسَ لَهُ عَلاقَةٌ بِصَلاةِ الجُمُعَةِ، أَمَّا رَاتِبَةُ الجُمُعَةِ فَهِي بَعْدَهَا، أَقَلُّهَا رَكْعَتَانِ، وَأَكْثَرُهَا عَلَى المَشْهُورِ أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ بِسلامَيْنِ، وَجَاءَ فِي رِوَايَةٍ: أَنَّهَا سِتُّ رَكَعَاتٍ بِثَلاثِ تَسْلِيمَاتٍ إِذًا: يَكُونُ أَقَلُّهَا رَكْعَتَينِ وَأَكْثَرُها سِتَّ رَكَعاتٍ أَوْ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، كَمَا هُوَ المَشْهُورُ.

قَوْلُهُ: (**يَفْصِلُ بَيْنَ كُلِّ رَكْعَتَينِ، هَكَذَا قَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ**) أَيْ: لَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يُصَلِّي سِتَّ رَكَعَاتٍ سَرْدًا بِسَلامٍ وَاحِدٍ، بَلْ سِتَّ رَكَعاتٍ، كُلَّ رَكْعَتَيْنِ بِسَلامٍ، أَوْ أَرْبَع رَكَعَاتٍ كُلَّ رَكْعَتَيْنِ بِسَلامٍ. هَذَا هُوَ الأَفْضَلُ. وَنِسْبَتُهُ إِلَى الإِمَامِ أَحْمَدَ لأَنَّ المُصَنِّفَ حَنْبَلِيٌّ، وَيَعْرِفُ مَذْهَبَ الإِمَامِ أَحْمَدَ، هَذَا رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ أَنَّهَا سِتُّ رَكَعَاتٍ، وَالمَشْهُورُ أَنَّهَا أَرْبَعُ رَكْعَاتٍ.

❊❊❊

[٣٣] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالخِلافَةُ فِي قُرَيشٍ إِلى أَنْ يَنْزِلَ عِيسىَ ابنُ مَرْيمَ عَلْيهِ الصَّلاَةِ وَالسَّلامُ.

الشَّرح

إِذَا تَشَاحَّ أَكْثَرُ مِنْ وَاحِدٍ فِيمَنْ يَلِي الإِمَامَةَ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَصْلُحُ للإِمَامَةِ، فَإِنَّهُ يُقَدَّمُ القُرَشِيُّ لِمِيْزَتِهِ عَلَى غَيْرِهِ لِقَوْلِهِ ﷺ: «**الأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيشٍ**»(١)، وقَولِهِ: «**قَدِّمُوا قُرَيشًا، وَلاتَتَقَدَّمُوهَا**»(٢)، فإِذَا كَانَ القُرَشِيُّ صَالِحًا، وَحَصَلَتْ مُشَاحَّةٌ فمَنِ الَّذِي يَتَولَّى؟ فَإِنَّهُ يُقَدَّمُ القُرَشِيُّ لِوَصِيَّةِ الرَّسُولِ ﷺ بذَلِكَ؛ وَلأَنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَالَ الأَنْصَارُ: «مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُم أَمِيرٌ» قَالَ لَهُمْ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ العَرَبَ لا تدِينُ بِهَذَا الأَمْرِ إِلاَّ لِهَذَا الحَيِّ مِنْ قُرَيشٍ»، فَبَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمِنْ بَعْدِهِ عُمَرُ، وَمِنْ بَعْدِهِ عُثْمَانُ، وَمِنْ بَعْدِهِ عَلِيٌّ، وَمِنْ بَعْدِهِ مُعَاوِيَةُ وَمِنْ بَعْدِهِ بَنُو أُمَيَّةَ، وَبَعْدَهُمْ بَنُو العَبَّاسِ كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيشٍ. أَمَّا إِذَا تَمَّ الأَمْرُ وَانْعقَدَ فَإِنَّهُ تَلْزَمُ الطَّاعَةُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ قُرَشِيًّا، أَوْ كَانَ القُرَشِيُّ لايَصْلُحُ لِلإِمَامَةِ، فمُجَرَّدُ كَوْنِهِ قُرَشِيًا لايُخَوِّلُهُ لِلإِمَامَةَ إِلاَّ إِذَا كَانَ مَعَ القُرَشِيَّةِ صَالِحًا لَهَا ولَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِمَامٌ قَائِمٌ.

قَوْلُهُ: (**إِلَى أَنْ يَنْزِلَ عِيسَى ابنُ مَرْيمَ عَلْيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ**) إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِيْنَمَا يَنْزِلُ وَإِمَامُ المُسْلِمِينَ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الله المَهْدِيُّ، وَهُوَ مِنْ بَيْتِ الحَسَنِ بنِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ آخِرَ الأَئِمَّةِ يَكُونُ مِنْ قُرَيْشٍ، وَأَوَّلُهُمْ

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣/ ١٢٩، ١٨٣)، والنسائي في «الكبرى» (٣/ ٤٦٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٧٥٨).

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ٤٠٢)، والبيهقي في «الكبرى» (٣/ ١٢١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٩٦٦).

مِنْ قُرَيشٍ وَهُوَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ. وَهَذَا حَسَبَ الإمكَانِ كَمَا ذَكَرْنَا، وإِذَا مَا وُجِدَ أَحَدٌ مِنْ قُرَيشٍ فلا تُعَطَّلُ الوِلايَةُ، أَوْ إِذَا قَامَ بِالأَمْرِ غَيْرُ قُرَشِيٍّ وَكَانَتْ فِيهِ صَلاحِيَةٌ إِنَّنَا لا نُبْعِدُهُ وَنَقُولُ: لا تَصْلُحُ لَهَا، فَيَجِبُ مَعْرِفَةُ هَذِهِ الأُمُورِ.

[٣٤] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَمَنْ خَرَجَ عَنْ إِمامٍ مِنْ أَئِمَّةِ المُسْلمين؛ فَهُوَ خَارِجِيٌّ، قَدْ شَقَّ عَصَا المُسْلمين، وَخَالَفَ الآثارَ، وَمِيتَتُهُ مِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (**وَمَنْ خَرَجَ عَنْ إِمَامٍ مِنْ أَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ؛ فَهُوَ خَارِجِيٌّ**) مَنْ خَرَجَ عَنْ طَاعَةِ وَلِيِّ الأَمْرِ وَشَقَّ عَصَا الطَّاعَةِ بِحُجَّةِ أَنَّ وَلِيَّ الأَمْرِ عِنْدَهُ مَعَاصٍ أَوْ مُخَالَفَاتٌ، كَمَا فَعَلَ الخَوَارِجُ؛ فَهَذَا لَهُ حُكْمُ الخَوَارِجِ، وَالخَوَارِجُ فِئَةٌ ضَالَّةٌ ظَهَرَتْ بِذْرَتُهَا فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ حِينَمَا جَاءَ ذُو الخُوَيصِرَةِ وَقَالَ لِلرَّسُولِ ﷺ: لَمَّا رَآهُ يَقْسِمُ غَنِيمَةً قَالَ لَهُ: اعْدِلْ يَا مُحَمَّدُ، فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ، فَقَالَ ﷺ: «**وَيْلَكَ فَمَنْ يَعْدِلْ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟!**» فَلَمَّا وَلَّى الرَّجُلُ قَالَ ﷺ: «**يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا** - يَعْنِي مِنْ جِنْسِهِ - **قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاتَكُمْ إِلَى صَلاتِهِمْ، وَعِبَادَتَكُمْ إِلَى عِبَادَتِهِمْ، يَقْرَءونَ القُرْآنَ، وَلا يَتَجَاوَزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُم؛ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ**»(١) فيجِبُ قِتَالُهُمْ وَذَلِكَ لأَجْلِ كَفِّ شَرِّهِمْ عَنِ المُسْلِمِينَ.

وَهَذَا إِذَا أَظْهَرُوا السِّلاحَ، وَحَمَلُوا السِّلاحَ، أَمَّا مُجَرَّدُ أَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ رَأْيَ الخَوَارِجِ وَيَتَكَلَّمُونَ، وَلَكِنْ لا يُقَاتِلُونَ، وَلَيْسَ مَعَهُم سِلاحٌ؛ فَنَحن نُنْكِرُ عليهِمْ، ونُبَيِّنُ لَهُمْ ضَلالَهُمْ ولا نُقَاتِلُهُمْ، لَكِن إِذَا صَارَ لَهُمْ شَوْكَةٌ وَصَارُوا يُقَاتِلُوْنَ المُسلِمِينَ فَلا يَجُوزُ للمُسْلِمِيْنَ أَنْ يَتْرُكُوهُمْ، بَلْ يَجِبُ عَلَى وَلِيِّ الأَمْرِ أَنْ يُقَاتِلَهُمْ، وَيَجِبُ عَلَى المُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونُوا مَعَ وَلِيِّ الأَمْرِ عَلَيْهِمْ، كَمَا حَصَلَ فِي خِلافَةِ عَلِي رضي الله عنه لَمَّا قَاتَلَ الخَوَارِجَ فِي النَّهْرَوَانِ، وَانْضَمَّ الصَّحَابَةُ إِلَيْهِ، وَقَاتَلوا

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

مَعَهُ الخَوارِجَ حَتَّى قَتَلَهُمْ شَرَّ قِتْلَةٍ، وَنَالَ بِذَلِكَ الأَجْرَ الَّذِي وَعَدَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ». وَهَذَا مِنْ فَضَائِلِ عَلِيٍّ رضي الله عنه، وفَضَائِلُهُ كَثِيْرَةٌ وَمِنْهَا: أَنَّهُ قَاتَلَ الخَوارِجَ، وَحَقَّقَ فِيهِمْ قَوْلَ الرَّسُولِ ﷺ.

قَوْلُهُ: (**قَدْ شَقَّ عَصَا المُسْلِمِيْنَ، وَخَالَفَ الآثَارَ، وَمِيتَتُهُ مِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ**) فَالخَوارِجُ هُمُ الَّذِيْنَ شَقُّوا عَصَا الطَّاعَةِ، وَخَرَجُوا عَلَى وَلِي الأَمْرِ وَكَذَلِكَ هُمُ الَّذِيْنَ يُكَفِّرُونَ المُسْلِمِينَ بِالكَبَائِرِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ فَلَهُمْ عَلامَتَانِ:

- **العَلامَةُ الأُوْلَى:** خُرُوجُهُمْ عَلَى وَلِي أَمْرِ المُسْلِمِيْنَ، وَمُحَاوَلَتُهُمْ خَلْعَ وَلِيِّ الأَمْرِ.
- **العَلامَةُ الثَّانِيةُ:** أَنَّهُم يُكَفِّرُونَ المُسْلِمِيْنَ بِالكَبَائِرِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ.

وَالَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى هَذَا هُوَ الغُلُوُّ وَالعِيَاذُ بِاللهِ؛ وَلِهَذَا حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الغُلُوِّ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ**»[1] وَهُوَ الزِّيَادَةُ فِي الدِّيْنِ، وَالزِّيَادَةُ عَلَى المَشْرُوعِ فِي إِنْكَارِ المُنْكَرِ، هَذَا هُوَ الغُلُوُّ الَّذِي دَفَعَ الخَوارِجَ إِلَى مَا حَصَلَ مِنْهُمْ. غَلَوْا فِي إِنْكَارِ المُنْكَرِ حَتَّى شَقُّوا عَصَا الطَّاعَةِ، وَغَلَوْا فِي العِبَادَةِ حَتَّى كَفَّرُوا مُرْتَكِبِي الكَبِيْرَةِ مِنَ المُسْلِمِينَ.

وَقَوْلُهُ: (**خَالَفَ الآثَارَ**) يَعْنِي الأَحَادِيثَ الوَارِدَةَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ فِي لُزُومِ طَاعَةِ وَلِيِّ أَمْرِ المُسْلِمِيْنَ.

(**وَمِيتَتُهُ مِيْتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ**) أَيْ: لأَنَّ فِيهِ خَصْلَةً مِنْ خَصَالِ الجَاهِلِيَّةِ، لأَنَّ العَرَبَ فِي الجَاهِلِيَّةِ كَانُوا مُتَفَرِّقِيْنَ إِلَى قَبَائِلَ، لَيْسَ لَهُمْ إِمَامٌ يَجْمَعُهُم، بَلْ كُلُّ قَبِيلَةٍ مُسْتَقِلَّةٌ بِنَفْسِهَا، وَتُغِيرُ عَلَى القَبِيلَةِ الأُخْرَى، وَلَمْ يَجْتَمِعُوا إِلاَّ بَعْدَمَا بَعَثَ اللهُ

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وأحمد (١/ ٢١٥، ٣٤٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٢٨٣).

مُحَمَّدًا ﷺ، ودَعاهُمْ إِلَى الإِسْلامِ فَأَسْلَمُوا، وَصارُوا تَحْتَ رايَةٍ واحِدَةٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعالَى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران:١٠٣]، وَقَالَ تَعالَى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال:٢٦] هَذَا مِنْ ثَمَرَةِ طَاعَةِ وَلي أَمْرِ المُسْلِمِينَ، كُلُّ هَذِهِ الخَيْرَاتِ تَحْصُلُ: انْبِساطُ الأَمْنِ، وَطَلَبُ الرِّزْقِ، وَامْتِدَادُ النَّاسِ فِي السَّعْيِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ بِسَبَبِ أَمْنِ الطُّرُقِ، أَمَّا إِذَا كَانَ هُنَاكَ خَوْفٌ فَالنَّاسُ لا يُسَافِرُونَ، وَلايَبِيعُونَ وَيَشْرُونَ خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ هَذِهِ مِنْ فَضَائِلِ الجَمَاعَةِ، وَطَاعَةِ وَلِيِّ الأَمْرِ، أَمَّا الخُرُوجُ عَلَى وَلِيِّ الأَمْرِ وَشَقُّ عَصَا الطَّاعَةِ فَيَلْزَمُ مِنْهُ:

أَوَّلًا: تَفْرِيقُ جَماعَةِ المُسْلِمِينَ.

ثَانِيًا: سَفْكُ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقٍّ.

ثَالِثًا: تَسَلُّط العَدُوِّ؛ لأَنَّ العَدُوَّ يَفْرَحُ بِهَذَا، وَلِذَلِكَ تَجِدُونَ الكُفَّارَ يَفْرَحُونَ بِانْشِقَاقِ المُسْلِمِينَ، وَيُفَرِّقُونَ المُسْلِمِينَ، وَيُسَاعِدُونَ الفِئَاتِ الضَّالَّةَ وَيُمِدُّونَهَا بِالسِّلاحِ، وَيُمِدُّونَهَا بِالتَّخْطِيطِ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَخْرُجَ عَلَى جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ، وَيَحْصُلَ التَّفَرُّقُ فِي المُسْلِمِينَ؛ فَيَغْنَمُونَ مِنْهُم غَنِيمَةً كَمَا هُوَ الحَاصِلُ، فَهَذَا كُلُّهُ نَتِيجَةٌ لِتَفَرُّقِ الكَلِمَةِ، وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﷺ، والخُرُوجِ عَلَى وَلِي أَمْرِ المُسْلِمِينَ.

الحَاصِلُ: أَنَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ إِمَامٌ فَإِنَّهُ كالَّذِي يَعِيشُ فِي الجَاهِلِيَّةِ وَإِذَا مَاتَ فَمِيتَتُهُ جاهِلِيَّةٌ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَكْفُرُ، لَكِن مَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَكُونُ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ الجَاهِلِيَّةِ، حَيْثُ لا يدخلُ تَحْتَ طَاعَةِ إِمَامٍ وَيَعِيشُ الفَوضَى.

[٣٥] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَلاَ يَحِلُّ قِتَالُ السُّلْطَانِ، وَلاَ الْخُرُوجُ عَلَيْهِ وَإِنْ جَارَ، وَذَلِكَ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لأَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ: «اصْبِرْ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا»، وَقَوْلِهِ لِلأَنْصَارِ: «اصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ»، وَلَيْسَ مِنَ السُّنَّةِ قِتَالُ السُّلْطَانِ؛ فَإِنَّ فِيهِ فَسَادَ الدُّنْيَا وَالدِّينِ.

الشَّرْحُ

لايَجُوزُ لأَحدٍ أَنْ يُقَاتِلَ السُّلْطَانَ، بِأَنْ يَخْرُجَ عَلَيْهِ بِالسِّلاحِ، لأَنَّ هَذَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مَفَاسِدُ كَبِيْرَةٌ.

قَوْلُهُ: (وَلايَحِلُّ قِتَالُ السُّلْطَانِ وَلاَ الْخُرُوجُ عَلَيْهِ وَإِنْ جَارَ) أَيْ: يَحْرُمُ قِتَالُ السُّلْطَانِ يَعْنِي مُقَاتَلَةَ السُّلْطَانِ كَمَا تَفْعَلُ الخَوَارِجُ.

(وَإِنْ جَارَ) أَيْ: حَصَلَ مِنْهُ جَوْرٌ أَوْ ظُلْمٌ فَإِنَّهُ يُصْبَرُ عَلَى ذَلِكَ؛ لأَنَّ الصَّبْرَ عَلَى ذَلِكَ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الضَّرَرِ أَخَفُّ مِنَ الضَّرَرِ الَّذِي يَحْصُلُ بِالخُرُوجِ عَلَيْهِ، فَالضَّرَرُ الَّذِي يَحْصُلُ مَعَ الصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ السُّلْطَانِ الجَائِرِ أَخَفُّ مِنَ الضَّرَرِ الَّذِي يَحْصُلُ بِالخُرُوجِ عَلَيْهِ، وَلا شَكَّ أَنَّ مِنَ القَوَاعِدِ الْمُقَرَّرَةِ فِي الإِسْلامِ: ارْتِكَابَ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ لِدَفْعِ أَعْلاهُمَا.

وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ لِلأَنْصَارِ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَونِي عَلَى الحَوْضِ»(١) أَوْصَاهُمْ بِالصَّبْرِ مَعَ أَنَّهُم يَلْقَونَ أَثَرَةً وَهِيَ: اسْتِئْثَارٌ بِالأَمْوَالِ دُونَهم، فَأَوْصَاهُمْ بِالصَّبْرِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ دَرْءِ أَعْظَمِ المَفْسَدَتَيْنِ.

قَوْلُهُ: (وَذَلِكَ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ لأَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ: «اصْبِرْ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا») يَعْنِي لا يَحْتَقِرُ وَلِيَّ الأَمْرِ، وَإِنْ كَانَ مَظْهَرُهُ غَيْرَ جَمِيلٍ، وَإِنْ كَانَ أَسْوَدَ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥٨١)، ومسلم (١٨٤٥) من حديث أسيد بن خضير رضي الله عنه.

اللَّوْنِ، أَوْ لَيْسَ لَهُ نَسَبٌ عَرَبِيٌّ؛ لأَنَّ العِبْرَةَ بِمَنْصِبِهِ - وَهُوَ الخِلافَةُ وَالإِمَارَةُ - وَلَيْسَتِ العِبْرَةُ بِشَخْصِهِ، فَيُطَاعُ مَا دَامَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، ولا يَنْظُرُ إِلَى مَظْهَرِهِ مِمَّا لا يُعْجِبُ النَّاظِرَ لِدَمَامَتِهِ أَوْ لَرَثَاثَتِهِ، أَوْ لِعَيبٍ فِي جِسْمِهِ، «**مُجَدَّعَ الأَطْرَافِ**» كُلُّ هَذَا لا يُسَوِّغُ الخُرُوجَ عَلَيْهِ، حَتَّى لَوْ كَانَ مَرِيضًا، أَوْ عِنْدَهُ ضَعْفٌ صِحِّيٌّ مَا دَامَ انْعَقَدَتْ بَيْعَتُهُ فَإِنَّهُ يُصْبَرُ عَلَيْهِ، وَيُسْمَعُ لَهُ، وَيُطَاعُ وَلَو كَانَ بِهذِهِ الصِّفَاتِ.

قَوْلُهُ: (**وَلَيْسَ مِنَ السُّنَّةِ قِتَالُ السُّلْطَانِ**) لَيْسَ فِي السُّنَّةِ الثَّابِتَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قِتَالُ السُّلْطَانِ، وَلا فِي حَدِيْثٍ وَاحِدٍ لا ضَعِيفٍ وَلا حَسَنٍ وَلا صَحِيْحٍ، **لَيْسَ** فِي السُّنَّةِ حَدِيْثٌ يَدُلُّ عَلَى قِتَالِ السُّلْطَانِ المُسْلِمِ، وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا، وَإِنْ كَانَ ظَالِمًا، وَإِنْ كَانَ جَائِرًا، وَإِنْ كَانَ مُسْتَأْثِرًا بِالأَمْوَالِ فَلا يَجُوزُ الخُرُوجُ عَلَيْهِ، بَلِ الأَحَادِيثُ كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى الصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ، وتَحْرِيْمِ الخُرُوجِ عَلَيْهِ.

وَلا يَعْنِي هَذَا أَنَّ السُّلْطَانَ لا يُنَاصَحُ، بَلْ يُنَاصَحُ سِرًّا بَيْنَه وبَيْنَ النَّاصِحِ فَيَجِبُ عَلَى مَنْ عِنْدَهُ نَصِيحَةٌ أَنْ يُبَلِّغَهَا لِلسُّلْطَانِ، كَمَا قَالَ ﷺ: «**الدِّيْنُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا لِمَنْ؟ قَالَ: لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[١] فَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ لا يُنَاصَحُ وَأَنَّهُ يُتْرَكُ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُبَيَّنَ لَهُ، وَيُنْصَحَ، وَهَذَا مِنْ حَقِّهِ عَلَى العُلَمَاءِ، وَعَلَى رَعِيَّتِهِ، وَعَلَى أَهْلِ المَشُورَةِ، وَأَهْلِ الرَّأْيِ أَنَّهُم يُنَاصِحُونَهُ.

(**وَلَيْسَ مِنَ السُّنَّةِ قِتَالُ السُّلْطَانِ**) يَعْنِي لَيْسَ فِيْهَا دَلِيْلٌ، لاصَحِيحٌ، وَلا ضَعِيفٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ قِتَالِ السُّطَانِ المُسْلِمِ، بَلْ فِيْهَا وَفِي القُرْآنِ الأَمْرُ بطَاعَتِهِ ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ**﴾ [النساء:٥٩] انْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**مِنكُمۡ**﴾ يَعْنِي مَا دَامَ مُسْلِمًا فَإِنَّهُ تَجِبُ طَاعَتُهُ.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

قَوْلُهُ: (فَإِنَّ فِيهِ فَسَادَ الدُّنْيَا وَالدِّينِ) فِي قِتَالِ السُّلْطَانِ فَسَادُ الدُّنْيَا بِأَنْ يَضِيعَ المُلْكُ، وَتَشِيعَ الفَوْضَى، وَيَتَسَلَّطَ الأَعْدَاءُ، وَضَيَاعُ الدِّيْنِ، فَإِنَّهُ لا أَحَدَ يُقِيمُ الحُدُودَ، وَلا أَحَدَ يُنَفِّذُ القِصَاصَ، وَلا أحَدَ يُنَفِّذُ الأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ وَيَرُدُّ الحُقُوقَ إِلَى مُسْتَحِقِّيهَا، وَيُنَفِّذُ الأَحْكَامَ القَضَائِيَّةَ، وحِيْنَئَذٍ يَفْسُدُ الدِّيْنُ بِهَذَا، فَتَكُونُ فَوْضَى وَفَسَادٌ، فَإِذَا لَمْ تُقْطَعْ يَدُ السَّارِقِ تَضِيعُ الأَمْوَالُ، وَإِذَا لَمْ يُقْطَعْ قُطَّاعُ الطُّرُقِ تُعَطَّلُ السُّبُلُ، مَنِ الَّذِي يَقُومُ بِهَذَا؟ هُوَ وَلِيُّ الأَمْرِ، هَذَا مِنْ صَلاحِيَّاتِ وَلِيِّ الأَمْرِ، وَلا أَحَدَ يَستَطِيعُ ولَوِ اجْتَمَعَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مَا اسْتَطَاعُوا القِيَامَ بِهَذِهِ الأُمُورِ، بَلْ تَلْزَمُ الفَوْضَى.

❊❊❊

[٣٦] قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: وَيَحِلُّ قِتَالُ الخَوَارِجِ إِذَا عَرَضُوا لِلْمُسْلِمِيْنَ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ، وَلَيْسَ لَهُ إِذَا فَارَقُوهُمْ أَنْ يَطْلُبَهُمْ، وَلا يُجْهِزُ عَلَى جَرِيحِهِمْ، وَلا يَأْخُذُ فَيْئَهُمْ، وَلايَقْتُلُ أَسِيرَهُمْ، وَلايَتْبَعُ مُدْبِرَهُمْ.

الشَّرْحُ

عَرَفْنَا أَنَّ الخَوَارِجَ هُمُ الَّذِيْنَ يَرَوْنَ شَقَّ عَصَا الطَّاعَةِ، وَيَرَوْنَ أَنَّ وَلِيَّ الأَمْرِ لَيْسَ لَهُ بَيْعَةٌ أَوْ لَمْ يَبْقَ لَهُ بَيْعَةٌ عَلَى النَّاسِ إِذَا حَصَلَ مِنْهُ مَعْصِيَةٌ، وَيُكَفِّرُونَ الْمُسْلِمِينَ بِكَبَائِرِ الذُّنُوبِ، هَؤُلاءِ إِذَا اعْتَنَقُوا هَذَا المَذْهَبَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَوْكَةٌ وَلَمْ يُقَاتِلُوا فَإِنَّهُمْ يُتْرَكُونَ مَعَ مُنَاصَحَتِهِمْ وَالبَيَانِ لَهُمْ لَعَلَّهُم يَتُوبُونَ.

أَمَّا إِذَا صَارَ لَهُمْ شَوْكَةٌ وَأَظْهَرُوا القُوَّةَ فَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قِتَالُهُمْ كَفًّا لِشَرِّهِمْ، وَلا يُقَاتَلُونَ عَلَى أَنَّهُم كُفَّارٌ، بَلْ يُقَاتَلُونَ عَلَى أَنَّهُم مُسْلِمُونَ جَارُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَاعْتَدَوْا عَلَيْهِم، وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلِيٌّ رضي الله عنه عَنِ الخَوَارِجِ: أَكُفَّارٌ هُمْ؟ قَالَ: «لا، مِنَ الكُفْرِ فَرُّوا، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ بَغَوْا عَلَيْنَا»، فَلا يُقَاتَلُونَ عَلَى أَنَّهُم كُفَّارٌ، وَلِذَلِكَ لا تُسْبَى نِسَاؤُهُمْ وَذَرَارِيهِمْ، وَلا تُؤْخَذُ أَمْوَالُهُمْ، وَلا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحِهِمْ؛ لأَنَّ قِتَالَهُمْ إِنَّمَا هُوَ لِكَفِّ شَرِّهِمْ لا لِكُفْرِهِمْ.

قَوْلُهُ: (**وَيَحِلُّ قِتَالُ الخَوَارِجِ إِذَا عَرَضُوا لِلْمُسْلِمِيْنَ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ**) لأَنَّ النَّبِيَّ أَمَرَ بِقِتَالِهِمْ، وَلأَنَّ عَلِيًّا رضي الله عنه قَاتَلَهُمْ لَمَّا تَعَرَّضُوا لِعَبْدِ الله ابنِ خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ رضي الله عنه وَقَتَلُوهُ، وَشَقُّوا بَطْنَ وَلِيْدَتِهِ وَكَانَتْ حَامِلًا فَعِنْدَئِذٍ عَزَمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى قِتَالِهِمْ؛ لأَنَّهُم حَصَلَتْ مِنْهُمْ بَوَادِرُ.

قَوْلُهُ: (**وَلَيْسَ لَهُ إِذَا فَارَقُوهُمْ أَنْ يَطْلُبَهُمْ**) إِذَا كَفُّوا عَنِ القِتَالِ فَلَيْسَ لِوَلِيِّ الأَمْرِ أَنْ يَطْلُبَهُمْ وَيَغْزُوَهُمْ، مَا دَامَ أَنَّهُ لَمْ يَحْصُلْ مِنْهُمُ اعْتِدَاءٌ فَهُمْ ضُلاَّلٌ بِلا شَكٍّ وَتَجِبُ مُنَاصَحَتُهُمْ لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ، وَلَكِنْ لا يُقَاتَلُونَ.

قَوْلُهُ: (وَلا يُجْهِزُ عَلَى جَرِيحِهِمْ) لأَنَّ الجَرِيحَ انْكَفَّ شَرُّهُ.

قَوْلُهُ: (وَلا يَأْخُذُ فَيْئَهُمْ) يَعْنِي لا تُغْنَمُ أَمْوَالُهُمْ؛ لأَنَّهَا أَمْوَالُ مُسْلِمِيْنَ.

قَوْلُهُ: (وَلا يَقْتُلُ أَسِيرَهُمْ) لأَنَّهُم مُسْلِمُونَ، وَقَدْ حَصَلَ كَفُّ شَرِّهِمْ بِأَسْرِهِمْ وَبِجَرْحِهِمْ.

قَوْلُهُ: (وَلا يَتْبَعُ مُدْبِرَهُمْ) إِذَا انْهَزَمُوا يَتْرُكُهُمْ وليُّ الأَمْرِ، وَلا يَلْحَقُهُمْ، لأَنَّهُم كَفُّوا شَرَّهُمْ.

[٣٧] قَالَ المؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّهُ لا طَاعَةَ لِبَشَرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

[٣٨] وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ، وَلا يُشْهَدُ عَلَى أَحَدٍ، وَلا يُشْهَدُ لَهُ بِعَمَلِ خَيْرٍ وَلا شَرٍّ، فَإِنَّكَ لاتَدْرِي بِمَ يُخْتَمُ لَهُ عِنْدَ المَوْتِ، تَرْجُو لَهُ رَحْمَةَ اللهِ وَتَخَافُ عَلَيْهِ، وَلا تَدْرِي مَا يَسْبِقُ لَهُ عِنْدَ المَوْتِ إِلَى اللهِ مِنَ النَّدَمِ، وَمَا أَحْدَثَ اللهُ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ إِذَا مَاتَ عَلَى الإِسْلامِ، تَرْجُو لَهُ الرَّحْمَةَ، وَتَخَافُ عَلَيْهِ ذُنُوبَهُ.

[٣٩] وَمَا مِنْ ذَنْبٍ إِلاَّ وَ لِلْعَبْدِ مِنْهُ تَوْبَةٌ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَاعْلَمْ أَنَّهُ لا طَاعَةَ لِبَشَرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ) هَذَا اسْتِثْنَاءٌ لِمَا سَبَقَ، لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ تَجِبُ طَاعَةُ وُلاةِ الأُمُورِ بَيَّنَ أَنَّهَا لاتَجِبُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَإِنَّمَا يُطَاعُونَ فِيمَا لَيْسَ بِمَعْصِيَةٍ، أَمَّا إِذَا أَمَرُوا بِمَعْصِيَةٍ فَلا يُطَاعُونَ فِي المَعْصِيَةِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَمَّرَ عَلَى سَرِيَّةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ أَميرًا؛ فَلَمَّا سَارُوا فِي الطَّرِيقِ قَالَ لَهُم: اجْمَعُوا حَطَبًا، فَلَمَّا جَمَعُوهُ قَالَ: أَوْقِدُوهُ، فَلَمَّا أَوْقَدُوهُ قَالَ: ادْخُلُوا فِي النَّارِ، أَلَيْسَ الرَّسُولُ ﷺ يَقُولُ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا» فَقَالَ بَعْضُهُم: نَحْنُ مَا أَطَعْنَا الرَّسُولَ إِلاَّ فِرَارًا مِنَ النَّارِ فَكَيْفَ نَدْخُلُ فِيهَا؟! فَامْتَنَعُوا مِنَ الدُّخُولِ فِيهَا. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ لَوْ دَخَلُوهَا لَمْ يَخْرُجُوا مِنْهَا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ»[١]، وَقَالَ ﷺ: «لاطَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ»، وَقَالَ تَعَالَى فِي الوالِدَيْنِ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ يَعْنِي الوالِدَيْنِ: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان:١٥]، وَلَكِنْ لَيْسَ مَعْنَى

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٠٨٥)، ومسلم (١٨٤٠) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ذَلِكَ أَنَّهَا تَنْخَلِعُ طَاعَةُ وَلِيِّ الأَمْرِ إِذَا أَمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، لَكِن لا يُطَاعُ فِي هَذِهِ المَعْصِيَةِ، وَتَبْقَى طَاعَتُهُ فِيمَا لَيْسَ بِمَعْصِيَةٍ. هَذَا مَعْنَى أَنَّهُ لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ، فَلا يُقَالُ: إِنَّ اللهَ أَمَرَ بِطَاعَةِ وُلاةِ الأُمُورِ، وَأَمَرَ بِبِرِّ الوَالِدَيْنِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، نَقُولُ: نَعَمْ. اللهُ أَمَرَ بِطَاعَةِ وُلاةِ الأُمُورِ بِالمَعْرُوفِ، وَأَمَرَ بِبِرِّ الوَالِدَيْنِ لَكِنْ بِالمَعْرُوفِ، لا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ ﷻ.

قَوْلُهُ: (**وَلا يُشْهَدُ عَلَى أَحَدٍ وَلا يُشْهَد لَهُ بِعَمَلِ خَيْرٍ وَلاشَرٍّ**) هَذِهِ مَسْأَلَةُ الشَّهَادَةِ بِالجَنَّةِ أَوِ النَّارِ لِلْمُعَيَّنِ؛ فَلا يُشْهَدُ لِمُعَيَّنٍ بِجَنَّةٍ، وَلا يُشْهَدُ لَهُ بِنَارٍ إِلاَّ بِدَلِيْلٍ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، أَمَّا مَنْ لَمْ يَدُلَّ دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى وَلَوْ كَانَ صَالِحًا مُؤْمِنًا فَلاَ يُشْهَدُ لَهُ، لأَنَّنَا لا نَدْرِي بِمَ يُخْتَمُ لَهُ، وَكَذَلِكَ العَاصِي أَوِ الكَافِرُ لانَجْزِمُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، لأَنَّهُ قَدْ يَتُوبُ وَنَحْنُ لا نَدْرِي، قَالَ ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَلا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فيَدْخُلُهَا**»[1]. الأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيْمِ، وَالخَوَاتِيْمُ لايَعْلَمُهَا إِلاَّ اللهُ عَلاَّمُ الغُيُوبِ ﷻ، لَكِنَّنَا نَخَافُ عَلَى أَهْلِ المَعَاصِي وَنَرْجُو لأَهْلِ الطَّاعَاتِ وَلا نَجْزِمُ، بَلْ نَرْجُو لِلْمُطِيعِيْنَ وَلا نَجْزِمُ، وَنَخَافُ عَلَى العُصَاةِ وَلا نَجْزِمُ، هَذَا بِالنِّسْبَةِ لِلْمُعَيَّنِيْنَ، أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْعُمُومِ: فَنَجْزِمُ أَنَّ أَهْلَ الإِيْمَانِ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَنجْزِمُ أَنَّ الكُفَّارَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي النَّارِ: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٣١]، وَقَالَ فِي الجَنَّةِ: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران:١٣٣] هَذَا مِنْ حَيْثُ العُمُومُ، أَمَّا مِنْ حَيْثُ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٣٦)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

الأَفْرَادُ وَالمُعَيَّنُونَ فَهَذَا يُوْكَلُ إِلَى اللهِ ﷻ، لَكِنَّنَا نَتَعَامَلُ مَعَهُم فِيمَا يَظْهَرُ، نَتَعَامَلُ مَعَ أَهْلِ الطَّاعَةِ فِيمَا يَظْهَرُ، وَنَتَعَامَلُ مَعَ أَهْلِ المَعَاصِي فِيمَا يَظْهَرُ لَنَا، نَحْكُمُ عَلَى الظَّاهِرِ فَقَطْ، لا عَلَى المَصِيرِ وَالعَاقِبَةِ فَهَذِهِ بِيَدِ اللهِ ﷻ.

[٤٠] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالرَّجْمُ حَقٌّ.

الشَّرْحُ

اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَرَّمَ أَشْيَاءَ، فِي الأَعْرَاضِ، وَفِي المُعَامَلاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهَذِهِ المُحَرَّمَاتُ تَنْقَسِمُ إِلَى أَقْسَامٍ:

- مُحَرَّمَاتٍ كَبَائِرَ.
- وَمُحَرَّمَاتٍ صَغَائِرَ.

ثُمَّ هِيَ من حَيْثُ العُقُوبَةُ عَلَى مَنِ ارْتَكَبَهَا تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلاثَةِ أَقْسَامٍ:

- **القِسْمُ الأول:** مُحَرَّمَاتٌ وَضَعَ اللهُ لَهَا عُقُوبَاتٍ مُحَدَّدَةً، وَهِي مَا تُسَمَّى بِالحُدُودِ، سُمِّيَتْ حُدُودًا مِنَ الحَدِّ وَهُوَ المَنْعُ؛ لأَنَّ هَذِهِ العُقُوبَاتِ تَمْنَعُ مِنَ الوُقُوعِ فِي هَذِهِ المَعَاصِي.

- **وَالقِسْمُ الثاني:** مُحَرَّمَاتٌ لَمْ يَضَعِ اللهُ لَهَا حُدُودًا، وَلَكِنْ فِيْهَا تَعْزِير، وَهُوَ مَوكُولٌ إِلَى اجْتِهَادِ وَلِيِّ الأَمْرِ بِمَا يَرَاهُ رَادِعًا عَنْهَا، وَهُوَ مَا يُسَمَّى بِالتَّعْزِير، وَهُوَ التَّأْدِيبُ.

- **وَالقِسْمُ الثَّالِثُ:** مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ حَدٌّ وَلا تَعْزِيرٌ مِنَ المُحَرَّمَاتِ، وَإِنَّمَا فِيهِ وَعِيدٌ وَغَضَبٌ وَلَعْنَةٌ وَنَارٌ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الوَعِيدِ. كَأَكْلِ الرِّبَا وَالقِمَارِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، هَذَا فِيهِ وَعِيدٌ شَدِيدٌ، يَرْدَعُ مَنْ فِي قَلْبِهِ إِيْمَانٌ، وَمَنْ كَانَ لَيْسَ فِي قَلْبِهِ إِيْمَانٌ أَوْ كَانَ ضَعِيفَ الإِيْمَانِ فَإِنَّ أَمَامَهُ حِسَابًا وَعِقَابًا فِي الآخِرَةِ، فَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - حَرَّمَ هَذِهِ المُحَرَّمَاتِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلا تُضَيِّعُوهَا وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلا تَسْأَلُوا عَنْهَا**».

وَمِنْ هَذِهِ الحُدُودِ حَدُّ الزِّنَا، وَالزِّنَا: هُوَ فِعْلُ الفَاحِشَةِ فِي فَرْجٍ لا يَحِلُّ لَهُ، هَذَا هُوَ الزِّنَا، فِعْلُ الفَاحِشَةِ فِي الفُرُوجِ الَّتِي حَرَّمَهَا اللهُ إلاَّ بِالعَقْدِ الشَّرْعِيِّ الصَّحِيحِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المعارج:٢٩-٣١] أَي: المَتَجَاوِزُونَ مِنَ الحَلالِ إِلَى الحَرَامِ، فَمَنْ وَقَعَ فِي الزِّنَا فَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ:

إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِكْرًا لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ وَطِئَ امْرَأَتَهُ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ يُعِفُّهُ فَهَذَا هُوَ البِكْرُ، وَهَذَا عُقُوبَتُهُ أَنْ يُجْلَدَ مِائَةَ جَلْدَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢] وَجَاءَ فِي السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ أَنَّهُ يُغَرَّبُ، يَعْنِي يُبْعَدُ عَنِ البَلَدِ الَّذِي مَارَسَ الفَاحِشَةَ فِيهِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ، لِمُدَّةِ عَامٍ، قَالَ ﷺ: «**البِكْرُ بِالبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ**»[1] فَثَبَتَ التَّغْرِيبُ بِالسُّنَّةِ، وَأَمَّا الجَلْدُ فَهُوَ ثَابِتٌ بِالقُرْآنِ، وَقَدْ أَجْمَعَ العُلَمَاءُ عَلَى الجَلْدِ، وَجُمْهُورُهُمْ أَيْضًا عَلَى التَّغْرِيبِ، هَذَا فِي حَدِّ البِكْرِ.

أَمَّا الثَّيِّبُ: وَهُوَ الَّذِي سَبَقَ أَنْ وَطِئَ امْرَأَتَهُ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ، وَعَرَفَ قَدْرَ الأَعْرَاضِ وَحُرْمَةَ الأَعْرَاضِ فَهَذَا يُرْجَمُ بِالحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ، وَهَذَا ثَابِتٌ بِالقُرْآنِ الَّذِي نُسِخَ لَفْظُهُ وَبَقِيَ حُكْمُهُ، كَمَا قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه عَلَى مِنْبَرِ الرَّسُولِ ﷺ قَالَ: «**نَزَلَتْ آيَةُ الرَّجْمِ فَوَعَيْنَاهَا وَحَفِظْنَاهَا، وَرَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولُوا: مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللهِ؛ أَلا إِنَّهُ فِي كِتَابِ اللهِ**». يُشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «**وَالشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا البَتَّةَ نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**»[2] هَذَا قُرْآنٌ نُسِخَ لَفْظُهُ وَبَقِيَ حُكْمُهُ، وَرَجَمَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٩٠) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٩١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَمَرَ بِالرَّجْمِ، وَأَجْمَعَ المُسْلِمُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَمْ يُخَالِفْ فِيهِ إِلاَّ أَهْلُ البِدَعِ الَّذِيْنَ لا يُعْتَدُّ بِخِلافِهِمْ كَالخَوَارِجِ.

فَالرَّجْمُ ثَابِتٌ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ القَوْلِيَّةِ وَالعَمَلِيَّةِ، وَبالإِجْمَاعِ؛ فَمَنْ أَنْكَرَهُ فَهُوَ كَافِرٌ؛ لأَنَّهُ مُكَذِّبٌ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ فَالرَّجْمُ ثَابِتٌ لا مَجَالَ للكَلامِ فِيهِ، وَلِهَذَا نَصَّ عَلَيْهِ هُنَا فَقَالَ: **(الرَّجْمُ حَقٌّ)** هَذَا مِنْ عَقِيْدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ رَدًّا عَلَى المُبْتَدِعَةِ الَّذِيْنَ يُنْكِرُونَ الرَّجْمَ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ، وَمِنْ غَيْرِ بَصِيْرَةٍ لِجَهْلِهِمْ، وَتَطَفُّلِهِمْ عَلَى العِلْمِ، وَاعْتِمَادِهِمْ عَلَى عُقُولِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ، هَؤُلاءِ لا يُعْتَدُّ بِهِم، وَلا يُنْظَرُ إِلَى أَقْوَالِهِمْ. رُبَّمَا يَأْتِي جَاهِلٌ يَدَّعِي المَعْرِفَةَ وَالبَحْثَ وَيَقُولُ: هَذِهِ فِيْهَا خِلافٌ، فَيُقَالُ لَهُ وَهَلْ كُلُّ خِلافٍ يُعْتَدُّ بِهِ؟! هُنَاكَ خِلافَاتٌ مُلْغَاةٌ لا يُعْتَدُّ بِهَا؛ مِنْهَا ذَلِكَ الخِلافُ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ النَّاظِمُ:

وَلَيس كُلُّ خِلافٍ جَاءَ مُعْتَبَرًا ... إِلاَّ خِلافٌ لَهُ حَظٌّ مِنَ النَّظَرِ

لَيْسَتِ المَسْأَلَةُ ادِّعَاءَ الخِلافِ، المَسْأَلَةُ: مَسْأَلَةُ تَحْقِيقٍ وَرَبْطٍ بِالدَّلِيلِ؛ فَمَنْ خَالَفَ الدَّلِيلَ فَهُوَ مَخْصُومٌ وَلا عِبْرَةَ بِخِلافِهِ، وَلا يُعْتَدُّ بِهِ، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿**فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا**﴾ [النساء:٥٩] لا نَبْقَى عَلَى الخِلافِ، بَلْ نَرْجِعُ إِلَى الدَّلِيْلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا**﴾، فَلِهَذَا نَصَّ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى مَسْأَلَةِ الرَّجْمِ مَعَ أَنَّ الكِتَابَ كِتَابُ عَقَائِدَ، لأَنَّهُ يَجِبُ اعْتِقَادُ وُجُوبِ الرَّجْمِ، فَمَنْ أَنْكَرَهُ كَفَرَ، فَهُوَ نَصَّ عَلَى هَذَا رَدًّا عَلَى المُبْتَدِعَةِ الَّذِيْنَ أَنْكَرُوا الرَّجْمَ.

[٤١] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالمَسْحُ عَلَى الخُفَّيْنِ سُنَّةٌ.

الشَّرْح

(وَالمَسْحُ عَلَى الخُفَّيْنِ سُنَّةٌ) نَصَّ عَلَى هذه المَسْأَلَةَ، مَعَ أَنَّهَا مِنْ مَسَائِلِ الفِقْهِ؛ لأَنَّ لَهَا تَعَلُّقًا بِالعَقِيدَةِ؛ فَمَنْ أَنْكَرَ المَسْحَ عَلَى الخُفَّيْنِ يَكُنْ خَارِجًا عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ مُخَالِفًا لِلْعَقِيْدَةِ الصَّحِيحَةِ؛ لأَنَّ المَسْحَ عَلَى الخُفَّيْنِ ثَابِتٌ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ فِي أَحَادِيث كَثِيْرَةٍ بَلَغَتْ حَدَّ التَّوَاتُرِ.

(وَالمَسْحُ عَلَى الخُفَّيْنَ) رُخْصَةٌ، والعَمَلُ بِالرُّخْصَةِ سُنَّةٌ، لِقَوْلِهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ**»[1] فَالمَسْحُ عَلَى الخُفَّيْنِ وَالمَسْحُ عَلَى مَا يَقُومُ مَقَامَ الخُفَّيْنِ مِنَ الجَوَارِبِ ثَابِتٌ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَلَمْ يُخَالِفْ فِيهِ إِلاَّ الرَّافِضَةُ؛ بَيْنَمَا أَثْبَتُوا المَسْحَ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فَالرِّجْلانِ لا تُغْسَلانِ عِنْدَ الرَّافِضَةِ وَإِنَّمَا يُمْسَحُ عَلَيْهِمَا، احْتِجَاجًا بِالآيَةِ فِي قِرَاءَةِ: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ [المائدة:٦] بِالكَسْرِ ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة:٦] وَلَيْسَ الكَعْبَانِ عِنْدَهُم هُمَا الكَعْبَانِ المَعْرُوفَانِ فِي أَسْفَلِ السَّاقِ وَإِنَّمَا الكَعْبَانِ عِنْدَهُمْ مَا تَحْتَ مَعْقِدِ الشِّرَاكِ، وَهُوَ مَجْمَعُ القَدَمِ مَعَ العَقِبِ مِمَّا يُسَمَّى بِعَرْشِ الرِّجْلِ، هَذَا الكَعْبُ عِنْدَ الرَّافِضَةِ وَهُوَ غَيْرُ الكَعْبِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ.

وَلا حُجَّةَ لَهُم بِقِرَاءَةِ الكَسْرِ فِي الآيَةِ، لأَنَّ القِرَاءَةَ المَشْهُورَةَ بِنَصْبِ: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ عَطْفًا عَلَى ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾، وَقِرَاءَةُ الكَسْرِ لأَجْلِ المُجَاوَرَةِ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ بِدَلِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَغْسِلُ رِجْلَيْهِ وَلَمْ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢/١٠٨)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٠٢٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٧٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٨٥).

يَكُنْ يَمْسَحُ إلاَّ عَلَى الخُفَّيْنِ.

***

[٤٢] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَتَقْصِيرُ الصَّلاَةِ فِي السَّفَرِ سُنَّةٌ.

الشَّرْح

مِنَ الرُّخَصِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الشَّرْعُ تَسْهِيلًا عَلَى العِبَادِ وَرَفْعًا لِلْحَرَجِ: القَصْرُ فِي السَّفَرِ، وَهُوَ قَصْرُ الصَّلاةِ الرُّبَاعِيَّةِ، وَهَذَا بِنَصِّ القُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي سَافَرْتُمْ ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء:١٠١] ظَاهِرُ الآيَةِ أَنَّهُ لا يَجُوزُ القَصْرُ إِلاَّ فِي حَالَةِ الخَوْفِ، وَقَدْ زَالَ هَذَا الإِشْكَالُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ: مَا بَالُنَا نَقْصُرُ وَقَدْ آمِنَّا؟ قَالَ ﷺ: «**تِلْكَ صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ؛ فَاقْبَلُوا مِنَ اللهِ صَدَقَتَهُ**» وَكَانَ ﷺ يَقْصُرُ فِي جَمِيعِ أَسْفَارِهِ، يَقْصُرُ الرُّبَاعِيَّةَ إِلَى رَكْعَتَيْنِ، هَذَا هُوَ السُّنَّةُ، وَمَنْ أَتَمَّ فَالإِتْمَامُ جَائِزٌ، لَكِنَّهُ خِلافُ الأَفْضَلِ.

فَالقَصْرُ رُخْصَةٌ مَنْ شَاءَ فَعَلَهُ وَهُوَ أَفْضَلُ، وَمَنْ شَاءَ تَرَكَهُ وَأَتَمَّ فَلا حَرَجَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ؛ لأَنَّ الإِتْمَامَ هُوَ الأَصْلُ، والمصنف ذكَرَ ذَلِكَ لأَنَّ تَقَبُّلَ الرُّخَصِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْ مَسَائِلِ العَقِيْدَةِ، وَفِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى المُتَشَدِّدِيْنَ الَّذِينَ لا يَقْبَلُونَ الرُّخَصَ الشَّرْعِيَّةَ.

[٤٣] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالصَّومُ فِي السَّفَرِ؛ مَنْ شَاءَ صَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ.

الشَّرْح

مِنَ الرُّخَصِ الَّتِي رَخَّصَ اللهُ بِهَا لِعِبَادِهِ: الإِفْطَارُ فِي رَمَضَانَ فِي السَّفَرِ فَهُوَ رُخْصَةٌ، مَنْ شَاءَ أَفْطَرَ، وَمَنْ شَاءَ صَامَ، وَإِذَا صَامَ فَصِيَامُهُ صَحِيْحٌ؛ لأَنَّ صَحَابِيًّا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ بِأَنَّ عِنْدَهُ قُوَّةً وَيَقْدِرُ عَلَى الصِّيَامِ فِي السَّفَرِ؟ فَالنَّبِيُّ ﷺ أَذِنَ لَهُ بِالصِّيَامِ فِي السَّفَرِ، فَهُوَ رُخْصَةٌ وَالرُّخْصَةُ لا يَجِبُ فِعْلُهَا، وَإِنَّمَا الأَفْضَلُ فِعْلُهَا كَسَائِرِ الرُّخَصِ، وَإِنْ رَجَعَ إِلَى الأَصْلِ وَصَامَ فَلا بَأْسَ بِذَلِكَ، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وَكَانَ ﷺ يُفْطِرُ فِي أَسْفَارِهِ.

[٤٤] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَلاَ بَأْسَ بِالصَّلاةِ فِي السَّرَاوِيلِ.

الشَّرْح

السَّرَاوِيلُ مفْرَدٌ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ: مَا يُلْبَسُ عَلَى العَوْرَةِ، فَهُوَ مَخِيطٌ عَلَى قَدْرِ أَسْفَلِ الجِسْمِ، لَهُ أَكْمَامٌ.

قَالَ: تَصِحُّ الصَّلاةُ فِي السَّرَاوِيلِ هَذَا بِالنِّسْبَةِ لِلرَّجُلِ؛ لأَنَّ عَوْرَةَ الرَّجُلِ مَا بَيْنَ السُّرَّةِ إِلَى الرُّكْبَةِ، وَالسَّرَاوِيلُ يَسْتُرُ ذَلِكَ، فَإِذَا صَلَّى فِي سَرَاوِيلٍ سَاترٍ مَا بيْنَ سُرَّتِهِ إِلَى رُكْبَتِهِ فَصَلاتُهُ صَحِيْحَةٌ.

أَمَّا المَرْأَةُ فَكُلُّهَا عَوْرَةٌ فِي الصَّلاةِ إِلاَّ وَجْهَهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهَا رِجَالٌ غَيْرَ مَحَارِمٍ.

وَإِذَا صَلَّى فِي إِزَارٍ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ السَّرَاوِيلِ، أَوْ صَلَّى فِي قَمِيصٍ، فَإِنَّهُ أَفْضَلُ مِنَ السَّرَاوِيلِ، أَوْ صَلَّى فِي قَمِيصٍ، فَإِنَّهُ أَفْضَلُ؛ لأَنَّهُ أَجْمَلُ لِلْهَيْئَةِ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف:٣١] أَيْ: عِنْدَ كُلِّ صَلاةٍ، وَالزِّيْنَةُ كَمَا يَقُولُ شَيْخُ الإِسْلامِ: أَعَمُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ سَتْرًا لِلْعَوْرَةِ فَقَطْ.

[٤٥] قَالَ المُؤَلِّفُ ﵀: وَالنِّفَاقُ أَنْ يُظْهِرَ الإِسْلامَ بِاللِّسَانِ وَيُخْفِي الكُفْرَ بِالضَّمِيرِ.

الشَّرْح

النِّفَاقُ: هُوَ إِظْهَارُ الخَيْرِ وَإِبْطَانُ الشَّرِّ. وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

- نِفَاقٌ اعِتْقَادِيٌّ.

وَهَذَا كُفْرٌ أَكْبَرُ، وَالمُنَافِقُ شَرٌّ مِنَ الكَافِرِ الأَصْلِيِّ؛ لأَنَّ الكَافِرَ الأَصْلِيَّ مَعْرُوفٌ أَنَّهُ كَافِرٌ، وَأَنَّهُ عَدُوٌّ، لَكِنَّ المُنَافِقَ يَخْدَعُ المُسْلِمِينَ، وَيُظْهِرُ أَنَّهُ مِنْهُمْ وَهُوَ عَدُوٌّ لَهُم، يُظْهِرُ أَنَّهُ مُسْلِمٌ وَهُوَ كَافِرٌ، ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:٩] وَلِهَذَا جَعَلَهُمُ اللهُ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، تَحْتَ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ وَالكُفَّارِ، لأَنَّهُمْ شَرٌّ مِنَ الكُفَّارِ، وَلِهَذَا قَالَ - جَلَّ وَعَلا - فِيهِمْ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤] وَالنِّفَاقُ الاعْتِقَادِيُّ هُوَ الَّذِي لا يَجْتَمِعُ مَعَهُ إِيمَانٌ أَبَدًا.

- النَّوْعُ الثَّانِي: النِّفَاقُ العَمَلِيُّ.

وَالنِّفَاقُ العَمَلِيُّ هُوَ أَنْ يَكُونَ الإِنْسَانُ مُؤْمِنًا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، لَكِنْ يَصْدُرُ مِنْهُ صِفَاتٌ مِنْ صِفَاتِ المُنَافِقِيْنَ. تُنْقِصُ إِيمَانَهُ وَعَلَيْهِ وَعِيدٌ شَدِيْدٌ، لَكِنَّهُ لا يَخْرُجُ مِنَ المِلَّة. يُسَمَّى النِّفَاقَ العَمَلِيَّ وَيُسَمَّى النِّفَاقَ الأَصْغَرَ. وَمِثْلُ هَذَا مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهَا كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[١] فَهَذَا المُؤْمِنُ قَدْ يَصْدُرُ مِنْهُ النِّفَاقُ العَمَلِيُّ، وَهُوَ نَقْصٌ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو ﵄.

فِي إِيْمَانِهِ وَمُسْتَحِقٌّ لِلْوَعِيدِ لَكِنَّهُ لايَخْرُجُ بِذَلِكَ مِنَ الدِّيْنِ.

وَهَذَا النِّفَاقُ هُوَ الرِّيَاءُ الَّذِي خَافَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ، وَسَمَّاهُ الشِّرْكَ الأَصْغَرَ قَالَ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**» قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ، يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الرِّيَاءُ. يَقُولُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا جَزَى النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً**»[1].

وَقَالَ ﷺ: «**أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «**الشِّرْكُ الخَفِيُّ؛ يَقُومَ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ**»[2] إِذَا صَلَّى عِنْدَ النَّاسِ يُزَيِّنُ صَلاتَهُ، وَإِنْ صَلَّى فِي بَيْتِهِ أَوْ مَحَلٍّ خَفِيٍّ فَإِنَّهُ يَنْقُرُ الصَّلاةَ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي خَافَهُ الصَّحَابَةُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ خَوْفًا شَدِيدًا، وَلا أَحَدَ يُبَرِّئُ نَفْسَهُ مِنْهُ فَيَخَافُ الإِنْسَانُ مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالُوا: «لا يَخَافُهُ إِلاَّ مُؤْمِنٌ، وَلايَأْمَنُهُ إِلاَّ مُنَافِقٌ» فَالْمُسْلِمُ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ هَذَا النِّفَاقِ وَهُوَ النِّفَاقُ الأَصْغَرُ.

قَوْلُهُ: (**وَالنِّفَاقُ أَنْ يُظْهِرَ الإِسْلامَ بِاللِّسَانِ وَيُخْفِي الكُفْرَ بِالضَّمِيرِ**) هَذَا تَعْرِيفُ النِّفَاقِ الاعْتِقَادِيِّ وَهُوَ النِّفَاقُ الأَكْبَرُ، وَهَذَا لايَجْتَمِعُ مَعَهُ الإِيْمَانُ وَلايَصْدُرُ مِنْ مُؤْمِنٍ أَبَدًا. وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - فِي أَوَّلِ سُورَةِ البَقَرَةِ قَسَّمَ النَّاسَ إِلَى مُؤْمِنِيْنَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَإِلَى كُفَّارٍ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَإِلَى مُنَافِقِيْنَ يُظْهِرونُ الإِسْلامَ فِي الظَّاهِرِ وَيُبْطِنُونَ الكُفْرَ حَيْثُ قَالَ سُبْحَانَهُ عنِ القُرْآنِ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨) من حديث محمود بن لبيد ؓ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٥٥٥).

(٢) حسن: أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري ؓ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٠٧).

رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥] هَذِهِ الآيَاتُ فِي الْمُؤْمِنِيْنَ ظَاهِرًا وَباطِنًا، وَأَمَّا الكُفَّارُ ظَاهِرًا وَباطِنًا، فقال اللهُ فِيْهِمْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ثُمَّ قَالَ - فِي الصِّنْفِ الثَّالِثِ -: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ٢-١٨] هَذِهِ كُلُّهَا فِي الْمُنَافِقِيْنَ، وهِيَ بِضْعَ عَشْرَةَ آيَةً.

قَوْلُهُ: (وَيُخْفِي الكُفْرَ بِالضَّمِيرِ) الضَّمِيرُ مَعْنَاهُ ما يُضْمِرُهُ فِي القَلْبِ.

[٤٦] قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: وَاعلَمْ بِأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ إِيمَانٍ وَإِسْلاَمٍ.

[٤٧] وَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِيهَا مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُونَ فِي أَحْكَامِهِمْ وَمَوَارِيثِهِمْ وَذَبَائِحِهِمْ وَالصَّلاةِ عَلَيْهِمْ.

[٤٨] وَلاَ نَشْهَدُ لأَحَدٍ بِحَقِيقَةِ الإِيمَانِ حَتَّى يَأْتِيَ بِجَمِيعِ شَرَائِعِ الإِسْلاَمِ، فَإِنْ قَصَّرَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ كَانَ نَاقِصَ الإِيمَانِ حَتَّى يَتُوبَ، وَاعْلَمْ أَنَّ إِيمَانَهُ إِلَى اللهِ تَعالَى: تَامَّ الإِيمَانِ أَوْ نَاقِصَ الإِيمَانِ، إِلاَّ مَا أَظْهَرَ لَكَ مِنْ تَضْيِيعِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَاعْلَمْ بِأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ إِيمَانٍ وَإِسْلاَمٍ) يَعْنِي أَنَّ الإِسْلامَ والإِيمَانَ فِي الدُّنْيَا الَّتِي هِيَ دَارُ العَمَلِ، أَمَّا الآخِرَةُ فَإِنَّهَا دَارُ الجَزَاءِ، فَالإِسْلامُ وَالإِيمَانُ إِنَّمَا يَكُونَانِ فِي الدُّنْيَا، أَمَّا مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ الإِسْلامِ وَالإِيمَانِ فَإِنَّهُ كَافِرٌ ولا يَنْفَعُهُ أَنَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، إِذَا شَاهَدَ مَا كَفَرَ بِهِ؛ يُؤْمِنُ أَوْ يَتَمَنَّى الرُّجُوعَ وَيَطْلُبُ مِنْ رَبِّهِ أَنَّهُ يَرْجِعُ لأَجْلِ أَنْ يُؤْمِنَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧].

وَالإِسْلامُ وَالإِيمَانُ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ؛ لأَنَّ الدِّينَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ:

أَوَّلًا: الإِسْلامُ.

ثَانِيًا: الإِيمَانُ.

ثَالِثًا: الإِحْسَانُ.

كَمَا فِي حَدِيْثِ جِبْرِيلَ وأَوْسَعُهَا الإِسْلامُ؛ لأَنَّ الإِسْلامَ هُوَ الاسْتِسْلامُ فِي الظَّاهِرِ، وقَدْ يَكُونُ مُؤْمِنًا فِي البَاطِنِ وَقَدْ يَكُونُ مُنَافِقًا مُسْتَسْلِمًا فِي الظَّاهِرِ، كَافِرًا

فِي البَاطِنِ.

أَمَّا الإِيْمَانُ فَإِنَّهُ لا يُطْلَقُ عَلَى المُنَافِقِ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ المُؤْمِنُ كَامِلُ الإِيْمَانِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ المُؤمِنُ نَاقِصُ الإِيْمَانِ، فَإِذَا ذُكِرَ الإِسْلامُ والإِيْمَانُ جَمِيعًا؛ فَإِنَّهُ يُرَادُ بالإِسْلامِ: الأَحْكَامُ الظَّاهِرةُ، ويُرَادُ بالإِيْمَانِ: الأَحْكَامُ البَاطِنَةُ، كَمَا فِي حَدِيْثِ جِبْرِيلَ: «**الإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ**» هَذِهِ أَعْمَالٌ ظَاهِرَةٌ، قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيْمَانِ؟ قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَأَنْ تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[1] هَذِهِ أَعْمَالٌ بَاطِنَةٌ.

وَلَا بُدَّ مِنِ اجْتِمَاعِ الإِسْلامِ وَالإِيْمَانِ، فَإِذَا ذكر وَاحِدٌ فَقَطْ؛ دَخَلَ فِيهِ الآخَرُ، إِذَا ذُكِرَ الإِيْمَانُ وَحْدَهُ دَخَلَ فِيهِ الإِسْلامُ، وإِذَا ذُكِرَ الإِسْلامُ وَحْدَهُ دَخل فِيهِ الإِيْمَانُ، وَلِهَذَا يَقُولُونَ: «الإِسْلامُ وَالإِيْمَانُ إِذَا اجْتَمَعَا؛ افْتَرَقَا» يَعْنِي فِي المَعْنَى «وَإِذَا افْتَرَقَا اجْتَمَعَا» يَعْنِي فِي المَعْنَى، مِثْلُ الفَقِيرِ وَالمِسْكِيْنِ إِذَا ذُكِرَا جَمِيعًا صَارَ الفَقِيرُ لَهُ مَعْنًى وَالمِسْكِيْنُ لَهُ مَعْنًى، وَإِذَا ذُكِرَ أَحَدُهُمَا دَخَلَ فِيهِ الآخَرُ.

قَوْلُهُ: (**وَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِيهَا مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُونَ فِي أَحْكَامِهِمْ وَمَوَارِيثِهِمْ وَذَبَائِحِهِمْ وَالصَّلاةِ عَلَيْهِمْ**) أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، مُسْلِمُونَ مُؤْمِنُونَ؛ لأَنَّ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا فَهُوَ مُسْلِمٌ، وَمَنْ كَانَ مُسْلِمًا فَقَدْ يَكُونُ مُؤْمِنًا وَقَدْ يَكُونُ مُنَافِقًا، لَكِنَّ الإِسْلامَ الصَّحِيحَ لَا بُدَّ مَعَهُ مِنْ إِيْمَانٍ وَلَو قَلِيلًا ﴿**قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا**﴾ [الحجرات: ١٤].

قَوْلُهُ: (**فِي أَحْكَامِهِمْ وَمَوَارِيثِهِمْ**) المُسْلِمُ وَلَوْ ظَاهِرًا لَهُ حُكْمُ المُسْلِمِينَ يَتَوَلَّونَه، وإِذَا مَاتَ يُغَسِّلُونَهُ وَيُكَفِّنُونَهُ وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ، وَيَدْفِنُونَهُ فِي مَقَابِر

(١) صحيح: سبق تخريجه.

الْمُسْلِمِينَ، وَعَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ يُحِبُّونَهُ وَيَتَوَلَّوْنَهُ، وَيَتَرَاحَمُونَ بَيْنَهُمْ، وَيَتَآخَوْنَ بَيْنَهُمْ. هَذِهِ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالَ ﷺ: «**مَثَلُ المُؤمِنِيْنَ فِي تَوادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ الوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى**»[1]، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ**»[2]، فَهُمْ إِخْوَةٌ ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات:١٠] إِخْوَةٌ فِي الإِيْمَانِ لا فِي النَّسَبِ.

قَوْلُهُ: (**وَذَبَائِحِهِمْ**) ذَبِيحَةُ المُسْلِم حَلالٌ، حَتَّى وَلَو كَانَ فَاسِقًا، مَا دَامَ أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الإِسْلام فَذَبِيحَتُهُ حَلالٌ، وَالمُنَافِقُ أَيْضًا إِذَا ذَبَحَ ذَبِيحَةً نَأْكُلُهَا بِحُكْمِ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، مَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لَنَا أَنَّهُ مُنَافِقٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ**﴾ [المائدة:٣] هَذَا خِطَابٌ لِلمُسْلِمِيْنَ، وَأَبَاحَ لَنَا ذَبَائِحَ أَهْلِ الكِتَابِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ**﴾ [المائدة:٥] يَعْنِي ذَبَائِحَهُمْ؛ لأَنَّهُم يَذْبَحُونَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الشَّرْعِيَّةِ بِمُوجِبِ مَا عِنْدَهُم مِنَ الكِتَابِ.

أَمَّا ذَبَائِحُ الوَثَنِيِّنَ وَالكُفَّارِ وَالدَّهْرِيِّيْنَ وَالمُرْتَدِّينَ فَنَحْنُ لا نَأْكُلُهَا؛ لأَنَّهَا ذَبِيحَةُ كَافِرٍ وَهِي نَجِسَةٌ، لأَنَّ ذَبِيحَةَ الكَافِرِ مَيْتَةٌ نَجِسَةٌ بِالكُفْرِ؛ لأَنَّهَا تَتَأَثَّرُ بِالذَّابِحِ فَتكُونُ خَبِيثَةً لأَنَّ ذَابِحَهَا خَبِيثٌ فَتَتَأَثَّرُ بِهِ، وَكَوْنُ الله - جَلَّ وَعَلا - أَبَاحَ لَنَا ذَبَائِحَ أَهْلِ الكِتَابِ خَاصَّةً دَلِيْلٌ عَلَى تَحْرِيمِ ذَبَائِحِ غَيْرِهِمْ.

قَوْلُهُ: (**وَالصَّلاةِ عَلَيْهِمْ**) يُصَلَّى عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، حَتَّى وَلَو كَانَ فَاسِقًا وَعَاصِيًا أو مُنَافِقًا لَمْ يَظْهَرْ نِفَاقُهُ مَا دَامَ أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الإِسْلام، فَإِنَّهُ يُصَلَّى عَلَيْهِ، وَيُدْعَى لَهُ، وَيُسْتَغْفَرُ لَهُ، وَيرِثُ قَرِيبَهُ المُسْلِمَ، وَيرِثُهُ قَرِيْبُهُ المُسْلِمُ.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٦٥)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٦٧)، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

قَوْلُهُ: (وَلاَ نَشْهَدْ لأَحَدٍ بِحَقِيقَةِ الإِيْمانِ حَتَّى يَأتِيَ بِجَمِيعِ شَرَائِعِ الإِسْلام) أَيْ: لا نُزَكِّي أَحَدًا بِأَنْ نَقُولَ: فُلانٌ مُؤْمِنٌ؛ لأَنَّ الشَّهَادَةَ لَهُ بِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ شَهَادَةٌ قَدْ لا يَسْتَحِقُّهَا، وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِي ﷺ: أَعْطِ فُلانًا فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ، قَالَ ﷺ: «أَوْ مُسْلِمٌ»، ثُمَّ قَالَ: أَعْطِ فُلانًا فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ، قَالَ ﷺ: «أَوْ مُسْلِمٌ»، فَالنَّبِيّ ﷺ يُرِيدُ بِهَذَا أَنَّ الإِنْسَانَ لا يُزَكِّي أَحَدًا، إِنَّمَا يُعْطِيهِ الاسْمَ العَامَّ، فَيَقُولُ: هُوَ «مُسْلِمٌ» قَدْ يَكُونُ مُسْلِمًا مُتَمَكِّنًا مِنَ الإِسْلام، وَقَدْ يَكُونُ مُسْلِمًا عِنْدَهُ فِسْقٌ، وَعِنْدَهُ مَعَاصٍ وَنَقْصٌ، وَقَدْ يَكُونُ مُنَافِقًا، فَلَا تَشْهَدْ لَهُ بِالكَمالِ.

قَوْلُهُ: (فَإِنْ قَصَّرَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ كَانَ نَاقِصَ الإِيمانِ حَتَّى يَتُوب) عَقِيْدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ أَنَّ المَعَاصِي - وَإِنْ كَانَتْ مَعَاصِيهِ كَبَائِرَ - مَا دَامَت دُونَ الشِّرْكِ فَإِنَّهَا لا تُخْرِجُ المُسْلِمَ مِنَ الإِسْلام، أَوْ لا تُخْرِجُهُ مِنْ دَائِرَةِ الإِيْمانَ، وَإِنَّما يَكُونُ مُؤْمِنًا بِإِيْمانِهِ فَاسِقًا بِكَبِيرَتِهِ، أَوْ تَقُولُ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيْمانِ.

قَوْلُهُ: (وَاعْلَمْ أَنَّ إِيْمانَهُ إِلَى اللهِ تَعَالَى: تَامَّ الإِيْمانِ أَوْ نَاقِصَ الإِيْمانِ) يَعْنِي نَقْبَلُ مِنْهُ الظَّاهِرَ وَنكِلُ سَرِيرَتَهُ إِلَى اللهِ.

قَوْلُهُ: (إِلاَّ مَا أَظْهَرَ لَكَ مِنْ تَضْيِيعِ شَرَائِعِ الإِسْلام) أَيْ: إِلاَّ إِذَا ارْتَكَبَ نَاقِضًا مِنْ نَوَاقِضِ الإِسْلامِ، ومنها تَرْكُ شَرَائِعِ الإِسْلام فَأَنْتَ تَحْكُمُ عَلَيْهِ بِالرِّدَّةِ، كَما إِذَا تَرَكَ الصَّلاةَ مُتَعَمِّدًا، أَوْ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلام كُفْرٍ كَسَبِّ اللهِ أَوْ سَبِّ الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ سَبِّ دِيْنِ الإِسْلامِ، فَأَنْتَ تَحْكُمُ عَلَيْهِ بِالرِّدَّةِ بِما ظَهَرَ مِنْهُ، فَمَنْ أَظْهَرَ نَاقِضًا مِنْ نَوَاقِضِ الإِسْلامِ مَعَ زَوَالِ العُذْرِ وَزَوَالِ المَوانِعِ، وَهَلْ هُوَ مُتَأَوِّلٌ، أَوْ هَل هُوَ مُقَلِّدٌ، هَلْ هُوَ جَاهِلٌ، هَلْ هُوَ غَضْبَانٌ، فَلا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالرِّدَةِ مَعَ هَذِهِ المَوانِعِ.

[٤٩] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالصَّلاةُ عَلَى مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ سُنَّةٌ: وَالمَرْجُومُ، وَالزَّانِي، وَالزَّانِيَةُ، وَالَّذِي يَقْتُلُ نَفْسَهُ، وَغَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ وَالسَّكْرَانُ وَغَيْرُهُمْ، الصَّلاةُ عَلَيْهِمْ سُنَّةٌ.

الشَّرْحُ

هَذَا كَمَا سَبَقَ، أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ الإِيمَانَ وَالإِسْلامَ نُصَلِّي عَلَيْهِ، وَيَكُونُ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ وَهُمُ الَّذِيْنَ يُصَلُّونَ إِلَى الكَعْبَةِ قِبْلَةِ المُسْلِمِينَ، هَؤُلاءِ نُعَامِلُهُمْ بِالظَّاهِرِ، فَنَحْكُمُ بِأَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ، وَنُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةَ المُسْلِمِينَ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا.

قَوْلُهُ: (**وَالمَرْجُومُ، وَالزَّانِي، والزَّانِيَةُ، وَالَّذِي يَقْتُلُ نَفْسَهُ، وَغَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ**) المُؤْمِنُ الفَاسِقُ الَّذِي لَمْ يَخْرُجْ بِكَبِيْرَتِهِ عَنِ الإِسْلامِ يُعَامَلُ مُعَامَلَةَ المُسْلِمِينَ، ويُدْعَى لَهُ، كَقَاتِلِ نَفْسِهِ، وَكَالمَرْجُومِ فِي الزِّنَا، وقَدْ صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ عَلَى المَرْجُومِيْنَ؛ صَلَّى عَلَى مَاعِزٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَعَلَى الغَامِدِيَّةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَقَدْ يَمْتَنِعُ ﷺ مِنَ الصَّلاةِ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ مِثْلِ قَاتِلِ نَفْسِهِ، والغَالِّ فِي سَبِيلِ اللهِ، مِنْ بَابِ التَّأْدِيبِ لِلنَّاسِ، لا مِنْ بَابِ أَنَّهُ كَافِرٌ، وَلِهَذَا أَذِنَ لِلصَّحَابَةِ أَنْ يُصَلُّوا عَلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ مِنَ الصَّلاةِ عَلَيْهِ، لأَنَّهُ مُسْلِمٌ.

قَوْلُهُ: (**وَالسَّكْرَانُ وَغَيْرُهُمْ، الصَّلاةُ عَلَيْهِمْ سُنَّةٌ**) السَّكْرَانُ الَّذِي يَشْرَبُ الخَمْرَ فَاسِقٌ يُقَامُ عَلَيْهِ الحَدُّ، لَكِنَّهُ لا يَخْرُجُ مِنَ الإِسْلامِ، فَإِذَا مَاتَ يُصَلَّى عَلَيْهِ وَلَو كَانَ يَشْرَبُ الخَمْرَ؛ لأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ.

وَقَوْلُهُ: (**سُنَّةٌ**) أَيْ: مِنْ سُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ الوَاجِبِ اتِّبَاعُهَا.

[٥٠] قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: وَلاَ يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ مِنَ الإِسْلاَمِ حَتَّى يَرُدَّ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ عز وجل، أَوْ يَرُدَّ شَيْئًا مِنْ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَوْ يُصلِّيَ لِغَيْرِ اللهِ، أَوْ يَذْبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، وَإِذا فَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تُخْرِجَهُ مِنَ الإِسْلاَمِ، فَإِذاَ لَمْ يَفْعَل شَيئًا مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمُسْلِمٌ بِالاسْمِ لاَ بِالحَقِيقَةِ.

الشَّرْحُ

لايَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ مِنَ الإِسْلامِ إِلاَّ بِارْتِكَابِ نَاقِضٍ مِنْ نَوَاقِضِ الإِسْلامِ المَعْرُوفَةِ، وَيَزُولُ عُذْرُهُ.

قَوْلُهُ: (**حتى يَرُدَّ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ عز وجل**) إِذَا جَحَدَ القُرْآنَ أَوْ بَعْضَهُ أَوِ السُّنَّةَ الصَّحِيحَةَ أَوْ بَعْضَهَا، أَوْ أَنْكَرَ شَيْئًا فِي القُرْآنِ، أَوْ أَنْكَرَ شَيْئًا فِي السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ: فَهَذَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالرِّدَّةِ؛ لأَنَّهُ مُكَذِّبٌ للهِ وَلِرَسُولِهِ، مَا لَمْ يَكُنْ جَاهِلًا أَوْ مُقَلِّدًا أَوْ مُتَأَوِّلًا فَهَذَا يُبَيَّنُ لَهُ، فَإِذَا بُيِّنَ لَهُ وَأَصَرَّ فَإِنَّهُ يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالرِّدَّةِ.

وَالمُرَادُ بِآثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الأَحَادِيثُ.

وَقَوْلُهُ: (**أَوْ يَرُدَّ شَيْئًا مِنْ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ**) أَيْ: فَإِنَّهُ يَكْفُرُ، وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ، يُخَالِفُونَ بِهَا فِئَتَيْنِ.

- **الفِئَةُ الأَوَّلَى**: الخَوَارِجُ، وَالغُلاةُ، الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ بِالكَبَائِرِ الْتِى دُونَ الشِّرْكِ.
- **الفِئَةُ الثَّانيَةُ**: فِئَةُ المُرْجِئَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لايَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ مَعْصِيَةٌ، مَا دَامَ الإِنْسَانُ مُؤْمِنًا بِقَلْبِهِ، فَإِنَّهُ لا يَضُرُّهُ شَيْءٌ من المَعَاصي، وَلَو تَرَكَ الأَعْمَالَ كُلَّهَا وَلَمْ يَعْمَلْ شَيْئًا، فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ كَامِلُ الإِيْمَانِ.

أَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ والجَمَاعةِ فكَمَا ذَكَرَ المُؤَلِّفُ: أَنَّهُم وَسَطٌ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ؛ فيَقُولُونَ: الكَبَائِرُ تَخْتَلفُ: إِنْ كَانَتْ مِنَ الشِّرْكِ أَوِ الكُفْرِ الأَكْبَرَيْنِ فَإِنَّهَا تُخْرِجُ

مِنَ المِلَّةِ بِالإِجْمَاعِ، وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ لَيسَتْ كُفْرًا وَلا شِرْكًا، وَلَيْسَتْ تَكْذِيبًا لكِتَابِ اللهِ، وَلا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ، وَلا تَرْكًا لِلصَّلاةِ، وَلا دُعَاءً لِغَيْرِ اللهِ، أَوْ ذَبْحًا لِغَيْرِ اللهِ، وَإِنَّمَا هِيَ كَبِيْرَةٌ دُونَ ذَلِكَ فَهَذِهِ لا يَخْرُجُ بِهَا العَبْدُ مِنَ الإِسْلامِ خِلافًا لِلْخَوَارِجِ وَالمُعْتَزِلَةِ، وَلَكِنَّهَا تَضُرُّ المُؤْمِنَ، وتُنْقِصُ إِيْمَانَهُ، وتُضْعِفُهُ، خِلافًا لِلمُرْجِئَةِ؛ الَّذِيْنَ يَقُولُونَ: لا يَضُرُّ مَعَ الإِيْمَانِ مَعْصِيَةٌ. فَهَذَا هُوَ المَذْهَبُ الوَسَطُ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الجَمْعُ بَيْنَ نُصُوصِ الوَعِيدِ وَنُصُوصِ الوَعْدِ.

الخَوَارِجُ والمُعْتَزِلَةُ أَخَذُوا بِنُصُوصِ الوَعِيدِ، وَتَرَكُوا نُصُوص الوَعْدِ.

المُرْجِئَةُ عَلَى العَكْسِ: أَخَذُوا بِنُصُوصِ الوَعْدِ، وَتَرَكُوا نُصُوصَ الوَعِيدِ. وَكِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ ضَالَّةٌ.

وَقَولُهُ: (**أَوْ يُصَلِّي لِغَيْرِ اللهِ، أَوْ يَذْبَحَ لِغَيْرِ اللهِ**) يُصَلِّي لِقَبْرٍ يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ، أَوْ يَسْجُدُ لِصَنَمٍ، أَوْ يَذْبَحُ لِغَيْرِ اللهِ وَيَعْمَلُ شَيْئًا مِنَ العِبَادَاتِ لِغَيْرِ اللهِ، فَهَذَا مُشْرِكٌ كَافِرٌ، خَارِجٌ مِنَ المِلَّةِ. ومَا دُونَ ذَلِكَ فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَسَطٌ فِيهِ بَيْنَ المُرْجِئَةِ وبَيْنَ الخَوَارِجِ.

قَوْلُهُ: (**وَإِذَا فَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تُخْرِجَهُ مِنَ الإِسْلامِ**) إِذَا فَعَلَ شَيْئًا مِنَ ذَلِكَ، يَعْنِي صَلَّى لِغَيْرِ اللهِ، أَوْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، أَوْ عَمِلَ عِبَادَةً لِغَيْرِ اللهِ؛ وَجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تُخْرِجَهُ مِنَ المِلَّةِ، وَوَجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّهُ كَافِرٌ، وَلاتَقُلْ: لا يُهِمُّنِي هَذَا، أَوْ لا أَدْرِي عَنْهُ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُكَفِّرَ الكَافِرَ وَالمُشْرِكَ، وَأَنْ تُفَسِّقَ العَاصِي مُرْتَكِبَ الكَبْيرَةِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ، لَابُدَّ مِنْ بَيَانِ الحَقِّ فِي هَذَا الأَمْرِ.

قَوْلُهُ: (**فَإِذَا لَمْ يَفْعَلْ شَيئاً مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمُسْلِمٌ بِالاسْمِ لاَ بِالحَقِيقَةِ**) أَيْ: فِي الظَّاهِرِ لَنَا، وَسَرِيْرَتُهُ إِلى اللهِ.

[٥١] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَكُلَّمَا سَمِعْتَ مِنَ الآثَارِ شَيْئًا مِمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ عَقْلُكَ، نَحْوُ قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ إِصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ»(١).

وَقَوْلِهِ: «إِنَّ اللهَ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»(٢)، وَيَنْزِلُ يَوْمَ عَرَفَةَ.

وَيَنْزِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لاَ يَزَالُ يُطْرَحُ فِيهَا حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهَا قَدَمَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ(٣)، وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ: «إِنْ مَشَيْتَ إِلَيَّ هَرْوَلْتُ إِلَيْكَ»(٤)، وَقَوْلِهِ: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»(٥)، وَقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ».

وَأَشْبَاهِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ، فَعَلَيْكَ بِالتَّسْلِيمِ وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّفْوِيضِ وَالرِّضَى، وَلاَ تُفَسِّرْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ بِهَوَاكَ فَإِنَّ الإِيمَانَ بِهَذَا وَاجِبٌ، فَمَنْ فَسَّرَ شَيْئًا مِنْ هَذَا بِهَوَاهُ، وَرَدَّهُ فَهُوَ جَهْمِيٌّ.

الشَّرْحُ

نُصُوصُ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُثْبِتَهَا كَمَا جَاءَتْ عَلَى حَقِيقَتِهَا، دُونَ أَنْ تَتَدَخَّلَ بِعَقْلِكَ فَتَقُولَ: هَذَا لايَلِيقُ بِاللهِ، أو إن اللهَ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ، وَهَذَا تَشْبِيهٌ، كَمَا يَقُولُهُ المُعَطِّلَةُ.

أَوْ تَعْتَقِدَ أَنَّ اللهَ يشبِهُ خَلْقَهُ كَمَا تَقُولُهُ المُمَثِّلَةُ. فَكِلتا الطَّائِفَتَيْنِ عَلَى ضَلالٍ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٩٤)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٥٦٧)، ومسلم (٢٨٤٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٤٨)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المُعطِّلَةُ: غَلَوا فِي التَّنْزِيهِ، حَتَّى نَفَوا الأسْماءَ وَالصِّفَاتِ فِرارًا مِنَ التَّشْبِيهِ بِزَعْمِهِمْ.

وَالمُمَثِّلَةُ: غَلَوا فِي الإِثْبَاتِ، حَتَّى شَبَّهُوا اللهَ بِخَلْقِهِ، وَكِلا المَذْهَبَيْنِ بَاطِلٌ.

وَمَذْهَبُ **أَهْلِ السُّنَّةِ**: الوَسَطُ، يُثْبِتُونَ لله الأَسْماءَ وَالصِّفَاتِ إِثْبَاتًا بِلا تَشْبِيهٍ، وَيَنْفُونَ عَنْهُ مُشَابَهَةَ المَخْلُوقِيْنَ تَنْزِيهًا بلا تَعْطِيلٍ، هَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ**﴾ هذا ردٌّ عَلَى المُمَثِّلَةِ ﴿**وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ**﴾ [الشورى:١١] هَذَا ردٌّ عَلَى المُعَطِّلَةِ، وَدلَّتِ الآيَةُ عَلَى أَنَّ إِثْبَاتَ الأَسْماءِ وَالصِّفَاتِ لا يَقْتَضِي التَّشْبِيهَ وَالتَّمْثِيلَ. هَذَا هُوَ المَنْهَجُ الصَّحِيحُ فِي مَسْأَلَةِ الأَسْماءِ وَالصِّفَاتِ.

مِثْلُ: «**قُلُوبُ العِبَادِ بَيْنَ إِصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ ﷻ**» تُثْبِتُ الأَصَابِعَ لِلرَّحْمَنِ كَما جَاءَتْ فِي الحَدِيثِ، وَلا تَقُلْ: إِنَّها مِثْلُ أَصَابِعِ المَخْلُوقِ، فَهَذَا تَشْبِيهٌ، نُنَزِّهَ اللهُ عَنْهُ، بَلْ نُثْبِتُها عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلالِ الله ﷻ، لَيْسَتْ كَأَصَابِعِ المَخْلُوقِيْنَ.

وتُثْبِتُ الحَدِيثَ القُدْسِيَّ الَّذِي يَقُولُ اللهُ - جَلَّ وَعَلا - فِيهِ: «**مَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**» بِمَعْنَى: مَنْ أَسْرَعَ إِلَى رِضَائِي وَطَاعَتِي؛ أَسرعَتُ فِي مَغْفِرَةِ ذُنُوبِهِ وَقَضَاءِ حَوائِجِهِ، فَلَيْسَ مَعْنَاهُ الهَرْوَلَةَ المَعْرُوفَةَ عِنْدَنَا، وَإِنَّما فَسَّرَهُ آخِرُ الحَدِيثِ بِقَوْلِهِ: «**لَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلئن اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ**» فَمَعْنَى الهَرْوَلَةِ هُنَا: المُبَادَرَةُ بِقَضَاءِ حَوَائِجِ عَبْدِهِ، كَما أَنَّ العَبْدَ يُبَادِرُ إِلَى طَاعَةِ الله فَهَلِ العَبْدُ يُهَرْوِلُ حَقِيقَةً أَوْ مَعْنًى؟ فَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى بَعْضِ المُتَسَرِّعِيْنَ الَّذِيْنَ يُثْبِتُونَ لله الهَرْوَلَةَ، وَهَذَا مِنْ بَابِ أَفْعَالِ المُقَابَلَةِ، كَما قَالَ تَعَالَى: ﴿**فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ**﴾ [التوبة:٧٩]، ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ**﴾ [البقرة:١٤-١٥]، ﴿**وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ**﴾ [آل عمران:٥٤].

فَيَجِبُ مَعْرِفَةُ هَذِهِ القَوَاعِدِ العَظِيمَةِ؛ لِيَكُونَ الإِنْسَانُ عَلَى بَصِيْرَةٍ وَيَعْرِفَ مَذْهَبَ السَّلَفِ فِيْهَا، الَّذِيْنَ هُمْ أَثْبَتُ مِنْهُ وَأَعْلَمُ مِنْهُ، وَلا يَسْتَقِلَّ بِفَهْمِهِ وَعَقْلِهِ وَيُثْبِتَ لله أَشْيَاءَ لا يَدْرِي عَنْهَا بِنَاءً عَلَى ظَوَاهِرَ أَوْ مُتَشَابِهَاتٍ، وَهُنَاكَ أَدِلَّةٌ مُحْكَمَةٌ تُبَيِّنُهَا وَتُوَضِّحُهَا، فَيَجِب أَنْ يَرُدَّ المُتَشَابِهَ إِلَى المُحْكَمِ، وَهَذَا لا يَهْتَدِي إِلَيْهِ إِلاَّ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ.

فَيَجِبُ عَلَى طَالِبِ العِلْمِ والمُبْتَدِئِ ألا يَتَسَرَّعَ فِي هَذِهِ الأُمُورِ، بَلْ يَتَوَقَّفَ عَنْهَا، وَأَنْ يَتَعَلَّمَ كَيْفَ يَفْهَمُهَا عَلَى مَنْهَجِ السَّلَفِ، والجَادَّةُ وَاضِحَةٌ، وَالسَّلَفُ مَا قَصَّرُوا فِي بَيَانِ الحَقِّ! وَوَضْعِ القَوَاعِدِ وَالضَّوَابِطِ، لَكِنَّ هَذا يَحْتَاجُ إِلَى تَعَلُّمٍ، ويَحْتَاجُ إِلَى فَهْمٍ، وَمِثْلُ هَذَا أَيْضًا قَوْلُهُ ﷺ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا**»، «**وَيَنْزِلُ عَشِيَّةَ عَرَفَة**»، «**يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ**»، «**يَجِيُء يَوْمَ القِيَامَةِ لِفَصْلِ القَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ**» نُثْبِتُ هَذِهِ الأَشْيَاءَ لله عَلَى حَقِيْقَتِهَا، دُونَ تَدَخُّلٍ فِي تَحْدِيدِ الكَيْفِيَّةِ فَلا نَتَكَلَّفُ مَعْرِفَةَ كَيْفَ يأتي، كَيْفَ يَجِيُء، فَالكَيْفِيَّةُ لا نَتَدَخَّلُ فِيْهَا، أَمَّا المَعْنَى فَهُوَ مَعْقُولٌ، وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ الإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ كَيْفِيَّةِ الاسْتِوَاءِ، قَالَ السَّائِلُ: ﴿**ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ**﴾[طه:٥] كَيْفَ اسْتَوَى؟ يَسْأَلُ عَنِ الكَيْفِيَّةِ، قَالَ لَهُ مَالِكٌ رحمه الله: «**الاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ**» أَيْ: مَعْلُومٌ مَعْنَاهُ، «**وَالكَيْفُ مَجْهُولٌ، والإِيْمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، والسُّؤَالُ عَنْهُ**» أَيْ: عَنِ الكَيْفِيَّةِ «**بِدْعَةٌ**» هَذَا هُوَ المَنْهَجُ السَّلِيْمُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأُمُورِ.

كَذَلِكَ: إِثْبَاتُ الصُّورَةِ لله عز وجل فِي قولِهِ ﷺ: «**خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**».

وفِي رِوَايَةٍ: «**عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ**» نُثْبِتُ الصُّورَةَ لله عز وجل كَمَا أَثْبَتَهَا لَهُ رَسُولُهُ فِي قَوْلِهِ: «**رَأَيْتَ ربي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ**» هَذَا فِي الدُّنْيَا رُؤْيَا مَنَام. «**فِي أَحْسَنِ صُورَة**» فِيهِ إِثْبَاتُ الصُّورَةِ لله - جَلَّ وَعَلا -، كَمَا يَلِيقُ بِجَلالِهِ لَيْسَتْ كَصُوَرِ المَخْلُوقِيْنَ، وَإِنَّمَا هِيَ صُورَةُ الرَّحْمَنِ - جَلَّ وَعَلا - فَهَذِهِ الأُمُورُ نُثْبِتُهَا وَلا نَتَدَخَّلُ أَوْ نُشَكِّكُ فِيْهَا، أَوْ نَخُوضُ فِيْهَا.

و(التَّفْوِيضِ) الصَّحِيحُ هُوَ تَفْوِيضُ الكَيْفِيَّةِ، لا تَفْوِيضَ المَعْنَى.

قَوْلُهُ: (**لا تُفَسِّرْ شَيْئًا من هَذِهِ بِهَوَاكَ**) وَإِنَّمَا تُفَسِّرُهَا بِالمَعْنَى الصَّحِيحِ اللاَّئِقِ بِالله جَلَّ وَعَلا، لا يُقَالُ إِنَّهَا لا تُفَسَّرُ، بَلْ تُفَسَّرُ وَيُبَيَّنُ مَعْنَاهَا، وَإِنَّمَا التَّفْوِيضُ لِلْكَيْفِيَّةِ فَقَطْ، تُثْبِتُ النُّزُولَ، وَتَنْفِي الكَيْفِيَّةَ، اللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ لِفَصْلِ القَضَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَجَآءَ رَبُّكَ**﴾ [الفجر:٢٢]، ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ**﴾ [البقرة:٢١٠] يَأْتِي سُبْحَانَهُ وَيَجِيءُ لِفَصْلِ القَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ كَمَجِيءِ المَخْلُوقِ وَإِتْيَانِ المَخْلُوقِ، وَإِنَّمَا هُوَ إِتْيَانٌ وَمَجِيءٌ يَلِيقُ بِجَلالِهِ كَيفَ يَشَاءُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(**بِهَوَاكَ**) أَيْ: لا تُفَسِّرْهَا بدونِ عِلْمٍ، أَمَّا أَنَّكَ تُفَسِّرُهَا بِمُوجِبِ الأَدِلَّةِ، وَرَدِّ المُتَشَابِهِ إِلَى المُحْكَمِ فَهَذَا لا بَأْسَ بِهِ، أَمَّا الإِنْسَانُ المُبْتَدِئُ أَوِ الجَاهِلُ فَلا يتدَخَّلُ فِي هَذِهِ الأُمُورِ وَالمَسَائِلِ العَظِيمَةِ، لأَنَّ هَذَا غَلَطٌ وخَطَرٌ كَبِيرٌ.

وَأَنَا أَرَى كَثِيرًا مِنَ الشَّبَابِ المُتَعَالِمِيْنَ تجَرَّءوا عَلَى مَسَائِلِ العَقِيدَةِ وصَارُوا يَجْتَرُّونَ مِنهَا أَشْيَاءَ وَيَتَكَلَّمُونَ فِيْهَا، وَيَتَعَادَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَيَتَقَاطَعُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ إِذَا اخْتَلَفُوا.

يَا إِخْوَانُ مَا كَلَّفَكُمُ اللهُ بِهَذِهِ الأُمُورِ، عَلَيْكُمْ أَنْ تَسِيرُوا عَلَى مَنْهَجِ السَّلَفِ، وَتَقُولُوا بِقَوْلِهِمْ، كُتُبُ العَقَائِدِ مُحَرَّرَةٌ وَلله الحَمْدُ وَمَطْبُوعَةٌ وَمُصَحَّحَةٌ وَمَدْرُوسَةٌ وَمُنْضَبِطَةٌ، فَلا تُحْدِثُوا أَشْيَاءَ مِنْ عِنْدِكُمْ وَأَفْهَامًا مِنْ عِنْدِكُمْ، كُفِيتُمْ هَذَا الأَمْرَ.

قَوْلُهُ: (**فَإِنَّ الإِيمَانَ بِهَذَا وَاجِبٌ**) الإِيمَانُ بِأَسْمَاءِ الله وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِه وَاجِبٌ مُفْتَرَضٌ عَلَى العَبْدِ.

وَمِنَ **الإِيمَانِ بالله**: الإِيمَانُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلالِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَالَّذِي يَتَدَخَّلُ فِي أُمُورِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ إِمَّا بِتَعْطِيلٍ، وَإِمَّا بِتَمْثِيلٍ، وَإِمَّا بِتَفْوِيضٍ،

وإِمَّا بِتَفْسِيرٍ مِنْ عِنْدِهِ؛ فَهَذَا لَمْ يُؤْمِنْ بالله الإِيْمَانَ الحَقِيْقِيَّ، وَإِنَّمَا إِيْمَانُهُ نَاقِصٌ.

قَوْلُهُ: (**فَمَنْ فَسَّرَ شَيْئًا مِنْ هَذَا بِهَوَاهُ وَرَدَّهُ فَهُوَ جَهْمِيٌّ**) الجَهْمِيَّةُ نَفَوا الأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ؛ لأَنَّهُم فَسَّرُوهَا بِمَا يَلِيقُ بِالمَخْلُوقِ، وَلا شَكَّ أَنَّ اللهَ يُنَزَّهُ عَمَّا يَلِيقُ بِالمَخْلُوقِ، فَهُمْ مَثَّلُوا أَوَّلًا، ثُمَّ عَطَّلُوا ثَانِيًا، بِنَاءً عَلَى تَمْثِيلِهِمْ، حَيْثُ لَمْ يَظْهَرْ لَهُمْ مِنْ هَذِهِ النُّصُوصِ إِلاَّ مَا يُشْبِهُ مَا فِي المَخْلُوقِيْنَ فَنَفَوْهَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ.

ولَوْ قَالُوا: هَذِهِ النُّصُوصُ فِيهَا صِفَاتٌ وَأَسْمَاء لله حَقِيْقَيَّةٌ، لَكِنَّهَا تَلِيْقُ بِهِ، فَلَيْسَتْ كَأَسْمَاءِ المَخْلُوقِيْنَ وَلا كَصِفَاتِ المَخْلُوقِيْنَ، لَو سَلَكُوا هَذَا المَنْهَجَ لَسَلِمُوا، وَإِنَّمَا أُتُوا مِنْ فَهْمِهِمْ وَأَهْوائِهِمْ. وَالجَهْمِيَّةُ: نِسْبَةٌ إِلَى الجَهْم بنِ صَفْوَانَ التِّرْمِذِيِّ أَوِ السَّمَرْقَنْدِيِّ وَهُوَ أَوَّلُ مِنْ أَظْهَرَ القَوْلَ بِأَنَّ القُرْآنَ مَخْلُوقٌ، وَقَالَ بِنَفْيِ الأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ، وَقَالَ: إِنَّ الإِيْمَانَ هُوَ مُجَرَّدُ المَعْرِفَةِ بِالقَلْب... إِلَى آخِرِ أَقْوَالِهِ الضَّالَّةِ الكُفْرِيَّةِ. فَمَنْ يَعْتَقِدْ هَذَا الاعْتِقَادَ فَإِنَّهُ يُنْسَبُ إِلَيْهِ، فَيُقَالُ: هَذَا جَهْمِيٌّ نِسْبَةً إِلَى الجَهْمِ.

[٥٢] قَالَ المُؤَلِّفُ ﵀: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَرَى رَبَّهُ فِي دَارِ الدُّنْيَا فَهُوَ كَافِرٌ بِاللهِ ﷿.

الشَّرْحُ

مَنْ زَعَمَ أَنَّ أَحَدًا يَرَى اللهَ فِي الدُّنْيَا رُؤْيَةَ عَيْنٍ لا رُؤْيَا فِي المنام فَهُوَ كَافِرٌ؛ لأَنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلا - لا يُرَى فِي الدُّنْيَا، وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ كَلِيمُ اللهِ مُوسَى ﵇ قَالَ: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣] فَلا أَحَدَ يَرَى اللهَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، هَذَا مَحَلُّ إِجْمَاعٍ بَيْنَ العُلَمَاءِ، إِنَّمَا رُؤْيَةُ اللهِ فِي الآخِرَةِ، لأَنَّ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا ضِعَافٌ لا يَقْدِرُونَ عَلَى رُؤْيَةِ اللهِ ﷿ لِمَا فِيهِم مِنَ الضَّعْفِ، وَلِهَذَا لَمَّا تَجَلَّى اللهُ لِلجَبَلِ تَدَكْدَكَ وَصَارَ تُرَابًا فَكَيْفَ بِابْنِ آدَمَ؟! الَّذِي هُوَ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ، أَمَّا فِي الآخِرَةِ فَإِنَّ اللهَ يُعْطِي المُؤْمِنِينَ قُوَّةً يَقْدِرُونَ بِهَا عَلَى رُؤْيَةِ اللهِ وَالتَّلَذُّذِ بِرُؤْيَتِهِ ﷻ؛ فَرُؤْيَةُ اللهِ فِي الآخِرَةِ ثَابِتَة وَمُتَوَاتِرَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَلا أَحَدَ يَرَى اللهَ رُؤْيَةَ عِيَانٍ.

وَاخْتَلَفُوا: هَلْ رَآهُ النَّبِيّ ﷺ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ أَوْ لَمْ يَرَهُ؟ الصَّحِيحُ والَّذِي عَلَيْهِ الجَمَاهِيرُ: أَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَرَهُ بِعَينِهِ وَإِنَّمَا رَآهُ بِقَلْبِهِ وَبَصِيرَتِهِ؛ لأَنَّ أَحَدًا لا يَرَى اللهَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؛ لأَنَّ اللهَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا، وَلِهَذَا سُئِلَ النَّبِيّ ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ؟ قَالَ: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**»(١)، وَقَالَ: «**حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨) من حديث أبي ذر ﵁.
(٢) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى ﵁.

[٥٣] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالفِكْرَةُ فِي اللهِ بِدْعَةٌ؛ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «تَفَكَّرُوا فِي الخَلقِ ولاَ تفكَّرُوا فِي اللهِ»(١). فَإِنَّ الفِكْرَةَ فِي الرَّبِّ تَقْدَحُ الشَّكَّ فِي القَلْبِ.

الشَّرْحُ

يَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَتَجَنَّبَ التَّفَكُّرَ فِي ذَاتِ اللهِ ﷻ، وَالتَّفَكُّرَ فِي كَيْفِيَّةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ؛ لأَنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠] عَلَيْكَ الإِيْمانَ بِاللهِ ﷻ، وَتَعْظِيمَ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دُونَ أَنْ تُفَكِّرَ فِي ذَاتِهِ وكَيْفِيَّةِ أَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ.

قَوْلُهُ: (لِقَوْلِ رسُولِ اللهِ ﷺ: «تَفكَّرُوا فِي الخَلقِ ولاَ تَفكَّرُوا فِي اللهِ») أَيْ: تَفَكَّرُوا فِي مَخْلُوقَاتِ اللهِ وَآيَاتِ اللهِ الكَوْنِيَّةِ تَدُلُّكُمْ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ:

فَيَا عَجَبًا يُعْصَى الإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

فَأَنْتَ فَكِّرْ فِي الآيَاتِ الكَوْنِيَّةِ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ، وَالجِبَالِ وَالأَحْجَارِ وَالأَشْجَارِ، وَالبِحَارِ، وَالمَخْلُوقَاتِ، لِتَسْتَدِلَّ بِهَا عَلَى عَظَمَةِ الخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتَفكَّرْ فِي آيَاتِ اللهِ القُرْآنِيَة. أَمَّا أَن تَتَفكَّرْ فِي ذَاتِ اللهِ وَكَيْفِيَّةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ فَلَنْ تُدْرِكَ هَذَا ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٥)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٤٧٠).

[٥٤] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَم أَنَّ الهَوَامَّ وَالسِّبَاعَ والدَّوَابَّ نَحْوَ الذَّرِ وَالذُبَابِ وَالنَّمْلِ كُلَّهَا مَأْمُورَةٌ، وَلاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا إلاَّ بِإذْنِ الله تَعَالَى.

الشَّرْح

الكَوْنُ كُلُّهُ مُدَبَّرٌ وَمَأْمُورٌ أَمْرًا كَوْنِيًّا، الشَّمْسُ تَسِيرُ، وَالقَمَر يَسِيرُ، وَالنُّجُومُ، وَالأَفْلاكُ تَدُورُ، وَالدَّوَابُّ، وَالطُّيُورُ، كُلُّ شَيْءٍ يَمْشِي عَلَى نِظَامِه الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ لَهُ، ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠] نَظَّمَ الدُّنْيَا كُلَّهَا، وَمَا فِيْهَا مِنْ كَائِنَاتٍ وَمَخْلُوقَاتٍ وَأَفْلاكٍ وَسَمَوَاتٍ وَأَرْضٍ، كُلُّهَا تَجْرِى بتَقْدِيرِ الخَالِقِ وَتَدْبيرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهِىَ تَأْتَمِرُ بِأَمْرِهِ الكَوْنِيِّ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] فَهِىَ تَسِيرُ وَتَمْضِي بأَمْرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَدْبيرِهِ، وَخَلْقِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيْئَتِهِ، خَاضِعَةٌ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد:٢].

قَوْلُهُ: (وَلاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا إلاَّ بِإِذْنِ الله تَعَالَى) أَيْ: بِإِذْنِ الله الكَوْنِيِّ وَهُوَ الأَمْرُ الكَوْنِيُّ، وَالمَشِيْئَةُ مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَلا تَسِيْرُ مِنْ هَوَاهَا أَوْ مِنْ تَدْبيرِ أَحَدٍ غَيْرِ الله - جَلَّ وَعَلا -؛ وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ الجَبَّارُ لإِبْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾، قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨] فأَفْعَالُ الله - جَلَّ وَعَلا - لا أَحَدَ يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَعْمَلَهَا ، وَأَنْ يُحَاكِيَهَا؛ فَهُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ الكَوْنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيُنَظِّمُهُ عَلَى أَحْسَنِ نِظَام وَأَدَقِّهِ، لايَتَغَيَّرُ وَلا يَتبدَّلُ، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ﴾ [الملك:٣] فالشَّمْسُ وَالقَمَرُ والنُّجُومُ، وَالسَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ مُنْذُ خَلَقَهَا اللهُ إِلَى أَنْ يَشَاءَ اللهُ نِهَايَةَ الدُّنْيَا، تَسِيرُ حَسَبَ نِظَامٍ إِلَهِيٍّ مُقَدَّرٍ لا يَتَغَيَّرُ وَلا يَتبَدَّلُ.

[٥٥] قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: والإِيْمانُ بأَنَّ اللهَ تَعالَى قَدْ عَلِمَ مَا كَانَ مِنْ أَوَّلِ الدَّهْرِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ، أَحْصَاهُ وَعَدَّهُ عَدًّا، وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ لاَ يَعْلَمُ إِلاَّ مَا كَانَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِاللهِ العَظِيمِ.

الشَّرْح

يَجِبُ إِثْبَاتُ العِلْمِ لله - جَلَّ وَعَلا -، وَإِحَاطَتِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَعِلْمُهُ لا بدَايَةَ لَهُ وَلا نِهَايَةَ لَهُ، عِلْمُهُ كَسَائِرِ الصِّفَاتِ، ثَابِتٌ لَهُ فِي الأَزَلِ؛ فَكَمَا أَنَّ اللهَ لا بدَايَةَ لَهُ فَكَذَلِكَ لا بِدَايَةَ لأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وأَفْعَالِهِ تبارك وتعالى، وَكَمَا أَنَّ اللهَ لا نِهَايَةَ لَهُ فَكَذَلِكَ لا نِهَايَةَ لأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ - جَلَّ وَعَلا -؛ فَهُوَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الأَوَّلُ بلا بِدَايَةٍ، وَهُوَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الآخِرُ بِلا نِهَايَةٍ، كَمَا قَالَ صلى الله عليه وسلم: «**أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْس قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْس بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْس فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْس دُونَكَ شَيْءٌ**»(١).

قَوْلُهُ: (**وَالإِيْمانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ عَلِمَ مَا كَانَ مِنْ أَوَّلِ الدَّهْرِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ، أَحْصَاهُ وَعَدَّهُ عَدًّا**) اللهُ عَلِمَ مَا كَانَ وَمَضَى فِي الزَّمَانِ السَّابِقِ، وَيَعْلَمُ مَا يَكُونُ فِي المُسْتَقْبَلِ، وَيَعْلَمُ مَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ، فَاللهُ مُحِيطٌ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿**وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ**﴾ [الأنعام:٢٨] عَلِمَ اللهُ أَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا إِلَى الدُّنْيَا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ، أَيْ: لَوْ رُدُّوا إِلَى الدُّنْيَا فَإِنَّهُمْ سَيَعُودُونَ لِلْكُفْرِ، مَعَ أَنَّ عَوْدَهُمْ إِلَى الدُّنْيَا لَنْ يَكُونَ أَبَدًا.

قَوْلُهُ: (**وَمَنْ قَالَ إِنَّهُ لاَ يَعْلَمُ إِلاَّ مَا كَانَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِاللهِ**

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

العَظِيم) مَنْ قَصَرَ عِلْمَ الله عَلَى الحَوَادِثِ الَّتِى تَقَعُ فَقَطْ ولا يَعْلَمُ مَا هُوَ كَائِنٌ قَبْلَ وُقُوعِهِ فَقَدْ كَفَرَ بِالله؛ لأَنَّهُ جَحَدَ عِلْمَ الله - جَلَّ وَعَلا -، وَجَحَدَ إِحَاطَةَ عِلْمِ الله - جَلَّ وَعَلا -، وَأَثْبَتَ لله عِلْمًا نَاقِصًا، فَهُو يَكْفُرُ بِهَذَا، فَعِلْمُ الله لا يُحَدُّ، أَمَّا عِلْمُ المَخْلُوقِ فَإِنَّهُ مَحْدُودٌ مَهْمَا بَلَغَ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] وَأَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] فَالَّذِي يَحُدُّ عِلْمَ الله، وَيَقُولُ: يَعْلَمُ كَذَا، وَلا يَعْلَمُ كَذَا؛ كَافِرٌ بِالله لأَنَّهُ تَنَقَّصَهُ وَجَحَدَ عُمُومَ عِلْمِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ.

[٥٦] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: و«لاَ نِكَاحَ إلاَّ بوَلِيٍّ وَشَاهِدَيْ عَدْلٍ»[(١)] وَصَدَاقٍ قَلَّ أَوْ كَثُرَ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لها وَليٌّ فَالسُّلْطَانُ وَليُّ مَنْ لاَ وَلِيَّ لَهُ.

الشَّرْح

هَذِهِ مَسْأَلَةٌ فِقْهِيَّةٌ، وَهِيَ: بَيانُ شُرُوطِ صِحَّةِ النِّكَاحِ عِنْدَ الجُمْهُورُ: وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ بِوَلِيٍّ، وَأَنَّ المَرْأَةَ لا تَعْقِدُ لِنَفْسِهَا، وَمِنْ شُرُوطِهِ: الإِشْهَادُ عَلَى العَقْدِ؛ فَلا يَعْقِدُ عَقْدًا سِرِّيًا لَيْس عَلَيْهِ شُهُودٌ.

فَمِنْ مَذْهَبِ المُسْلِمِينَ إِعْلانُ النِّكَاحِ، وَمَسْأَلَةُ الوَلِيِّ محَلُّ خِلافٍ، الجُمْهُورُ: عَلَى أَنَّهُ لا بُدَّ مِنْ وَلِيٍّ، وَعِنْدَ الحَنَفِيَّةِ: أَنَّهُ لا بَأْسَ أَنْ تُزَوِّجَ المَرْأَةُ نَفْسَهَا بِدُونِ وَلِيٍّ، لَكِنَّهُ مَذْهَبٌ مَرْجُوحٌ، يُخَالِفُ الدَّلِيلَ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «**لاَ نِكَاحَ إِلاَّ بِوَلِيٍّ وَشَاهِدَيْ عَدْلٍ**»، وَقَولِهِ فِي الحَدِيثِ الآخَرِ: «**لا تُزَوِّجِ المَرْأَةَ المَرْأَةَ، وَلا تُزَوِّجُ المَرْأَةُ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الزَّانِيَةَ هِيَ الَّتِي تُزَوِّجُ نَفْسَهَا**»[(٢)]، وَ«**أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَكَحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهَا؛ فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ بَاطِلٌ بَاطِلٌ**»[(٣)]، حَتَّى وَلَو قَالَ بِصِحَّتِهِ مِنْ قَالَ مِنَ الفُقَهَاءِ عَنِ اجْتِهَادٍ، فَإِنَّ العِبْرَةَ بِالدَّلِيلِ، وَلِهَذَا نَصَّ المُؤَلِّفُ عَلَى هَذِهِ المَسْأَلَةِ مَعَ أَنَّهَا فِقْهِيَّةٌ؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّ هَذَا هُوَ المَذْهَبُ الصَّحِيحُ، وَهُوَ المَذْهَبُ الَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ أَهْلِ العِلْمِ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ، وَلأَجْلِ أَنْ تَنْضَبِطَ أَنْكِحَةُ المُسْلِمِينَ،

---

(١) صحيح: أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٤٧٥) من حديث عائشة، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٥٥٧).

(٢) **صحيح دون جملة الزانية**: أخرجه ابن ماجه (١٨٨٢) من حديث أبي هريرة، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٩٨) دون جملة الزانية.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٠٨٣)، والترمذي (١١٠٢)، وابن ماجة (١٨٧٩)، وأحمد (٦/ ٤٧، ٦٦، ١٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٧٠٩).

وَلا تَدْخُلُهَا السِّرِّيَّةُ وَالاحْتِيَالاتُ، بَلْ تكُونُ وَاضِحَةً عَلانِيَةً، فَإِنَّ الأَنْكِحَةَ مِنْ أَهَمِّ الأُمُورِ؛ لأَنَّهَا يَنْبَنِى عَلَيْهَا أُسَرٌ، وَيَنْبَنِى عَلَيْهَا ذَرَارِي، وَيَنْبَنِى عَلَيْهَا نَسَبٌ، وَيَنْبَنِى عَلَيْهَا أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ اسِتْبَاحَةُ الفُرُوجِ؛ فَلَا بُدَّ مِنَ الضَّوَابِطَ الشَّرْعِيَّةِ لِعَقْدِ النِّكَاحِ الوَارِدَةِ فِي الأَحَادِيثِ وَفِي الآيَاتِ.

قَوْلُهُ: (**وَصَدَاقٍ قَلَّ أَوْ كَثُرَ**) أَمَّا الصَّدَاقُ فَلَيْس شَرْطًا لَكِنَّهُ وَاجِبٌ؛ وَلِهَذَا لَوْ عَقَدَ بِدُونِ صَدَاقٍ صَحَّ العَقْدُ، وَلَكِنْ يُفْرَضُ لَهَا صَدَاقُ مَثِيلاتِهَا، لأَنَّ هَذَا حَقٌّ لَهَا.

قَوْلُهُ: (**وَمَنْ لَمْ يَكنْ لَهَا وَلِيٌّ فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لاَ وَلِيَّ لَهُ**) لَا بُدَّ مِنَ الوَلِيِّ، وَالوَلِيُّ: هُوَ عَصَبَةُ الزَّوْجَةِ الأَقْرَبُ فَالأَقْرَبُ مِنْهُم أَبُوهَا ثُمَّ جَدُّهَا وَإِنْ عَلا، ثُمَّ ابْنُهَا وَابنُ ابْنِهَا وَإِنْ نَزَلَ، ثُمَّ أَخُوهَا الشَّقِيْقُ، ثُمَّ أَخُوهَا لِلأَبِ، ثُمَّ عَمُّهَا الشَّقِيْقُ، ثُمَّ عَمُّهَا لأَبِ، ثُمَّ ابنُ عَمِّهَا الشَّقِيْقُ، ثُمَّ ابنُ عَمِّهَا لأَبِ. هَذَا هُوَ وَلِيُّ المَرْأَةِ، فَإِذَا قُدِّرَ أَنَّ امْرَأَةً لَيْسَ لَهَا وَلِيٌّ مِنْ عَصَبَتِهَا فَهَذِهِ يَتَوَلَّاهَا السُّلْطَانُ، أَوْ مَنْ يَنُوبُ عَنِ السُّلْطَانِ وَهُوَ القَاضِى فِي المَحْكَمَةِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِلنِّكَاحِ ضَوَابِطُ وَلا يَكُونَ فَوْضَى بِحَسَبِ أَهْوَاءِ النَّاسِ وَشَهَوَاتِهِمْ.

[٥٧] قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: وَإِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأتَهُ ثَلاثًا فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْهِ، لاَ تَحِلُّ لَهُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (**وَإِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ ثَلاثًا فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْهِ**) إِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ طَلاقًا ثَلاثًا إِنْ كَانَتْ مُتفَرِّقَةً فَهِيَ تَحْرُمُ عَلَيْهِ بِالإِجْمَاعِ، كَمَا لَوْ قَالَ: أَنْتِ طَالِقٌ، ثُمَّ بَعْدَهَا قَالَ: أَنْتِ طَالِقٌ، ثُمَّ قَالَ: أَنْتِ طَالِقٌ، أَوْ قَالَ: أَنْتَ طَالِقٌ، ثُمَّ طَالِقٌ، أَوْ فطَالِقٌ - بِالفَاءِ- لأَنَّ هَذَا تَرْتِيبٌ فَإِنَّهَا تَطْلُقُ وَتَبِيْنُ مِنْهُ؛ إِذْ بَلَغَتِ الطَّلْقَاتُ ثَلاثًا، وَتَحْرُمُ عَلَيْهِ، حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ**﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**فَإِن طَلَّقَهَا**﴾ يَعْنِي الثَّالِثَةَ ﴿**فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا**﴾ يَعْنِي الزَّوْجَ الثَّانِي ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ**﴾ [البقرة: ٢٢٩-٢٣٠] هَذَا إِذَا كَانَتِ الطَّلَقَاتُ مُتَفَرِّقَةً وَلَو فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ، أَمَّا لَوْ قَالَ: أَنْتِ طَالِقٌ، أَنْتِ طَالِقٌ، أَنْتِ طَالِقٌ، بِدُونِ حَرْفِ العَطْفِ؛ نَظَرْنَا: فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ التَّأْكِيدَ بِالتَّكْرَارِ فَإِنَّهَا طَلْقَةٌ وَاحِدَةٌ، أَمَّا إِنْ كَانَ يُرِيدُ التَّأْسِيْسَ فَإِنَّهَا تَبِيْنُ مِنْهُ؛ إِذْ بَلَغَتِ الثَّلاثَ الطَّلَقَاتِ.

أَمَّا إِذَا كَانَتِ الطَّلَقَاتُ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ كَأَنْ قَالَ: أَنْتِ طَالِقٌ بِالثَّلاثِ، أَوْ أَنْتِ طَالِقٌ ثَلاثًا، فَالجُمْهُورُ: عَلَى أَنَّهُ يَقَعُ ثَلاثًا وَتَبِيْنُ بِهِ، وَتَحْرُمُ عَلَيْهِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ، وَهُوَ مَذْهَبُ الأَئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ.

وَفِي قَوْلٍ لِبَعْضِ المُحَقِّقِينَ أَنَّ الثَّلاثَ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ تَكُونُ طَلْقَةً وَاحِدَةً.

وَالمَسْأَلَةُ فِيْهَا خِلافٌ طَوِيلٌ، وَلَكِنْ حَسْبُنَا أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ الطَّلاقَ الثَّلاثَ يُحَرِّمُهَا، لا عَلَى التَّأْبِيدِ، وَإِنَّمَا يُحَرِّمُهَا إِلَى أَنْ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ، ثُمَّ يُطَلِّقَهَا، أَمَّا

الدُّخُولُ فِي الخِلافِيَّاتِ فَهَذَا لا يَعْنِينَا الآنَ.

وَغَرَضُ المُؤَلِّفَ مِنْ إِدْخَالِ هَذِهِ المَسَائِلِ فِي العَقِيدَةِ وَاللهُ أَعلَمُ: أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ أَمْرَ النِّكَاحِ أَمْرٌ مُهِمٌّ يَجِبُ العِنَايَةُ بِهِ، حَسَبَ الضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ لَهُ، فَلا يُتَسَاهَلُ فِيهِ وَفِي إِجْرَاءَاتِهِ، ولأن الكتابَ اسمهُ «شَرْحُ السُّنَّةِ» أَيْ: بيانُ السُّنَّةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَمِنْ ذَلِكَ مَسَائِلُ النِّكَاحِ.

[٥٨] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَلاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهَ، وَيَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاثٍ: زِنًا بَعْدَ إِحْصَانٍ، أَوْ مُرْتَدٍّ بَعْدَ إِيْمَانٍ، أَوْ قَتَلَ نَفْسًا مُؤْمِنَةً بِغَيْرِ حَقٍّ فَيُقْتَلُ بِهِ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَدَمُ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ أَبَدًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ.

الشَّرْح

جَاءَ بِمَسْأَلَةِ قَتْلِ المُسْلِمِ بَعْدَ مَسْأَلَةِ النِّكَاحِ؛ لأَنَّ الإِسْلامَ جَاءَ بِحِفْظِ الأَعْرَاضِ وَبِحِفْظِ الدِّمَاءِ، وَبِحِفْظِ الأَمْوَالِ، قَالَ رسول الله ﷺ: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ**»[1]، وَقَالَ ﷺ: «**كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**»[2]، فَلَمَّا تَكَلَّمَ عَنِ الأَعْرَاضِ فِي الجُمَلِ السَّابِقَةِ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِالنِّكَاحِ والطَّلاقِ؛ انْتَقَلَ إِلَى مَسْأَلَةِ الدِّمَاءِ.

فَالمُسْلِمُ إِذَا شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله حَرُمَ دَمُهُ وَمَالُهُ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إِله إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله تَعَالَى**»[3] فَمَنْ أَعْلَنَ الإِسْلامَ وَنَطَقَ بِالشَّهَادَتَيْنِ فَإِنَّنَا نَقْبَلُ مِنْهُ ذَلِكَ، وَنَعْتَبِرُهُ مُسْلِمًا، وَنُجْرِي عَلَيْهِ أَحْكَامَ المُسْلِمِينَ، فَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ نِفَاقٌ فَإِنَّمَا هَذَا بَيْنَهُ وبَيْنَ الله، اللهُ يُحَاسِبُهُ، وَالنَّبِيّ ﷺ قَبِلَ إِسْلامَ المُنَافِقِينَ، وَأَجْرَى عَلَيْهِم الأَحْكَامَ الظَّاهِرَةَ.

وَلَكِن مَنِ ارْتَكَبَ نَاقِضًا مِنْ نَوَاقِضِ الإِسْلامِ فَحِينَئِذٍ يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالرِّدَّةِ، فَإِنْ تَابَ وإِلا قُتِلَ، حِمَايَةً لِلدِّيْنِ - **هَذَا أَوَّلُ مُبِيْحَاتِ دَمِ المُسْلِمِ**.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وَالثَّانِي مَنِ مُبِيحَاتِ دَمِ المُسْلِمِ: القِصَاصُ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٨- ١٧٩] القِصَاصُ يُسَبِّبُ الحَيَاةَ - مَعَ أَنَّهُ قَتْلٌ -؛ لأَنَّ القَاتِلَ إِذَا عَرَفَ أَنَّهُ سَيُقْتَلُ أَمْسَكَ عَنِ القَتْلِ، وَالنَّاسُ إِذَا رَأَوا القَاتِلَ يُقْتَلُ أَمْسَكُوا عَنِ القَتْلِ فَتُحْقَنُ بِذَلِكَ الدِّمَاء.

فَالقِصَاصُ سَبَبٌ لِبَقَاءِ الحَيَاةِ، وَإِنْ كَانَ يُقْتَلُ فِيهِ المُقْتَصُّ مِنْهُ، فَهُوَ قَتْلٌ يُؤَدِّي إِلَى حَيَاةِ البَقِيَّةِ مِنَ المُجْتَمَعِ، وَيَقِلُّ التَّعَدِّي عَلَى الدِّمَاءِ، أَمَّا أَنْ يُتْرَكَ القَاتِلُ وَيُقَالُ: هَذَا يَتَنَافِي مَعَ حُقُوقِ الإِنْسَانِ، وَيُتْرَكَ وَلا يُقْتَلَ، فَهَذَا يُسَبِّبُ سَفْكَ الدِّمَاءِ، وَاخْتِلالَ الأَمْنِ، وَتَرْوِيعَ الآمِنِيْنَ، فَيُسَبِّبُ مَفَاسِدَ كَثِيْرَةً، وَيُكْثِرُ القَتْلَ وَتُسْتَشَاطُ الدِّمَاءُ، حَتَّى فِي الجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ: القَتْلُ أَنْفَى لِلقَتْلِ. قَتْلُ المُجْرِمِ أَنْفَى لِلْقَتْلِ فِي المُسْتَقْبَلِ، وَفِي هَذه الآيَة: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ: القِصَاصُ يَتَنَافِي مَعَ حُقُوقِ الإِنْسَانِ. نَقُولُ لَهُم: وَالمَجْنِيُّ عَلَيْهِ أَلَيْسَ إِنْسَانًا؟ فَفِي الاقْتِصَاصِ لَهُ حِمَايَةٌ لِحَقِّهِ.

وَالثَّالِثُ مِنَ الَّذِيْنَ يُبَاحُ دَمُهُمْ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، والثَّيِّبُ هُوَ الَّذِي وَطِئَ امْرَأَتَهُ فِي نِكَاحٍ صَحِيْحٍ، فَإِذَا زَنَا يُرْجَمُ بِالحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ، وَيَحِلُّ دَمُهُ بِذَلِكَ.

فَهَذِهِ هِيَ الأُمُورُ الَّتِي يُسْتَبَاحُ بِهَا دَمُ المُسْلِمِ: إِمَّا القِصَاصُ، النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَإِمَّا زَانٍ بَعْدَ الإِحْصَانِ، وَإِمَّا المُرْتَدُّ، الَّذِي يَرْتَكِبُ نَاقِضًا مِنْ نَوَاقِضِ

الإسْلام، قَالَ ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِيْنَهُ فَاقْتُلُوهُ»[١]، وَفِي هَذَا الحَدِيثِ: «وَالتَّارِكُ لِدِيْنِهِ المُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»[٢].

وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى الَّذِينَ ينكرون حَدَّ الردة مستدلين بِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة:٢٥٦] وَهَذَا الاسْتِدْلالُ خَطَأٌ لأَنَّ قَتْلَ المُرْتَدِّ لَيْسَ الغَرَضُ مِنْهُ الإِكْرَاهَ عَلَى الدِّينِ، وَإِنَّمَا الغَرَضُ مِنْهُ حِمَايَةُ الدِّينِ مِنَ التَّلاعُبِ مِمَّنْ دَخَلَ فِيهِ بِاخْتِيَارِهِ، ثُمَّ تَرَكَهُ بَعْدَمَا شَهِدَ أَنَّ الدِّينَ حَقٌّ.

قَوْلُهُ: (ولاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) المُسْلِمُ: هُوَ الَّذِي يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله. لَكِنْ لَا بُدَّ مَعَ الشَّهَادَتَيْنِ مِنَ العَمَلِ: بِأَنْ يُقِيمَ الصَّلاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَصُومَ رَمَضَانَ وَيَحُجَّ البَيْتَ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، لَا بُدَّ مِنَ العَمَلِ.

قَوْلُهُ: (وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَدَمُ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ أَبَدًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ) دَمُ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ، وَلا يَأْتِي وَقْتٌ يُبَاحُ فِيهِ دَمُ المُسْلِمِ أَبَدًا، اللَّهُمَّ إلا إِذَا اعْتَدَى أَوْ صَالَ عَلَى النَّاسِ فِي بُيُوتِهِمْ أَوْ قَطَعَ الطَّرِيقَ أَوْ بَغَى عَلَى وَلِيِّ الأَمْرِ أَوْغَيْرَ ذَلِكَ فَهَذَا يُقْتَلُ دَفْعًا لِشَرِّهِ، إِذَا لَمْ يَنْدَفِعْ شَرُّهُ إِلاَّ بِالقَتْلِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٨٤)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود.

[٥٩] قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: وَكُلُّ شَيْءٍ مِمَّا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيهِ الفَنَاءِ يَفْنَى إلاَّ الجَنَّةَ والنَّارَ وَالعَرْشَ وَالكُرْسِيَّ وَالصُّورَ وَالقَلَمَ وَاللَّوْحَ، لَيْسَ يَفْنَى شَيْءٌ مِنْ هَذَا أَبَدًا، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ الخَلْقَ عَلَى مَا أَمَاتَهُم عَلَيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَيُحَاسِبُهُمْ بِمَا شَاءَ، فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ، وَيَقُولُ لِسَائِرِ الخَلْقِ مِمَّنْ لَمْ يُخْلَقْ لِلبَقَاءِ: كُونُوا تُرَابًا.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَكُلُّ شَيْءٍ مِمَّا أَوْجَبَ اللهُ عَليهِ الفَنَاءِ يَفْنَى) قال - جل وعلا -: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧]، كُلُّ الخَلْقِ يَفْنَوْنَ وَلا يَبْقَى إلاَّ اللهُ تعالى، وَفِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، وَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] مَعْنَى ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قَالُوا: مَعْنَاهُ: المَلائِكَةُ أَوِ الحُورُ فِي الجَنَّةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

فَكُلُّ الخَلْقِ يَمُوتُونَ ثُمَّ يُبْعَثُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٥-١٦] فَيَتَذَكَّرُ المُسْلِمُ المُوتَ وَيَسْتَعِدُّ لَهُ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَيَسْأَلُ اللهَ حُسْنَ الخَاتِمَةِ، وَيَتُوبُ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَهَذِهِ فَائِدَةُ تَذَكُّرِ المَوْتَ، إِذَا تَذَكَّرَ المَوْتَ فَإِنَّهُ يَسْتَعِدُّ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «**تَذَكَّرُوا هَاذِمَ اللَّذَّاتِ: المَوْتَ؛ فَإِنَّكُم لا تَذْكُرُونَهُ فِي كَثِيرٍ إِلاَّ قَلَّلَهُ، وَلا فِي قَلِيلٍ إِلاَّ كَثَّرَهُ**» فَلا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَغْفُلَ عَنِ المَوْتِ، بَلْ يَتَذَكَّرُ المَوْتَ دَائِمًا وَأَبَدًا، وَيَسْتَعِدُّ لَهُ.

وَيُؤْمِنُ بِالبَعْثِ، يومَ يَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ العَالَمِينَ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] تَعُودُ إِلَيهِمُ الأَرْوَاحُ، بَعْدَ إِعَادَةِ أَجْسَادِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ، ثُمَّ يُسَاقُونَ إِلَى المَحْشَرِ، إِلَى آخِرِ مَا يُلاقُونَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الأَخْطَارِ

الَّتِي يَمُرُّونَ بِهَا، إِلَى أَنْ يَسْتَقِرُّوا بَعْدَ ذَلِكَ إِمَّا فِي الجَنَّةِ، وَإِمَّا فِي النَّارِ، فَإِنَّ الجَنَّةَ والنَّارَ هُمَا دَارُ القَرَارِ.

قَوْلُهُ: (**إِلاَّ الجَنَّةَ والنَّارَ وَالعَرْشَ وَالكُرْسِيَّ**) فَإِنَّهُمَا لا تَفْنَيَانِ وَلا تَبيدَانِ، خَلقَهُمَا اللهُ لِلْبَقَاءِ. وَأَمَّا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ فَإِنَّهُا تُبَدَّلُ، تَتَفَطَّرُ السَّمَوَاتُ، وَتَتَشَقَّقُ الأَرْضُ، ويَتَغَيَّرُ هَذَا العَالَمُ: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ**﴾ [إبراهيم:٤٨] أَمَّا العَرْش فَإِنَّهُ لا يَتَغَيَّرُ، وَالجَنَّةُ وَالنَّارُ لا تَفْنيَانِ وَلا تَتَغَيَّرَانِ.

(**وَالكُرْسِيُّ**) وَهُوَ دُونَ العَرْشِ، وَالعَرْشُ أَكْبَرُ مِنْهُ، وَالكُرْسِيُّ وَسِعَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَالعَرْشُ أَوْسَعُ مِنَ الكُرْسِيِّ.

قَوْلُهُ: (**وَالصُّورَ**) الصُّوْرُ الَّذِي هُوَ القَرْنُ الَّذِي مَعَ المَلَكِ إِسْرافِيلَ، يَنْفُخُ فِيهِ بِالأَرْوَاحِ، فَتَطِيرُ الأَرْوَاحُ إِلَى أَجْسَادِهَا فَتَحْيَا بِإِذْنِ الله: ﴿**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾ [الزمر: ٦٨].

قَوْلُهُ: (**وَالقَلَمَ وَاللَّوْحَ**) اللَّوْحُ المَحْفُوظُ وَالقَلَمُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ بِهِ المَقَادِيرَ.

قَوْلُهُ: (**لَيْسَ يَفْنَى شَيءٌ مِنْ هَذَا أَبَدًا**) هَذِهِ الأَشْيَاءُ الَّتِي خَلقَهَا اللهُ لِلْبَقَاءِ، العَرْشُ، وَالكُرْسِيُّ، وَاللَّوْحُ، وَالقَلَمُ، وَالجَنَّةُ، وَالنَّارُ، وَالأَرْوَاحُ إِذَا خُلِقَتْ فَإِنَّهَا لا تَفْنَى.

قَوْلُهُ: (**ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ الخَلْقَ عَلَى مَا أَمَاتَهُم عَليهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**) أَيْ: عَلَى مَا أَمَاتَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ إِيْمَانٍ، كلٌّ يُبْعَثُ عَلَى عَمَلِهِ.

والإِيْمَانُ بِالبَعْثِ هُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ الإِيْمَانِ السِّتَّةِ، وَقَدْ جَاءَ الإِيْمَانُ بِاليَوْمِ الآخِرِ مقْرُونًا بِالإِيْمَانِ بِالله فِي كَثِيرٍ مِنَ الآيَاتِ.

وَالبَعْثُ هُوَ: إِعَادَةُ النَّاسِ أَحْيَاءً بَعْدَ مَوْتِهِمْ، فِي عَالَمِ الآخِرَةِ يَحْيَوْنَ فِي الدُّنْيَا

لأَجْلِ العَمَلِ، ثُمَّ يَمُوتُونَ وَيُدْفَنُونَ فِي الأَرْضِ وَيَبْقَونَ فِيهَا إِلَى مَا شَاءَ اللهُ فِي مَحَطَّةِ انْتِظَارٍ وَهِيَ دَارُ البَرْزَخِ، الفَاصِلَةُ بَيْنَ الدُّنْيَا والآخِرَةِ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ مِنْ هَذِهِ القُبُورِ، وَيَقُومُونَ مِنْهَا أَحْيَاءً كَمَا كَانُوا، لا يَضِيعُ مِنْ خَلْقِهِمْ شَيْءٌ، ثُمَّ تُعَادُ الأَرْوَاحُ فِي أَجْسَادِهِمْ ثُمَّ يُسَاقُونَ إِلَى المَحْشَرِ لِلْجَزَاءِ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس:٥٤] فَلا أَحَدَ يُجْزَى خَيرًا بِعَمَلِ غَيْرِهِ، أَوْ يُعَاقَبُ بِعَمَلِ غَيْرِهِ، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤] كلٌّ يُجَازَى بِعَمَلِهِ خَيْرِهِ أَوْ شَرِّهِ، وَهَذَا عَدْلٌ مِنَ اللهِ ﷻ، لا يَتْرُكُهُمْ بِدُونِ جَزَاءٍ، وَقَدْ أَتْعَبُوا أَنْفُسَهُمْ - وَالعِيَاذُ بِاللهِ - بِالكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَالفِسْقِ وَالإِفْسَادِ فِي الأَرْضِ إِن كَانُوا مِنَ الكَافِرِيْنَ، يَتْرُكُهُمْ بِدُونِ جَزَاءٍ، هَذَا عَدْلُ اللهِ - جَلَّ وَعَلا -. فَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ هُنَا: أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يُجْزَى بِعَمَلِهِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَيَجِبُ عَلَى العَبْدِ أَنْ يَنْظُرَ فِي عَمَلِهِ، مَادَامَ عَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ: فَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّهُ يَتَزَوَّدُ مِنْهُ، وَمَا كَانَ شَرًّا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ وَيَتَخَلَّصُ مِنْهُ؛ مَادَامَ ذَلِكَ مُمْكِنًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨] حَاسِبْ نَفْسَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا قَبْلَ الحِسَابِ، حَاسِبْ نَفْسَكَ عَلَى أَعْمَالِكَ وَانْظُرْ فِيْهَا فَأَصْلِحْ مَا فَسَدَ مِنْهَا، وَزِدْ عَلَى مَا كَانَ فِيْهَا مِنْ خَيْرٍ وَتَنَبَّهْ مِنَ الغَفْلَةِ، هَذَا هُوَ المَطْلُوبُ مِنَ العَاقِلِ.

وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «**الكَيِّسُ**» يَعْنِي العَاقِلَ «**مَنْ دَانَ نَفْسَهُ**» يَعْنِي حَاسَبَهَا، «**وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ**» هَذَا هُوَ العَاقِلُ «**وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا**» فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، «**وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِيَّ**» يُرِيدُ الجَنَّةَ وَيُرِيدُ النَّجَاةَ وَهُوَ لَمْ يَعْمَلْ شَيْئًا، فَهَذَا عَاجِزٌ - وَالعِيَاذُ بِاللهِ - العَجْزَ المَذْمُومَ وَلَيْسَ عَاجِزًا العَجْزَ الحِسِّيَّ الَّذِي لا يَقْدِرُ أَوْ لا يَسْتَطِيْعُ مَعَهُ العَمَلَ؛ لأن هَذَا لا يُؤَاخَذُ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، لَكِنْ هَذَا قَادِرٌ مُسْتَطِيعٌ، لَكِنَّهُ عَجِزَ عَجْزَ الكَسَلِ، وَعَدَمَ المُبَالاةِ.

هَذَا هُوَ العَاجِزُ، وَمَعَ هَذَا يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ فِي الآخِرَةِ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ بِدُونِ عَمَلٍ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ بِدُونِ عَمَلٍ.

قَوْلُهُ: (**وَيُحَاسِبُهُمْ بِمَا شَاءَ، فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**) يُحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ﷻ، وَالحِسَابُ: هُوَ المُنَاقَشَةُ عَلَى الأَعْمَالِ.

فالنَّاسُ عَلَى أَقْسَامٍ:

- مِنَ المُؤْمِنِيْنَ مِنْ لايُحَاسَبُ فَيدْخُلُ الجَنَّةَ بِلا حِسَابٍ وَلا عَذَابٍ.
- وَمِنْهُمْ: مَنْ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَهُوَ العَرْضُ.
- وَمِنْهُمْ مَنْ يُنَاقَشُ الحِسَابَ. و«**مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ**» وَالعِيَاذُ بِاللهِ.
- والكَافِرُ لا يُحَاسَبُ حِسَابِ مُوَازَنَةٍ، وَإِنَّمَا يُحَاسَبُ حِسَابَ تَقْرِيرٍ، بِأَنَ يُطْلَعَ عَلَى أَعْمَالِهِ وَكُفْرِهِ وَشِرْكِهِ لِيُقِرَّ بِذَلِكَ وَلا يَسعُهُ الإِنْكَارُ أَبدًا، ثُمَّ يُدْفَعُ بِهِ إِلَى النَّارِ.

(**فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**) وَهَذَا مَأْخُوذٌ مِنَ الآيَةِ: ﴿**وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ**﴾ [الشورى:٧]، ﴿**فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ**﴾ وَهُمْ أَهْلُ الإِيمَانِ، ﴿**وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ**﴾ وَهُمْ أَهْلُ الكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ.

قَوْلُهُ: (**وَيَقُولُ لِسَائِرِ الخَلْقِ مِمَّنْ لَمْ يُخْلَقْ لِلبَقَاءِ: كُونُوا تُرَابًا**) يَبْعَثُ اللهُ الخَلائِقَ يَوْمَ القِيَامَةِ الآدَمِيِّيْنَ وَالبَهَائِمَ والطُّيُورَ ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾ [الأنعام:٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ**﴾ [التكوير:٥] تُحْشَرُ الخَلائِقُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ أَجْلِ إِقَامَةِ العَدْلِ بَيْنَهَا، حَتَّى يُقْتَصَّ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ، البَهَائِمُ يُقْتَصُّ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ يُقَادُ لِلشَّاةِ الجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ كَمَا فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ، ثُمَّ إِذَا اقْتُصَّ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ يَقُولُ اللهُ - جَلَّ وَعَلا - لَهَا: كُونِي تُرَابًا؛ لأَنَّهَا لَمْ تُبْعَثْ

لِلْبَقَاءِ فِي الآخِرَةِ، وَإِنَّمَا بُعِثَتْ لِلْجَزَاءِ فَقَطْ، وَهَذَا مِنْ عَدْلِ الله - جَلَّ وَعَلا -. عِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الكَافِر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ:٤٠] إِذَا قِيلَ لِلْحَيَوانَاتِ: كُونِي تُرَابًا يَتَمَنَّى الكَافِرُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَهَا.

[٦٠] قَالَ المُؤَلِّفُ ﷺ: وَالإِيمَانُ بِالقِصَاصِ يَومَ القِيَامَةِ بَيْنَ الخَلقِ كُلِّهِمْ، بَنِي آدَمَ وَالسِّبَاعِ والهْوَامِّ، حَتَّى لِلذَّرَّةِ مِنَ الذَّرَّةِ، حَتَّى يَأْخُذَ اللهُ ﷻ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ؛ لأَهلِ الجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، ولأَهْلِ النَّارِ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؛ ولأَهْلِ الجَنَّةِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، وِلأَهْلِ النَّارِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ.

الشَّرْحُ

سَبَقَ أَنَّ اللهَ يَبْعَثُ الخَلْقَ يَوْمَ القِيَامَةِ للجزَاءِ عَلَى الحَسنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ بِالنِّسْبَةِ لِبَنِي آدَمَ، ولِلْقِصَاصِ بِالنِّسْبَةِ أَيْضًا لِبَنِي آدَمَ ولِلبَهَائِم، البَهَائِمُ تُبْعَثُ لِلْقِصَاصِ فَقَطْ، وبَنُو آدَمَ يُبْعَثُونَ لِلجَزَاءِ ولِلْقِصَاصِ فِيمَا بَيْنَهُمْ.

قَوْلُهُ: (**وَالإِيمَانُ بِالقِصَاصِ يومَ القِيَامَةِ بَيْنَ الخَلقِ كُلِّهِمْ، بَنِي آدَمَ وَالسِّبَاعِ والهْوَامِّ**) كُلُّهَا تُبْعَثُ لِلْقِصَاصِ، أَمَّا الهْوَامُ فَإِنَّهَا إِذَا اقْتُصَّ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ يُنْهَى أَمْرُهَا فتكُونُ تُرَابًا، وَأَمَّا بَنُو آدَمَ فَعَلَى فَرِيْقَيْنِ: فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ، وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيْرِ، وَلا يَمُوتُونَ بَعْدَ ذَلِكَ أَبَدًا، خَالِدُونَ مُخَلَّدُونَ إِمَّا فِي جَنَّةٍ، وَإِمَّا فِي نَارٍ.

قَوْلُهُ: (**حَتَّى لِلذَّرَّةِ مِنَ الذَّرَّةِ**) حَتَّى للذَّرَّةِ وَهِيَ النَّمْلَةُ الصَّغِيرَةُ مِنَ الذَّرَّةِ يُقْتَصُّ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ، لأَنَّ اللهَ لا يُقِرُّ الظُّلْمَ أَبَدًا، لأَنَّهُ أَحْكَمُ الحَاكِمِيْنَ، وَهُوَ الحَكَمُ العَدْلُ، فَلا يُقِرُّ الظُّلْمَ؛ حَتَّى بَيْنَ البَهَائِمِ وَالذَّرِّ. يَوْمَ القِيَامَةِ يَبْعَثُهَا ثُمَّ يُقْتَصُّ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ.

وَأَمَّا المُؤْمِنُونَ فَأَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ مِن حُقُوقِ النَّاسِ، وَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ بَعْدَمَا يَتجَاوَزُونَ الصِّرَاطَ وَقَبْلَ أَنْ يَدْخُلُوا الجَنَّةَ، يُوْقَفُونَ ويُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّةِ؛ لأَنَّهُ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَحَدٌ وَعَلَيْهِ مَظْلَمَةٌ أَبَدًا، لأَنَّ الجَنَّةَ دَارُ الطَّيِّبِيْنَ، وَلا يَدْخُلُها إِلاَّ الطَّيِّبُونَ الَّذِينَ لَيْسَ عَلَيْهِم حِسَابٌ وَلا تَبِعَاتٌ لأَحَدٍ، وَلا ذُنُوبٌ،

حَتَّى المُؤْمِنُ العَاصِي يُعَذَّبُ فِي النَّارِ بِقَدْرِ مَعْصِيَتِهِ أَوْ أَنَّ اللهَ يَعْفُو عَنْهُ بِمَشِيئَتِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِ حَتَّى يُمَحِّصَهُ وَيُخَلِّصَهُ مِنَ الذُّنُوبِ، ثُمَّ يُدْخِلُهُ الجَنَّةَ؛ فَلا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلاَّ نَقِيٌّ؛ إِمَّا بِالقِصَاصِ وَإِمَّا بِالتَّعْذِيبِ.

قوله: (**حَتَّى يَأْخُذَ اللهُ ﷻ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ؛ لِأَهلِ الجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، ولِأَهْلِ النَّارِ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**) حَتَّى المُؤْمِنِ إِذَا ظَلَمَ الكَافِرَ فَإِنَّهُ يُقْتَصُّ لِلْكَافِرِ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَالعَكْسُ: الكَافِرُ إِذَا ظَلَمَ المُؤْمِنَ يُقْتَصُّ لِلْمُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ. فَلا أَحَدَ يُتْرَكُ وَعَلَيْهِ مَظْلَمَةٌ، حَتَّى المُؤْمِنَ يَقْتَصُّ مِنْهُ لِلمُؤْمِنِ.

[٦١] قَالَ المؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَإِخْلاَصُ العَمَلِ لله.

الشَّرْحُ

إِخْلاصُ العَمَلِ لله هُوَ أَلَّا يَكُونَ فِيهِ شِرْكٌ. فَاللهُ لا يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إِلاَّ مَا كَانَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ لَيْسَ فِيهِ شِرْكٌ، وَهَذَا أَحَدُ شَرْطَي قَبُولِ العَمَلِ.

الشَّرْطُ الثَّانِي: المُتَابعَةُ، وَالعَمَلُ بالسُّنَّةِ؛ بِأَنْ يَكُونَ العَمَلُ مُوَافِقًا لِسُنَّةِ رَسُولِ الله ﷺ فَلا يَكُونُ فِيهِ بِدْعَةٌ؛ لأَنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ البِدَعَ، بَلْ يُعَاقِبُ عَلَيْهَا، وَلَو أَتْعَبَ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِعَمَلٍ لَمْ يُخْلِصْ فِيهِ لله فَإِنَّهُ هَبَاء مَنْثُورٌ، وَلَو أَتْعَبَ نَفْسَهُ فِي عَملٍ عَلَى غَيْرِ مُوَافَقَةِ السُّنَّةِ فَإِنَّهُ مَرْدُودٌ، وَلا يُقْبَلُ إِلاَّ بِهَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ: الإِخْلاصُ لله، وَالمُتَابَعَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ.

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ﴾ بَلَى نَقْضٌ لِنَفْيِهِمْ، يَعْنِي: يَدْخُلُهَا ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:١١١-١١٢].

﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أَيْ: أَخْلَصَ عَمَلَهُ لله، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أَيْ: مُتَّبعٌ للرَّسُولِ ﷺ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، مِنَ اليَهُودِ، مِنَ النَّصَارَى، مِنْ سَائِرِ العَالَمِ، بِهَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ: الإِخْلاصُ وَالمُتَابَعَةُ.

[٦٢] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالرِّضَى بِقَضَاءِ اللهِ.

الشَّرْحُ

(الرِّضَى بِقَضَاءِ اللهِ) الإِيْمَانُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الإِيْمَانِ السِّتَّةِ، «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1].

وَهُوَ: أَنْ تَعْتَقِدَ بِأَنَّ اللهَ قَدَّرَ الأَشْيَاءَ، وَقَضَاهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الأَزَلِ وَكَتَبَهَا فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، وَخَلَقَهَا وَأَوْجَدَهَا بِمَشِيْئَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فَالإِيْمَانُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَ مَرَاتِبَ:

- **المَرْتَبَةُ الأُوْلَى**: مَرْتَبَةُ العِلْمِ. وَهُوَ أَنَّ اللهَ عَلِمَ بِعِلْمِهِ الأَزَلِيِّ الأَشْيَاءَ قَبْلَ وُجُودِهَا.

- **المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ**: الإِيْمَانُ بِأَنَّ اللهَ كَتَبَ الأَشْيَاءَ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ قَبْلَ وُجُودِهَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢].

- **المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ**: الإِيْمَانُ بِأَنَّ اللهَ أَرَادَ وَشاءَ هَذِهِ الحَوَادِثَ: الكُفْرَ وَالإِيْمَانَ، وَالطَّاعَةَ وَالمَعْصِيَةَ، وَالبِرَّ وَالفُجُورَ، وَالخَيْرَ والشَّرَّ، كُلُّ ذَلِكَ شَاءَهُ اللهُ وَأَرَادَهُ بِإِرَادَتِهِ الكَوْنِيَّةِ، فَلا يَقَعُ فِي مُلْكِهِ مَا لا يُرِيدُ، لَكِنْ أَرَادَ الخَيْرَ، وَأَرَادَ الإِيْمَانَ، وَأَرَادَ الشَّرَّ لِحِكْمَةٍ، وَلِلابْتِلاءِ وَلِلامْتِحَانِ؛ فَاللهُ أَرَادَ الخَيْرَ وَهُوَ يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَأَرَادَ الشَّرَّ وَهُوَ لا يُحِبُّهُ وَلا يَرْضَاهُ؛ لَكِنْ أَرَادَهُ لِحِكْمَةٍ وَابْتِلاءٍ وَامْتِحَان، إذ لَوْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ خَيْرٌ لَمَا صَارَ لأَحدٍ مِيْزَةٌ، وَلا صَارَ هُنَاكَ ابْتِلاءٌ وَامْتِحَانٌ، صَارَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَخْيَارًا، وَلَو لَمْ يَكُنْ إِلاَّ شَرٌّ مَا صَارَ لأَحدٍ مِيْزَةٌ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ، فَهَذَا

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

يَعْنِي أَنْ اللهَ يَبْتَلِي عِبادَهُ لِيَتبيَّنَ الطَّيِّبُ مِنَ الخَبيثِ والمُؤْمِنُ مِنَ الكَافِرِ، وَهُوَ ابْتِلاءٌ وَامْتِحَانٌ يُجْرِيهِ عَلَيْهِم ﷻ، لَمْ يَخْلُقْ هَذِهِ الأَشْيَاءَ عَبَثًا.

▪ **المَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ**: الخَلْقُ وَالإِيجَادُ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَحْدُثُ فَاللهُ خَالِقُهُ، وَأَفْعَالُ العِبَادِ مَخْلُوقَةٌ لله وَهِيَ فِعْلُ العَبْدِ، هِيَ مَخْلُوقَةٌ لله - جَلَّ وَعَلا -، اللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿**ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ [الزمر:٦٢]، ويَقُولُ ﷻ: ﴿**وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ**﴾ [يس:٨١]، ﴿**وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الصافات:٩٦]، فَهِيَ خَلْقُ الله - جَلَّ وَعَلا -، وَهِيَ فِعْلُ العِبَادِ وَكَسْبُ العِبَادِ بِاخْتِيَارِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ.

فَيُؤْمِنُ المُؤْمِنُ بِهَذِهِ المَرَاتِبِ الأَرْبَعِ: العِلْمُ، الكِتَابَةُ، المَشِيْئَةُ وَالإِرَادَةُ، الخَلْقُ وَالإِيجَادُ.

ثُمَّ المُؤْمِنُ يَرْضَى بِالقَضَاءِ والقَدَرِ عِنْدَ المَصَائِبِ، فَلا يَجْزَعُ وَلا يَسْخَطُ، بل يَكُفُّ نَفْسَهُ عَنِ الجَزَعِ، وَيكُفُّ لِسَانَهُ عَنِ التَّشَكِّي إلى غَيْرِ الله، وَيَكُفُّ يَدَهُ عَنْ لَطْمِ الخُدُودِ وَشَقِّ الجُيُوبِ. فَهَذَا هُوَ الرِّضَى بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ، تَعْلَمُ: «**أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ**» كَمَا قَالَ النَّبِيّ ﷺ، وَلا يَتِمُّ الإِيمَانُ إِلاَّ بِهَذَا.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالصَّبْرُ عَلَى حُكْمِ الله.

وَالإِيمَانُ بِأَقْدَارِ الله كُلِّها خَيْرِهَا وَشَرِّهَا حُلْوِهَا وَمُرِّهَا.

وَالإِيمَانُ بِمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، قَدْ عَلِمَ اللهُ مَا العِبَادُ عَامِلُونَ، وَإِلَى مَا هُمْ صَائِرُونَ، لاَ يَخْرُجُونَ مِنْ عِلْمِ الله، ولاَ يَكُونُ فِي الأَرْضِيْنَ وَالسَّمَوَاتِ إِلاَّ مَا عَلِمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

الشَّرْحُ

هَذَا سَبَقَ ذِكْرُهُ فِي أَوَّلِ دَرَجَاتِ الإِيمَانِ بِالقَضَاءِ والقَدَرِ.

والاحْتِجَاجُ بِالقَضَاءِ والقَدَرِ إِذَا كَانَ عَلَى المَصَائِبِ الَّتِي لَيْسَ للإِنْسَانِ فِيْهَا اخْتِيَارٌ مَحْمُودٌ لأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الرِّضَى وَالتَّسْلِيْمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦]، أَمَّا الاحْتِجَاجُ بِالقَضَاءِ والقَدَرِ عَلَى الأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الَّتِي هِيَ بِاخْتِيَارِهِمْ وَفِعْلِهِمْ؛ فَإِنَّهُم لا حُجَّةَ لَهُم بِالقَدَرِ عَلَيْهَا، بَلْ يُعَاقَبُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ هُمْ وَتَفْرِيطِهِم، وَبَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ، فبَدَلَ أَنْ تُخَاصِمَ اللهَ، وتَقُولَ: لِمَاذَا قَدَّرْتَ عَلَيَّ؟ وَتَتْرُكَ التَّوبةَ - وَهَذَا مِنَ العَجْزِ المَذْمُوم - بَادِرْ بِالتَّوْبَةِ وَالاسْتِغْفَارِ، وَلُمْ نَفْسَكَ. فَهَذَا هُوَ المَطْلُوبُ مِنَ العَبْدِ، أَنْ يَنْظُرَ فِي أَعْمَالِهِ ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨]، انْظُرْ فِي أَعْمَالِكِ، وَبِإِمْكَانِكَ تَغْيِيرُهَا وَالتَّوْبَةُ مِنْهَا، وَالاسْتِغْفَارُ، أَمَّا القَضَاءُ وَالقَدَرُ فَهوَ مِنْ شَأْنِ الله - جَلَّ وَعَلا -، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِكَ.

قَوْلُهُ: (لاَ يَخْرُجُونَ مِنْ عِلْمِ الله) كُلُّ شَيْءٍ فَاللهُ بِهِ عَلِيمٌ، وَبِهِ مُحِيطٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. هُوَ يَعْلَمُ كُفْرَ الكَافِرِ، وَفِسْقَ الفَاسِقِ، وَظُلْمَ الظَّالِمِ، لا يَخْفَى عَلَيْهِ، ويَعْلَمُ طَاعَةَ المُطِيعِ، وَعَمَلَ المُطِيعِ، يَعْلَمُ هَذَا وَهَذَا، وَلَكِنَّهُ يُؤَخِّرُهُمْ لَعَلَّهُم يَتُوبُونَ،

ويَرْجِعْونَ، فَإِنْ تَابُوا وإِلَّا أَمَامَهُمُ الحِسَابُ، فَاللهُ لا يُهْمِلُهُمْ أَبَدًا.

قَوْلُهُ: (**ولاَ يَكُونُ فِي الأَرْضِيْنَ وَالسَّمَوَاتِ إِلاَّ مَا عَلِمَ اللهُ ﷻ**) هَذَا كَمَا سَبَقَ، كُلُّ شَيْءٍ قَدْ عَلِمَهُ اللهُ، مَا كَانَ فِي المَاضِي وَمَا يَكُونُ فِي المُسْتَقْبَلِ، كُلُّهُ أَحَاطَ اللهُ بِهِ عِلْمًا، لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ سبحانه وتعالى. عَلِمَهُ وَقَدَّرَهُ وَكَتَبَهُ، وَشَاءَهُ وَأَرَادَهُ، وَخَلَقَهُ.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَتَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ.

وَلاَ خَالِقَ مَعَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الشَّرْحُ

هَذَا نص الحَدِيثِ كَمَا قَالَ النَّبِيّ ﷺ لابنِ عَبَّاسٍ: «وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ».

(مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ): لَوْ حَرَصْتَ عَلَيْهِ وكُنْتَ تُرِيدُهُ؛ لَكِنْ أَخْطَأَكَ، فَاعْلَم أَنَّ اللهَ لَم يُقَدِّرْهُ لَكَ، (وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ) فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا مَا أَصَابَنِي.

قَوْلُهُ: (وَلاَ خَالِقَ مَعَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ) هَذَا تَابِعٌ لِمَرَاتِبِ القَضَاءِ وَالقَدَرِ، وفيه الرَّدُّ عَلَى مِنْ يَقُولُ إِنَّ العَبْدَ يَخْلُقُ فِعْلَ نَفْسِهِ؛ فَاللهُ هُوَ المُنْفَرِدُ بِالخَلْقِ - جَلَّ وَعَلا -، لا أَحَدَ يَخْلُقُ مَعَهُ، فَهُوَ مِنْ خَلْقِ اللهِ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف:٤]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣]، ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وَلِهَذَا وَصَفَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا - المُصَوِّرِينَ بِقَوْلِهِ: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي» بِمَعْنَى: أَنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ يُوجِدَ شَكْلَ مَا خَلَقَهُ اللهُ، «فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً» وفِي رِوَايَةٍ: «أَوْ لِيَخْلُقُوا ذَرَّةً» لا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ هَذَا، وَلَوِ اسْتَطَاعَ صِنَاعَةَ الصُّوَرِ لَمْ يَسْتَطِعْ إِيجَادَ الحَيَاةِ فِيهَا.

فَالحَيَاةُ هِيَ مِنْ خَلْقِ الله - جَلَّ وَعَلا -، لا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ، حَتَّى لَوْ صَوَّرَ الصُّورَةَ دَقِيقَةً وَالشَّكلَ؛ فلا يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَنْفُخَ فِيْهَا الرُّوحَ، وَيُوْجِدَ فِيْهَا الحَيَاةَ. هَذَا خَلْقُ الله ﷻ. وَلِهَذَا يُقَالُ لِلمُصَوِّرِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ: «**أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ**»[١] مِنْ بَابِ التَّعْجِيزِ، وَتَعْذِيبًا لَهُم.

❊❊❊

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٩٩)، ومسلم (٢١٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

[٦٣] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالتَّكْبِيرُ عَلَى الجَنَائِزِ أَرْبَعٌ، وَهُوَ قَولُ مَالِكِ بنِ أَنَسٍ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَالحَسَنِ بنِ صَالِحٍ، وَأَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ، وَالفُقَهَاءِ، وَهَكَذا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

الشَّرْح

هَذِهِ مَسْأَلَةٌ فَرْعِيَّةٌ، لَكِن ذَكَرَهَا هُنَا لِلْخِلافِ فِيْهَا، وَلِيُبَيِّنَ السُّنَّةَ فِي ذَلِكَ، لأَنَّ الكِتَابَ اسْمُهُ «شَرْحُ السُّنَّةِ»، وَالمَشْهُورَ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ والأَئِمَّةِ: أَنَّ التَّكْبِيْرَ عَلَى الجَنَازَةِ أَرْبَعُ تكبِيْراتٍ. كَمَا فِي الحَدِيثِ الصَّحِيح: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى عَلَى النَّجَاشِيِّ صَلاةَ الغَائِبِ وَكَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا**»[1]. وَغَالِبُ الأَحَادِيثِ عَلَى أَرْبَع، وفِي بَعْضِهَا زِيَادَةُ خَمْسٍ أَوْ أَكْثَر، لَكِنَّ الَّذِي أَجْمَعَ عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ: هُوَ الأَرْبَعُ، وَمَا زَادَ عَنْهَا فَمَحَلُّ خِلافٍ، وَالمُسْلِمُ لا يَذْهَبُ لِلخِلافِ وَيَتْرُكَ المُجْمَعَ عَلَيْهِ وَالمُتَّفَقَ عَلَيْهِ، وُيشَوِّشُ عَلَى النَّاسِ. خُصُوصًا أَئِمَّةُ المَسَاجِدِ لا يُشَوِّشُونَ عَلَى النَّاسِ لأَنَّ النَّاسَ مَا اعْتَادُوا الزِّيَادَةَ عَلَى أَربَعٍ، فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَفْعَلَهُ فَأَفْعَلْهُ لِنَفسِكَ وَلا تُشَوِّشْ عَلَى النَّاسِ وَتَأْتِي لَهُمْ بِالأَقْوَالِ الشَّاذَّةِ وَالرِّوَايَاتِ المُخْتَلِفَةِ، فَهَذَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِ طَلَبَةِ العِلْمِ، طَلَبَةُ العِلْمِ يُؤَلِّفُونَ بَيْنَ النَّاسِ وَلا يُشَوِّشُونَ عَلَيْهِم، وَيَعْمَلُونَ بِمَا أُجْمِعَ عَلَيْهِ، يَتَقَيَّدُونَ بِهَذَا، هَذَا هُوَ المَطْلُوبُ، وَهَذَا هُوَ غَرَضُ المُؤَلِّفِ مِنْ إِيْرَادِ الأَرْبَعِ؛ لأَنَّهَا هِيَ المُتَّفَقُ عَلَيْهَا فَلا يُزَادُ عَلَيْهَا وَيُشَوَّشُ عَلَى النَّاسِ فِي ذَلِكَ.

قَوْلُهُ: (**وَهُوَ قَولُ مَالِكِ بنِ أَنَسٍ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَالحَسَنِ بن صَالِحٍ، وَأَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ**).

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٨٨)، ومسلم (٩٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مَالِكُ بنُ أَنَسٍ: إِمَامُ دَارِ الهِجْرَةِ، وأَحَدُ الأَئِمَّةِ الأَرْبعَةِ.

وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: سُفْيَانُ بنُ سَعِيْدٍ الثَّوْرِيُّ الإِمَامُ المَشْهُورُ مِنْ أَئِمَّةِ الفِقْهِ.

وَالحَسَنُ بنُ صَالِحِ بنِ حَيٍّ: وَهَذَا مِنَ الأَئِمَّةِ الكِبَارِ.

وأَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ: وَهُوَ أَحَدُ الأَئِمَّةِ الأَرْبعَةِ.

قَوْلُهُ: (**والفُقَهَاءِ، وهَكَذا قَالَ رسُولُ الله ﷺ**) أَيْ: وَهُوَ قَوْلُ كَثِيْرٍ مِنَ الفُقَهَاءِ تبَعًا لِسُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ؛ فَلا يَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أَنْ يُشَوِّشَ عَلَى النَّاسِ بِحُجَّةِ أَنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّ هُنَاكَ قَوْلًا أَوْ حَدِيْثًا فِي الزِّيَادَةِ. كَانَ العُلَمَاءُ يَعْرِفُونَ الخِلافَ فِي المَسَائِلِ، وَلا يَأْتُونَ بِمَا يُشَوِّشُ عَلَى النَّاسِ، وَمَا يُخَالِفُ مَا جَرَى عَلَيْهِ العَمَلُ.

[٦٤] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِأَنَّ مَعَ كُلِّ قَطْرَةٍ مَلَكٌ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ حَتَّى يَضَعَهَا حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

الشَّرْحُ

لا شَكَّ أَنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلا - يُنْزِلُ المَطَرَ مِنَ السَّمَاءِ بِقَدَرٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون:١٨]، اللهُ - جَلَّ وَعَلا - قَدَّرَ نُزُولَ الأَمْطَارِ، وَقَدَّرَ مَقَادِيرَهَا وَكِمِّيَّاتِهَا، وَالأَرْضَ الَّتِي تَنْزِلُ عَلَيْهَا يُصَرِّفُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَيْفَ يَشَاءُ، فَيَسُوقُهُ وَيَأْمُرُهُ فَيُمْطِرُ وَيَأْمُرُهُ فَيُمْسِكُ، وَمَعَهُ مَلائِكَة، وَجَاءَ فِي وَصْفِ مِيكَائِيلَ بِأَنَّهُ مُوكلٌ بِالقَطْرِ وَالنَّبَاتِ؛ فَالمَلائِكَةُ يَقُومُونَ بِأَعْمَالٍ وَكَلَهَا اللهُ إِلَيْهِمْ، وَمِنْ ذَلِكَ: القَطْرُ.

[٦٥] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالإِيمانُ بِأَنَّ رسُولَ الله ﷺ حِينَ كَلَّمَ أَهْلَ القَلِيبِ يومَ بَدْرٍ أَيِ: المُشْرِكِينَ كَانُوا يَسْمَعُونَ كَلامَهُ.

الشَّرْح

الرَّسُولُ ﷺ لَهُ مُعْجِزَات، والمُعْجِزَةُ: هِيَ الأَمْرُ الخَارِقُ لِلْعَادَةِ، وَلَيْسَ لِلإِنْسَانِ فِيهَا عَمَلٌ؛ إِنَّما هِيَ مِنْ خَلْقِ الله - جَلَّ وَعَلا -، ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:٥٠]، يَقْتَرِحُونَ عَلَى الرَّسُولِ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَاتٍ مِنْ عِنْدِهِ تَدُلُّ عَلَى رِسَالَتِهِ كَما يَقُولُونَ، والآياتُ عِنْدَ الله، الرَّسُولُ مَا يَأْتِي بِآيَةٍ إِلاَّ مِنَ الله - جَلَّ وَعَلا - ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فَهُوَ الَّذِي يُظْهِرُ المُعْجِزَاتِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيُجْرِيهَا عَلَى أَيْدِي رُسُلِهِ لِتَصْدِيقِهِمْ، وَمِنْ ذَلِكَ: المَيِّتُ لَوْ تُكَلِّمُهُ لا يَسْمَعُكَ وَلا يَدْرِي مَاذَا تَقُولُ، لَكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ كلَّمَ قَتْلَى بَدْرٍ مِنْ قُرَيشٍ الَّذِيْنَ آذَوْهُ وآذَوا المُسْلِمِينَ فِي مَكَّةَ، وَتَكَبَّرُوا عَلَى الإِيمانِ وَعَصَوْا وتَجَبَّرُوا عَلَى الرَّسُولِ ﷺ وَأَخْرَجُوهُ، وَأَخْرَجُوا أَصْحَابَهُ وَآذَوْهُمْ، أَمْكَنَ اللهُ مِنْهُمْ فِي بَدْرٍ فَقُتِلُوا، وقُتِلَتْ صَنَادِيدُهُمْ وَأَكَابِرُهُمْ شَيْبَةُ بنُ رَبِيْعَةَ وَعُتْبَةُ بنُ رَبِيْعَةَ، وَأَبُو جَهْلِ بنُ هِشَامٍ، وَعَدَدٌ كَبِيْرٌ مِنْ أَكَابِرِ قُرَيْشٍ قُتِلُوا فِي بَدْرٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِمُ النَّبِيّ ﷺ فَأُلْقُوا فِي قَلِيبٍ مِنْ آبَارِ بَدْرٍ، ووَقَفَ عَلَيْهِمُ النَّبِيّ ﷺ وَخَاطَبَهُمْ: يَا فُلانُ ابنُ فُلانٍ، يَا أَبَا جَهْلِ بنَ هِشَامٍ، يَا عُتْبَةُ، يَا شَيْبَةُ، يا أُمَيَّةُ، خَاطَبَهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَ رَبِّي حَقًّا، قَالَ لَهُ عُمَرُ: يا رَسُولَ الله، كَيْفَ تُكَلِّمُهُمْ، وَقَدْ جَيَّفُوا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ؟ قَالَ: «**مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ لَكِنَّهُمْ لا يَنْطِقُونَ أَوْ لا يَتَكَلَّمُونَ**»[1] هَذِهِ مُعْجِزَةٌ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٤، ٣٧٦٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
وأخرجه مسلم (٢٨٧٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مِنْ مُعْجِزَاتِ الرَّسُولِ ﷺ أَجْرَاهَا اللهُ عَلَى يَدِهِ.

[٦٦] قَالَ المُؤَلِّفُ ﷺ: والإِيْمانُ بِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا مَرِضَ آجَرَهُ اللهُ عَلَى مَرَضِهِ.

[٦٧] وَالشَّهِيدُ يَأْجُرُهُ اللهُ عَلَى شَهَادَتِهِ.

الشَّرْحُ

اللهُ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُؤْمِنِيْنَ، ويُجْرِي المَصَائِبَ عَلَى المُؤْمِنِيْنَ لِلتَّمْحِيصِ، أَوْ لِمُضَاعَفَةِ الأَجْرِ؛ فَقَدْ يُجْرِيهَا عَلَى المُؤْمِنِ تَكْفِيرًا لِخَطَايَاهُ، وَتَمْحِيصًا لَهُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَقَدْ لا يَكُونُ لَهُ خَطَايَا وَيُجْرِيهَا عَلَيْهِ لِرِفْعَةِ دَرَجَاتِهِ؛ لأَنَّ اللهَ كَتَبَ لَهُ دَرَجَةً فِي الجَنَّةِ لا يَصِلُ إِلَيْهَا بِعَمَلِهِ، فَيَبْتَلِيهِ اللهُ بِالمَصَائِبِ حَتَّى يُضَاعِفَ لَهُ الأَجْرَ فَيَبْلُغَ هَذِهِ المَنْزِلَةَ. فَالمُؤْمِنُ عَلَى خَيْرٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «**عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ فَشَكَرَ كَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ وَصَبَرَ كَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ**»[1] فَالمُؤْمِنِ تُصِيبُهُ المَصَائِبُ، وَهِيَ مِنْ صَالِحِهِ، إِمَّا أَنَّ اللهَ يُكَفِّرُ بِهَا خَطَايَاهُ، وَإِمَّا أَنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَا دَرَجَاتِهِ.

والشَّهِيْدُ: هُوَ الَّذِي قُتِلَ فِي المَعْرَكَةِ فِي قِتَالِ الكُفَّارِ، يُقَاتِلُ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا. وَهَذَا يَغْفِرُ اللهُ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ إِلاَّ الدَّيْنَ؛ لأَنَّ الدَّيْنَ حَقٌّ لِلآدَمِيِّ، وَحَقُّ الآدَمِيِّ لا يَسْقُطُ إِلاَّ بِأَدَائِهِ لَهُ أَوْ سَمَاحِهِ عَنْهُ، أَمَّا الذُّنُوبُ الَّتِي بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ فَإِنَّ اللهَ يَغْفِرُهَا جَمِيعًا بِالشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ.

وهُنَاكَ شُهَدَاءُ لَكِنْ لَيْسُوا شُهَدَاءَ مُعْرَكَةٍ، كَالمَيِّتِ بِالطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيْدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ أَوْ عِرْضِهِ أَوْ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيْدٌ، وَالمَيِّتُ الَّذِي يُصَابُ بِحَادِثٍ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومي.

مُفَاجِيءٍ كَالحَرْقِ وَالغَرِيقِ شَهِيدٌ عِنْدَ اللهِ ﷻ، يَعْنِي لَهُ أَجْرُ الشَّهِيدِ، وَلَيْسَ هُوَ مِثْلَ شَهِيدِ المَعْرَكَةِ فِي الأَحْكَامِ، بَلْ يُغَسَّلُ وَيُكَفَّنُ وَيُصَلَّى عَلَيْهِ، أَمَّا شَهِيدُ المَعْرَكَةِ فَإِنَّهُ لا يُغَسَّلُ، وَلا يُكَفَّنُ بِغَيْرِ ثِيَابِهِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا، وَلا يُصَلَّى عَلَيْهِ، وَيُدْفَنُ بِدِمَائِهِ.

[٦٨] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِأَنَّ الأَطْفَالَ إِذَا أَصَابَهُمْ شَيْءٌ فِي دَارِ الدُّنْيَا يَأْلَمُونَ، وَذَلِكَ أَنَّ بَكْرَ ابنَ أُخْتِ عَبْدِ الوَاحِدِ قَالَ: لاَ يَأْلَمُونَ وَكَذَبَ.

الشَّرْحُ

هَذِهِ مَسْأَلَة ذَكَرَهَا بِسَبَبِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الأَطْفَالَ لا يَأْلَمُونَ، وَهَذِهِ ذَكَرَهَا لِيَرُدَّ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ، وَهَذَا الرَّجُلُ يُقَالُ: إِنَّهُ مِنَ الخَوَارِجِ أَيْضًا وَالخَوَارِجُ عِنْدَهُم أَعْجَبُ مِنْ هَذِهِ الأَقْوَالِ التَّافِهَةِ، بِسَبَبِ جَهْلِهِمْ، وَبِسَبَبِ تَعَالُمِهِمْ.

وَلِذَلِكَ فَالطِّفْلُ إِذَا أَصَابَهُ شَيْءٌ يَصِيحُ وَيَبْكِي وَيَسْتَنْجِدُ، وَهَذَا دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّهُ يَتَأَلَّمُ، هَذَا شَيْءٌ مُشَاهَدٌ وَمَحْسُوسٌ لَكِنَّ هَذَا الرَّجُلَ عِنْدَهُ أَفْكَارٌ شَاذَّةٌ، وَمِنْهَا هَذِهِ المَسْأَلَةُ.

[٦٩] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ الجَنَّةَ إِلاَّ بِرَحْمَةِ الله، وَلاَ يُعَذِّبُ اللهُ أَحَدًا إِلاَّ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِ، وَلَوْ عَذَّبَ أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَرَّهُمْ وَفَاجِرَهُمْ؛ عَذَّبَهُمْ غَيْرَ ظَالِمٍ لَهُمْ، لاَ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّهُ ظَالِمٌ، إِنَّمَا يَظْلِمُ مَنْ يَأْخُذُ مَا لَيْسَ لَهُ، وَاللهُ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ، وَالخَلْق خَلْقُهُ، والدَّارُ دَارُهُ، لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، وَلاَ يُقَالُ: لِمَ وَكَيْفَ؟ وَلاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (وَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ الجَنَّةَ إِلاَّ بِرَحْمَةِ الله) الجَنَّةُ غَالِيَةٌ وَرَفِيعَةٌ وَلا تُدْرَكُ بِالعَمَلِ، مَهْمَا عَمِلَ الإِنْسَانُ وَلَوعَمِلَ كُلَّ الطَّاعَاتِ، فَإِنَّ عَمَلَهُ لا يُقَابِلُ النِّعَمَ الَّتِي عَلَيْهِ، فَلَوْ حُوسِبَ عَلَى النِّعَمِ لَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ عَمَلٌ. هَذِهِ نَاحِيَةٌ.

النَّاحِيَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الجَنَّةَ غَالِيَةٌ، وَلَيْس لَهَا قِيمَةٌ مُقَدَّرَةٌ مِنَ الأَعْمَالِ أَوِ المَالِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، لا يَعْلَمُ عِظَمَهَا إِلاَّ اللهُ تَعَالَى، لَكِنَّ اللهَ يُدْخِلُ المُؤْمِنِينَ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ، بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمْ. فَالأَعْمَالُ إِنَّمَا هِيَ سَبَبٌ لِدُخُولِ الجَنَّةِ، وَلَيْسَتْ هِيَ المُوجِبَةَ لِدُخُولِ الجَنَّةِ، وَلا ثَمَنًا لِلجَنَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**» هَذَا مِنْ أَجْلِ أَلَّا يُعْجَبَ الإِنْسَانُ بِعَمَلِهِ، لا لأَجْلِ أَنْ يَتْرُكَ العَمَلَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [النحل:٣٢] البَاءُ لَيْسَتْ بَاءَ العِوَضِ وَالثَّمَنِ، وَإِنَّمَا هِيَ بَاءُ السَّبَبِيَّةِ، أي: بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، بِدَلِيلِ هَذَا الحَدِيثِ: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**» قَالُوا: ولا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**وَلا أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ**»[1] فَلا يُعْجَبُ الإِنْسَانُ بِعَمَلِهِ، وَلَكِنْ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلاَّ بِسَبَبِ العَمَلِ، فَلَوْ لَمْ يَعْمَلْ مَا دَخَلَ الجَنَّةَ؛ لأَنَّهُ مَا أَتَى بِالسَّبَبِ.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٣٤٩)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قَوْلُهُ: (وَلاَ يُعَذِّبُ اللهُ أَحَدًا إِلاَّ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِ) الجَنَّةُ فَضْلٌ مِنَ اللهِ - جَلَّ وَعَلا -، وَبِرَحْمَةِ اللهِ، وَالأَعْمَالُ سَبَبٌ لِدُخُولِهَا. وَأَهْلُ النَّارِ لا يُعَذَّبُونَ إِلاَّ بِذُنُوبِهِمْ، لا يُعَذَّبُونَ بِذُنُوبِ غَيْرِهِمْ، ولا يُعَذَّبُونَ بدُونِ ذُنُوبٍ، وَهَذَا مِنْ بَابِ العَدْلِ، فَالجَنَّةُ مِنْ بَابِ الفَضْلِ، وَالنَّارُ مِنْ بَابِ العَدْلِ.

قَوْلُهُ: (وَلَوْ عَذَّبَ أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَرَّهُمْ وَفَاجِرَهُمْ؛ عَذَّبهُمْ غَيْرَ ظَالِمٍ لَهُمْ) هَذَا كَمَا سَبَقَ، أَنَّ الإِنْسَانَ مَهْمَا عَمِلَ فَإِنَّ عَمَلَهُ لا يُقَابِلُ بَعْضَ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ؛ فَلَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَهُ كَانَ ذَلِكَ عَدْلًا؛ لِتَقْصِيْرِهِ فِي شُكْرِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ، وَهَذَا الكَلامُ الَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ نَصُّ حَدِيْثٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ».

لأَنَّ الفَاجِرَ عَذَّبَهُ بِفُجُورِه، وَالبَرَّ عَذَّبَهُ؛ لأَنَّ عَمَلَهُ لا يُؤَهِّلُهُ لِدُخُولِ الجَنَّةِ؛ لأَنَّهُ لا يُقَابِلُ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِ.

قَوْلُهُ: (لاَ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ للهِ ﷻ: إِنَّهُ ظَالِمٌ) اللهُ - جَلَّ وَعَلا - نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ الظُّلْمِ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:١٧]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:١١٨]، «يَاعِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا» فَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - حَكَمٌ عَدْلٌ، لا يَلِيقُ بِهِ الظُّلْمُ.

قَوْلُهُ: (وإِنَّمَا يَظْلِمُ مِنْ يَأْخُذُ مَا لَيْسَ لَهُ، وَاللهُ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ) الظُّلْمُ: هُوَ أَخْذُ حَقِّ النَّاسِ، وَهَلِ النَّاس لَهُمْ حَقٌّ عَلَى اللهِ؟ لَيْسَ لَهُمْ حَقٌّ عَلَى اللهِ، وَلا أَحَدَ يُوجِبُ عَلَى اللهِ شَيْئًا، وَإِنَّمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ ألاَّ يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، هَذَا حَقٌّ تَفَضَّلَ بِهِ سُبْحَانَهُ.

والظُّلْمُ: هُوَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. فَاللهُ لا يَضَعُ العَذَابَ فِيمَنْ يَسْتَحِقُّ النَّعِيْمَ، وَلا يَضَعُ النَّعِيْمَ فِيمَنْ يَسْتَحِقُّ العَذَابَ، بَلْ يَضَعُ النَّعِيْمَ فِيمَنْ يَسْتَحِقُّهُ، وَيَضَعُ العَذَابَ فِيمَنْ يَسْتَحِقُّهُ. هَذَا هُوَ العَدْلُ، أَمَّا العَكْسُ فَهُوَ الظُّلْمُ، لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ الإِيْمَانِ، وَأَكْرَمَ أَهْلَ الكُفْرِ؛ يَكُونُ هَذَا هُوَ الظُّلْمَ، وَاللهُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ، لا يُمْكِنُ أَنْ يُعَذِّبَ أَهْلَ الإِيْمَانِ، وَأَنْ يُكْرِمَ أَهْلَ الكُفْرِ، وأَنْ يُدْخِلَ الكُفَّارَ الجَنَّةَ، وَأَنْ يُدْخِلَ المُؤْمِنِيْنَ النَّارَ. هَذَا لا يَلِيقُ بِاللهِ ﷻ.

قَوْلُهُ: (**وَاللهُ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ، وَالخَلْقُ خَلْقُهُ، والدَّارُ دَارُهُ**) قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف:٥٤]، ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ**﴾ وَهُوَ إِيْجَادُ الأَشْيَاءِ مِنْ عَدَمٍ؛ فَكُلُّ المَخْلُوقَاتِ خَلَقَهَا اللهُ - جَلَّ وَعَلا -، لا أَحَدَ يَخْلُقُ مَعَ اللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الزمر:٦٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ [الرعد:١٦]، ﴿**أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ**﴾ بِحَيْثُ إِنَّ خَلْقَ العَبْدِ يَشْتَبِهُ بِخَلْقِ اللهِ، هَذَا لا يُمْكِنُ، وَهُوَ مُسْتَحِيلٌ ﴿**قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾، ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ**﴾ [الأحقاف:٤].

(وَالأَمْرُ) لَهُ سُبْحَانَهُ، وَالأَمْرُ: هُوَ التَّشْرِيعُ وَالوَحْيُ المُنَزَّلُ؛ فَالخَالِقُ هُوَ الَّذِي يَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيَشْرَعُ لِعِبَادِهِ مَا يُصْلِحُهُمْ، وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ وَلَيْسَ لأَحَدٍ أَنْ يَأْمُرَ أَوْ يَنْهَى أَوْ يُوْجِبَ عِبَادَةً أَوْ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ مِنْ غَيْرِ دَلِيْلٍ، ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ**﴾ [الشورى:٢١]، فالأَمْرُ للهِ ﷻ، الأَمْرُ الكَوْنِيُّ القَدَرِيُّ، والأَمْرُ الشَّرْعِيُّ، يَأْمُرُ وَيَنْهَى ﷻ ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾ [الأعراف:٥٤] وَفَرَّقَ بَيْنَ الخَلْقِ وَالأَمْرِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الأَمْرَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى الجَهْمِيَّةِ الَّذِيْنَ يَقُولُونَ: إِنَّ القُرْآنَ مَخْلُوق، وَإِنَّ كَلامَ اللهِ مَخْلُوقٌ. اللهُ فَرَّقَ بَيْنَ الخَلْقِ وَالأَمْرِ، الأَمْرُ هُوَ مِنَ الكَلامِ، والتَّشْرِيعِ، وَاللهُ فَرَّقَ

بَيْنَ الخَلْقِ وَالأَمْرِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ كَلامَ الله غَيْرُ مَخْلُوقٍ.

(والدَّارُ دَارُهُ) - جَلَّ وَعَلا -، وَالدُّورُ ثَلاثٌ:

- دَارُ الدُّنْيَا.
- ودَارُ البَرْزَخِ.
- ودَارُ القَرَارِ. وَهِيَ الآخِرَةُ.

كُلُّهَا لله ﷻ.

قَوْلُهُ: (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونْ) لا يُسْأَلَ عَمَّا يَفْعَلُ ﷻ؛ لأن أَفْعَالَهُ لَيْسَ فِيهَا نَقْصٌ، وَلَيْسَ فِيهَا خَلَلٌ، فَهِيَ مُتْقَنَةٌ وَمُحْكَمَةٌ، وَلا يَتطَرَّقُ إِلَيْهَا نَقْصٌ أَوْ خَلَلٌ أَبَدًا، وَالسُّؤَال إِنَّمَا يَكُونُ لِمَنْ عِنْدَهُ نَقْصٌ أَوْ خَلَلٌ فِي عَمَلِهِ، فَاللهُ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ؛ لأَنَّ أَفْعَالَهُ عَلَى التَّمَامِ وَالكَمَالِ، لا لِمُجَرَّدِ قَهْرِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ، كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ، هُوَ لا يُسْأَلُ لِعَظَمَتِهِ ﷻ وَجَلالِهِ، لَكِن لَيْسَ هَذَا وَحْدَهُ، بَلْ لا يُسْأَلُ أَيْضًا؛ لأَنَّ أَعْمَالَهُ مُتْقَنَةٌ لا يَتطَرَّقُ إِلَيْهَا نَقْصٌ أَوْ خَلَلٌ بِالكُلِّيَّةِ؛ بِخِلافِ المَخْلُوقِ فَإِنَّهُ يُسْأَلُ عَنْ فِعْلِهِ؛ لأَنَّهُ يُخْطِئُ وَيَنْقُصُ عَمَلُهُ، وَيَكُونُ عَلَيْهِ مُلاحَظَاتٌ، فَهُوَ يُسْأَلُ لأَنَّهُ نَاقِصٌ مِنْ كُلِّ الوُجُوهِ، إِلاَّ مَنْ كَمَّلَهُ اللهُ وَأَعَانَهُ وَسَدَّدَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ هَذَا مِنَ الفَرْقِ بَيْنَ الخَالِقِ وَالمَخْلُوقِ: أَنَّ اللهَ لا يُسْأَلُ والمَخْلُوقُ يُسْأَلُ.

قَوْلُهُ: (وَلاَ يُقَالُ: لِمَ وَكَيْفَ؟ وَلاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ بَيْنَ الله وَبَيْنَ خَلْقِهِ) وَلا يُعْتَرَضُ عَلَى الله، فَيُقَالُ: لِمَاذَا خَلَقَ اللهُ كَذَا؟ ومَا كَيْفِيَّةُ خَلْقِ الله لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ؟ هَذَا لا يَجُوزُ فِي حَقِّ الله ﷻ، بَلْ عَلَيْنَا التَّسْلِيمُ والانْقِيَادُ، وَاعْتِقَادُ أَنَّ أَفْعَالَ الله كَامِلةٌ لا يَتطَرَّقُ إِلَيْهَا نَقْصٌ وَلا خَلَلٌ، وَإِنْ خَفِيتْ عَلَيْنَا بَعْضُ الحِكَمِ أَوْ بَعْضُ العِلَلِ فَلا نَسْأَلُ عَنْهَا، بَلْ نُسَلِّمُ إِنْ أَدْرَكْنَا الحِكْمَةَ وَالعِلَّةَ فَبِهَا وَنِعْمَتْ، وَإِنْ لَمْ

نُدْرِكْهَا فَإِنَّنَا نُسَلِّمُ، وَلا نَعْتَرِضُ عَلَى اللهِ أَوْ نَتَوَقَّفُ عَنِ العَمَلِ حَتَّى نعْرِفَ الحِكْمَةَ أَوِ العِلَّةَ.

[٧٠] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وإِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَطْعَنُ عَلَى الآثَارِ وَلاَ يَقْبَلُهَا، أَوْ يُنْكِرُ شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ رَسُولِ الله ﷺ فاتَّهِمْهُ عَلَى الإِسْلاَم، فإِنَّهُ رَجُلٌ رَدِيءُ المذْهَبِ وَالقَوْلِ، وَلاَ يُطْعَنَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ ولاَ عَلَى أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم؛ لأَنَّا إِنَّما عَرَفْنَا رَسُولَهُ وَعَرَفْنَا القُرْآنَ وَعَرَفْنَا الخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَالدُّنْيَا وَالآَخِرةَ بِالآثَارِ.

[٧١] فَإِنَّ القُرْآنَ إِلى السُّنَّةِ أَحْوَجُ مِنَ السُّنَّة إِلَى القُرْآنِ.

الشَّرْحُ

قَوْلُه: (وإِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَطْعَنُ عَلَى الآثَارِ وَلاَ يَقْبَلُهَا، أَوْ يُنْكِرُ شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ رَسُولِ الله ﷺ فاتَّهِمْهُ عَلَى الإِسْلاَم) لأَنَّ مِنْ مَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله: طَاعَتَهُ فِيما أَمَرَ، وَتَصْدِيقَهُ فِيما أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابَ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، وَأَلَّا يُعْبَدَ اللهُ إِلاَّ بِما شَرَعَ. هَذَا مَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩] فَالوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَمْتَثِلَ مَا جَاءَ فِي الأَحَادِيثِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، لأَنَّهَا الوَحْيُ الثَّانِي بَعْدَ القُرْآنِ. لأَنَّ أُصُولَ الأَدِلَّةِ فِي الإِسْلامِ الْمُجْمَعَ عَلَيْهَا:

أَوَّلًا: القُرْآنُ.

ثَانِيًا: السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ.

ثَالِثًا: الإِجْمَاعُ.

هَذِهِ أَدِلَّةٌ لاَ يَجُوزُ للإِنْسَانِ أَنْ يَقُولَ: أَنَا لا أَسْتَدِلُّ إِلاَّ بِالقُرْآنِ فَقَطْ، وَلا أَسْتَدِلُّ بِالسُّنَّةِ، كَما تَقُولُهُ الخَوَارِجُ، وَمَنْ نَحَا نَحْوَهُمْ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ القُرْآنَ

مُتواتِرٌ، وَمَعْصُومٌ مِنَ الخَلَلِ، وَأَمَّا السُّنَّةُ فَهِيَ مِنْ رِوَايَةِ الرُّوَاةِ يَتطَرَّقُ إِلَيْهَا الخَلَلُ. هَذَا اتِّهَامٌ لِلأُمَّةِ وَعُلَمَائِهَا وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنَ الَّذِيْنَ نَقلُوا الأَخْبَارَ بِعَدَمِ الثِّقَةِ وَعَدَمِ الأَمَانَةِ. وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيّ ﷺ عَنْ هَؤُلاءِ بِقَوْلِهِ: «**يُوْشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ ﷻ فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ**»، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «**أَلا وَإِنِّي أُوتِيتُ القُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ**»، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**نَضرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَبَلَّغَهَا كَمَا سَمِعَهَا، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**»[١].

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ لَمَّا خَطَبَ فِي عَرَفَةَ: «**لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الغَائِبَ**»[٢] فَالَّذِي سَمِعَ يُبَلِّغُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ هَذِهِ أَمَانَةٌ قَامَ بِهَا رُوَاةُ الحَدِيثِ وَرِجَالُ الحَدِيثِ جَزَاهُمُ اللهُ خَيْرًا، وَصَانُوا السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ عَنِ الدَّخِيلِ وَالكَذِبِ، وَبَلَّغُوهَا نَقِيَّةً صَافِيَةً كَمَا وَرَدَتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَمَانَةٍ وَهَذَا مِنْ مُعْجِزَاتِ هَذَا الرَّسُولِ ﷺ. فَالسُّنَّةُ لَيْسَتْ مَحَلَّ تَوَقُّفٍ أَوِ اتِّهَامٍ بَلْ يَجِبُ التَّصْدِيْقُ بِهَا، وَيَجِبُ العَمَلُ بِهَا، كَمَا يَجِبُ العَمَلُ بِالقُرْآنِ؛ لأَنَّهَا وَحْيٌ مِنَ اللهِ، قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ الرَّسُولِ ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤]، فالأَحَادِيثُ وَحْيٌ مِنَ اللهِ، وَإِنْ كَانَتْ أَلْفَاظُهَا مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، أَمَّا القُرْآنُ فَلَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ مِنَ اللهِ - جَلَّ وَعَلا -، أَمَّا السُّنَّةُ وَالأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ فَمَعْنَاهَا مِنَ اللهِ وَأَلْفَاظُهَا مِنْ كَلَامِ الرَّسُولِ ﷺ الَّذِي لا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى، فَأَلْفَاظُهُ ﷺ مَعْصُومَةٌ وَصِدْقٌ، وَلا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا شَكٌّ، فَمَنْ أَنْكَرَ السُّنَّةَ فَإِنَّهُ كَافِرٌ؛ لأَنَّهُ عَطَّلَ الأَصْلَ الثَّانِي. وَالقُرْآنُ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ السُّنَّةِ لأَنَّهَا تُبَيِّنُهُ وَتُوَضِّحُهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٢٣٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني في «المشكاة» (٣٣).

(٢) صحيح: سبق تخريجه.

لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤] فَالسُّنَّةُ مُوَضِّحَةٌ لِلْقُرْآنِ وَمُفَسِّرَةٌ لِلْقُرْآنِ؛ لأَنَّ القُرْآنَ جَاءَ بِأَشْيَاءَ مُجْمَلَةٍ مِثْلُ: الصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَالصِّيَامِ، والسُّنَّةُ بَيَّنَتْهَا وَوَضَّحَتْهَا، وَبَيَّنَتِ الزَّكَاةَ وَمَقَادِيرَهَا، وَالصِّيَامَ مَتَى يَبْدَأُ وَمَتَى يَنْتَهِي، وَمَنَاسِكَ الحَجِّ كَيْفَ يَحُجُّ الإِنْسَانُ، قَالَ ﷺ: «لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»[1]، وَقَالَ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[2]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١] فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ القُرْآنَ وتُوَضِّحُهُ وَتَدُلُّ عَلَيْهِ، وَالَّذِي يَقُولُ: أَعْمَلُ بِالقُرْآنِ وَلا أَعْمَلُ بِالسُّنَّةِ كَذَّابٌ، لَمْ يَعْمَلْ بِالقُرْآنِ لأَنَّ القُرْآنَ فِيهِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وَفِيهِ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤]، وَفِيهِ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤]، فلَمَّا تَرَكَ العَمَلَ بِالسُّنَّةِ لَمْ يَعْمَلْ بِالقُرْآنِ الَّذِي يَدَّعِي أَنَّهُ يَعْمَلُ بِهِ.

وَمنَ النَّاسِ مَنْ يُفَرِّقُ بَيْنَ الأَحَادِيثِ فَيَقُولُ: الحَدِيثُ المُتَواتِرُ يُفِيدُ العِلْمَ، وَالحَدِيثُ الآحَادُ يُفِيدُ الظَّنَّ. وَهَذَا بَاطِلٌ؛ لأَنَّ كُلَّ مَا صَحَّ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ وَثَبتَ فَإِنَّهُ يُفِيدُ العِلْمَ، سَوَاءٌ كَانَ مُتَوَاتِرًا أَوْ آحَادًا، فَلا تَفْرِيقَ بَيْنَ دَلالاتِ الحَدِيثِ الصَّحِيحِ، الكُلُّ يَجِبُ امْتِثَالُهُ وَالعَمَلُ بِهِ بِدُونِ تَفْرِيقٍ.

وَالصُّوفِيَّةُ أَيْضًا لا يَعْمَلُونَ بالسُّنَّةِ، ولا بِالقُرْآنِ، وإِنَّمَا يَعْمَلُونَ بِأَذْوَاقِهِمْ وَمَوَاجِيدِهِمْ، وَيقُولُونَ: نَحْنُ نَأْخُذُ عَنِ الله مُبَاشَرَةً، وَلا نَأْخُذُ عَنْ طَرِيْقِ الرَّسُولِ لأَنَنا وَصَلْنَا إِلَى الله فَلَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ.

وَإِنَّمَا الرَّسُولُ لِلعَوَامِّ الَّذِيْنَ مَا وَصَلُوا إِلَى الله. وَهَذَا مِنْ أَبْطَلِ البَاطِلِ وَأَفْضَحِ الكُفْرِ - وَالعِيَاذُ بِالله -.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٩٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٥).

قَوْلُهُ: (**أَوْ يُنْكِرُ شَيْئًا**) الَّذِي يُنْكِرُ السُّنَّةَ عُمومًا، ويَقُولُ: إِنَّهُ لا يَعْمَلُ بالسُّنَّةِ، وَإِنَّمَا يَعْمَلُ بِالقرْآنِ، أَوْ يُنْكِرُ بَعْضَ السُّنَّةِ وَهِيَ الأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ، ويَقُولُ: لا يُعْمَلُ بِهَا، وبَعْضُهُمْ يَقُولُ: لا يُعْمَلُ بَالحَدِيثِ إلاَّ بِشَرْطٍ: أَنْ يُوَافِقَ القُرْآنَ. وهَذَا بَاطِلٌ، واتِّهَامٌ لِلرَّسُولِ ﷺ بِأَنَّهُ قَدْ يَأْتِي بِشَيْءٍ يُخَالِفُ القُرْآنَ، **فَهَذَا القَوْلُ لا يَجُوزُ**. وَقَدْ يَأْمُرُ الرَّسُولُ ﷺ بِأَشْيَاءَ لَيْسَتْ فِي القُرْآنِ مِثْلُ: تَحْرِيمِ الجَمْعِ بَيْنَ المَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا وَالمرأَةِ وَخَالَتِهَا، هَذَا لَيْسَ فِي القُرْآنِ، القُرْآنُ فِيهِ النَّهْيُ عَنِ الجَمْعِ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ، وَالرَّسُولُ ﷺ قَالَ: «**لايُجْمَعُ بَيْنَ المَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا، وَلا بَيْنَ المَرْأَةِ وَخَالَتِهَا**» فَيَجِبُ العَمَلُ بِمَا قَالَهُ الرَّسُولُ ﷺ.

قَوْلُهُ: (**فَاتَّهِمْهُ عَلَى الإِسْلامِ؛ فَإِنَّهُ رَجُلٌ رَدِيءُ المَذْهَبِ وَالقَوْلِ**) قَائِلُ هَذَا إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الخَوَارِجِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الجَهْمِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ الَّذِيْنَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُم لَيْسُوا بِحَاجَةٍ إِلَى الأَحَادِيثِ، لأَنَّهُم وَصَلُوا إِلَى الله، ويَأْخُذُونَ عَنِ الله مُبَاشَرَةً، وَيَقُولُونَ: أَنْتُمْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ مِنْ مَيِّتٍ عَنْ مَيِّتٍ، ونَحْنُ نَأْخُذُ عَنِ الحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ.

قَوْلُهُ: (**وَلاَ يُطْعَنُ عَلَى رُسُولِ الله ﷺ وَلاَ عَلَى أَصْحَابِهِ ﷺ**) لا يُطْعَنُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ؛ لأَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنَ الله جَلَّ وَعَلا، فَالَّذِي يَتَّهِمُ الرَّسُولَ أَوْ يَطْعَنُ فِيهِ، وَأَنَّهُ عِنْدَهُ هَوًى، وَأَنَّهُ يَظْلِمُ وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَهَذَا كَافِرٌ بِاللهِ ﷻ.

كذَلِكَ الَّذِي يَطْعَنُ فِي الصَّحَابَةِ ﷺ، صَحَابَةِ الرَّسُولِ ﷺ لأَنَّ اللهَ رَضِيَ عَنْهُمْ وَمَدَحَهُمْ، والنَّبِيّ ﷺ رَضِيَ عَنْهُمْ وَمَدَحَهُمْ وَأَثْنَى عَلَيْهِم وَهُمْ خَيْرُ القُرُونِ، قَالَ ﷺ: «**خَيْرُكُم قَرْنِي...**»[1]، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ**

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

ولا نصيفه»(١)، قَالَ تعالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨] تَحْتَ الشَّجَرَةِ شَجَرَةِ البَيْعَةِ فِي الحُدَيْبِيَةِ ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨]، وَقَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ يَعْنِي الصَّحَابَةَ ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ يَعْنِي صِفَتَهُمُ المَذْكُورَةَ بِالتَّوْرَاةِ ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ أَيْ: صِفَتُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى عِيسَى ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩]، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الَّذِي يَغْتَاظُ مِنَ الصَّحَابَةِ أَوْ يُبْغِضُهُمْ، كَافِرٌ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾.

قَوْلُهُ: **(لأَنَّا إِنَّمَا عَرَفْنَا اللهَ، وَعَرَفْنَا رَسُولَهُ، وَعَرَفْنَا القُرْآنَ، وَعَرَفْنَا الخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَالدُّنْيَا وَالآخِرَةَ؛ بِالآثَارِ)** أَيْ: بِالآثَارِ الَّتِي رَوَوْهَا، وَهِيَ الأَحَادِيثُ الَّتِي رَوَوْهَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَالَّذِي يَطْعَنُ فِيهِم؛ يَطْعَنُ فِي الشَّرِيْعَةِ، لأَنَّهَا مِنْ رِوَايَةِ رُوَاةٍ كَذَبَةٍ وَغَيْرِ مَوْثُوقِيْنَ. وَهَذَا قَصْدُ اليَهُودِ وَالمَجُوسِ يَدُسُّونَ عَلَى المُسْلِمِينَ، جَمَاعَةً يَسُبُّونَ الصَّحَابَةَ، وقَصْدُهُم أَنْ يُبْطِلُوا الشَّرِيْعَةَ؛ لأَنَّهُم إِذَا أَبْطَلوا حَمَلَتَهَا وَرُوَاتَهَا وطَعَنُوا فِي أَفْضَلِ الأُمَّةِ كَانَ طَعْنُهُم فِي غَيْرِ الصَّحَابَةِ مِنْ بَابِ أَوْلَى.

قَوْلُهُ: **(فَإِنَّ القُرْآنَ إِلَى السُّنَّةِ أَحْوَجُ مِنَ السُّنَّة إِلَى القُرْآنِ)** القُرْآن أَحْوَجُ إِلَى

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

السُّنَّةِ كَمَا ذَكَرْنَا لأَنَّ السُّنَّةَ مُبَيِّنَةٌ وَمُفَسِّرَةٌ لِلْقُرْآنِ، فَهُنَاكَ أَشْيَاءُ مُجْمَلَةٌ فِي القُرْآنِ بَيَّنَتْهَا السُّنَّةُ، فاللهُ أَمَرَ بِالصَّلاةِ لَكِنَّهُ لَمْ يُبَيِّنْ عَدَدَ رَكَعَاتِهَا، وَلَمْ يُبَيِّنْ صِفَةَ الصَّلاةِ، وَهَذَا بينهُ الرَّسُولُ ﷺ وقَالَ: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»، الحَجُّ جَاءَ مُجْمَلًا فِي القُرْآنِ، وَوُكِّلَ بَيَانُهُ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، حَجَّ بِالْمُسْلِمِينَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ وَقَالَ: «**لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**» أي: تَعَلَّمُوا مِنْ أَفْعَالِي وَأَقْوَالِي مَا تُؤَدُّونَ بِهِ مَنَاسِكَكُمْ، واللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا**﴾ [الأحزاب:٢١]؛ فَالقُرْآنُ مُحْتَاجٌ إِلَى السُّنَّةِ لِتُبَيِّنَهُ، فَالَّذِي يَأْخُذُ القُرْآنَ فَقَطْ؛ يَكُونُ قَدْ قَطَعَ القُرْآنَ عَمَّا يُبَيِّنُهُ وَمَا يُوَضِّحُهُ، وَهَذَا هَدَفُ أَهْلِ الضَّلالِ وَالَّذِيْنَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ؛ لأَنَّ أَهْلَ الزَّيْغِ يَأْخُذونَ بِطَرَفٍ مِنَ الأَدِلَّة وَيَتْرُكُونَ الطَّرَفَ الآخَرَ الَّذِي يُفَسِّرُهُ وَيُوَضِّحُهُ. وَيَأْخُذونَ بِطَرَفٍ مِنَ الأَدِلَّة مُتَشَابِهٍ وَيَتْرُكُونَ الطَّرَفَ الْمُحْكَمَ الَّذِي يُبَيِّنُهُ وَيُوَضِّحُهُ، هَذِهِ طَرِيقَةُ أَهْلِ الزَّيْغِ، وَطَرِيقَةُ الْمُتَعَالِمِيْنَ وَالجُهَّالِ الَّذِيْنَ يَدَّعُونَ العِلْمَ وَلا يَعْرِفُونَ طَرِيقَةَ الاسْتِدْلالِ وَقَوَاعِدَ الاسْتِدْلالِ، فَيُحَرِّمُونَ، وَيُحَلِّلُونَ دُونَ بَصِيْرَةٍ وَالعِيَاذُ بِاللهِ؛ لأَنَّهُم مَا سَلَكُوا الْمَنْهَجَ العِلْمِيَّ، وَإِنَّمَا تَعَلَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِم أَوْ عَلَى كُتُبِهِمْ، أَوْ عَلَى مِنْ هُوَ مِثْلُهُمْ فِي الجَهْلِ.

[٧٢] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالكَلامُ وَالجِدَالُ وَالخُصُومَةُ فِي القَدَرِ خَاصَّةً مَنْهِيٌّ عَنْهُ عِنْدَ جَمِيعِ الفِرَقِ؛ لِأَنَّ القَدَرَ سِرُّ الله، وَنَهَى الرَّبُّ جَلَّ تَعَالَى الأَنْبِيَاءَ عَنِ الكَلامِ فِي القَدَرِ، وَنَهَى النَّبِيّ ﷺ عَنِ الخُصُومَةِ فِي القَدَرِ، وَكَرِهَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ و رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم وَكَرِهَهُ التَّابِعُونَ، وَكَرِهَهُ العُلَمَاءُ وَأَهْلُ الوَرَعِ، وَنَهَوا عَنِ الجِدَالِ فِي القَدَرِ، فَعَلَيْكَ بِالتَّسْلِيمِ وَالإِقْرَارِ وَالإِيمَانِ، وَاعْتِقَادِ مَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ فِي جُمْلَةِ الأَشْيَاءِ وَاسْكُتْ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ.

الشَّرْح

مِنْ أُصُولِ الإِيمَانِ وَأَرْكَانِ الإِيمَانِ: الإِيمَانُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ، وَالقَضَاءُ وَالقَدَرُ هُوَ: مَا قَضَاهُ اللهُ وَقَدَّرَهُ فِي الأَزَلِ مِنَ الحَوَادِثَ الَّتِي تَقَعُ، وَكُلُّ مَا يَحْدُثُ فَإِنَّهُ لَمْ يَحْدُثِ اعْتِبَاطًا، أَوْ دُونَ سَابِقَةِ تَقْدِيرٍ مِنَ الله - جَلَّ وَعَلا -؛ بَل اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلِمَ مَا كَانَ، وَمَا يَكُونُ، مَا كَانَ فِي المَاضِي، وَمَا يَكُون فِي المُسْتَقْبَلِ، ثُمَّ كَتَبَ ذَلِكَ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ.

فَـ**«أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ؛ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمَ القِيَامَةِ، فَجَرَى القَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»**.

وَكَانَ خَلْقُ القَلَم سَابِقًا لِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بِخَمْسِيْنَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُ الله - جَلَّ وَعَلا - عَلَى المَاءِ، وَمِنْ هُنَا أُشْكِلَ عَلَى العُلَمَاءِ: هَلِ العَرْشُ مَخْلُوقٌ قَبْلَ القَلَم، أَوْ أَنَّ القَلَمَ مَخْلُوقٌ قَبْلَ العَرْشِ؟ وَالصَّحِيحُ: أَنَّ العَرْشَ مَخْلُوقٌ قَبْلَ القَلَمِ؛ لأَنَّهُ وَقْتَ خَلْقِ الله لَهُ وَأَمْرِهِ بِالكِتَابَةِ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَلِهَذَا يَقُولُ العَلاَّمَةُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

والنَّاسُ مُختَلِفُونَ فِي القَلَمِ الَّذِي	كُتِبَ القَضَاءُ بِهِ مِنَ الدَّيَّانِ
هَلْ كَانَ قَبلَ العَرشِ أوْ هُوَ بَعدَهُ	قَوْلانِ عِندَ أَبي العَلا الهَمَذانِي
وَالحَقُّ أنَّ العَرشَ كَانَ قَبلُ لأَنَّهُ	قَبلَ الكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَركَانِ
وَكِتَابَةُ القَلَمِ الشَّرِيفِ تَعَقَّبَتْ	إيجَادَهُ مِنْ غَيرِ فَرقِ زَمَانِ

والكلامُ فِي القَدَرِ قَدْ سَبَقَ، وَلكِنَّ المرادَ الآنَ النَّهْيُ عنِ الخَوضِ فِيْهِ.

قَوْلُهُ: (**وَالكَلامُ وَالجِدَالُ وَالخُصُومَةُ فِي القدرِ خَاصَّةً مَنْهِيٌّ عَنْهُ**) عَرفْنَا أَنَّ الإِيْمَانَ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ بدَرَجَاتِهِ، رُكنٌ مِنْ أَرْكَانِ الإِيْمَانِ بِالله ﷻ، فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالقَضَاءِ والقَدَرِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ؛ لأَنَّهُ جَحَدَ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الإِيْمَانِ.

وَكَذَلِكَ لا يَجُوزُ الجِدَالُ فِي القَضَاءِ وَالقَدَرِ، لِمَاذَا يُعَذِّبُ اللهُ كَذَا؟ لِمَاذَا يَفْعَلُ اللهُ كَذَا؟ كَمَا سَبَقَ أَنَّهُ لا يُقَالُ: لِمَ؟ وَكَيْفَ؟ فَلا يُعْتَرَضُ عَلَى الله ﷻ، وَلا تَدْخُلَ فِي القَضَاء وَالقَدَرِ بِالجِدَالِ فَإِنَّكَ لَنْ تَصِلَ إِلَى نَتِيْجَةٍ، فعَلَيْكَ التَّسْلِيْمُ وَالإِيْمَانُ وَلا تَدْخُلْ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الله، لأَنَّ هَذَا لا يَعْلَمُهُ إِلاَّ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -، وَلن تَنْتَهِي إِلَى نَتِيجَةٍ، وَلِهَذَا يُقَالُ: «**القَدَرُ سِرُّ الله**» فَسِرُّ الله لا يُدْرَكُ وَلا يُحَاطُ به أَبَدًا، فَلا تَدْخُلْ فِيهِ بل عَلَيْكَ أَنْ تُؤْمِنَ بِمَا جَاءَ فِي النُّصُوصِ مِنَ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَتَقِفَ عِنْدَ هَذَا، وَتَتَوَجَّهَ إِلَى العَمَلِ الصَّالِحِ وَتَرْكِ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي، وَلا تَقُلْ: إِنْ كَانَ اللهُ قَدَّرِ لِي أَنِّي مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ صِرْتُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ وَلَو مَا عَمِلْتُ شَيْئًا، وإِنْ كَانَ اللهُ قَدَّرَ لِي أَنِّي مِنْ أَهْلِ النَّارِ فسَأَكُونُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَهَذَا كَلامٌ بَاطِلٌ.

فَلا يَجُوزُ الدُّخُولُ فِي هَذِهِ الأُمُورِ؛ لأَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِ العِبَادِ، هَذَا مِنْ شَأْنِ الله، أَنْتَ مِنْ شَأْنِكَ العَمَلُ، هَذَا هُوَ المطلوبُ مِنْكَ، أَمَّا الدُّخُولُ فِي القَضَاءِ وَالقَدَرِ فَهُوَ دُخُولٌ فِي مَتَاهَةٍ لا يَخْرُجُ مِنْهَا العَبْدُ أَبَدًا.

قَوْلُهُ: (**مَنْهِيٌّ عَنْهُ عِنْدَ جَمِيعِ الفِرَقِ؛ لأَنَّ القَدَرَ سِرُّ الله**) عِنْدَ جَمِيعِ الأُمَمِ؛

لأَنَّ القَدَرَ سِرُّ الله، وَالسِّرُّ لا يُمْكِنُ الإِحَاطَةُ بِهِ، يَقُولُ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، لا تَدْخُلْ فِي شُئونِ الله ﷻ، لَكِنْ عَلَيْكَ بِشُئونِ نَفْسِكَ، عَلَيْكَ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ وَتَرْكِ الذُّنُوبِ، وبِالتَّوْبَةِ مِنْهَا، وَحَاسِبْ نَفْسَكَ مَا دُمْتَ عَلَى قَيْدِ الحَيَاة، اشْتَغِلْ ونَفْسَكَ، أَمَّا أَنْ تُشْغِلَ نَفْسَكَ بِالقَضَاءِ والقَدَرِ وَلِمَاذَا كَانَ؟ وَلِمَاذَا يكُونُ؟ وإِنْ كَانَ اللهُ مُقَدِّرَ المَقَادِيرَ فَأَنَا لَسْتُ بِحَاجَةٍ لِلْعَمَلِ، فهَذَا كُلُّهُ كَلامٌ بَاطِلٌ، وَلا قِيْمَةَ لَهُ، وَلَمَّا قَالَ الصَّحَابَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ: أَلا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا؟ مَا قُدِّرَ لَنَا، قَالَ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»[1] فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٤-١٠]، فَأَنْتَ تَفْعَلُ السَّبَبَ إِمَّا فِي نَجاة نَفْسِكَ، وَإِمَّا فِي هَلاكِهَا، بِأَفْعَالِكَ الَّتِي تَفْعَلُهَا بِاخْتِيَارِكَ وَإِرَادَتِكَ، قَالَ ﷺ: «**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو؛ فَمُعْتِقٌ نَفْسَهُ أَوْ مُوبِقُهَا**»[2].

قَوْلُهُ: (**وَنَهَى الرَّبُّ جَلَّ تَعَالَى الأَنْبِيَاءَ عَنِ الكَلامِ فِي القَدَرِ**) نَهَى اللهُ الخَلْقَ الأَنْبِيَاءَ وَغَيْرَهُمْ عَنِ الكَلامِ فِي القَدَرِ، وَالأَنْبِيَاءُ مَا ذُكِرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ اعْتَرَضُوا عَلَى القَدَرِ أَبَدًا؛ لأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ عَظَمَةَ الله - جَلَّ وَعَلا - وَحِكْمَتَهُ، وَيَسْتَسْلِمُونَ وَيَتَأَدَّبُونَ مَعَ الله - جَلَّ وَعَلا -، وَلا يَسْأَلُونَ عَنْ شَيْءٍ لَيْسَ لَهُمْ فِيهِ مَصْلَحَةٌ وَلا مَنْفَعَةٌ، فَالأَنْبِيَاءُ لَمْ يَسْأَلُوا عَنْهُ، وَكَذَلِكَ لَمْ يَسْأَلْ عَنْهُ أَتْبَاعُ الأَنْبِيَاءِ قَطُّ.

إِنَّمَا كَانَ الأَنْبِيَاءُ وأَتْبَاعُهُمْ يَتَّجِهُونَ إِلَى العَمَلِ، وَيُعْنَونَ بِهِ، وَمَا كَانُوا يَسْأَلُونَ عَنِ القَضَاءِ وَالقَدَرِ، إِلاَّ مِنْ بَابِ الاعْتِقَادِ وَالإِيْمَانِ بِهِ.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٩٦)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري.

وَالإِيمَانُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ يُرِيحُكَ مِنَ الشُّكُوكِ وَالأَوْهَامِ وَالأَحْزَانِ، قَالَ ﷺ: «**اعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ**»(١) فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كذا لَكَانَ كَذَا وكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ.

قَوْلُهُ: (**وَنَهَى النَّبِي ﷺ عَنِ الخُصُومَةِ فِي القَدَرِ، وَكَرِهَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ و رضي الله عنهم وَكَرِهَهُ التَّابِعُونَ، وَكَرِهَهُ العُلَمَاءُ وَأَهْلُ الوَرَعِ**) لَمَّا ظَهَرتِ القَدَرِيَّةُ فِي أَوَاخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ أَنْكَرَ الصَّحَابَةُ عَلَيْهِم غَايَةَ الإِنْكَارِ، وَحَذَّرُوا مِنْهُمْ، وَبَيَّنُوا أَنَّ العَبْدَ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يَعْتَقِدْ هَذَا فَإِنَّ اللهَ يُحْرِقُهُ بِالنَّارِ. هَكَذَا اتَّفَقَتْ كَلِمَتُهُمْ لَمَّا ظَهَرتْ فِرْقَةُ القَدَرِيَّةِ فِي وَقْتِهِمْ.

قَوْلُهُ: (**فَعَلَيْكَ بِالتَّسْلِيمِ وَالإِقْرَارِ وَالإِيمَانِ**) هَذَا هُوَ الوَاجِبُ عَلَيْكَ نَحْوَ القَضَاءِ والقَدَرِ: التَّسْلِيمُ لِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، وَعَدَمُ الاعْتِرَاضِ عَلَيْهِ، وَاعْتِقَادُ أَنَّ اللهَ لا يَفْعَلُ شَيْئًا إِلاَّ لِحِكْمَةٍ، وَأَنَّهُ لا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلاَّ بِعَمَلِه، فَالخَلَلُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِكَ أَنْتَ فبَدَلَ أَنْ تَلُومَ القَدَرَ؛ عَلَيْكَ أَنْ تَلُومَ نَفْسَكَ، وَأَنْ تَتُوبَ إِلَى اللهِ فَلا أَحَدَ يَمْنَعُ مِنَ التَّوْبَةِ، وَاللهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِمَّنْ تَابَ، فَلِمَاذَا تُشْغِلُ نَفْسَكَ بِشَيْءٍ لَيْسَ لَكَ مِنْهُ مَصْلَحَةٌ؟!

فَعَلَيْكَ بِالتَّسْلِيمِ وَالانْقِيَادِ، وَعَدَمِ الخَوْضِ فِيمَا لا يَعْنِيكَ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ**».

قَوْلُهُ: (**وَاعْتِقَادِ مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي جُمْلَةِ الأَشْيَاءِ، واسْكُتْ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ**) أَي: اعْتَقِدْ مَا قَالَهُ الرَّسُولُ ﷺ؛ لأَنَّهُ لا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى، وَلا تَتَّهِمِ الأَحَادِيثَ، أَوْ تَشُكُّ فِيهَا مَا دَامَتْ ثَابِتَةً عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، فَلَيْسَتْ مجَالًا لِلتَّرَدُّدِ،

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦]، وأَمْثَالُ هَذِهِ الآيَاتِ، فَالوَاجِبُ عَلَيْكَ: الامْتِثَالُ وَالتَّسْلِيْمُ وَالانْقِيَادُ.

(فِي جُمْلَةِ الأَشْيَاءِ) يَعْنِي فِي كُلِّ الأَشْيَاءِ، الرَّسُولُ ﷺ بَلَّغَ عَنِ اللهِ كُلَّ مَا يَحْتَاجُهُ النَّاسُ مِنْ أُمُورِ دِينِهِمْ، وَبَيَّنَهُ، وَأَكْمَلَ اللهُ بِهِ الدِّيْنَ، وَلا خَيْرَ إِلاَّ دَلَّ أُمَّتَهُ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلاَّ حَذَّرَهَا مِنْهُ، وَتَرَكَهَا عَلَى البَيْضَاءِ لَيْلِهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا إِلاَّ هَالِكٌ.

(واسْكُتْ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ) هَذَا كَمَا فِي الحَدِيثِ: «إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلا تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلا تَسْأَلُوا عَنْهَا»[(١)] أَنْتَ لا تَسْأَلْ إِلاَّ عَنْ شَيْءٍ تَحْتَاجُهُ فِي دِينِكَ أَوْ دُنْيَاكَ، وَ«مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ»، أَمَّا مَا لا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَالسُّؤَالُ عَنْهُ مِنَ الفُضُولِ، وَالنَّبِيّ ﷺ: «نَهَى عَنْ قِيْلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ المَالِ» فَتكُونُ أَسْئِلَتُكَ بِقَدْرِ حَاجَتِكَ، ولَا تَسْأَلْ عَمَّا لا تَحْتَاجُ.

---

(١) سبق تخريجه.

[٧٣] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيْمَانُ بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُسْرِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَصَارَ إِلَى العَرْشِ وَكَلَّمَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَدَخَلَ الجَنَّةَ، وَاطَّلَعَ إِلَى النَّارِ، وَرَأَى المَلَائِكَةَ، وَسَمِعَ كَلَامَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَنُشِرَتْ لَهُ الأَنْبِيَاءُ، وَرَأَى سُرَادِقَاتِ العَرْشِ وَالكُرْسِيَّ وَجَمِيعَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِيْنَ فِي اليَقَظَةِ، حَمَلَهُ جِبْرِيلُ عَلَى البُرَاقِ حَتَّى أَدَارَهُ فِي السَّمَوَاتِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ لَيْلَتَهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ الهِجْرَةِ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (**وَالإِيْمَانُ بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُسْرِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ**) هَذَا مِنْ مُعْجِزَاتِ الرَّسُولِ ﷺ فَمِنَ الإِيْمَانِ بِالرَّسُولِ ﷺ: الإِيْمَانُ بِمُعْجِزَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ رِسَالَتِهِ ﷺ، وَأَعْظَمُ مُعْجِزَاتِهِ: القُرْآنُ، وَالسُّنَّةُ، هَذِهِ أَعْظَمُ مُعْجِزَاتِ الرَّسُولِ ﷺ، وَهِيَ المُعْجِزَةُ البَاقِيَةُ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

وَكَذَلِكَ مِنْ مُعْجِزَاتِهِ ﷺ: الإِسْرَاءُ وَالمِعْرَاجُ، **الإِسْرَاءُ**: هُوَ السَّيْرُ فِي اللَّيْلِ، وَالمِعْرَاجُ: وَهُوَ الصُّعُودُ، وَقَدْ أُسْرِيَ بِهِ لَيْلًا مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ فِي مَكَّةَ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى فِي فِلَسْطِيْنَ، فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، بِصُحْبَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ. وَكَيْفَ سَارَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ؟ هَذَا بِقُدْرَةِ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا - الَّتِي لَا يُعْجِزُهَا شَيْءٌ، لَا بِقُدْرَتِهِ هُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. بَلْ بِقُدْرَةِ اللهِ الَّتِي لَا يُعْجِزُهَا شَيْءٌ، أُتِيَ بِالبُرَاقِ وَهِيَ دَابَّةٌ سَرِيعَةُ المَشْيِ خَطْوُهَا عِنْدَ مَدِّ بَصَرِهَا، فَرَكِبَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَصَحِبَهُ جِبْرِيلُ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ، هَذَا هُوَ الإِسْرَاءُ.

وأَمَّا المِعْرَاجُ: فَقَدْ عُرِجَ بِهِ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إِلَى السَّمَاءِ، وَجَاوَزَ السَّبْعَ الطِّبَاقَ وَانْتَهَى إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى، وَسَمِعَ كَلامَ اللهِ ﷻ، وَأَمَرَهُ بِالصَّلاةِ، وَرَأَى فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَرَأَى فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الرُّسُلَ وَالأَنْبِيَاءَ فِي السَّمَوَاتِ، وَجَمَعَهُمُ اللهُ لَهُ، وَصَلَّى بِهِمْ؛ إِظْهَارًا لِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ، وفَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ وَهُوَ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ، ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إِلَى مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَصْبَحَ فِي مَكَّةَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

وَكَانَ الإِسْرَاءُ وَالمِعَراجُ بِجِسْمِهِ وَرُوحِهِ، لَمْ يَكُنْ بِرُوحِهِ فَقَطْ كَمَا يَقُولُهُ بَعْضُ المُنْكِرِينَ أَوِ المُسْتَغْرِبِيْنَ لِهَذَا الشَّيْءِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ أُسْرِي بِرُوحِهِ دُونَ جِسْمِهِ، وَلَيْسَ الإِسْرَاءُ مَنَامًا، وَهُوَ مُعْجِزَةٌ مِنْ مُعْجِزَاتِهِ ﷺ، قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ لأَيِّ شَيْءٍ؟ ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١]، وَرَأَى فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ العَجَائِبَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٨]، وَفِي سُورَةِ الإِسْرَاءِ يَقُولُ: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ فَرَأَى ﷺ مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ المُبَارَكَةِ مَا رَأَى، فَيَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يُؤْمِنَ بِذَلِكَ، وَأَنْ يُصَدِّقَ بِهِ، وَأَلَّا يَعْتَرِيَهُ أَدْنَى شَكٍّ فِي ذَلِكَ، وَمَنْ أَنْكَرَهُ فَإِنَّهُ يَكُونُ كَافِرًا؛ لأَنَّهُ مُكَذِّبٌ للهِ وَمُكَذِّبٌ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَمُكَذِّبٌ لإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ.

قَوْلُهُ: (**وَدَخَلَ الجَنَّةَ وَاطَّلَعَ إِلَى النَّارِ**) دَخَلَ الجَنَّةَ، وَرَأَى مَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ، وَاطَّلَعَ إِلَى النَّارِ وَرَأَى مَا فِيهَا مِنَ العَذَابِ؛ لأَنَّ اللهَ يُرِيدُ أَنْ يُرِيَهُ مِنْ آيَاتِهِ.

قَوْلُهُ: (**وَرَأَى المَلائِكَةَ**) رَأَى جِبْرِيلَ عَلَى خِلْقَتِهِ المَلَكِيَّةِ لَهُ ثَلاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ جَنَاحًا، كُلُّ جَنَاحٍ سَدَّ الأُفُقَ. فَالمَلَكُ خِلْقَتُهُ عَظِيمَةٌ، وَجِبْرِيلُ هُوَ أَعْظَمُ المَلائِكَةِ، وَسَيِّدُ المَلائِكَةِ، وَسَيِّدُ المَلائِكَةِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ. فَرَأَى المَلائِكَةَ وَرَأَى الرُّسُلَ وَهُمْ أَمْوَاتٌ، جَمَعَهُمُ اللهُ لَهُ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

قَوْلُهُ: (**وَرَأى سُرَادِقَاتِ العَرْشِ وَالكُرْسِيِّ**) وَرَأَى مَا حَوْلَ العَرْشِ، وَمَا حَوْلَ الكُرْسِيِّ، وَهُمَا مَخْلُوقَانِ عَظِيمَانِ أَعْظَمُ المَخْلُوقَاتِ وَمَا حَوْلَهُمَا.

قَوْلُهُ: (**وَجَمِيعَ مَا فِي السَّموَاتِ فِي اليَقَظَةِ**) هَذَا رَدٌّ عَلَى الَّذِيْنَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ مَنَامٌ، وَلَو كَانَ مَنَامًا لَمَا اسْتَنْكَرَهُ الكُفَّارُ، لأَنَّ الرُّؤْيَا لا تُسْتَنْكَرُ، هُمُ اسْتَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ يَقَظَةً. وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ والعَبْدُ اسْمٌ لِلرُّوحِ وَالجِسْمِ مَعًا، فَالرُّوحُ وَحْدَهَا لا تُسَمَّى عبْدًا، الجِسْمُ وَحْدَهُ بِدُونِ رُوْحٍ لا يُسَمَّى عَبْدًا، فَلا يُسَمَّى عَبْدًا إِلَّا الجِسْمُ وَالرُّوحُ مَعًا.

قَوْلُهُ: (**حَمَلَهُ جِبْرِيلُ عَلَى البُرَاقِ**) البُرَاقُ: دَابَّةٌ.

قَوْلُهُ: (**وَفُرِضَتْ عَلَيهِ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ**) وَهَذَا دَلِيْلٌ عَلَى عِظَمِ هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، أَنها فُرِضَتْ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي السَّمَاءِ بَيْنَهُ وبَيْنَ الله بِدُونِ واسِطَةٍ، خِلافَ بَقِيَّةِ الشَّرَائِعِ فَإِنَّهَا كَانَتْ تَنْزِلُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي الأَرْضِ بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ عليه السلام. فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ قَدْرِ هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ عِنْدَ اللهِ عز وجل.

وَكَانَ زَمَنُ الإِسْرَاءِ قَبْلَ الهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ، وَصَلَّى الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ فِي مَكَّةَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

قَوْلُهُ: (**وَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ لَيْلَتَهَ، وَذَلِكَ قَبْلَ الهِجْرَةِ**) وَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ لَيْلَتَهُ، وَلِذَلِكَ الكُفَّارُ اسْتَغْرَبُوا هَذَا، وفَرِحُوا بِذِكْرِ هَذَا الحَادِثِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَنَقَّصُوا الرَّسُول ﷺ، وَيَتَهَكَّمُوا بِهِ، وَيَسْخَرُوا مِنْهُ، لَكنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلا - رَدَّ كَيْدَهُمْ وَصَدَّقَ رَسُولَهُ ﷺ، وَأَنْزَلَ فِي ذَلِكَ القُرْآنَ.

[٧٤] قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: واعْلَمْ أَنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي الجَنَّةِ، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ تَحْتَ العَرْشِ(١)، وَأَرْوَاحَ الفُجَّارِ وَالكُفَّارِ فِي بِئْرِ بَرَهُوتَ(٢)، وَهِيَ فِي سِجِّينٍ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (واعْلَمْ أَنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي الجَنَّةِ) فَإِنَّ الرُّوحَ الَّتِي بِهَا يَحْيَا الإِنْسَانُ وَيَتَحَرَّكُ وَيُدْرِكُ؛ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ اللهِ - جَلَّ وَعَلا -، لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ اللهُ، أَيْ: لا يَعْلَمُ حَقِيْقَتَهَا إِلاَّ اللهُ - جَلَّ وَعَلاَ -، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥] عَلَى أَنَّ المُرَادَ بِالرُّوحِ هُنَا: مَا يَحْيَا بِهِ الإِنْسَانُ وَالحَيَوَانُ وَسَائِرُ ذَوَاتِ الأَرْوَاحِ، وَقِيلَ: إِنَّ المُرَادَ بِالرُّوحِ: نَوْعٌ مِنَ المَلائِكَةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

والرُّوحُ فِي اللُّغَةِ: تُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا مَا بِهِ حَيَاةُ ذَوَاتِ الأَرْوَاحِ؛ لأَنَّ الحَيَاةَ عَلَى قِسْمَيْنِ:

- حَيَاةُ حَرَكَةٍ، وَهَذِهِ تَكُونُ فِي ذَوَاتِ الأَرْوَاحِ.
- وَحَيَاةُ نُمُوٍّ، وَهَذِهِ تَكُونُ فِي الأَشْجَارِ وَالنَّبَاتَاتِ، وَمِنْهَا: حَيَاةُ الجَنِيْنِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ قَبْلَ أَنْ تُنْفَخَ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِذَا نُفِخَتْ فِيهِ الرُّوحُ صَارَتْ فِيهِ رُوحُ الحَرَكَةِ، أَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَفِيهِ رُوحُ النُّمُوِّ.

وَقَدِ اضْطَرَبَ المُتَكَلِّمُونَ وَالفَلاسِفَةُ فِي حَقِيْقَة الرُّوحِ وَعَجِزُوا عَنْ إِدْرَاكِهَا، تَخَبَّطُوا فِيهَا تَخَبُّطَاتٍ كَثِيْرَةً وَعَجَزُوا عَنْ إِدْرَاكِهَا.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٨٨٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٢) لم يصح بذلك الحديث.

[٧٥] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: والإِيمَانُ بأَنَّ المَيِّتَ يُقْعَدُ فِي قَبْرِهِ، وَتُرْسَلُ فِيهِ الرُّوحُ حَتَّى يَسْأَلَهُ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ عَنِ الإِيمَانِ وَشَرَائِعِهِ، ثُمَّ تُسَلُّ رُوحُهُ بِلاَ أَلَمٍ.

وَيَعْرِفُ الميتُ الزَّائِرَ إِذَا زَارَهُ(١)، ويَتَنَعَّمُ المُؤْمِنُ فِي القَبْرِ، وَيُعَذَّبُ الفَاجِرُ كَيْفَ شَاءَ اللهُ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (والإِيمَانُ بأَنَّ المَيِّتَ يُقْعَدُ فِي قَبْرِهِ) يَجِبُ الإِيمَانُ بِأَنَّ المَيِّتَ يَقْعُدُ جَالِسًا فِي قَبْرِهِ، وَتُعَادُ رُوحُهُ إِلَى جَسَدِهِ، وَيَأْتِيه مَلَكَانِ: أَحَدُهُمَا مُنْكَرٌ، وَالآخَرُ النَّكِيرُ؛ فَيَسْأَلانِهِ وَهَذِهِ هِيَ الفِتْنَةُ فِي القَبْرِ، وَهِيَ أَشَدُّ مَا عَلَى المَيِّتِ، إِنْ نَجَا مِنْ هَذِهِ الفِتْنَةِ نَجَا مِمَّا بَعْدَهَا، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْ هَذِهِ الفِتْنَةِ فَهُوَ هَالِكٌ لا نَجَاةَ لَهُ، يَسْأَلانِهِ عَنْ ثَلاثِ مَسَائِلَ؛ مَنْ رَبُّكَ؟ فَالمُؤْمِنُ يَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، أَمَّا المُنَافِقُ فيَقُولُ: هَا هَا لا أَدْرِي، ثُمَّ يَقُولانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فالمُؤْمِنُ يَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلامُ، أَمَّا المُنَافِقُ وَالمُرْتَابُ فيَقُولُ: هَا هَا لا أَدْرِي، ثُمَّ يَقُولانِ لَهُ: مَنْ نَبِيُّكَ؟ فالمُؤْمِنُ يَقُولُ: نَبِيِّي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أماَّ المُنَافِقُ فيَقُولُ: هَا هَا لا أَدْرِي.

فَالمُؤْمِنُ يُوَسَّعُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَيُفْرَشُ لَهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الجَنَّةِ، وَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، ويُنَعَّمُ فِي قَبْرِهِ.

وَالكَافِرُ والمُنَافِقُ: يُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، وَيُفْرَشُ مِنَ النَّارِ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ وَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: (وَتُرْسَلُ فِيهِ الرُّوحُ حَتَّى يَسْأَلَهُ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ عَنِ الإِيمَانِ

---

(١) لم يصح في ذلك حديث.

وَشَرَائِعِهِ).

قَوْلُهُ: (وَيعرِفُ الميِّتُ الزَّائِرَ إِذَا زَارَهُ) وَلِذَلِكَ تُشْرَعُ زِيَارَةُ القُبُورِ لأَنَّ الميِّتَ يَأْنَسُ بِزَائِرِهِ، وَهَذَا مِنْ أُمُورِ البرْزَخِ، فَنَحْنُ لا نَقُولُ فِي أُمُورِ الآخِرَةِ وَأُمُورِ البَرْزَخِ إِلَّا مَا ثَبَتَ بِهِ الدَّلِيلُ؛ لأَنَّهُ مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ الَّذِي لا يَعْلَمُه إلاَّ اللهُ ﷻ وَلا يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا أَنَّ الميِّتَ يُطْلَبُ مِنْهُ شَيْءٌ، فَيُقَالُ: مَا دَامَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَنْ يَأْتِي إِلَيْهِ فَلِمَاذَا لا نَطْلُبُ مِنْهُ حَوائِجَنَا؟ نَقُولُ: هَذَا لَمْ يَشْرَعْهُ اللهُ ﷻ، الميِّتُ لا يُطْلَبُ مِنْهُ شَيْءٌ، مَا كَانَ الصَّحَابَةُ يَطْلُبُونَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ شَيْئًا؛ مَعَ أَنَّهُ حَيٌّ فِي قَبْرِهِ ﷺ حَيَاةً بَرْزَخِيَّةً لَيْسَتْ هِيَ حَيَاةً دُنْيَوِيَّةً.

قَوْلُهُ: (ويَتَنَعَّمُ المُؤْمِنُ فِي القَبْرِ، وَيُعَذَّبُ الفَاجِرُ كَيْفَ شَاءَ اللهُ) مِنْ أُصُولِ الإِيْمَانِ: الإِيْمَانُ بِعَذَابِ القَبْرِ ونَعِيمِهِ، خِلافًا لِلْمُعْتَزِلَةِ الْذِيْنَ يُنْكِرُونَ هَذَا، يَقُولُونَ: الميِّتُ فِي قَبْرِهِ مِثْلُ مَا وَضَعْنَاهُ لَيْسَ عِنْدَهُ عَذَابٌ وَلا نَعِيمٌ. يَعْتَمِدُونَ عَلَى عُقُولِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ وَتَفْكِيرِهِمْ، وَلايُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ، وَلا تُقَاسُ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ، أَوِ الآخِرَةُ بِالدُّنْيَا، فَعَلَيْكَ أَنْ تُؤْمِنَ بِالغَيْبِ.

وَعَذَابُ القَبْرِ وَنَعِيمُ القَبْرِ ثَابِتٌ، بَلْ مُتَوَاتِرٌ فِي الأَحَادِيثِ، أَنَّ الميِّتَ إِمَّا أَنْ يُعَذَّبَ فِي قَبْرِهِ، وَإِمَّا أَنْ يُنعم؛ فَمَنْ يُنْكِرُ عَذَابَ القَبْرِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِالنُّصُوصِ ويَعْلَمُ بِالأَدِلَّةِ فَهُوَ كَافِرٌ، أَمَّا إِذَا أَنْكَرَهُ مِنْ بَابِ التَّأْوِيلِ أَوِ التَّقْلِيدِ أَوِ الجَهْلِ فَهَذَا يُبَيَّنُ لَهُ الحَقُّ، فَإِنْ أَصَرَّ بَعْدَ البَيَانِ حُكِمَ بِكُفْرِهِ.

[٧٧] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيْمَانُ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى بنَ عِمْرَانَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ يَوْمَ الطُّورِ وَمُوسَى يَسْمَعُ مِنَ اللهِ الكَلامَ بِصَوْتٍ وَقَعَ فِي مَسَامِعِهِ مِنْهُ، لا مِنْ غَيْرِهِ، فَمَنْ قَالَ غَيْرَ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ بِاللهِ العَظِيْمِ.

الشَّرْحُ

إِثْبَاتُ الكَلام لله - جَلَّ وَعَلا - مِنْ أُصُولِ عَقِيْدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، أَنَّ اللهَ يَتكَلَّمُ بِكَلامٍ حَقِيْقِيٍّ، سَمِعَهُ جِبْرِيلُ، وَسَمِعَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ لَمَّا ذَهَبَ إِلَى النَّارِ لِيَأْتِي مِنْهَا بِقَبسٍ وَوَجَدَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُكَلِّمُهُ مِنَ الشَّجَرَةِ، كَمَا ذَكَرَ اللهُ ذَلِكَ فِي القُرْآنِ. وَسَمِعَ مُوسَى كَلامَهُ قَالَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، هَذِهِ مَرَّةٌ ثَانِيَةٌ لَمَّا وَاعَدَهُ اللهُ أَنْ يُعْطِيَهُ التَّوْرَاةَ ذَهَبَ مُوسَى لِلْمَوْعِدِ وكَلَّمَهُ رَبُّهُ وَأَعْطَاهُ أَلْوَاحَ التَّوْرَاةِ مَكْتُوبَةً، فَسَمِعَ مُوسَى كَلامَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَكَلَّمَ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ، وَفَرَضَ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ، فَاللهُ يَتكَلَّمُ جَلَّ وَعَلا بِكَلامٍ يُسْمَعُ، وَبِحَرْفٍ وَصَوْتٍ.

أَمَّا الجَهْمِيَّةُ وَالمُعْتَزِلَةُ فيقُولُونَ: اللهُ لا يَتكَلَّمُ؛ لأَنَّا لَوْ أَثْبَتْنَا لَهُ الكَلامَ شَبَّهْنَاهُ بِالمَخْلُوقِيْنَ، لأَنَّ المَخْلُوقَ يَتكَلَّمُ! وَهَلْ يُقَاسُ كَلامُ اللهِ بِكَلامِ المَخْلُوقِ؟!! هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ كَلامِ اللهِ وَكَلامِ المَخْلُوقِ، فَهُمْ لا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ اللهِ وبَيْنَ المخلوقِ وَالعِيَاذُ بِاللهِ، نَتِيْجَةً لِتَبَلُّدِ أَفْهَامِهِمْ وَعُقُولِهِمْ. فَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَتكَلَّمُ حَقِيْقَةً بِكَلامٍ يُسْمَعُ، وَالقُرْآنُ مِنْ كَلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. تكَلَّمَ اللهُ بِهِ، وَتَكَلَّمَ بِالتَّوْرَاةِ وَتَكَلَّمَ بِالإِنْجِيْلِ، وَيَتكَلَّمَ مَتَى شَاءَ، إِذَا شَاءَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَكَلامُهُ مِنْ فِعْلِهِ جَلَّ وَعَلا، وَفِعْلُهُ لا نِهَايَةَ لَهُ وَلا بِدَايَةَ لَهُ، يَتكَلَّمُ مَتَى شَاءَ إِذَا شَاءَ بِمَا شَاءَ جَلَّ وَعَلا، فَالكَلامُ صِفَةٌ

مِنْ صِفَاتِهِ الفِعْلِيَّةِ.

قَوْلُهُ: (**مِنْهُ سُبْحَانَهُ لا مِنْ غَيْرِهِ**) لا مِنَ الشَّجَرَةِ، وَلا مِنَ اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، وَلا مِنْ جِبْرِيلَ، وَلا مِنْ مُحَمَّدٍ، فَهُوَ كَلامٌ بَدَا مِنَ اللهِ حَقِيقَةً وَإِنَّمَا جِبْرِيلُ وَمُحَمَّدٌ نَاقِلانِ عَنِ اللهِ وَمُبَلِّغَانِ عَنِ اللهِ - جَلَّ وَعَلا -.

قَوْلُهُ: (**فَمَنْ قَالَ غَيْرَ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ بِاللهِ العَظِيْمِ**) مَنْ قَالَ: إِنَّ كَلامَ اللهِ مَخْلُوقٌ، وَإِنَّ اللهَ لا يَتَكَلَّمُ، وَعَطَّلَ اللهَ مِنَ الكَلامِ فَهُوَ كَافِرٌ، لأَنَّهُ مُكَذِّبٌ للهِ وَلِرَسُولِهِ ولإِجْمَاعِ المُسْلِمِيْنَ، اللَّهُمَّ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا أَوْ مُتَأَوِّلًا أَوْ مُقَلِّدًا لِمَنْ يُحْسِنُ بِهِمُ الظَّنَّ فَهَذَا يُبَيَّنُ لَهُ، فَإِنْ أَصَرَّ حُكِمَ بِكُفْرِه، لأَنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلا - عَابَ عَلَى المُشْرِكِيْنَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ التَّمَاثِيْلَ الَّتِي لا تَتَكَلَّمُ، قَالَ إِبْرَاهِيْمُ عليه السلام: ﴿**يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا**﴾ [مريم:٤٢]، وقَالَ لِلكُفَّارِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الأَصْنَامَ: ﴿**فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ**﴾ [الأنبياء:٦٣] وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿**وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ**﴾ [الأعراف:١٤٨]، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الرَّبَّ يَتَكَلَّمُ سبحانه وتعالى، وَأَنَّ الَّذِي لا يَتَكَلَّمُ لَيْسَ رَبًّا، كَيْفَ يَأْمُرُ؟ وَكَيْفَ يَنْهَى؟ وَكَيْفَ يُدَبِّرُ؟ وَهُوَ لا يَتَكَلَّمُ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ، وَفِي سُورَةِ طَهَ: ﴿**أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا**﴾ [طه:٨٩] ﴿**أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا**﴾ أَيْ: لا يُجِيبُهُم إِذَا خَاطَبُوهُ.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّرَّ وَالخَيْرَ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ.

الشَّرْحُ

يَجِبُ الإِيْمَانُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَحْدُثُ فِي هَذَا الكَوْنِ فَإِنَّهُ لَيْسَ اعْتِبَاطًا، وَإِنَّمَا هُوَ مُقَدَّرٌ وَمَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، وَقَدْ عَلِمَهُ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -، وَكَتَبَهُ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، ثُمَّ قَدَّرَهُ، ثُمَّ خَلَقَهُ وَأَوْجَدَهُ وَشَاءَهُ، لا يُوجَدُ فِي هَذَا الكَوْنِ شَيْءٌ بِدُونِ أَنْ يُسْبَقَ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ؛ كُلُّ شَيْءٍ مُقَدَّرٌ، ومِنْ ذَلِكَ: الخَيْرُ وَالشَّرُّ، الخَيْرُ الَّذِي يَحْصُلُ لِلنَّاسِ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، وَالشَّرُّ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُمْ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، وَالكُفْرُ وَالإِيْمَانُ، وَالمَرَضُ، وَالصِّحَّةُ، وَالجُوعُ وَالشِّبَعُ، وَالغِنَى وَالفَقْرُ، كُلُّ هَذَا بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

[٧٨] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالعَقْلُ مَوْلُودٌ، أُعْطِيَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنَ العَقْلِ مَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، يَتَفَاوتُونَ فِي العُقُولِ مِثْلَ الذَّرَّةِ فِي السَّمَواتِ، وَيُطْلَبُ مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنَ العَمَلِ عَلَى قَدْرِ مَا أَعْطَاهُ مِنَ العَقْلِ، وَلَيْسَ العَقْلُ بِاكْتِسَابٍ، إِنَّمَا هُوَ فَضْلٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الشَّرْحُ

العَقْلُ: هُوَ قُوَّةٌ يَجْعَلُهَا اللهُ فِي الإِنْسَانِ يُدْرِكُ بِهَا الأَشْيَاءَ، يَعْرِفُ بِهَا الضَّارَّ مِنَ النَّافِعِ، وَالخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ، لا أَحَدَ يَدْرِي مَا كَيْفِيَّةُ العَقْلِ، تَخَبَّطَ النَّاسُ فِيهِ وَلَمْ يَصِلُوا إِلَى نَتِيْجَةٍ؛ لأَنَّهُ مِنْ أَسْرَارِ اللهِ الَّتِي لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَالعَقْلُ: سُمِّيَ عَقْلًا لأَنَّهُ يَعْقِلُ الإِنْسَانَ عَمَّا يَضُرُّهُ، مِثْلَمَا يَعْقِلُ الحَبْلُ الدَّابَّةَ عَنِ الانْفِلاتِ.

ويُسَمَّى: حِجْرًا، ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر:٥]، الحِجْرُ هُوَ العَقْلُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لأَنَّهُ يَحْجُرُ الإِنْسَانَ عَمَّا يَضُرُّهُ.

ويُسَمَّى: النُّهَى، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه:٥٤]، يَعْنِي: أَصْحَابَ العُقُولِ.

ويُسَمَّى: اللُّبَّ، ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:١٩٠]، يَعْنِي: أَصْحَابَ العُقُولِ.

فَهَذَا العَقْلُ مِنْ آيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَقَوْلُ المُؤَلِّفَ (هُوَ مَولُودٌ) الظَّاهِرُ أَنَّهُ يَقْصِدُ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ، وَلَيْسَ قَدِيمًا، أو أَنَّهُ يُولَدُ مَعَ الإِنسانِ. وَهَذَا العَقْلُ كَمَا ذَكَرْنَا لا يَعْلَمُ حَقِيقَتَهُ إِلاَّ اللهُ، وَلِذَلِكَ اضْطَرَبَ فِيهِ عُلَمَاءُ الكَلامِ والفَلاسِفَةُ، وَلَمْ يَصِلُوا إِلَى نَتِيْجَةٍ فِي العَقْلِ؛ لأَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنِ اخْتِصَاصِهِمْ.

وَالعَقْلُ يتَفَاوَتُ:

فمِنَ النَّاسِ: مَنْ عَقْلُهُ كَامِلٌ كَالأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وَمِنَ النَّاسِ: مَنْ لَيس لَهُ عَقْلٌ أَصْلًا، كَالمَجْنُونِ وَالمَعْتُوهِ، وَالطِّفْلِ.

وَمِنَ النَّاسِ: مَنْ هُوَ بَيْنَ بَيْنَ، بَيْنَ كَمالِ العَقْلِ وَبَيْنَ عَدَمِ العَقْلِ، يَعْنِي: عِنْدَهُ عَقْلٌ لَكِنَّهُ لَيْسَ تَامًّا، وَيَتَفَاوَتُ فِي النَّقْصِ، فمِنْهُمْ مَنْ عِنْدَهُ نَقْصٌ فِي عَقْلِهِ كَثِيرٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ عِنْدَهُ نَقْصٌ وَهَكَذَا، وَهَذَا حَسَبَ مَا يَجْعَلُهُ اللهُ تَعَالَى.

ويُطْلَقُ العَقْلُ عَلَى الفَهْمِ أَيْضًا، يُقَالُ: عَقَلَ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةَ، ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:١٢]، يَعْنِي: يَفْهَمُونَ الآيَاتِ الكَوْنِيَّةَ وَالآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، فَالعَقْلُ يُطْلَقُ عَلَى الفَهْمِ وَالإِدْرَاكِ، وَالفِقْهِ فِي دِينِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠].

ومِنَ النَّاسِ: مِنْ يُطْمَسُ عَلَى عَقْلِهِ، بِسَبَبِ كُفْرِهِ، وَبِسَبَبِ غَفْلَتِهِ، فَلا يُمَيِّزُ بَيْنَ الضَّارِّ وَالنَّافِعِ، فَهُوَ عَاقِلٌ؛ لَكِنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِعَقْلِهِ، حُرِمَ مِنْ عَقْلِهِ - وَالعِيَاذُ بِاللهِ - بِسَبَبِ كُفْرِهِ فَصَارَ لا يَعْقِلُ ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الفرقان:٤٤]، فَيحْرِمُهُ اللهُ عَقْلَه عُقُوبَةً لَهُ حَيْثُ لَمْ يَسْتَعْمِلْهُ فِيمَا يَنْفَعُهُ، وَإِنَّما اسْتَعْمَلَهُ فِيمَا لا فَائِدَةَ مِنْهُ، أَوْ فِيمَا يَضُرُّهُ. فَالعَقْلُ مِنْ آيَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُهُ: (**وَيُطْلَبُ مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنَ العَمَلِ عَلَى قَدْرِ مَا أعْطَاهُ مِنَ العَقْلِ**) التَّكْلِيفُ وَالأَوَامِرُ، وَالنَّوَاهِي، وَالثَّوَابُ وَالعِقَابُ، كُلُّها مَنُوطَةٌ بِالعَقْلِ.

قَوْلُهُ: (**وَلَيْسَ العَقْلُ بِاكْتِسَابٍ، إِنَّما هُوَ فَضْلٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**).

العَقْلُ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلا هُو الَّذِي يُرَكِّزُهُ فِي الإِنْسَانِ، وَهُوَ مِنْ أَسْرَارِ اللهِ جَلَّ فِي خَلْقِهِ، لَيْسَ الإِنْسَانُ هُوَ الَّذِي يَكْتَسِبُ العَقْلَ، نَعَمْ، الإِنْسَان يُقَوِّي

عَقْلَهُ بِالتَّفْكِيرِ فِي آيَاتِ الله، وفِي تَدَبُّرِ القُرْآنِ، أَمَّا أَنَّهُ يَكْتَسِبُ عَقْلًا لَيْسَ مَوْجُودًا فَلا، فاللهُ هُوَ الَّذِي أَوْجَدَ فِيهِ عَقْلًا إِذْ لا يُمْكِنُهُ هُوَ أَنْ يُوجِدَ عَقْلًا مِنْ نَفْسِهِ وَيكْتَسِبُهُ، لَكِنْ بِإِمَكَانِهِ أَنْ يُقَوِّيَهُ، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ التَّفَكُّرَ فِي الكَوْنِ والتَّفْكُّرَ فِيمَا حَصَلَ لِلأُمَمِ السَّابِقَةِ مِنَ الهَلاكِ بِسَبَبِ الكُفْرِ وَالذُّنُوبِ يُفِيدُ الإِنْسَانَ وَيُقَوِّي عَقْلَهُ، لا أَنَّهُ يُوجِدُ لَهُ عَقْلًا كَانَ مَعْدُومًا.

[٧٩] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ فَضَّلَ العِبَادَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ، عَدْلًا مِنْهُ، ولا يُقَالُ: جَارَ وَلا حَابَى، فَمَنْ قَالَ: إِنَّ فَضْلَ الله عَلَى المُؤْمِنِ وَالكَافِرِ سَوَاءٌ فَهُوَ صَاحِبُ بِدْعَةٍ، بَلْ فَضَّلَ اللهُ المُؤْمِنَ عَلَى الكَافِرِ. والطَّائِعَ عَلَى العَاصِي، وَالْمَعْصُومَ عَلَى المَخْذُولِ، عَدْلًا مِنْهُ، هُوَ فَضْلُهُ يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُهُ مَنْ يَشَاءُ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ فَضَّلَ العِبَادَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ) النَّاسُ فضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَضَّلَ المُؤْمِنَ عَلَى الكَافِرِ بِمَا أَعْطَاهُ اللهُ مِنَ الإِيْمَانِ بِسَبَبِ إِيْمَانِهِ، وَحَرَمَ الكَافِرَ بِسَبَبِ كُفْرِهِ، وَفَضَّلَ اللهُ المُؤْمِنِيْنَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، والرُّسُلُ فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]، فَهَذَا فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلا أَحَدَ يَعْتَرِضُ عَلَى الله لأَنَّ هَذَا مُلْكُهُ سُبْحَانَهُ، يُعْطِيهِ مِنْ يَشَاءُ.

فَالْمُلْكُ مُلْكُهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ سُبْحَانَهُ، وَالفَضْلُ فَضْلُهُ يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ، فَلا اعْتِرَاضَ عَلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. المُعْتَزِلَةُ يَقُولُونَ: يَجِبُ عَلَى الله أَنْ يَعْدِلَ بَيْنَ النَّاسِ وَيُعْطِيهم سَوَاءً، وَهَذَا سُوءُ أَدَبٍ مَعَ الله واعْتِرَاضٌ عَلَيهِ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيْرًا. فَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يُفَضِّلُ بَعْضَ خَلْقِهِ عَلَى بَعْضٍ، وَهَذَا مُلْكُهُ لا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ، لا يُعَذِّبُ أَحَدًا بِغَيْرِ جَرِيْمَتِهِ؛ لأَنَّ هَذَا يُنَافِي العَدْلَ وَاللهُ لا يَظْلِمُ، فَلا يُعَذِّبُ أَحَدًا مِنْ دُونِ جُرْمٍ، أَوْ يُعَذِّبُ أَحَدًا بِجَرِيْمَةِ غَيْرِهِ، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر:١٨]، فَاللهُ -جَلَّ وَعَلا - مِنْ نَاحِيَةِ الجَزَاءِ مَا يُجْزِيْهِ عَدْلٌ، أَمَّا مِنْ نَاحِيَةِ العَطَاءِ فَهَذَا فَضْلٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا أَحَدَ يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ.

قَوْلُهُ: (فَمَنْ قَالَ: إِنَّ فَضْلَ اللهِ عَلَى الْمُؤْمِنِ وَالكَافِرِ سَوَاءٌ فَهُوَ صَاحِبُ بِدْعَةٍ) هَذَا قَوْلُ المُعْتَزِلَةِ، يَقُولُونَ: إِنَّ اللهَ يَجِبُ أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَلا يَجْعَلَ بَعْضَهُمْ كَافِرًا وَبَعْضَهُمْ مُؤْمِنًا، ويَجْعَلَهُمْ كُلَّهُمْ أَغْنِيَاءَ، ويَجْعَلَهُمْ كُلَّهُمْ عُلَمَاءَ، وهَذَا اعْتِرَاضٌ عَلَى اللهِ ﷻ، لأَنَّ اللهَ حَكِيمٌ، ولَيْسَ مِنْ حِكْمَتِهِ أَنَّهُ يَجْعَلُ النَّاسَ كُلَّهُمْ سَوَاءً فِي العِلْمِ، أَوْ فِي الثَّرْوَةِ أَوْ فِي الثَّوَابِ وَالعِقَابِ.

وَلَيْسَ مِنْ حِكْمَتِهِ أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ أَغْنِيَاءَ، إِذ لَوْ كَانَ كُلُّهُمْ أَغْنِيَاءَ خَرِبَ الكَوْنُ، لأَنَّهُم لن يَجِدُوا مَنْ يَقُومُ بِالأَعْمَالِ، وَيَتَوَقَّفُ الإِنْتَاجُ، وَلِهَذَا فَاللهُ ﷻ فَضَّلَ بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ، جَعَلَ هَذَا غَنِيًّا، وَهَذَا فَقِيرًا لأَجْلِ عِمَارَةِ الكَوْنِ، فلَوْ كَانُوا كُلُّهُمْ أَغْنِيَاءَ مَا أَنْتَجُوا شَيْئًا، وَلَو كَانَ كُلُّهُمْ فُقَرَاءَ مَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَشْتَغِلُوا ويُنْتِجُوا.

فَاللهُ فَاوَتَ بَيْنَهُمْ لأَجْلِ عِمَارَةِ الكَوْنِ ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف:٣٢]، يَعْنِي: يُسَخِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِلْعَمَلِ بِالأُجْرَةِ، عِنْدَ ذَلِكَ يَتَنَامَى الكَوْنُ، وَتَحْصُلُ المَصَالِحُ.

قَوْلُهُ: (بَلْ فَضَّلَ اللهُ المُؤْمِنَ عَلَى الكَافِرِ. والطَّائِعَ عَلَى العَاصِي، وَالْمَعْصُومَ عَلَى المَخْذُولِ) فَضَّلَ اللهُ المُؤْمِنَ عَلَى الكَافِرِ، وَفَضَّلَ اللهُ المُطِيعَ عَلَى العَاصِي، هَذَا عَدْلُهُ سُبْحَانَهُ وَفَضْلُهُ، فَلا أَحَدَ يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ.

[٨٠] قَالَ المُؤَلِّفُ ﵀: ولاَ يَحِلُّ أَنْ تَكْتُمَ النَّصِيحَةَ أَحَدًا مِنَ المُسْلِمِيْنَ، بَرَّهُمْ وَفَاجِرَهُمْ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، فَمَنْ كَتَمَ فَقَدْ غَشَّ المُسْلِمِيْنَ، وَمَنْ غَشَّ المُسْلِمِيْنَ فَقَدْ غَشَّ الدِّيْنَ، وَمَنْ غَشَّ الدِّينَ فَقَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالمُؤْمِنِيْنَ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (ولاَ يَحِلُّ أَنْ تَكْتُمَ النَّصِيحَةَ أَحَدًا مِنَ المُسْلِمِيْنَ، بَرَّهُمْ وَفَاجِرَهُمْ) النَّصِيْحَةُ هِي الخُلُوصُ مِنَ الغِشِّ، وَالشَّيْءُ النَّاصِحُ: هُوَ الشَّيْءُ الخَالِصُ.

فَالمُؤْمِن يَجِبُ أَنْ يَكُونَ نَاصِحًا يَعْنِي: خَالِصًا مِنَ النِّفَاقِ، وَخَالِصًا مِنَ الغِشِّ، وَخَالِصًا مِنَ الخَدِيعَةِ، يَكُونُ ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ سَوَاءً فِي الصِّدْقِ.

وَالنَّصِيْحَةُ: هِي الدِّيْنُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ، الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ، الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ**» قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِيْنَ وَعَامَّتِهِمْ**»[١] والمُرَاد بِهَا هُنَا: أَنْ يَخْلُصَ الإِنْسَانُ مِنْ كُلِّ خُلُقٍ ذَمِيمٍ، وَأَنْ يَتَحَلَّى بِالأَخْلاقِ الفَاضِلَةِ.

فَالرَّجُلُ النَّاصِحُ هُوَ الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ غِشٌّ لأَحَدٍ قَالَ ﷺ: «**مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**»[٢]، فَضِدُّ النَّصِيْحَةِ: الغِشُّ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ كَرَّرَ قَوْلَهُ: «**الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ**» ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ بَابِ التَّأْكِيدِ وَالاهْتِمَامِ، وَقَدْ حَصَرَ الدِّيْنَ كُلَّهُ فِي النَّصِيْحَةِ.

النَّصِيْحَةُ للهِ وَلِرَسُولِهِ هَذَا فِي العَقِيدَةِ؛ فَلا يَكُونُ الإِنْسَانُ مُسْلِمًا إِلاَّ إِذَا

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (١٠١) من حديث أبي هريرة ﵁.

كَانَتْ عَقِيدَتُهُ سَلِيمَةً، وَخَالِيَةً مِنَ الشِّرْكِ، وَكَانَ عَمَلُهُ خَالِيًا مِنَ البِدَعِ، مُتَّبِعًا لِلرَّسُولِ ﷺ فَهَذَا هُوَ النَّاصِحُ لله وَلِرَسُولِهِ: الَّذِي يَكُونُ عَمَلُهُ خَالِيًا مِنَ الشِّرْكِ، وَخَالِيًا مِنَ البِدَعِ.

والنُّصْحُ لِلرَّسُولِ ﷺ: هُوَ الإِيمَانُ بِرِسَالَتِهِ، وَمَحَبَّتُهُ وَتَوْقِيرُهُ وَاحْتِرَامُهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، وَاتِّبَاعُهُ، وَالاقْتِدَاءُ بِهِ، وَتَقْدِيمُ قَوْلِهِ عَلَى قَوْلِ كُلِّ أَحَدٍ، وَتَرْكُ البِدَعِ وَالْمُحْدَثَاتِ الَّتِي حَذَّرَ مِنْهَا رَسُولُ الله ﷺ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ مِنَ الْمُغَيَّبَاتِ المَاضِيَةِ وَالْمُسْتَقْبَلَةِ، وَاجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ ﷺ هَذِهِ النَّصِيحَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ.

قَوْلُهُ: (**وَلِكِتَابِهِ**) كِتَابُ الله ﷻ، هُوَ القُرْآنُ، بِأَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّهُ كَلامُ الله مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، لا كَلامَ غَيْرِهِ، كَمَا يَقُولُهُ أَهْلُ الضَّلالِ، وَأَنْ تَتَعَلَّمَهُ وَتُعَلِّمَهُ، وَأَنْ تَعْمَلَ بِهِ، وَأَنْ تَتَفَقَّهَ فِي مَعَانِيهِ، وَتَتَدَبَّرَهُ. هَذِهِ النَّصِيحَةُ لِكِتَابِ الله ﷻ، تَعَلُّمًا وَتَعْلِيمًا، وَفَهْمًا، وَفِقْهًا، وَعَمَلًا بِهِ. وَكَذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ لِكِتَابِ الله: الإِكْثَارُ مِنْ تِلاوَتِهِ، وَعَدَمُ الغَفْلَةِ عَنْهُ.

وَالنَّصِيحَةُ (**لأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ**) وَهُمُ الأُمَرَاءُ وَالوُلاةُ بِأَنْ تُطِيعَهُمْ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةِ الله ﷻ، وَلا تَنْزِعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، وَلا تَخْرُجَ عَلَيْهِمْ، وَلا تَتَلَمَّسَ أَخْطَاءَهُمْ وَعَوْرَاتِهِمْ وَتُفْشِيهَا بَيْنَ النَّاسِ.

وَمِنَ النَّصِيحَةِ لَهُم: إِذَا كَانَ عِنْدَكَ عِلْمٌ وَقُدْرَةٌ أَنْ تَنْصَحَهُمْ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، تُوْصِلُ إِلَيْهِمُ النَّصِيحَةَ، وَتُبَلِّغُهُمْ بِالأَخْطَاءِ الَّتِي تَحْصُلُ مِنْهُمْ أَوْ مِنْ رَعِيَّتِهِمْ تُبَلِّغُهُمْ بِذَلِكَ، وَلا تَتَحَدَّثْ بِهَا فِي المَجَالِسِ، هَذَا مِنَ الغِشِّ، فَالنَّصِيحَةُ: أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَيْهِمُ النَّصِيحَةَ مِنْكَ إِلَيْهِمْ، هَذِهِ هِيَ النَّصِيحَةُ لِوَلِيِّ الأَمْرِ.

وَكَذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ لِوَلِيِّ الأَمْرِ: القِيَامُ بِالعَمَلِ الَّذِي يُوَلِّيكَ عَلَيْهِ،

وَظِيْفَةً، أَوْ رِئَاسَةً، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الدِّيْنِ وَالدُّنْيا؛ بِأَنْ تَقُومَ بِالعَمَلِ الَّذِي وَلَّاكَ عَلَيْهِ وَلِيُّ الأَمْرِ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، تُبَلِّغُهُ بِالخَلَلِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتلافاهُ هَذَا مِنَ النَّصِيْحَةِ.

ومِنَ النَّصِيْحَةِ **لِوُلاةِ الأُمُورِ**: الدُّعَاءُ لَهُمْ بِالصَّلاحِ؛ لأَنَّهُم إِذَا صَلَحُوا صَلَحَتِ الرَّعِيَّةُ، وَتَدْعُو لهُم. فَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ طَالِبَ العِلْمِ لا يَدْعُو لَهُمْ أَوْ يَسْتَنْكِرُ الدُّعَاءَ لَهُمْ فَاعْلَمْ أَنَّهُ غَاشٌّ وَلَيْسَ نَاصِحًا لِوَلِيِّ الأَمْرِ.

والنَّصِيْحَةُ (**لِعَامَّةِ المُسْلِمِيْنَ**) أَنْ تُرْشِدَهُم إِلَى الصَّوَابِ، وَتُحَذِّرَهُمْ مِنَ الأَخْطَاءِ، وَأَنْ تَأْمُرَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ، وَأَنْ تُعَلِّمَ الجَاهِلَ، وَتُذَكِّرَ الغَافِلَ، وَتَوَدَّ لَهُ مِنَ الخَيْرِ مَا تَوَدُّهُ لِنَفْسِكَ، وَالعَطْفِ عَلَى الفَقِيْرِ، وَالصَّدَقَةِ عَلَى المُحْتَاجِ هَذَا مِنَ النَّصِيْحَةِ.

وَكَذَلِكَ يَبْذُلُ المَشُورَةَ الطَّيِّبَةَ لِمَنِ اسْتَشَارَهُ، وَحِفْظُ الأَسْرارِ لِمَنِ اسْتَأْمَنَهُ، وحِفْظُ الوَدَائِعِ، يَكُونُ نَاصِحًا مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ، والنَّصِيْحَةُ فِي البَيْعِ وَالشِّرَاءِ، لا يَغُشُّ وَلا يَخْدَعُ.

هَذِهِ هِيَ النَّصِيْحَةُ بِاخْتِصَارٍ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَإِنَّهُ غَاشٌّ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ غَشَّنا فَلَيْسَ مِنَّا**».

[٨١] **قَالَ المُؤَلِّفُ** رَحِمَهُ اللهُ: **واللهُ تَعَالَى سَمِيعٌ بَصِيرٌ عَلِيمٌ، يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ، قَدْ عَلِمَ أَنَّ الخَلْقَ يَعْصُونَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ، عِلْمُهُ نَافِذٌ فِيهِمْ، فَلَمْ يَمْنَعْهُ عِلْمُهُ فِيهِمْ أَنْ هَدَاهُمْ لِلإِسْلاَمِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ كَرَمًا وَجُودًا وَتَفَضُّلًا فَلَهُ الحَمْدُ.**

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (**واللهُ تَعَالَى سَمِيعٌ بَصِيرٌ عَلِيمٌ**) هَذَا هُوَ النَّوْعُ الثَّالِثُ مِنْ أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ: إِثْبَاتُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا جَاءَت فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مَعَ اعْتِقَادِ مَعْنَاهَا وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ، وَعَدَمِ التَّعَرُّضِ لِكَيْفِيَّتِهَا؛ لأَنَّ كَيْفِيَّتَهَا لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ اللهُ، أَمَّا مَعْنَاهَا فَإِنَّهُ مَعْلُومٌ. فَيَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُثْبِتَهَا وَأَنْ تَعْتَقِدَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ الإِمَامُ مَالِكٌ: «**الاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ**» مَعْلُومٌ مَعْنَاهُ «**وَالكَيْفُ مَجْهُولٌ**».

قَوْلُهُ: (**قَدْ عَلِمَ أَنَّ الخَلْقَ يَعْصُونَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ**) فاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، عَلِمَ مَا يَكُونُ مِنَ الإِيمَانِ والكُفْرِ، والطَّاعَةِ وَالمَعْصِيَةِ، لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ.

قَوْلُهُ: (**فَلَمْ يَمْنَعْهُ عِلْمُهُ فِيهِمْ أَنْ هَدَاهُمْ لِلإِسْلاَمِ**) مَعَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُونَهُ مِنَ الكُفْرِ وَالإِيمَانِ فَإِنَّ اللهَ دَعَاهُمْ إِلَى الإِسْلام، ودَعَاهُمْ إِلَى الإِيمَانِ، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ الكُتُبَ لِهِدَايَتِهِمْ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ، لَكِنَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ لَمْ يَتْرُكْهُمْ وَيَكِلْهُمْ إِلَى عِلْمِهِ بِهِمْ؛ بَلْ إِنَّهُ أَقَامَ الحُجَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَعْطَاهُمُ الاخْتِيَارَ وَالمَشِيئَةَ وَالقُدْرَةَ فَهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى العَمَلِ فَإِذَا تَرَكُوهُ فَالذَّنْبُ ذَنْبُهُمْ وَالتَّقْصِيرُ تَقْصِيرُهُمْ، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَهْدِي جَمِيعَ الخَلْقِ المُؤْمِنِينَ وَالكُفَّارَ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ يُبَيِّنُ لَهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾، هَدَيْنَاهُمْ: يَعْنِي بَيَّنَّا لَهُمْ وَأَرْشَدْنَاهُمْ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَقْبَلُوا؛ عَانَدوا وَكَابَرُوا، ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ

صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧] أَيْ: بِسَبَبِ كَسْبِهِمْ، وَلَيْس لأَنَّ اللهَ عَلِمَ ذَلِكَ وَقَدَّرَهُ عَلَيْهِمْ؛ بَلْ: بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ بِاخْتِيَارِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ وَعَمَلِهِمْ.

فَالهِدَايَةُ هِدَايَتَانِ:

- هِدَايَةُ الإِرْشَادِ، وَهَذِهِ عَامَّةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَالكَافِرِ.
- وهِدَايَةُ التَّوْفِيْقِ، وَهَذِهِ خَاصَّةٌ لِلْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ قَبِلُوا هُدَى اللهِ وَإِرْشَادَهُ وَفَّقَهُمُ اللهُ وَثَبَّتَهُمْ.

قَوْلُهُ: (وَمَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ كَرَمًا وَجُودًا وَتَفَضُّلًا فَلَهُ الحَمْدُ) كَرَمًا مِنْهُ يَعْنِي أَنَّهُ دَعَاهُمْ وَبَيَّنَ لَهُمْ وَوَضَّحَ لَهُمْ كَرَمًا مِنْهُ، وَتَفَضُّلًا لِحَاجَتِهِمْ هُمْ إِلَى ذَلِكَ، أَمَّا اللهُ - جَلَّ وَعَلا - فَإِنَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُمْ، كَفَرُوا أَوْ آمَنُوا، أَطَاعُوا أَوْ عَصَوْا، لا يَضُرُّونَ اللهَ - جَلَّ وَعَلا -، وَلايَنْفَعُونَهُ؛ لأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُمْ، وَإِنَّمَا هَذَا رَاجِعٌ عَلَيْهِم نَفْعُهُ أَوْ ضَرَرُهُ، فَهُوَ مِنْ رَحْمَتِهِ بِهِمْ أَنَّهُ بَيَّنَ لَهُمْ طَرِيْقَ الخَيْرِ وَطَرِيْقَ الشَّرِّ، وَأَعْطَاهُمُ القُوَّةَ، وَأَعْطَاهُمُ القُدْرَةَ، وَأَعْطَاهُمُ العُقُولُ الَّتِي يُمَيِّزُونَ بِهَا بَيْنَ الضَّارِّ وَالنَّافِعِ.

[٨٢] قَالَ المُؤَلِّفُ ﵀: واعْلَمْ أَنَّ البِشَارَةَ عِنْدَ المَوْتِ ثَلاثُ بِشَارَاتٍ؛ يُقَالُ: أَبْشِرْ يَا حَبِيبَ الله بِرِضَى الله وَالجَنَّةِ، وَيُقَالُ: أَبْشِرْ يَا عَبْدَ الله بِالجَنَّةِ بَعْدَ الإِسْلامِ، وَيُقَالُ: أَبْشِرْ يَا عَدُوَّ الله بِغَضَبِ الله وَالنَّارِ.

هَذَا قَوْلُ ابنِ عَبَّاسٍ ﵄.

الشَّرْح

المُحْتَضَرُ مُؤْمِنًا كَانَ أَوْ كَافِرًا يُبَشَّرُ عِنْدَ المَوْتِ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا يُبَشَّرْ بِرَحْمَةِ الله وبالجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا يُبَشَّرْ بِغَضَبِ الله وَبِالنَّارِ، فَلا يَمُوتُ إِلاَّ وَهُوَ يَعْلَمُ أَيْنَ يَكُون، وَلا يُمكنه التَّوْبَة والتَّخَلُّص، أَوِ التزود مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «أَنَّ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ» قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُول الله، كُلُّنَا يَكْرَهُ المَوْتَ، قَالَ: «لَيس كَذَلِكَ يَا عَائِشَةُ؛ وَإِنَّمَا المُؤْمِنُ يُبَشَّرُ عِنْدَ المَوْتِ فَيُحِبُّ لِقَاءَ الله فيُحِبُّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَالكَافِرُ يُبَشَّرُ بِالنَّارِ فَيُبْغِضُ لِقَاءَ الله فَيُبْغِضُ اللهَ لِقَاءَهُ»(١).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف:١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١٤٢)، ومسلم (٢٦٨٣، ٢٦٨٤).

[٨٣] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: واعْلَمْ أَنَّ أَوَّل مَنْ يَنْظُرُ إِلَى الله تَعَالى فِي الجَنَّةِ الأَضِرَّاءُ، ثُمَّ الرِّجَالُ، ثُمَّ النِّسَاءُ، بِأَعْيُنِ رُءوسِهِمْ، كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»[١] وَالإِيمَانُ بِهَذَا وَاجِبٌ وَإِنْكَارُه كُفْرٌ.

الشَّرْح

سَبَقَ البَحْثُ فِي إِثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ، وَهذا تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ، وَأَمَّا هَذَا التَّرْتِيبُ الَّذِي ذَكَرَهُ المُؤَلِّفُ فَيَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢٩)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

[٨٤] قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: وَاعْلَمْ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ زَنْدَقَةٌ وَلاَ كُفْرٌ وَلاَ شُكُوكٌ وَلاَ بِدْعَةٌ وَلاَ ضَلالَةٌ وَلا حَيْرَةٌ فِي الدِّيْنِ إلاَّ مِنَ الكَلامِ وَأَهْلِ الكَلامِ وَالجَدَلِ وَالمِرَاءِ وَالخُصُومَةِ.

وَالعُجْبِ، وَكَيْفَ يَجْتَرِئُ الرَّجُلُ عَلَى المِرَاءِ وَالخُصُومَةِ والجِدَالِ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر:٤] فَعَلَيْكَ بِالتَّسْلِيمِ وَالرِّضَى بِالآثَارِ وَالكَفِّ وَالسُّكُوتِ.

الشَّرْح

هَذَا سَبَقَ بَيَانُهُ وَالتَّحْذِيرُ مِنْهُ.

قَوْلُهُ: (فَعَلَيْكَ بِالتَّسْلِيم وَالرِّضَى بِالآثَارِ وَالكَفِّ وَالسُّكُوتِ) عَلَيْكَ بالتَّسْلِيْم لكَلام الله وَكَلام رَسُولِهِ، وَالكَفَّ عَنِ الجَدَلِ وَالتَّشْكِيكِ، فَإِنَّكَ مَنْهِيٌّ عَنِ ذَلِكَ، بَلْ تَزْدَادُ حيْرَةً. فخُذْ بِكَلام الله وَكَلام رَسُولِهِ، وَاقْتَنِعْ بِذَلِكَ لِتَهْتَدِي وَتَسْتَرِيحَ مِنَ الوَسَاوِسِ وَالشُّكُوكِ وَالأَوْهَامِ، وَتُصْبِحَ عَلَى بَصِيْرَةٍ، فَاللهُ أَنْزَلَ هَذَا القُرْآنَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ.

[٨٥] قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: وَالإِيْمانُ بِأَنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الخَلْقَ فِي النَّارِ فِي الأَغْلالِ وَالأَنْكَالِ وَالسَّلاسِلِ، وَالنَّارُ فِي أَجْوَافِهِمْ وَفَوْقَهُمْ وَتَحْتَهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ الجَهْمِيَّةَ مِنْهُمْ هِشَامٌ الفُوطِيُّ قَالَ: إِنَّما يُعَذِّبُ اللهُ عِنْدَ النَّارِ، رَدًّا عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَالإِيْمانُ بِأَنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الخَلْقَ فِي النَّارِ فِي الأَغْلالِ وَالأَنْكَالِ وَالسَّلاسِلِ، وَالنَّارُ فِي أَجْوَافِهِمْ وَفَوْقَهُمْ وَتَحْتَهُمْ) اللهُ - جَلَّ وَعَلا - يُسَعِّرُ النَّارَ بِأَجْسَادِ الكُفَّارِ، فَهِيَ حَطَبُ لِجَهَنَّمَ، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٠] تَشْتَعِلُ بِهِمْ، وَتَتَّقِدُ بِأَجْسَامِهِمْ - وَالعِيَاذُ بِالله -، ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج:١٩-٢١]، فَاللهُ ذَكَرَ أَنَّ التَّعْذِيبَ يَقَعُ عَلَى أَبْدَانِ الكُفَّارِ، وَأَنَّ النَّارَ تَلْتَهِبُ بِهِمْ وَتَشْتَعِلُ بِهِمْ، ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ومِنَ المُعْتَزِلَةِ مِنْ قَالَ: إِنَّهُم لا يُعَذَّبُونَ، ولا تَشْتَعِلُ النَّارُ بِأَجْسَامِهِمْ، وَإِنَّما يُعَذَّبُونَ عِنْدَ النَّارِ فَقَطْ، وَأَمَّا أَجْسَامُهُمْ فَلا تَشْتَعِلُ! واللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ فِي القُرْآنِ: إِنَّهُم وَقُودُ النَّارِ والنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «أَوَّلُ مِنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ: العَالِمُ الَّذِي لا يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ، وَالمُتَصَدِّقُ الَّذِي يُرَائِي فِي صَدَقَتِهِ، وَالمُجَاهِدُ الَّذِي يُرَائِي بِجِهَادِهِ»[1].

(الأَغْلالِ) مَعْنَاهُ: أَنَّهُ تُغَلُّ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ - وَالعِيَاذُ بِالله-.

(الأَنْكَالِ) آلاتُ التَّعْذِيبِ، ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[الإنسان:٤]، ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ [المزمل:١٢]، الأَنْكَالُ أَدْوَاتُ التَّعْذِيبِ - وَالعِيَاذُ بِالله -، سَلاسِلُ وَأَغْلالٌ وَسَعِيرٌ.

(وَالنَّارُ فِي أَجْوَافِهِمْ وَفَوْقَهُمْ وَتَحْتَهُمْ) ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:٤١].

[٨٦] قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: وَاعْلَمْ أَنَّ صَلاةَ الفَرِيضَةِ خَمْسُ صَلَوَاتٍ، لاَ يُزَادُ فِيهِنَّ وَلاَ يُنْقَصُ فِي مَوَاقِيتِهَا، وَفِي السَّفَرِ رَكْعَتَانِ، إِلاَّ المَغْرِبَ، فَمَنْ قَالَ: أَكْثَرُ مِنْ خَمْسٍ؛ فَقَدِ ابْتَدَعَ، وَمَنْ قَالَ: أَقَلُّ مِنْ خَمْسٍ؛ فَقَدِ ابْتَدَعَ، لاَ يَقْبَلُ اللهُ شَيْئًا مِنْهَا إِلاَّ لِوَقْتِهَا، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ نِسْيَانًا فَإِنَّهُ مَعْذُورٌ، يَأْتِي بِهَا إِذَا ذَكَرَهَا، أَوْ يَكُونَ مُسَافِرًا فَيَجْمَعُ بَيْنَ الصَّلاتَيْنِ إِنْ شَاءَ.

الشَّرْحُ

شَأْنُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ شَأْنٌ عَظِيمٌ، وَهِيَ الرُّكْنُ الثَّانِي مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ، وَمَنْ تَرَكَهَا جَاحِدًا لِوُجُوبِهَا فَهُوَ كَافِرٌ بِإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ، وَمَنْ تَرَكَهَا تَكَاسُلًا مَعَ اعْتِرَافِهِ بِوُجُوبِهَا فَإِنَّهُ كَافِرٌ عَلَى الصَّحِيحِ مِنْ قَوْلَيِ العُلَمَاءِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ ﷺ: «**بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ الكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاةِ**»(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَقَوْلُهُ: «**العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاةُ؛ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»(٢) هَذَا وَاضِحٌ وَلَمْ يَقُلْ مَنْ تَرَكَهَا جَاحِدًا لِوُجُوبِهَا؛ بَلْ عَمَّمَ ﷺ فِي أَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ اسْتِقْصَائِهَا.

وَالصَّلَوَاتُ اسْتَقَرَّتْ عَلَى خَمْسِ صَلَوَاتٍ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، قَالَ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى اليَمَنِ قَالَ لَهُ: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، فَإِنْ أَجَابُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِم خَمْسَ صَلَوَاتٍ...**»(٣)، وَقَدْ فُرِضَتْ عَلَى النَّبِي ﷺ وَعَلَى أُمَّتِهِ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ فَوْقَ السَّموَاتِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَهَمِّيَّتِهَا.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٢) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجه (١٠٧٩)، وأحمد (٥/٣٤٦) من حديث بريدة رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤١٤٣).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٣١)، ومسلم (١٩).

أَوَّلُ مَا فُرِضَتْ خَمْسونَ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيّ ﷺ رَاجَعَ رَبَّهُ فِي التَّخْفِيفِ حَتَّى جَعَلَهَا اللهُ خَمْسًا فِي العَمَلِ، وَهِي خَمْسُونَ فِي المِيْزَانِ؛ لأَنَّ الحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، الصَّلاةُ الوَاحِدَةُ عَنْ عَشْرِ صَلَوَاتٍ، فَهِيَ بِالمُضَاعَفَةِ خَمْسُونَ صَلاةً، وَأَمَّا بِالعَمَلِ فَهِيَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ.

فَمَنْ قَالَ: إِنَّ الصَّلَوَاتِ أَكْثَرُ مِنْ خَمْسٍ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ؛ لأَنَّهُ زَادَ فِي الدِّينِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَمَنْ قَالَ: إِنَّهَا أَنْقَصُ مِنَ الخَمْسِ، كَمَا تَقُولُهُ طَائِفَةٌ مِنَ المُبْتَدِعَةِ وَأَهْلِ الضَّلالِ إِنَّهَا ثَلاثٌ!

الصَّلَوَاتُ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ، قَالَ تَعَالَى: **﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾** [الإسراء:٧٨]، وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيَّنَهَا بِقَوْلِهِ وَبِعَمَلِهِ، وَلَهَا أَوْقَاتٌ؛ قَالَ تَعَالَى: **﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾** [النساء:١٠٣]، أَي: مَفْرُوضَةً فِي أَوْقَاتٍ مُحَدَّدَةٍ، بَيَّنَهَا رَسُولُ الله ﷺ بِقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ، فلا يَجُوزُ إِخْرَاجُهَا عَنْ مَوَاقِيتِهَا إِلاَّ فِي حَالِ العُذْرِ، بِأَنْ نَامَ أَوْ نَسِيَ حَتَّى خَرَجَ الوَقْتُ فَإِذَا ذَكَرَ أَوِ اسْتَيْقَظَ فَيَجِبُ عَلَيْهِ المُبَادَرَةُ بِالصَّلاةِ فِي أَيِّ وَقْتٍ، قَالَ ﷺ: «**مَنْ نَسِيَ صَلاةً أَوْ نَامَ عَنْهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا، لا كَفَّارَةَ لَهَا إِلاَّ ذَلِكَ**»[١].

وَأَمَّا مَنْ تَعَمَّدَ إِخْرَاجَهَا عَنْ وَقْتِهَا فَلا تَصِحُّ مِنْهُ وَلَو صَلَّاهَا؛ لأَنَّهُ لَمْ يُصَلِّ الصَّلاةَ الَّتِي أَمَرَهُ اللهُ بِهَا، وَإِنَّمَا صَلَّى صَلاةً عَلَى حَسَبِ هَوَاهُ، فَإِذَا تَعَمَّدَ إِخْرَاجَهَا عَنِ الوَقْتِ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ وَلَو صَلَّاهَا، فَعَلَيْهِ التَّوْبَةُ إِلَى الله ﷻ وَالمُحَافَظَةُ عَلَى الصَّلاةِ.

وَعَدَدُ الرَّكَعَاتِ: بَيَّنَهَا الرَّسُولُ ﷺ: الفَجْرُ: رَكْعَتَانِ، وَالمَغْرِبُ: ثَلاثُ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٢)، ومسلم (٦٨٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

رَكَعَاتٍ؛ لأَنَّهَا وِتْرُ النَّهَارِ، وَالظُّهْرُ: أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ، وَالعَصْرُ: أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ، وَالعِشَاءُ: أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ.

وَفِي السَّفَرِ: تُقْصَرُ الرُّبَاعِيَّةُ إِلَى رَكْعَتَيْنِ: الظُّهْرُ وَالعَصْرُ وَالعِشَاءُ كَمَا جَاءَتْ بِذَلِكَ السُّنَّةُ الثَّابِتَةُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، وَجَاءَ بِهَا القُرْآنُ ﴿**وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ**﴾ [النساء:١٠١].

أَمَّا الفَجْرُ فَهِيَ بَاقِيَةٌ عَلَى رَكْعَتَيْنِ، وَأَمَّا المَغْرِبُ فَلا تُقْصَرُ لأَنَّهَا وِتْرُ النَّهَارِ، فَلَوْ قُصِرَتْ صَارَتْ شَفْعًا. هَكَذَا جَاءَتِ الأَحَادِيثُ فِي هَذِهِ الصَّلاةِ، فَلا يَجُوزُ لأَحَدٍ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيهَا بِزِيَادَةٍ أَوْ نَقْصٍ، أَوْ إِخْرَاجٍ عَنْ وَقْتِهَا.

[٨٧] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالزَّكَاةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالتَّمرِ وَالحُبُوبِ وَالدَّوَابِّ، عَلَى مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَإِنْ قَسَّمَهَا فَجَائِزٌ، وَإِنْ دَفَعَهَا إِلَى الإِمَامِ فَجَائِزٌ، وَاللهُ أَعْلَمْ.

الشَّرْحُ

الرُّكْنُ الثَّالِثُ مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلامِ: الزَّكَاةُ، وَهِي قَرِينَةُ الصَّلاةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الآياتِ القُرْآنِيَّةِ.

وَالزَّكَاةُ حَقٌّ مَعْلُومٌ فِي أَمْوَالِ الأَغْنِيَاءِ لِلفُقَرَاءِ.

وَالأَمْوَالُ الَّتِي تَجِبُ فِيهَا الزَّكَاةُ أَرْبعَةُ أَنْواعٍ.

النَّوْعُ الأَوَّلُ: النَّقْدَانِ: الذَّهَبُ وَالفِضَّةُ، وَما يقومُ مَقَامَهُما مِنَ الأَوْرَاقِ النَّقْدِيَّةِ.

النَّوْعُ الثَّانِي: بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ: الإِبِلُ، وَالبَقَرُ، وَالغَنَمُ.

النَّوْعُ الثَّالِثُ: الخَارِجُ مِنَ الأَرْضِ: مِنَ الحُبُوبِ وَالثِّمارِ.

النَّوْعُ الرَّابِعُ: عُرُوضُ التِّجَارَةِ، وَهِيَ السِّلَعُ الَّتِي تُعْرَضُ لِلبَيْعِ وَالشِّرَاءِ.

هَذِهِ هِيَ الأَمْوَالُ الزَّكَوِيَّةُ الَّتِي تَجِبُ فِيهَا الزَّكَاةُ، وَأَمَّا مَا عَدَا هَذِهِ الأَمْوَالِ الأَرْبَعَةَ إِذَا أَرَادَ الإِنْسَانُ أَنْ يَتَصَدَّقَ وَيَتَبَرَّعَ فَهَذَا إِلَيْهِ، بَابُ الصَّدَقَةِ وَالتَّبَرُّعِ وَاسِعٌ.

قَوْلُهُ: (**فَإِنْ قَسَّمَهَا فَجَائِزٌ وَإِنْ دَفَعَهَا إِلَى الإِمَامِ فَجَائِزٌ**) يَجِبُ عَلَيْهِ إِخْرَاجُ الزَّكَاةِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ**﴾ [البقرة:٤٣]، آتوا: أَي: ادْفَعُوهَا، فَيَجِبُ عَلَى صَاحِبِ المَالِ أَنْ يَدْفَعَها، وَهُوَ المَسْئُولُ عَنْهَا. فَإِذَا طَلَبَهَا الإِمَامُ لِيَتَوَلَّاهَا فَإِنَّهُ يَجِبُ دَفْعُهَا إِلَيْهِ؛ لأَنَّ طَاعَتَهُ وَاجِبَةٌ، وَتَبْرَأُ ذِمَّةُ الدَّافِعِ؛ لأَنَّ

النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُرْسِلُ الجُبَاةَ فِي الزَّكَاةِ مِنْ أَصْحَابِهَا وَيُوَزِّعُهَا عَلَى مُسْتَحِقِّيهَا، وَوُلاةُ الأُمُورِ يَقُومُونَ مَقَامَ الرَّسُولِ ﷺ فِي ذَلِكَ مِنْ بَعْدِهِ، أَمَّا إِذَا لَمْ يَطْلُبْهَا فَالمَسْئُولُ عَنْهَا صَاحِبُ المَالِ.

[٨٨] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ أَوَّلَ الإِسْلامِ شَهَادَةُ أَنَّ لاَ إِله إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

[٨٩] وَأَنَّ مَا قَالَ اللهُ كَمَا قَالَ، وَلاَ خُلْفَ لِما قَالَ، وَهُوَ عِنْدَ مَا قَالَ.

[٩٠] وَالإِيْمَانُ بِالشَّرائِعِ كُلِّهَا.

الشَّرْحُ

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَيُّهَا المُسْلِمُ يَا طَالِبَ العِلْمِ أَي: تَحَقَّقْ وَتَبَيَّنْ أَنَّ أَوَّلَ الإِسْلامِ: شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ. هُمَا الرُّكْنُ الأَوَّلُ مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلامِ، كَمَا فِي حَدِيْثِ جِبْرِيلَ لَمَّا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ؟ قَالَ: «**الإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»[١].

فَالشَّهَادَتَانِ أَوَّلُ مَا يُدْعَى إِلَيْهِ النَّاسُ، قَالَ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**» وَلَمَّا أَرْسَلَ مُعَاذًا إِلَى اليَمَنِ قَالَ لَهُ: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**»[٢] فَهَذِه أَوَّلُ مَا يُدْعَى إِلَيْهِ النَّاسُ؛ لأَنَّهُ هُوَ المَدْخَلُ إِلَى دِيْنِ الإِسْلامِ. أَمَّا مَنْ يَتَهَاوَنُ بِالتَّوْحِيدِ وَلا يَهْتَمُّ بِهِ مِنْ أَصْحَابِ الدَّعَوَاتِ أَوِ المَنَاهِجِ الدَّعَوِيَّةِ المُعَاصِرَةِ، فَهَذَا مُخَالِفٌ لِهَذَا الأَصْلِ العَظِيْمِ. وَلَيْسَ المَقْصُودُ مِنَ الشَّهَادَتَيْنِ

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

(٢) صحيح: سبق تخريجه.

التَّلَفُّظَ بِهِمَا فَقَطْ، وَلَكِنَّ المَقْصُودَ التَّلَفُّظُ بِهِمَا مَعَ مَعْرِفَةِ مَعْنَاهُمَا وَالعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُمَا. لَكِنْ مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ فَإِنَّهُ يُقْبَلُ مِنْهُ، فَإِنِ اسْتَقَامَ عَلَيْهِمَا فَهُوَ المُسْلِمُ، وَإِنْ ظَهَرَ مِنْهُ مَا يُنَاقِضُهُمَا فَإِنَّهُ يَكُونُ مُرْتَدًّا.

وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ: أَنْ تَعْتَقِدَ بِقَلْبِكَ وَأَنْ تَنْطِقَ بِلِسَانِكَ وَتُقِرَّ وَتَعْتَرِفَ: بِأَنَّهُ لا يَسْتَحِقُّ العِبَادَةَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَعِبَادَتُهُ بَاطِلَة، قَالَ تَعَالَى: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ**﴾ [الحج:٦٢].

وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: أَنْ تَعْتَرِفَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا بِأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، أَمَّا مَنْ يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ وَهُوَ لا يَعْتَرِفُ فِي بَاطِنِهِ بِرِسَالَتِهِ؛ فَهَذَا مُنَافِقٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ**﴾ [المنافقون:١]، ﴿**يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**﴾ [آل عمران:١٦٧].

فَيَتَلَخَّصُ مَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ فِي: طَاعَتَهِ فِيمَا أَمَرَ وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابِ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، وَأَنْ لا يُعْبَدَ اللهُ إِلاَّ بِمَا شَرَعَ.

طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ: فَإِذَا أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ بِأَمْرٍ فَإِنَّكَ تَمْتَثِلُهُ ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا**﴾ [الأحزاب: ٣٦].

تَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ: أَخْبَرَ ﷺ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ أُمُورِ الغَيْبِ المَاضِيَةِ والمُسْتَقْبَلَةِ؛ فَيُصَدَّقُ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ ﷺ، وَهُوَ لا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ [النجم:٤] فَأَخْبَارُهُ ﷺ صِدْقٌ وَيَقِينٌ، لا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا شَكٌّ إِذَا صَحَّتْ عَنْهُ ﷺ.

وَاجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ: اجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ الرَّسُولُ ﷺ وَزَجَرَ عَنْهُ،

وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر:٧].

وَأَنْ لا يُعْبَدَ اللهُ إِلاَّ بِمَا شَرَعَ: مَا شَرَعَهُ الرَّسُولُ ﷺ مُبَلِّغًا عَنِ اللهِ - جَلَّ وَعَلا -، وَهَذَا يَنْفِي البِدَعَ وَالْمُحْدَثَاتِ وَالخُرَافَاتِ الَّتِي لَمْ يَأْمُرْ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»، «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»، «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**»، «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ الْمَهْدِيِّيْنَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**»[1] وَكُلُّ عِبَادَةٍ لَمْ يَشْرَعْهَا الرَّسُولُ ﷺ فَهِيَ بَاطِلَةٌ، وَلا ثَوَابَ فِيْهَا، بَلْ فِيْهَا الإِثْمُ؛ لأَنَّهَا بِدْعَةٌ، وَالبِدْعَةُ تُبْعِدُ عَنِ اللهِ وَلا تُقَرِّبُ إِلَى اللهِ ﷻ.

قَوْلُهُ: (**وَاعْلَمْ أَنَّ أَوَّلَ الإِسْلامِ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِله إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**) هَذَا الرُّكْنُ الأَوَّلُ، وَهُوَ المَدْخَلُ، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَهُ الصَّلاةُ، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَهُ الزَّكَاةُ، ثُمَّ صَوْمُ رَمَضَانَ، ثُمَّ حَجُّ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ، ثُمَّ بَقِيَّةُ شَرَائِعِ الدِّيْنِ كُلِّهَا تَابِعَةٌ لِلشَّهَادَتَيْنِ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

قَوْلُهُ: (**وَأَنَّ مَا قَالَ اللهُ كَمَا قَالَ، وَلاَ خُلْفَ لِمَا قَالَ، وَهُوَ عِنْدَ مَا قَالَ**) مَا قَالَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا - فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ لا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ شَكٌّ أَبَدًا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]، أيْ: لا أَحَدَ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ ﷻ، وَإِذَا وَعَدَ سُبْحَانَهُ وَعْدًا فَإِنَّهُ لا يُخْلِفُهُ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم:٦]، فَإِذَا وَعَدَ فَإِنَّهُ لا يُخْلِفُ وَعْدَهُ، وَإِذَا تَوَعَّدَ فَقَدْ يَعْفُو ﷻ، فَهُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ الوَعْدِ وَالتَّوَعُّدِ، الوَعْدُ: لايَتَخَلَّفُ أَبَدًا، وَأَمَّا التَّوَعُّدُ: فَاللهُ

---

(١) سبق تخريج هذه الأحاديث.

- جَلَّ وَعَلا - قَدْ يَعْفُو وَيَسْمَحُ وَقَدْ لا يُوقِعُ الوَعِيْدَ رَحْمَةً مِنْهُ سُبْحَانَهُ، وفَضْلًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَوْلُهُ: (وَالإِيْمَانُ بِالشَّرَائِعِ كُلِّهَا) يَجِبُ الإِيْمَانُ بِالشرائِعِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَى رُسُلِهِ كُلِّهَا، إِجْمَالًا فِي الإِجْمَالِ وَتَفْصِيلًا فِي التَّفْصِيْلِ ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦]، ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:٨٤]، فَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِالشَّرَائِعِ الإِلَهِيَّةِ جَمِيعِهَا، ونُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلا - يَشْرَعُ لِكُلِّ وَقْتٍ مَا يُنَاسِبُهُ ثُمَّ يَنْسَخُ ذَلِكَ بِشَرِيعَةٍ أُخْرَى تُنَاسِبُ الَّذِيْنَ جَاءوا مِنْ بَعْدُ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ جَاءَ بِشَرِيعَةٍ رَاسِخَةٍ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، لا تُنْسَخُ، وَلا تُغَيَّرُ أَبَدًا، صَالِحَةٌ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

[٩١] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ الشِّرَاءَ وَالبَيْعَ حَلالٌ إِذَا بِيعَ فِي أَسْوَاقِ المُسْلِمِينَ عَلَى حُكْمِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْخُلَهُ تَغْرِيرٌ أَوْ ظُلْمٌ أَوْ غَدْرٌ أَوْ خِلافٌ لِلقُرْآنِ أَوْ خِلافٌ لِلْعِلْمِ.

الشَّرْحُ

نَعْتَقِدُ أَنَّ البَيْعَ وَالشِّرَاءَ حَلالٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أَي: اطْلُبُوا الرِّزْقَ، ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة:١٠]، وَقَالَ فِي المَسَاجِدِ: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٦-٣٧] لا تُلْهِيهِمْ لَمْ يَقُلْ: لا يَبِيعُونَ وَيُتَاجِرُون، بَلْ قَالَ: لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَتُهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ، بَلْ يَحْضُرُونَ إِلَى المَسَاجِدِ وَيُصَلُّونَ مَعَ الجَمَاعَةِ ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ إِلَى بَيْعِهِمْ وَشِرَائِهِمْ. وَالبَيْعُ وَالشِّرَاءُ مِنْ أَطْيَبِ المَكَاسِبِ إِذَا سَلِمَا مِنَ الغِشِّ وَمِنَ الخَدِيعَةِ، وَمِنْ بَيْعِ المَوَادِّ المُحَرَّمَةِ، والتَّعَامُلِ الحَرَامِ وَالرِّبَا، فَإِذَا سَلِمَ البَيْعُ وَالشِّرَاءُ مِنَ المُفْسِدَاتِ فَإِنَّهُمَا مِنْ أَطْيَبِ المَكَاسِبِ.

(إِذَا بِيعَ فِي أَسْوَاقِ المُسْلِمِينَ) مَا يُجْلَبُ فِي أَسْوَاقِ المُسْلِمِينَ فَلا تَسْأَلْ عَنْهُ، لأَنَّ الأَصْلَ الإِبَاحَةُ إِلاَّ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّهُ مُحَرَّمٌ.

(عَلَى حُكْمِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ) بِأَنْ تَتَوَفَّرَ شُرُوطُ البَيْعِ المَعْرُوفَةُ، وَإِذَا تَوَفَّرَتْ شُرُوطُ البَيْعِ السَّبْعَةُ المَعْرُوفَةُ فَالبَيْعُ صَحِيحٌ، وَمَا يُبَاعُ فَإِنَّهُ حَلالٌ، وَالأَصْلُ أَنَّ أَسْوَاقَ المُسْلِمِينَ قَائِمَةٌ عَلَى ذَلِكَ.

قَوْلُهُ: (مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْخُلَهُ تَغْرِيرٌ أَوْ ظُلْمٌ أَوْ غَدْرٌ) أَمَّا إِذَا دَخَلَ فِي البَيْعِ تَغْرِيرٌ وَجَهَالَةٌ وَمُخَاطَرَةٌ فَإِنَّهُ حَرَامٌ لأَنَّهُ يُصْبِحُ مِنَ القِمَارِ. أَوْ مِنَ الخِدَاعِ بِأَنْ يُظْهِرَ شَيْئًا غَيْرَ حَقِيقِيٍّ، كَأَنْ يُظْهِرَ السِّلْعَةَ بِمْظَهَرٍ غَيْرِ حَقِيقِيٍّ وَهَذَا مَا يُسَمَّى بِالتَّدْلِيسِ وهُوَ: إِظْهَارُ السِّلَعِ بِمَظْهَرٍ يُعْجِبُ النَّاظِرَ إِلَيْهَا وَهِيَ فِي البَاطِنِ بِخِلافِهِ.

(أَوْ ظُلْمٌ) بِأَنْ يُبَاعَ قَهْرًا عَلَى صَاحِبِهِ، بِأَنْ يُجْبَرَ عَلَى البَيْعِ، وإِنَّمَا البَيْعُ يَكُونُ عَنْ تَرَاضٍ، قَالَ ﷺ: «إِنَّمَا البَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ»[1]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء:٢٩]؛ فَيُشْتَرَطُ لِصِحَّةِ البَيْعِ رِضَى البَائِعِ، أَنْ يَكُونَ بَعْدَ اخْتِيَارِهِ لا مُجْبَرًا عَلَى ذَلِكَ؛ لأَنَّ إِجْبَارَهُ ظُلْمٌ، إِلاَّ إِذَا كَانَ إِجْبَارُهُ بِحَقٍّ كَأَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ دُيُونٌ وَأَبَى أَنْ يُسَدِّدَ، فَإِنَّ الحَاكِمَ يَتَدَخَّلُ فَيَبِيعُ مِنْ مَالِهِ مَا يُسَدِّدُ بِهِ دُيُونَهُ وَلَو لَمْ يَرْضَ بِذَلِكَ؛ لأَنَّ هَذَا إِكْرَاهٌ بِحَقٍّ، وَلِهَذَا قَالُوا: لا يَصِحُّ بَيْعُ المُكْرَهِ إِلاَّ بِحَقٍّ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٢١٨٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٣٢٣).

[٩٢] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلعَبْدِ أَنْ تَصْحَبَهُ الشَّفَقَةُ أَبَدًا مَا صَحِبَ الدُّنْيَا؛ لأَنَّهُ لاَ يَدْرِي عَلَى مَا يَمُوتُ، وَبِمَ يُخْتَمُ لَهُ، وَعَلامَ يَلْقَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنْ عَمِلَ كُلَّ عَمَلٍ مِنَ الخَيْرِ.

[٩٣] وَيَنْبَغِي لِلرَّجُلِ المُسْرِفِ عَلَى نَفْسِه أَلَّا يَقْطَعَ رَجَاءَهُ مِنَ اللهِ تَعَالَى عِنْدَ المَوْتِ، وَيُحْسِنَ ظَنَّهُ بِاللهِ، وَيَخَافَ ذُنُوبَهُ، فَإِنْ رَحِمَهُ اللهُ فَبِفَضْلٍ، وَإِنْ عَذَّبَهُ فَبِذَنْبٍ.

الشَّرْحُ

هَذِهِ مَسْأَلَةٌ عَظِيمَةٌ وَهِيَ: أَنَّ المُؤْمِنَ يَجْمَعُ بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فَيَسِيرُ فِي أَعْمَالِهِ بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، فَلا يَخَافُ فَقَطْ وَيَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٣] فَلا يَخَافُ خَوْفًا زَائِدًا يُقَنِّطُهُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهَذَا خَوْفٌ مَذْمُومٌ، وَكَذَلِكَ يَرْجُو اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، لَكِن لا يُخْرِجُهُ الرَّجَاءُ إِلَى أَنْ يَأْمَنَ مِنْ مَكْرِ اللهِ، بَلْ يَكُونُ خَائِفًا مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَمَكْرُ اللهِ - جَلَّ وَعَلا - يَلِيقُ بِهِ وَهُوَ مِنْ كَمَالِهِ، لَيسَ كَمَكْرِ المَخْلُوقِ، المَكْرُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ إِيصَالُ الأَذَى إِلَى الغَيْرِ بِخُفْيَةٍ، بِحَيْثُ لا يَشْعُرُ بِذَلِكَ، فَإِذَا كَانَ هَذَا بِحَقٍّ فَإِنَّهُ عَدْلٌ، وَهَذَا هُوَ مَكْرُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَإِنَّهُ يَمكُرُ بِالظَّالِمِيْنَ وَالفَاسِقِيْنَ، فَيُوصِلُ إِلَيهِمُ العُقُوبَةَ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ، وَهَذَا عَدْلٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ يُحْمَدُ عَلَيْهِ.

أَمَّا إِذَا كَانَ إِيْصَالُ الأَذَى إِلَى الغَيْرِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَهَذَا ظُلْمٌ وَلا يَجُوزُ وَهَذَا هُوَ مَكْرُ المَخْلُوقِيْنَ، أَمَّا مَكْرُ الخَالِقِ - جَلَّ وَعَلا - فَهُوَ مَحْمُودٌ؛ لأَنَّهُ عَدْلٌ وَقِسْطٌ

مِنْهُ تعالى، فَهَذَا فَرْقٌ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ، بَيْنَ مَكْرِ الله وَمَكْرِ المَخْلُوقِ، ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران:٥٤]، هَذَا مِنْ بَابِ الجَزَاءِ لَهُمْ، فَهُوَ لَيْسَ ظُلْمًا مِنْهُ تعالى، وَإِنَّمَا هُوَ مُرَتَّبٌ عَلَى مَكْرِهِمْ، مَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ بِهِمْ عُقُوبَةً لَهُمْ، وَهَذَا عَدْلٌ مِنْهُ تعالى، وَفِي الحَدِيثِ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا**»[١] يَدْخُلُ النَّارَ بِسَبَبِ أَنَّهُ عَمِلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَالجَزَاءُ مُرَتَّبٌ عَلَى العَمَلِ، وَلَمَّا كَانَتْ خَاتِمَتُهُ أَنَّهُ يَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ دَخَلَ النَّارَ، وَالعَكْسُ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا**»[٢] يَدْخُلُها بِأَنَّهُ عَمِلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَاتَ عَلَيْهِ. فَالنَّارُ لا تُدْخَلُ إِلاَّ بِعَمَلٍ، وَالجَنَّةُ لا تُدْخَلُ إِلاَّ بِعَمَلٍ وَالأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ فَلا يَغْتَرَّ الإِنْسَانُ بِصَلاحِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ، وَيَأْمَنَ مِنَ الزَّيْغِ، كَمْ زَاغَ مِنْ مُؤْمِنٍ وَمِنْ مُسْلِمٍ وَمِنْ عَالِمٍ، اللهُ - جَلَّ وَعَلا - أَزَاغَهُم لَمَّا حَصَلَ مِنْهُمْ مَا حَصَلَ مِنَ المُخَالَفَاتِ، فَلا يَأْمَنُ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ وَيُزَكِّي نَفْسَهُ، فَلا يَأْمَنْ مِنَ الزَّيْغِ وَيُخَالِطِ الأَشْرَارَ، وَيَسْتَمِعْ إِلَيْهِمْ، وَيَنْظُرْ فِي الفِتَنِ، لا يَأْمَنْ عَلَى نَفْسِهِ «**قُلُوبُ العِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ**»[٣] لا يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ، وَالخَلِيلُ عليه السلام يَقُول: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦]، فَالإِنْسَانُ لا يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ الفِتْنَةَ وَسُوءَ الخَاتِمَةِ وَلَو كَانَ مِنْ أَصْلَحِ النَّاسِ، ولا يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ الله وَلَو كَانَ مِنْ أَكْفَرِ النَّاسِ، فَقَدْ يَمُنُّ اللهُ عَلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ فَيَمُوتُ عَلَى الإِسْلامِ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ لأَنَّهُ مَا دَامَ عَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ فَإِنَّهُ

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

(٢) صحيح: سبق تخريجه.

(٣) صحيح: سبق تخريجه.

مُعَرَّضٌ لِهَذَا وَهَذَا، فَالأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ.

قَوْلُهُ: (**وَيُحْسِنَ ظَنَّهُ بِاللهِ، وَيَخَافُ ذُنُوبَهُ**) يُحْسِنُ ظَنَّهُ بِاللهِ وَلا يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ.

(**وَيَخَافُ ذُنُوبَهُ**) يَعْنِي لا يَرْجُو رَجَاءً لَيْسَ مَعَهُ خَوْفٌ، بَلْ يَجْمَعُ بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا**﴾ [الأنبياء:٩٠]، هَؤُلاءِ أَنْبِيَاءُ وَكَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ، وَيَدْعُونَ اللهَ رَغَبًا يَعْنِي: طَمَعًا فِي ثَوَابِهِ، وَرَهَبًا: أَيْ: خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، فَالأَنْبِيَاءُ يَجْمَعُونَ بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، لا يَأْخُذُونَ جَانِبًا وَيَتْرُكُونَ الجَانِبَ الآخَرَ، لا يَأْخُذُونَ جَانِبَ الرَّجَاءِ وَيَتْرُكُونَ جَانِبَ الخَوْفِ، وَلا يَأْخُذُونَ جَانِبَ الخَوْفِ وَيَتْرُكُونَ جَانِبَ الرَّجَاءِ.

وَيُحْسِنُ العَبْدُ ظَنَّهُ بِاللهِ خُصُوصًا عِنْدَ المَوْتِ، قَالَ العُلَمَاءُ: إِنَّهُ فِي حَالِ الصِّحَّةِ يُغَلِّبُ جَانِبَ الخَوْفِ احْتِيَاطًا، وَعِنْدَ المَوْتِ يُغَلِّبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ. لأَنَّهُ فِي حَالِ الحَيَاةِ يَقْدِرُ عَلَى العَمَلِ وَالتَّوْبَةِ وَالاسْتِغْفَارِ، لَكِنْ عِنْدَ المَوْتِ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ فَيُغَلِّبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**لا يَمُوتُ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ**»[1].

قَوْلُهُ: (**فَإِنْ رَحِمَهُ اللهُ فَبِفَضْلٍ، وَإِنْ عَذَّبَهُ فَبِذَنْبٍ**) هَذَا كَمَا سَبَقَ أَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلا لا يُنَعِّمُ النَّاسَ وَلا يُعَذِّبُهُمْ إِلاَّ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ﴿**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾ [الكهف:٤٩].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

[٩٤] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيْمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَطْلَعَ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى مَا يَكُونُ فِي أُمَّتِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

الشَّرْحُ

النَّبِيُّ ﷺ لا يَعْلَمُ الغيْبَ، وَلا أحد مِنَ المَخْلُوقين يَعْلَمُ الغيْبَ، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]، والغَيْبُ: مَا غَابَ عنَّا، فِي المَاضِي وَفِي المُسْتَقْبَلِ فنَحْنُ لا نَعْلَمُهُ، لَكِنَّ الأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ يُطْلِعُهُمُ اللهُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الغَيْبِ لأَجْلِ مَصْلَحَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَمِنْهُمْ: نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ فَقَدْ أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ المُغَيَّبَاتِ فَأَخْبَرَ بِهَا ﷺ لأَجْلِ مَصْلَحَةِ الأُمَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧] إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ أَي: فَإِنَّ اللهَ يُطْلِعُهُ عَلَى مَا يَشَاءُ تَعَالَى.

مَثَلًا: كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَمْشِي مَعَ أَصْحَابِهِ فَمَرُّوا بِقَبْرَيْنِ قَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ»(١) الصَّحَابَةُ مَا شَعَرُوا أَنَّ صَاحِبَي هَذَيْنِ القَبْرَيْنِ يُعَذَّبانِ، لَكِنَّ اللهَ أَطْلَعَ رَسُولَهُ ﷺ عَلَى تَعْذِيبِ المَيِّتَيْنِ قَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ» هَذَا مِمَّا أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَيْهِ، وَهَذا مِنْ خَصَائِصِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

وَأَطْلَعَهُ اللهُ عَلَى مَا يَأْتِي فِي المُسْتَقْبَلِ، وَأَخْبَرَنَا ﷺ عَنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، أَخْبَرَنَا عَنِ الفِتَنِ، مِنْ أَجْلِ أَنْ نَحْذَرَ وَنَخَافَ أَنْ تُدْرِكَنَا هَذِهِ الأُمُورُ فَنكُونَ عَلَى بَيِّنَةٍ، أَخْبَرَنَا لِمَصْلَحَتِنَا مِنْ نَاحِيَةِ التَّحْذِيرِ لأَجْلِ أَنْ نَأْخُذَ حِذْرَنَا، قَالَ ﷺ: «وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً»(٢) هَذَا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٣)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) حسن: سبق تخريجه.

خَبَرٌ مِنْهُ ﷺ أَنَّهُ سَيحْصُلُ افْتِرَاقٌ فِي الأُمَّةِ وَحَصَلَ كَمَا أَخْبَرَ ﷺ مِنْ أَجْلِ أَنْ نُثْبُتَ عَلَى الحَقِّ وَلا نَذْهَبَ مَعَ المُخَالِفِيْنَ.

[٩٥] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً، وَهِيَ الجَمَاعَةُ» قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ اليَوْمَ وَأَصْحَابِي».

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَاعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً، وَهِيَ الجَمَاعَةُ») اللهُ - جَلَّ وَعَلا - أَمَرَنَا بِالاجْتِمَاعِ عَلَى الحَقِّ ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩]، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٠٥]، فَنَهَانَا عَنِ التَّفَرُّقِ وَأَمَرَنَا بِالاجْتِمَاعِ وَ الاعْتِصَامِ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَقَالَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فَلا يَجُوزُ التَّفَرُّقُ وَالاخْتِلافُ تَبَعًا لِلأَهْوَاءِ، أَوْ تَقْلِيدًا لِلآبَاءِ وَالأَجْدَادِ أَوْ تَقْلِيدًا لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، إِذِ الاخْتِلافُ لا يَجُوزُ فِي أُمُورِ العَقِيدَةِ وأُصُولِ الدِّينِ، وَإِنَّمَا يَجِبُ الاتِّفَاقُ والاجْتِمَاعُ عَلَيْهَا.

وَأَمَّا الاخْتِلافُ فِي المَسَائِلِ الفِقْهِيَّةِ فَهَذَا يَحْصُلُ وَلَكِنْ يَجِبُ الرُّجُوعُ إِلَى مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ مِنَ الأَقْوَالِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]، إِذًا الاخْتِلافُ فِي العَقِيدَةِ لا يَجُوزُ؛ لأَنَّ العَقِيدَةَ تَوْقِيفِيَّة، لَيْسَتْ مَحَلَّ اجْتِهَادٍ.

وَأَمَّا فِي مَسَائِلِ الفِقْهِ، والاسْتِنْبَاطِ: فَكُلٌّ يَجْتَهِدُ وَيَسْتَنْبِطُ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ المُؤَهَّلِيْنَ لِلاجْتِهَادِ، وَقَدْ يَخْتَلِفُونَ فِي وُجُهَاتِ نَظَرِهِمْ وَلَكِنْ لا يَبْقَوْنَ عَلَى الاخْتِلافِ، بَلْ يَرْجِعُونَ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَمَنْ كَانَ مَعَهُ الدَّلِيلُ تَبِعُوهُ

وَأَخذُوا بِقَوْلِهِ، وَتَركُوا رَأْيَهُمْ. هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَهَذَا الَّذِي أَرْشَدَنَا الرَّسُولُ ﷺ إِلَيْهِ، أَمَّا أَنْ نَقُولَ: اتْرُكُوا النَّاسَ كُلٌّ يَأْخُذ بِرَأْيِهِ، وَاخْتِلافُ الأُمَّةِ رَحْمَةٌ كَمَا يَقُولُونَ، فنَقُولُ: هَذَا بَاطِلٌ، اللهُ جَلَّ وَعَلا يَقُولُ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، فَدَلَّ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ رَحِمَهُمُ اللهُ لَمْ يَخْتَلِفُوا، وَعَلَى أَنَّ الاخْتِلافَ عَذَابٌ وَلَيْس رَحْمَةً، الرَّحْمَةُ: لِلَّذِيْنَ لَمْ يَخْتَلِفُوا، وَإِنِ اخْتَلَفُوا رَجَعُوا إِلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَأَخَذُوا بِالصَّحِيحِ وَتَركُوا الخَطَأَ، هَذِهِ طَرِيقَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ، أَمَّا أَنْ يَبْقَى كُلٌّ عَلَى رَأْيِهِ، وَمَا قَالَ بِهِ فُلانٌ، وَفُلانٌ، فَلَيْسَتْ هَذِهِ طَرِيقَةَ المُسْلِمِينَ، هَذِهِ طَرِيقَةُ أَهْلِ الأَهْوَاءِ وَأَهْلِ الشَّهَوَاتِ، يَتَلَمَّسُونَ مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ مِنَ الأَقْوَالِ، وَيُوَافِقُ رَغْبَتَهُمْ، وَمَا يُخَالِفُ رَغْبَتَهُمْ يَتْرُكُونَهُ، وَلَو قَالَ بِهِ الإِمَامُ الَّذِي يَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ، يَعْنِي لا يَأْخُذُونَ مِنْ أَقْوَالِ الأَئِمَّةِ وَالعُلَمَاءِ إِلاَّ مَا يُوَافِقُ رَغَبَاتِهِمْ، أَمَّا مَا يُخَالِفُ رَغَبَاتِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَرْفُضُونَهُ. فَهَذَا دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ، فَمَا وَافَقَ هَوَاهُمْ أَخَذُوا بِهِ، وَمَا خَالَفَ هَوَاهُمْ تَرَكُوهُ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُنَادَى بِهِ الآنَ فِي الصُّحُفِ وَالمَجَلاَّتِ وَالنَّدَوَاتِ وَالمُؤْتَمَرَاتِ فِي الغَالِبِ وَفِي الفَضَائِيَّاتِ، يُرَوِّجُونَ الخِلافَ ويَقُولُونَ: نُوَسِّعُ لِلنَّاسِ! بِمَاذا نُوَسِّعُ لِلنَّاسِ؟ بِتَرْكِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالذَّهَابِ مَعَ الأَقْوَالِ الَّتِي أَهْلُهَا لَيْسُوا مَعْصُومِيْنَ، يُخْطِئُونَ ويُصِيبُونَ؟! وَهُمْ يَنْهَونَنَا أَنْ نَأْخُذَ مِنْ أَقْوَالِهِمْ إِلاَّ مَا وَافَقَ الدَّلِيلَ، هُمْ يَنْهَوْنَنَا عَنْ أَخذِ أَقْوَالِهِمْ إِذَا خَالَفَتِ الدَّلِيلَ، فَهَذَا أَمْرٌ يَجِبُ مَعْرِفَتُهُ؛ لأَنَّ النَّاسَ اليَوْمَ ابْتُلُوا بِهَؤُلاءِ الَّذِيْنَ يُلَبِّسُونَ عَلَى النَّاسِ.

فقَوْلُهُ: (**وَاعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إلاَّ وَاحِدَةً»**) هَذَا الحَدِيثُ صَحِيحٌ بِمَجْمُوعِ طُرُقِهِ وَرِوَايَاتِهِ الكَثِيْرةِ، قَدْ خَرَّجَهُ الأَئِمَّةُ وَأَثْنوا عَلَيْهِ، وَالوَاقِعُ يُصَدِّقُهُ، حَيْثُ أَخْبَرَ ﷺ أَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ المُحَمَّدِيَّةِ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةً. وَهَذِهِ أُصُولُ الفِرَقِ، وَهُنَاكَ

أَكْثَرُ مِنْ هَذِهِ الفِرَقِ، لَكِنْ هَذِهِ أُصُولُهَا، كُلُّهَا فِي النَّارِ، يَعْنِي اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِيْنَ كُلَّهَا فِي النَّارِ، إِلاَّ وَاحِدَةً، وَهِيَ الثَّالِثَةُ والسَّبْعُونَ وَهِيَ مِنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وأَصْحَابُهُ، فهَذِهِ نَاجِيَةٌ مِنَ النَّارِ، وَلِذَا تُسَمَّى الفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ، وَيُسَمَّوْنَ أَهْلَ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ، ومَا عَدَاهُم فهُمْ مُخَالِفُونَ، وَمُتَوَعَّدُونَ بِالنَّارِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ لِكُفْرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ النَّارِ لِفسْقِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ لِمَعْصِيَتِهِ. لَيْسُوا سَوَاءً فِي دُخُولِهِمُ النَّارَ. فَلا يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا الحَدِيثِ أَنَّ هَذِهِ الفِرَقَ كُلَّهَا كَافِرَةٌ.

قَوْلُهُ: (**وَهِيَ الجَمَاعَةُ**) الجَمَاعَةُ: مَنْ كَانَ عَلَى الحَقِّ وَلَو كَانَ وَاحِدًا هَذَا هُوَ الجَمَاعَةُ، أَمَّا الكَثْرَةُ وَحْدَهَا فَلا تَدُلُّ عَلَى الحَقِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [الأنعام:١١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ [يوسف:١٠٣]، ﴿**وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ**﴾ [الأعراف:١٠٢]، فَلَيْسَتِ العِبْرَةُ بِالكَثْرَةِ، العِبْرَةُ بِمَنْ كَانَ عَلَى الحَقِّ وَلَو كَانُوا قَلِيلِيْنَ، وَلَو كَانَ وَاحِدًا فَهُوَ الجَمَاعَةُ.

قَوْلُهُ: «**قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ اليَوْمَ وَأَصْحَابِي**» هَذَا هُوَ الطَّرِيقُ الصَّحِيحُ، مَنْ كَانَ عَلَى مَا عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وأَصْحَابُهُ فَهُوَ الجَمَاعَةُ.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: هَكَذَا كَانَ الدِّينُ إِلَى خِلافَةِ عُمَرَ ابنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه الجَمَاعَةُ كُلُّهَا، وَهَكَذَا فِي زَمَنِ عُثْمَانَ، فَلَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ رضي الله عنه جَاءَ الاخْتِلافُ وَالبِدَعُ، وَصَارَ النَّاسُ أَحْزَابًا، وصَارُوا فِرَقًا، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ ثَبَتَ عَلَى الحَقِّ عِنْدَ أَوَّلِ التَّغْيِيرِ، وَقَالَ بِهِ، وَعَمِلَ بِهِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَيْهِ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (هَكَذا كَانَ الدِّينُ إِلَى خِلافَةِ عُمَرَ بن الخَطَّابِ رضي الله عنه الجَمَاعَةُ كُلُّهَا، وَهَكَذَا فِي زَمَنِ عُثْمَانَ) فِي حَيَاةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْن كَانَ المُخَالِفُون مُخْتَفِيْنَ مُنْدَسِّيْنَ بَيْنَ النَّاسِ كَالقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَذَلِكَ لِقُوَّةِ الإِسْلام وَقُوَّةِ المُسْلِمِينَ، إِلَى أَنْ دَسَّ اليَهُودُ رَجُلًا يَهُودِيًّا مِنَ اليَمَنِ يُقَالُ لَهُ: ابنُ السَّوْدَاءِ عَبْدُ الله بنُ سَبَإٍ اليَهُودِيُّ، فَجَاءَ إِلَى المَدِيْنَةِ وَأَظْهَرَ الإِسْلامَ فِي خِلافَةِ عُثْمَانَ رضي الله عنه، وَجَعَلَ يَسُبُّ عُثْمَانَ فِي المَجَالِسِ، لأَنَّهُ ادَّعَى الإِسْلامَ خُدْعَةً، ثُمَّ أَخَذَ يَنْفُثُ سُمُومَهُ فِي المَجَالِسِ وَيَحْضُرُهُ السُّفَهَاءُ، وَالأَوْغَادُ وَالجُهَّالُ، وَبَعْضُ النَّاسِ أَوْ كَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ يَهْوَوْنَ السَّبَّ وَالقِيلَ وَالقَالَ، فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ، وَلَمَّا فُطِنَ لَهُ وَطُرِدَ مِنَ المَدِيْنَةِ، ذَهَبَ إِلَى مِصْرَ، وَوَجَدَ قَرْيَةً فِي مِصْرَ مَشْهُورَةً بِالشِّقَاقِ فَانْغَمَسَ فِيْهَا، وَنَشَرَ سُمُومَهُ فِيْهَا، وَسَبَّ عُثْمَانَ، ثُمَّ فِي النِّهَايَةِ تَكَوَّنَ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ مَعَهَا سِلاحٌ وَقُوَّةٌ، فَجَاءوا إِلَى عُثْمَانَ رضي الله عنه يَعْتَرِضُونَ عَلَيْهِ، وَيُخَطِّئُونَهُ، فَعُثْمَانُ رضي الله عنه أَجَابَهُمْ وَدَحَضَ شُبَهَهُمْ، ثُمَّ رَجَعُوا، ثُمَّ تَلاوَمُوا فِي الطَّرِيقِ وَقَالُوا مَا عَمِلْنَا شَيْئًا، ثُمَّ رَجَعُوا عَلَى عُثْمَانَ رضي الله عنه وَحَاصَرُوهُ فِي بَيْتِهِ، وَالصَّحَابَةُ أَرَادُوا أَنْ يُدَافِعُوا عَنِ الخَلِيْفَةِ وَلَكِنَّ عُثْمَانَ رضي الله عنه نَهى عَنْ ذَلِكَ خَشْيَةَ الفِتْنَةِ، وَخَشْيَةَ سَفْكِ الدِّمَاءِ، نَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ عَلَى أَمَلِ أَنَّ المَسْأَلَةَ فِيْهَا مُحَاوَرَةٌ وَمُرَاجَعَةٌ، يُرِيدُ أَنْ يُقْنِعَهُمْ، لَكِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا أَنَّهُم لَمْ يُدْرِكُوا شَيْئًا بِالحُجَّةِ قَفَزُوا عَلَيْهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ

نِيَامٌ، وَقَتَلُوهُ ﷺ، لَمَّا رَأَوْا أَنَّ شُبُهَاتِهِمْ دَاحِضَةٌ وَلا قَبُولَ لَهَا؛ انْتَهَزُوا الفُرْصَةَ فِي غَفْلَةٍ، وَأَغْلَبُ النَّاسِ فِي الحَجِّ وَالنَّاسُ فِي المَدِيْنَةِ كَانُوا نَائِمِيْنَ وَآمِنِيْنَ، عَلَى أَنَّ المَسْأَلَةَ فِيْهَا مُحَاوَرَةٌ وَمُرَاجَعَةٌ؛ فَقَفَزُوا عَلَيْهِ فِي اللَّيْلِ قَبَّحَهُمُ اللهُ، فِي بَيْتِهِ، وَقَتَلُوهُ، شَهِيْدًا ﷺ، وَهُوَ يَتْلُو القُرْآنَ وَمَعَهُ مُصْحَفٌ حَتَّى سَالَ دَمُهُ عَلَى المُصْحَفِ ﷺ. فَحِينَئِذٍ حَدَثَتِ الفِتْنَةُ، وَادَّعَى هَذَا الخَبِيثُ أَنَّ الخِلافَةَ لِعَلِي وَأَنَّهَا لَيْسَتْ لأَبِي بَكْرٍ وَلا لِعُمَرَ وَلا لِعُثْمَانَ، وَإِنَّمَا هِي لِعَلِيٍّ وَأَنَّ عَلِيًّا هُوَ وَصِيُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَنَّ هَؤُلاءِ ظَلَمُوا الخِلافَةَ وَأَخَذُوهَا اغْتِصَابًا مِنْ عَلِيٍّ، وَالعَجِيبُ أَنَّ عَلِيًّا ﷺ مَا ادَّعَى هَذَا، وَلا طَالَبَ بِالخِلافَةِ، وَلا قَالَ أَنَا أَحَقُّ بِهَا، بَلْ كَانَ مُبَايِعًا وَسَامِعًا وَمُطِيعًا لإِخْوَانِهِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ﷺ جَمِيعًا، عِنْدَ ذَلِكَ حَصَلَتِ الفِتْنَةُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَحَصَلَ القِتَالُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ بِسَبَبِ هَذَا الخَبِيثِ الَّذِي انْدَسَّ فِي صُفُوفِ المُسْلِمِينَ، وَلَكِنَّ اللهَ خَيَّبَ ظَنَّهُ، صَحِيْحٌ أَنَّهُ حَصَلَ عَلَى المُسْلِمِينَ مِحْنَةٌ قُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ، لَكِنَّهُ مَا عَمِلَ شَيْئًا بِالإِسْلامِ، الإِسْلامُ وَللهِ الحَمْدُ بَقِيَ عَزِيزًا وَقَائِمًا وَلَمْ يَنَلْ مِنْهُ شَيْئًا، وَمَا أَدْرَكَ هُوَ وَاليَهُودُ شَيْئًا مِنْ هَذَا الدِّيْنِ وَالحَمْدُ للهِ. نَعَمْ حَصَلَ عَلَى الصَّحَابَةِ بَعْضُ المُصِيبَةِ وَالفِتْنَةِ وَالقَتْلِ لَكِنْ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ ﷺ وَأَرْضَاهُمْ، وَلَمْ يَحْصُلْ هَذَا الخَبِيثُ عَلَى طَائِلٍ وَالحَمْدُ للهِ.

هَذَا مُلَخَّصُ قَضِيَّةِ الفِتْنَةِ بِمَقْتَلِ عُثْمَانَ ﷺ. وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لا يَجُوزُ الخُرُوجُ عَلَى وَلِيِّ الأَمْرِ، وَأَنَّ الخُرُوجَ عَلَيْهِ يُسَبِّبُ شَرًّا فِي الأُمَّةِ وَسَفْكَ دِمَاءٍ، وَلا يَزَالُ النَّاسُ فِي فِتَنٍ مِنْ ذَلِكَ العَهْدِ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ دُعَاةَ الفِتْنَةِ الَّذِيْنَ يَدْعُونَ إِلَى الفِتْنَةِ وَالخُرُوجِ عَلَى وُلاةِ الأُمُورِ وبِحُجَّةِ إِنْكَارَ المُنْكَرِ، فَظَهَرَتِ المُعْتَزِلَةُ والخَوَارِجُ كُلُّهُ مِنْ هَذَا البَابِ، وَلا تَزَالُ إِلَى الآنَ.

قَوْلُهُ: (**فَلَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ ﷺ جَاءَ الاخْتِلافُ وَالبِدَعُ**) يَجِبُ الحَذَرُ مِنْ دُعَاةِ الضَّلالِ وَلا يُتَسَاهَلُ فِي أَمْرِهِمْ، وَأَنَّهُ لا يَجُوزُ الكَلامُ فِي وُلاةِ الأُمُورِ، وَلِهَذَا

أَوْصَى ﷺ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَعَدَمِ الخُرُوجِ عَلَى وُلاةِ الأُمُورِ وَإِنْ جَارُوا، وَإِنْ ظَلَمُوا وَإِنْ فَسَقُوا مَا لَمْ يَصِلُوا إِلَى حَدِّ الكُفْرِ الصَّرِيحِ، هكَذَا أَوْصَانَا رَسُولُ الله ﷺ.

قَوْلُهُ: **(وَصَارَ النَّاسُ فِرَقًا، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ ثَبَتَ عَلَى الحَقِّ عِنْدَ أَوَّلِ التَّغْيِيرِ، وَقَالَ بِهِ وَعَمِلَ بِهِ وَدَعَا إِلَيْهِ)** لَمَّا حَصَلَتِ الفِرَقُ وَالاخْتِلافُ ثَبَّتَ اللهُ أَهْلَ الحَقِّ وَالسُّنَّةِ، وَسَارُوا عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُول ﷺ وَأَصْحابُهُ رضي الله عنهم. وَالفِرَقُ الأُخْرَى خَالَفَتْ مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وأَصْحَابُهُ، فَاسْتَحَقُّوا الوَعِيْدَ بِالنَّارِ، بِحَسَبِ مَا حَصَلَ مِنْهُم.

قَالَ المُؤَلِّفُ ﷺ: فَكَانَ الأَمْرُ مُسْتَقِيمًا حَتَّى كَانَتِ الطَّبَقَةُ الرَّابِعَةُ فِي خِلافَةِ بَنِي فُلانٍ انْقَلَبَ الزَّمَانُ، وَتَغَيَّرَ النَّاسُ جِدًّا، وَفَشَتِ البِدَعُ، وَكَثُرَ الدُّعَاةُ إِلَى غَيْرِ سَبِيلِ الحَقِّ وَالجَمَاعَةِ، وَوَقَعَتِ المِحْنَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلا أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (فَكَانَ الأَمْرُ مُسْتَقِيمًا حَتَّى كَانَتِ الطَّبَقَةُ الرَّابِعَةُ فِي خِلافَةِ بَنِي فُلانٍ انْقَلَبَ الزَّمَانُ، وَتَغَيَّرَ النَّاسُ جِدًّا، وَفَشَتِ البِدَعُ) زَادَ الخِلافُ وَزَادَتِ الفِتَنُ بَعْدَ انْقِضَاءِ القُرُونِ المُفَضَّلَةِ حَتَّى جَاءَ عَهْدُ العَبَّاسِيِّينَ وَظَهَرَ فِيهِمُ المَأْمُونُ العَبَّاسِيُّ، وَتَبِعَهُ المُعْتَصِمُ وَالوَاثِقُ، وأَخَذُوا بِقَوْلِ الجَهْمِيَّةِ، وَأَرَادُوا أَنْ يُجْبِرُوا أَهْلَ السُّنَّةِ عَلَيْهِ وَهُوَ القَوْلُ بِخَلْقِ القُرْآنِ، وَقَتَلُوا بَعْضَ الأَئِمَّةِ، وَضَرَبُوا البَعْضَ الآخَرَ، وَلَكِنَّ الحَقَّ ثَابِتٌ وَللهِ الحَمْدُ لا يَتَزَحْزَحُ.

قَوْلُهُ: (وَكَثُرَ الدُّعَاةُ إِلَى غَيْرِ سَبِيلِ الحَقِّ وَالجَمَاعَةِ) كَثِيرٌ الآنَ مَنْ يَقُولُونَ: إِنَّهُم دُعَاةٌ؛ وَيَكُونُونَ جَمَاعَاتٍ وَفِرَقًا تَحْتَ هَذَا الغِطَاءِ، وَهُمْ يُرِيدُونَ دَعْوَةَ النَّاسِ إِلَى الضَّلالِ، إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللهُ مِمَّنِ اسْتِقَامَ عَلَى دَعْوَةِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَنْهَجِ الرَّسُولِ ﷺ فِي دَعْوَتِهِ فَهَذَا عَلَى حَقٍّ، وَهَذِهِ هِيَ الدَّعْوَةُ الحَقُّ، مَا كُلُّ مَنْ تَسَمَّى بِالدَّعْوَةِ يَكُونُ صَحِيحًا حَتَّى يُنْظَرَ فِي مَنْهَجِهِ الَّذِي يَسِيرُ عَلَيْهِ، فَإِنْ كَانَ يَسِيرُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وأَصْحَابُهُ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ إِلَى حَقٍّ، وَإِنْ كَانَ مُخَالِفًا لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ فِي مَنْهَجِ الدَّعْوَةِ فَهُوَ عَلَى بَاطِلٍ وَلا يُغْتَرَّ بِقَوْلِهِ: إِنَّهُ مِنَ الدُّعَاةِ، هُنَاكَ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَطَاعَهُمْ قَذَفُوهُ فِيهَا كَمَا قَالَ ﷺ، وَلِهَذَا قَالَ المُؤَلِّفُ: (وَكَثُرَ الدُّعَاةُ إِلَى غَيْرِ سَبِيلِ الحَقِّ وَالجَمَاعَةِ) كَمَا هُوَ وَاقِعٌ الآنَ، كَثِيرٌ يَزْعُمُونَ أَنَّهُم يَدْعُونَ إِلَى الإِسْلامِ تَحْتَ هَذَا الغِطَاءِ، وَإِذَا نُظِرَ فِي

مَنْهَجِهِمْ وَتَصَرُّفَاتِهِمْ وُجِدَتْ مُخَالِفَةً لِلإِسْلامِ تَمَامًا.

قَوْلُهُ: (**وَوَقَعَتِ المِحْنَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ** رضي الله عنهم) كَثُرَ الكَلامُ وَالاخْتِلافُ وَالقِيلُ وَالقَالُ وَدَعْوَى العِلْمِ وَلَكِنَّ كُلَّ هَذَا يَضْمَحِلُّ ويَبْقَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَهُوَالمَنْهَجُ السَّلِيْمُ وَالصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، لَكِنْ هَذَا يَحْتَاجُ إِلَى أَمْرَيْنِ:

أَوَّلًا: العِلْمُ النَّافِعُ، الَّذِي تَعْرِفُ بِهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

ثَانِيًا: الصَّبْرُ وَالثَّبَاتُ، وَلا تَتَزَحْزَحْ مَعَ الفِتَنِ أَوْ مَعَ دُعَاةِ الضَّلالِ، بَلْ تَكُونُ ثَابِتًا، وَتَصْبِرُ عَلَى مَا أَصَابَكَ مِنَ اللَّوْمِ وَالعِتَابِ أَوِ التَّهْدِيدِ مَا دُمْتَ عَلَى الحَقِّ تَصْبِرُ ﴿**وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ**﴾ [لقمان:١٧].

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَدَعَوْا إِلى الفُرْقَةِ وَقَدْ نَهى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الفُرْقَةِ، وَكَفَّرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَكُلٌّ دَعَا إِلَى رَأْيِهِ وَإِلَى تَكْفِيرِ مَنْ خَالَفَهُ فَضَلَّ الجُهَّالُ وَالرِّعَاعُ وَمَنْ لا عِلْمَ لَهُ، وَأَطْمَعُوا النَّاسَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، وَخَوَّفُوهُمْ عِقَابَ الدُّنْيَا، فَاتَّبَعَهُمُ الخَلْقُ عَلَى خَوْفٍ فِي دِينِهِم وَرَغْبَةٍ فِي دُنْيَاهُمْ.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (وَدَعَوْا إِلى الفُرْقَةِ وَقَدْ نَهى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الفُرْقَةِ) نَهى اللهُ عَنِ الفُرْقَةِ فَقَالَ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران:١٠٥]، ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البيِّنة:٤]، فَهُمُ افْتَرَقُوا لا عَنْ جَهْلٍ وَإِنَّما عَنْ عِلمٍ.

قَوْلُهُ: (وَكَفَّرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا) صَارَتِ الفِرَقُ يُكَفِّرُ بَعْضُها بَعْضًا، هَذِهِ سِمَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَيْهِم، وَهَذَا دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّهُمْ عَلَى بَاطِلٍ كُلَّهُمْ، أَمَّا أَهْلُ الحَقِّ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ فَلا يُكَفِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَإِنَّمَا يُوَالِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيُحِبُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَتَعَاضَدُونَ وَيَتَنَاصَحُونَ؛ وَكَذَلِكَ لا يُكَفِّرُونَ الفِرَقَ الأُخْرَى إِلاَّ مَنْ دَلَّ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى كُفْرِهِ، وَإِلاَّ فَهُمْ مُعْتَدِلُونَ فِي مَسْأَلَةِ التَّكْفِيرِ، لا يُكَفِّرُونَ إِلاَّ مَا قَامَ الدَّلِيْلُ عَلَى كُفْرِهِ، وَلا يَسْتَعْجِلُونَ فِي هَذَا الأَمْرِ.

قَوْلُهُ: (وَكُلٌّ دَعَا إِلَى رَأْيِهِ وَتَكْفِيرِ مَنْ خَالَفَهُ) هَذِهِ سِمَةُ أَهْلِ الضَّلالِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣]، ﴿زُبُرًا﴾ يَعْنِي: كُتُبًا، يُؤَلِّفُونَ كُتُبًا، وَهَذَا وَاقِعٌ، يُؤَلِّفُونَ الكُتُبَ لِنُصْرَةِ مَذْهَبِهِمْ وَحِزْبِهِمْ، وَيفْرَحُونَ بِما هُم عَلَيْهِ، هُمْ لَوْ كَانُوا عَلَى جَهْلٍ لَرُجِي أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ، لَكِنْهُمْ فَرِحُونَ بِما هُمْ عَلَيْهِ مِنَ البَاطِلِ، وَيَعْتَقِدُونَهُ حَقًّا، وَهَذِهِ عُقُوبَةٌ مِنَ اللهِ لَهُمْ.

قَوْلُهُ: (**فَضَلَّ الجُهَّالُ والرَّعَاعُ وَمَنْ لا عِلْمَ عِنْدَهُ**) ضَلَّلُوا الجُهَّالَ وَالرَّعَاعَ وَمَنْ لاعِلْمَ لَهُمْ، أَمَّا أَهْلُ الحَقِّ، وَأَهْلُ العِلْمِ فَإِنَّهُمْ لا يَتَأَثَّرُونَ بِهَذِهِ الفِرَقِ، وَهَذِهِ الضَّلالاتِ؛ لأَنَّهُم يَعْرِفُونَ أَنَّهَا بَاطِلٌ.

قَوْلُهُ: (**وَأَطْمَعُوا النَّاسَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، وَخَوَّفُوهُمْ عِقَابَ الدُّنْيَا**) كَذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ فِتْنَتِهِمْ أَنَّهُمْ يُعْطُونَ أَتْبَاعَهُمْ شَيْئًا مِنَ الطَّمَعِ.

قَوْلُهُ: (**فَاتَّبَعَهُمُ الخَلْقُ عَلَى خَوْفٍ فِي دِينِهِمْ، وَرَغْبَةٍ فِي دُنْيَاهُمْ**) كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يُحِبُّونَ الدُّنْيَا فَيَتَّبِعُونَ مَنْ يَبْذُلُ شَيْئًا مِنَ المالِ وَلَو كَانَ عَلَى بَاطِلٍ طَمَعًا فِي المَالِ.

قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: فَصَارَتِ السُّنَّةُ وَأَهْلُ السُّنَّةِ مَكْتُومِيْنَ وَظَهَرتِ البِدْعَةُ وَفَشَتْ، وَكَفَّرُوا مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ مِنْ وُجُوهٍ شَتَّى، وَوَضَعُوا القِيَاسَ، وَحَمَلُوا قُدْرَةَ الرَّبِّ وَآيَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ عَلَى عُقُولِهِمْ وَآرَائِهِمْ فَمَا وَافَقَ عُقُولَهُمْ قَبِلُوهُ، وَمَا خَالَفَ عُقُولَهُمْ رَدُّوهُ فَصَارَ الإِسْلامُ غَرِيبًا، وَالسُّنَّةُ غَرِيبَةً، وَأَهْلُ السُّنَّةِ غُرَبَاءَ فِي جَوْفِ دِيَارِهِمْ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (فَصَارَتِ السُّنَّةُ وَأَهْلُ السُّنَّةِ مَكْتُومِيْنَ وَظَهَرَتِ البِدْعَةُ وَفَشَتْ) بَعْدَ أَنْ كَانَ أَهْلُ السُّنَّةِ ظَاهِرِيْنَ فِي القُرُونِ المُفَضَّلَةِ، وَأَهْلُ الشَّرِّ مَكْبُوتِيْنَ انْقَلَبَ الأَمْرُ؛ وَصَارَ أَهْلُ السُّنَّةِ مَكْبُوتِيْنَ، وَأَهْلُ البَاطِلِ ظَاهِرِينَ لَكِنَّ هَذَا لا يَدُومُ، وَإِن ظَهَرَ أَهْلُ البَاطِلِ فِي فَتْرَةٍ فَسَيَنْحَطُّونَ فِي المُسْتَقْبَلِ وَيَتَكَسَّرُونَ فِي المُسْتَقْبَلِ، وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِيْنَ دَائِمًا وَأَبَدًا، وَالإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رحمه الله يَقُولُ:

وَالحَقُّ مَنصُورٌ وَمُمتَحَنٌ فَلا ... تَعجَبْ فَهَذِي سُنَّةُ الرَّحمَنِ

قَوْلُهُ: (وَوَضَعُوا القِيَاسَ) القِيَاس يَعْنِي فِي العَقِيدَةِ، لأَنَّ العَقِيدَةَ لَيْسَ فِيهَا قِيَاسٌ، لأَنَّهَا تَوْقِيفِيَّةٌ لا يُعْمَلُ إِلاَّ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الدَّلِيْلُ وَلا يُقَاسُ فِي العَقَائِدِ، القِيَاسُ إِنَّمَا هُوَ فِي الفِقْهِ.

قَوْلُهُ: (وَحَمَلُوا قُدْرَةَ الرَّبِّ وَآيَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ عَلَى عُقُولِهِمْ وَآرَائِهِمْ) هَذَا هُوَ القِيَاسُ البَاطِلُ، القِيَاسُ فِي حَقِّ اللهِ - جَلَّ وَعَلا -، الَّذِي لا تَتَصَوَّرُهُ عُقُولُهُمْ وَآرَاؤُهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَرُدُّونَ بِقِيَاسِ عُقُولِهِمْ كَلامَ اللهِ وَكَلامَ رَسُولِهِ.

قَوْلُهُ: (فَمَا وَافَقَ عُقُولَهُمْ قَبِلُوهُ، وَمَا خَالَفَ عُقُولَهُمْ رَدُّوهُ) فَهُمْ يُحَكِّمُونَ عُقُولَهُمْ وَآرَاءَهُمْ؛ فَمَا خَالَفَهَا رَدُّوهُ؛ إِمَّا بِالتَّأْوِيلِ، وَإِمَّا بِالرَّفْضِ وَعَدَمِ القَبُولِ.

قَوْلُهُ: (فَصَارَ الإِسْلامُ غَرِيبًا، وَالسُّنَّةُ غَرِيبَةً، وَأَهْلُ السُّنَّةِ غُرَبَاءَ فِي جَوْفِ دِيَارِهِمْ)؛ كَمَا قَالَ ﷺ: «بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ» قَالُوا: مَنِ الغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الَّذِيْنَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ» وفِي رِوَايَةٍ: «يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ»[1] يَصْلُحُونَ بِأَنْفُسِهِمْ وَيُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ، هَؤُلاءِ هُمُ الغُرَبَاءُ، لِمَاذَا سُمُّوا غُرَبَاءَ؟ لأَنَّ مَنْ يُخَالِفُهُمْ كَثِيرٌ، وَمَنْ يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ كَثِيرٌ، فَهُمْ غُرَبَاءُ بَيْنَ مُوَاطِنِيهِمْ وَمُعَاصِرِيهِمْ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه حتى قوله: «**فطوبى للغرباء**».
وأخرج القصة كاملة الترمذي (٢٦٣٠)، وأحمد (٤/ ٧٣) وغيرهم، وضعفه الشيخ الألباني بهذه السياق في «ضعيف الجامع» (١٤٤١).

[٩٦] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ المُتْعَةَ - مُتْعَةَ النِّسَاءِ - والاسْتِحْلالَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

الشَّرْح

هَذِهِ مَسْأَلَةٌ فِقْهِيَّةٌ وَلَكِنْ أَتَى بِهَا؛ لأَنَّ لَهَا تَعَلُّقًا بِالعَقِيدَةِ؛ لأَنَّ المُتْعَةَ تَحْلِيلٌ لِمَا حَرَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَالمُتعَةُ: مَعْنَاهَا أَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً مُدَّةً مُحَدَّدَةً طَوِيلَةً أَوْ قَصِيرَةً، وَبَعْدَهَا يَنْتَهِي الزَّوَاجُ تِلْقَائِيًّا، وَلا يَحْتَاجُ إِلَى طَلاقٍ.

كَانَتِ المُتْعَةُ جَائِزَةً فِي أَوَّلِ الإِسْلامِ، ثُمَّ حَرَّمَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ، ثُمَّ أَبَاحَهَا يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، ثُمَّ حَرَّمَهَا تَحْرِيمًا مُؤَبَّدًا، فَهِيَ أَوَّلًا كَانَتْ حَلالًا، ثُمَّ حُرِّمَتْ، ثُمَّ أُبِيحَتْ، ثُمَّ حُرِّمَتْ إِلَى الأَبَدِ، وَأَجْمَعَ المُسْلِمُونَ عَلَى تَحْرِيمِها وَأَنَّهَا نِكَاحٌ بَاطِلٌ، وَإِجْمَاعُ الأُمَّةِ عَلَى تَحْرِيمِهَا لَمْ يُخَالِفْ فِيهَا إِلاَّ الشِّيْعَةُ الجَعْفَرِيَّةُ الرَّافِضَةُ، هُمُ الَّذِينَ خَالَفُوا فِيهَا، وَخِلافُهُمْ لا عِبْرَةَ بِهِ، وَلا قِيمَةَ لَهُ، فَالإِجْمَاعُ وَالنَّصُّ عَلَى تَحْرِيمِ المُتعَةِ، وَهِي نِكَاحٌ بَاطِلٌ، وَلَهَا حُكْمُ الزِّنَى.

قَوْلُهُ: (**المُتْعَةَ - مُتْعَةَ النِّسَاءِ**) يَخْرُجُ بِذَلِكَ مُتْعَةُ الحَجِّ، أَنْ يَتَمَتَّعَ بِالعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ لَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ المُرَاد، التَّمَتُّعُ عَلَيْهِ جُمْهُورُ أَهْلِ العِلْم، لَمْ يُخَالِفْ فِيهِ إِلاَّ عَدَدٌ قَلِيلٌ، أَمَّا مُتْعَةُ النِّسَاءِ فَهِيَ مُحَرَّمَةٌ بِالإِجْمَاعِ لَمْ يُخَالِفْ فِيهِ أَحَدٌ يُعْتَدُّ بِخِلافِهِ، وَالمُتْعَةُ فِي الحَجِّ مَسْأَلَة فِقْهِيَّةٌ، أَمَّا المُتْعَةُ فِي النِّكَاحِ فَهِيَ مَسْأَلَةٌ تَتَعَلَّقُ بِالعَقِيدَةِ؛ لأَنَّهَا اسْتِحْلالٌ لِمَا حَرَّمَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

[٩٧] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: واعْرِفْ لِبَنِي هَاشِمٍ فَضْلَهُمْ؛ لِقَرَابَتِهِمْ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، وَاعْرِفْ فَضْلَ قُرَيْشٍ وَالعَرَبِ وَجَمِيعِ الأَفْخَاذِ، فَاعْرِفْ قَدْرَهُمْ وَحُقُوقَهُمْ فِي الإِسْلامِ، وَمَوْلَى القَوْمِ مِنْهُمْ، وَتَعَرَّفْ لِسَائِرِ النَّاسِ حَقَّهُمْ فِي الإِسْلامِ.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (لِبَنِي هَاشِمٍ) بَنُو هَاشِمِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ؛ لأَنَّ عَبْدَ مَنَافٍ لَهُ أَوْلادٌ هُمْ: هَاشِمٌ جَدُّ الرَّسُولِ ﷺ وَعَبْدُ شَمْسٍ جَدُّ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَنَوْفَلُ بنُ عَبْدِ مَنَافٍ جَدُّ حَكِيمِ بنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالمُطَّلِبُ بنُ عَبْدِ مَنَافٍ جَدُّ بَنِي المُطَّلِبِ، هَؤُلاءِ هُمْ أَوْلادُ عَبْدِ مَنَافٍ، وَالرَّسُولُ ﷺ بُعِثَ فِي بَنِي هَاشِمِ بِنِ عَبْدِ مَنَافٍ، فَهُوَ هَاشِمِيٌّ قُرَشِيٌّ، وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»(١) فَهؤُلاءِ هُمْ قَرَابَةُ الرَّسُولِ ﷺ المُؤْمِنُونَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، هَؤُلاءِ هُمُ القَرَابَةُ الَّذِيْنَ لَهُمْ حَقٌّ عَلَى المُسْلِمِيْنَ، تَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ وَتُبَاحُ لَهُمُ الهَدِيَّةُ، أَمَّا غَيْرُ المُؤْمِنِيْنَ فَلا قِيْمَةَ لَهُمْ وَلَو كَانُوا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، إِمَّا إِذَا اجْتَمَعَ القَرَابَةُ مَعَ الإِيْمَانِ فَلا شَكَّ أَنَّهُمْ يَمْتَازُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَلَهُمْ حَقُّ الإِكْرَامِ وَالتَّوْقِيرِ وَالاحْتِرَامِ وَالتَّقْدِيمِ؛ لأَنَّ هَذَا مِنْ تَوْقِيرِ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِيْنَ فغَايَة مَا هُنَاكَ أَنَّهُم مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَهُمْ كُفَّارٌ، فَلا كَرَامَةَ لَهُمْ؛ وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ كَانَ يَنْتَسِبُ إِلَى بَنِي هَاشِمٍ وَهُوَ لَيْسَ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ وَالاسْتِقَامَةِ فَلا قِيمَةَ لَهُ، فَلَيْس مُجَرَّدُ القَرَابَةِ هُوَ المُقْتَضِي لِلْحَقِّ، وَإِنَّمَا القَرَابَةُ مَعَ الإِيْمَان، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٦) من حديث واثلة بن الأسقع.

﴿ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣] أَيْ: قَرَابَةُ الرَّسُول ﷺ عَلَى قَوْلٍ، وَجَعَلَ اللهُ لَهُمْ حَظًّا مِنَ الخُمُسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال:٤١] قَرَابَةُ الرَّسُولِ ﷺ.

قَوْلُهُ: (واعْرِفْ فَضْلَ قُرَيشٍ وَالعَرَبِ) ثُمَّ مِنْ بَعْدِ بَنِي هَاشِمٍ فَضْلَ المُسْلِمِيْنَ مِنْ قُرَيْشٍ، لَهُم فَضْلٌ عَلَى بَقِيَّةِ العَرَبِ، ثُمَّ العَرَبُ لَهُم فَضْلٌ عَلَى العَجَمِ، لِمَاذَا؟ لأَنَّ اللهَ أَنْزَلَ القُرْآنَ بِلُغَتِهِمْ، وَبَعَثَ الرَّسُولَ ﷺ مِنْهُمْ، وَاخْتَارَهُمْ لِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ - جَلَّ وَعَلا - فِي القُرْآنِ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أَيْ: القُرْآنُ شَرَفٌ لَكَ، ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾ العرب، ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزُّخرُف:٤٣-٤٤]، سَوْفَ تُسَأَلُونَ عَنِ القِيَامِ بِهَذَا القُرْآنِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَتَبْلِيغِهِ؛ لأَنَّ اللهَ حَمَّلَكُمْ إِيَّاهُ أَنْ تُبَلِّغُوهُ لِبَقِيَّةِ العَالَمِ فَهَذَا وَجْهُ تَفْضِيلِ العَرَبِ، مَا فُضِّلُوا لأَجْلِ أَنَّهُمْ عَرَبٌ فَقَطْ، بَلْ فُضِّلُوا مِنْ أَجْلِ مَا خَصَّهُمُ اللهُ به مِنَ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَبَعْثَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَنَّهُمْ يَقُومُونَ بِتَبْلِيغِ هَذَا الدِّينِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وَقَالَ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]، فَهَذَا وَجْهُ مَزِيَّةِ العَرَبِ، إِذَا تَمَسَّكُوا بِهَذَا الدِّينِ وَبَلَّغُوهُ صَارَ لَهُمْ فَضْلٌ عَلَى غَيْرِهِمْ، أَمَّا مَنْ لَمْ يَتَمسَّكْ بِهَذَا الدِّينِ فَلَيْسَ لَهُ فَضْلٌ، لأَنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرات:١٣]، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «لا فَضْلَ لِعَرَبِي عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلا لأَبْيَض عَلَى أَسْوَدَ إِلا بِالتَّقْوَى، كُلُّكُمْ لآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ» فَهَذَا وَجْهُ تَفْضِيلِ العَرَبِ إِذَا قَامُوا بِهَا حَمَّلَهُمُ اللهُ مِنْ نَشْرِ هَذَا الدِّينِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَبَيَانِه لِلنَّاسِ، فَهُمْ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِمْ.

قَوْلُهُ: (**وجَمِيعِ الأَفْخَاذِ**) الأَفْخَاذُ بضْعٌ مِنَ القَبَائِلِ؛ أَوَّلًا القَبِيلَةُ ثُمَّ الأَفْخَاذُ، فَهِيَ قِطْعَةٌ مِنَ القَبِيلَةِ.

قَوْلُهُ: (**فَاعْرِفْ قَدْرَهُمْ وَحُقُوقَهُمْ فِي الإِسْلامِ**) كُلٌّ عَلَى قَدْرِ فَضْلِهِ وَحَقِّهِ.

قَوْلُهُ: (**وَمَوْلَى القَوْمِ مِنْهُمْ**) هَذَا حَدِيثٌ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، يَعْنِي العَتِيقَ، إِذَا كَانَ عَتِيقًا لِلْهَاشِمِيِّيْنَ يَكُونُ حُكْمُهُ حُكْمَ الهَاشِمِيِّيْنَ أَوْ عَتِيقًا لِغَيْرِهِمْ يَكُونُ حُكْمُهُ حُكْمَهُمْ.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاعْرِفْ فَضْلَ الأَنْصَارِ وَوَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيهِمْ، وَآل الرَّسُولِ فَلا تَسُبُّهُمْ، وَاعْرِفْ فَضْلَهُمْ وَكَرَامَاتِهِمْ، وَجِيْرَانَهُ مِنْ أَهْلِ المَدِيْنَة فَاعْرِفْ فَضْلَهُمْ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَاعْرِفُ فَضْلَ الأَنْصَارِ) مِنَ الأَوسِ والخَزْرَجِ، وصَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَفْضَلِ القُرُونِ؛ لِقَوْلِهِ: «خَيْرُكُم قَرْنِي»[١]؛ وَلأَنَّ اللهَ اخْتَارَهُمْ لِصُحْبَةِ نَبيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ وَلأَنَّهُمْ بَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ وَجَاهَدُوا مَعَهُ وَحَمَلُوا العِلْمَ عَنْهُ وَبَلَّغُوه لِلنَّاسِ، فَالصَّحَابَةُ أَفْضَلُ القُرُونِ، وَلا يلحقهم أحد في فضلهم، قَالَ ﷺ: «لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ»[٢] يَعْنِي: لَوْ تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِذَهَبٍ مِثْلِ جَبَلِ أُحُدٍ لا يُسَاوِي مُدًّا مِنَ الشَّعِيرِ تَصَدَّقَ به صَحَابِيٌّ، فَهَذَا فِيهِ فَضْلُ الصَّحَابَةِ ﷺ.

فَهَذَا فَضْلٌ عَظِيمٌ يَجِبُ أَنْ يُعْرَفَ لَهُمْ رضي الله عنهم، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - قَالَ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة:١٠٠]، وقَالَ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨]، قَالَ تَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ أَيْ: صِفَتُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴿وَمَثَلُهُمْ﴾ أَيْ: صِفَتُهُمْ ﴿فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

(٢) صحيح: سبق تخريجه.

سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩]، هَذِهِ الآيَاتُ فِي الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم تَدُلُّ عَلَى فَضْلِهِمْ وَمَكَانَتِهِمْ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ اللهِ ﷺ، وَهُمْ يَتَفَاضَلُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَالخُلَفَاءُ الأَرْبَعَةُ هُمْ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ بَقِيَّةُ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ، ثُمَّ المُهَاجِرُونَ؛ لأَنَّ اللهَ قَدَّمَهُمْ فِي الذِّكْرِ عَلَى الأَنْصَارِ، وَلأَنَّهُمْ تَرَكُوا دِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَوْطَانَهُمْ للهِ ﷻ، وهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الأَنْصَارِ، ثُمَّ الأَنْصَارُ رضي الله عنهم لأَنَّهُم قَامُوا بِإِيْوَاءِ الرَّسُولِ، وَإِيْوَاءِ المُسْلِمِيْنَ وَمُنَاصَرَتِهِمْ، وَوَاسَوْهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ، وَتَآلَفُوا مَعَهُمْ وَأَحَبُّوهُمْ، وَأَصْحَابُ بَدْرٍ الَّذِيْنَ شَهِدُوا بَدْرًا أَيْضًا لَهُمْ فَضِيلَةٌ وَمَزِيَّةٌ، وَأَصْحَابُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]، ثُمَّ الَّذِيْنَ أَسْلَمُوا قَبْلَ الفَتْحِ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِيْنَ أَسْلَمُوا بَعْدَ الفَتْحِ - فَتْحِ مَكَّةَ - فَهُمْ يَتَفَاضَلُونَ بَيْنَهُمْ، لَكِن هُمْ فِي الجُمْلَةِ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنْ جَمِيعِ الأَجْيَالِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ لا أَحَدَ يُسَاوِيهِمْ.

قَوْلُهُ: **(وَوَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيْهِم)** أَيْ: وَصِيَّةَ الرَّسُولِ ﷺ بِالأَنْصَارِ، قَالَ ﷺ: «**لا يُحِبُّ الأَنْصَارَ إِلاَّ مُؤْمِنٌ، وَلا يُبْغِضُهُمْ إِلاَّ مُنَافِقٌ**».

قَوْلُهُ: **(وَجِيْرَانَهُ مِنْ أَهْلِ المَدِيْنَةِ فَاعْرِفْ فَضْلَهُمْ)** أَيْ: الَّذِي يَسْكُنُ فِي المَدِيْنَةِ وَيَصْبِرُ عَلَيْهَا احْتِسَابًا وَيَصْبِرُ عَلَى أَجْوَائِهَا احْتِسَابا لِلأَجْرِ، وَيُلازِمُ الصَّلاةَ فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ لَهُ أَجْرٌ فِي ذَلِكَ لَيْسَ هُنَاكَ شَكٌّ، أَمَّا الَّذِي يَسْكُنُهَا وَيُفْسِدُ فِيْهَا، وَيُشْرِكُ بِاللهِ ﷻ، وَيَنْشُرُ البِدَعَ؛ فَهَذَا عَذَابُهُ أَشَدُّ، عَذَابُهُ مُضَاعَفٌ، قَالَ ﷺ: «**من أَحْدَثَ فيها حَدَثًا، أو آوى مُحْدِثًا فعَلَيْهِ لَعنَةُ الله، وَالْمَلائِكَةِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ**»[1].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٧٧١)، ومسلم (١٣٧٠) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

[٩٨] قَالَ المُؤَلِّفُ ﷺ: وَاعْلَمْ أَنَّ أَهْلَ العِلْمِ لَمْ يَزَالُوا يَرُدُّونَ قَوْلَ الجَهْمِيَّةِ، حَتَّى كَانَ فِي خِلافَةِ بَنِي العَبَّاسِ تَكَلَّمَتِ الرُّوَيْبِضَةُ فِي أَمْرِ العَامَّةِ، وَطَعَنُوا عَلَى آثَارِ رَسُولِ الله ﷺ، وأَخَذُوا بِالقِيَاسِ وَالرَّأْيِ وكَفَّرُوا مَنْ خَالَفَهُمْ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (**وَاعْلَمْ أَنَّ أَهْلَ العِلْمِ لَمْ يَزَالُوا يَرُدُّونَ قَوْلَ الجَهْمِيَّةِ**) الجَهْمِيَّةُ سَبَقَ تَعْرِيفُهُمْ: أَنَّهُمْ أَتْبَاعُ الجَهْمِ بنِ صَفْوَان الَّذِي نَشَرَ المَقَالَةَ القَبِيحَةَ فِي أَنَّ القُرْآنَ مَخْلُوقٌ، وَجَاهَرَ بِنَفْيِ أَسْمَاءِ الله وَصِفَاتِهِ، وَقَالَ بِالإِرْجَاءِ، وَلَهُ مَذْهَبٌ خَبِيثٌ، فَأَتْبَاعُهُ يُسَمَّوْنَ بِالجَهْمِيَّةِ نِسْبَةً إِلَى الجَهْمِ، وَمِنْ أَشْنَعِ أَقْوَالِهِمُ القَوْلُ بِخَلْقِ القُرْآنِ، وَنَفْيُ الأَسْمَاءِ وِالصِّفَاتِ عَنِ الله ﷻ وَتَحْرِيفُ كَلامِ الله، وَكَلامِ رَسُولِهِ بِالبَاطِلِ، فَهُمْ أَخْطَرُ الفِرَقِ وَأَقْبَحُهَا؛ وَلِذَلِكَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَأَهْلِ العِلْمِ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ بَلْ رَدُّوا شُبُهَاتِهِمْ وَفَنَّدُوا أَقْوَالَهُمْ وَأَبْطَلُوهَا، وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي كُتُبِ أَهْلِ العِلْمِ، مِنْهَا: رَدُّ الإِمَامِ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ ﷺ عَلَى الجَهْمِيَّةِ وَهوَ مَوْجُودٌ مَطْبُوعٌ، وَمِنْهَا: رَدُّ عُثْمَانَ بنِ سَعِيْدٍ الدَّارِمِيِّ عَلَى بِشْرٍ المَرِيسِيِّ العَنِيدِ، وَهوَ مَطْبُوعٌ أَيْضًا.

وَمِنْهَا: «بَيَانُ تَلْبِيسِ الجَهْمِيَّةِ» لِشَيْخِ الإِسْلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ، وَمِنْهَا: «اجْتِماعُ الجُيُوشِ الإِسْلامِيَّةِ عَلَى غَزْوِ المُعَطِّلَةِ وَالجَهْمِيَّةِ» لابنِ القَيِّمِ.

قَوْلُهُ: (**حَتَّى كَانَ فِي خِلافة بَنِي العَبَّاسِ**) فِي خِلافَةِ المَأْمُونِ مِنْ بَنِي العَبَّاسِ حَدَثَ الشَّرُّ، وَتَكَلَّمَ مَنْ لَيْسَ أَهْلًا لِلْكَلامِ فِي العِلْمِ والأُصُولِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ الإِنْسَانُ فِي غَيْرِ اخْتِصَاصِهِ تَفْسُد الأُمُورُ، فَلا بُدَّ أَنْ لا يَتَكَلَّمَ فِي أُمُورِ الدِّيْنِ وَالعِلْمِ إِلَّا أَهْلُ الاخْتِصَاصِ وَأَهْلُ العِلْمِ، فَلا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ الأَمْرُ فَوْضَى،

كُلٌّ يَتَكَلَّمُ وَيَدَّعِي العِلْمَ؛ كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ الآنَ مِنَ المُتَعَالِمِيْنَ الَّذِيْنَ يَجْتَرُّونَ مَسَائِلَ العَقِيدَةِ وَيَتَكَلَّمُونَ فِيهَا، فتكَلَّمُوا فِي الإِيْمَانِ وَحَقِيْقَةِ الإِيْمَانِ، وَتَكَلَّمُوا فِي أَشْيَاءَ وَهُمْ لَيْسُوا فِي العِيرِ وَلا فِي النَّفِيرِ، لَيْسَ عِنْدَهُم عِلْمٌ، وَلا تَعَلَّمُوا عَلَى العُلَمَاءِ إِنَّمَا تَعَلَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَاعْتَمَدُوا عَلَى فَهْمِهِمْ، وَصَارُوا يُقَعِّدُونَ قَوَاعِدَ مِنْ عِنْدِهِمْ وَمِنْ فَهْمِهِمْ، فَالأَمْرُ خَطِيْرٌ جِدًّا.

قَوْلُهُ: **(تَكَلَّمَتِ الرُّوَيْبِضَةُ فِي أَمْرِ العَامَّةِ)** هَذَا فِي الأَثَرِ، «إِذَا تَكَلَّمَتِ الرُّوَيْبِضَةُ» يَعْنِي مِنْ عَلامَاتِ السَّاعَةِ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي أَمْرِ العَامَّةِ مَنْ لَيْسَ مَعْرُوفًا بِالعِلْمِ، هَذِهِ هِيَ الرُّوَيْبِضَةُ وَتَكَلُّمُهُمْ مِنْ عَلامَاتِ السَّاعَةِ، فَلا يَصْلُحُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي أَمْرِ العَامَّةِ وَالمَسَائِلِ العَامَّةِ إِلَّا أَهْلُ العِلْمِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ، لا يَتَدَخَّلُ فِيهَا كُلُّ وَاحِدٍ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ **وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ** ﴾ [النِّسَاء:٨٣]، فالأُمُورُ العَامَّةُ لِلأُمَّةِ لا يَتَكَلَّم فِيهَا إِلَّا أَهْلُ الاخْتِصَاصِ.

قَوْلُهُ: **(وَطَعَنُوا عَلَى آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ)** تَدَخَّلوا حَتَّى فِي الأَحَادِيثِ يَجْرَحُونَ فِيهَا، وَيُؤَلِّفُونَ مُؤَلَّفَاتٍ وَيُصَحِّحُونَ وَيُضَعِّفُونَ وَهُمْ مَا عُرِفُوا بِالعِلْمِ وَلا تَعَلَّمُوا وَلَيْسُوا مِنْ رُوَاةِ الحَدِيثِ وَلا مِنْ أَئِمَّةِ الحَدِيثِ، فَهُمْ رُوَيْبِضَةٌ قَامَتْ وَصَارَتْ تَتَكَلَّمُ فِي أَخْطَرِ شَيْءٍ وَهُوَ عِلْمُ الحَدِيثِ وَعِلْمُ الرِّوَايَةِ.

قَوْلُهُ: **(وَأَخَذُوا بِالقِيَاسِ وَالرَّأْيِ وَكَفَّرُوا مَنْ خَالَفَهُمْ)** المُرَادُ بِالقِيَاسِ هُنَا: القِيَاسُ البَاطِلُ، أَمَّا القِيَاسُ الصَّحِيحُ فَهَذَا مِنْ أُصُولِ الأَدِلَّةِ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ، لَكِنَّ القِيَاسَ البَاطِلَ؛ كَقِيَاسِ الخَالِقِ عَلَى المَخْلُوقِ أَوْ قِيَاسِ مَسْأَلَةٍ لا تَجْتَمِعُ مَعَ المَسْأَلَةِ المَقِيْسِ عَلَيْهَا فِي العِلَّةِ؛ لأَنَّ القِيَاسَ هُوَ: إِلْحَاقُ فَرْعٍ بِأَصْلٍ فِي الحُكْمِ لِعِلَّةٍ جَامِعَةٍ بَيْنَهُمَا، فَإِذَا لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ عِلَّةٌ جَامِعَةٌ فَهَذَا قِيَاسٌ بَاطِلٌ.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: فَدَخَلَ فِي قَوْلِهِمُ الجَاهِلُ وَالمُغَفَّلُ وَالَّذِي لا عِلْمَ لَهُ، حَتَّى كَفَرُوا مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ، فَهَلَكَتِ الأُمَّةُ مِنْ وُجُوهٍ، وَكَفَرَتْ مِنْ وُجُوهٍ، وَتَزَنْدَقَتْ مِنْ وُجُوهٍ، وَضَلَّتْ مِنْ وُجُوهٍ، وَتَفَرَّقَتْ وَابْتَدَعَتْ مِنْ وُجُوهٍ، إِلَّا مَنْ ثَبَتَ عَلَى قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَمْرِهِ وَأَمْرِ أَصْحَابِهِ، وَلَمْ يَتَخَطَّ أَحَدًا مِنْهُمْ، وَلَمْ يُجَاوِزْ أَمْرَهُمْ، وَوَسِعَهُ مَا وَسِعَهُمْ، وَلَمْ يَرْغَبْ عَنْ طَرِيْقَتِهِمْ وَمَذْهَبِهِمْ، وَعَلِمَ أَنَّهُم كَانُوا عَلَى الإِسْلامِ الصَّحِيحِ، والإِيْمَانِ الصَّحِيحِ فَقَلَّدَهُمْ دِيْنَهُ وَاسْتَرَاحَ، وَعَلِمَ أَنَّ الدِّيْنَ إِنَّمَا هُوَ بِالتَّقْلِيدِ، وَالتَّقْلِيدُ لأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (**فَدَخَلَ فِي قَوْلِهِمُ الجَاهِلُ وَالمُغَفَّلُ وَالَّذِي لا عِلْمَ لَهُ**) أَي: انْفَتَحَ البَابُ لِكُلِّ مَنْ هَبَّ وَدَبَّ، فصَارُوا يَتكَلَّمُونَ فِي مَسَائِلِ العِلْمِ، وَالآنَ - كَمَا تَعْلَمُونَ - بِسَبَبِ هَذِهِ الفَضَائِيَّاتِ، وَهَذَا الكَلام وَالفَوْضى العِلْمِيَّة صَارَ حَتَّى العَوَامُّ يَتكَلَّمُونَ فِي مَسَائِلِ العِلْمِ وَيُشَكِّكُونَ فِيْهَا، يُشَكِّكُونَ فِي الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، ويُشَكِّكُونَ فِي فَتَاوَى الأَئِمَّةِ؛ وَكَمَا سَبَقَ أَنَّهُم كَفَّرُوا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى إِنَّهُم كَفَّرُوا الأَئِمَّةَ السَّابِقِيْنَ وَجَهَّلُوهُمْ، حَتَّى إِنَّ بَعضَهُمْ يَقُولُ: «أَنَا إِنْسَانٌ وَأَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ إِنْسَانٌ، نَحْنُ رِجَالٌ وَهُمْ رِجَالٌ، وَمَالِكٌ رَجُلٌ وَأَنَا رَجُلٌ». وَصَلَ بِهِمُ الحَالُ إِلَى هَذَا، وَأَنَّهُ لا مِيْزَةَ لِقَوْلِ الأَئِمَّةِ.

قَوْلُهُ: (**حَتَّى كَفَرُوا مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ**) كَفَرُوا مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ، لأَنَّ الإِنْسَانَ قَدْ يَقُولُ مَقَالَةً كُفْرِيَّةً وَهْوَ لا يَدْرِي أَنَّهَا كُفْرِيَّةٌ بِسَبَبِ جَهْلِهِ، فَهُوَ يَقُولُ الكُفْرَ وَيُرَوِّجُهُ وَهُوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ كُفْرٌ، بِسَبَبِ أَنَّهُ تَدَخَّلَ فِي شَيْءٍ لا يُحْسِنُهُ، فَالخَطَرُ عَظِيْمٌ عَلَيْهِ وَعَلَى الأُمَّةِ، إِذْ لَوِ اقْتَصَرَ الخَطَرُ عَلَيْهِ كَانَ أَخفَّ، وَلَكِنَّ

المُشْكِلَةَ أَنَّ هَذَا يَنْتَشِرُ فِي الأُمَّةِ.

قَوْلُهُ: (**فَهلَكَتِ الأُمَّةُ مِنْ وُجُوهٍ، وَكَفَرَتْ مِنْ وُجُوهٍ**) يَعْنِي لَبَّسُوا عَلَى الأُمَّةِ، وَأَدْخَلُوا عَلَيْهَا الخَلَلَ حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُ الأَقْوَالَ الكُفْرِيَّةَ وَيَقُولُ: هَذِهِ أَقْوَالُ عُلَمَاءٍ، كَمَا يَقُولُونَ عَنْ قَوْلِ الجَهْمِ والمُعْتَزِلَةِ، هَذِهِ أَقْوَالُ عُلَمَاءٍ، كَمَا يَقُولُونَ عَنْ قَوْلِ الجَهْمِ والمُعْتَزِلَةِ، هَذِهِ أَقْوَالُ عُلَمَاءٍ. حَتَّى إِنَّهُمْ كَتَبُوا فِي الصُّحُفِ يَقُولُونَ لِلْعُلَمَاءِ: إِنَّكُمْ أَنْتُمْ تَحْجُرُونَ الحَقَّ لَكُم، وَتُهْدِرُونَ أَقْوَالَ الأَئِمَّةِ مِثْلَ: ابنِ سِينَا، وَابنِ عَرَبِيٍّ، وَالجَهْمِ بنِ صَفْوَانَ، وَهَؤُلاءِ العُلَمَاءُ لَهُمْ قِيمَتُهُمْ!

قَوْلُهُ: (**وَتَزَنْدَقَتْ مِنْ وُجُوهٍ، وَضَلَّتْ مِنْ وُجُوهٍ، وَتَفَرَّقَتْ وَابْتَدَعَتْ مِنْ وُجُوهٍ**) كُلُّ هَذِهِ الآفَاتِ بِسَبَبِ تَدَخُّلِ الجُهَّالِ فِي مَسَائِلِ العِلْمِ، وَقِلَّةِ الخَوْفِ مِنَ اللهِ ﷻ، لَمَّا قَلَّ خَوفُهُمْ مِنَ اللهِ دَخَلُوا فِي هَذِهِ الأُمُورِ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ بَعْضُ السَّلَفِ: «قَلَّ وَرَعُهُمْ فَتَكَلَّمُوا» أَمَّا الَّذِي يَخَافُ اللهَ ﷻ فَإِنَّهُ لا يَدْخُلُ فِي شَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُهُ، لا يَدْخُلُ فِي شَيْءٍ وَهُوَ لا يُحْسِنُهُ وَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ، خُصُوصًا أُمُورَ الدِّيْنِ.

قَوْلُهُ: (**إِلَّا مَنْ ثَبَتَ عَلَى قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَمْرِهِ وَأَمْرِ أَصْحَابِهِ، وَلَمْ يَتَخَطَّ أَحَدًا مِنْهُمْ**) لَمْ يَسْلَمْ مِنْ هَذِهِ الآفَاتِ: الكُفْرِ، وَالزَّيْغِ، وَالضَّلالِ، وَالانْحِرَافِ، وَالتَّعَادِي، وَالتَّقَاطُعِ، إِلَّا مَنْ تَمَسَّكَ بِمَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ؛ كَمَا قَالَ ﷺ: «**وَسَتَفْتَرِقُ أُمتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**». قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»[1].

قَوْلُهُ: (**وَوَسِعَهُ مَا وَسِعَهُمْ**) وَهُوَ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَمَا عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنَ والقُرُونِ المُفَضَّلَةِ وَالأَئِمَّةِ، لَكِنَّ المُشْكِلَ فِي

---

(١) حسن: سبق تخريجه.

الَّذِي يَقُولُ: «هُمْ رِجَالٌ وَنَحْنُ رِجَالٌ، وَلَيْسَ لِكَلامِهِمْ مِيزَةٌ عَلَى كَلامِنَا».

قَوْلُهُ: (**وَعَلِمَ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الإِسْلامِ الصَّحِيحِ، وَالإِيمَانِ الصَّحِيحِ**)؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ**﴾ [التوبة:١٠٠]، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّيْنَ مِنْ بَعْدِي**» فَالَّذِي يُرِيدُ النَّجَاةَ فهَذَا طَرِيقُهَا، والَّذِي لا يُرِيدُ النَّجَاةَ فلَهُ مَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ، وَلَيْسَ الضَّرَرُ عَلَيْهِ وَحْدَه، بَلْ إِنَّهُ يَتَحَمَّلُ آثَامَ النَّاسِ مَعَ إِثْمِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ**﴾ [النحل:٢٥] إِنَّهُ بِلا شَكٍّ أَنَّ الصَّحَابَةَ وَالقُرُونَ الْمُفَضَّلَةَ هُمُ الَّذِيْنَ عَلَى الإِسْلامِ الصَّحِيحِ وَالدِّيْنِ الصَّحِيحِ، فَكَيْفَ تَتْرُكُهُمْ وَتَذْهَبُ إِلَى مَنْ لا يُضْمَنُ أَنَّهُ عَلَى الدِّيْنِ الصَّحِيحِ وَلا عَلَى الحَقِّ.

قَوْلُهُ: (**فَقَلَّدَهُمْ دِينَهُ وَاسْتَرَاحَ**) قَلَّدَهُمْ: يَعْنِي اتَّبَعَهُمْ، ﴿**وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ**﴾ الْمُرَادُ بِالتَّقْلِيدِ هُنَا الاتِّبَاعُ.

قَوْلُهُ: (**وَعَلِمَ أَنَّ الدِّيْنَ إِنَّمَا هُوَ بِالتَّقْلِيدِ، وَالتَّقْلِيدُ لأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ**)؛ كَمَا ذَكَرْنَا: الْمُرَادُ بِالتَّقْلِيدِ: التَّقْلِيدُ الصَّحِيحُ وَهُوَ الاتِّبَاعُ؛ كَمَا قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلام: ﴿**إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ**﴾ [يوسف:٣٧- ٣٨]، فَاتِّبَاعُ السَّلَفِ الصَّالِحِ هُوَ الحَقُّ، وَلَيْسَ فِيهِ لَوْمٌ إِذَا اتَّبَعْتَ هَؤْلاءِ، إِنَّمَا اللَّوْمُ إِذَا اتَّبَعْتَ مَنْ لا يَصْلُحُ لِلاتِّبَاعِ، وَاقْتَدَيْتَ بِمَنْ لا يَصْلُحُ لِلْقُدْوَةِ.

[٩٩] وَمَنْ قَالَ: لَفْظِي بِالقُرْآنِ مَخْلُوقٌ؛ فَهُوَ جَهْمِيٌّ، وَمَنْ سَكَتَ فَلَمْ يَقُلْ: مَخْلُوقٌ أَوْ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، فَهُوَ جَهْمِيٌّ، وَهَكَذا قَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ. وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَبِيرًا، فَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّهَا ضَلالَةٌ، وَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ المَهْدِيِّيْنَ، وَعُضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»[١].

الشَّرْح

أَثْبَتَ اللهُ لِنَفْسِهِ الكَلامَ فِي آياتٍ كَثِيْرة، مِنهَا: قَوْلُهُ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩]، أَيْ: كَلِمَاتُ اللهِ الَّتِي يَأْمُرُ بِهَا وَيَنْهَى، وَيُدَبِّرُ بِهَا الكَوْنَ، مَنْ يُحْصِي كَلِمَاتِ اللهِ ﷻ وَهِيَ مَا تَكْفِيهَا البِحَارُ، وَلا تَكْتُبُهَا الأَقْلامُ كُلُّهَا.

وَكَلامُ الله - كَمَا يَقُولُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ - قَدِيمُ النَّوْعِ حَدِيثُ الآحَادِ، فَالقُرْآنُ مِنْ آحَادِ كَلام الله، وَمِنْ أَفْرَادِ كَلام الله ﷻ، فكَلامُ الله ثَابِتٌ بِكِتَابِ الله وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَلا شَكَّ أَنَّ العُقُولَ السَّلِيْمَةَ تُثْبِتُ الكَلامَ لله؛ لأَنَّهُ صِفَةُ كَمَالٍ وَنَفْيُهُ صِفَةُ نَقْصٍ، لَكِنَّ الجَهْمِيَّةَ وَهُمْ أَتْبَاعُ الجَهْمِ بنِ صَفْوَانَ وَهُوَ خَبِيثٌ ظَهَرَ عَلَى النَّاسِ يُشَكِّكُهُمْ فِي دِيْنِ الله، وَيَأْمُرُهُمْ بِالإِلْحَادِ وَالكُفْرِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ شَكَّكَهُمْ فِي أَنَّ اللهَ يَتَكَلَّمُ، وَقَالَ: كَلامُ الله المَوْجُودُ مَخْلُوقٌ، خَلَقَهُ فِي اللَّوْحِ، أَوْ خَلَقَهُ فِي جِبْرِيلَ، أَوْ خَلَقَهُ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ، فَهُوَ مِنْ إِضَافَةِ المَخْلُوقِ إِلَى خَالِقِهِ، مِثْلُ: بَيْتِ الله، نَاقَةِ الله؛ هَكَذَا يَقُولُ قَبَّحَهُ اللهُ، يَقُولُ: اللهُ لا يَتَكَلَّمُ، وإِضَافَةُ الكَلامِ إِلَيْهِ إِضَافَةُ مَخْلُوقٍ إِلَى خَالِقِهِ. هَذَا مِنْ مَذْهَبِهِ، وَلَهُ مَذْهَبُ الجَبْرِ فِي القَدَرِ،

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

وَلَهُ مَذْهَبٌ فِي نَفْيِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَلَهُ مَذْهَبٌ أَيْضًا فِي التَّكْذِيْبِ بِسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، والتَّكْذِيْبِ بِالقُرْآنِ أَيْضًا، فَهُوَ مُلْحِدٌ خَبِيْثٌ ظَهَرَ بِهَذِهِ الفِرْيَةِ، وَهَذَا المَذْهَبُ مُنْحَدِرٌ عَنِ اليَهُودِ؛ كَمَا ذَكَرَ شَيْخُ الإِسْلام ابنُ تَيْمِيَّةَ فِي مُقَدِّمَةِ الحَمَوِيَّةِ، وَالجَهْمُ لَيس هُوَ الَّذِي ابْتَدَأَ هَذَا المَذْهَبَ، فَكَانَ قَبْلَهُ الجَعْدُ بنُ دِرْهَم هُوَ الَّذِي ابْتَدَأَ هَذِهِ المَقَالَةَ الشَّنِيْعَةَ وَأَخَذَهَا عَنْ طَالُوتَ اليَهُودِيِّ، وَطَالُوتُ أَخَذَهَا عَنْ لَبِيدِ بنِ الأَعْصَم اليَهُودِيِّ الَّذِي سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ، فَهَذِهِ المَقَالَةُ مُنْحَدِرَةٌ مِنَ اليَهُودِ الَّذِيْنَ يُحَرِّفُونَ كَلامَ الله عَنْ مَوَاضِعِهِ، فَلا يُسْتَغْرَبُ هَذَا المَذْهَبُ الخَبِيثُ، إِذَا عُرِفَ أَنَّ مَصْدَرَهُ مِنَ اليَهُودِ، دَسُّوهُ عَلَى المُسْلِمِيْنَ بِوَاسِطَةِ هَذَا الرَّجُلِ الخَبِيثِ الجَعْدِ بنِ دِرْهَمٍ الَّذِي قَتَلَهُ خَالِدٌ القَسْرِيُّ يَوْمَ عِيدِ الأَضْحَى؛ كَمَا ذَكَرَ ابنُ القَيِّم:

ولأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ ... القَسْرِيُّ يَوْمَ ذَبَائِحِ القُرْبَانِ

إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَيسَ خَلِيلَهُ ... كَلاَّ وَلا مُوسَى الكَلِيمُ الدَّانِي

شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلُّ صَاحِبِ سُنَّةٍ ... للهِ دَرُّكَ مِنْ أَخِي قُرْبَانِ

أَخَذَ هَذِهِ المَقَالَةَ عَنْهُ الجَهْمُ بنُ صَفْوَانَ، فَنُسِبَتْ إِلَيْهِ؛ لأَنَّهُ هُوَ الَّذِي نَشَرَهَا وَلَيْسَ هُوَ الَّذِي ابْتَدَأَهَا.

وَقَدْ أَنْكَرَ عَلَيْهِم أَهْلُ السُّنَّةِ إِنْكَارًا شَدِيْدًا وَغَلَّظُوا القَوْلَ فِي ذَلِكَ، وهَذَا سَيَأْتِي - إِنْ شَاءَ الله - فِي المَقْطَعِ الَّذِي بَعْدَ هَذَا، وَلَكِنْ مَعَنَا الآنَ جُزْئِيَّةٌ مِنْ هَذَا المَذْهَبِ الخَبِيثِ، وَهُوَ نَفْيُ الكَلامِ عَنِ الله، وَلَكِنْ حَصَلَ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ إِشْكَالٌ وَهُوَ: هَلْ يُقَالُ: (إِنَّ لَفْظِي بِالقُرْآنِ مَخْلُوقٌ أَوْ غَيْرُ مَخْلُوقٍ)؟ هَذِهِ دَسُّوهَا عَلَى المُسْلِمِيْنَ أَيْضًا، هَلْ تَقُولُ: إِنَّ لَفْظِي بِالقُرْآنِ مَخْلُوقٌ أَوْ تَقُولُ: لَفْظِي بِالقُرْآنِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ التَّلَفُّظُ بِالقُرْآن، فَالتَّلَفُّظُ مَخْلُوقٌ والصَّوتُ مَخْلُوقٌ. فَلا بُدَّ

مِنَ التَّفْصِيْلِ، هَذَا هُوَ التَّفْصِيْلُ الَّذِي قَالَ بِهِ الإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالبُخَارِيُّ، وَجَمْعٌ مِنَ المُحَقِّقِيْنَ، فَلا تَقُلْ: «لَفْظِي بِالقُرآنِ مَخْلُوقٌ» مُطْلَقًا، وَلا «غَيْرُ مَخْلُوقٍ» مُطْلَقًا، وَلا تَتَوَقَّفْ، بَلْ تُفَصِّل فِي ذَلِكَ.

[١٠٠] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ هَلاكُ الجَهْمِيَّةِ: أَنَّهُمْ فَكَّرُوا فِي الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَدْخَلُوا: لِمَ؟ وكَيْفَ؟ وتَرَكُوا الأَثَرَ، وَوَضَعُوا القِيَاسَ، وَقَاسُوا الدِّيْنَ عَلَى رَأْيِهِمْ، فَجَاؤُوا بِالكُفْرِ عِيَانًا لا يَخْفَى، فَكَفَرُوا وَكَفَّرُوا الخَلْقَ، وَاضْطَرَّهُمُ الأَمْرُ إِلَى أَنْ قَالُوا بِالتَّعْطِيلِ.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ هَلاكُ الجَهْمِيَّةِ: أَنَّهُمْ فَكَّرُوا فِي الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ) السَّبَبُ الَّذِي جَعَلَ الجَهْمِيَّةَ ضَلُّوا هَذَا الضَّلالَ البَعِيدَ أَنَّهُمْ تَدَخَّلُوا فِي شَأْنِ الرَّبِّ، صَارُوا يَبْحَثُونَ فِيهِ، ولا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَبْحَثَ فِي شَأْنِ الرَّبِّ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ وَبِأَسْمَائِهِ وَأَوْصَافِهِ وَلا يَتَدَخَّلَ فِي الكَيْفِيَّةِ، اللهُ - جَلَّ وَعَلا - لا يَعْلَمُ ذَاتَهُ وَكَيْفِيَّةَ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، فَلا أَحَدَ يُحِيطُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ بَلْ هُوَ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، فَنَحْنُ لا نَتَكَلَّمُ فِي شَأْنِ اللهِ إِلَّا بِمَا جَاءَ بِالدَّلِيْلِ مِنَ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَنَتَوَقَّفُ عَمَّا لَمْ يَرِدْ، الجَهْمِيَّةُ أَنْكَرُوا القُرْآنَ وَالسُّنَّةَ وَتَدَخَّلُوا بِعُقُولِهِمْ فِي شَأْنِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حَتَّى قَالُوا: إِنَّهُ لا دَاخِلَ العَالَمِ وَلا خَارِجَ العَالَمِ، وَلا فَوْقَ وَلا تَحْتَ وَلا يَمْنَةَ وَلا يَسْرَةَ. إِذًا يَكُونُ مَعْدُومًا، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ، قَالُوا: لَيْس لَهُ سَمْعٌ وَلا بَصَرٌ وَلا عِلْمٌ وَلا إِرَادَةٌ. إِذًا يَكُونُ جَمَادًا؛ لأَنَّ الجَمَادَ هُوَ الَّذِي يُوْصَفُ بِهَذِهِ الأَشْيَاءِ يَكُونُ مِثْلَ الأَصْنَامِ تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ.

قَوْلُهُ: (وَقَاسُوا الدِّيْنَ عَلَى رَأْيِهِمْ) اتَّبَعُوا القِيَاسَ البَاطِلَ، فقَاسُوا اللهَ بِخَلْقِهِ، فَنَفَوْا أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ؛ لأَنَهَا عِنْدَهُم تَقْتَضِي التَّشْبِيهَ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ أَسْمَاءَ اللهِ وَصِفَاتِهِ خَاصَّةٌ به سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ أَسْمَاءَ المَخْلُوقِيْنَ وَصِفَاتِ المَخْلُوقِيْنَ خَاصَّةٌ بِهِمْ وَلا تَشَابُهَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا؛ فَكَمَا أَنَّ للهِ ذاتًا لا تُشْبِهُ الذَّوَاتِ فَكَذَلِكَ لَهُ أَسْمَاءٌ

وَصِفَاتٌ لا تُشْبِهُ الأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتَ الَّتِي لِلْمَخْلُوقِيْنَ، مَنْ أَخَذَ هَذَا اسْتَرَاحَ وَسَارَ عَلَى الجَادَّةِ الصَّحِيحَةِ.

قَوْلُهُ: (**فَجَاؤُوا بِالكُفْرِ عِيَانًا لا يَخْفَى**) كَفَرُوا بِاللهِ بِسَبَبِ هَذِهِ المَقَالاتِ الشَّنِيْعَةِ فِي حَقِّ اللهِ جَلَّ وَعَلا.

قَوْلُهُ: (**فَكَفَروا وَكَفَّروا الخَلْقَ**) كَفَّرُوا الَّذِيْنَ يَصِفُونَ اللهَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، لأَنَّهُم يَقُولُونَ: هَذَا مُشَبِّهٌ. وَالتَّشْبِيهُ كُفْرٌ، نَقُولُ: لا، لَيْسَ هَذَا تَشْبِيهًا، اللهُ - جَلَّ وَعَلا - قال سُبْحَانَهُ: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ**﴾ [الشورى:١١]، نَفَى عَنْ نَفْسِهِ التَّشْبِيهَ وَأَثْبَتَ لِنَفْسِهِ السَّمْعَ وَالبَصَرَ، مَعَ أَنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ مَوْجودَانِ فِي المَخْلُوقِيْنَ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لا يَتَشَابَهُ هَذَا مَعَ هَذَا.

قَوْلُهُ: (**وَاضْطَرَّهُمُ الأَمْرُ إِلَى أَنْ قَالُوا بِالتَّعْطِيلِ**) التَّعْطِيلُ: هُوَ جُحُودُ الخَالِقِ ﷻ؛ لأَنَّ هَذَا يَئُولُ إِلَى التَّعْطِيلِ، لأَنَّ الَّذِي لا يَسْمَعُ، وَلا يُبْصِرُ، وَلا يَتكَلَّمُ، وَلَيْسَ لَهُ إِرَادَةٌ، وَلا مَشِيئَةٌ، وَأَيْضًا لَيْسَ دَاخِلَ العَالَمِ، وَلا خَارِجَ العَالَمِ، وَلا فَوْقَ وَلا تَحْتَ، إِذًا لا يَكُونُ فِيهِ إِلَهٌ يُعْبَدُ، فَآلَ بِهِمُ الأَمْرُ إِلَى الإِلْحَادِ والتَّعْطِيلِ.

[١٠١] **قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَقَال بَعْضُ العَلَمَاءِ - مِنْهُمُ الإِمَامُ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ-: الجَهْمِيُّ كَافِرٌ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ، حلالُ الدَّم، لا يَرِثُ، وَلا يُورَّثُ؛ لأَنَّهُ قَالَ: لا جُمْعَةَ وَلا جَمَاعَةَ وَلا عِيدَينِ وَلا صَدَقَةَ، وَقَالُوا: مَنْ لَمْ يَقُلِ: القُرْآنُ مَخْلُوقٌ؛ فَهُوَ كَافِرٌ.**

الشَّرْحُ

قَوْلُ العُلَمَاءِ: «**الجَهْمِيُّ كَافِرٌ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ**» أَيْ: كَافِرٌ بِمَجْمُوعِ مَقَالاتِهِ؛ لأَنَّهُ عَطَّلَ اللهَ - جَلَّ وَعَلا -، وَلا شَكَّ أَنَّ هَذَا أَشَدُّ الكُفْرِ.

مَقَالاتُهُمُ الكُفْرِيةُ تُفْضِي إِلَى التَّعْطِيلِ - كَمَا قَالَ الشَّيْخُ - وَهُوَ إِنْكَارُ وُجُودِ اللهِ تَعَالَى، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمُ الإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «الرَّدُّ عَلَى الجَهْمِيَّةِ» وَهُوَ مَطْبُوعٌ وَمُحَقَّقٌ وَللهِ الحَمْدُ، ورَدَّ عَلَيْهِمْ غَيْرُ وَاحِدٍ، رَدَّ عَلَيْهِمْ شَيْخُ الإِسْلامِ فِي كِتَابِهِ الضَّخْمِ «بَيَانُ تَلْبِيسِ الجَهْمِيَّةِ».

قَوْلُهُ: (**حلالُ الدَّمِ، لا يَرِثُ، وَلا يُورَّثُ**) لأَنَهُ مُرْتَدٌّ فَهُوَ حَلالُ الدَّمِ؛ لأَنَّ الَّذِي يَعْصِمُ الدَّمَ هُوَ الإِسْلامُ، وَالكَافِرُ حَلالُ الدَّمِ.

قَوْلُهُ: (**لأَنَّهُ قَالَ: لا جُمْعَةَ وَلا جَمَاعَةَ**) أَيْ: لأَنَّ الجَهْمَ يُنْكِرُ صَلاةَ الجُمُعَةِ، وَيُنْكِرُ صَلاةَ الجَمَاعَةِ، وَإِنَّمَا تَكْفِي عِنْدَهُ المَعْرِفَةُ بِاللهِ، فَالإِيمَانُ عِنْدَهُ هُوَ المَعْرِفَةُ فَإِذَا عَرَفَ الإِنْسانُ رَبَّهُ بِقَلْبِهِ صَارَ مُؤْمِنًا كَامِلَ الإِيمَانِ، وَلَو لَمْ يُصَلِّ، وَلَمْ يَصُمْ، وَلَمْ يَفْعَلْ أَيَّ شَيْءٍ مِنَ العِبَادَاتِ.

قَوْلُهُ: (**وَلا عِيدَينِ وَلا صَدَقَةَ**)؛ لأَنَّه يَرَى أَنَّ الأَعْمَالَ لَيْسَتْ مِنَ الإِيمَانِ، وَلا النُّطْقَ بِاللِّسَانِ، وَلا الاعْتِقَادَ أَيْضًا، وَإِنَّمَا الإِيمَانُ عِنْدَهُ مُجَرَّدُ المَعْرِفَةِ.

قَوْلُهُ: (**وَقَالُوا: مَنْ لَمْ يَقُلِ: القُرْآنُ مَخْلُوقٌ؛ فَهُوَ كَافِرٌ**) قَالَتِ الجَهْمِيَّةُ: مَنْ لَمْ

يَقُل: القُرْآنُ مَخْلُوقٌ، وَقَالَ: القُرْآنُ كَلامُ اللهِ فَهُوَ كَافِرٌ؛ لأَنَّه شَبَّهَ اللهَ بِخَلْقِهِ، وَالتَّشْبِيهُ كُفْرٌ.

❧

قَالَ المُؤَلِّفُ ﵀: وَاسْتَحَلُّوا السَّيْفَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَخَالَفُوا مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ، وَامْتَحَنُوا النَّاسَ بِشَيْءٍ لَمْ يَتكَلَّمْ فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ، وَلا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ﷺ، وَأَرَادُوا تَعْطِيلَ المَسَاجِدِ وَالجَوَامِعِ...

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (**وَاسْتَحَلُّوا السَّيْفَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ**) اسْتَحَلُّوا قَتْلَ المُسْلِمِيْنَ الَّذِيْنَ يُخَالِفُونَهُمْ فِي العَقِيدَةِ؛ وَلِذَلِكَ لَمَّا تَمَكَّنُوا فِي عَهْدِ المَأْمُونِ قَتَلُوا مِنَ العُلَمَاءِ مَنْ قَتَلُوا، وَعَذَّبُوا مَنْ عَذَّبُوا؛ لِيُرْغِمُوهُمْ عَلَى القَوْلِ بِمَذْهَبِ الجَهْمِيَّةِ.

قَوْلُهُ: (**وَخَالَفُوا مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ**) مِنَ المُسْلِمِيْنَ، فَلَمْ تَظْهَرْ هَذِهِ المَقَالاتُ إِلَّا فِيْهِمْ.

قَوْلُهُ: (**وَامْتَحَنُوا النَّاسَ بِشَيْءٍ لَمْ يَتكَلَّمْ فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ**) أَرَادُوا أَنْ يُلْزِمُوا النَّاسَ بِقَوْلِهِمْ؛ كَمَا فِي عَهْدِ المَأْمُونِ - وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ - لَمَّا أَجْبَرَ النَّاسَ عَلَى القَوْلِ بِخَلْقِ القُرْآنِ.

قَوْلُهُ: (**وَأَرَادُوا تَعْطِيلَ المَسَاجِدِ وَالجَوَامِعِ**)؛ لأَنَّ مَذْهَبَهُمْ فِي الإِيْمَانِ أَنَّهُ مُجَرَّدُ المَعْرِفَةِ وَلَو لَمْ يَعْمَلْ شَيْئًا، وَلَو لَمْ يَتكَلَّمْ بِلِسَانِهِ، وَلَو لَمْ يَعْتَقِدْ بِقَلْبِهِ، فَإِذًا لا حَاجَةَ إِلَى المَسَاجِدِ وَالجَوَامِعِ لأَنَّهَا لا تَجِبُ الصَّلاةُ عِنْدَهُم.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَأَوْهَنُوا الإِسْلامَ، وَعَطَّلُوا الجِهَادَ، وَعَمِلُوا فِي الفُرْقَةِ، وَخَالَفُوا الآثَارَ، وَتَكَلَّمُوا بِالمَنْسُوخِ، وَاحْتَجُّوا بِالمُتَشَابِه، فَشَكَّكُوا النَّاسَ فِي أَدْيَانِهِمْ، وَاخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ، وَقَالُوا: لَيْسَ هُنَاكَ عَذَابُ قَبْرٍ، وَلا حَوْضٌ وَلا شَفَاعَةٌ، وَالجَنَّةُ وَالنَّارُ لَمْ يُخْلَقَا، وَأَنْكَرُوا كَثِيرًا مِمَّا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاسْتَحَلَّ مَنِ اسْتَحَلَّ تَكْفِيرَهُمْ وَدِمَاءَهُمْ مِنْ هَذَا الوَجْه؛ لأَنَّهُ مَنْ رَدَّ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ فَقَدْ رَدَّ الكِتَابَ كُلَّهُ، وَمَنْ رَدَّ حَدِيْثًا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَدْ رَدَّ الأَثَرَ كُلَّهُ، وَهُوَ كَافِرٌ بِاللهِ العَظِيْمِ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَأَوْهَنُوا الإِسْلامَ) أَي: الجَهْمِيَّةُ، أَضْعَفُوا الإِسْلامَ.

قَوْلُهُ: (وَعَطَّلُوا الجِهَادَ) عَطَّلُوا الجِهَادَ فِي سَبِيْلِ اللهِ؛ لأَنَّهُمْ لا يَرَوْنَ تَكْفِيرَ الكُفَّارِ، لأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ اللهَ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ فِرْعَونَ مُسْلِمٌ؛ لأَنَّهُ يَعْرِفُ اللهَ بِقَلْبِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:١٠٢]، فَهُوَ يَعْرِفُ اللهَ بِقَلْبِهِ، والمُشْرِكُونَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ يَعْرِفُونَ اللهَ بِقُلُوبِهِمْ بَلْ يَعْبُدُونَهُ بِأَنْوَاعٍ مِنَ العِبَادَاتِ فَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ - هُوَ الرَّبُّ وَأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ العِبَادَةَ، وَلَكِنَّهُمْ أَشْرَكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ بِزَعْمِهِمْ أَنَّ هَذَا الغَيْرَ يُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَوْلُهُ: (وَخَالَفُوا الآثَارَ) أَيْ: خَالَفُوا الأَدِلَّةَ وَالسُّنَّةَ.

قَوْلُهُ: (وَتَكَلَّمُوا بِالمَنْسُوخِ) يَأْخُذُونَ الأَدِلَّةَ المَنْسُوخَةَ وَلا يَعْمَلُونَ بِالنَّاسِخِ؛ مِنْ أَجْلِ التَّضْلِيلِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧]، وَمِنَ المُتَشَابِهِ المَنْسُوخِ؛ لأَنَّهُ لا بُدَّ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ النَّاسِخَ وَالمَنْسُوخَ، وَالمُطْلَقَ وَالمُقَيَّدَ، وَالخَاصَّ وَالعَامَّ، يَعْرِفُ عُلُومَ الاسْتِدْلالِ، فَلا يَسْتَدِلُّ بِأَيِّ نَصٍ وَجَدَهُ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ هَلْ هُوَ مَنْسُوخٌ، أَوْ

مُخَصَّصٌ، أَوْ مُقَيَّدٌ، فَهَؤُلاءِ لا يَنْظُرُون إِلَى هَذَا؛ لأَجْلِ الزَّيْغ، وَلأَجْلِ إِضْلالِ النَّاسِ وَيَقُولُونَ: نَحْنُ نَسْتَدِلُّ بِالقُرْآنِ. وَهُمْ مَا اسْتَدَلُّوا بِالقُرْآنِ، القُرْآنُ يَسْتَدِلُّ بِهِ مَنْ أَخَذَهُ جَمِيعًا، أَمَّ مَنْ أَخَذَ بَعْضَهُ وَتَرَكَ البَعْضَ الآخَرَ فَهَذَا كَافِرٌ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:٨٥]، فَالَّذِي لا يَجْمَعُ بَيْنَ المُحْكَمِ وَالمُتَشَابِهِ هَذَا يَأْخُذ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَيَتْرُكُ بَعْضَهُ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ﴾ قَالوا: ﴿كُلٌّ﴾؟ يَعْنِي: المُحْكَمَ وَالمُتَشَابِهَ ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]، فَيَرُدُّونَ المُتَشَابِهَ إِلَى المُحْكَمِ فَيُفَسِّرُهُ وَيُوَضِّحُهُ، لَكِنْ هَذَا يَحْتَاجُ إِلَى عَالِمٍ، لا يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ مَتَعَالِمٌ، أَوْ زَائِغٌ يُرِيدُ التَّضْلِيلَ، فَلا يَأْخُذُ بِالمُتَشَابِهِ إِلَّا أَحَدُ رَجُلَيْنِ:

- إِمَّا زَائِغٌ يُرِيدُ التَّضْلِيلَ، مِثْلُ الجَهْمِيَّةِ، وَلِهَذا قَالَ فِيهِمْ الإِمَامُ أَحْمَدُ: «يَسْتَدِلُّونَ بِالمُتَشَابِهِ مِنَ القُرْآنِ».
- وَإِمَّا مُتَعَالِمٌ لا يَدْرِي، وَيَقُولُ عَلى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

قَوْلُهُ: (وَاحْتَجُّوا بِالمُتَشَابِه)، وَلِذَلِكَ رَدَّ عَلَيْهِمُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِهِ «الرَّدُّ عَلَى الجَهْمِيَّةِ» جَاءَ عَلَى النُّصُوصِ الَّتِي اسْتَدَلُّوا بِهَا وَأَبْطَلَ رَأْيَهُمْ فِيْهَا، وَبَيَّنَ الوَجْهَ الصَّحِيحَ فِيهَا، وَجَمَعَ بَيْنَ الآياتِ وَبَيْنَ الأَحَادِيثِ.

قَوْلُهُ: (فَشَكَّكُوا النَّاسَ فِي أَدْيَانِهِمْ) فَلا شَكَّ أَنَّ هَذَا بَلْبَلَةٌ لِلأَفْكَارِ، فَلا يَجُوزُ أَنْ يَتكَلَّمَ فِي مَسَائِلِ العِلْمِ وَلا سِيَّمَا العَقَائِدَ إِلَّا مَن هُوَ رَاسِخٌ فِي العِلْمِ، لا يَجُوزُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِيْهَا أَنْصافُ المُتَعَلِّمِيْنَ، أَوِ المُتَعَالِمِيْنَ، فَضْلًا عَنْ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالضَّلالِ.

قَوْلُهُ: (وَاخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ) أَحْدَثُوا الجَدَلَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر:٤]، المُؤْمِنُ لا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ؛

بَلْ يَتَقَبَّلُهَا وَيَعْتَقِدُ أَنَّهَا كَلامُ اللهِ، وَأَنَّهَا خَيْرٌ وَهُدًى، أَمَّا الَّذِي يَتَوَقَّفُ فِيهَا وَيَتَشَكَّكُ؛ فَهَذَا مُجَادِلٌ فِي كَلامِ اللهِ ﷻ.

قَوْلُهُ: (**وَقَالُوا: لَيْسَ هُنَاكَ عَذَابُ قَبْرٍ**) هَذَا مُتَوَافِقٌ مَعَ مَذْهَبِهِمْ لأَنَّ عِنْدَهُم مَنْ عَرَفَ اللهَ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَلْزَمُ أَنْ يُصَلِّيَ وَيَصُومَ وَيَحُجَّ وَيَعْتَمِرَ، وَلا يُؤَدِّي الأَعْمَالَ؛ وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ فَلَيْسَ هُنَاكَ عَذَابُ قَبْرٍ؛ لأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ يَعْرِفُونَ اللهَ، وَلَيْسَ هَنَاكَ مَعْصِيَةٌ وَطَاعَةٌ، فَالَّذِيْنَ فِي القُبُورِ كُلُّهُمْ يَعْرِفُونَ اللهَ، إِذًا لا يُعَذَّبُونَ.

قَوْلُهُ: (**وَلا حَوْضٌ وَلا شَفَاعَةٌ**) كُلُّ أُمُورِ الغَيْبِ أَنْكَرُوهَا؛ لأَنَّهُمْ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عُقُولِهِمْ فَقَطْ.

قَوْلُهُ: (**وَالجَنَّةُ وَالنَّارُ لَمْ يُخْلَقَا**) أَيْ: قَالَ الجَهْمِيَّةُ: الجَنَّةُ وَالنَّارُ لَمْ يُخْلَقَا الآنَ، مَعَ أَنَّ اللهَ أَخْبَرَ أَنَّهُمَا مَخْلُوقَتَانِ الآنَ، قَالَ تَعَالَى فِي الجَنَّةِ: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران:١٣٣]، ﴿**أُعِدَّتْ**﴾ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا مُعَدَّةٌ وَمَوْجُودَةٌ، وَقَالَ فِي النَّارِ: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٣١]، وَأَيْضًا الرَّسُولُ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِنْ فَيحِ جَهَنَّم، فدَلَّ عَلَى أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ؛ وَكَذَلِكَ النَّارُ لَهَا نَفَسَانِ: نَفَسٌ فِي الشِّتَاءِ وَذَلِكَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ البَرْدِ، وَنَفَسٌ فِي الصَّيفِ وَذَلِكَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الحَرِّ، فَقَالَ: «**إِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِنْ فَيحِ جَهَنَّمَ**»[1].

قَوْلُهُ: (**وَأَنْكَرُوا كَثِيْرًا مِمَّا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**) أَنْكَرُوا كَثِيْرًا مِمَّا جَاءَ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ؛ لأَنَّهُ يُخَالِفُ رَأْيَهُمْ وَمُعْتَقَدَهُمْ.

قَوْلُهُ: (**فَاسْتَحَلَّ مَنِ اسْتَحَلَّ تَكْفِيرَهُمْ وَدِمَاءَهُمْ مِنْ هَذَا الوَجْه**) مَنْ كَفَّرَهُمْ مِنْ أَهْلِ السَّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ كَفَّرَهُمْ لِمَجْمُوعِ هَذِهِ المَقَالاتِ الخَبِيثَةِ؛ لأَنَّهَا

(١) سبق تخريجه.

تَنْتَهِي إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ دِينٌ.

قَوْلُهُ: (**لأَنَّهُ مَنْ رَدَّ آيَةً مِنْ كِتَابِ الله فَقَدْ رَدَّ الكِتَابَ كُلَّهُ**)؛ كَمَا سَبَقَ أَنَّهُ مَنِ اسْتَدَلَّ بِبَعْضِ القُرْآنِ وَتَرَكَ البَعْضَ الآخَرَ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ فَقَدْ آمَنَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَرَكَ بَعْضَهُ، فَالَّذِي يَسْتَدِلُّ بِالْمُتَشَابِهِ وَيَتْرُكُ الْمُحْكَمَ، هَذَا مِمَّنْ يُؤْمِنُ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَيَكْفُرُ بِبَعْضِهِ.

قَوْلُهُ: (**وَمَنْ رَدَّ حَدِيْثًا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَدْ رَدَّ الأَثَرَ كُلَّهُ**)؛ كَذَلِكَ السُّنَّةُ فِيْهَا مُحْكَمٌ وَمُتَشَابِهٌ، فَمَنْ أَخَذَ الْمُتَشَابِهَ مِنَ السُّنَةِ وَتَرَكَ الْمُحْكَمَ فَقَدْ رَدَّ السُّنَّةَ كُلَّهَا.

قَوْلُهُ: (**وَهُوَ كَافِرٌ بِالله العَظِيْمِ**) هَذِهِ هِيَ النَّتِيْجَةُ وَالعِيَاذُ بِالله؛ لأَنَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِالله يَقُولُ: ﴿**ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾ [آل عمران:٧]، أَمَّا صَاحِبُ الزَّيْغِ فَإِنَّمَا يَأْخُذُ الْمُتَشَابِهَ؛ لأَنَّهُ يَصْلُحُ لَهُ، وَأَمَّا الْمُحْكَمُ فَإِنَّهُ لا يَصْلُحُ لَهُ فَيَتْرُكُهُ، هَذِهِ طَرِيقَةُ أَهْلِ الأَهْوَاءِ دَائِمًا وَلَيْسَتْ خَاصَّةً بِالجَهْمِيَّةِ، لَكِنَّ مَصْدَرَهَا مِنَ الجَهْمِيَّةِ، لأَنَّ أَهْلَ الأَهْوَاءِ جَمِيعًا فِي أَيِّ وَقْتٍ هَذِهِ طَرِيْقَتُهُمْ، يَأْخُذونَ مِنَ الأَدِلَّةِ مَا يُوَافِقُ رَغْبَتَهُمْ، وَيَتْرُكُونَ مَا يُخَالِفُ رَغْبَتَهُمْ.

❧❧❧

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: فَدَامَتْ لَهُمُ المُدَّةُ، وَوَجَدُوا مِنَ السُّلْطَانِ مَعُونَةً عَلَى ذَلِكَ، وَوَضَعُوا السَّيْفَ وَالسَّوْطَ عَلَى مَنْ دُونَ ذَلِكَ، فَدَرَسَ عِلْمُ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ وَأَوْهَنُوهُمَا، وَصَارتَا مَكْتُومَتَيْنِ لإِظْهَارِ البِدَعِ وَالكَلام فِيْهَا، وَلِكَثْرَتِهِمْ، وَاتَّخَذُوا المَجَالِسَ وأَظْهَروا رَأْيَهُمْ، وَوَضَعُوا فِيهِ الكُتُبَ، وَأَطْمَعُوا النَّاسَ، وَطَلَبُوا لَهُم الرِّئَاسَةَ، فَكَانَتْ فِتْنَةً عَظِيمَةً، لَمْ يَنْجُ مِنْهَا إلاَّ مَنْ عَصَمَ اللهُ، فَأَدْنَى مَا كَانَ يُصِيبُ الرَّجُلَ مِنْ مُجَالَسَتِهِمْ أَنْ يَشُكَّ فِي دِيْنِه، أَوْ يُتَابِعَهُمْ أَوْ يَرَى رَأْيَهُمْ عَلَى الحَقِّ، وَلا يَدْرِي أَنَّهُ عَلَى الحَقِّ أَوْ عَلَى البَاطِلِ، فَصَارَ شَاكًّا، فَهَلَكَ الخَلْقُ حَتَّى كَانَ أَيَّامَ جَعْفَرٍ الَّذِي يُقَالُ لَهُ المُتَوَكِّلُ؛ فَأَطْفَأَ اللهُ بِهِ البِدَعَ، وَأَظْهَرَ بِهِ الحَقَّ، وَأَظْهَرَ بِهِ أَهْلَ السُّنَّةِ، وَطَالَتْ أَلْسِنَتُهُمْ، مَعَ قِلَّتِهِمْ وَكَثْرَةِ أَهْلِ البِدَعِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (فَدَامَتْ لَهُمُ المُدَّةُ، وَوَجَدُوا مِنَ السُّلْطَانِ مَعُونَةً عَلَى ذَلِكَ) يُشِيرُ إِلَى عَهْدِ المَأْمُونِ وَذُرِّيَّتِهِ، عَفَا اللهُ عَنَّا وَعَنْهُ حَيْثُ غَرَّرُوا بِهِ وَخَدَعُوهُ.

قَوْلُهُ: (وَوَضَعُوا السَّيْفَ وَالسَّوْطَ عَلَى مَنْ دُونَ ذَلِكَ) يَعْنِي تَسَلَّطُوا فِي عَهْدِ المَأْمُونِ عَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَهَذِهِ نَتِيجَةُ البِطَانَةِ الخَبِيثَةِ، فَيَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ سَوَاءٌ كَانَ مِنْ وُلاةِ الأُمُورِ أَوْ مِنْ غَيْرِ وُلاةِ الأُمُورِ أَنْ لا يَتَّخِذَ إِلَّا بِطَانَةً صَالِحَةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ يَعْنِي: مِنْ غَيْرِكُمْ، ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران:١١٨]، فَالمُسْلِمُ يَتَّخِذُ بِطَانَةً صَالِحَةً وَيَحْذَرُ مِنَ البِطَانَةِ السَّيِّئَةِ، لا سِيَّمَا وُلاةُ الأُمُورِ، انْظُرُوا مَاذَا أَحْدَثَتِ البِطَانَةُ السَّيِّئَةُ لِلْمَأْمُونِ، مَعَ ذَكَائِهِ وَأَصَالَتِهِ وَأَنَّهُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، مَعَ هَذَا غَرَّرُوا بِهِ، وَانْظُرُوا مَاذَا فَعَلَتِ البِطَانَةُ السَّيِّئَةُ فِي آخِرِ بَنِي العَبَّاسِ: ابنُ العَلْقَمِيِّ وَالطُّوسِيُّ، مَاذَا

فَعلُوا بِالخَلِيفَةِ العَبَّاسِيِّ؟ جَرُّوا عَلَيْهِ التَّتَارَ مِنَ المَشْرِقِ، أَتَوْا بِهِمْ، وَفَتَحُوا لَهُمُ الطَّرِيْقَ وَيَسَّرُوا لَهُمُ السُّبُلَ حَتَّى قَضَوْا عَلَى بَغْدَادَ وَعَلَى بِلادِ المُسْلِمِيْنَ، وَقَتَلُوا المَقَاتِلَ العَظِيمَةَ، وَحَرَقُوا الكُتُبَ وَوَضَعُوهَا فِي نَهْرِ دِجْلَةَ وَالفُرَاتِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ بِهَا المِيَاه، يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ قَضَوْا عَلَى الإِسْلامِ لَكِنَّ الإِسْلامَ مُؤَيَّدٌ مِنَ اللهِ لا يُقْضَى عَلَيْهِ.

قَوْلُهُ: (**فَدَرَسَ عِلْمُ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ**) يَعْنِي: انْدَثَرَ، لأَنَّ الدُّرُوسَ: هُوَ الانْدِثَارُ.

قَوْلُهُ: (**وَأَوْهَنُوهُمَا**) يَعْنِي: أَضْعَفُوا عِلْمَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَصَارَ العِلْمُ عِنْدَهُمْ عِلْمَ الجَدَلِ، وَعِلْمَ الكَلامِ، وَعِلْمَ المَنْطِقِ.

قَوْلُهُ: (**وَصَارتَا مَكْتُومَتَيْنِ لإِظْهَارِ البِدَعِ وَالكَلام فِيْهَا**) تَرَكُوا السُّنَّةَ وَاشْتَغَلُوا بِالبِدَعِ وَإِظْهَارِ البِدَعِ وَالدَّعْوَةِ لَهَا، فَصَارَ أَهْلُ السُّنَّةِ مَكْتُومِيْنَ.

قَوْلُهُ: (**وَلِكَثْرَتِهِمْ، وَاتَّخَذُوا المَجَالِسَ وأَظْهَروا رَأْيَهُمْ**) اسْتَغَلُّوا المَجَالِسَ وَالمَدَارِسَ وَالتَّجَمُّعَاتِ، فَصَارُوا يُظْهِرُونَ آرَاءَهُمْ فِيْهَا وَيَنْشُرُونَهَا؛ وَهَكَذَا أَهْلُ الشَّرِّ إِذَا مُكِّنَ لَهُمْ فَإِنَّهُمْ لا يَأْلُونَ جُهْدًا فِي القَضَاءِ عَلَى الإِسْلامِ.

قَوْلُهُ: (**وَوَضَعُوا فِيهِ الكُتُبَ**) يَعْنِي: أَلَّفوا الكُتُبَ كُتُبَ الجَهْمِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ.

قَوْلُهُ: (**وَأَطْمَعُوا النَّاسَ، وَطَلَبُوا لَهُم الرِّئَاسَةَ**) أَقْنَعُوا كَثِيْرًا مِنَ النَّاسِ الَّذِيْنَ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ العِلْمِ بِرَأْيِهِمْ فَاتَّبَعُوهُمْ؛ لأَنَّ الفِتَنَ إِذَا جَاءَتْ قَلَّ مَنْ يَنْجو مِنْهَا، لَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَأَثَّرُ بِهَا تَأَثُّرًا كَثِيْرًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَأَثَّرُ تَأَثُّرًا دُونَ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْلَمُ مِنْهَا، وَلَكِنْ بَعْدَ الابْتِلاءِ وَالامْتِحَانِ، أَقْنَعُوا النَّاسَ بِمَذْهَبِهِمْ وَأَغْرَوهُمْ بِالمَالِ، هُمْ تَارَةً يَأْتُونَ بالتَّهْدِيدِ وَالقَتْلِ وَالضَّرْبِ وَالحَبْسِ، وَتَارَةً يَأْتُونَ بِالتَّرْغِيبِ بِالمَالِ وَالوَظَائِفِ وَالمُسْتَقْبَلِ المُشْرِقِ، فَالجَاهِلُ وَصَاحِبُ الطَّمَعِ

يَبيعُ دِيْنَهُ بِدُنْيَاهُ وَالعِيَاذُ بِالله.

قَوْلُهُ: (**فَكَانَتْ فِتْنَةً عَظِيمَةً، لَمْ يَنْجُ مِنْهَا إِلاَّ مَنْ عَصَمَ اللهُ**) لَمْ يَنْجُ مِنْهَا إِلَّا مَنْ تَمَسَّكَ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَصَبَرَ عَلَى مَا يُصِيبُهُ مِثْلُ الإِمَامِ أَحْمَدَ، وَهُنَاكَ مَنْ قُتِلَ وَهُوَ مُتَمَسِّكٌ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، أَمَّا الَّذِي طَاوَعَهُمْ وَسَارَ مَعَهُم فَهَذَا هَلَكَ مَعَهُمْ.

قَوْلُهُ: (**فَأَدْنَى مَا كَانَ يُصِيبُ الرَّجُلَ مِنْ مُجَالَسَتِهِمْ أَنْ يَشُكَّ فِي دِيْنِه**) يَعْنِي: مِنَ النَّاسِ مَنِ انْحَرَفَ عَنْ دِيْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَنْحَرِفْ عَنْ دِيْنِهِ لَكِنَّهُ حَصَلَ عِنْدَهُ تَشَكُّكٌ فِي بَعْضِ الأُمُورِ، لأَنَّ مُجَالَسَتَهُمْ لا تَأْتِي بِخَيْرٍ.

قَوْلُهُ: (**أَوْ يُتَابِعَهُمْ**) مَنْ جَالَسَهُم إِمَّا أَنْ يُصِيبَه شَيْءٌ كَثِيْرٌ وَيَنْحَرِفَ، أَوْ شَيْءٌ مِنَ الانْحِرَافِ، أَوْ عَلَى الأَقَلِّ يَصِيرُ عِنْدَهُ نَوْعُ تَشَكُّكٍ فِي بَعْضِ الأُمُورِ.

قَوْلُهُ: (**يُتَابِعَهُمْ أَوْ يَرَى رَأْيَهُمْ عَلَى الحَقِّ، وَلا يَدْرِي أَنَّهُ عَلَى الحَقِّ أَوْ عَلَى البَاطِلِ، فَصَارَ شَاكًّا**) لا سِيَّمَا وَأَنَّ عِنْدَهُم حُجَجًا مُزَوَّرَةً وَعِنْدَهُمْ بَلاغَةً وَفَصَاحَةً وَقُوَّةً فِي الكَلامِ، فَهُمْ يَحْتَاجُونَ إِلَى عَالِمٍ ثَابِتٍ يُقَاوِمُهُمْ وَيَرُدُّ عَلَيْهِم، مِثْلُ الإِمَامِ أَحْمَدَ، ومِثْلُ شَيْخِ الإِسْلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ، ومِثْلُ الأَئِمَّةِ الَّذِين قَامُوا فِي وُجُوهِهِمْ وَكَسَرُوهُمْ.

قَوْلُهُ: (**فَهَلَكَ الخَلْقُ حَتَّى كَانَ أَيَّامَ جَعْفَرٍ الَّذِي يُقَالُ لَهُ المُتَوَكِّلُ**) يَعْنِي: اسْتَمَرَّ هَذَا الابْتِلاءُ فِي عَهْدِ المَأْمُونِ، وَعَهْدِ أَخِيهِ المُعْتَصِم، وَعَهْدِ الوَاثِقِ بنِ المُعْتَصِم، فَلَمَّا هَلَكَ الوَاثِقُ بُويعَ أَخُوهُ المُتَوَكِّلُ فَنَصَرَ السُّنَّةَ، وَرَفَعَ المِحْنَةَ عَن أَهْلِ العِلْمِ، وَجَاءَ الفَرَجُ مِنَ الله ﷻ، فَجَزَاهُ اللهُ عَنِ الإِسْلامِ وَالمُسْلِمِيْنَ خَيْرًا، وَعَزَّزَ الإِمَامَ أَحْمَدَ وَأَكْرَمَهُ، (**يُقَالُ لَهُ المُتَوَكِّلُ**) أَي: المُتَوَكِّلُ عَلَى الله هَذَا لَقَبُهُ، أَمَّا اسْمُهُ فَهُوَ: جَعْفَرُ بنُ الوَاثِقِ.

قَوْلُهُ: (**وَطَالَتْ أَلْسِنَتُهُمْ**) يَعْنِي أَهْلَ السُّنَّة، يَعْنِي: قَوَوْا عَلَى الكَلامِ،

اشْتَدُّوا بِالكَلامِ عَلَى أَهْلِ البِدَعِ، فانْعَكَسَ الأَمْرُ.

قَوْلُهُ: (مَعَ قِلَّتِهِمْ وَكَثْرَةِ أَهْلِ البِدَعِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا) لَكِنَّ البَاطِلَ لا يُقَاوِمُ الحَقَّ أَبَدًا، وَإِنْ كَانَ مَنْ عَلَى البَاطِلِ كَثِيْرًا، فَإِنَّهُمْ لا يُقَاوِمُونَ الحَقَّ وَأَهْلَهُ، وَلَو كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ قَلِيْلًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩]، الإِمَامُ أَحْمَدُ فَرْدٌ وَاحِدٌ وَانْظُرْ مَاذَا عَمِلَ فِي وَجْهِ الزَّحْفِ المُلْحِدِ، ثَبَتَ بِنَفْسِهِ وَحْدَهُ حَتَّى أَعَزَّ اللهُ بِهِ السُّنَّةَ؛ لِذَلِكَ يُسَمَّى «إِمَامَ أَهْلِ السُّنَّةِ».

قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: وَالرَّسْمُ وَأَعْلامُ الضَّلالَةِ قَدْ بَقِيَ مِنْهُمْ قَوْمٌ يَعْمَلُونَ بِهَا، وَيَدْعُونَ إِلَيْهَا، لا مَانِعَ يَمْنَعُهُمْ، وَلا أَحَدَ يَحْجُزُهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ وَيَعْمَلُونَ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَالرَّسْمُ وَأَعْلامُ الضَّلالَةِ قَدْ بَقِيَ مِنْهُمْ قَوْمٌ يَعْمَلُونَ بِهَا) الشَّرُّ لا يَنْتَهِي، بَلْ يَبْقَى الخَيْرُ وَالشَّرُّ للابْتِلاءِ وَالامْتِحَانِ، لَكِنْ أَحْيَانًا يَنْتَصِرُ الحَقُّ وَيَظْهَرُ، وَأَحْيَانًا يَظْهَرُ البَاطِلُ، وَلَكِنَّ ظُهُورَ البَاطِلِ لا يَسْتَمِرُّ، أَمَّا الحَقُّ فَإِنَّهُ وَإِنْ حَصَلَ عَلَيْهِ مَا حَصَلَ فَإِنَّهُ يَعُودُ بِإِذْنِ اللهِ، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣٢]، يَقُولُ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رحمه الله:

وَالحَقُّ مَنْصُورٌ وَمُمْتَحَنٌ فَلا ... تَعْجَبْ فَهَذِهِ سُنَّةُ الرَّحْمَنِ

[١٠٢] قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ تَجِئْ زَنْدَقَةٌ قَطُّ إِلَّا مِنَ الهَمَجِ الرِّعَاعِ أَتْبَاعِ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، فَمَنْ كَانَ هَكَذَا، فَلا دِينَ لَهُ، قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية:١٧]، وَهُمْ عُلَمَاءُ السُّوءِ أَصْحَابُ الطَّمَعِ وَالبِدَعِ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ تَجِئْ زَنْدَقَةٌ قَطُّ) الزَّنْدَقَةُ: هِيَ النِّفَاقُ؛ وَهُوَ إِظْهَارُ الإِيْمَانِ وَإِبْطَانُ الكُفْرِ، فَالزَّنَادِقَةُ: هُمُ الَّذِيْنَ كَانُوا يُسَمَّوْنَ بِـ«المُنَافِقِيْنَ» فِي صَدْرِ الإِسْلامِ، وَيَعِيْشُونَ بَيْنَ النَّاسِ، وَإِذَا سَنَحَتْ لَهُمْ فُرْصَةٌ ظَهَرَ شَرُّهُمْ وَكَشَّرَتْ عَنْ أَنْيَابِهِمْ ضِدَّ الحَقِّ وَأَهْلِهِ؛ كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي زَمَانِنَا الآنَ.

قَوْلُهُ: (إِلَّا مِنَ الهَمَجِ الرِّعَاعِ أَتْبَاعِ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ) يَعْنِي: دَهْمَاءَ النَّاسِ، يَتَّبِعُونَ كُلَّ نَاعِقٍ، لا يَدْرُونَ أَيْنَ يَتَّجِهُونَ، أَمَّا أَهْلُ العِلْمِ - أَهْلُ الرُّسُوخِ وَالثَّبَاتِ - فَإِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ الحَقَّ، فَلا تَغْتَرَّ بِالكَثْرَةِ، كَثْرَةِ أَهْلِ الشَّرِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، العِبْرَةُ بِمَنْ عَلَى الحَقِّ وَلَو كَانَ قَلِيلًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

قَوْلُهُ: (فَمَنْ كَانَ هَكَذَا، فَلا دِينَ لَهُ) الَّذِي يَتَذَبْذَبُ لَيْسَ لَهُ دِينٌ، فَهُوَ مُنَافِقٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤٣]، فَالمُذَبْذَبُ هَذَا لَيْسَ لَهُ دِينٌ.

قَوْلُهُ: (قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية:١٧]) فَهُمْ لَوِ اخْتَلَفُوا عَنْ جَهْلٍ تَهَانَتِ المُصِيبَةُ، وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا وَهُمْ

يَعْلَمُونَ؛ لأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا هَوَاهُمْ فَاخْتَلَفُوا، وَلَو اتَّبَعُوا الحَقَّ لاتَّفَقُوا وَاجْتَمَعُوا، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ**﴾ [آل عمران:١٠٣]، فَإِذَا كَانَتْ مُخَالَفَةُ الحَقِّ عَنْ جَهلٍ فَهَذِهِ يُرْجَى أَنْ تَزُولَ، أَمَّا إِذَا كَانَتْ عَنْ عِلْمٍ فَصَعْبٌ زَوَالُهَا؛ لأَنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ**﴾ [القصص:٥٠] لا أَحَدَ أَضَلُّ مِنْهُ، وَقَولُهُ تَعَالَى: ﴿**فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ**﴾ يَعْنِي: بَنِي إِسْرَائِيلَ، مَا اخْتَلَفُوا عَنْ جَهْلٍ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا عَنْ هَوًى؛ وَكَذَلِكَ مَنْ شَابَهَهُمْ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ.

[١٠٣] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّهُ لا يَزَالُ النَّاسُ فِي عِصَابَةٍ مِنْ أَهْلِ الحَقِّ وَالسُّنَّةِ، يَهْدِيهِمُ اللهُ، وَيَهْدِي بِهِمْ غَيْرَهُمْ، وَيُحْيِي بِهِمُ السُّنَنَ، فَهُمُ الَّذِيْنَ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى مَعَ قِلَّتِهِمْ عِنْدَ الاخْتِلافِ فَقَالَ: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، فَاسْتَثْنَاهُمْ فَقَالَ: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣]، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِيْنَ عَلَى الحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ»[١].

الشَّرْح

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: (وَاعْلَمْ) أَيْ: تَعَلَّمْ أَيُّهَا المُسْلِمُ، وَيَا طَالِبَ العِلْمِ أَنَّ الحَقَّ يَبْقَى، وَيَبْقَى عَلَيْهِ مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ لاتِّبَاعِهِ مَهْمَا كَثُرَتِ الفِتَنُ، وَمَهْمَا حَاوَلَ الأَعْدَاءُ أَنْ يَقْضُوا عَلَى الحَقِّ وَأَهْلِهِ فَإِنَّهُمْ لايَسْتَطِيْعُونَ ذَلِكَ، لأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَحْمِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِيْنَ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلا مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، فَالحَقُّ بَاقٍ وَأَهْلُهُ بَاقُونَ وَإِنْ قَلُّوا فِي بَعْضِ السِّنِيْنِ أَوْ بَعْضِ الأَوْقَاتِ، فَإِنَّ اللهَ لا يُضَيِّعُ هَذَا الحَقَّ أَبَدًا، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَى مَنْ تَمَسَّكَ بِهَذَا الحَقِّ أَنْ يَصْبِرَ عَلَيْهِ، وَيَصْبِرَ عَلَى مَا يَلْقَى، وَإِلاَّ فَإِنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلا - لا يُضَيِّعُ هَذَا الحَقَّ أَبَدًا، بَلْ يُقَيِّضُ لَهُ أَنْصَارًا وَأَتْبَاعًا، وَقَدْ يَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ فَإِذَا تُرِكَ فِي مَكَانٍ قَيَّضَ اللهُ آخَرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٤) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد:٣٨]، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٥٤] فَهَذَا ضَمَانٌ مِنَ الله - جَلَّ وَعَلا - لِبَقَاءِ هَذَا الحَقِّ، وَأَنَّهُ سَيُقَيِّضُ لَهُ مَنْ يَقُومُ بِهِ وَيَحْمِيهِ، فَالخَطَرُ لَيْسَ عَلَى ضَيَاعِ الدِّينِ، لَكِنَّ الخَطَرَ عَلَيْنَا نَحْنُ إِنْ لَمْ نَتَمَسَّكْ بِهَذَا الدِّينِ وَنَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُؤْخَذُ مِنَّا وَيُعْطَى لِغَيْرِنَا، فَعَلَيْنَا أَنْ نَخَافَ عَلَى أَنْفُسِنَا لِئَلَّا يُؤْخَذَ مِنَّا هَذَا الدِّينُ، وَيُعْطَى لِغَيْرِنَا وَنَهْلِكَ.

قَوْلُهُ: (**أَنَّهُ لا يَزَالُ النَّاسُ فِي عِصَابَةٍ مِنْ أَهْلِ الحَقِّ وَالسُّنَّةِ**) عِصَابَةٌ يَعْنِي: جَمَاعَةً، كَمَا قَالَ ﷺ: «**لا تَزَالُ طَائِفَةٌ**» تُسَمَّى طَائِفَةً، وجَمَاعَةً، وعِصَابَةً.

قَوْلُهُ: (**يَهْدِيهِمُ اللهُ**) لِلتَّمَسُّكِ بِهَذَا الحَقِّ (**وَيَهْدِي بِهِمْ غَيْرَهُمْ**) فَهُمْ يَهْتَدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَيَهْدونَ غَيْرَهُمْ، هَذِهِ صِفَةُ العُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ، أَنَّهُمْ يَقْتَصِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، بَلْ أَيْضًا يَدْعُونَ غَيْرَهُمْ إِلَى الحَقِّ وَيُبَصِّرُونَهُمْ بِهِ، وَيَهْدُونَهُمْ إِلَيْهِ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يُرْشِدُونَهُمْ إِلَيْهِ وَيُوَضِّحُونَهُ لَهُمْ.

قَوْلُهُ: (**وَيُحْيِي بِهِمُ السُّنَنَ**) أَيِ: السُّنَنَ النَّبَوِيَّةَ بَعْدَ أَنْ دُرِسَتْ وَانْدَفَنَتْ فَإِنَّهُم يَبْعَثُونَهَا وَيُحْيُونَهَا، هَذِهِ طَرِيقَتُهُمْ، أَنَّهُمْ يُحْيُونَ السُّنَنَ وَيُمِيتُونَ البدَعَ، وَيُجَدِّدُونَ هَذَا الدِّينَ حَتَّى يَعُودَ كَمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَفِي كُلِّ فَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَانِ يَبْعَثُ اللهُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ وَانْتِحَالَ المُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ، هَذَا فَضْلٌ مِنَ الله ﷻ، فكَمْ تَعَرَّضَ هَذَا الدِّينُ ولا يَزَالُ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ بكِتَابِهِ وَبِسُنَّتِهِ، لَمْ تَتَعَدَّ يَدٌ عَلَيْهِ بِالتَّغْيِيرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، هَا هُوَ القُرْآنُ كَمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يُغَيَّرْ مِنْهُ حَرْفٌ وَاحِدٌ، وَهَذَا مِنْ حِفْظِ الله لَهُ، حَيْثُ كَانَتِ الكُتُبُ السَّابِقَةُ يُسْتَحْفَظُ عَلَيْهَا الأَحْبَارُ وَالرُّهْبَانُ فَكَانُوا يُضَيِّعُونَ

كِتَابَهُمْ، وَيدْخُلُ فِيهِ التَّغْيِيرُ وَالتَّبْدِيلُ وَالتَّحْرِيفُ، كَمَا حَصَلَ لِلتَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ، إِلَّا أَنَّ اللهَ تَكَفَّلَ هُوَ سُبْحَانَهُ بِحِفْظِ هَذَا القُرْآنِ، فَلا يَجْرُؤُ أَحَدٌ أَنْ يُغَيِّرَ مِنْهُ حَرْفًا وَاحِدًا، وَهَذَا مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ.

قَوْلُهُ: (فَهُمُ الَّذِيْنَ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى مَعَ قِلَّتِهِمْ عِنْدَ الاخْتِلافِ فَقَالَ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة:٢١٣]) ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أَيْ: فِي هَذَا الدِّيْنِ أَوْ فِي هَذَا الكِتَابِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ فَهُمْ لَمْ يَخْتَلِفُوا لأَجْلِ خَفَاءِ الحَقِّ عَلَيْهِم، وَالبَحْثِ عَنِ الحَقِّ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا بِسَبَبِ بَغْيِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَبِسَبَبِ الأَهْوَاءِ، هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي تَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ: الأَهْوَاءُ، وَحُبُّ الظُّهُورِ، فَلَمْ يَخْتَلِفُوا عَنْ جَهْلٍ أَوْ عَنْ خَفَاءٍ فِي الحَقِّ، فَهَذَا فِيهِ إِقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، فِي أَنَّهُمْ جَاءَهُمُ الحَقُّ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَأَغْرَاضَهُمْ وَمَطَامِعَهُمْ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ، فَهَذِهِ الآيَةُ فِيهَا ذَمُّ الاخْتِلافِ، وَأَنَّ الوَاجِبَ أَنْ نَجْتَمِعَ عَلَى كِتَابِ اللهِ، وَفِيهَا ذَمُّ الهَوَى وَرَغَبَاتِ النُّفُوسِ، وَأَنَّ الوَاجِبَ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ اتِّبَاعُهُ لِلحَقِّ، وَإِنْ خَالَفَ الحَقُّ هَوَاهُ؛ لأَنَّ الأُمَمَ السَّابِقَةَ كَانَتْ ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة:٧٠]، فَهُمْ يَتَّبِعُونَهُمْ فِيمَا وَافَقَ أَهْوَاءَهُمْ، وَمَا خَالَفَ أَهْوَاءَهُمْ، فَإِمَّا أَنْ يَقْتُلُوا رُسُلَهُمْ وَإِمَّا أَنْ يُكَذِّبُوهُ، هَذِهِ طَرِيقَةُ الأُمَمِ السَّابِقَةِ الهَالِكَةِ، فَالوَاجِبُ عَلَيْنَا الاجْتِمَاعُ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنَ وَلَو خَالَفَ أَهْوَاءَنَا، فَإِنَّ هَذَا مِنْ مَصْلَحَتِنَا، وَاتِّبَاعُنَا لأَهْوَائِنَا مِنْ مَضَرَّتِنَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١].

قَوْلُهُ: (فَاسْتَثْنَاهُمْ فَقَالَ: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾) قَالَ تَعَالَى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً

فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ [البقرة:٢١٣] فبيَّن أَنَّ اخْتِلافَهُمْ إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ البَغْيِ وَالتَّعَدِّي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَاتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ، لَيْسَ لِخَفَاءٍ فِي الحَقِّ، لَكِنَّهُمْ لا يُرِيدُونَ الحَقَّ، ثُمَّ اسْتَثْنَى فَقَالَ: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هؤُلاءِ هُمْ أَتْبَاعُ الأَنْبِيَاءِ وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَهُمْ أَهْلُ الحَقِّ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذَا يَحْتَاجُ إِلَى إِيمَانٍ، لَكِنَّ هِدَايَتَهُ يَضَعُهَا فِيمَنْ يَسْتَحِقُّهَا وَهُمْ أَهْلُ الإِيمَانِ، وَمَحَبَّةُ الحَقِّ، فَإِنَّ اللهَ يَهْدِيهِمْ بِإِيمَانِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ لِلحَقِّ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الهِدَايَةَ لَهَا سَبَبٌ وَهُوَ الإِيمَانُ، وَمَحَبَّةُ الحَقِّ، وَالبَحْثُ عَنْهُ.

قَوْلُهُ ﷺ: (**«لا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِيْنَ عَلَى الحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَـهُمْ حَتَّى يَأْتِي أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ»**) هَذَا الحَدِيثُ اشْتُهِرَ بِأَلْفَاظٍ وَرِوَايَاتٍ كَثِيْرَةٍ، فِي لَفْظٍ: «**لا تَزَالُ عِصَابَةٌ**» وَهِيَ الجَمَاعَةُ، وَفِي لَفْظٍ «**طَائِفَةٌ**»، «**عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِيْنَ**» أَيْ: مُنْتَصِرِينَ عَلَى غَيْرِهِمْ، «**لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَـهُمْ حَتَّى يَأْتِي أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**» فِي آخِرِ الزَّمَانِ، يَعْنِي قُرْبَ قِيَامِ السَّاعَةِ حِيْنَ تُقْبَضُ أَرْوَاحُ المُؤْمِنِيْنَ فَلا يَبْقَى عَلَى الأَرْضِ مُؤْمِنٌ، وَلا يَبْقَى إِلا أَهْلُ الكُفْرِ وَالشِّرْكِ، ثُمَّ تَقُومُ عَلَيْهِمُ السَّاعَةُ، فَالسَّاعَةُ لا تَقُومُ عَلَى المُؤْمِنِيْنَ وَإِنَّمَا تَقُومُ عَلَى الكفار. قَالَ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، والَّذِيْنَ يَبْنُونَ المَسَاجِدَ عَلَى القُبُورِ**»، هَؤُلاءِ هُمْ شِرَارُ النَّاسِ وَالعِيَاذُ بِاللهِ، فَلا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى مُؤْمِنٍ، وَإِنَّمَا تَقُومُ عَلَى الكُفَّارِ وَالمُشْرِكِيْنَ.

❧

[١٠٤] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّ العِلْمَ لَيْسَ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ وَالكُتُبِ، وَإِنَّمَا العَالِمُ مَنِ اتَّبَعَ العِلْمَ والسُّنَنَ، وَإِنْ كَانَ قَلِيلَ العِلْمِ وَالكُتُبِ، وَمَنْ خَالَفَ الكِتَابَ والسُّنَّةَ فَهُوَ صَاحِبُ بِدْعَةٍ وَإِنْ كَانَ كَثِيرَ العِلْمِ وَ الكُتُبِ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّ العِلْمَ لَيْسَ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ وَالكُتُبِ) العِلْمُ لَيْسَ بِكَثْرَةِ المَعْلُومَاتِ وَالاطِّلاعِ وَكَثْرَةِ الكُتُبِ، العِلْمُ إِنَّمَا هُوَ بِالفِقْهِ وَبِالاتِّبَاعِ وَالعَمَلِ وَلَو كَانَ العِلْمُ قَلِيلًا، فَالقَلِيلُ مِنَ العِلْمِ مَعَ العَمَلِ الصَّالِحِ وَالفِقْهِ فِي دِيْنِ اللهِ كَثِيْرٌ، وَالعِلْمُ الكَثِيْرُ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ، وَمِنْ غَيْرِ اتِّبَاعٍ لا فَائِدَةَ فِيهِ، فَاليَهُودُ فِيْهِم عُلَمَاءُ، فِيْهِم أَحْبَارٌ وَمَعَ هَذَا لَمْ يَنْفَعْهُم عِلْمُهُمْ وَصَارُوا مَغْضُوبًا عَلَيْهِم؛ لأَنَّهُمْ عَصَوا اللهَ عَلَى بَصِيْرَةٍ، فَلَيْسَ القَصْدُ كَثْرَةَ العِلْمِ، وَكَثْرَةَ المُطَالَعَاتِ، بَلِ المَقْصُودُ العَمَلُ، هَذَا هُوَ المَقْصُودُ بِالعِلْمِ، وَهَذَا هُوَ طَرِيْقُ المُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وَهُمْ: أَهْلُ العِلْمِ وَالعَمَلِ، ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وَهُمْ: أَهْلُ العِلْمِ بِدُونِ عَمَلٍ، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٦-٧] وَهُمْ: أَهْلُ العَمَلِ بِدُونِ عِلْمٍ، فَالعِلْمُ لا يَنْفَعُ إِلاَّ مَعَ العَمَلِ، وَالعَمَلُ لا يَنْفَعُ إِلاَّ مَعَ العِلْمِ، فَلا بُدَّ مِنِ اجْتِمَاعِ العِلْمِ والعَمَلِ، وَهَذَا طَرِيْقُ المُنْعَمِ عَلَيْهِمْ.

قَوْلُهُ: (وَإِنَّمَا العَالِمُ مَنِ اتَّبَعَ العِلْمَ وَالسُّنَنَ، وَإِنْ كَانَ قَلِيلَ العِلْمِ والكُتُبِ) إِنَّمَا العَالِمُ مَنِ اتَّبَعَ الكِتَابَ وَالسُّنَنَ، وَإِنْ كَانَ قَلِيلَ المَحْصُولِ فِي العِلْمِ، بِخِلافِ مَنْ كَانَ مَحْصُولُهُ فِي العِلْمِ كَثِيْرًا، أَوْ عِنْدَهُ كُتُبٌ كَثِيْرَةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ ولَكِنَّهُ لا يَعْمَلُ فَهَذَا لا فَائِدَةَ فِيهِ.

العِلْمُ إنَّمَا يَكْثُرُ وَيَزْكُو وينْمُو مَعَ العَمَلِ الصَّالِحِ، أَمَّا عِلْمٌ بِدُونِ عَمَلٍ فَهُوَ مَنْزُوعُ البَرَكَةِ وَهُوَ لا يَسْتَقِرُّ، وَالعُلَمَاءُ عَلَى قِسْمَيْنِ:

الأَوَّلُ: عُلَمَاءُ بِاللِّسَانِ فَقَطْ.

الثَّانِي: عُلَمَاءُ بِاللِّسَانِ وَالقَلْبِ، وَهُمْ أَهْلُ الخَشْيَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ**﴾ [فاطر:٢٨]، فَالعِلْمُ وَالخَشْيَةُ هُمَا العِلْمُ الصَّحِيحُ، أَمَّا عِلْمُ اللِّسَانِ بِدُونِ خَشْيَةٍ فَهَذَا هُوَ عِلْمُ المُنَافِقِينَ، نسَأَلَ اللهَ العَافِيَةَ.

قَوْلُهُ: (**وَمَنْ خَالَفَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَهُوَ صَاحِبُ بِدْعَةٍ**)، لأَنَّ البِدْعَةَ: هِيَ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ العَبْدُ إِلَى اللهِ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ مِنْ كِتَابٍ وَلا سُنَّةٍ، قَالَ ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**» أي: مَرْدُودٌ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وفِي رِوَايَة: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[1]، فَالَّذِي يُحْدِثُ البِدْعَةَ وَالَّذِي يَعْمَلُ بِهَا عَمَلُهُ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ، لأَنَّهُ يَعْمَلُ عَمَلًا لَمْ يَشْرَعْهُ اللهُ وَلا رَسُولُهُ، فَاللهُ لا يَقْبَلُهُ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ العُلَمَاءُ عَنِ العَمَلِ: لا يُقْبَلُ إِلاَّ بِشَرْطَيْنِ:

- **الشَّرْطُ الأَوَّلُ:** الإِخْلاصُ للهِ ﷻ مِنَ الشِّرْكِ.
- **والشَّرْطُ الآخَرُ:** المُتَابَعَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ وَذَلِكَ بِتَرْكِ البِدَعِ وَالمُحْدَثَاتِ.

فَكُلُّ عَمَلٍ خَالَطَهُ الشِّرْكُ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَكُلُّ عَمَلٍ أُسِّسَ عَلَى البِدْعَةِ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَلا يَصِحُّ إِلاَّ مَا كَانَ خَالِصًا لِوَجْهِ اللهِ وَصَوَابًا عَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَوْلُهُ: (**وَإِنْ كَانَ كَثِيرَ العِلْمِ والكُتُبِ**) مَا دَامَ أَنَّهُ مُبْتَدِعٌ فَلا يَنْفَعُهُ عِلْمُهُ، وَلَو كَانَ غَزِيرَ العِلْمِ مُتَبَحِّرًا، إِذَا لَمْ يَكُنْ مُتَّبِعًا لِلرَّسُولِ ﷺ، وَإِنَّمَا يَعْمَلُ بِقَوْلِ فُلانٍ وَفُلانٍ، فَإِنَّ عِلْمَهُ لا فَائِدَةَ فِيهِ، وَكُتُبُهُ لا يَسْتَفِيدُ مِنْهَا، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي اليَهُودِ:

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارًا﴾ [الجمعة:٥] الَّذِي عِنْدَهُ مَكْتَبَةٌ ضَخْمَةٌ وَهُوَ تَارِكٌ للعَمَلِ أَوْ مُبْتَدِعٌ، هَذَا مِثْلُ الحِمَارِ يَحْمِلُ الكُتُبَ وَلا يَسْتَفِيدُ مِنْهَا.

[١٠٥] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّ مَنْ قَالَ فِي دِيْنِ اللهِ بِرَأْيِهِ وَقِيَاسِهِ وَتَأْوِيلِهِ مَنْ غَيْرِ حُجَّةٍ مِنَ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، فَقَدْ قَالَ عَلَى اللهَ مَا لا يَعْلَمُ، وَمَنْ قَالَ عَلَى اللهِ مَا لا يَعْلَمُ فَهُوَ مِنَ المُتكَلِّفِيْنَ.

الشَّرْحُ

قَالَ: (وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ) كُلُّ جُمْلَةٍ يُصَدِّرُهَا بِقَوْلِهِ: (اعْلَمْ) مِنْ أَجْلِ الانْتِبَاهِ؛ لأَنَّهَا مُهِمَّةٌ.

قَوْلُهُ: (مَنْ قَالَ فِي دِيْنِ اللهِ بِرَأْيِهِ وَ قِيَاسِهِ وَتَأْوِيلِهِ مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ مِنَ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، فَقَدْ قَالَ عَلَى اللهِ مَا لا يَعْلَمُ) فالدِّيْنُ لَيْسَ بِالرَّأْيِ، إِنَّمَا هُوَ بِالاتِّبَاعِ، لَيْسَ الدِّيْنُ بِالرَّأْيِ وَلا بِالقِيَاسِ، والمُرَادُ: القِيَاسُ الفَاسِدُ لا القِيَاسُ الصَّحِيحُ، فَالدِّيْنُ لَيْسَ بالرَّأْيِ وَلا بالقِيَاسَاتِ وَلا بِالأَفْكَارِ، وَإِنَّمَا هُوَ بِالوَحْيِ المُنَزَّلِ عَلى النَّبِيِّ المُرْسَلِ، هَذَا هُوَ الدِّيْنُ.

قَوْلُهُ: (وقِيَاسِهِ) المُرَادُ: القِيَاسُ البَاطِلُ، أَمَّا القِيَاسُ الصَّحِيحُ المَبْنِيُّ عَلَى العِلَّةِ، فهَذَا مِنْ أُصُولِ الأَدِلَّةِ، لأَنَّ الأَدِلَّةَ: الكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، والإِجْمَاعُ، والقِيَاسُ الصَّحِيحُ المَبْنِيُّ عَلَى العِلَّةِ الصَّحِيحَةِ المَنْصُوصِ عَلَيْهَا أَوِ المُسْتَنْبَطَةِ، لأَنَّ العِلَّةَ عَلَى قِسْمَيْنِ:

الأَوَّلُ: علَّةٌ مَنْصُوصَةٌ.

الآخَرُ: عِلَّةٌ مُسْتَنْبَطَةٌ.

قَوْلُهُ: (وَتَأْوِيلِهِ) المُرَادُ بِالتَّأْوِيلِ: صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ ظَاهِرِهِ مِنْ غَيْرِ دَلِيْلٍ، هَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ المَذْمُومُ.

قَوْلُهُ: (وَمَنْ قَالَ عَلَى اللهِ مَا لا يَعْلَمُ فَهُوَ مِنَ المُتكَلِّفِيْنَ) والتَّكَلُّفُ: هُوَ القَوْلُ فِي الدِّينِ بِلا حُجَّةٍ.

[١٠٦] قَالَ المُؤَلِّفُ ﷺ: وَالحَقُّ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ الله ﷻ، وَالسُّنَّةُ: سُنَّةُ رَسُولِ الله ﷺ، والجَمَاعَةُ: مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ فِي خِلافَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وعُثْمَانَ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَالحَقُّ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ الله ﷻ، وَالسُّنَّةُ: سُنَّةُ رَسُولِ الله ﷺ) مَا جَاءَ عَنِ الله فِي القُرْآنِ الكَرِيْمِ، وَمَا جَاءَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ فِي السُّنَّةِ، كِلاهُمَا وَحْيٌ مِنَ الله جَلَّ وَعَلا، القُرْآنُ وَحْيٌ عَنِ الله، والسُّنَّةُ وَحْيٌ مِنَ الله؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤] القُرْآنُ يُسَمَّى بِالوَحْيِ الأَوَّلِ، والسُّنَّةُ الوَحْيُ الثَّانِي بَعْدَ القُرْآنِ، وَهِي مُفَسِّرَةٌ لِلْقُرْآنِ، ومُوَضِّحِةٌ لَهُ، ومُبَيِّنَةٌ لَهُ؛ لأَنَّ اللهَ قَالَ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، الرَّسُولُ يُبَيِّنُ القُرْآنَ بِسُنَّتِهِ وَعَمَلِهِ وَقَولِهِ.

وَالمُرَادُ بِالسُّنَّةِ فِي اللُّغَةِ: الطَرِيقَةُ، وَالمُرَادُ هُنَا مَا ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَقْرِيرٍ، هَذِهِ هِيَ السُّنَّةُ عِنْدَ المُحَدِّثِيْنَ.

وَعِنْدَ الفُقَهَاءِ: السُّنَّةُ: المُسْتَحَبُّ الَّذِي يُثَابُ فَاعِلُهُ، وَلا يُعَاقَبُ تَارِكُهُ.

قَوْلُهُ: (والجَمَاعَةُ: مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ فِي خِلافَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وعُثْمَانَ) الجَمَاعَةُ فِي الدِّينِ: مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الحَقِّ.

وَأَوَّلُ الجَمَاعَةِ، وَمُقَدَّمُ الجَمَاعَةِ: صَحَابَةُ رَسُولِ الله ﷺ، الَّذِيْنَ هُمْ أَفْضَلُ القُرُونِ، مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ صَحَابَةُ رَسُولِ الله ﷺ فَهُوَ الجَمَاعَةُ، وَمَنْ بَعْدَهُم مَنْ كَانَ عَلَى الحَقِّ فَهُوَ الجَمَاعَةُ، فَالَّذِي عَلَى الحَقِّ يُسَمَّى جَمَاعَةً وَلَو كَانَ وَاحِدًا، وَلَو كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَلَى خِلافِهِ، إِذْ لَيْسَ المُرَادُ بِالجَمَاعَةِ الكَثْرَةَ، بَلِ المُرَادُ بِالجَمَاعَةِ مَنْ كَانُوا عَلَى الحَقِّ، وَلَو كَانُوا طَائِفَةً يَسِيرَةً.

[١٠٧] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: ومَنِ اقْتَصَرَ عَلَى سُنَّةِ رَسُولِ الله ﷺ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ وَالجَمَاعَةُ فَلَجَ عَلَى أَهْلِ البِدَعِ كُلِّهَا، وَاسْتَرَاحَ بَدَنُهُ وَسَلِمَ لَهُ دِيْنُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ، لأَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي»[١] وَبَيَّنَ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ النَّاجِي مِنْهَا فَقَالَ: «مَا كُنْتُ أَنَا عَلَيْهِ اليَوْمَ وأَصْحَابِي»[٢] فَهَذَا هُوَ الشِّفَاءُ وَالبَيَانُ وَالأَمْرُ الوَاضِحُ، وَالمَنَارُ المُسْتَنِيرُ، وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالتَّعَمُّقَ وإِيَّاكُمْ وَالتَّنَطُّعَ، وَعَلَيْكُمْ بِدِينِكُمُ العَتِيقِ».

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (ومَنِ اقْتَصَرَ عَلَى سُنَّةِ رَسُولِ الله ﷺ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ وَالجَمَاعَةُ فَلَجَ عَلَى أَهْلِ البِدَعِ كُلِّهَا) مَنْ ثَبَتَ عَلَى هَذِهِ الأُصُولِ العَظِيمَةِ: عَلَى القُرْآنِ، وَعَلَى السُّنَّةِ، وَعَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ جَمَاعَةُ المُسْلِمِيْنَ وَهُوَ الإِجْمَاعُ عَلَى الحَقِّ، فَإِنَّهُ يَفْلُجُ أَهْلَ البَاطِلِ يَعْنِي: يَخْصِمُهُمْ وَيَكُونُ مَعَهُ الحَقُّ دُونَهُمْ، وَلَو كَانُوا كَثِيْرِينَ.

قَوْلُهُ: (وَاسْتَرَاحَ بَدَنُهُ وَسَلِمَ لَهُ دِيْنُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ) مَنْ كَانَ عَلَى الكِتَابِ والسُّنَّةِ وَمَعَ جَمَاعَةِ المُسْلِمِيْنَ سَلِمَ لَهُ بَدَنُهُ وَدِيْنُهُ وَلَو كَانَ وَاحِدًا، وَأَيْضًا يَنْتَصِرُ عَلَى أَهْلِ البَاطِلِ بِالحُجَّةِ وَالبُرْهَانِ؛ لأَنَّهُمْ لَيْسَ عِنْدَهُم إِلاَّ شُبُهَاتٌ وَتَزِييفٌ.

قَوْلُهُ ﷺ: «سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي» الرَّسُولُ ﷺ أَخْبَرَ خَبَرًا مَعْنَاهُ التَّحْذِيْرُ، يُخْبِرُ عَنِ المُسْتَقْبَلِ وَمَا يَحْدُثُ مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَةِ المُسْلِمِيْنَ وأَنْ يَكُونُوا عَلَى بَصِيْرَةٍ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَحْصُلُ اخْتِلافٌ، وتَفَرُّقٌ، حَتَّى إِذَا حَدَثَ هَذَا يَكُونُون عَلَى بَصِيْرَةٍ، ويَأْخُذُون حِذْرَهُمْ، وَلا يَغْتَرُّوا بِكَثْرَةِ المُخَالِفِيْنَ وَالمُنَازِعِيْنَ، وَلا يَزْهَدُوا فِي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

الحَقِّ، فَهَذَا مِنْ نُصْحِهِ ﷺ لِلأُمَّةِ، فِي حَدِيْثِ العِرْبَاضِ بنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه قَالَ: صَلَّى بِنا رَسُولُ الله ﷺ صَلاةَ الصُّبْحِ، فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَت مِنْهَا العُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا؟ قَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله، والسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيْرًا، فعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي، فتَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**»(١) فَأَخْبَرَهُمْ ﷺ أَنَّهُ سيَحْصُلُ اخْتِلافٌ كَثِيْرٌ مِنْ بَعْدِهِ ﷺ، ثُمَّ أَوْصَاهُمْ عِنْدَ حُصُولِ الاخْتِلافِ بأَنْ يتَمَسَّكُوا بِسُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، فَإِنَّهَا هِيَ النَّجَاةُ مِنَ الفِتَنِ، وَالعِصْمَةُ مِنَ الافْتِرَاقِ وَالضَّلالِ، وأَيْضًا أَخْبَرَ فِي حَدِيْثٍ آخَرَ أَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وأَصْحَابِي**»(٢) هَذَا هُوَ الَّذِي يَنْجُو عِنْدَ الافْتِرَاقِ مِنَ الضَّلالِ، وَيَنْجُو مِنَ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ، هُوَ مَنْ كَانَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ ﷺ وَصَحَابَتُهُ الكِرَامُ، فَهَذَا هُوَ المَنْجَاةُ مِنَ الفِتَنِ، والافْتِرَاقِ، فَالاثْنَتَانِ وَالسَبْعُونَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِمَا عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ، ودُخُولُـهُمُ النَّار يَخْتَلِفُ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكْفُرُ وَيَدْخُلُ النَّارَ مَعَ الكُفَّارِ مُخَلَّدًا فِيْهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْسُقُ وَيدْخُلُ النَّارَ مَعَ العُصَاةِ وُيعذَّبُ فِيْهَا ثُمَّ يَدْخُلُ الجَنَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ، فكَوْنُهُم كُلُّهُمْ فِي النَّارِ لا يَدُلُّ عَلَى كُفْرِهِمْ وِإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى الوَعِيْدِ الشَّدِيدِ فِي مُفَارَقَةِ سُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، فَمِنْهَا مَا هُوَ كُفْرٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ ضَلالٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مَعْصِيَةٌ، وَكُلٌّ بِحَسَبِهِ.

قَوْلُهُ: (**فَهَذَا هُوَ الشِّفَاءُ وَالبَيَانُ وَالأَمْرُ الوَاضِحُ**) الرَّسُولُ ﷺ مَا تَرَكَنا دُونَ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

أَنْ يُبيِّنَ لَنا المُسْتَقْبَلَ، لكن بيَّن لَنا ﷺ المُسْتَقبَل الَّذي أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَيْهِ، مِنْ أَجْلِ أَنْ نَكُونَ عَلَى بَصِيْرَةٍ، وَهَذَا مِنْ نُصْحِهِ وَشَفَقَتِهِ ﷺ، فِي أَنَّنا عِنْدَ حُدُوثِ الأَهْوَاءِ وَالافْتِرَاقِ نَلْزَمُ الحَقَّ وَنَصْبِرُ عَلَيْهِ، وَنَثْبُتُ عَلَيْهِ، فَلا نَجَاةَ إِلاَّ بِذَلِكَ أَبَدًا.

قَوْلُهُ: (**وَالمَنَارُ المُسْتَنِيْرُ**) كان مِنْ عَادَتِهِمْ أَنَّهُمْ يَضَعُونَ شَيْئًا مُرْتَفِعًا وَيَضَعُونَ عَلَيْهِ النَّارَ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَهْتَدِيَ المُسَافِرُونَ، وَيُوضَعُ هَذَا فِي البِحَارِ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَهْتَدِيَ السُّفُنُ، وَمَنَارُ الإِسْلامِ هُوَ الكِتَابُ والسُّنَّةُ.

فمَنْ سَارَ عَلَى هَذَا المَنَارِ نَجا، ومَنْ تَرَكَ هَذَا المَنَارَ هَلَكَ إِمَّا فِي بَرٍّ وَإِمَّا فِي بَحْرٍ لأَنَّهُ فِي مَتاهَاتٍ، فَهَذَا مَثَلٌ وَاضِحٌ لِلتَّمَسُّكِ بِالحَقِّ.

قَوْلُهُ ﷺ: («**إِيَّاكُمْ وَالتَّعَمُّقَ وإِيَّاكُمْ وَالتَّنَطُّعَ**») التَّعَمُّقُ وَالتَّنَطُّعُ هُوَ الغُلُوُّ وَالتَّشَدُّدُ فِي الدِّيْنِ، مِثْلُ الَّذِي يَقُولُ: أَنَا أَصُومُ وَلا أُفْطِرُ، والَّذِي يَقُولُ: أَنَا أُصَلِّي وَلا أَنَامُ، والَّذِي يَقُولُ: أَنَا لا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ وَيَتَبَتَّلُ، هَذَا تَشَدُّدٌ وتَنَطُّعٌ، رَدَّهُ النَّبِيُّ ﷺ وَغَضِبَ عَلَى مَنْ قَالَهُ، وبَيَّنَ أَنَّهُ ﷺ جاءَ بِالوَسَطِ: يُصَلِّي وَيَنَامُ، وَيَصُومُ وَيُفْطِرُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وَيَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ هَذِهِ السُّنَّةِ، فَإِنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ الرَّسُولُ ﷺ، فالرَّسُولُ تَبَرَّأَ مِنَ المُتَنَطِّعِيْنَ وَالمُتَغَالِيْنَ فِي العِبَادَةِ وَالمُتَشَدِّدِيْنَ وَأَمَرَ بِالتَّوَسُّطِ، وَضَرَبَ لِذَلِكَ مَثَلًا بِسُنَّتِهِ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ ﷺ.

قَوْلُهُ: (**وَعَلَيْكُمْ بِدِينِكُم العَتِيقِ**) العَتِيقُ: القَدِيْمُ، يَعْنِي الدِّيْنِ الَّذي عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ، بِأَنْ نَتْرُكَ المُحْدَثَاتِ، ونَأْخُذَ بِمَا تَرَكَنَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الدِّيْنُ القَدِيمُ الَّذِي جَاءَ به الرَّسُولُ ﷺ، وَنَتْرُكَ المُحْدَثَاتِ وَالاجْتِهَادَاتِ الخَاطِئَةَ الَّتِي يُحْدِثُهَا النَّاسُ، وَإِنْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهَا زِيَادَةُ خَيْرٍ، وأَنَّهَا زِيَادَةُ عَمَلٍ وأَنَّهَا وَأَنَّهَا، فَمَا دَامَتْ مُخَالِفَةً لِسُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ فَلا خَيْرَ فِيْهَا أَبَدًا، هَذَا هُوَ مَعْنَى العَتِيقِ: يَعْنِي مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ القُدَمَاءُ مِنَ

الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وأَتْبَاعِ التَّابِعِينَ وَالقُرُونِ المُفَضَّلَةِ، وَنَتْرُكُ المُحْدَثَاتِ وَالتَّجْدِيدَاتِ المُبْتَكَرَةَ الَّتِي يَتَرَاءَى لأَصْحَابِهَا أَنَّهَا خَيْرٌ وَهِيَ لَيْسَتْ بِخَيرٍ، النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي**»[1]، فَأَيُّ عَمَلٍ وَأَيُّ قَوْلٍ لا تَأْخُذْ بِهِ حَتَّى تَعْرِضَهُ عَلَى الكِتَابِ والسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا للكِتَابِ وَلِلسُّنَّةِ فَخُذْ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مُخَالِفًا فَاتْرُكْهُ وَلا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِ.

---

(١) سبق تخريجه.

[١٠٨] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ الدِّيْنَ العَتِيقَ: مَا كَانَ مِنْ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى قَتْلِ عُثْمَانَ بِنَ عَفَّانَ رضي الله عنه، وَكَانَ قَتْلُهُ أَوَّلَ الفُرْقَةِ وَأَوَّلَ الاخْتِلافِ، فَتَحَارَبَتِ الأُمَّةُ، وَتَفَرَّقَتْ وَاتَّبَعَتِ الطَّمَعَ وَالأَهْوَاءَ، وَالمَيْلَ إِلَى الدُّنْيَا، فَلَيْسَ لأَحَدٍ رُخْصَةٌ فِي شَيْءٍ أَحْدَثَهُ، مِمَّا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَوْ يَكُونُ يَدْعُو إِلَى شَيْءٍ أَحْدَثَهُ مَنْ قَبْلَهُ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ، فَهُوَ كَمَنْ أَحْدَثَهُ، فَمَنْ زَعَمَ ذَلِكَ أَوْ قَالَ بِهِ فَقَدْ رَدَّ السُّنَّةَ، وَخَالَفَ الحَقَّ وَالجَمَاعَةَ، وَأَبَاحَ البِدَعَ، وَهُوَ أَضَرُّ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ إِبْلِيسَ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَاعْلَمْ أَنَّ الدِّيْنَ العَتِيقَ: مَا كَانَ مِنْ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى قَتْلِ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ رضي الله عنه) يَعْنِي: أَنَّ الجَمَاعَةَ الصَّافِيَةَ الَّتِي لَمْ يَحْصُلْ فِيهَا اخْتِلافٌ هِيَ مَا كَانَ فِي عَهْدِ الخُلَفَاءِ الثَّلاثَةِ: أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وعُثْمَانَ، لأَنَّهُ فِي فَتْرَةِ الخُلَفَاءِ الثَّلاثَةِ مَا حَصَلَ اخْتِلافَاتٌ، وَكَانَ المُسْلِمُونَ جَمَاعَةً وَاحِدَةً مُتَّفِقِيْنَ عَلَى الحَقِّ، فَلَمَّا حَصَلَ مقْتَلُ عُثْمَانَ رضي الله عنه حِينَئِذٍ انْفَتَحَ لِلنَّاسِ بَابُ الخِلافِ والشُّرُورِ والفِتَنِ، بِمَقْتَلِهِ رضي الله عنه.

قَوْلُهُ: (وَكَانَ قَتْلُهُ أَوَّلَ الفُرْقَةِ) أَوَّلَ الفُرْقَةِ حَصَلَ بِسَبَبِ قَتْلِ عُثْمَانَ رضي الله عنه، لَـمَّا قُتِلَ اخْتَلَّ الأَمْنُ، وَتَفَرَّقَتِ الجَمَاعَةُ، وَظَهَرَتِ الفِرَقُ الضَّالَّةُ وحَصَلَ مَا حَصَلَ بِمَا سَجَّلَهُ التَّارِيخُ، وَلَكِنْ مَعَ هَذَا كُلِّهِ - وَالحَمْدُ للهِ - الدِّيْنُ مَحْفُوظٌ، مَنْ أَرَادَ الحَقَّ، وَأَرَادَ الخَيْرَ فَمَا عَلَيْهِ إِلاَّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا عَلَيْهِ جَمَاعَةُ المُسْلِمِيْنَ، وَسَيَجِدُ الحَقَّ وَاضِحًا، وَإِنْ كَثُرَ الخِلافُ وَالفِتَنُ والشُّرُورُ، وَسَبَبُ مَقْتَلِ عُثْمَانَ رضي الله عنه الخَلِيْفَةِ الرَّاشِدِ العَادِلِ ذِي النُّورَيْنِ: أَنَّ يَهُودِيًّا مِنْ يَهُودِ اليَمَنِ

- يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ الله بنُ سَبإٍ وَيُلَقَّبُ بابنِ السَّوْدَاءِ؛ لأَنَّ أُمَّهُ حَبَشِيَّةٌ، أُظْهَر الإِسْلامَ خِداعًا، ثُمَّ جَاءَ إِلَى المَدِيْنَةِ وَجعَلَ يَنْفُثُ فِي النَّاسِ مَسَبَّةَ عُثْمَانَ وَتَنَقُّص عُثْمَانَ، يُرِيدُ بِذَلِكَ نَقْضَ عَهْدِ المُسْلِمِيْنَ، وَتَشْتِيتَ المُسْلِمِيْنِ، وَدُعَاةُ الضَّلالِ يَجِدُونَ مَنْ يَتْبَعُهُمْ وَيَمِيلُ وَيُصْغِي إِلَى كَلامِهِمْ، هَذَا فِي كُلِّ وَقْتٍ وَفِي كُلِّ حِيْنٍ، دُعَاةُ الضَّلالِ يَجِدُونَ كَثِيْرًا مِنَ الطَّغَامِ وَالسُّفَهَاءِ يُصْغُونَ إِلَيْهِمْ وَيَتَتَبَّعُونَ أَخْبَارَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ**﴾ [الأنعام:١١٣] اجْتَمَعَ عَلَى ابنِ سَبإٍ مِنَ الجُهَّالِ ومِنَ الطَّغَامِ مَنِ اجْتَمَعَ، فَصَارُوا يَسُبُّونَ عُثْمَانَ رضي الله عنه ثُمَّ إِنَّهُ انتُبِهَ لَهُ فَهَرَبَ مِنَ المَدِيْنَةِ إِلَى مِصْرَ، وَوَجَدَ جَمَاعَةً هُنَاكَ، وَذَهَبَ إِلَى غَيْرِ مِصْرَ وَوَجَدَ جَمَاعَةً فَتَأَلَّبَ حَوْلَهُ طَوَائِفُ مِنَ الأَشْرَارِ، ثُمَّ جَاؤُوا وَحَاصَرُوا عُثْمَانَ رضي الله عنه فِي بَيْتِهِ، بِحُجَّةِ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ المُنَاظَرَةَ مَعَ عُثْمَانَ رضي الله عنه، وَمُرَاجَعَةَ عُثْمَانَ فِي أُمُورٍ، هَذَا مَا أَظْهَرُوهُ؛ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ المُفَاهَمَةَ مِنْهُ، وَالمُحَاوَرَةَ مَعَهُ، فَالصَّحَابَةُ رضي الله عنه مَا قَاتَلُوهُمْ؛ لأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ مُرَاجَعَةَ عُثْمَانَ فَقَطْ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ - وَالعِيَاذُ بَالله - هَجَمُوا عَلَى عُثْمَانَ فِي دَارِهِ وَقَتَلُوهُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ، وَالنَّاسُ نِيَامٌ، وَفِي مَوْسِمِ الحَجِّ، وَأَغْلَبُ الصَّحَابَةِ فِي مَكَّةَ، هَذَا مَا خَطَّطُوا لَهُ، فَقَتَلُوهُ مَظْلُومًا. عِنْدَ ذَلِكَ حَدَثَتِ الفِتْنَةُ وَالتَّفَرُّقُ وَالاخْتِلافُ وَالاقْتِتَالُ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ، وَلا يَزَالُ المُسْلِمُونَ يُعَانُونَ مِنْ هَذَا إِلَى الآنَ.

قَوْلُهُ: (**فَلَيْسَ لأَحَدٍ رُخْصَةٌ فِي شَيْءٍ أَحْدَثَهُ، مِمَّا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ**) هَذِهِ هِيَ القَاعِدَةُ: أَنَّنَا عِنْدَ الاخْتِلافِ نَرْجِعُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، كَمَا قَالَ ﷺ لَـمَّا سُئِلَ: مَن الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ؟ قَالَ: «**مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ اليَوْمَ وَأَصْحَابِي**» نَرْجِعُ إِلَى هَذَا.

قَوْلُهُ: (**أَوْ يَكُونُ رَجُلٌ يَدْعُو إِلَى شَيْءٍ أَحْدَثَهُ مَنْ قَبْلَهُ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ، فَهُوَ كَمَنْ أَحْدَثَهُ**) مَنْ عَمِلَ بَالبِدْعَةِ فَهُوَ كَمَنْ أَحْدَثَ البِدْعَةَ؛ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﷺ:

«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»، وفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» فَمَنْ عَمِلَ بِالبِدْعَةِ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ، وَلَوْ كَانَ الَّذي أَحْدَثَهَا غَيْرُهُ.

قَوْلُهُ: (فَمَنْ زَعَمَ ذَلِكَ أَوْ قَالَ بِهِ فَقَدْ رَدَّ السُّنَّةَ وَخَالَفَ الحَقَّ وَالجَمَاعَةَ، وَأَبَاحَ البِدَعَ وَهُوَ أَضَرُّ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ إِبْلِيسَ) الَّذِي يُرَوِّجُ البِدَعَ وَيُزَهِّدُ فِي السُّنَنِ أَضَرُّ عَلَى الأُمَّةِ مِنْ إِبْلِيسَ؛ لأَنَّ النَّاسَ يَعْرِفُونَ أَنَّ إِبْلِيسَ عَدُوٌّ، وَأَنَّ اللهَ حَذَّرَنَا مِنْهُ، لَكِنْ هَذَا لا يَدْرِي كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُ عَدُوٌّ، لأَنَّهُ مُتَلَبِّسٌ بِالإِسْلامِ وَبِالعِلْمِ، وَيَتَظَاهَرُ بِالخَيْرِ فَهُوَ أَضَرُّ مِنْ إِبْلِيسَ المُصَرِّحِ بِالعَدَاوَةِ؛ وَلِذَلِكَ المُنَافِقُونَ أَخْطَرُ عَلَى المُسْلِمِيْنَ مِنَ الكُفَّارِ؛ لأَنَّ الكُفَّارَ مَعْلُومٌ أَنَّهُمْ كُفَّارٌ أَمَّا هَؤُلاءِ فَيَتَظَاهَرُونَ بِالإِسْلامِ وَيَكِيدُونَ لِلْمُسْلِمِيْنَ سِرًّا فِي دَاخِلِ الجَمَاعَةِ المُسْلِمَةِ، فَهُمْ أَخْطَرُ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا - فِيهِم: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤].

[١٠٩] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَمَنْ عَرَفَ مَا تَرَكَ أَصْحَابُ البِدَعِ مِنَ السُّنَّةِ، وَمَا فَارَقُوا فِيهِ فَتَمَسَّكَ به فَهُوَ صَاحِبُ سُنَّةٍ وَصَاحِبُ جَمَاعَةٍ، وَحَقِيقٌ أَنْ يُتَّبَعَ وَأَنْ يُعَانَ وَأَنْ يُحْفَظَ وَهُوَ مِمَّنْ أَوْصَى به رَسُولُ اللهِ ﷺ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَمَنْ عَرَفَ مَا تَرَكَ أَصْحَابُ البِدَعِ مِنَ السُّنَّةِ، وَمَا فَارَقُوا فِيهِ فَتَمَسَّكَ به فَهُوَ صَاحِبُ سُنَّةٍ وَصَاحِبُ جَمَاعَةٍ، وَحَقِيقٌ أَنْ يُتَّبَعَ وَأَنْ يُعَانَ وَأَنْ يُحْفَظَ وَهُوَ مِمَّنْ أَوْصَى به رَسُولُ اللهِ ﷺ) أيْ: فِي قَوْلِهِ: «هُمْ مَنْ كَانُوا عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ اليَوْمَ وَأَصْحَابِي» أَوْصَى ﷺ بِأَنْ نَكُونَ مَعَهُمْ، مَعَ هَذِهِ الجَمَاعَةِ، وَمَعَ هَذِهِ العِصَابَةِ، وَمَعَ هَذِهِ الطَّائِفَةِ الَّتِي هِيَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، وَلَكِنْ هَذَا يَحْتَاجُ إِلَى أَمْرَينِ:

أَحَدُهُمَا: العِلْمُ؛ بِأَنْ نَتَعَلَّمَ مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، أَمَّا الجَاهِلُ فَهُوَ لا يَعْلَمُ هَذَا، وَقَدْ يَظُنُّ أَنَّ مَا عَلَيْهِ المُخَالِفُ هُوَ مَا عَلَيْهِ الرَّسُولُ وَهُوَ لَيْسَ كَذَلِكَ.

الآخَرُ: الصَّبْرُ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى مَا عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، لأَنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِالسُّنَّةِ سَيَلْقَى عَنَتًا وَتَعَبًا وَاحْتِقَارًا وَازْدِرَاءً أَوْ تَهْدِيدًا مِنَ النَّاسِ، لَكِنْ فعلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ وَلا يَتَضَعْضَعَ عَنِ الحَقِّ، وَلا يُسَاوِمَ عَلَيْهِ، وَلا يَتَنَازَلَ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا جَاءَ أَنَّ القَابِضَ عَلَى دِيْنِهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ؛ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ، أَوْ خَبطِ الشَّوْكِ، لِمَا يَلْقَى مِنَ المَشَقَّةِ مِنَ النَّاسِ، وَالعَنَتِ وَالتَّعَبِ، فَيَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ.

[١١٠] قَالَ المُؤَلِّفُ ﵀: وَاعْلَمْ أَنَّ أُصُولَ البِدَعِ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ: يَتَشَعَّبُ مِنْ هَذِهِ الأَرْبَعَةِ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ هوًى، ثُمَّ يَصِيرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ البِدَعِ يَتَشَعَّبُ حَتَّى تَصِيْرَ كُلُّهَا إِلَى أَلْفَيْنِ وَثَمانِ مِائَةٍ كُلُّها ضَلالَةٌ، وكُلُّهَا فِي النَّارِ إلاَّ وَاحِدَةً: وَهُوَ مَنْ آمَنَ بِما فِي هَذَا الكِتَابِ، وَاعْتَقَدَهُ مِنْ غَيْرِ رِيْبَةٍ فِي قَلْبِهِ، وَلا شُكُوكٍ، فَهُوَ صَاحِبُ سُنَّةٍ، وَهُوَ النَّاجِي إِنْ شَاءَ اللهُ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَاعْلَمْ أَنَّ أُصُولَ البِدَعِ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ) البدَعُ: جَمْعُ بِدْعَةٍ، والمُرَادُ بِها مَا أُحْدِثَ فِي الدِّيْنِ مِنْ غيرِ دَلِيْلٍ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ وَذلِكَ لِقَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» وفِي رِوَايَة: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، وَفِي الحَدِيث الآخر: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ المَهْدِيِّيْنَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ» وفِي رِوَايَةٍ: «وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ»[١] فالبِدْعَةُ: مَا لَيْسَ لَهُ دَلِيْلٌ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ مِمَّا يَزْعُمُ أَصْحَابُهُ أَنَّهُ يُقَرِّبُ إِلَى اللهِ مِنَ العِبَادَاتِ والأَقْوَالِ والأَفْعَالِ، وَقَدْ تَكُونُ البِدْعَةُ:

أَصْلِيَّةً: بِأَنْ تَكُونَ مُحْدَثَةً مِنْ أَصلِهَا لا أَصْلَ لَهَا فِي الدِّيْنِ.

وَقَدْ تَكُونُ إِضَافِيَّةً: وَذلِكَ بِأَنْ يَكُونَ أَصْلُهَا مَشْرُوعًا لَكِنْ يُضَافُ إِلَيْهِ شَيْءٌ غيرُ مَشْروعٍ؛ كأَنْ يُخَصَّصَ لَهُ وَقْتٌ لِلذِّكْرِ مِنْ غيرِ دَلِيْلٍ عَلَى التَّخْصِيصِ، أَوْ نَوْعًا مِنَ الذِّكْرِ لا دَلِيْلَ عَلَيْهِ، أَوْ عَدَدًا مِنَ الذِّكرِ لا دَلِيْلَ عَلَيْهِ، أَوْ صِيامًا لا دَلِيْلَ عَلَيْهِ.

---

(١) سبق تخريج هذه الأحاديث.

وَالبِدَعُ كُلُّهَا إِضَافِيَّةٌ أَوْ أَصلِيَّةٌ لا خَيْرَ فِيهَا، فَهِيَ تُبْعِدُ عَنِ الله ﷻ، وَلأَصْحَابِهَا شِبْهٌ بِالنَّصَارَى الَّذِينَ أَحْدَثُوا الرَّهْبَانِيَّةَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾، الرَّهْبَانِيَّةُ بِدْعَةٌ مَا شَرَعَهَا اللهُ لَهُمْ، وَلكِنَّهُمْ فَعَلُوهَا مِنْ بَابِ التَّقَرُّبِ إِلَى الله ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:٢٧] كان قَصْدُهُم أَنَّهُمْ يَبْتَغُونَ رِضْوانَ الله وَلَكِن إِذَا كَانَ بِغَيْرِ مَا شَرَعَ اللهُ، فَلا تُقْبَلُ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**» أَيْ: مَرْدُودٌ عَلَيْهِ، لا يُقْبَلُ، فَيَكُونُ لِصَاحِبِهِ التَّعَبُ وَالضَّلالُ وَلا يُؤْجَرُ عَلَى عَمَلِهِ، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ.

وَمُرَادُ المُصَنِّفِ هُنَا بِقَوْلِهِ: (**أَنَّ أُصُولَ البِدَعِ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ**) الظَّاهِرُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ يَقْصِدُ أُصُولَ الفِرَقِ الَّتِي أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ حُدوثِهَا، فِي قَوْلِهِ ﷺ: «**سَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً**» قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ اليَوْمَ وأَصْحَابِي**» هَذِهِ هِيَ الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ الَّتِي بَقِيتْ عَلَى السُّنَّةِ؛ كَمَا قَالَ ﷺ: «**مَنْ يَعِشْ مِنْكُم فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيْرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ**» فَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ كَمَا افْتَرَقَتِ الأُمَمُ اليَهُودُ والنَّصَارَى قَبْلَهَا، وَهَذَا الإِخْبَارُ مِنْ بَابَ التَّحْذِيرِ، والحثِّ عَلَى لُزُومِ السُّنَّةِ عِنْدَ حُدُوثِهَا، وَأَنَّهُ لا نَجاةَ بِدُونِ السُّنَّة، ومَنْ تَرَكَ السُّنَّةَ وَصَارَ مَعَ الفِرَقِ صَارَ فِي النَّارِ، فَالفِرَقُ الَّتِي ظَهَرَتْ كَثِيْرَةٌ جِدًّا، وَلَكِنَّ أُصُولَهَا أَرْبَعُ فِرَقٍ:

الفِرْقَةُ الأَوْلَى: فِرْقَةُ الشِّيْعَةِ:

وَأَوَّلُ مَا حَدَثَتْ بِمَقْتَلِ عُثْمَانَ رضي الله عنه حِينَمَا جَاءَ عَبْدُ الله بنُ سَبَإٍ اليَهُودِيُّ، وأَحْدَثَ الفِتْنَةَ فِي المُسْلِمِيْنَ، وَدَعَا إِلَى التَّشَيُّعِ لِعَلِيِّ بن أبي طَالِبٍ رضي الله عنه، وَأَنَّهُ هُوَ الوَصِيُّ بَعْدَ الرَّسُولِ ﷺ وأَنَّ الصَّحَابَةَ ظَلَمُوهُ، وأَخَذُوا الخِلافَةَ مِنْهُ، فمِنْ ذَلِكَ الوَقْتِ ظَهَرَ التَّشَيُّعُ، وَقَدْ ذَكَرَ العُلَمَاءُ أَنَّ الشِّيْعَةَ فِرَقٌ كَثِيْرَةٌ:

أَوَّلُ فِرَقِ الشِّيْعَةِ: المُفَضِّلَةُ: الَّذِيْنَ يُفَضِّلُونَ عَلِيًّا عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ حَتَّى عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وعُثْمَانَ، هَؤُلاءِ يُسَمَّوْنَ بـ«المُفَضِّلَةِ» وَلكِنَّهُمْ لا يَطْعَنُونَ فِي خِلافَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وعُثْمَانَ، إِنَّمَا يَقُولُونَ: إِنَّ عَلِيًّا أَفْضَلُ، وَهَذَا خَطَأٌ فَعَلِيٌّ هُوَ رَابِعُ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، لَيْسَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ حَتَّى إِنَّهُ هُوَ رضي الله عنه أَنْكَرَ عَلَى مَنْ يُفَضِّلُهُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَهَدَّدَ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ بالعُقُوبَةِ.

الفِرْقَةُ الثَّانِيَةُ: الَّذِيْنَ يَقُولُونَ: إِنَّ عَلِيًّا هُوَ وَصِيُّ الرَّسُولِ، وَهُوَ أَحَقُّ بالخِلافَةِ، وخِلافَةُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وعُثْمَانَ ظُلْمٌ واغْتِصَابٌ. يَقُولُونَ: إِنَّ الخِلافَةَ لِعَلِيٍّ وَهُوَ الوَصِيُّ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ، وإِنَّ الصَّحَابَةَ ظَلَمُوهُ وَاغْتَصَبُوا الخِلافَةَ مِنْهُ، إِلَى ضَلالاتٍ كَثِيْرَةٍ عِنْدَهُم.

الفِرْقَةُ الثَّالِثَةُ: الشِّيْعَةُ الغُلاةُ الَّذِيْنَ يَقُولُونَ: إِنَّ الرِّسَالَةَ لِعَلِيٍّ وَلَكِنَّ جِبْرِيلَ خَانَ فَصَرَفَهَا لِمُحَمَّدٍ، وَإِلاَّ فَالرِّسَالَةُ أَصْلُهَا لِعَلِيٍّ، يَقُولُونَ: خَانَ الأَمِيْنُ وَصَدَّهَا عَنْ حَيْدَرَةَ، الأَمِيْنُ: جِبْرِيلُ عليه السلام، فَصَدَّ الرِّسَالَةَ عَنْ حَيْدَرَةَ - وَهُوَ عَلِيٌّ - وَصَرَفَهَا إِلَى مُحَمَّدٍ.

الفِرْقَةُ الرَّابعَةُ - أَشَدُّ مِنْهُم -: يَقُولُونَ: إِنَّ عَلِيًّا إِلَهٌ، وَهُمُ الَّذِيْنَ حَرَّقَهُمْ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه بالنَّارِ، حَفَرَ لَهُمُ الأَخَادِيدَ وَأَوْقَدَ فِيهَا النَّارَ، وَطَرَحَهُمْ فِيهَا وَهُمْ أَحْيَاءٌ، يُرْوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:

لَمَّا رَأَيْتُ الأَمْرَ أَمْرًا مُنْكَرًا ... أَجَّجْتُ نَارِي وَدَعَوْتُ قَنْبَرًا

وَقَنْبَرٌ: هُوَ خَادِمُهُ، فَحَرَّقَهُمْ بِالنَّارِ لَـمَّا قَالُوا لَهُ: «أَنْتَ هُوَ أَنْتَ هُوَ»، وَكَانَ ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه يَرَى أَنَّهُ يَجِبُ قَتْلُهُمْ بِالسَّيْفِ وَلا يُحْرَقُونَ بِالنَّارِ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لا يُعَذِّبُ بِالنَّارِ إِلاَّ رَبُّ النَّارِ**»[1] فَكَانَ لا يُمَانِعُ فِي قَتْلِهِمْ، وَلَكِنْ يَقُولُ:

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٦٧٣)، وأحمد (٣/ ٤٩٤) من حديث حمزة بن عمرو =

«أَرَى أَنْ يُقْتَلُوا بِالسَّيْفِ بَدَلَ النَّارِ».

الفِرْقَةُ الثَّانِيَةُ: فِرقَةُ القَدَرِيَّةِ: الَّذِيْنَ يُنْكِرُونَ القَدَرَ، وَقَدْ ظَهَرَتْ فِي أَوَاخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ، وَهُمْ قِسْمَانِ:

الأَوَّل: قَدَرِيَّةٌ جَبْرِيَّةٌ، غُلاةٌ فِي إِثْبَاتِ القَدَرِ.

الثَّانِي: قَدَرِيَّةٌ نُفَاةٌ؛ يَنْفُونَ القَدَرَ، وَهُمُ المُعْتَزِلَةُ ومَنْ سَارَ فِي رِكابِهِمْ، الَّذِيْنَ يَقُولُونَ: إِنَّ العَبْدَ يَخْلُقُ فِعْلَ نَفْسِهِ، وإِنَّ اللهَ لَمْ يَخْلُقْ أَفْعَالَ العِبادِ، وَإِنَّمَا هُمْ خَلَقُوهَا، بَيْنَمَا خُصُومُهُمُ الجَبْرِيَّةُ يَقُولُونَ: فِعْلُ العَبْدِ هُوَ فِعْلُ اللهِ، والعِبادُ مَجْبَرُونَ عَلَى مَا يَقُولُونَ ويَفْعَلُونَ لَيْسَ لَهُم اخْتِيَارٌ، والمُعْتَزِلَةُ يَقُولُونَ: لَهُمُ اخْتِيَارٌ مُسْتَقِلٌّ، فَلِذَلِكَ إِذَا أُطلقَ القَدَرِيَّةُ انْصَرَفَ إِلَى المُعْتَزِلَةِ ومَنْ قَالَ بِنَفْيِ القَدَرِ، فَهُمْ يَنْفُونَ القَدَرَ، والجبرِيَّةُ يُثْبِتُونَ القَدَرَ وَيَغْلُونَ فِيهِ، حَتَّى يَقُولوا: إِنَّ العَبْدَ مُجْبَرٌ، فهَؤُلاءِ يَنْفُونَ القَدَرَ، وأُولَئِكَ يَغْلُونَ فِي إِثْبَاتِهِ، وكُلُّهُمْ يُطْلَقُ عَلَيْهِمُ القَدَرِيَّةُ، وَقَدْ تَشَعَّبُوا إِلَى فِرَقٍ كَثِيْرَةٍ.

الفِرْقَةُ الثَّالِثَةُ: فِرْقَةُ الخَوَارِجِ:

الَّذِيْنَ يَخْرُجُونَ عَلَى وَلِيِّ الأَمْرِ المُسْلِمِ، وَيَشُقُّونَ عَصَا الطَّاعَةِ، وَيُكَفِّرُونَ بِالكَبَائِرِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ، وَيَسْتَحِلُّونَ دِمَاءَ المُسْلِمِيْنَ، وَهُمْ أَهْلُ الغُلُوِّ وَالتَّطَرُّفِ فِي الدِّيْنِ، عِنْدَهُم دِينٌ وَعِبَادَةٌ وَخَوْفٌ مِنَ اللهِ، صِيَامٌ وَقِيَامٌ وَتِلاوَةُ قُرْآنٍ وَلَكِنْ عَلَى غَيْرِ فِقْهٍ، وَعَلَى غَيرِ بَصِيْرَةٍ، وَلِذَلِكَ ضَلُّوا وَالعِيَاذُ بِاللهِ، وَشَقُّوا عَصَا الطَّاعَةِ وَخَرَجُوا عَلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِيْنَ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، وحَصَلَتْ لَهُ مَعَارِكُ مَعَهُمْ، وَنَصَرَهُ اللهُ عَلَيْهِم، وَمَا زَالُوا يَخْرُجُونَ عَلَى وُلاةِ الأُمُورِ، وَيَسْتَحِلُّونَ دِمَاءَ المُسْلِمِيْنَ، وَيُكَفِّرُونَ بِالكَبَائِرِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ، وَيُسَمَّوْنَ بـ«الوَعِيْدِيَّةِ»؛

= الأسلمي، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٤١٢).

لأَنَّهُمْ يُعْمِلُونَ آيَاتِ الوَعِيْدِ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ كَبِيْرَةِ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ، وكَبِيْرَةِ المَعَاصِي كُلُّ أَصْحَابِهَا كُفَّارٌ عِنْدَهُمْ، وَلا يَكْفِي أَنَّهُمْ يُكَفِّرُونَهُمْ بَلْ يَسْتَحِلُّونَ دِمَاءَهُمْ، وَيُقَاتِلُونَ المُسْلِمِيْنَ، وَلا يُقَاتِلُونَ الكُفَّارَ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي صِفَتِهِمْ: «**يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلام وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ**»[1]، فَمَا ذكِرَ أَنَّ الخَوَارِجَ قَاتَلُوا الكُفَّارَ قَطُّ، وَإِنَّمَا يُقَاتِلُونَ المُسْلِمِيْنَ، وَهُمْ فِرَقٌ بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ.

الفِرْقَةُ الرَّابِعَةُ: تُقَابِلُ فِرْقَةَ الخَوَارِجِ وَهُمُ المُرْجِئَةُ: الَّذِيْنَ يَنْفُونَ دُخُولَ الأَعْمَالِ فِي الإِيْمَانِ، يَقُولُونَ: العَمَلُ لا يَدْخُلُ فِي الإِيْمَانِ، فالإِنْسانُ مُؤْمِنٌ وَلَو لَمْ يَعْمَلْ، وَلَو تَركَ العَمَل كُلَّهُ فَهُو مُؤْمِنٌ، سُمُّوا مُرْجِئَةً مِنَ الإِرْجَاءِ وَهُوَ التَّأْخِيْرِ، لأَنَّهُمْ أَخَّرُوا العَمَلَ عَنْ مُسَمَّى الإِيْمَانِ، وَهُمْ فِرَقٌ:

أَشَدُّهُمُ الجَهْمِيَّةُ: الَّذِيْنَ يَقُولُونَ: إِنَّ الإِيْمَانَ هُوَ مُجَرَّدُ المَعْرِفَةِ فِي القَلْبِ، فَإِذَا عَرَفَ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَو لَمْ يَعْتَقِدْ.

الفِرْقَةُ الثَّانِيَةُ مِنَ المُرْجِئَةِ: الأَشَاعِرَةُ، الَّذِيْنَ يَقُولُونَ: الإِيْمَانُ: هُوَ الاعْتِقَادُ بالقَلْبِ، وَلا يَدْخُلُ فِيهِ قَولُ اللِّسَانِ، وَلا عَمَل الجَوَارِحِ، يَكْفِي أَنَّهُ يَعْتَقِدُ بِقَلْبِهِ فَقَطْ.

الفِرْقَةُ الثَّالِثَةُ: الكَرَّامِيَّةُ، الَّذِيْنَ يَقُولُونَ: إِنَّ الإِيْمَانَ هُوَ النُّطْقُ بِاللِّسَانِ وَلَو لَمْ يَعْتَقِدْ بِقَلْبِهِ.

الفِرْقَةُ الرَّابِعَةُ: مُرْجِئَةُ الفُقَهَاءِ: الَّذِيْنَ يَقُولُونَ: الإِيْمَانُ هُوَ الاعْتِقَادُ بَالقَلْبِ مَعَ النُّطْقِ بَاللِّسَانِ وَلَو لَمْ يَعْمَلْ.

كُلُّهُمْ يَتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ العَمَلَ لا يَدْخُلُ فِي الإِيْمَانِ، لَكِن يَخْتَلِفُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ فِي عَمَلِ القَلْبِ وَقَوْلِ اللِّسَانِ.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٠٩٤)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

فالخَوارِجُ: غَلَوْا فِي إِدْخَالِ العَمَلِ فِي حَقِيْقَةِ الإِيْمانِ، وقَالُوا: مَنْ تَرَكَ العَمَلَ يَكْفُرُ مطلقًا، والمُرْجِئَةُ عَلَى العَكْسِ غَلَوْا فِي نَفْيِ العَمَلِ عَنِ حَقِيقَةِ الإِيْمانِ وقَالُوا: لا يَكْفُرُ مَنْ تَرَكَ العَمَلَ مُطْلَقًا.

أَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ - وَالحَمْدُ لله - فقَدْ هَدَاهُمُ اللهُ إِلَى الحَقِّ، كَما قَالَ تَعالَى: ﴿**فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ**﴾ [البقرة:٢١٣] فيَقُولُونَ: الإِيْمانُ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَاعْتِقَادٌ بِالقَلْبِ وَعَمَلٌ بِالجَوَارِحِ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالمَعْصِيَةِ، لَكِنَّهُ لا يَزُولُ بِزَوالِ العَمَلِ مُطْلَقًا؛ كَما تَقُولُهُ الخَوارِجُ، وَلا يَبْقَى مَعَ زَوَالِ العَمَلِ كُلِّهِ؛ كَما تَقُولُهُ المُرْجِئَةُ، بَلْ مِنَ العَمَلِ مَا تَرْكُهُ كُفْرٌ، كَتَرْكِ الصَّلاةِ، ومِنَ العَمَلِ مَا تَرْكُهُ كَبِيْرَةٌ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ لا يَقْتَضِي الكُفْرَ؛ فَهذَا هُوَ التَّفْصِيْلُ الَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ وَالحَمْدُ لله، وَهُوَ يَجْمَعُ بَيْنَ آيَاتِ الوَعْدِ الَّتِي تَمَسَّكَ بِهَا المُرْجِئَةُ، وآيَاتِ الوَعِيْدِ الَّتِي تَمَسَّكَ بِهَا الخَوَارِجُ، فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ يَجْمَعُونَ بَيْنَ آياتِ الوَعْدِ وَآيَاتِ الوَعِيْدِ، وَيُفَسِّرُونَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، وَيُقَيِّدُونَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، فَيَرُدُّونَ المُتَشَابِهَ إِلَى المُحْكَمِ، ويَعْمَلُون بِالجَمِيعِ، وَيَقُولُونَ: ﴿**ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا**﴾ [آل عمران:٧].

هَذِهِ هِيَ الفِرَقُ الَّتِي تَشَعَّبَتْ مِنْهَا فِرَقٌ كَثِيْرَةٌ، ومَنْ أَرَادَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى ذَلِكَ فَلْيُرَاجِعْ كُتُبَ الفِرَقِ مِثْلَ: «المِلَلِ وَالنِّحَلِ» لِلشَّهْرَسْتَانِيِّ، «الفَرْقِ بَيْنَ الفِرَقِ» لِلْبَغْدَادِيِّ، «مَقَالاتِ الإِسْلامِيِّينَ وَاخْتِلافِ المُصَلِّيْنَ» لأبي الحَسَنِ الأَشْعَرِيِّ «الفِصَلِ فِي المِلَلِ والأَهْوَاءِ وَالنِّحَلِ» لابنِ حَزْمٍ، فَإِنَّهُمْ ذَكَرُوا هَذِهِ الفِرَقَ وَتَشْعِيبَاتِهَا وَتَفَرُّقَاتِهَا، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ طَالِبَ العِلْمِ المُبْتَدِئَ يَدْخُلُ فِي هَذِهِ الاخْتِلافَاتِ؛ لِئَلا يَتَشَوَّشَ فِكْرُهُ، لَكِنَّ العَالِمَ المُتَمَكِّنَ لا بَأْسَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهَا.

قَوْلُهُ: (**وَكُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً**) كُلّهَا بِتَشَعُّبَاتِهَا فِي النَّارِ؛ لأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا الهَوَى، وَتَرَكُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ الَّذِي هُوَ النَّجَاةُ، لَكِن كَوْنَهُمْ

فِي النَّارِ لا يَقْتَضِي أَنَّهُمْ كُلَّهُمْ كفَّارٌ، فَالنَّارُ قَدْ يَدْخُلُها العَاصِي وَلَو لَمْ يَكُن كَافِرًا، دُخُولًا مُؤَقَّتًا ثُمَّ يُخرجُ مِنَ النَّارِ، أَمَّا مَنْ كَانَتْ مُفارقَتُهُ مُكَفِّرَةً فَإِنَّهُ يَكُونُ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِي النَّارِ.

قَوْلُهُ: (**وَهُوَ مَنْ آمَنَ بِمَا فِي هَذَا الكِتَابِ، وَاعْتَقَدَهُ مِنْ غَيْرِ رِيْبَةٍ فِي قَلْبِهِ، وَلا شُكُوكٍ**) هَذَا الكِتَابِ الَّذِي هُوَ «**شَرْحُ السُّنَّةِ لِلْبَرْبَهَارِيِّ**» إِنَّمَا هُوَ تَوْضِيحٌ لِمَا فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَذِكْرٌ لأُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، فَهَذَا الكِتَابِ كَمَا سَمَّاهُ «**شَرْحُ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ**» مَأْخُوذٌ مِنَ الكِتَاب والسُّنَّةِ وَمَا كان عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّة، (**مِنْ غَيْرِ رِيْبَةٍ فِي قَلْبِهِ**) أَمَّا مَنْ كَانَ يُظْهِرُ الإِيْمَانَ بِالأُصُولِ وَلَكِنْ عِنْدَهُ رِيبَةٌ فِي قَلْبِهِ، أَوْ شَكٌّ فِي قَلْبِهِ، فَهَذَا لا يَكُونُ مُؤْمِنًا، بل يَكُونُ مُرْتَابًا – وَالعِيَاذُ بِالله – مُتَرَدِّدًا، وَيَكُونُ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ، فَلا بُدَّ أَنْ يُصَدق بِقَلْبِهِ مَا يَقُولُهُ لِسَانُهُ مِنَ الحَقِّ، فَهُوَ لا يَقْصِدُ رَحِمَهُ اللهُ تَزْكِيَةَ كِتَابِهِ، كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُهُمْ، وَإِنَّمَا قَصْدُهُ تَزْكِيَةُ مَا تَضَمَّنَهُ مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ.

قَوْلُهُ: (**فَهُوَ صَاحِبُ سُنَّةٍ، وَهُوَ النَّاجِي إِنْ شَاءَ اللهُ**) مَن اتَّبَعَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةَ مَعَ اليَقِيْنِ وَالإِيْمَانِ فِي قَلْبِهِ فَإِنَّهُ مِنَ الفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ؛ لأَنَّهُ ينطبقُ عَلَيْهِ قَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ لَـمَّا سُئِلَ عَنِ الفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ، قَالَ: «**مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وأَصْحَابِي**»، وفِي رِوَايَةٍ: «**مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ اليَوْمَ وَأَصْحَابِي**».

[١١١] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ لَوْ وَقَفُوا عِنْدَ مُحْدَثَاتِ الأُمُورِ وَلَمْ يَتَجَاوَزُوهَا بِشَيْءٍ وَلَمْ يُوَلِّدُوا كَلامًا مِمَّا لَمْ يَجِئْ فِيهِ أَثَرٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلا عَنْ أَصْحَابِهِ لَمْ تَكُنْ بِدْعَةٌ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ لَوْ وَقَفُوا عِنْدَ مُحْدَثَاتِ الأُمُورِ وَلَمْ يَتَجَاوَزُوهَا بِشَيْءٍ وَلَمْ يُوَلِّدُوا كَلامًا مِمَّا لَمْ يَجِئْ فِيهِ أَثَرٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلا عَنْ أَصْحَابِهِ لَمْ تَكُنْ بِدْعَةٌ**) لَوْ أَنَّ النَّاسَ (**وَقَفُوا عِنْدَ مُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**) مَعْنَاهُ: لو تَوَقَّفُوا عَنْهَا، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِيهَا، وَاقْتَصَرُوا عَلَى السُّنَّةِ، وَلَمْ يَخْرُجُوا عَنْهَا إِلَى البِدَعِ لَحَصَلَتْ لَهُمُ النَّجَاةُ، لَكِنْ مَنْ تَجَاوَزَ السُّنَّةَ وأَحْدَثَ أَقْوَالًا لَيْسَ لَهَا دَلِيلٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَلا مِنْ سُنَّةِ رَسُولِهِ صَارَ مَعَ المُبْتَدِعَةِ، وَمَعَ الفِرَقِ الضَّالَّةِ، فَلا نَجَاةَ إِلاَّ بِهَذِهِ السُّنَّةِ الَّتِي تَرَكَنَا عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي**»(١)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «**تَرَكْتُكُمْ عَلَى البَيْضَاءِ، لَيلهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا إِلاَّ هَالِكٌ**»(٢)، هَذَا سَبِيلُ النَّجَاةِ: سُنَّةُ الرَّسُولِ ﷺ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَهُوَ مَضْمُونُ هَذَا الكِتَابِ الَّذِي نَقْرَأُ، هُوَ شَرْحٌ لِهَذَا الأَمْرِ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، والحاكم في «مستدركه» (٣٣١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٦٩).

[١١٢] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا حَتَّى يَصِيرَ كَافِرًا؛ إِلاَّ أَنْ يَجْحَدَ شَيْئًا مِمَّا أَنْزَلَهُ اللهُ، أَوْ يَزِيدَ فِي كَلام اللهِ، أَوْ يُنْقِصَ، أَوْ يُنْكِرَ شَيْئًا مِما قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ شَيْئًا مِمَّا تَكَلَّمَ به رَسُولُ اللهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَاتَّقِ اللهَ -رَحِمَكَ اللهُ- وَانْظُرْ لِنَفْسِكَ وَإِيَّاكَ وَالغُلُوَّ فِي ا لدِيْنِ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ طَرِيْقِ الحَقِّ فِي شَيْءٍ.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا حَتَّى يَصِيرَ كَافِرًا؛ إِلاَّ أَنْ يَجْحَدَ شَيْئًا مِمَّا أَنْزَلَهُ اللهُ) يَعْنِي أَنَّ نَوَاقِضَ الإِسْلامِ كَثِيْرَةٌ، قَدْ يَكُونُ الإِنْسَانُ مُسْلِمًا صَحِيْحَ الإِسْلام مُؤْمِنًا صادِقًا، لَكِنْ - وَالعِيَاذُ بِالله - قَدْ يَرْتَدُّ عَنْ دِيْنِهِ بِارْتِكَابِ نَاقِضٍ مِنْ نَوَاقِضِ الإِسْلامِ، وَهِي كَثِيْرَةٌ، يَجْمَعُهَا أَرْبعَةُ أَنْواعٍ: القَوْلُ، وَالفِعْلُ، والاعْتِقَادُ، والشَّكُّ.

الأَوَّل: القَوْلُ: قَوْلُ كَلِمَةِ الكُفْرِ، إِذَا قَالَ كَلِمَةَ الكُفْرِ غَيْرَ مُكْرَهٍ يَكْفُرُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ﴾ [التوبة:٧٤]؛ كَأَنْ يَدْعُوَ غَيْرَ اللهِ، فَيَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ الله فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلاَّ اللهُ مِنَ الأَمْوَاتِ وَغَيْرِهِمْ؛ فَيَكْفُرَ بِذَلِكَ؛ لأَنَّهُ دَعَا غَيْرَ الله، أَوْ يَتَكَلَّمَ بكَلام فِيهِ سُخْرِيَةٌ بِالدِّيْنِ، أَوْ بِالكِتَابِ أَوِ السُّنَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة:٦٥] فَالَّذِي يَسْتَهْزِئُ بالسُّنَّةِ أَوْ بِالْقُرآنِ يَكْفُرُ وَلَو كَانَ مَازِحًا مَا لَمْ يَكُنْ مُكْرَهًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل:١٠٦]، أَمَّا مَنْ قَالَ هَذَا مُخْتَارًا فَإِنَّهُ يَكْفُرُ.

الثَّانِي: الفِعْلُ: كَأَنْ يَذْبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، أَو يَنْذُرَ لِغَيْرِ اللهِ، أَو يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللهِ،

يَسْجُدَ لِلضَّرِيحِ.

الثَّالِثُ: أَوِ الاعْتِقَادُ بالقَلْبِ: كَأَنْ يَعْتَقِدَ صِحَّةَ الكُفْرِ، وَصِحَّةَ مَا عَلَيْهِ الكُفَّارُ، كالَّذِي يَعْتَقِدُ صحَّةَ مَا عَلَيْهِ اليَهُودُ والنَّصارَى بَعْدَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

الرَّابِعُ: أَوْ شَكٌّ: كَأَنْ يَشُكَّ فِي القُرْآنِ هَلْ هُوَ صَحِيْحٌ أَوْ لَيْسَ صَحِيْحًا؟ هَلْ هَذِهِ الآيَةُ صَحِيْحةٌ أَوْ لَيْسَتْ صَحِيْحَةً؟ فَهَذَا يَكْفُرُ - وَالعِيَاذُ بِالله - أَوْ شَكَّ فِيمَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ مِنَ الأَحَادِيثِ.

هَذِهِ **أُصُولُ الرِّدَّةِ:** قَوْلٌ، أَوْ فِعْلٌ، أَوِ اعْتِقَادُ، أَوْ شَكٌّ، ثُمَّ يَنْشَأُ عَنْ هَذِهِ الأَرْبَعَةِ أَنْواعٌ مِنْ نَوَاقِضِ الإِسْلام كَثِيْرَةٌ ذَكَرَهَا العُلَمَاءُ، وَقَدْ لَخَّصَ مِنْهَا شَيْخُ الإِسْلام مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الوَهَّابِ رَحِمَهُ اللهُ رِسَالَةً ذَكَرَ فِيْهَا عَشَرَةَ نَوَاقِضٍ مِنْ أَخْطَرِهَا وَأَهَمِّهَا، وَإِلاَّ فالنَّوَاقِضُ كَثِيْرَةٌ مَذْكُورَةٌ فِي بَابِ حُكْمِ المُرْتَدِّ مِنْ كُتُبِ الفِقْهِ.

قَوْلُهُ: **(أَوْ يَزِيدَ فِي كَلامِ الله، أَوْ يُنقِصَ)** يَزِيدُ آيَةً أَوْ حَرْفًا فِي كَلامِ الله، أَوْ يُنْقِصُ حَرْفًا أَوْ آيَةً مِنْ كَلامِ الله، فَهَذَا يَكْفُرُ وَالعِيَاذُ بالله؛ لأَنَّهُ مُحَرِّفٌ لِكَلامِ الله، مُغَيِّرٌ لِكَلامِ الله عَزَّ وَجَلَّ، فالقُرْآنُ كُلُّهُ حَقٌّ، وَكُلُّهُ كَمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، لَمْ يُغَيَّرْ وَلَمْ يُبَدَّلْ، وَهُوَ مَحْفُوظٌ بِحِفْظِ الله جَلَّ وَعَلا، وَلا أَحَدَ يَسْتَطِيْعُ أَنْ يُغَيِّرَهُ، لَكِنْ مَنْ حَاوَلَ فَإِنَّهُ يَكْفُرُ وَيَخْرُجُ مِنَ الإِسْلامِ، وَلَنْ يُغَيِّرَ القُرْآنَ أَبَدًا، لأَنَّهُ مَحْفُوظٌ بِحِفْظِ الله عَزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُهُ: **(أَوْ يُنْكِرَ شَيْئًا مِمَّا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ شَيْئًا مِمَّا تَكَلَّمَ به رَسُولُ الله ﷺ)** أَوْ يُنْكِرَ شَيْئًا مِنَ القُرْآنِ، يَقُولُ: هَذَا لا يَصْلُحُ لِهَذَا العَصْرِ. أَوْ حَدِيْثَ الرَّسُولِ ﷺ يَقُولُ: هَذَا يَصْلُحُ فِي زَمَانٍ مَضَى وَلا يَصْلُحُ لِحَضَارَةِ اليَوْمِ، يَعْنِي القُرْآنَ وَالسُّنَّةَ إِنَّمَا هِي لِعَصْرٍ مَضَى وَعُصُورٍ مَضَتْ، وَلا تَصْلُحُ لَنَا اليَوْمَ. هَذَا يَكْفُرُ - وَالعِيَاذُ بِالله - وكَثِيْرٌ مَمْنْ يَقُولُونَ: إِنَّ أَحْكَامَ الشَّرِيْعَةِ لا تَصْلُحُ لِهَذَا الزَّمَانِ وَلا تَنْطَبِقُ

عَلَيهِ، وَهَذَا كُفْرٌ صَرِيحٌ، فَإِذَا صَحَّ الحَدِيثُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ فَلا يَجُوزُ إِنْكَارُهُ أَوْ يُقَالُ: هَذَا مَا يَصْلُحُ لِهَذَا الزَّمَانِ.

قَوْلُهُ: (**فاتَّقِ الله**) اتَّقِ اللهَ أَنْ يَقَعَ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ فَتَخْرُجَ عَنْ دِيْنِك، اتَّقِ اللهَ فِي نَفْسِكَ وَلا تُزَكِّ نَفْسَكَ أَوْ تَأْمَنَ عَلَى دِينِكَ.

قَوْلُهُ: (**وَانْظُرْ لِنَفْسِكَ**) انْظُرْ لِنَفْسِكَ لا تَنْظُرْ لِلنَّاسِ وَمَا عَلَيْهِ النَّاسُ، انْظُرْ لِنَفْسِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ** ﴾ [المائدة:١٠٥]، لا تَقُلْ: هَذَا عَلَيْهِ النَّاسُ كُلُّهُمْ. بل انْظُرْ لِنَفْسِكَ انْجُ بِنَفْسِكَ، أما النَّاسُ فدَعْهُمْ عَنْكَ إِذَا لَمْ يَقْبَلُوا الحَقَّ واثْبُتْ عَلَيْهِ وَلا تَغْتَرَّ بِمَا عَلَيْهِ النَّاسُ.

قَوْلُهُ: (**وَإِيَّاكَ وَالغُلُوَّ فِي الدِّيْنِ**) هَذِهِ نَاحِيَةٌ أُخْرَى؛ لأَنَّ الدِّيْنَ يَخْرُجُ الإِنْسانُ مِنْهُ بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ:

- إِمَّا بِتَرْكِهِ، أَوْ تَرْكِ شَيْءٍ مِنْهُ زُهْدًا فِيهِ.
- وَإِمَّا بِالغُلُوِّ وَالزِّيَادَةِ فِي التَّشَدُّدِ.

فَالخُرُوجُ مِنَ الدِّيْنِ يَحْصُلُ: إِمَّا بِالتَّسَاهِلِ، وَإِمَّا بِالتَّشَدُّدِ، فَعَلَيْكَ بِالوَسَطِ بَيْنَ التَّسَاهِلِ وَالتَّشَدُّدِ، وَهَذَا هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، وَالغُلُوُّ يُخْرِجُ الإِنْسانَ مِنَ الدِّيْنِ؛ كَمَا أَخْرَجَ الخَوَارِجَ، قَالَ ﷺ فِيهِم: «**يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّيْنِ؛ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»[١]، فَالغُلُوُّ يُخْرِجُ الإِنْسانَ مِنَ الدِّيْنِ:

- إِمَّا إِخْرَاجًا كَامِلًا إِلَى الكُفْرِ.
- وَإِمَّا إِخْرَاجًا جُزْئِيًّا بِحَسَبِ مَا يَحْصُلُ لَهُ.

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

وَقَدْ يَكُونُ الغُلُوُّ فِي الدِّيْنِ فِي العِبَادَةِ، مِثْلُ غُلُوِّ النَّصَارَى فِي الرَّهْبَانِيَّةِ، وَمِثْلُ الَّذِيْنَ جَاؤُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عَمَلِهِ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوا عَمَلَ الرَّسُولِ وَلَكِنْ قَالُوا: «إِنَّ الرَّسُولَ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ» يَعْنِي: فَلَيْسَ هُوَ بِحَاجَةٍ إِلَى كَثْرَةِ العَمَلِ، فَلَمَّا عَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ غَضِبَ عَلَيْهِم غَضَبًا شَدِيْدًا، وَخَطَبَ ﷺ وقَالَ: «**أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ، وَأَتْقَاكُمْ للهِ، وَإِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ**»، لأَنَّ وَاحِدًا مِنْهُم قَالَ: أَنَا أُصَلِّي وَلا أَنَامُ. وقَالَ الثَّانِي: أَنَا أَصُومُ وَلا أُفْطِرُ. كُلُّ عُمُرِهِ يَصُومُ، وَقَالَ الثَّالِثُ: أَنَا لا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، تَبَتَّلَ وتَفَرَّغَ للعِبَادَةِ، قَالَ ﷺ: «**أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ، وَأَتْقَاكُمْ للهِ، وَإِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[1] فِي رِوَايَةٍ أَنَّ أَحَدَهُمْ قَالَ: لا آكُلُ اللَّحْمَ. قَالَ ﷺ: «**وأَنَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»، قَصْدُهُمُ الخَيْرُ، وَلَكِنْ لا يَكْفِي القَصْدُ إِذْ لا بُدَّ مِنَ الاتِّبَاعِ مَعَ القَصْدِ، لا بُدَّ مِنِ اتِّبَاعِ السُّنَّةِ مَعَ القَصْدِ وَالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ، أَمَّا نِيَّةٌ صَالِحَةٌ بِدُونِ اتِّبَاعٍ فَإِنَّهَا لا تَنْفَعُ صَاحِبَهَا.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٧٦)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

[١١٣] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَجَمِيعُ مَا وَصَفْتُ لَكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ فَهُوَ عَنِ اللهِ تَعَالَى، وَعَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَنْ أَصْحَابِهِ وَعَنِ التَّابِعِيْنَ وَعَنِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ إِلَى الْقَرْنِ الرَّابِعِ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (**وَجَمِيعُ مَا وَصَفْتُ لَكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ فَهُوَ عَنِ اللهِ تَعَالَى**) جَمِيعُ مَا ذُكِرَ فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ أُصُولِ الاعْتِقَادِ فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مَا أَتَى الْمُؤَلِّفُ بِشَيْءٍ مِنْ عِنْدِهِ رَحِمَهُ اللهُ، بَلْ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَلا أَحْدَثَ قَوْلًا مِنْ عِنْدِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ حِكَايَةٌ لِمَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا عَلَيْهِ سَلَفُ هَذِهِ الأُمَّةِ فَهُوَ يَصِفُ الطَّرِيْقَ السَّلِيْمَ الَّذِي مَنْ سَلَكَهُ نَجَا بِإِذْنِ اللهِ.

قَوْلُهُ: (**وَعَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ**) لأَنَّهُ مُسْتَنِدٌ: إِمَّا إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، وَإِمَّا إِلَى السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، فَهُوَ عَنِ اللهِ وَعَنْ رَسُولِهِ.

قَوْلُهُ: (**وَعَنْ أَصْحَابِهِ وَعَنِ التَّابِعِيْنَ**) وَكَذَلِكَ مَا ذُكِرَ فِي هَذَا الْكِتَابِ؛ فَهُوَ عَنِ الْقُرُونِ الْمُفَضَّلَةِ الَّتِي أَثْنَى عَلَيْهَا الرَّسُولُ ﷺ، قَالَ: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ**»، قَالَ الرَّاوِي عِمْرَانُ بنُ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا أَدْرِي ذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ اثْنَيْنِ أَوْ ثَلاثَةً»، تُسَمَّى الْقُرُونَ الْمُفَضَّلَةَ، هِيَ أَرْبَعَةُ قُرُونٍ أَوْ ثَلاثَةُ قُرُونٍ. أَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ بِالاقْتِدَاءِ بِهِمْ، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ**﴾ [التوبة:١٠٠]، الْقُرُونُ الْمُفَضَّلَةُ التَّابِعُونَ وَأَتْبَاعُ التَّابِعِيْنَ، كَانُوا يَتَّبِعُونَ السَّابِقِيْنَ الأَوَّلِيْنَ مِنَ الْمُهَاجِرِيْنَ وَالأَنْصَارِ بِإِحْسَانٍ، يَعْنِي: بِإِتْقَانٍ، الإِحْسَانُ الْمُرَادُ بِهِ الإِتْقَانُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ غُلُوٌّ، وَلَيْسَ فِيهِ تَسَاهُلٌ، وَيَكُونُ عَنْ عِلْمٍ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ، هَذَا هُوَ الإِحْسَانُ، فَكَمْ مِمَّنْ يَدَّعِي أَنَّهُ عَلَى مَنْهَجِ السَّلَفِ وَلَكِنَّهُ لا يَتَّبِعُهُ بِإِحْسَانٍ، لأَنَّهُ لا يَعْرِفُ مَنْهَجَ

السَّلَفِ، وَيَظُنُّ أَنَّ هَذَا الفِعْلَ أَوْ هَذَا القَوْلَ مِنْ قَوْلِ السَّلَف، أَوْ فِعْلِهِمْ، فَلا يَكُونُ بِإِحْسَانٍ، فلا بُدَّ لَكَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْهَجَ مَنْهَجَ السَّلَفِ أَنْ تَتَعَلَّمَ طَرِيْقَتَهُمْ، وَهَذَا الكِتَابُ مِنَ الكُتُبِ الَّتِي تَصِفُ لَكَ طَرِيقَةَ السَّلَفِ وتُبَيِّنُهَا.

قَوْلُهُ: **(وَعَنِ القَرْنِ الثَّالِثِ إِلَى القَرْنِ الرَّابِعِ)** القُرُونُ الَّتِي أَثْنَى عَلَيْهَا الرَّسُولُ ﷺ، وَهِيَ ثَلاثَةُ قُرُونٍ: الصَّحَابَةُ، وَالتَّابِعُونَ، وَأَتْبَاعُ التَّابِعِيْنَ، وَالرَّابِعُ مَنْ بَعْدَ أَتْبَاعِ التَّابِعِيْنَ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَ وُجُودَ الأَئِمَّةِ، وَوُجُودَ الحُفَّاظِ؛ وَجَدْتَهُمْ فِي هَذِهِ القُرُونِ: فِيْهَا الأَئِمَّةُ الأَرْبَعَةُ، وَفِيْهَا مِنَ الأَئِمَّةِ الكِبَارِ، النُّجُومُ النَّيِّرَةُ، كُلُّهُمْ فِي هَذِهِ القُرُونِ، وَهَذَا مِصْدَاقُ مَا أَخْبَرَ بِهِ ﷺ، بِقَوْلِهِ: **«خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ»**.

❊❊❊

قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: فَاتَّقِ اللهَ يا عَبْدَ الله، وَعَلَيْكَ بِالتَّصْدِيْقِ وَالتَّسْلِيْمِ وَالتَّفْوِيضِ وَالرِّضَى لِمَا فِي هَذَا الكِتَابِ، وَلَا تَكْتُمْ هَذَا الكِتَابَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ فَعَسَى يَرُد اللهُ بِهِ حَيْرَانًا عَنْ حَيْرَتِهِ، أَوْ صَاحِبَ بِدْعَةٍ عَنْ بِدْعَتِهِ، أَوْ ضَالًّا عَنْ ضَلالَتِهِ فَيَنْجُو بِهِ، فَاتَّقِ اللهَ، وَعَلَيْكَ بِالأَمْرِ الأَوَّلِ العَتِيقِ، وَهُوَ مَا وَصَفْتُ لَكَ فِي هَذَا الكِتَابَ، فَرَحِمَ اللهُ عَبْدًا، وَرَحِمَ وَالِدَيْهِ، قَرَأَ هَذَا الكِتَابَ، وَبَثَّهُ، وَعَمِلَ بِهِ، وَدَعَا إِلَيْهِ، وَاحْتَجَّ بِهِ، فَإِنَّهُ دِيْنُ اللهِ وَدِيْنُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (فَاتَّقِ اللهَ يَا عَبْدَ الله، وَعَلَيْكَ بِالتَّصْدِيْقِ وَالتَّسْلِيْمِ) عَلَيْكَ بِالتَّصْدِيْقِ لا تُكَذِّبْ شَيْئًا مِمَّا ذُكِرَ فِي هَذَا الكِتَابِ؛ لأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَعَلَيْكَ بِالتَّسْلِيْمِ بِهِ، وَعَدَمِ التَّرَدُّدِ فِي الأَخْذِ بِهِ، وَالاتِّبَاعِ وَعَدَمِ التَّكَاسُلِ.

قَوْلُهُ: (وَالتَّفْوِيضِ) يَعْنِي: لا تُحْدِثْ شَيْئًا مِنْ عِنْدِكَ، وَلَيْسَ التَّفْوِيضَ الَّذِي عَلَيْهِ المُفَوِّضَةُ فِي الصِّفَاتِ.

قَوْلُهُ: (وَالرِّضَى لِمَا فِي هَذَا الكِتَابِ) مِمَّا هُوَ مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ، وَلَيْسَ هَذَا مَدْحًا وَتَزْكِيَةً لِكِتَابِهِ؛ كَمَا يَظُنُّ بَعْضُ الشُّرَّاحِ، إِنَّمَا هُوَ يَحُثُّ عَلَى الأَخْذِ بِمَا ذَكَرَهُ فِيهِ، مِنَ الأُصُولِ الصَّحِيحَةِ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَبْتَكِرْ شَيْئًا مِنْ عِنْدِهِ قَطُّ.

قَوْلُهُ: (وَلا تَكْتُمْ هَذَا الكِتَابَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ) يَعْنِي: انْشُرْ هَذَا الكِتَابَ، وَوَزِّعْهُ عَلَى (أَهْلِ القِبْلَةِ) يَعْنِي عَلَى المُسْلِمِيْنَ يَنْتَفِعُوا بِهِ؛ لأَنَّ هَذَا مِنْ نَشْرِ العِلْمِ النَّافِعِ، وَمِنَ التَّوَاصِي بِالحَقِّ؛ وَهَكَذَا يَجِبُ أَنْ تُنْشَرَ الكُتُبُ النَّافِعَةُ

المُفِيدَةُ، وَلا سِيَّما الكُتُبَ الأَصِيلَةَ، وَكُلَّما تَقادَمَ الكِتابُ كانَ أَقْرَبَ إِلَى الحَقِّ؛ لأَنَّهُ يَكُونُ قَرِيبًا مِنَ القُرُونِ المُفَضَّلَةِ.

قَوْلُهُ: (**فَعَسَى يَرُدُ اللهُ بِهِ حَيْرَانًا عَنْ حَيْرَتِهِ**) هَذِهِ فَائِدَةُ نَشْرِ الكُتُبِ المُفِيدَةِ أَنَّ اللهَ قَدْ يَرُدُّ بِهَا حَيْرَانًا مِنْ حَيْرَتِهِ، أَوْ ضَالًّا عَنْ ضَلالَتِهِ؛ لأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَكُونُ جَاهِلًا، وَلَو بُيِّنَ لَهُ الحَقُّ لاتَّبَعَهُ، هَذَا هُوَ الَّذِي يَسْتَفِيدُ مِنْ نَشْرِ الكُتُبِ، أَمَّا الزَّائِغُ الَّذِي يَتَّبِعُ هَواهُ، فَهَذَا لَنْ تُفِيدَهُ الكُتُبُ شَيْئًا، بَلْ رُبَّما تَفْتِنُهُ أَكْثَرَ.

قَوْلُهُ: (**أَوْ صَاحِبَ بِدْعَةٍ عَنْ بِدْعَتِهِ، أَوْ ضَالًّا عَنْ ضَلالَتِهِ فَيَنْجُو بِهِ**) فَيَكُونُ لَكَ الأَجْرُ فِي تَوْزِيعِ هَذَا الكِتَابِ وَأَمْثَالِهِ، وَلَيْسَ خَاصًّا بِهَذَا الكِتَابِ، فَكُلُّ الكُتُبِ النَّافِعَةِ وَكُتُبُ العَقِيدَةِ خَاصَّةً، يَجِبُ أَنْ تُنْشَرَ، وَتُوَزَّعَ عَلَى النَّاسِ بَدَلًا أَنْ يُوَزَّعَ عَلَيْهِم كُتُبُ الضَّلالِ، وَكُتُبُ دَعْوَةِ الضَّلالِ، تُوَزَّعُ عَلَيْهِم هَذِهِ الكُتُبُ؛ لأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَلَى جَهْلٍ ولَوْ بُيِّنَ لَهُمُ الحَقُّ لَقَبِلُوهُ وَانْتَفَعُوا بِهِ.

قَوْلُهُ: (**فَاتَّقِ اللهَ، وَعَلَيْكَ بِالأَمْرِ الأَوَّلِ العَتِيقِ**) أَي: الْزَم بِالأَمْر الأَوَّل، وَهُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَالقُرُون المُفَضَّلَةُ، (**العَتِيق**) يَعْنِي القَدِيمَ وَهَذَا فِيهِ التَّحْذِيرُ مِمَّا جَدَّ مِنَ الشُّرُورِ وَالفِتَنِ، فَإِذَا رَأَيْتَ الاخْتِلافَ، وَرَأَيْتَ كَثْرَةَ الأَقْوالِ فَعَلَيْكَ أَنْ تَنْظُرَ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ وَتَمَسَّكْ بِهِ؛ لأَنَّهُ الحَقُّ.

قَوْلُهُ: (**وَهُوَ مَا وَصَفْتُ لَكَ فِي هَذَا الكِتَابِ**) أَيْ مَا ذَكَرَهُ مِنْ أُصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ وَبَسَطَهُ رَحِمَهُ اللهُ وَوَسَّعَ فِيهِ القَوْلَ.

قَوْلُهُ: (**فَرَحِمَ اللهُ عَبْدًا، وَرَحِمَ وَالِدَيْهِ، قَرَأَ هَذَا الكِتَابَ، وَبَثَّهُ، وَعَمِلَ بِهِ، وَدَعَا إِلَيْهِ**) أَيْ: وَأَمْثَالَهُ مِنَ الكُتُبِ النَّافِعَةِ، فَالكُتُبُ النَّافِعَةُ يَجِبُ أَنْ تُبَثَّ وَتُنْشَرَ، وَلِمَنْ بَثَّهَا وَنَشَرَهَا أَجْرُ نَشْرِ العِلْمِ، وَإِخْرَاجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ، فَأَكْثَرُ

النَّاسِ إِنَّمَا وَقَعُوا فِي الضَّلالَةِ، لأَنَّهُم لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِمْ هَذِهِ الكُتُبُ الأَصِيلَةُ، وَإِنَّمَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ كُتُبُ أَهْلِ الضَّلالِ وَالفِرَقِ الضَّالَّةِ، وَيَظُنُّونَهَا حَقًّا، فَلَوْ أَنَّ هَذِهِ الكُتُبَ الأَصِيلَةَ اعْتُنِيَ بِهَا وَوُزِّعَتْ عَلَى النَّاسِ لَهَدَى اللهُ بِهَا مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ.

بَعْضُ الشُّرَّاحِ يَنْقِمُونَ عَلَى المُؤَلِّفِ وَيَقُولُونَ: هَذِهِ تَزْكِيَةٌ لِكِتَابِهِ. وَنَقُولُ: لا، لَيْسَ هَذَا تَزْكِيَةً لِكِتَابِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ حَثٌّ عَلَى لُزُومِ مَنْهَجِ السَّلَفِ المَذْكُورِ فِي هَذَا الكِتَابِ وَفِي غَيْرِهِ.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَحَلَّ شَيْئًا خِلافَ مَا فِي هَذَا الكِتَابِ فَإِنَّهُ لَيْسَ يَدِينُ بِدِينٍ، وَقَدْ رَدَّهُ كُلَّهُ، كَمَا لَوْ أَنَّ عَبْدًا آمَنَ بِجَمِيعِ مَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أَنَّهُ شَكَّ فِي حَرْفٍ فَقَدْ رَدَّ جَمِيعَ مَا قَالَ اللهُ تَعَالَى، وَهُوَ كَافِرٌ، كَمَا أَنَّ شَهَادَةَ: أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، لا تُقْبَلُ مِنْ صَاحِبِهَا إِلَّا بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَخَالِصِ اليَقِيْنِ؛ كَذَلِكَ لا يَقْبَلُ اللهُ شَيْئًا مِنَ السُّنَّةِ فِي تَرْكِ بَعْضٍ، وَمَنْ تَرَكَ مِنَ السُّنَّةِ شَيْئًا فَقَدْ تَرَكَ السُّنَّةَ كُلَّهَا فَعَلَيْكَ بِالقَبُولِ، وَدَعْ عَنْكَ المُمَاحَلَةَ وَاللَّجَاجَةَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ دِيْنِ اللهِ فِي شَيْءٍ، وَزَمَانُكَ خَاصَّةً، زَمَانُ سُوْءٍ فَاتَّقِ اللهَ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَحَلَّ شَيْئًا خِلافَ مَا فِي هَذَا الكِتَابِ فَإِنَّهُ لَيْسَ يَدِينُ للهِ بِدِينٍ) أَيْ: مَنْ خَرَجَ عَنْ مَنْهَجِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ الَّذِي بُيِّنَ فِي هَذَا الكِتَابِ، وَفِي غَيْرِهِ مِنْ كُتُبِ الاعْتِقَادِ الصَّحِيحِ، يَكُونُ مَعَ أَهْلِ الضَّلالِ، مَعَ المُبْتَدِعَةِ، مَعَ المُعْتَزِلَةِ، مَعَ الجَهْمِيَّةِ مَعَ الفِرَقِ الضَّالَّةِ، قَالَ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:٣٢]، فَلا بُدَّ أَنْ يَعْرِفَ الإِنْسَانُ الحَقَّ أَوَّلًا، وَمَا عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ، ولا يَنْظُرَ إِلَى كُثْرَةِ المَذَاهِبِ، وَكَثْرَةِ الأَقْوَالِ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ هُوَ مَا عَلَيْهِ سَلَفُ هَذِهِ الأُمَّةِ؛ كَمَا قَالَ الإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّهُ لا يُصْلِحُ آخِرَ هَذَا الأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا»، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠]، وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيْرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّيْنَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٍ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي

النَّارِ»[(١)]، فَإِذَا الْتبَسَتْ عَلَيْنَا الأُمُورُ، وَكَثُرَتِ الدِّعَايَاتُ فَالحَمْدُ لله، المَخْرَجُ مَوْجُودٌ وَهُوَ اتِّبَاعُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا عَلَيْهِ سَلَفُ هَذِهِ الأُمَّةِ، كُلٌّ يَدَّعِي أَنَّهُ عَلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مَا الَّذِي يُفَرِّقُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ الَّذِي يُفَرِّقُ بيْنَنَا هُوَ مَنْهَجُ السَّلَفِ؛ لأَنَّ السَّلَفِ هُمُ الَّذِيْنَ فَهِمُوا الكِتَابَ والسُّنَّةَ وَسَارُوا عَلَيْهِمَا، فَنَحْنُ نَتَّبِعُ السَّلَفَ الصَّالِحَ، هَذَا هُوَ الفَرْقُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَهْلِ الضَّلالِ وَالفِرَقِ المُنْحَرِفَةِ، عَمَلًا بِقَوْلِهِ ﷺ: «**وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**». قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «**مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ اليَوْمَ وَأَصْحَابِي**»[(٢)] الحَقُّ وَاضِحٌ، وَالطَّرِيْقُ وَاضِحةٌ لِمَنْ طَلَبَ النَّجَاةَ، وَاللهُ -جَلَّ وَعَلا- يَقُولُ: ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ**﴾ [طه:١٢٣- ١٢٤].

قَوْلُهُ: (**خِلافًا لِمَا فِي هَذَا الكِتَابِ**) يَعْنِي: خِلافًا لِمَا فِي هَذَا الكِتَابِ مِنْ أُصُولِ العَقِيدَةِ وَلَيْسَ مِنْ كَلامِهِ هُوَ، وَإِنَّمَا مَا فِي هَذَا الكِتَابِ هُوَ مِنْ كَلامِ الله وَكَلامِ رَسُولِهِ ﷺ، وَكَلامِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، هَذَا الَّذِي فِي هَذَا الكِتَابِ.

قَوْلُهُ: (**لَيْسَ يَدِينُ لله بِدِينٍ**) لأَنَّهُ عَلَى مَنْهَجِ أَهْلِ الضَّلالِ، مَنْ خَالَفَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَمَنْهَجَ السَّلَفِ فَهُوَ عَلَى مَنْهَجِ الضَّلالِ.

قَوْلُهُ: (**كَمَا لَوْ أَنَّ عَبْدًا آمَنَ بِجَمِيعِ مَا قَالَ اللهُ ﷻ إِلَّا أَنَّهُ شَكَّ فِي حَرْفٍ**) لا بُدَّ مِنَ الإِيْمَانِ بِالكِتَابِ كُلِّهِ، وَبِالسُّنَّةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا الرَّسُولُ وَأَصْحَابُهُ كُلِّهَا، أَمَّا مَنْ آمَنَ بِبَعْضِهَا، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالبَعْضِ الآخَرِ مِنْهَا فَإِنَّهُ كَافِرٌ بِالجَمِيعِ، كَمَا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٨٥] فَالَّذِي لا يَأْخُذُ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِلَّا مَا يُوَافِقُ هَوَاهُ، وَيَتْرُكُ مَا خَالَفَ هَوَاهُ هَذَا مِثْلُ أَهْلِ الكِتَابِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧]، هَذِهِ سِيرَةُ كُفَّارِ أَهْلِ الكِتَابِ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَأْخُذُونَ عَنِ الأَنْبِيَاءِ مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، وَمَا خَالَف أَهْوَاءَهُم مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الأَنْبِيَاءُ فَإِمَّا أَنْ يُكَذِّبُوا بِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَقْتُلُوا النَّبِيَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ، وَقَدْ قَتَلُوا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مَنْ قَتَلُوا، لأَنَّهُمْ خَالَفُوا أَهْوَاءَهُمْ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة:٧٠]، هَذِهِ طَرِيقَتُهُمْ، فَالَّذِي يَأْخُذُ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَا يُوَافِقُ هَوَاهُ وَيُؤَيِّدُ مَنْهَجَهُ وَطَرِيقَتَهُ وَيَرْفُضُ مَا خَالَفَ هَوَاهُ وَمَنْهَجَهُ، فَهُوَ مِثْلُ هَؤُلاءِ، يُؤْمِنُ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَيَكْفُرُ بِبَعْضٍ، وَلا يَنْفَعُهُ أَنَّهُ عَمِلَ بِبَعْضِ الكِتَابِ؛ لأَنَّهُ كَافِرٌ بِالجَمِيعِ.

قَوْلُهُ: (**فَقَدْ رَدَّ جَمِيعَ مَا قَالَ اللهُ وَهُوَ كَافِرٌ**) مَنْ رَدَّ حَرْفًا مِنَ القُرْآنِ فَهُوَ كَافِرٌ، مَثَلًا: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:١]، قَالَ: ﴿قٓ﴾ هَذِهِ لَيْسَتْ مِنَ القُرْآنِ، ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ تَكْفِي، مِثْلُ مَنْ قَالَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، نَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَقَالَ: ﴿قُلْ﴾ هَذِهِ لَيْسَتْ مِنَ القُرْآنِ، فَهَذَا كَافِر - وَالعِيَاذُ بِالله - لأَنَّهُ رَدَّ كَلِمَةً مِنْ كَلامِ الله، أَوْ رَدَّ حَرْفًا.

قَوْلُهُ: (**كَمَا أَنَّ شَهَادَةَ: أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، لا تُقْبَلُ مِنْ صَاحِبِهَا إِلَّا بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَخَالِصِ اليَقِيْنِ**) (**لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**) هِيَ كَلِمَةُ الإِخْلاصِ، وَكَلِمَةُ التَّقْوَى، وَالعُرْوَةُ الوُثْقَى، وَمِفْتَاحُ الجَنَّةِ، لَكِن لا تَنْفَعُ صَاحِبَهَا إِلَّا بِسَبْعَةِ شُرُوطٍ أَوْ ثَمَانِيَةٍ نَظَمَهَا

العُلَماءُ بِقَوْلِهِمْ:

عِلْمٌ يَقِينٌ وَإِخْلاصٌ وَصِدْقُكَ مَعَ مَحَبَّةٍ وَانْقِيَادٍ وَالقَبُولِ لَهَا

هَذِهِ سَبْعَةُ شُرُوطٍ.

وَزِيدَ ثَامِنُهَا الكُفْرَانُ مِنْكَ بِمَا سِوَى الإِلَهِ مِنَ الأَشْيَاءِ قَدْ أُلِّهَا

مَنْ أَخَلَّ بِشَرْطٍ مِنْهَا لَمْ تَنْفَعْهُ (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ):

الشَّرْطُ الأَوَّلُ: العِلْمُ بِمَعْنَاهَا، وَضِدُّهُ الجَهْلُ بِمَعْنَاهَا.

الشَّرْطُ الثَّانِي: اليَقِينُ بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ، وَضِدُّهُ الشَّكُّ.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: الإِخْلاصُ، وَضِدُّهُ الشِّرْكُ بِاللهِ.

الشَّرْطُ الرَّابِعُ: الصِّدْقُ، وَضِدُّهُ الكَذِبُ، وَالتَّكْذِيبُ بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ.

الشَّرْطُ الخَامِسُ: المَحَبَّةُ لِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ التَّوحِيدِ، وَضِدُّهَا بُغْضُ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ.

الشَّرْطُ السَّادِسُ: الانْقِيَادُ لِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ، وَضِدُّهُ الإِعْرَاضُ عَمَّا تَدُلُّ عَلَيْهِ.

الشَّرْطُ السَّابِعُ: القَبُولُ لِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ وَضِدُّهُ الرَّفْضُ لِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ.

الشَّرْطُ الثَّامِنُ: الكُفْرُ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ ﷻ، وَضِدُّهُ عَدَمُ الكُفْرِ بِهِ.

هَذِهِ ثَمَانِيَةُ شُرُوطٍ لابُدَّ أَنْ تَتَحَقَّقُ فِيْمَنْ قَالَ: «**لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» فَلَيْسَتْ كَلِمَةً تُقَالُ بِاللِّسَانِ فَقَطْ فَـ«**لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» لَهَا أَرْكَانٌ، وَلَهَا شُرُوطٌ، أَرْكَانُهَا رُكْنَانِ:

- **أحدهما**: النَّفْيُ.
- **الآخر**: الإِثْبَاتُ.

فَلا يَنْفَعُ النَّفْيُ بِدُونِ إِثْبَاتٍ، وَلا يَنْفَعُ الإِثْبَاتُ بِدُونِ نَفْيٍ، فَلَوْ قُلْتَ: اللهُ

إِلَهٌ، مَا كَفَى هَذَا، وَلَوْ قُلْتَ: لا إِلَهَ، هَذَا نَفْيٌ فَقَطْ، لأَنَّكَ جَحَدْتَ الآلِهَةَ نِهَائِيًّا، تَكُونُ مِنَ الَّذِيْنَ يَجْحَدُونَ الآلِهَةَ نِهَائِيًّا مَعْنَاهَا: لَيْسَ فِي الكَوْنِ إِلَهٌ.

أَمَّا الصُّوفِيَّةُ الَّذِيْنَ يَقُولُونَ: «الله الله» أَوْ «هو هُوَ» فَهَذَا كَلامٌ بَاطِلٌ وَهَذَيَانٌ، وَلا يُفِيدُ شَيْئًا، فَلا بُدَّ مِنْ قَوْلِ: «**لا إِلَهَ إِلَّا الله**» بِالنَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ**﴾ [البقرة:٢٥٦]، ﴿**فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ**﴾ هَذَا النَّفْيُ، ﴿**وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ**﴾ هَذَا الإِثْبَاتُ.

قَوْلُهُ: (**كَذَلِكَ لا يَقْبَلُ اللهُ شَيْئًا مِنَ السُّنَّةِ فِي تَرْكِ بَعْضٍ**)؛ كَمَا أَنَّهُ لا يَصِحُّ الإِيْمَانُ بِبَعْضِ القُرْآنِ وَتَرْكِ بَعْضِهِ وَلَو آيَةً أَوْ حَرْفًا، فَكَذَلِكَ السُّنَّةُ لا يَصِحُّ الإِيْمَانُ بِهَا إِلَّا إِذَا آمَنَ بِهَا جَمِيعًا، فَلا يَجْحَدُ شَيْئًا مِمَّا صَحَّ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، لأَنَّ هَذَا مِنْ مُقْتَضَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله؛ أَنْ تَعْمَلَ بِسُنَّتِهِ وَتُطِيعَهُ وَتَتْرُكَ مَا نَهَاكَ عَنْهُ، هَذَا مِنْ مُقْتَضَى شَهَادَةِ أَنَّهُ رَسُولُ الله، أَمَّا لَوْ شَهِدَ أَنَّهُ رَسُولُ الله، وَلَكِنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جَاءَ بِهِ، وَبِمَا قَالَهُ مِنَ الأَحَادِيثِ، أَوْ رَدَّ بَعْضَ الأَحَادِيثِ وَهِيَ صَحِيْحَةٌ، لأَنَّهَا لا تُوَافِقُ هَوَاهُ، أَوْ لا تَنْطَبِقُ عَلَى مَنْهَجِهِ، فَهَذَا كَافِرٌ بِالرَّسُولِ ﷺ، فَهُوَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِم: ﴿**كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ**﴾ [المائدة:٧٠]، فَلا بُدَّ أَنْ تُؤْمِنَ بِجَمِيعِ السُّنَّةِ، مَا يُوَافِقُ هَوَاكَ وَمَا يُخَالِفُ هَوَاكَ، مَا يُوَافِقُ مَنْهَجَكَ وَمَا يُخَالِفُ مَنْهَجَكَ، وَيَجِبُ أَنْ تُؤَسِّسَ مَنْهَجَكَ عَلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لا تُؤَسِّسهُ عَلَى الهَوَى، أَوْ عَلَى قَوْلِ فُلانٍ، أَوْ عَلَى نِظَامِ الحِزْبِ أَوْ الجَمَاعَةِ الفُلانِيَّةِ، لا تُؤَسِّسْهُ عَلَى ذَلِكَ، بل أَسِّسْهُ عَلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

قَوْلُهُ: (**وَمَنْ رَدَّ مِنَ السُّنَّةِ شَيْئًا**) مَثَلًا: المُعْتَزِلَةُ وَعُلَمَاءُ الكَلام الَّذِيْنَ لا يُؤْمِنُونَ بِأَحَادِيثِ الآحَادِ يَقُولُونَ: لأَنَّهَا لا تُفِيدُ العِلْمَ فَلا يَقْبَلُونَهَا فِي العَقَائِدِ، وَيَأْتُونَ بِقَوَاعِدِ المَنْطِقِ وَعِلْمِ الكَلامِ، يَقُولُونَ: لأَنَّ المَنْطِقَ وَعَلْمَ الكَلامِ يُفِيدُ

اليَقِيْنَ، لأَنَّهُ بَراهِيْنُ عَقْلِيَّةٌ، وَأَمَّا كَلامُ الرَّسُولِ إِذَا كَانَ خَبَرَ آحَادٍ فَإِنَّهُ لا يُفِيدُ اليَقِيْنَ، وَالحَدِيثُ لا يُفِيدُ اليَقِيْنَ عِنْدَهُم وَلَو كَانَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، هَذَا ضَلالٌ وَالعِيَاذُ بِالله، لأَنَّ مَا صَحَّ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ فَإِنَّه يُفِيدُ العِلْمَ، وَيُفِيدُ اليَقِيْنَ؛ لأَنَّهُ كَلامُ مَنْ قِيلَ فيه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤] فَهَؤُلاءِ كَذَّبُوا بِبَعْضِ الوَحْيِ حَيْثُ رَدُّوا أَحَادِيثَ الآحَادِ فِي العَقَائِدِ وَلَمْ يَقْبَلُوهَا، وَرَدُّوا شَيْئًا مِنَ الوَحْيِ المُنَزَّلِ، فَهَذِهِ طَرِيقَةٌ ضَالَّةٌ وَالعِيَاذُ بِالله.

قَوْلُهُ: (**فَقَدْ رَدَّ السُّنَّةَ كُلَّهَا**) وَلا يَنْفَعُهُ مَا قَبِلَ مِنْهَا، حَتَّى يَقبَلَهَا كُلَّهَا.

قَوْلُهُ: (**فَعَلَيْكَ بِالقَبُولِ، وَدَعْ عَنْكَ المُمَاحَلَةَ وَاللَّجَاجَةَ**) المُمَاحَلَةُ: المُجَادَلَةُ، وَاللَّجَاجَةُ: الجِدَالُ الَّذِي لا طَائِلَةَ تَحْتَهُ، وَرَفْعُ الصَّوْتِ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَنْتَصِرَ عَلَى خَصْمِكَ، هَذَا لا يُفِيدُكَ شَيْئًا.

قَوْلُهُ: (**فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ دِيْنِ الله فِي شَيْءٍ**) الجِدَالُ بِالبَاطِلِ لَيْسَ مِنْ دِيْنِ الله، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [غافر:٤]، يُجَادِلُونَ فِيْهَا هَلْ هِيَ مِنْ عِنْدِ الله، أَوْ لَيْسَتْ مِنْ عِنْدِ الله، هَلِ القُرْآنُ كَلامُ الله أَوْ لا؟ هَلْ هُوَ مُنَزَّلٌ أَوْ مَخْلُوقٌ؟ هَذَا كُلُّهُ مِنَ الجِدَالِ فِي كِتَابِ الله ﷻ، وَمِنَ المُمَارَاةِ البَاطِلَةِ.

قَوْلُهُ: (**وزَمَانُكَ خَاصَّةً زَمَانُ سُوءٍ فَاتَّقِ الله**) هَذَا فِي وَقْتِ المُؤَلِّفِ، فَكَيْفَ بِمَا بَعْدَهُ مِنَ الأَزْمِنَةِ، والفِتْنَةُ أَشَدُّ، وَكَانَ زَمَانُهُ - عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الفِتَنِ - فِيهِ عُلَمَاءُ، لَكِنْ كُلَّمَا تَأَخَّرَ الزَّمَانُ قَلَّ العُلَمَاءُ، وَكَثُرَ الشَّرُّ، فَالخَطَرُ أَشَدُّ فِي آخِرِ الزَّمَانِ.

[١١٤] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَإِذَا وَقَعَتِ الفِتْنَةُ فَالْزَمْ جَوْفَ بَيْتِكَ، وَفِرَّ مِنْ جِوَارِ الفِتْنَةِ، وَإِيَّاكَ وَالعَصَبِيَّةَ، وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ قِتَالٍ بَيْنَ المُسلِمِيْنَ عَلَى الدُّنْيَا فَهُوَ فِتْنَةٌ، فَاتَّقِ اللهَ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَلا تَخْرُجْ فِيْهَا وَلا تُقَاتِلْ فِيْهَا، وَلا تَهْوَ وَلا تُشَايِعْ وَلا تُمَايِلْ، وَلا تُحِبَّ شَيْئًا مِنْ أُمُورِهِمْ، فَإِنَّهُ يُقَالُ: مَنْ أَحَبَّ فِعَالَ قَوْمٍ - خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًا - كَانَ كَمَنْ عَمِلَهُ، وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ لِمَرْضَاتِهِ، وَجَنَّبَنَا وَإِيَّاكُمْ مَعَاصِيه.

الشَّرح

قَوْلُهُ: (وَإِذَا وَقَعَتِ الفِتْنَةُ فَالْزَمْ جَوْفَ بَيْتِكَ) إِذَا وَقَعَتِ الفِتْنَةُ وَهِيَ القِتَالُ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ فَالْزَمْ بَيْتَكَ، كُفَّ يَدَكَ وَلِسَانَكَ لِتَسْلَمَ، هَذَا إِذَا كَانَ لَيس لِخُرُوجِكَ مِنْ بَيْتِكَ فَائِدَةٌ، وَلا يُقبلُ مِنْكَ، فَالْزَمْ بَيْتَكَ، أَمَّا إِذَا كَانَ لِخُرُوجِكَ مَعَ النَّاس، وَاخْتِلاطِكَ بِهِمْ وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى اللهِ وَبَيَانِ الحَقِّ فَائِدَةٌ فَاخْرُجْ، وَهَذَا مَا يُسَمَّى بـ«الاخْتِلاطِ وَالعُزْلَةِ» الاخْتِلاطِ وَالعُزْلَةُ أَيُّهَا أَفْضَلُ؟ نَقُولُ: هَذَا يَخْتَلِفُ، إِذَا كَانَ فِي الاخْتِلاطِ فَائِدَةٌ وَدَعْوَةٌ إِلَى اللهِ وَبَيَانٌ لِلْحَقِّ فَالاخْتِلاطُ أَفْضَلُ، وَإِذَا كَانَ الاخْتِلاطُ بِالنَّاسِ وَدَعْوَتُهُمْ لا تُفِيدُ شَيْئًا فَالاعْتِزَالُ أَحْسَنُ، وَهَذَا فِي الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ، أَمَّا الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ فَهَذَا يَعْتَزِلُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، لِئَلَّا يُفْتَنَ وَهُوَ لا يَدْرِي، وَلا يَعْرِفُ، فَالجَاهِلُ يَلْزَمُ بَيْتَهُ، أَمَّا العَالِمُ فَكَمَا ذَكَرْنَا مِنَ التَّفْصِيلِ.

قَوْلُهُ: (وَإِيَّاكَ وَالعَصَبِيَّةَ) أَي: التَّعَصُّبَ لِلْبَاطِلِ، وَالانْتِصَارَ لِرَأْيِكَ، أَوْ لِجَمَاعَتِكَ الَّتِي تَنْتَمِي إِلَيْهَا، اجْعَلِ الحَقّ هُوَ مَقْصُودَكَ وَهَدَفَكَ، سَوَاءٌ كَانَ مَعَكَ أَوْ مَعَ غَيْرِكَ، وَسَوَاء كَانَ مَعَ جَمَاعَتِكَ أَوْ مَعَ جَمَاعَةِ غَيْرِ جَمَاعَتِكَ، اجْعَلْ هَدَفَكَ الحَقَّ، وَالحَقُّ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ أَيْنَمَا وَجَدَهُ أَخَذَهُ، أَمَّا مَنْ يَتَعَصَّبُ لِرَأْيِهِ وَيَرْفُض

الحَقَّ؛ فَهَذَا مِنْ دِينِ الجَاهِلِيَّةِ، وَمِنْ عَصَبِيَّةِ الجَاهِلِيَّةِ، وَلَيْسَتْ مِنَ الإِسْلامِ، فَالْمُسْلِمُ يَبْحَثُ عَنِ الحَقِّ، وَيَتَّبِعُ الحَقَّ مَعَ مَنْ كَانَ، هَذَا هُوَ الْمُسْلِمُ الصَّحِيحُ، يَجْعَلُ هَوَاهُ تَابِعًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، كَمَا وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الحَدِيثِ الَّذِي فِي الأَرْبَعِينَ، وَصَحَّحَهُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**»(١)، وَهَذَا يُصَدِّقُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ**﴾ [المائدة:٧٠].

قَوْلُهُ: (**وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ قِتَالٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الدُّنْيَا فَهُوَ فِتْنَةٌ**) القِتَالُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لا يَجُوزُ، لأَنَّ دَمَ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، قَالَ ﷺ: «**لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»، فَدَمُ الْمُسْلِمِ مَعْصُومٌ، وَكَذَلِكَ دَمُ الْمُعَاهَدِ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَلِيِّ الْمُسْلِمِينَ عَهْدٌ، أَوْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدِ أَفْرَادِ الْمُسْلِمِينَ أَمَانٌ، فَإِنَّهُ حَرَامُ الدَّمِ بِالعَهْدِ وَالأَمَانِ، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ**﴾ [الإسراء:٣٣]، وَالنَّفْسُ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ هِيَ النَّفْسُ الْمُؤْمِنَةُ، أَوِ النَّفْسُ الْمُعَاهَدَةُ أَوِ الْمُسْتَأْمَنَةُ، هَذِهِ النَّفْسُ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ، فَلا يَجُوزُ أَنْ تُقْتَلَ إِلَّا بِالحَقِّ، وَالحَقُّ هُوَ مَا بَيَّنَهُ الرَّسُولُ ﷺ بِإِحْدَى ثَلاثٍ: إِمَّا قِصَاصُ نَفْسٍ بِنَفْسٍ، وَإِمَّا زَانٍ مُحْصَنٌ يُرْجَمُ حَتَّى يَمُوتَ، وَإِمَّا مُرْتَدٌّ يُقْتَلُ لِرِدَّتِهِ، هَذَا الَّذِي يُبِيحُ دَمَ الْمُسْلِمِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَإِنَّ دَمَ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ إِذَا كَانَ هُنَاكَ بُغَاةٌ أَوْ خَوَارِجُ خَرَجُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَوْ بَغَوْا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُمْ يُقَاتَلُونَ دَفْعًا لِشَرِّهِمْ لا لِكُفْرِهِمْ، فَيُقَاتَلُ الخَوَارِجُ، وَيُقَاتَلُ البُغَاةُ الَّذِينَ يَصُولُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَيَسْتَحِلُّونَ الحُرُمَاتِ يُقَاتَلُونَ دَفْعًا لِشَرِّهِمْ، وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقِتَالِهِمْ، وَأَمَرَ اللهُ بِقِتَالِ البُغَاةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ**

---

(١) ضعيف: سبق تخريجه.

﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ اقتتلوا فأصلحوا بينهما

[الحجرات:٩]، أَمَرَ اللهُ بِقِتَالِ البُغَاةِ، وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقِتَالِ الخَوَارِجِ، فَقَالَ: «فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ»(١) دَفْعًا لِشَرِّهِمْ عَنِ المُسْلِمِيْنَ، هَذَا التَّفْصِيْلُ فِي قِتَالِ المُسْلِمِيْنَ، الأَصْلُ أَنَّهُ لا يَجُوزُ إِلَّا فِي حَالَةِ البَغْيِ، أَوْ حَالَةِ الخُرُوجِ عَنِ المُسْلِمِيْنَ؛ وَكَذَلِكَ إِذَا صَالَ عَلَيْكَ مُسْلِمٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِكَ، أَوْ يُرِيدُ قَتْلَكَ، أَوْ يُرِيدُ الفُجُورَ بِأَهْلِكَ فَإِنَّكَ تَدْفَعُهُ بِأَيْسَرِ الأُمُورِ وَأَسْهَلِهَا فَإِنْ لَمْ يَنْدَفِعْ إِلَّا بِالقَتْلِ فَإِنَّكَ تَقْتُلُهُ، وَقَتْلُهُ هَدَرٌ، فَيَحِلُّ دَمُ المُسْلِمِ بِالصِّيَالَةِ وَالبَغْيِ، وَالخُرُوجِ، وَقَطْعِ الطَّرِيْقِ، هَذَا الَّذِي يُبِيحُ دَمَ المُسْلِمِ؛ وَذَلِكَ لَيْسَ لِكُفْرِهِ، بل دَفْعًا لِشَرِّهِ عَنِ النَّفْسِ أَوْ عَنِ الحُرْمَةِ أَوْ عَنِ المَالِ، حَتَّى المَالُ لا تَتْرُكْهُ يَأْخُذْ مَالَكَ، دَافِعْهُ وَلَوْ بِالقَتْلِ؛ وَكَذَلِكَ الاعْتِدَاءُ العَامُّ عَلَى المُسْلِمِيْنَ وَعَلَى أَمْنِهِمْ بِقَطْعِ الطَّرِيْقِ أَوْ بِالبَغْيِ، بِالخُرُوجِ عَلَى المُسْلِمِيْنَ.

قَوْلُهُ: (**عَلَى الدُّنْيَا فَهُوَ فِتْنَةٌ**) أَيْ: إِذَا كَانَ القِتَالُ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ لأَجْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسَ دِفَاعًا عَنِ الأَمْنِ، أَوْ دِفَاعًا عَنْ حُرْمَةِ المُسْلِمِيْنَ، أَوْ عَنْ أَمْوَالِ المُسْلِمِيْنَ، وَإِنَّمَا هُوَ لأَجْلِ سَلْبِ المَالِ وَأَخْذِ المَالِ، وَإِذَا تَقَاتَلَ المُسْلِمَانِ عَلَى المَالِ فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ، قَالَ ﷺ: «**إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله هَذَا شَأْنُ القَاتِلِ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ يَعْنِي لِمَاذَا المَقْتُولُ يَصِيرُ فِي بِالنَّارِ؟ قَالَ: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيْصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**»(٢)، نِيَّتُهُ أَنَّهُ يَقْتُلُ صَاحِبَهُ لَوْ تَمَكَّنَ، فَصَارَ فِي النَّارِ - وَالعِيَاذُ بِالله - عَلَى نِيَّتِهِ وَاسْتِبَاحَتِهِ لِدَمِ أَخِيْهِ فَدَخَلَ النَّارَ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨) من حديث الأحنف بن قيس.

قَوْلُهُ: (**وَلا تَخْرُجْ فِيْهَا وَلا تُقَاتِلْ فِيْهَا**) يَعْنِي: فِي الفِتْنَةِ.

قَوْلُهُ: (**وَلا تَهْوَ وَلا تُشَايِعْ وَلا تُمَايِلْ**) لا تُشَايِعْ أَهْلَ الفِتْنَةِ، وَتُؤَيِّدْهُمْ وَتُنَاصِرْهُمْ وَتُدَافِعْ عَنْهُمْ؛ لأَنَّكَ تُشَارِكُهُمْ إِذَا دَافَعْتَ عَنْهُمْ، وَصَوَّبْتَ رَأْيَهُمْ، وَلَو لَمْ تَخْرُجْ مَعَهُم، فَإِنَّكَ تُشَارِكُهُمْ فِي الإِثْمِ وَالبَغْيِ وَالعُدْوَانِ، وَالآنَ هُنَاكَ مَنْ يُؤَيِّدُ أَهْلَ التَّفْجِيرَاتِ، وَأَهْلَ التَّخْرِيبِ، وَيُسَمِّي هَذَا «جِهَادًا فِي سَبِيْلِ اللهِ» يَقْتُلُونَ فِي المُسْلِمِيْنَ وَالمُعَاهَدِيْنَ، وَيُدَمِّرُونَ، وَيُرَوِّعُونَ المُسْلِمِيْنَ، وَيَقُولُونَ أَوْ يَقُولُ مَنْ يُؤَيِّدُهُمْ: هَذَا جِهَادٌ فِي سَبِيْلِ اللهِ، وَيُدَافِعُونَ عَنْهُمْ، وَهَؤُلاءِ مِثْلُهُمْ فِي الحُكْمِ - وَالعِيَاذُ بِاللهِ-؛ لأَنَّهُمْ أَيَّدُوهُمْ وَصَوَّبُوا رَأْيَهُمْ، فَالمَسْأَلَةُ فِيْهَا خَطَرٌ عَظِيْمٌ، فَأَنْتَ تُشَارِكُهُمْ وَلَو لَمْ تَحْمِلِ السِّلاحَ مَعَهُم، بِسَبَبِ تَأْيِيدِكَ وَتَصْوِيبِكَ رَأْيَهُمْ، بَلْ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّكَ تَصِفُ عَمَلَهُمْ بِالجِهَادِ فِي سَبِيْلِ اللهِ!

قَوْلُهُ: (**فَإِنَّهُ يُقَالُ: مَنْ أَحَبَّ فِعَالَ قَوْمٍ - خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا - كَانَ كَمَنْ عَمِلَهُ**) مَنْ أَحَبَّ فِعَالَ قَوْمٍ كَانَ كَمَنْ عَمِلَهُ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِهِمْ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَلَهُ مِثْلُ وِزْرِهِمْ وَإِثْمِهِمْ - وَالعِيَاذُ بِاللهِ -؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الَّذِي يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ مِثْلَ العَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الخَيْرَ أَنَّ لَهُ مِثْلَ أَجْرِهِ، وَالَّذِي يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ مِثْلَ الغَنِيِّ الَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، يُعْطَى مِثْلَ أَجْرِهِ، عَلَى حَسَبِ نِيَّتِهِ، وَكَذَلِكَ العَكْسُ الَّذِي يَتَمَنَّى أَنَّهُ يَكُونَ مِثْلَ المُجْرِمِ، وَمِثْلَ أَهْلِ المَعَاصِي يَكُونُ شَرِيكًا لَهُمْ فِي الإِثْمِ، أَوْ يُؤَيِّدُ رَأْيَهُمْ وَيُصَوِّبُهُ فَهُوَ مِثْلُهُمْ، وَلَو لَمْ يَفْعَلْ مِثْلَ فِعْلِهِمْ، فَهَذَا لِمُجَرَّدِ أَنَّهُ صَوَّبَ رَأْيَهُمْ وَمَالَ مَعَهُمْ.

فَلْيَحْذَرِ الإِنْسَانُ أَنْ يَهْلَكَ وَهُوَ لا يَدْرِي فِي هَذِهِ الفِتَنِ وَهَذِهِ الشُّرُورِ، لا تَتَكَلَّمْ إِلَّا بِخَيْرٍ وَإِلَّا فَاسْكُتْ.

[١١٥] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَأَقِلَّ مِنَ النَّظَرِ فِي النُّجُومِ، إِلَّا مَا تَسْتَعِيْنُ بِهِ عَلَى مَوَاقِيتِ الصَّلاةِ، وَالْهَ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَى الزَّنْدَقَةِ.

الشَّرْح

النَّظَرُ فِي النُّجُومِ عَلَى قِسْمَيْنِ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: الاسْتِدْلالُ بِهَا عَلَى الحَوَادِثِ الأَرْضِيَّةِ وَهُوَ مَا يُسَمَّى «عِلْمَ التَّأْثِيْرِ»، كَهُبُوبِ الرِّيَاحِ، وَنُزُولِ الأَمْطَارِ، وَحُدُوثِ الأَمْرَاضِ، وَمَوْتِ فُلانٍ، أَوْ حَيَاةِ فُلانٍ، فَهَذَا تَنْجِيمٌ مُحَرَّمٌ، وَهَذَا مِثْلُ فِعْلِ قَوْمِ النُّمْرُودِ الَّذِيْنَ يَعْبُدُونَ التَّمَاثِيْلَ الَّتِي صَوَّرَهَا عَلَى صُوَرِ الكَوَاكِبِ، وَصَارُوا يَعْبُدُونَهَا؛ لأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي النُّجُومِ أَنَّهَا تُؤَثِّرُ الحَوَادِثَ، وَلا يَنْسُبُونَ هَذَا إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَلا، فَعَمِلُوا التَّمَاثِيْلَ عَلَى أَشْكَالِهَا وَصَارُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ، فَبَعَثَ اللهُ خَلِيلَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ ودَعَاهُمْ إِلَى توحيد الله، وَقَالَ لَهُمْ: ﴿**مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ**﴾ [الأنبياء:٥٢]، هَذَا هُوَ التَّنْجِيْمُ المُحَرَّمُ وَالكُفْرُ وَالشِّرْكُ، فَالتَّنْجِيْمُ؛ كَمَا قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابن تَيْمِيَّةَ: «هُوَ الاسْتِدْلالُ بِالأَحْوَالِ الفَلَكِيَّةِ عَلَى الحَوَادِثِ الأَرْضِيَّةِ» هَذَا هُوَ التَّنْجِيْمُ المُحَرَّمُ، كَمَا يُنْشَرُ الآن فِي بَعْضِ الْـمَجَلَّاتِ، وَبَعْضِ الجَرَائِدِ غَيْرِ المُلْتَزِمَةِ فِي صَفْحَةِ التَّنْجِيْمِ وَالحُظُوظِ، وَقِرَاءَةِ الكَفِّ وَالفِنْجَانِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الشَّيَاطِيْنِ وَمِنَ الشَّعْوَذَةِ، وَهَذَا كُفْرٌ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ.

القِسْمُ الآخَرُ: وَهُوَ مَا يُسَمَّى «عِلْمَ التَّسْيِيرِ»؛ بِأَنْ تَعْرِفَ مَنَازِلَ القَمَرِ، وَتَعْرِفَ مَجَارِي الشَّمْسِ فِي السَّنَةِ، بِقَصْدِ مَعْرِفَةِ المَوَاقِيتِ، مَوَاقِيتِ الزِّرَاعَةِ وَالحَرْثِ، وَمَوَاقِيتِ الصَّلاةِ، وَقْتُ الظُّهْرِ كَذَا، وَوَقْتُ العَصْرِ كَذَا، وهَذَا لا بَأْسَ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ**﴾ يَعْنِي: القمرَ ﴿**لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ**

وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس:٥]، وَقَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:١٢]، وَقَالَ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩].

فَعِلْمُ التَّسْيِيرِ لا بَأْسَ بِهِ، لأَنَّ فِيهِ فَوَائِدَ وَلَيْسَ فِيهِ اعْتِقَادٌ سَيِّئٌ، أَمَّا عِلْمُ التَّأْثِيرِ وَهُوَ الاسْتِدْلالُ بِالنُّجُومِ لِغَيْرِ ذَلِكَ فَهَذَا حَرَامٌ وَشِرْكٌ، الاسْتِدْلالُ بِهَا عَلَى الحُظُوظِ وَالنُّحُوسِ وَالخَيْرِ والشَّرِّ هَذَا شِرْكٌ بِالله ﷻ، وَلِهَذَا يَقُولُ قَتَادَةُ: «خَلَقَ اللهُ النُّجُومَ لِثَلاثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِيْنِ، وَعَلامَاتٍ يُقْتَدَى بِهَا، فَمَنْ طَلَبَ فِيْهَا غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ ضَلَّ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لا عِلْمَ لَهُ بِهِ».

فَاللهُ خَلَقَ النُّجُومَ لِثَلاثِ فَوَائِدَ:

الفَائِدَةُ الأُوْلَى: زِينَةٌ لِلسَّمَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [فصلت:١٢].

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: رُجُومًا لِلشَّيَاطِيْنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر:١٨].

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عَلامَاتٌ يُهْتَدَى بِهَا فِي الأَسْفَارِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٩٧].

هَذِهِ الفَوَائِدُ مِنَ النُّجُومِ، أَمَّا الَّذِي يَعْتَقِدُ فِيهَا أَنَّهَا تُؤَثِّرُ فِي الحَوَادِثِ، وَأَنَّ طُلُوعَ النَّجْمِ الفُلانِيِّ وَقْتُ سَعَادَةٍ، وَطُلُوعَ الثَّانِي وَقْتُ شَقَاءٍ، فَهَذَا كُفْرٌ بِالله ﷻ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٧٥-٨٢]، أَيْ:

تَنْسُبُونَ الرِّزْقَ إِلَى النُّجُومِ وَطُلُوعِهَا وَغُرُوبِهَا، وَقَدْ صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ بِأَصْحَابِهِ صَلاةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْبِيَةِ قَرِيبًا مِنْ مَكَّةَ، صَلَّى بِهِمُ الفَجْرَ فِي الحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ بِاللَّيْلِ، ثُمَّ انْصَرَفَ مِنْ صَلاتِهِ ﷺ فَقَالَ: كَمَا فِي الحَدِيثِ القُدْسِيِّ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ**»(١) فَالمَطَرُ لَيْسَ مِنْ تَأْثِيرِ النُّجُومِ، طُلُوعِهَا وَغُرُوبِهَا، وَإِنَّمَا إِنْزَالُ المَطَرِ مِنَ اللهِ - جَلَّ وَعَلا - هُوَ الَّذِي يُنْزِلُهُ وَيُقَدِّرُهُ وَيُسَيِّرُهُ وَيَحْبِسُهُ إِذَا شَاءَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ**﴾ [الشورى:٢٨]، وَقَالَ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ**﴾ [لقمان:٣٤]، خَمْسَةُ أُمُورٍ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ، وَمِنْهَا إِنْزَالُ الغَيْثِ لا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ ﷻ، فَالَّذِي يَنْسُبُهُ إِلَى غَيْرِ اللهِ مُشْرِكٌ.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨١٠)، ومسلم (٧١) من حديث زيد بن خالد الجهني.

[١١٦] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَإِيَّاكَ وَالنَّظَرَ فِي الكَلامِ، وَالجُلُوسَ إِلَى أَصْحَابِ الكَلامِ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَإِيَّاكَ وَالنَّظَرَ فِي الكَلامِ) يَجِبُ العَمَلُ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمَا عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِنَ الاعْتِقَادِ وَالعَمَلِ وَالسُّلُوكِ، هَذَا هُوَ المَنْهَجُ السَّلِيمُ، وَمَنْ تَرَكَ مَنْهَجَ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي الاعْتِقَادِ، وَفِي غَيْرِهِ، وَذَهَبَ مَعَ عُلَمَاءِ الكَلامِ الَّذِيْنَ يُثْبِتُونَ العَقَائِدَ بِقَوَاعِدِ المَنْطِقِ وَعِلْمِ الكَلامِ وَالجَدَلِ، وَالمُقَدِّمَاتِ وَالنَّتَائِجِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا بَرَاهِيْنَ عَقْلِيَّةً، فَهَذَا ضَلالٌ فِي العَقِيدَةِ، وَضَلالٌ فِي الاسْتِدْلالِ، وَاللهُ أَغْنَانَا عَنْ عِلْمِ الكَلامِ وَعَنْ غَيْرِهِ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَلا خَيْرَ إِلَّا فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لا سِيَّمَا فِي أُمُورِ العَقِيدَةِ الَّتِي هِيَ الأَصْلُ، وَهِيَ الأَسَاسُ، فَلا نَبْنِي عَقِيدَتَنَا إِلَّا عَلَى أَدِلَّةِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلا نَبْنِيهَا عَلَى قَوَاعِدِ المَنْطِقِ، وَعِلْمِ الكَلامِ، فَكَلامُ العُلَمَاءِ فِي عِلْمِ الكُلامِ وَالمُتَكَلِّمِيْنَ مَعْلُومٌ، يَقُولُ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**حُكْمِي فِي أَهْلِ الكَلامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالجَرِيدِ وَالنِّعَالِ، وَأَنْ يُطَافَ بِهِمْ فِي القَبَائِلِ، وَأَنْ يُقَالَ: هَذَا جَزَاءُ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَذَهَبَ إِلَى عِلْمِ الكَلامِ**».

فَعِلْمُ الكَلامِ مَذْمُومٌ، وَكَانَ السَّلَفُ يُحَذِّرُونَ مِنْهُ غَايَةَ التَّحْذِيرِ، وَأَنَّهُ لا يُتَّخَذُ مَنْهَجًا فِي العَقَائِدِ يُسَارُ عَلَيْهِ، وَيُتْرَكُ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِثْلُ الَّذِيْنَ يَقُولُونَ: الجِسْمُ، وَالجَوْهَرُ... إِلَى آخِرِهِ، وَيَقُولُونَ: إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ يَقْتَضِي التَّجْسِيْمَ، وَالأَجْسَامُ مُتَشَابِهَةٌ، فَيَنْفُونَ أَسْمَاءَ اللهِ وَصِفَاتِهِ فِرَارًا مِنَ التَّجْسِيْمِ، وَالجِسْمُ هُوَ مَا يَتَكَوَّنُ مِنَ الجَوَاهِرِ الفَرْدِيَّةِ، وَالجَوْهَرُ الفَرْدُ بِنَفْسِهِ، فَبَنَوْا عَقِيدَتَهُمْ عَلَى الجِسْمِ وَعَلَى العَرَضِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّوَهُّمَاتِ البَاطِلَةِ، وَتَرَكُوا الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَهَذَا

هُوَ الضَّلالُ المُبِيْنُ وَالعِيَاذُ بِاللهِ، وَلا يَشْتَغِلُ مُسْلِمٌ بِعِلْمِ الجَدَلِ وَيَتْرُكُ الاشْتِغَالَ بِعِلْمِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إلاَّ مِنْ أَضَلَّهُ اللهُ ﷻ، وَكَانَ سَلَفُ هَذِهِ الأُمَّةِ يَسِيرُ عَلَى الكِتَابِ والسُّنَّةِ، إِلَى أَنْ عُرِّبَتِ الكُتُبُ الرُّومِيَّةُ فِي عَهْدِ المَأْمُونِ وجَاءَ عِلْمُ المَنْطِقِ وَعِلْمُ الجَدَلِ، فَحَدَثَ الشَّرُّ فِي الأُمَّةِ مِنْ ذَاكَ التَّارِيخ وَبَنَى كَثِيْرٌ مِنْهُمْ عقَائِدَهُمْ عَلَى عِلْمِ الجَدَلِ وَالمَنْطِقِ.

قَوْلُهُ: (**وَالجُلُوسَ إِلَى أَصْحَابِ الكَلامِ**) احْذَرْ مِنْ تَعَلُّمِ عِلْمِ الكَلامِ والنَّظَرِ فِيهِ؛ لِئَلاَّ تُفْتَنَ فِيهِ وَتُعْجَبَ بِهِ، وَاحْذَرْ مُجَالَسَةَ عُلَمَاءِ الكَلامِ، وَجَالِسْ أَهْلَ الحَدِيثِ، وَأَهْلَ العِلْمِ، وَلا تُجَالِسْ عُلَمَاءَ الكَلامِ، لِئَلاَّ يُؤَثِّروا فِيكَ، وَيُزَهِّدُوكَ فِي عِلْمِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، فمُجَالَسَةُ الأَشْرَارِ تُؤَثِّرُ فِي الجَلِيسِ؛ وَلِهَذَا شَبَّهَ ﷺ الجَلِيسَ الصَّالِحَ بِحَامِلِ المِسْكِ، قَالَ ﷺ: «**فَحَامِلُ المِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ**» يَعْنِي: يُعْطِيَكَ مِنْ مِسْكِهِ. «**وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً**» أَيْ: مُدَّةَ جُلُوسِكَ عِنْدَهُ، وَشَبَّهَ الجَلِيسَ السُّوءَ بِنَافِخِ الكِيرِ، «**إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خَبِيْثَةً**»[1] هَذَا مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ، وَعُلَمَاءُ الكَلامِ مِنْ جُلَسَاءِ السُّوءِ فَلا تَجْلِسْ مَعَهُم فَإِنَّهُم يُفْسِدُونَ عَقِيدَتَكَ، وَيُزَهِّدُونَكَ فِي كِتَابِ اللهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٩٥)، ومسلم (٢٦٢٨) من حديث أبي موسى الأشعري.

[١١٧] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَعَلَيْكَ بِالآثَارِ وَأَهْلِ الآثَارِ، وَإِيَّاهُمْ فَاسْأَلْ، وَمَعَهُمْ فَاجْلِسْ، وَمِنْهُمْ فَاقْتَبِسْ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وعَلَيْكَ بالآثَارِ) أَيِ: الأَحَادِيثِ (وَأَهْلِ الآثَارِ) وَمَعْنَى (عَلَيْكَ): الْزَمْ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [المائدة:١٠٥]، أَيِ: الْزَمُوهَا.

قَوْلُهُ: (وَإِيَّاهُمْ فَاسْأَلْ) قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، يَعْنِي: أَهْلَ العِلْمِ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ المُسْتَقِيمِيْنَ، وَأَهْلُ العِلْمِ مِنْ هَٰذِهِ الأُمَّةِ، هُمُ الَّذِيْنَ يُسْأَلُونَ.

قَوْلُهُ: (وَمَعَهُمْ فَاجْلِسْ، وَمِنْهُمْ فَاقْتَبِسْ) قَالَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡ﴾ [النساء:١٤٠]، إِذَا جَالَسْتُمُوهُمْ فَإِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ، فَلْيَحْذَرِ الإِنْسَانُ مِنْ مُجَالَسَةِ أَهْلِ الشَّرِّ وعُلَمَاءِ الضَّلالِ، وَلْيُلازِمْ مُجَالَسَةَ أَهْلِ العِلْمِ، أَهْلِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، وَأَهْلِ المَنْهَجِ السَّلِيْمِ، يُجَالِسُهُمْ وَيَسْتَفِيدُ مِنْهُم.

[١١٨] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّهُ مَا عُبِدَ اللهُ بِشَيْءٍ مِثْلِ الخَوْفِ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَطَرِيْقِ الخَوْفِ وَالحُزْنِ وَالشَّفَقَاتِ وَالحَيَاءِ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (وَاعْلَمْ أَنَّهُ مَا عُبِدَ اللهُ بِشَيْءٍ مِثْلِ الخَوْفِ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ) العِبَادَةُ تَتَرَكَّزُ عَلَى ثَلاثَةِ أَشْيَاءٍ: الخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، والمَحَبَّةُ؛ فَعِبَادَةُ اللهِ - جَلَّ وَعَلا - لا تَكُونُ عِبَادَةً إلاَّ إِذَا تَوَفَّرَتْ فِيْهَا هَذِهِ الأُمُورُ: الخَوْفُ مِنَ اللهِ، ورجَاءُ رَحْمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فلا يَكُون خَوْفٌ فَقَطْ حَتَّى يَقْنَطَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَلا يَكُونُ رَجاءٌ فَقطْ حَتَّى يَأْمَنَ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَلا يَكُونُ مَحَبَّةٌ فَقطْ بِدُونِ خَوْفٍ وَرَجَاءٍ، بَلْ لا بُدَّ مِنَ الثَّلاثَةِ: خَوفٌ، وَرَجَاءٌ، ومَحَبَّةٌ لله عَزَّ وَجَلَّ؛ وَلِهَذَا قَالُوا: «مَنْ عَبَدَ اللهَ بِالخَوْفِ فَقطْ فَهُوَ خَارِجِيٌّ» لأَنَّ هَذِهِ طَرِيقَة الخَوَارِج؛ لأَنَّهُم أَصْحَابُ الوَعِيْدِ، «وَمَنْ عَبَدَ اللهَ بِالرَّجاءِ فَقطْ فَهُوَ مُرْجِئٌ» لأَنَّ هَذِهِ طَرِيقَةُ المُرْجِئَةِ، الَّذِيْنَ لا يَخَافُونَ اللهَ، وَإِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ عَلَى الرَّجَاءِ فَقطْ، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، «وَمَنْ عَبَدَ اللهَ بِالمَحَبَّةِ فَقَطْ فَهُوَ صُوفِيٌّ»؛ لأَنَّ الصُّوفِيَّةَ يَقُولُونَ: «لا نَعْبُدُ اللهَ طَمَعًا فِي جَنَّتِهِ، وَلا نَعْبُدُهُ خَوْفًا مِنْ نَارِهِ، وَإِنَّمَا نَعْبُدُهُ مَحَبَّةً لَهُ فَقطْ» وهَذَا ضَلالٌ فَلاَ بدَّ أن تَعْبُدَ اللهَ بِالخَوْفِ وَالرَّجَاءِ والمَحَبَّةِ.

قَوْلُهُ: (وَطَرِيْقِ الخَوْفِ وَالحُزْنِ وَالشَّفَقَاتِ وَالحَيَاءِ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى) أَيْ: عَلَيْكَ بِالحَيَاءِ مِنَ اللهِ، والحَيَاءُ مِنَ اللهِ أَنْ لا يَرَاكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، أَنْتَ تَسْتَحِي مِنَ المَخلوقِيْنَ أَنْ يَرَوْكَ عَلَى شَيْءٍ لا يَلِيقُ، فَكَيْفَ لا تَسْتَحِي مِنَ اللهِ أنْ يَرَاكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، فهَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ مِنَ الإنْسَانِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨]، فَعَلَيْكَ أَنْ تَسْتَحِي مِنَ اللهِ أَوَّلًا، وَتَتَجَنَّبَ مَعَاصِيه؛ لأَنَّهُ يَرَاكَ.

[١١٩] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: واحْذَرْ أَنْ تَجْلِسَ مَعَ مَنْ يَدْعُو إِلَى الشَّوْقِ والمَحبَّةِ، وَمَنْ يَخْلُو مَعَ النِّسَاءِ وَطَرِيْقِ المَذْهَبِ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ كُلَّهُمْ عَلَى الضَّلالَةِ.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (واحْذَرْ أَنْ تَجْلِسَ مَعَ مَنْ يَدْعُو إِلَى الشَّوْقِ والمَحبَّةِ) وَهُمُ الصُّوفِيَّةُ، لَـمَّا حَذَّرَكَ مِنَ الجُلُوسِ مَعَ عُلَمَاءِ الكَلامِ، حَذَّرَكَ مِنَ الجُلُوسِ مَعَ فِرْقَةٍ أُخْرَى ضَالَّةٍ وَهُمُ الصُّوفِيَّةُ الَّذِيْنَ يَعْبُدُونَ اللهَ بِالبِدَعِ والمُحْدَثَاتِ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، وَيَتْرُكُونَ السُّنَّةَ، بَلْ لا يَعْبَئُونَ بالحَدِيثِ، وَلا يَعْبَئُونَ بطَلَبِ العِلْمِ، وُيحَذِّرُونَ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ، يَقُولُونَ: «طَلَبُ العِلْمِ يُشْغِلُكَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ، يُشْغِلُكَ عَنِ العِبَادَةِ» وَهَذَا ضَلالٌ؛ لأَنَّ العِبَادَةَ لا تَصْلُحُ، والذِّكْرَ لا يَصْلُحُ إِلاَّ إِذَا كَانَ عَلَى وَفْقِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، وَلا يَكُونُ كَذَلِكَ إِلاَّ بالعِلْمِ؛ وَلِذَلِكَ ضَلُّوا -وَالعِيَاذُ بِاللهِ - زَهِدُوا فِي العِلْمِ وَالتَّعَلُّمِ، وَقَالُوا لِلنَّاسِ: «اشْتَغِلُوا بِذِكْرِ اللهِ، اشْتَغِلُوا بالعِبَادَةِ» هَذَا هُوَ عَيْنُ الضَّلالِ؛ لأَنَّ العِبَادَةَ والذِّكْرَ لا يَصِحَّانِ إِلاَّ إِذَا كَانَا عَلَى عِلْمٍ صَحِيْحٍ، واتِّبَاعٍ لِلرَّسُولِ ﷺ، أَمَّا إِذَا كَانَا عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ واتِّبَاعٍ كَانَا ضَلالًا، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**» إِذْ كَيْفَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا عَلَيْهِ أَمْرُ الرَّسُولِ ﷺ إِلاَّ بِالتَّعَلُّمِ، وَقَالَ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**» وكَيْفَ تَعْلَمُ أَنَّهُ مُحْدَثٌ إِلاَّ إِذَا قَابَلْتَهُ بِسُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، فَلابُدَّ مِنَ التَّعَلُّمِ أَوَّلًا، وَلا تَزْهَدْ فِي العِلْمِ وَطَلَبِ العِلْمِ، فطَلَبُ العِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ نَوَافِلِ العِبَادَاتِ، فَالَّذِي يَجْلِسُ لِيُذَاكِرَ مَسْأَلَةً مِنَ العِلْمِ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ، لِـمَاذَا؟ لأَنَّهُ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى عِلْمٍ وَبصِيْرَةٍ، وَلأَنَّ العَالِمَ يَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَنْفَعُ غَيْرَهُ، أَمَّا العَابِدُ الَّذِي يُصَلِّي اللَّيْلَ كُلَّهُ وَيَصُومُ النَّهَارَ، يَنْفَعُ نَفْسَهُ فَقَطْ، وَلا يَنْفَعُ

النَّاسَ، فَنَفْعُهُ قَاصِرٌ عَلَى نَفْسِهِ، فَأَنْتَ إِذَا تَعَلَّمْتَ نَفَعْتَ نَفْسَكَ، وَنَفَعْتَ النَّاسَ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «**فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ؛ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ**»[1]؛ لأَنَّ القَمَرَ يُنِيرُ الكَوْنَ وَيَسِيرُ عَلَيْهِ الرُّكْبَانُ، وُيصْلِحُ اللهُ بِهِ الثِّمَارَ، وَلَهُ مَنَافِعُ عَظِيمَةٌ، أَمَّا الكَوْكَبُ فَهُوَ يُنَوِّرُ نَفْسَهُ فَقَطْ، نُورُهُ قَاصِرٌ عَلَيْهِ، هَذَا فِي العَابِدِ الَّذِي يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَقٍّ فَكَيْفَ بِالعَابِدِ الَّذِي يَعْبُدُ اللهَ عَلَى جَهْلٍ، هَذَا رُبَّمَا تَكُونُ عِبَادَتُهُ ضَلالًا مَرْدُودَةً عَلَيْهِ، فَلابُدَّ مِنَ العِلْمِ وَطَلَبِ العِلْمِ، وَلا يَغُرُّكَ هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَحُثُّونَ النَّاسَ عَلَى الذِّكْرِ والخُرُوجِ وَصَلاةِ اللَّيْلِ والصِّيَامِ، وَيُزَهِّدُونَ فِي طَلَبِ العِلْمِ، والجُلُوسِ فِي المَسَاجِدِ لِطَلَبِ العِلْمِ عَلَى العُلَمَاءِ.

قَوْلُهُ: (**وَمَنْ يَخْلُو مَعَ النِّسَاءِ**)؛ لأَنَّ بَعْضَ الصُّوفِيَّةِ لا يَتَوَرَّعُونَ عَنِ الحَرَامِ، يَقُولُونَ: «نَحْنُ مَا عَلَيْنَا إِثْمٌ، نَحْنُ مِنَ العَارِفِيْنَ بِاللهِ» وَيَسْتَبِيحُونَ المَعَاصِي، ويَقُولُونَ: «نَحْنُ مَا عَلَيْنَا تَحْرِيمٌ، وَلَيْسَ عَلَيْنَا وَاجِبَاتٌ؛ لأَنَّنَا وَصَلْنَا إِلَى اللهِ، لَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَى العِبَادَةِ»، وَلِذَلِكَ يَسْتَعْمِلُونَ اللِّوَاطَ، وَيَسْتَعْمِلُونَ الزِّنَا، وَيسْتَعْمِلُونَ النَّظَرَ المُحَرَّمَ، وَيَقُولُونَ: «ما عَلَيْنَا إِثْمٌ فِي هَذَا؛ لأَنَّنَا نَنْظُرُ فِي آيَاتِ اللهِ» يَقُولُونَ: «هَذَا مِنَ النَّظَرِ فِي آيَاتِ اللهِ»، يُزَيِّنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ هَذَا الشَّيْءَ، وَيَخْلُونَ مَعَ المُرْدَانِ، ويَحْصُلُ مِنْهُمْ شُرُورٌ، ويَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ، وَأَنَّهُمْ لَيْسَ عَلَيْهِم حَرَجٌ فِيمَا فَعَلُوا، انْظُرْ كَيْفَ يَصِلُ العَبْدُ إِلَى هَذَا الحَدِّ وَالعِيَاذُ بِاللهِ، فَلا تَجْلِسْ مَعَ هَؤُلاءِ.

قَوْلُهُ: (**وَطَرِيْقِ المَذْهَبِ**) أَيْ: طَرِيْقِ مَذْهَبِ الصُّوفِيَّةِ، يَقُولُونَ: «اجْعَلْ لَكَ شَيخًا» أَيْ: شَيْخَ طَرِيقَةٍ تُسْلَكُ عَلَى يَدَيْهِ، «الَّذِي لَيْسَ لَهُ شَيخٌ شَيخُهُ الشَّيْطَانُ» لا بُدَّ أَنْ تَكُونَ تَابِعًا لِشَيْخٍ وَتُبَايِعُهُ عَلَى الطَّرِيقَةِ ومَا تَخْرُجُ عَنْهَا، ولَهُمُ اصْطِلاحَاتٌ خَبِيْثَةٌ فعَلَيْكَ أَنْ تَحْذَرَ مِنْهُمْ، لأَنَّهُمْ يَدْعُون النَّاسَ إِلَى الخُرُوجِ مِنْ

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

دِينِ الله إِلَى دِينِ الشَّيْطَانِ - وَالعِيَاذ بِالله -.

قَوْلُهُ: (فَإِنَّ هَؤُلاءِ كُلَّهُمْ عَلَى الضَّلالَةِ) هَؤُلاءِ الصُّوفِيَّةُ بِمَا فِيهِمْ عَامَّتُهُمْ وَعُلَمَاؤُهُمْ وَمُرِيدُوهُمْ وَمَشَايِخُهُمْ، كُلُّهُمْ عَلَى ضَلالَةٍ، إِلاَّ مَنْ عَمِلَ بِالسُّنَّة، فَهَذَا عَلَى الحَقِّ.

[١٢٠] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - دَعَا الخَلْقَ كُلَّهُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ، ومَنَّ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ بِالإِسْلامِ تَفَضُّلاً مِنْهُ.

الشَّرْحُ

المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ يَقُول: (وَاعْلَمْ) أيها المُسْلِمُ يا طَالِبَ العِلْمِ، وَتَنَبَّهْ لِهَذَا الأَمْرِ، وَهُوَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ كُلَّهُم لِعِبَادَتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، هَذَا مِنْ نَاحِيَةِ الإِخْبَارِ، ومِنْ نَاحِيَةِ الأَمْرِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢]، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر:٥].

فَهَذَا خِطَابٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِم، جِنِّهِمْ وَإِنْسِهِمْ، بِأَنْ يُفْرِدُوا اللهَ بِالعِبَادَةِ، وَلا يَعْبُدُوا مَعَهُ سِوَاهُ؛ لأَنَّهُ لا رَبَّ لَهُمْ إِلاَّ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -، والغَالِبُ عَلَى النِّدَاءَاتِ فِي السُّوَرِ المَكِّيَّةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وَالغَالِبُ عَلَيْهَا فِي المَدَنِيَّةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وَإِنْ كَانَ قَدْ يُوجَدُ شَيْءٌ فِي السُّوَرِ المَكِّيَّةِ، أَوِ السُّوَرِ المَدَنِيَّةِ غَيْرُ ذَلِكَ، لَكِن العِبْرَةَ بالغَالِبِ، فَهَذَا النِّدَاءُ يَدُلُّ دَلالَةً صَرِيحَةً عَلَى أَنَّ العِبَادَةَ لا تَصْلُحُ إِلاَّ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واللهُ - جَلَّ وَعَلا - أَمَرَ بِهَا جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ مِنْ أَجْلِهَا، فَلَيْسَ لأَحَدٍ فِيهَا أَيُّ اسْتِحْقَاقٍ لا المَلائِكَةَ، وَلا الأَنْبِيَاءَ، وَلا الأَوْلِيَاءَ، وَلا الصَّالِحِيْنَ، وَلا الجِنَّ، وَلا الإِنْسَ، وَلا أَيَّ مَخْلُوقٍ، العِبَادَةُ حَقٌّ للهِ عَلَى الخَلْقِ أَجْمَعِيْنَ.

فالدَّعْوَةُ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ عَامَّةٌ، وَلَكِنَّ المُمْتَثِلِيْنَ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ هُم خَوَاصُّ

العِبَادِ، والكَثِيْرُ أَعْرَضُوا عَنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَالقَلِيلُ هُمُ الَّذِيْنَ أَصْغَوا إِلَى هَذَا النِّدَاءِ، وَهَذَا الأَمْرِ فَامْتَثَلُوا أَمْرَ الله، فَهَدَاهُمُ اللهُ - جَلَّ وَعَلا - لِذَلِكَ وَوَفَّقَهُمْ، بِسَبَبِ إِقْبَالِـهِمْ وَإِصْغَائِهِمْ إِلَى نِدَاءِ الله، فَالسَّبَبُ مِنْ قِبَلِ العَبْدِ، والتَّوْفِيْقُ مِنْ قِبَلِ الله، وتَوْفِيْقُ الله مُتَرَتِّبٌ عَلَى سَببٍ مِنَ العَبْدِ، فَإِذَا فَعَلَ العَبْدُ السَّببَ فَإِنَّ اللهَ يُوَفِّقُهُ وَيُيَسِّرُهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٤-١٠]، فَالهِدَايَةُ لَـهَا سَبَبٌ، وَالضَّلالُ لَهُ سَبَبٌ مِنْ قِبَلِ العَبْدِ، فَهَذَا يَجِبُ التَّنَبُّهُ لَهُ؛ لأَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَقُولُ: إِنْ كَانَ قَدَّرَ لِي الهِدَايَةَ فَسَأَهْتَدِي، وَإِنْ قَدَّرَ لِي الضَّلالَةَ فَسَأَضِلُّ. وهَذَا كَلامٌ بَاطِلٌ، وَاحْتِجَاجٌ بالقَدَرِ، وَيَنْسَى هَذَا أَنَّ فِعْلَ السَّبَبِ مِنْ قِبَلِهِ هُوَ، ولَنْ يَحْصُلَ عَلَى الهِدَايَةِ بِدُونِ سَببٍ أَبدًا، وأَنْتَ إِذَا أَرَدْتَ الأَولادَ لابُدَّ أَنْ تَتَزَوَّجَ، وَتَفْعَلَ السَّببَ وَهُوَ الزَّوَاجُ.

أَمَّا لَوْ بَقِيتَ أَعْزَبَ وَلَمْ تَتَزَوَّجْ فَلَنْ يَأْتِيكَ أَولادٌ، وَكَذَلِكَ الرِّزْقُ، فلَوْ جَلَسْتَ وَلَمْ تَعْمَلْ شَيْئًا واعْتَمَدْتَ عَلَى القَدَرِ فلَنْ يَأْتِيكَ شَيْءٌ، وإِذَا قُمْتَ وَعَمِلْتَ وَتَسَبَّبْتَ وَطَلَبْتَ الرِّزْقَ يَسَّرَ اللهُ لَكَ، الطُّيُورُ وَالبَهَائِمُ لا تَبْقَى فِي أَوْكَارِهَا وَمَأْوَاهَا، بَلْ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا، تَذْهَبُ لِطَلَبِ الرِّزْقِ، فَلابُدَّ مِنْ فِعْلِ السَّببِ وَكَذَلِكَ الـهِدَايَةُ لا تَحْصُلُ بِدُونِ سَبَبٍ، وَالضَّلالُ لا يَحْصُلُ بِدُونِ سَبَبٍ مِنَ العَبْدِ، لأَنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ أَحَدًا، فَالَّذِيْ يُرِيدُ الخَيْرَ يُيَسِّرُهُ اللهُ لِلْخَيْرِ وَيَشْرَحُ صَدْرَهُ لَهُ، والَّذِي يُرِيدُ الشَّرَّ يُيَسِّرُهُ اللهُ لِلشَّرِّ وَيُهَيِّئُهُ لَهُ، جَزَاءً عَلَى مُيُولِهِ وَرَغْبَتِهِ، فَلْيَتَفَطَّنِ العَبْدُ لـهَذَا الأَمْرِ فَإِنَّهُ دَقِيقٌ جِدًّا، فَلابُدَّ مِنْ فِعْلِ الأَسْبَابِ لِجَمِيعِ الأُمُورِ، وَمِنْهَا الإِيْمَانُ وَالهِدَايَةُ، وَدُخُولُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ.

فَقَوْلُهُ: (**وَمَنَّ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ بِالإِسْلام تَفَضُّلًا مِنْهُ**) أَيْ: مَنَّ اللهُ عَلَى مِنْ يَشَاءُ بالإِسْلامِ تَفَضُّلًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ، لَكِنَّ التَّفَضُّلَ مِنَ الله لَهُ سَبَبٌ،

والحِرْمَانَ لَهُ سَبَبٌ مِنْ قِبَلِ العَبْدِ، فَلابُدَّ أَنْ يُلاحَظَ هَذَا وَلا يَحْتَجُّ الإِنْسانُ بالقَدَرِ؛ كالَّذِيْنَ قَالُوا: ﴿**سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ**﴾ [الأنعام:١٤٨]، وهَذَا احْتِجَاجٌ بالقَدَرِ، كَمَا احْتَجَّ إِبْلِيسُ، فَقَالَ: ﴿**فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى**﴾ [الأعراف:١٦]، احْتَجَّ بالقَدَرِ وَنَسِيَ أَنَّهُ تَكَبَّرَ عَنْ أَمْرِ الله ﷻ فَاللهُ أَغْوَاهُ بِسَبَبِ أَنَّهُ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِيْنَ، أبى أَنْ يَسْجُدَ؛ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ ﷻ فَلا حُجَّةَ لَهُ بِذَلِكَ، الحُجَّةُ قَائِمَةٌ عَلَيْهِ، لأَنَّ مَا حَصَلَ عَلَيْهِ مِنَ الشَّقَاوَةِ كَانَ لِسَبَبِ عِصْيَانِهِ.

[١٢١] قَالَ المؤَلِّفُ رحمه الله: وَالكَفُّ عَنْ حَرْبِ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ وَعَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ - رَحِمَهُمُ اللهُ أَجْمَعِيْنَ - ومَنْ كَانَ مَعَهُم، وَلا تُخَاصِم فِيْهِم، وَكِلْ أَمْرَهُمْ إِلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُم وَذِكْرَ أَصْحَابِي وَأَصْهَارِي وَأَخْتَانِي».

وقَوْلُهُ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَظَرَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكُم»(١).

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَالكَفُّ عَنْ حَرْبِ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ وَعَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ - رَحِمَهُمُ اللهُ أَجْمَعِيْنَ -) هَذَا أَصْلٌ عَظِيْمٌ، وَهُوَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ فِي حَقِّ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مِنَ المُهَاجِرِيْنَ والأَنْصَارِ الَّذِيْنَ آزَرُوا الرَّسُولَ ﷺ وَحَمَوْهُ وجَاهَدُوا مَعَهُ، وَبَذَلُوا أَمْوَالَـهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ، وَتَرَكُوا دِيَارَهُمْ وَأَوْطَانَهُمْ، وَتَبِعُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ لَهُمْ مِنَ الفَضْلِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ، فَهُمْ خَيْرُ القُرُونِ؛ كَمَا قَالَ ﷺ: «خَيْرُكَمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ» فخَيْرُ القُرُونِ هُمُ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم لـمَا قَامُوا به مِنْ صُحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَمُنَاصَرَتِهِ، وَنَشْرِ دِيْنِهِ وَتَبْلِيغِهِ لِمَنْ جَاءَ بَعْدَهُم مِنَ الأُمَّةِ، فَحَازُوا هَذَا الفَضْلَ الَّذِي لا يُسَاوِيهِم فِيْهِ غَيْرُهُمْ؛ وَلِذَلِكَ أَثْنَى اللهُ - جَلَّ وَعَلا - عَلَيْهِم، وَرَضِيَ عَنْهُم؛ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ فِي كَثِيْرٍ مِنَ الآياتِ فِي القُرْآنِ الكَرِيْمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا

(١) صحيح: سبق تخريجه.

ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٧- ١١٨]، ثُمَّ قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩] مَعَ الصَّادِقِينَ مَعَ هَؤُلَاءِ، صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨]، وقال تَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح:٢٩] إِلَى آخِرِ سُورَةِ الفَتْحِ، هَذِهِ فِي الصَّحَابَةِ، وَقَالَ تَعَالَى لَـمَّا ذَكَرَ الفَيْءَ فِي سُورَةِ «الحَشْرِ»: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر:٦- ٨]، ثُمَّ ذَكَرَ الأَنْصَارَ فَقَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:٩-١٠] هَذَا مَوْقِفُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ:

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وَالغِلُّ: هُوَ البُغْضُ، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وَفِي السُّنَّةِ أَحَادِيثُ كَثِيْرَةٌ مِنْهَا قَوْلُهُ ﷺ: «**لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ**»[1] لَوْ تَصَدَّقَ وَاحِدٌ مِنَ المُتَأَخِّرِيْنَ غَيْرِ الصَّحَابَةِ وَلَو كَانَ مِنَ التَّابِعْينَ بِمِثْلِ أَوْ عَدْلِ جَبَلِ أُحُدٍ مِنَ الذَّهَبِ الخَالِصِ لِوَجْهِ الله، لَمْ يُعَادِلْ فِي الأَجْرِ مَا يَتَصَدَّقُ به الصَّحَابِيُّ مِنَ المُدِّ؛ مِنَ الشَّعِيرِ، ومِنَ التَّمْرِ، أَوْ نِصْفِ المُدِّ، جَبَلٌ مِنَ الذَّهَبِ مِنْ غَيْرِ الصَّحَابَةِ لا يُعَادِلُ المُدَّ مِنْهُم، لِـمَاذَا؟ لِفَضْلِهِمْ رضي الله عنهم.

فمَوْقِفُ المُسْلِمِ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ الله ﷺ: احْتِرَامُهُمْ، والتَّرَضِّي عَنْهُم، وَالاقْتِدَاءُ بِهِمْ، واتِّبَاعُهُمْ، والدِّفَاعُ عَنْ أَعْرَاضِهِمْ، هَذَا هُوَ مَوْقِفُ المُسْلِمِ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ الله، وَحُبُّهُم مِنْ حُبِّ الرَّسُولِ ﷺ، فَمَنْ كَانَ يُحِبُّ رَسُولَ الله فَلْيُحِبَّ أَصْحَابَهُ، ومَنْ كَانَ يُبْغِضُ الصَّحَابَةَ فَهُوَ يُبْغِضُ رَسُول الله ﷺ، قَالَ ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ**»[2].

وَأَمَّا مَسْأَلَة مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ رحمه الله مِنْ عَدَمِ الخَوضِ فِيمَا جَرَى بَيْنَ الصَّحَابَةِ، فأَفْرَادُ الصَّحَابَةِ كَغَيْرِهِمْ مِنَ البَشَرِ يُخْطِئُونَ، لَكِن كَانَتْ نِيَّاتُهُمْ خَالِصَةً، وَمَقَاصِدُهُمْ طَيِّبَةً، وأَهْدَافُهُمْ حَمِيدَةً لا يَشُكُّ فِي هَذَا مَنْ فِي قَلْبِهِ ذَرَّةٌ مِن إِيمَانٍ، وَلا يَتَّهِمُ أَحَدًا مِنْهُمْ، لَكِن لَـمَّا جَرَتِ الفِتْنَةُ - والفِتْنَةُ لَيْسَ لأَحَدٍ فِيهَا حِيلَةٌ، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ مِنَ الفِتَنِ - فِي عَهْدِهِمْ بِسَبَبِ الخَبِيْثِ اليَهُودِيِّ عَبْدِ الله ابنِ سَبَإٍ الَّذِي أَظْهَرَ الإِسْلامَ، ثُمَّ جَاءَ وَجَعَلَ يَطْعَنُ فِي خَلِيْفَةِ رَسُولِ الله ﷺ

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٨٦٢)، وأحمد (٤/ ٨٧) من حديث عبد الله بن مغفل، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (١١٦٠).

عُثْمَان ﷺ، يَطْعَنُ فِيهِ، وَيَجْمَعُ عَلَيْهِ الغَوْغَاء مِنَ النَّاسِ، والَّذِيْنَ يُحِبُّونَ الشَّرَّ، ويُحِبُّونَ الفَوْضَى ولا يَخْلُو زَمَانٌ مِنْ أَمْثَالِ هَؤُلاءِ، فالنَّاسُ لَوْ وَجَدُوا مَنْ يَقُودُهُمْ إلى الشَّرِّ لاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ إلاَّ مَنْ رَحِمَ اللهُ، لأَنَّهُم يُحِبُّونَ الغَوغَاءَ والشَّغَبَ والتَّشْوِيشَ، ويُحِبُّونَ الكَلامَ فِي وُلاةِ الأُمُورِ، ويُحِبُّونَ إِفْسَادَ الأَمْرِ وَتَفْرِيقَ الكَلِمَةِ، يُوجَدُ هَذَا فِي النَّاسِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَنْ يَدْعُو إِلَى هَذَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ، فاجْتَمَعَ عَلَى هَذَا الخَبِيْثِ مَنِ اجْتَمَعَ، وَكَانَ المُسْلِمُونَ أُمَّةً وَاحِدَةً تَحْتَ خَلِيْفَةٍ وَاحِدٍ هُوَ عُثْمَانُ ﷺ ثَالِثُ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، فَأَثَّرَ فِيهِمْ هَذَا الخَبِيْثُ، وَانْتَهَى الأَمْرُ بِقَتْلِ عُثْمَانَ ﷺ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، وثَالِثَ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، فَلَمَّا قَتَلُوا عُثْمَانَ؛ انْدَلَعَتِ الفِتْنَةُ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ، وَغَارَ المُسْلِمُونَ لِقَتْلِ عُثْمَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَأَرَادُوا الانْتِقَامَ مِمَّنْ قَتَلَهُ، فتَكَوَّنَتْ مِنْ ذَلِكَ وَقْعَةُ الجَمَلِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ الَّذِيْنَ يُرِيدُونَ القِصَاصَ مِنْ قَتَلَةِ عُثْمَانَ، وَخَرَجُوا مِنَ المَدِيْنَة، وكَانَتْ البَيْعَةُ لأَمِيرِ المُؤْمِنِيْنَ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ بَعْدَ عُثْمَانَ ﷺ جَمِيعًا، كَانَتِ البَيْعَةُ لِعَلِيٍّ وَهُوَ رَابِعُ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، فَطَلَبُوا مِنْ عَلِيٍّ أنْ يَقْتَصَّ مِنْ هَؤُلاءِ، وتَفَاوَضَ هَؤُلاءِ الصَّحَابَةُ الَّذِيْنَ خَرَجُوا مِنَ المَدِيْنَةِ ومَعَهُم أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةُ مَعَ عَلِيٍّ ﷺ عَلَى أَنْ يُسَلِّمَ هَؤُلاءِ القَتَلَةَ، وَلَكِنَّ عَلِيًّا ﷺ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ تَسْلِيْمِهِمْ؛ لأَنَّهُم تَسَلَّلُوا فِي جَيْشِهِ وَجَعَلُوا يُعْمِلُونَ الفِتْنَةَ، وَقَدْ بَاتَ عَلِيٌّ وَإِخْوَانُهُ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعَائِشَةُ وَمَنْ جَاءَ مِنَ المَدِيْنَةِ مُتَصَالِحِيْنَ، فَلَمَّا أَحَسَّ هَؤُلاءِ بِالتَّصَالُحِ بَيْنَ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ وَكَفِّ القِتَالِ، هَيَّجُوا الفِتْنَةَ، وَأَظْهَرُوا الحَرْبَ، تَنَاوَشُوا وَصَاحُوا فِي الجَيْشِ، وَظَنَّ الصَّحَابَةُ أَنَّ الحَرْبَ قَامَتْ، فَدَارَتِ المَعْرَكَةُ فِي وَاقِعَةِ «الجَمَلِ» مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَإِنَّمَا الَّذِي أَذْكَاهَا هُمْ هَؤُلاءِ، الَّذِيْنَ قَتَلُوا عُثْمَانَ ﷺ، وقُتِلَ مِنَ الصَّحَابَةِ مَنْ قُتِلَ فِي هَذِهِ الفِتْنَةِ، وفِي هَذِهِ الواقِعَةِ، وانْتَهَتْ، ثُمَّ قَامَ مُعَاوِيَةُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ ﷺ فِي الشَّامِ وَمَعَهُ أَهْلُ الشَّامِ يُطَالِبونَ بِقَتَلَةِ عُثْمَانَ لِلْقِصَاصِ مِنْهُم، وَلَكِنَّ الفِئَةَ الضَّالَّةَ عَمِلُوا المَكْرَ

والخِدَاعَ وإِذْكَاءَ الفِتْنَةِ فدَارَتْ مَعْرَكَةُ «صِفِّيْنَ» بَيْنَ عَلِيٍّ ومُعَاوِيَةَ، وسَبَبُهَا هَؤُلاءِ الغُوَاةُ والضُّلاَّلُ الَّذِيْنَ يُوقِدُونَ الفِتْنَةَ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ.

وَانْتَهَى الأَمْرُ بِقَتْلِ عَلِيٍّ رضي الله عنه؛ قَتَلَهُ الخَوَارِجُ الَّذِيْنَ خَرَجُوا عَلَى عُثْمَانَ، فأَلْحَقُوا عَلِيًّا بِهِ وَقَتَلُوهُ، لَيْسَ قَصْدُهُمُ العَدْلَ والإِنْصَافَ بَلْ قَصْدُهُمُ الحِقْدُ والانْتِقَامُ، وأَرَادُوا قَتْلَ مُعَاوِيَةَ وَعَمْرِو بنِ العَاصِ وَعَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، وَلَكِنَّ اللهَ نَجَّى مُعَاوِيَةَ وَعَمْرَو بنَ العَاصِ ونَفَذَ قَدَرُ اللهِ فِي عَلِيٍّ رضي الله عنه، فَاسْتُشْهِدَ رضي الله عنه.

فَالوَاجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أنْ يَكُفَّ عَنْ هَذِهِ الأُمُورِ وَأَنْ لا يَدْخُلَ فِيْهَا، وأَنْ لا يَذْكُرَهَا إِلَّا عَلَى وَجْهِ الاعْتِذَارِ وَالاسْتِغْفَارِ لأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ويَعْرِفَ أَنَّهُمْ مُجْتَهِدُونَ، مِنْهُمْ مَنْ أَصَابَ الحَقَّ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ، وَأَنَّ لَهُمْ فَضَائِلَ عَظِيمَةً تُغَطِّي مَا قَدْ يَحْصُلُ مِنْ بَعْضِهِمْ مِنَ الخَطَإِ، لأَنَّهُمْ صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم؛ وَكَمَا فِي الحَدِيثِ: «**أَنَّ اللهَ تبارك وتعالى اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**» فَهُمْ مَغْفُورٌ لَهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ، المَغْفِرَةُ لَهُمْ حَاصِلَةٌ لِمَنْ أَصَابَ وَمَنْ أَخْطَأَ مِنْهُمْ، لأَنَّ الَّذِي أَخْطَأَ مِنْهُمْ لَمْ يُخْطِئْ عَنْ قَصْدٍ وَإِنَّمَا هُوَ عَنِ اجْتِهَادٍ، فَيَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أن لا يَدْخُلَ فِي هَذَا أَبَدًا، وَلا يُخَطِّئَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَلْ يَعْتَذِرُ لَهُمْ وَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، وَيَتَرَحَّمُ عَلَيْهِم، فيَكُونُ مِنَ الَّذِيْنَ قَالَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا - فِيْهِم: ﴿**وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الحشر: ١٠].

وَقَدْ ظَهَرَتْ أَشْرِطَةٌ مِنْ بَعْضِ الجُهَّالِ سَجَّلَ فِيهَا هَذِهِ الأُمُورَ، وَمَا جَرَى بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَأَخْرَجَهَا بِأَشْرِطَةٍ يَتَدَاوَلُهَا النَّاسُ، فَهَذَا لا يَخْلُو:

- إِمَّا أَنَّهُ جَاهِلٌ وَلَمْ يَدْرُسِ العَقِيدَةَ.

▪ وَإِمَّا أَنَّهُ مُغْرِضٌ يُرِيدُ أنْ يَبُثَّ البُغْضَ لأَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ.

فليَحْذَرِ المُسْلِمُونَ مِنْ هَذِهِ الأَشْرِطَةِ وأَمْثَالِهَا، وليَحْذَرْ مِنْ كَيدِ الشِّيْعَةِ، وَسَبِّهِمْ لأَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ، والْتِمَاسِ المَعَايِبِ لَهُمْ، فليَحْذَرِ المُسْلِمُ مِنْ هَذَا؛ لِئَلاَّ يَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ - وَالعِيَاذُ بِالله -.

[١٢٢] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّهُ لا يَحِلُّ مالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بطِيبَةٍ مِنْ نَفْسِهِ، وَإِنْ كَانَ مَعَ رَجُلٍ مَالٌ حَرَامٌ فَقَدْ ضَمِنَهُ، لا يَحِلُّ لأَحَدٍ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا إلاَّ بإِذْنِهِ، فَإِنَّهُ عَسَى أَنْ يَتُوبَ هَذَا فيُرِيدُ أَنْ يَرُدَّهُ عَلَى أَرْبَابِهِ فَأَخَذْتَ حَرَامًا.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّهُ لا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلاَّ بطِيبَةٍ مِنْ نَفْسِهِ) مِنِ احْتِرَامُ المُسْلِمِينَ دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، واحْتِرَامُ أَعْرَاضِهِمْ؛ لأَن مَنْ أَسْلَمَ فَقَدْ حَمَى بِالإِسْلام دَمَهُ، وَحَمَى مَالَهُ، وَحَمَى عِرْضَهُ، فَلا يَجُوزُ التَّعَدِّي عَلَى المُسْلِمِ، قَالَ ﷺ: «كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»، وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ؛ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا - يَعْنِي: يَوْمَ النَّحْرِ - فِي شَهْرِكُمْ هَذَا - يَعْنِي: شَهْرَ ذِي الحِجَّةِ - فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»[1] وَهِيَ مَكَّةُ المُشَرَّفَةُ، فَيَحْرُم دَمُ المُسْلِمِ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ، فَلا يَجُوزُ التَّعَدِّي عَلَى مَالِ المُسْلِمِ ولا أَخْذُهُ إلاَّ بِطِيبَةٍ مِنْ نَفْسِ المُسْلِمِ، إِذَا سَمَحَ بشَيْءٍ مِنْ مَالِهِ فَهُوَ حَلالٌ، وَأَمَّا أن يُؤْخَذَ مِنْهُ قَهْرًا، أَوْ بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ أَوْ غَصْبًا، أَوْ سَرِقَةً، أَوْ خِيَانَةً، فَإِنَّهُ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ دَمِهِ وَعِرْضِهِ، وَهَذَا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة:١٨٨]، وَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لا يُبَالِي بِهَذَا إِمَّا أَنْ يَقْتُلَ أَخَاهُ المُسْلِمَ لأَخْذِ مَالِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذَ مَالَهُ بِالسَّرِقَةِ، وبِقَطْعِ الطَّرِيْقِ، وبالخِيَانَةِ، وبالغِشِّ فِي البيعِ والشِّرَاءِ، فَلا يُبَالِي بِهَذَا فيَأْخُذُ مَالَ أَخِيهِ بالبَاطِلِ مِنْ غَيْرِ طِيْبَةٍ مِنْ نَفْسِهِ، وهَذَا

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

كُلُّهُ حَرَامٌ، وَكَبِيْرَةٌ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ.

قَوْلُهُ: **(وَإِنْ كَانَ مَعَ رَجُلٍ مَالٌ حَرَامٌ فَقَدْ ضَمِنَهُ)** إِذَا أَخَذَ مَالَ أَخِيهِ بِغَيْرِ حَقٍّ بِأَيِّ نَوعٍ مِنْ أَنْواعِ الأَخْذِ فَإِنَّهُ مَضْمُونٌ عَلَيْهِ حَتَّى يُؤَدِّيَهُ إِلَى صَاحِبِهِ؛ لأَنَّهُ لابُدَّ مِنْ أَدَاءِ المَظَالِمِ إِلَى أَصْحَابِهَا قَبْلَ المَوْتِ، وَإِلاَّ فَإِنَّ أَصْحَابَهَا سَيَقْتَصُّونَ مِنَ الظَّالِمِ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَقْتَصُّونَ مِنْ حَسَنَاتِهِ، حَتَّى رُبَّمَا لا تَبْقَى لَهُ حَسَنَةٌ، ثُمَّ تُؤْخَذُ مِنْ سَيِّئَاتِ المَظْلُومِيْنَ فَتُحْمَلُ عَلَيْهِ ويُلْقَى فِي النَّارِ وَالعِيَاذُ بِالله، فَمَالُ المُسْلِمِ وَلَو أَخَذْتَهُ بِغَصْبٍ، أَوْ بِمُعَامَلَةٍ مُحَرَّمَةٍ، أَوْ أَخَذْتَهُ بِقَهْرٍ، أَوْ بِسَرِقَةٍ فَإِنَّهُ مَضْمُونٌ لابُدَّ أَنْ تُؤَدِّيَهُ إِمَّا فِي الدُّنْيَا، وإِمَّا فِي الآخِرَةِ، فَتَنَبَّهْ لِذَلِكَ وهُوَ مَضْمُونٌ عَلَيْكَ وَلا بُدَّ مِنْ أَدَائِهِ فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الآخِرَةِ، وَأَدَاؤُهُ فِي الدُّنْيَا أَسْهَلُ عَلَيْكَ مِنْ أَدَائِهِ فِي الآخِرَةِ.

قَوْلُهُ: **(فَإِنَّهُ عَسَى أَنْ يَتُوبَ هَذَا فَيُرِيدُ أَنْ يَرُدَّهُ عَلَى أَرْبَابِهِ فَأَخَذْتَ حَرَامًا)** فَلا يَجُوزُ أَخْذُكَ شَيْئًا تَعْلَمُ بِأَنَّهُ حَرَامٌ، وَمِنْ مَكْسَبٍ حَرَامٍ لأُمُورٍ:

أَوَّلًا: أَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ حَرَامٌ فَكَيْفَ تَسْتَحِلُّهُ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ حَرَامٌ، وَأَنَّ هَذَا الشَّخْصَ لا يَمْلِكُهُ.

ثَانِيًا: لَوْ تَابَ هَذَا الظَّالِمُ وَأَرَادَ أَنْ يَرُدَّ المال وَقَدْ أَخَذْتَهُ مِنْهُ، فَإِنَّهُ لا يَتَمَكَّنُ مِنْ رَدِّهِ.

ثَالِثًا: أَنَّكَ تَكُونُ شَرِيكًا لَهُ فِي الجَرِيْمَةِ وَالظُّلْمِ.

[١٢٣] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالمَكَاسِبُ مَا بَانَ لَكَ صِحَّتُهُ فَهُوَ مُطْلَقٌ، إلاَّ مَا ظَهَرَ فَسَادُهُ، وَإِنْ كَانَ فَاسِدًا يَأْخُذ مِنَ الفَسَادِ مُمْسَكَةَ نَفْسِهِ، وَلا تَقُولُ: أَتْرُكُ المَكَاسِبَ وآخُذُ مَا أَعْطَوْنِي، لَمْ يَفْعَلْ هَذَا الصَّحَابَةُ وَلا العُلَمَاءُ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا، وَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كَسْبٌ فِيهِ بَعْضُ الدَّنِيَّةِ خَيْرٌ مِنَ الحَاجَةِ إِلَى النَّاسِ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَالمَكَاسِبُ مَا بَانَ لَكَ صِحَّتُهُ فَهُوَ مَطْلَقٌ) قَالَ ﷺ: «إِنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ وإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ وبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِيْنِهِ وَعِرْضِهِ»[1] فَالحَلالُ البَيِّن يُؤْخَذُ؛ لأَنَّ الأَصْلَ فِي المُعَامَلاتِ الحِلُّ إلاَّ مَا تَبَيَّنَ أَنَّهُ حَرامٌ، وَكَذَلِكَ الحَرامُ بَيِّنٌ، قَالَ تَعالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة:٣]، وَكَذَلِكَ المَيْسِرُ وَالقِمَارُ وَالخَمْرُ هَذَا حَرَامٌ بِنَصِّ القُرْآنِ، وَكَذَلِكَ تَحْرِيمُ السَّرِقَة وَالغَصْب وَأَكْل أَمْوَالِ النَّاسِ بِالبَاطِلِ، هَذَا حَرَامٌ بيِّن.

وَالمُشْتَبِهُ الَّذِي لا يُدْرَي هَلْ هُوَ حَلالٌ أَمْ حَرَامٌ لِتَعَارُضِ الأَدِلَّةِ فِيهِ، فَهَذَا يُتَوَقَّفُ فِيهِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ، هَذِهِ هِيَ القَاعِدَةُ الَّتِي وَضَعَهَا رَسُولُ الله ﷺ، وَهِيَ قَاعِدَةٌ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ المُؤَلِّفِ هُنَا (إلاَّ مَا ظَهَرَ فَسَادُهُ).

قَوْلُهُ: (وَإِنْ كَانَ فَاسِدًا يَأْخُذُ مِنَ الفَسَادِ مُمْسَكَةَ نَفْسِهِ) هَذِهِ مَسْأَلَةُ الضَّرُورَةِ، إِذَا خَافَ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ الهَلاكَ إِنْ لَمْ يَأْكُل، فَإِنَّهُ يَأْكُلُ مِمَّا عِنْدَهُ مَا يُبْقِي عَلَيْهِ حَيَاتَهُ وَلَو كَانَ مِنْ مَالِ غَيْرِهِ، وَلَو كَانَ هَذَا المَالُ حَرامًا، لَوْ كَانَ مَيْتَةً

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، يَأْكُلُ مِنْهُ لأَجْلِ الضَّرُورَةِ؛ لِئَلَّا يَمُوتَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٣]، فَتَأْخُذُ مِنَ الحَرَامِ قَدْرَ مَا يُمْسِكُ عَلَيْكَ حَيَاتَكَ، ثُمَّ تُمْسِكُ عَنِ البَاقِي، وَقَالَ: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٩]، فَلا حَرَامَ مَعَ ضَرُورَةٍ.

قَوْلُهُ: **(وَلا تَقُولُ: أَتْرُكُ المَكَاسِبَ وآخُذُ مَا أَعْطَوْنِي)** بَعْضُ النَّاسِ يَقُولُ: أَنَا مُتَوَكِّلٌ عَلَى اللهِ، وَأَنَا سَأَجْلِسُ لِلْعِبَادَةِ وَلِطَلَبِ العِلْمِ والنَّاسُ يُعْطُونَنِي، هَذَا لا يَجُوزُ، بَلْ عَلَيْكَ أَنْ تَطْلُبَ الرِّزْقَ الَّذِي يَكْفِيكَ ويَكْفِي زَوْجَتَكَ وأَوْلادَكَ وَمَنْ فِي بَيْتِكَ، وَهَذَا مِنَ العِبَادَةِ، فَلا تَجْلِسْ تَتَحَرَّى صَدَقَاتِ النَّاسِ، بَلْ عَلَيْكَ أَنْ تَطْلُبَ الرِّزْقَ، قَالَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا-: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧].

قَوْلُهُ: **(لم يَفْعَلْ هَذَا الصَّحَابَة وَلا العُلَمَاء إِلَى زَمَاننا هذا)** لَمْ يَفْعَلْ هَذَا الفِعْلَ وَهُوَ الجُلُوسُ عنْ طَلَبِ الرِّزْقِ والنَّظَرِ إِلَى مَا بأَيْدِي النَّاسِ أَحَدٌ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ، وَهُمْ أَتْقَى النَّاسِ بَلْ أَعْبَدُ النَّاسِ للهِ ﷻ، بِلْ كَانُوا أَصْحَابَ أَعْمَالٍ، كَانَ مِنْهُمْ مُزَارِعُونَ، وَكَانَ مِنْهُمْ تُجَّارٌ يُتَاجِرُونَ بِالبَيعِ والشِّرَاءِ، وَمِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ، وَمِنْهُمْ الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ، وَمِنْهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ، وَمِنْهُمْ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ، أَصْحَابُ أَمْوَالٍ يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُوْنَ، وَهُمْ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ، وكَانُوا يُنْفِقُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَيُجَهِّزُونَ الجُيُوشَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، لَمْ يَتْرُكُوا طَلَبَ الرِّزْقِ، أَبُو بَكْرٍ كَانَ يَبِيعُ وَيَشْتَرِي وَيُسَاعِدُ رَسُولَ اللهِ مُنْذُ بَعَثَهُ اللهُ فِي مَكَّةَ، وَهُوَ يُسَاعِدُهُ مِنْ مَالِهِ رضي الله عنه فِي مَوَاقِفِهِ المَشْهُورَةِ، يُطْعِمُ المَسَاكِيْنَ، ويَشْتَرِي العَبِيْدَ المُعَذَّبِيْنَ وَيُعْتِقُهُمْ كَبِلالٍ وَغَيْرِهِ، ومَا تَرَكَ الكَسْبَ، وَقَالَ: أَنَا أَجْلِسُ وَأَعْبُدُ اللهَ وَأَنَا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ.

قَوْلُهُ: (وَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: «كَسْبٌ فِيهِ بَعْضُ الدَّنِيَّةِ خَيْرٌ مِنَ الحَاجَةِ إِلَى النَّاسِ») كَوْنُكَ تَحْتَرِفُ حِرْفَةً فِيهَا دَنَاءَةٌ كَالحِجَامَةِ، تَأْخُذُ مِنْهَا أَجْرًا تُنْفِقُهُ عَلَى نَفْسِكَ خَيْرٌ مِنْ سُؤَالِ النَّاسِ وَالذِّلَّةِ لَهُمْ.

[١٢٤] قَالَ المُؤَلِّفُ ﵀: وَالصَّلَوَاتُ الخَمْسُ جَائِزَةٌ خَلْفَ مَنْ صَلَّيْتَ خَلْفَهُ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ جَهْمِيًّا، فَإِنَّهُ مُعَطِّلٌ، وَإِنْ صَلَّيْتَ خَلْفَهُ فَأَعِدْ صَلاتَكَ، وَإِنْ كَانَ إِمَامُكَ يَوْمَ الجُمُعَةِ جَهْمِيًّا وَهُوَ سُلْطَانٌ فَصَلِّ خَلْفَهُ، وَأَعِدْ صَلاتَكَ، وَإِنْ كَانَ إِمَامُكَ مِنَ السُّلْطَانِ وَغَيْرِهِ صَاحِبَ سُنَّةٍ فَصَلِّ خَلْفَهُ وَلا تُعِدْ صَلاتَكَ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَالصَّلَوَاتُ الخَمْسُ جَائِزَةٌ خَلْفَ مَنْ صَلَّيْتَ خَلْفَهُ) هَذِهِ مَسْأَلَةُ الإِمَامَةِ فِي الصَّلاةِ، مَنِ الَّذِي يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ إِمَامًا؟ وَالَّذِي لا تَصِحُّ إِمَامَتُهُ؟

أَوَّلًا: إِذَا كَانَ الإِمَامُ هُوَ السُّلْطَانَ، فَهَذَا يُصَلَّى خَلْفَهُ؛ كَمَا يَأْتِي دُونَ نَظَرٍ إِلَى بَعْضِ مُمَارَسَاتِهِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا مَعْصِيَةٌ أَوْ مُخَالَفَةٌ مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنِ الدِّينِ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِالصَّلاةِ خَلْفَهُم؛ لأَجْلِ جَمْعِ الكَلِمَةِ، وَعَدَمِ التَّفَرُّقِ، فَمَهْمَا كَانَ عِنْدَهُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي مَا لَمْ يَصِلْ إِلَى حَدِّ الكُفْرِ فَإِنَّهُ يُصَلَّى خَلْفَهُ؛ مِنْ أَجْلِ جَمْعِ الكَلِمَةِ خُصُوصًا فِي الجُمَعِ والأَعْيَادِ، وَكَذَلِكَ فِي الفَرَائِضِ، وإِنْ كَانَ وَلِيُّ الأَمْرِ جَهْمِيًّا فَإِنَّكَ تُصَلِّي خَلْفَهُ، وَتُعِيدُ صَلاتَكَ.

ثَانِيًا: إِذَا كَانَ الإِمَامُ الفَاسِقُ غَيْرَ سُلْطَانٍ، فَهَذَا مَحَلُّ خِلافٍ بَيْنَ العُلَمَاءِ عَلَى قَولَيْنِ:

القَوْلُ الأَوَّل: بَعْضُ العُلَمَاءِ يَشْتَرِطُ فِيهِ العَدَالَةَ، فَلا تَصِحُّ خَلْفَ الفَاسِقِ الَّذِي يَأْتِي كَبِيرَةً مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ دُونَ الشِّرْكِ، قَالُوا: لا يُصَلَّى خَلْفَهُ، لأَنَّهُ لَيْسَ بِعَدْلٍ، وَلا يُتَّخَذُ إِمَامًا.

القَوْلُ الآخَرُ: مَا دَامَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ وتَصِحُّ صَلاتُهُ فِي نَفْسِهِ فَإِنَّهَا تَصِحُّ الصَّلاةُ

خَلْفَهُ فُيصَلَّى خَلفَ كُلِّ مُسْلِمٍ، وَلَو كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ المَعَاصِي دُونَ الشِّرْكِ، وَدُونَ الكُفْرِ فَإِنَّهُ يُصَلَّى خَلْفَهُ. وَهَذَا ظَاهِرُ كَلامِ المُصَنِّفِ.

[١٢٥] قَالَ المُؤَلِّفُ ﷺ: وَالإِيمَانُ بِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ - رَحْمَةُ الله عَلَيْهِمَا - فِي حُجْرَةِ عَائِشَةَ ﵂ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ قَدْ دُفِنَا هُنَالِكَ مَعَهُ، فَإِذَا أَتَيْتَ القَبْرَ فَالتَّسْلِيمُ عَلَيْهِمَا بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ وَاجِبٌ.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (وَ الإِيمَانُ بِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ - رَحْمَةُ الله عَلَيْهِمَا - فِي حُجْرَةِ عَائِشَةَ ﵂ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ) لَـمَّا تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ اخْتَلَفَ النَّاسُ أَيْنَ يَدْفِنُونَهُ؟ هَلْ يَدْفِنُونَهُ مَعَ أَصْحَابِهِ فِي البَقِيعِ، أَوْ مَاذَا يَعْمَلُونَ؟ فَذُكِرَ لَهُمْ حَدِيثٌ عَنْهُ ﷺ «أَنَّ النَّبِيَّ يُدْفَنُ حَيْثُ يَمُوتُ»، عِنْدَ ذَلِكَ انْحَلَّتِ المُشْكِلَةُ، فَدَفَنُوهُ تَحْتَ الفِرَاشِ الَّذِي مَاتَ عَلَيْهِ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - فِي حُجْرَةِ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ؛ لأَنَّهُ مُرِّضَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ.

النَّاحِيَةُ الأُخْرَى: أَنَّهُ لَوْ أُبْرِزَ قَبْرُهُ وَدُفِنَ فِي البَقِيعِ؛ لَحَصَلَ بِذَلِكَ الغُلُوُّ وَتَزَاحُمُ النَّاسِ عَلَى قَبْرِهِ فَلأَجْلِ صِيَانَتِهِ وَحِمَايَتِهِ دُفِنَ فِي بَيْتِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂ لَـمَّا ذَكَرَتْ حَدِيثَ النَّهْيِ عَنِ الغُلُوِّ فِي القُبُورِ، وَأَنَّ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى غَلَوْا فِي قُبُورِ أَنْبِيَائِهِم حيث اتَّخَذُوهَا أَوْثَانًا، قَالَتْ: «وَلَوْلا ذَلِكَ لأُبْرِزَ قَبْرُهُ، وَلَكِنْ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»[١].

فَبَيَّنَتِ الحِكْمَةَ مِنْ دَفْنِهِ فِي بَيْتِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، وَكَانَ بَيْتُهُ خَارِجَ المَسْجِدِ؛ لأَنَّ حُجَرَ النَّبِيِّ ﷺ تَكْتَنِفُ المَسْجِدَ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ وَمِنْ جِهَةِ الجَنُوبِ، فَبَقِيَ ﷺ فِي بَيْتِهِ مَقْبُورًا خَارِجَ المَسْجِدِ إِلَى أَنْ أَرَادَ الوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ تَوْسِعَةَ المَسْجِدِ فَأَدْخَلَ الحُجْرَةَ فِيهِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، لَمْ يُغَيِّرْ فِيهَا شَيْئًا، وَإِنَّمَا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٥٢٩) من حديث عائشة ﵂.

أُدْخِلَتْ بِحُجَّةِ التَّوْسِعَةِ لِلْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، وَإِلَّا فَهُوَ فِي بَيْتِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، لا يَزَارُ فِي بَيْتِه وَلَيْسَ فِي المَسْجِدِ، ثُمَّ لَـمَّا تُوُفِّيَ أَبُو بَكْرٍ ﵁ دُفِنَ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ خَلْفَ ظَهْرِهِ، إِكْرَامًا لَهُ، وَمِيْزَةً لَهُ ﵁؛ وَلأَنَّهُ كَانَ صَاحِبَهُ المُلازِمَ لَهُ فِي حَيَاتِهِ فَدُفِنَ مَعَهُ ﵁، ثُمَّ لَـمَّا تُوُفِّيَ عُمَرُ ﵁ كَانَتْ عَائِشَةُ تُرِيدُ أَنْ تُدْفَنَ فِي حُجْرَتِهَا مَعَ زَوْجِهَا رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَعَ أَبِيهَا، وَلَكِنَّ عُمَرَ اسْتَأْذَنَهَا لِحُبِّـهِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلِحُبِّـهِ لأَبِي بَكْرٍ اسْتَأْذَنَهَا أَنْ يُدْفَنَ مَعَهُمَا، فَأَذِنَتْ لَهُ ﵂ وَآثَرَتْهُ عَلَى نَفْسِهَا، فَدُفِنَ ﵁ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ فِي الحُجْرَةِ، فَهَذِهِ هِيَ القُبُورُ الثَّلاثَةُ: قَبْرُ النَّبِيِّ ﷺ مِمَّا يَلِي القِبْلَةِ، ثُمَّ قَبْرُ أَبِي بَكْرٍ ﵁، ثُمَّ قَبْرُ عُمَرَ ﵁ فِي حُجْرَةِ عَائِشَةَ ﵂، وَعَائِشَةُ ﵂ لَـمَّا مَاتَتْ دُفِنَتْ فِي البَقِيعِ مَعَ الصَّحَابَةِ ﵃.

فَيَجِبُ الإِيمَانُ بِذَلِكَ؛ لأَنَّ مَعْرِفَةَ ذَلِكَ، وَمَعْرِفَةَ قَبْرِ النَّبِيِّ، وَقَبْرِ صَاحِبَيْهِ فِيهَا فَائِدَةٌ لِلْمُسْلِمِ لأَجْلِ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَيْهِمَا، وَيَزُورَهُمْ وَيُسَلِّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَى صَاحِبَيْهِ، لِيَنَالَ بِذَلِكَ الأَجْرَ وَالثَّوَابَ، ثَوَابَ الزِّيَارَةِ وَالسَّلامِ.

قَوْلُهُ: (**فَإِذَا أَتَيتَ القَبْرَ فَالتَّسْلِيمُ عَلَيْهِما بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاجِبٌ**) هَذِهِ الثَّمَرَةُ أَوِ الحِكْمَةُ مِنْ مَعْرِفَةِ أَيْنَ دُفِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَصَاحِبَاهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، ثَمَرَةُ ذَلِكَ أَنْ تُسَلِّمَ عَلَيْهِم إِذَا زُرْتَ المَسْجِدَ النَّبَوِيَّ وَصَلَّيْتَ فِيهِ، لِتَنَالَ بِذَلِكَ ثَوَابَ الزِّيَارَةِ.

وَزِيَارَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ؛ لأَجْلِ السَّلامِ عَلَيْهِمَا وَالدُّعَاءِ لَهُمَا وَالاسْتِغْفَارِ لَهُمَا، لا لأَجْلِ الغُلُوِّ وَطَلَبِ البَرَكَةِ، أَوْ طَلَبِ قَضَاءِ الحَاجَاتِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ؛ كَمَا يَظُنُّهُ الخُرَافِيُّونَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، إِنَّمَا هُوَ السَّلامُ فَقَطْ، وَأَيْضًا السَّلامُ إِنَّمَا هُوَ لِلْقَادِمِ مِنْ سَفَرٍ سَوَاءٌ كَانَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ، أَوْ مِنْ خَارِجِ المَدِينَةِ،

فَالقَادِمُ مِنْ سَفرٍ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ أَوَّلَ مَا يَدْخُلُ المَسْجِدَ بَعْدَ السَّفرِ، وَلا يُكَرِّرُ السَّلامَ عَلَيْهِمَا كُلَّمَا دَخَلَ المَسْجِدَ النَّبوِيَّ؛ لأَنَّ الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، عَمَلًا بِقَوْلِهِ ﷺ: «**لا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيْدًا**»[1] يَعْنِي: تَتَرَدَّدُونَ عَلَيْهِ؛ لأَنَّ العِيْدَ هُوَ مَا يُعْتَادُ وَيَتَكَرَّرُ، فَلا يُتَّخَذُ عَادَةً كُلَّمَا دَخَلَ المَسْجِدَ النَّبوِيَّ يَذْهَبُ وَيُسَلِّمُ عَلَى النَّبِيِّ وَعَلَى صَاحِبَيْهِ، هَذَا بِدْعَةٌ، وَهَذَا وَسِيْلَةٌ إِلَى الشِّرْكِ، وَمِنِ اتِّخَاذِ قَبْرِهِ عِيْدًا، إِنَّمَا هَذَا لِلْقَادِمِ مِنْ سَفرٍ، وَكَانَ ابنُ عُمَرَ رضي الله عنهما إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفرٍ أَتَى وَاسْتَقْبَلَ وَجْهَ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ: «السَّلامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ»، ثُمَّ يَتَأَخَّرُ قَلِيلًا نَحْوَ الشَّرْقِ عَنْ يَمِينِهِ وَيَقُولُ: «السَّلامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ»، ثُمَّ يَتَأَخَّرُ عَنْ يَمِينِهِ قَلِيلًا وَيَقُولُ: «السَّلامُ عَلَيْكَ يَا عُمَرُ ابنَ الخَطَّابِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ»، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ فَإِنَّهُ يَتَنَحَّى وَيَسْتَقْبِلُ القِبْلَةَ وَيَدْعُو اللهَ، لا يَسْتَقْبِلُ القَبْرَ، إِنَّمَا يَسْتَقْبِلُ القِبْلَةَ.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٠٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٢٦).

[١٢٦] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ وَاجِبٌ إِلاَّ مَنْ خِفْتَ سَيْفَهُ أَوْ عَصَاهُ.

الشَّرْحُ

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ» وَهَذَا كَمَا جَاءَ بِالقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]؛ وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]؛ وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١]، بِخِلافِ المُنَافِقِيْنَ والمُنَافِقَاتِ فَإِنَّهُم بِالعَكْسِ يَأْمُرُونَ بِالمُنْكَرِ وَيَنْهَونَ عَنِ المَعْرُوفِ نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ يَعْنِي: عَنِ الصَّدَقَةِ وَالإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ، لا يَبْسُطُونَ أَيْدِيَهُمْ فِي النَّفَقَةِ وَبَذْلِ المَعْرُوفِ؛ لأَنَّهُم لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ؛ وَلأَنَّ المَالَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، خِلافَ المُؤْمِنِيْنَ وَالمُؤْمِنَاتِ فَإِنَّهُم يُقِيمُونَ الصَّلاةَ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ، مَعَ أَمْرِهِمْ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِمْ عَنِ المُنْكَرِ، وَهَذَا لأَجْلِ إِقَامَةِ الدِّينِ وَتَطْهِيرِ المُجْتَمَعِ مِنَ الفَسَادِ.

وَلا يَكْفِي أَنْ يَقُولَ الإِنْسَانُ: لَيْسَ عَلَيَّ إِلاَّ نَفْسِي، فَيُصْلِحُ فِي نَفْسِهِ، وَيَتْرُكُ الآخَرِيْنَ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يُصْلِحَ الآخَرِينَ مَا اسْتَطَاعَ؛ لأَنَّ هَذَا مِنَ النَّصِيحَةِ وَمِنْ إِرَادَةِ الخَيْرِ لِلنَّاسِ، فَكَوْنُكَ تَأْمُرُ أَخَاكَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ المُنْكَرِ، هَذَا أَمْرٌ

وَاجِبٌ عَلَيْكَ، وَمِنْ حَقِّهِ عَلَيْكَ أَيْضًا أَنْ تَأْمُرَهُ بِالمَعْرُوفِ إِذَا رَأَيْتَ عَلَيْهِ تَقْصِيرًا فِي الطَّاعَةِ، وَتَنْهَاهُ عَنِ المُنْكَرِ إِذَا رَأَيْتَ عَلَيْهِ خَطَأً يَقَعُ فِيهِ، وَلا تَتْرُكْهُ يَهْلِكُ وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى تَنْبِيهِهِ، وَلَيْسَ كَمَا يَقُولُ أَهْلُ النِّفَاقِ وَأَهْلُ الشَّرِّ: إِنَّ الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ تَدَخُّلٌ فِي أُمُورِ النَّاسِ، أَوْ وِصَايَةٌ عَلَى النَّاسِ؛ كَمَا يَقُولُونَه الآنَ فِي الصُّحُفِ وَغَيْرِهَا، هَذَا كَلامُ أَهْلِ النِّفَاقِ وَأَهْلِ البَاطِلِ، أَمَّا أَهْلُ الإِيمَانِ فَيَرَوْنَ أَنَّ هَذَا مِنَ النَّصِيحَةِ لإِخْوَانِهِمْ وَمِنْ إِخْرَاجِهِمْ مِنَ الضَّرَرِ إِلَى النَّفْعِ، وَمِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٣]، وَقَالَ لُقْمَانُ: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧] فَهَذِهِ الآيَةُ مِثْلُ سُورَةِ العَصْرِ تَمَامًا، أَنْ يَأْمُرَ الإِنْسَانُ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ، وَيَصْبِرَ إِذَا نَالَهُ شَيْءٌ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ؛ لأَنَّهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا يَنَالُهُ مُحْتَسَبٌ لَهُ عِنْدَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَثْقُلُ عَلَيْهِم أَهْلُ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَيَنَالُونَهُمْ بِالكَلامِ عَلَيْهِم، وَالغِيبَةِ، وَالنَّمِيمَةِ، وَسَبِّهِمْ وَشَتْمِهِمْ، فَيَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ؛ لأَنَّهُم فِي سَبِيلِ اللهِ، وَفِي طَاعَةِ اللهِ، وَفِي إِنْقَاذِ إِخْوَانِهِمْ، لَيْسَ مِنَ النَّصِيحَةِ أَنْ تَتْرُكَ إِخْوَانَكَ عَلَى التَّقْصِيرِ فِي العِبَادَةِ، وَالخَلَلِ فِي أَمْرِ المُنْكَرِ، وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى نَصِيحَتِهِمْ وَتَنْبِيهِهِمْ وَتَوْجِيهِهِمْ، هَذَا مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّهِمْ، وَأَنْتَ تُرِيدُ لَهُمُ الخَيْرَ، وَتُرِيدُ لَهُم النَّجَاةَ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(١) فَإِذَا كُنْت تُحِبُّ لِنَفْسِكَ الخَيْرَ وَتُحِبُّ النَّجَاةَ، فَلْيَكُنْ أَيْضًا أَخُوكَ مِثْلَ نَفْسِكَ فِي هَذَا، أَنْتَ تَأْمُرُهُ وَتَنْصَحُهُ لَكِنْ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي أَرْشَدَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الحَدِيثِ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا**

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ»[1] إِنْ كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغَيِّرَهُ بِيَدِهِ؛ كَوَلِيِّ الأَمْرِ أَوْ مَنْ فَوَّضَهُ وَلِيُّ الأَمْرِ لِلإِنْكارِ بِاليَدِ كَرِجَالِ الحِسْبَةِ، فَإِنَّهُ يُغَيِّرُهُ بِيَدِهِ، وَيُزِيلُ المُنْكَرَ بِيَدِهِ؛ وَكَذَلِكَ صَاحِبُ البَيتِ لَهُ اليَدُ عَلَى مَنْ فِي بَيْتِهِ، يُغَيِّرُ المُنْكَرَ بِيَدِهِ فِي بَيْتِهِ؛ لأَنَّهُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ**﴾ [التحريم:٦]، فَأَنْتَ مُكَلَّفٌ بِأَهْلِ بَيْتِكَ.

أَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ يَدٌ، وَلَيْسَ لَكَ سُلْطَةٌ عَامَّةٌ وَلا خاصَّةٌ فَإِنَّكَ تُنْكِرُ بِاللِّسَانِ، بِأَنْ تُبَيِّنَ أَنَّ هَذَا حَرَامٌ، وَأَنَّ هَذِهِ مَعْصِيَةٌ، وَهَذَا لا يَجُوزُ، تُبَيِّنُ بِالمَوْعِظَةِ، بِالخُطَبِ، بِالدَّرْسِ، بِالنَّصِيحَةِ السِّرِّيَّةِ بَيْنَك وبَيْنَ أَخِيكَ، تُبَيِّنُ لَهُ، وأَيْضًا تُبَلِّغُ عَنْهُ، وإِذَا لَمْ تُجْدِ النَّصِيحَةُ وَلَمْ يُجْدِ الكَلامُ مَعَهُ فَإِنَّكَ تُبَلِّغُ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى إِزَالَةِ المُنْكَرِ بِيَدِهِ، تُبَلِّغُ رِجَالَ الحِسْبَةِ، تُبَلِّغُ الهَيْئَاتِ، وتُبَلِّغُ وَلِيَّ الأَمْرِ، هَذَا مِنَ الإِنْكَارِ بِاللِّسَانِ.

فَإِذَا لَمْ تَقْدِرْ عَلَى الإِنْكَارِ بِاللِّسَانِ، كَأَنْ تُمْنَعَ مِنَ ذَلِكَ، فَإِنَّكَ تُنْكِرُ بِقَلْبِكَ، وَلا تُقِرَّ المُنْكَرَ بِحَالٍ، فَتُنْكِرُهُ بِقَلْبِكَ، فَتَعْتَزِلُ مَجَالِسَ المُنْكَرِ، وَتَبْتَعِدُ عَنْ أَهْلِ المُنْكَرِ وَلا تُجَالِسْهُمْ، لِتَسْلَمَ بِنَفْسِكَ.

هَذِهِ هِيَ مَرَاتِبُ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَهَذَا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ**﴾ [التغابن:١٦]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا**﴾ [البقرة:٢٨٦]، فَإِذَا عَمِلْتَ بِهَذِهِ الخُطُوَاتِ فَقَدْ أَنْكَرْتَ المُنْكَرَ، وَقَدْ سَلِمْتَ.

أَمَّا إِذَا لَمْ تُنْكِرِ المُنْكَرَ لا بِاليَدِ وَلا بِاللِّسَانِ وَلا بِالقَلْبِ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الإِيمَانِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: «**وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٧٨).

(٢) سبق تخريجه.

فَالَّذِي لا يُنْكِرُ الْمُنْكَرَ بِقَلْبِهِ لَيْسَ عِنْدَهُ إِيمَانٌ أَصْلًا، فَلا بُدَّ مِنْ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ، لَكِنْ بِهَذَا النِّظَامِ الَّذِي أَرْشَدَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَلا يَحْتَجَّ أَحَدٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة:١٠٥]، يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ إِنْكَارَ الْمُنْكَرِ لَيْسَ بِلازِمٍ، وَأَنَّ الإِنْسانَ إِذَا صَلَحَ فِي نَفْسِهِ فَمَا عَلَيْهِ مِنَ الآخَرِينَ، وَلا يُنْكِرُ الْمُنْكَرَ، وَلا يَأْمُرُ بِمَعْرُوفٍ، وهَذَا خِلافُ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، والآيَةُ الكَرِيمَةُ لا تَعْنِي هَذَا؛ كَمَا بَيَّنَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ لَـمَّا سُئِلَ عَنْهَا، قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ: «**كَلَّا وَاللهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ السَّفِيهِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ قَصْرًا**»(١) فَمَعْنَى الآيَةِ أَنَّكَ إِذَا أَمَرْتَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَيْتَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَمْ يُعْمَلْ بِقَوْلِكَ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ، وَلا تَقُلْ: أَنَا مِثْلُ النَّاسِ، أَوْ هَذَا شَيْء عَلَيْهِ النَّاسُ، بَلْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِذَا لَمْ يُقْبَلْ مِنْكَ فَلا تَتَنَازَلْ عَنْ شَيْءٍ مِنْ دِينِكَ، وَتُجَامِلِ النَّاسَ وتَمْشِيَ مَعَهُمْ.

قَوْلُهُ: (**إِلاَّ مَنْ خِفْتَ سَيْفَهُ وَعَصَاهُ**) إِذَا خِفْتَ إِذَا أَنْكَرْتَ أَنْ تُقْتَلَ، أَوْ أَنْ تُضْرَبَ فَإِنَّكَ تَنْتَقِلُ إِلَى الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ وَهِيَ البَيَانُ بِاللِّسَانِ، فَإِذَا خِفْتَ مِنَ البَيَانِ بِاللِّسَانِ؛ تَنْتَقِلُ إِلَى الْمَرْتَبَةِ الثَّالِثَةِ، وَهَذِهِ لا أَحَدَ يَمْنَعُكَ مِنْهَا، لا أَحَدَ يَمْنَعُ مِنَ الإِنْكَارِ بِالقُلُوبِ؛ لأَنَّهُ لا يَعْلَمُ مَا فِي القُلُوبِ إِلاَّ اللهُ ﷻ.

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٣٣٦) من حديث ابن مسعود ﷺ، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (١٨٢٢).

[١٢٧] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: والتَّسْلِيْمُ عَلَى عِبادِ الله أَجْمَعِيْنَ.

الشَّرْحُ

مِنْ حَقِّ المُسْلِمِيْنَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ إِفْشَاءُ السَّلام فِيما بَيْنَهُمْ، قَالَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا**﴾ [النساء:٨٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ**﴾ [النور:٦١]، يَعْنِي يُسَلِّمُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ؛ لأَنَّ المُؤْمِنِيْنَ كَالنَّفْسِ الوَاحِدَةِ وَكَالجَسَدِ الوَاحِدِ، والسَّلامُ تَحِيَّةُ المُؤْمِنِيْنَ يَوْمَ يَلْقَونَ اللهَ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿**تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ**﴾ [الأحزاب:٤٤] يُسَلِّمُ اللهُ عَلَيْهِم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَيَسْمَعُونَ كَلامَهُ وتَسْلِيْمَهُ وَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ السَّلامُ فيَقُولُونَ: اللَّهُمَ أَنْتَ السَّلامُ وَمِنْكَ السَّلامُ. وَكَذَلِكَ أَهْلُ الجَنَّةِ تَحِيَّتُهُمْ فِيْها سَلامٌ فِيما بَيْنَهُمْ، فَيُحَيِّي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالسَّلامِ فِي الجَنَّةِ؛ وَكَذَلِكَ وهُمْ فِي الدُّنْيا يُحَيِّي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالسَّلامِ.

وَإِفْشَاءُ السَّلامِ مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ الجَنَّةِ بِسَلامٍ، كَما فِي الحَدِيثِ: «**أَنَّ مَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَفْشَى السَّلامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ والنَّاسُ نِيَامٌ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ بِسَلامٍ**»، فَإِفْشَاءُ السَّلام مَطْلُوبٌ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ، ومَعْنَاهُ: الدُّعَاءُ لِلْمُسْلِمِيْنَ بالسَّلامَةِ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ: أَنَّ اسْمَ اللهِ عَلَيْكُمْ؛ لأَنَّ مِنْ أَسْماءِ اللهِ السَّلامَ، فَإِذَا قُلْتَ: (السَّلامُ عَلَيْكُمْ) أي: اسْمُ اللهِ عَلَيْكَ، وَهُوَ السَّلامُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَهَذِهِ كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ تُنْشَرُ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَدخُلوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنوا، وَلا تُؤْمِنوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُم**»[1] فَإِفْشَاءُ السَّلامِ يُوْرِثُ المَحَبَّةَ فِي القُلُوبِ، وَأَنْتَ إِذَا لَقِيكَ مُسْلِمٌ وَلَمْ يُسَلِّمْ عَلَيْكَ، صَارَ فِي

---

(١) أخرجه مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

نَفْسِكَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، تَقُولُ: لِمَاذَا لَمْ يُسَلِّمْ عَلَيَّ؟ فَإِذَا سَلَّمَ عَلَيْكَ زَالَ مَا فِي نَفْسِكَ، وَاسْتَأْنَسْتَ بِهِ وَأَحْبَبْتَهُ، هَذَا مِصْدَاقُ قَوْلِهِ ﷺ: «**أَفَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُم**» فَإِفْشَاءُ السَّلامِ لَهُ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي نُفُوسِ الْمُسْلِمِيْنَ، وَلا يَكْفِي أنْ تَقُولَ: حَيَّاكَ اللهُ، كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ كَيْفَ أَمْسَيْتَ؟ هَذِهِ الأَلْفَاظُ تَابِعَةٌ لِلسَّلامِ، إِذَا قُلْتَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّكَ تَقُولُ: كَيْفَ حُالُكَ؟ كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ لا يَكْفِي الإِيْمَاءُ بِاليَدِ؛ لأَنَّ هَذِهِ تَحِيَّةُ اليَهُودِ، إِنَّمَا الإِيْمَاءُ بِاليَدِ إِذَا كَانَ الْمُسَلَّمُ عَلَيْهِ بَعِيدًا، فَأَنْتَ تُسَلِّمُ عَلَيْهِ بِاللَّفْظِ وَتُومِئُ بِيَدِكَ لِتُشْعِرَهُ أَنَّكَ تُسَلِّمُ عَلَيْهِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْكَ السَّلامَ.

***

[١٢٨] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَمَنْ تَرَكَ صَلاةَ الجُمُعَةِ وَالجَمَاعَةِ فِي المَسْجِدِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ، والعُذْرُ: كَمَرَضٍ لا طَاقَةَ لَهُ بِالخُرُوجِ إِلَى المَسْجِدِ، أَوْ خَوْفٍ مِنْ سُلْطَانٍ ظَالِمٍ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَلا عُذْرَ لَكَ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَمَنْ تَرَكَ صَلاةَ الجُمُعَةِ وَالجَمَاعَةِ فِي المَسْجِدِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ)؛ لأَنَّهُ مُعْتَزِلٌ عَنْ جَمَاعَةِ المُسْلِمِيْنَ، وَاعْتِزَالُ جَمَاعَةِ المُسْلِمِيْنَ والشُّذُوذُ بِدْعَةٌ، وَصَلاةُ الجَمَاعَةِ وَاجِبَةٌ وَفَرْضٌ عَلَى المُسْلِمِ؛ وَكَذَلِكَ آكَدُ مِنْ هَذَا صَلاةُ الجُمُعَةِ، فَيَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَحْضُرَ الجُمُعَةَ وَالجَمَاعَةَ مَعَ المُسْلِمِيْنَ، وَلا يَعْتَزِلَ عَنْ جَمَاعَةِ المُسْلِمِيْنَ فِي الصَّلاةِ فِي الجُمُعَةِ وَالجَمَاعَةِ؛ لأَنَّ الصَّلاةَ فِي الجَمَاعَةِ لا بُدَّ مِنْهَا؛ لأَنَّ صَلاةَ الجَمَاعَةِ وَاجِبَةٌ وَفَرْضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، ويَأْثَمُ مَنْ تَرَكَهَا، بَلْ يُؤَدَّبُ أَيْضًا؛ لأَنَّ الرَّسُول ﷺ قَالَ: «**مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَلَمْ يُجِبْ فَلا صَلاةَ لَهُ إِلاَّ مِنْ عُذْرٍ**» قِيْلَ: وَمَا العُذْرُ؟ قَالَ: «**خَوْفٌ أَوْ مَرَضٌ**».

وَلَـمَّا جَاءَ رَجُلٌ أَعْمَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَذْكُرُ لَهُ مَا بَيْنَهُ وبَيْنَ المَسْجِدِ مِنَ المَشَقَّةِ وَلَيسَ لَهُ قَائِدٌ يُلائِمُهُ، وَطَلَبَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُ أَنْ يُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ، قَالَ لَهُ ﷺ: «**هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ؟**» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «**فَأَجِبْ**»[١] فَالَّذِي يَسْمَعُ النِّدَاءَ لا يَسَعُهُ أَنْ يَتَخَلَّفَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «**مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَلَمْ يُجِبْ فَلا صَلاةَ لَهُ إِلاَّ مِنْ عُذْرٍ**» صَلاتُهُ غَيْرُ صَحِيْحَةٍ، فَالنَّفْيُ قِيلَ: إِنَّهُ نَفْيٌ لِلصِّحَّةِ، وَقِيلَ: «**لا صَلاةَ لَهُ**» يَعْنِي: لَيْسَ لَهُ صَلاةٌ كَامِلَةٌ، فَالنَّفْيُ لِلْكَمَالِ، وَلَكِنَّ ظَاهِرَ الحَدِيثِ أَنَّهُ لا تَصِحُّ صَلاتُهُ إِلاَّ إِذَا كَانَ لَهُ عُذْرٌ فَهَذَا دَلِيْلٌ عَلَى وُجُوبِ صَلاةِ الجَمَاعَةِ فِي المَسْجِدِ حَيْثُ يُنَادَى لَهَا؛ وَلِهَذَا يَقُولُ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَ غَدًا**

---

(١) أخرجه مسلم (٦٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ سُنَنَ الهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الهُدَى، وَلَو أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ؛ كَمَا يُصَلِّي هَذَا المُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَو تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ»[1] هَكَذَا كَانَ صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَعَ صَلاةِ الجَمَاعَةِ، حَتَّى المَرِيض الَّذِي لا يَسْتَطِيْعُ المَشْيَ يَأْتُونَ بِهِ يُهَادُونَهُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ صَلاةَ الجَمَاعَةِ وَاجِبَةٌ.

والنَّبِيُّ ﷺ وصَفَ المُتَخَلِّفِيْنَ عَنْ صَلاةِ الجَمَاعَةِ بِالنِّفَاقِ، قَالَ ﷺ: «**أَثْقَلُ الصَّلَوَاتِ عَلَى المُنَافِقِيْنَ: صَلاةُ العِشَاءِ، وَصَلاةُ الفَجْرِ**»، وَشَهِدَ اللهُ بِالإِيْمَانِ لِمَنْ يَعْمُرُ المَسَاجِدَ بِالصَّلاةِ قَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ**﴾ [التوبة:١٨].

فَصَلاةُ الجَمَاعَةِ أَمْرُهَا عَظِيْمٌ فَلا يُتَسَاهَلُ بِهَا، أَوْ يُلْتَفَتُ إِلَى مَنْ يُثَبِّطُ عَنْهَا، وَإِلَّا فَلِمَاذَا إِذًا بُنِيَتِ المَسَاجِدُ؟ لَوْ كَانَتْ صَلاةُ الجَمَاعَة لَيْسَتْ وَاجِبَةً، لِمَاذَا تُقَامُ المَسَاجِدُ وَيُنْفَقُ عَلَيْهَا وتُبْنَى بِنَفَقَاتٍ وَيُرَتَّبُ لَهَا الأَئِمَّةُ والمُؤَذِّنُونَ؟ هَلْ مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا سُنَّةٌ؟ لا، هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ صَلاةَ الجَمَاعَةِ وَاجِبَةٌ، لَمْ تُبْنَ المَسَاجِدُ مِنْ أَجْلِ سُنَّةٍ فَقَطْ، إِنَّمَا بُنِيَتَ لأَجْلِ وَاجِبٍ، فَيَجِبُ التَّنَبُّهُ لِهَذَا، وَلا يُلْتَفَتُ إِلَى هَذَيَانِ هَؤُلاءِ الَّذِيْنَ يأْخُذُونَ الأَقْوَالَ المُخَالِفَةَ لِلدَّلِيْلِ وَيَجْمَعُونَهَا وَيَقُولُونَ: هَذِهِ أَقْوَالُ العُلَمَاءِ، تَقُولُ: أَقْوَالُ العُلَمَاءِ تُخْطِئُ وَتُصِيبُ، فَالوَاجِبُ اتِّبَاعُ الدَّلِيْلِ لا اتِّبَاعُ أَقْوَالِ النَّاسِ.

قَوْلُهُ: **(وَمَنْ تَرَكَ صَلاةَ الجُمُعَةِ)** قَالَ ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ ثَلاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا طَبَعَ**

---

(١) أخرجه مسلم (٥١٤).

اللهُ عَلَى قَلْبِهِ»[١]، وَقَالَ ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الجُمُعَاتِ أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الغَافِلِيْنَ»[٢].

قَوْلُهُ: (والعُذْرُ: كَمَرَضٍ)؛ كَمَا فِي آخِرِ الحَدِيثَ قَالَ: «خَوْفٌ أَوْ مَرَضٌ» المَرَض الَّذِي يَعُوقُ الإِنْسانَ عَنِ الذَّهَابِ إِلَى المَسجِدِ أَوْ يَخْشَى مِنْ زِيَادَةِ المَرَضِ عَلَيْهِ، أَوِ التَّعَرُّض لِمُؤَثِّرٍ يَزِيدُ فِي مَرَضِهِ، أَوْ خَوْفٍ مِنْ عَدُوٍّ، أَوْ خَوْفٍ مِنْ سَبُعٍ، خَوْفٍ مُحَقَّقٍ وَلَيْسَ جُبْنًا، وَإِنَّمَا هُوَ خَوْفٌ مُحَقَّقٌ، فِي الطَّرِيْقِ يَعْتَرِضُهُ عَدُوٌّ أَوْ يَعْتَرِضُهُ سَبُعٌ يَفْتِكُ بِهِ، فَهَذَا لَهُ عُذْرٌ أَنْ يُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ، أَمَّا الآمِنُ وَالمُعَافَى فَلَيْسَ لَهُ عُذْرٌ.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٠٥٢)، والنسائي (١٣٦٩)، وأحمد (٣/ ٤٢٤)، وصححه الشيخ الألباني في «المشكاة» (١٣٧١).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٠).

[١٢٩] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَمَنْ صَلَّى خَلْفَ إِمَامٍ فَلَمْ يَقْتَدِ بِهِ فَلا صَلاةَ لَهُ.

[١٣٠] وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ بِاليَدِ وَاللِّسَانِ وَالقَلْبِ بِلا سَيفٍ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَمَنْ صَلَّى خَلْفَ إِمَامٍ فَلَمْ يَقْتَدِ بِهِ فَلا صَلاةَ لَهُ)؛ لأَنَّ هَذَا مُخَالِفٌ لِقَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ»[1]، وَالآنَ أَهْلُ الضَّلالِ وَالتَّكْفِيرِيُّونَ لا يُصَلُّونَ مَعَ المُسْلِمِينَ، وَإِنْ صَلَّوا فَهُمْ نَاوِوِينَ الانْفِرَادَ، وهَذِهِ مِنَ البِدَعِ المُحْدَثَةِ، فَأَنْتَ تُصَلِّي مَعَ المُسْلِمِينَ، وَتُحْسِنُ الظَّنَّ بِالمُسْلِمِينَ، فَلا تُسِيءِ الظَّنَّ بِأَئِمَّةِ المَسَاجِدِ.

قَوْلُهُ: (وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ بِاليَدِ وَاللِّسَانِ وَالقَلْبِ بِلا سَيفٍ) سَبَقَ بَيَانِ وُجُوبُ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ وَأَنَّهُ عَلَى حَسَبِ الاسْتِطَاعَةِ، لَكِنْ قَوْلُهُ: (بِلا سَيف) يَعْنِي: لا يَجُوزُ حَمْلُ السَّيْفِ عَلَى السُّلْطَانِ ويُقَالُ: هَذَا مِنَ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفٍ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ! هَذَا مَذْهَبُ الخَوَارِجِ وَالمُعْتَزِلَةِ يَخْرُجُونَ عَلَى السُّلْطَانِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ السُّلْطَان فَاسِقٌ، وَهَذَا مِنْ إِنْكَارِ المُنْكَرِ! وَهَذَا هُوَ المُنْكَرُ نَفْسُهُ، لأَنَّ الخُرُوجَ عَلَى وَلِيِّ الأَمْرِ هُوَ المُنْكَرُ نَفْسُهُ، لأَنَّهُ مَعْصِيَةٌ لِلرَّسُولِ، وَلِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الضَّرَرِ العَظِيْمِ مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ، واخْتِلالِ الأَمْنِ، وتَفَرُّق الكَلِمَةِ، مَفَاسِدُ عَظِيمَةٌ، أَشَدُّ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى مَعْصِيَتِهِ ومُخَالَفَتِهِ؛ لأَنَّ مَعْصِيَتَهَ ومُخَالَفَتَهُ ضَرَرُهَا عَلَيْهِ فَقَطْ، أَمَّا الخُرُوجُ عَلَيْهِ بِالسَّيْفِ فَهَذَا ضَرَرُهُ عَلَى المُسْلِمِينَ، وهَذَا مَذْهَبُ المُعْتَزِلَةِ، وَالخَوَارِجِ، فَإِنَّ أُصُولَ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٦)، ومسلم (٤١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

المُعْتَزِلَةِ:

أَوَّلًا: الأَمْرُ بالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ، وَيُرِيدُونَ بِذَلِكَ الخُرُوجَ عَلَى وُلاةِ الأُمُورِ، يَقُولُونَ: هَذَا مِنَ الأَمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْي عَنِ المُنْكَرِ.

ثَانِيًا: التَّوْحِيدُ، ومَعْنَاهُ: نفْيُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ؛ لأَنَّ إِثْبَاتَ الأَسْماءِ والصِّفَاتِ شِرْكٌ عِنْدَهُم.

ثَالِثًا: العَدْلُ، وَمَعْنَاهُ: نَفْيُ القَدَرِ، يَقُولُونَ: لَوْ عَذَّبَهُمْ اللهُ وَاللهُ قَدَّرَ عَلَيْهِم المَعْصِيَةَ يَكُونُ ظُلْمًا لَهُمْ.

رَابِعًا: المَنْزِلَةُ بَيْنَ المَنزِلَتَيْنِ، وَهِيَ أَنَّ مُرْتَكِبَ الكَبِيْرَةِ لا يُقالُ: إِنَّهُ كَافِرٌ، وَلا يُقالُ: إِنَّهُ مُسْلِمٌ، بِلْ هُوَ بِالمَنْزِلَةِ بَيْنَ المَنْزِلَتَيْنِ.

خَامِسًا: إِنْفَاذُ الوَعِيدِ، وَهُوَ تَكْفِيرُ مُرْتَكِبِ الكَبِيرَة الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ.

[١٣١] قَالَ المؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالمَسْتُورُ مِنَ المُسْلِمِيْنَ مَنْ لا يَظْهَرُ مِنْهُ رِيْبَةٌ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَالمَسْتُورُ مِنَ المُسْلِمِيْنَ مِنْ لا يَظْهَرُ مِنْهُ رِيْبَةٌ) الأَصْلُ فِي المُسْلِمِ العَدَالَةُ، وَلا تُسِئِ الظَّنَّ بِأَخِيكَ المُسْلِمِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحُجُرات:١٢]، وَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ -: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيث»[١] أَيْ: حَدِيْثِ النَّفْسِ، وَاسْتَعِذْ بِالله وأَحْسَنِ الظَّنَّ بِإِخْوَانِكَ المُسْلِمِيْنَ، فَإِذَا ثَبَتَ لَكَ أَنَّ هَذَا المُسْلِمَ عَلَيْهِ مُلاحَظَةٌ، فَإِنَّكَ تُنَاصِحُهُ سِرًّا وَتَسْتُرُ عَلَيْهِ، قَالَ ﷺ: «وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»[٢] وَلا تَفْضَحْهُ وَتُشَهر بِهِ فِي المَجَالِسِ، بَلْ عَلَيْكَ أَنْ تُنَاصِحَهُ سِرًّا مَعَ السَّتْرِ عَلَيْهِ.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٤٩)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٣١٠)، ومسلم (٢٥٨٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

[١٣٢] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَكُلُّ عَلْمِ ادَّعَاهُ العِبَادُ مِنْ عِلْمِ البَاطِنِ لَمْ يُوجَدْ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ، فَهُوَ بِدْعَةٌ وضَلالَةٌ، وَلا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أن يَعْمَلَ بِهِ، وَلا يَدْعُو إِلَيْهِ.

الشَّرْحُ

عِلْمُ البَاطِنِ عِنْدَ البَاطِنِيَّةِ مِنَ الإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ الَّذِيْنَ يَقُولُونَ: إنَّ لِلنُّصُوصِ ظَاهِرًا وَباطِنًا، البَاطِنُ لا يَعْرِفُهُ إِلاَّ خَوَاصُّهُمْ، وَأَمَّا الظَّاهِرُ فَهَذَا عِنْدَ العَامَّةِ، يَقُولُونَ: المُرَادُ بِالصَّلاةِ الدُّعَاءُ، فَمَنْ دَعَا فَقَدْ صَلَّى، لَيْسَ المُرَادُ الصَّلَوَاتِ الخَمْس وَصَلاةَ النَّافِلَةِ، وَيَقُولُونَ: المُرَادُ بالزَّكَاةِ طَهَارَةُ النَّفْسِ وَتَنْقِيَةُ النَّفْسِ وَلَيْسَ المرادُ زَكَاةَ المَالِ، وَيَقُولُونَ: المُرَادُ بالصِّيَام كَتْمُ أَسْرَارِهِمْ وَمَذْهَبِهِمْ، وَلِذَلِكَ هُمْ يُسَمَّوْنَ بِالمُنَظَّمَاتِ السِّرِّيَّةِ، وَيَقُولُونَ: الحَجُّ مَعْنَاهُ الذَّهَابُ إِلَى مَشَايِخِهِمْ، وَلَيْسَ المُرَادُ الذَّهَابَ إِلَى بَيْتِ اللهِ لِلحَجِّ وَالعُمْرَةِ.

قَوْلُهُ: (وهو بِدْعَةٌ وضَلالَةٌ) أَي: القَوْلُ بِعِلْمِ البَاطِنِ بِدْعَةٌ فِي الدِّينِ، وَضَلالَةٌ عَنِ الحَقِّ، والعِلْمُ لا يَحْصُلُ إِلاَّ بِالتَّعَلُّمِ عَلَى العُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّيْنَ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:

وَالجَهْلُ دَاءٌ قَاتِلٌ وَشِفَاؤُهُ	**أَمْرَانِ فِي التَّرْكِيبِ مُتَّفِقَانِ**
نَصٌّ مِنَ القُرآنِ أَوْ مِنْ سُنَّةٍ	**وَطَبِيبُ ذَاكَ العَالِمُ الرَّبَّانِي**

هَذَا هُوَ العِلْمُ، لَيْسَ العِلْمُ بِالذَّوقِ وَالإِلْهَامِ، وَلا عِلْمِ البَاطِنِ الَّذِي عِنْدَ البَاطِنِيَّةِ، إِنَّمَا العِلْمُ مَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَا قَالَهُ صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، هَذَا هُوَ العِلْمُ، وَمَا خَرَجَ عَنْ ذَلِكَ فَهُوَ جَهْلٌ وَضَلالٌ وَلَيْسَ عِلْمًا وَلا هُدًى.

قَوْلُهُ: (وَلا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ، وَلا يَدْعُو إِلَيْهِ) بَلْ يَجِبُ الحَذَرُ مِنْ

هَذَا، لأَنَّهُ مِنْ نَزَغَاتِ الصُّوفِيَّةِ وَشَطَحَاتِهِم، الَّذِيْنَ يَرَوْنَ أنَّ العِلْمَ لَيْسَ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ، إِنَّمَا هَذَا لِلعَوَامِّ والَّذِيْنَ لا يَعْرِفُونَ، وَيُسَمُّونَ هَذَا عِلْمَ الشَّرِيعَةِ، أَمَّا العَارِفُونَ بِالله، فَهُمْ أَهْلُ عِلْمِ الحَقِيْقَةِ.

[١٣٣] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ فَإِنَّهَا لا تَحِلُّ لَهُ، يُعَاقَبَانِ إِنْ نَالَ مِنْهَا شَيْئًا، إِلاَّ بِوَلِيٍّ وَشَاهِدَيْ عَدْلٍ وَصَدَاقٍ.

الشَّرْح

النِّكَاحُ لا يَصِحُّ إِلاَّ بشُرُوطٍ:

مِنْهَا: الوَلِيُّ، الَّذِي يَعْقِدُ لَهَا، وَهُوَ القَرِيْبُ مِنْ عَصَبَاتِهَا، قَالَ ﷺ: «**لا نِكَاحَ إِلاَّ بِوَلِيٍّ وَشَاهِدَيْ عَدْلٍ**»[١]، فَلا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَعْقِدَ لِنَفْسِهَا، بَلْ لا بُدَّ أَنْ يَعْقِدَ لَهَا وَلِيُّهَا، فَإِنْ عَقَدَتْ لِنَفْسِهَا فَعَقْدُهَا فَاسِدٌ، وَهَذَا مَذْهَبُ جُمْهُورِ أَهْلِ العِلْمِ، وَعِنْدَ الحَنَفِيَّةِ أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أن تَعْقِدَ لِنَفْسِهَا فَلا يَشْتَرِطُونَ الوَلِيَّ، لَكِنْ هَذَا مَذْهَبٌ مُخَالِفٌ لِلدَّلِيْلِ، وَلِمَا عَلَيْهِ أَكْثَرُ أَهْلِ العِلْمِ؛ وَلأَنَّ المَرْأَةَ قَاصِرَةٌ فرُبَّمَا تَعْلَقُ بِرَجُلٍ لا يَصْلُحَ لَهَا، وَلا يَصْلُحُ لأُسْرَتِهَا؛ لأَنَّهَا صَاحِبَةُ عَاطِفَةٍ وَنَظْرَةٍ عَاجِلَةٍ، وَلِذَلِكَ رُدَّ الأَمْرُ إِلَى الوَلِيِّ، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - خَاطَبَ الرِّجَالَ بِالنِّكَاحِ قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ**﴾ [النور:٣٢] هَذَا خِطَابٌ لِلرِّجَالِ، فَأَمَرَ الرِّجَالَ بِإِنْكَاحِ الأَيَامَى يَعْنِي الَّذِيْنَ لَيْسَ لَهُمْ أَزْوَاجٌ، والحَدِيثُ: «**لا نِكَاحَ إِلاَّ بولِيٍّ وَشَاهِدَي عَدْلٍ**»، وَفِي حَدِيْث: «**أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَكَحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهَا فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ، بَاطِلٌ، بَاطِلٌ**»[٢] ثَلاثَ مَرَّاتٍ، الوَلِيُّ يَكُونُ مَانِعًا حَصِينًا لَهَا مِنَ التَّلاعُبِ، وَقَالَ ﷺ: «**إِذَا أَتَاكُمْ**» الخِطَابُ للأَوْلِيَاءِ «**مَنْ تَرْضَوْنَ دِيْنَهُ وَأَمَانَتَهُ فَزَوِّجُوهُ**»[٣]، وَاللهُ نَهَى عَنِ العَضْلِ: أَنْ يَمْنَعَ الوَلِيُّ مُوْلِيَتَهُ مِنْ كُفْءٍ رَضِيَتْ بِهِ، وَلا يَكْفِي أَنْ تَرْضَى بِهِ، لَكِنْ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ كُفْأً أَيْضًا، لا بُدَّ مِنَ الأَمْرَيْنِ: أَنْ يَكُونَ كُفْأً وَأَنْ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) حسن: أخرجه الترمذي (١٠٨٤) وصححه الشيخ الألباني في «المشكاة» (٣٠٩٠).

تَرْضَى بِهِ، والكَفَاءَةُ لا يَعْرِفُهَا إلاَّ الرِّجَالُ، أَهْلُ العُقُولِ، لا تَعْرِفُهَا النِّسَاءُ صَاحِبَاتُ العَوَاطِفِ وَالنُّفُوسِ الضَّعِيفَةِ.

قَوْلُهُ: (**وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ**) هِبَةُ المَرْأَةِ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ هَذَا خَاصٌّ بالرَّسُولِ ﷺ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأحزاب: ٥٠]؛ لأَنَّ الرَّسُولَ وَلِيٌّ لِلأُمَّةِ.

قَوْلُهُ: (**يُعَاقَبَانِ إِنْ نَالَ مِنْهَا شَيْئًا**) فَإِنْ تَزَوَّجَتْهُ بِدُونِ إِذْنِ وَلِيِّهَا فَإِنَّهُ يُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا ويُعَاقَبَانِ عَلَى ذَلِكَ؛ لأَنَّ هَذَا العَقْدَ فَاسِدٌ.

[١٣٤] قَالَ المُؤَلِّفُ ﵀: وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَطْعَنُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ و﵃، فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ هَوًى وَصَاحِبُ قَوْلِ سُوءٍ؛ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا»[١] فَقَدْ عَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ مِنَ الزَّلَلِ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَلَمْ يَقُلْ فِيهِم إِلاَّ خَيْرًا، وَقَوْلُهُ: «ذَرُوا أَصْحَابِي، لا تَقُولُوا فِيهِم إِلاَّ خَيْرًا» وَلا تُحَدِّثْ بِشَيْءٍ مِنْ زَلَلِهِمْ، وَلا حَرْبِهِمْ، وَلا مَا غَابَ عَنْكَ عِلْمُهُ، وَلا تَسْمَعْهُ مِنْ أَحَدٍ يُحَدِّثُ بِهِ، فَإِنَّهُ لا يَسْلَمُ لَكَ قَلْبُكَ إِنْ سَمِعْتَ.

الشَّرْحُ

مِنْ عَلامَاتِ أَهْلِ الضَّلالِ، وَأَهْلِ النِّفَاقِ أَنَّهُمْ يَطْعَنُونَ فِي أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لأَنَّهُمْ يُبْغِضُونَهُمْ، وَمَنْ يُبْغِضُهُمْ فَهُوَ مُنَافِقٌ يُظْهِرُ الإِيمَانَ وَيُبْطِنُ الكُفْرَ؛ لأَنَّ حُبَّهُمْ إِيمَانٌ وَبُغْضَهُمْ نِفَاقٌ، كَمَا فِي الحَدِيثِ؛ لأَنَّهُمْ صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ أَوْصَى بِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ خَيْرًا وَنَهَى عَنْ مَسَبَّتِهِمْ، فَهُمُ الَّذِيْنَ نَاصَرُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَهَاجَرُوا مَعَهُ، وَنَاصَرُوهُ وَآوَوْهُ، الَّذِيْنَ هَاجَرُوا هُمُ المُهَاجِرُونَ، وَالَّذِيْنَ آوَوْا وَنَصَرُوا هُمُ الأَنْصَارُ، وَلا بُدَّ مِنْ حُبِّهِمْ جَمِيعًا وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِم وَالاقْتِدَاءِ بِهِمْ، فَالَّذِي يَطْعَنُ فِيهِم وَيَتَنَقَّصُهُمْ هَذَا دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّهُ لا يُحِبُّ الرَّسُولَ ﷺ؛ لأَنَّهُ لَوْ كَانَ يُحِبُّ الرَّسُولَ لأَحَبَّ الصَّحَابَةَ، فَمَا أَبْغَضَهُمْ إِلاَّ مَنْ أَبْغَضَ الرَّسُولَ ﷺ، وَمَنْ أَبْغَضَ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ كَافِرًا.

قَوْلُهُ: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ هَوًى وَصَاحِبُ قَوْلِ سُوءٍ) أَيْ: مَنْ يَسُبُّ الصَّحَابَةَ صَاحِبُ هَوىً يَتَّبِعُ هَوَاهُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]، وَصَاحِبُ بِدْعَةٍ، وَصَاحِبُ نِفَاقٍ، فَكُلُّ شَرٍّ فِيهِ.

---

(١) سبق تخريجه.

قَوْلُهُ ﷺ: («إذا ذُكر أَصْحَابي فَأَمْسِكُوا») الوَاجِبُ السُّكُوتُ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ وَعَدَمُ الكَلامِ فِيْهِم إِلاَّ بِالخَيْرِ، والثَّنَاءُ عَلَيْهِم، وَعَدَمُ الدُّخُولِ فِي شُئُونِهِمْ.

قَوْلُهُ: (فَقَدْ عَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ مِنَ الزَّلَلِ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَلَمْ يَقُلْ فِيْهِم إِلاَّ خَيْرًا) العِصْمَةُ بِالنِّسْبَةِ لِلصَّحَابَةِ لإِجْمَاعِهِمْ، فَإِذَا أَجْمَعُوا فإِجْمَاعُهُمْ مَعْصُومٌ، وَإِجْمَاعُهُمْ حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ، وَأَمَّا إِذَا اخْتَلَفُوا فَهَذَا يُنْظَرُ إِلَى مَنْ مَعَهُ الدَّلِيْلُ مِنْهُمْ؛ كغَيْرِهِمْ، وَلَيْسُوا مَعْصُومِيْنَ مِنَ الخَطَإِ بِالنِّسْبَةِ لأَفْرَادِهِمْ، فَقَدْ يَحْصُلُ مِنْهُمْ بَعْضُ الخَطَإِ، وَلَكِنَّ اللهَ غَفَرَ لَهُمْ، وَخَصَّهُمْ بِالصُّحْبَةِ، فَلَهُمْ فَضَائِلُ تُغَطِّي مَا قَدْ يَصْدُرُ مِنْ بَعْضِهِمْ مِنَ الخَطَإِ، وَذَلِكَ لأُمُورٍ:

أَوَّلًا: لأَنَّهُ مُجْتَهِدٌ لَمْ يَقْصِدِ الخَطَأَ، إِنَّمَا اجْتَهَدَ وَلَمْ يُصِبِ الحَقَّ، فَهُوَ مَأْجُورٌ وَمَغْفُورٌ لَهُ خَطَؤُهُ.

وَثَانِيًا: أَنَّ لَهُمْ مِنَ الفَضَائِلِ مَا يُغَطِّي مَا قَدْ يَحْصُلُ مِنْ بَعْضِهِمْ مِنَ الأَخْطَاءِ؛ لأَنَّ اللهَ رضي عنهم، وَاطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]، وقال: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة:١١٧]، هَذِهِ عَامَّةٌ، فَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٥]، هُمْ مَغْفُورٌ لَهُمْ، فَهُمْ لا مَطْعَنَ فِيْهِم أَبَدًا، (قَدْ علم النَّبِيُّ ﷺ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ مِنَ الزَّلَلِ بَعْدَ مَوْتِهِ) النَّبِيُّ ﷺ لا يَعْلَمُ الغَيْبَ إِلاَّ مَا أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَقَوْلُ المُؤَلِّفِ: (قَدْ عَلِمَ) يَعْنِي بِمَا عَلَّمَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ وَمَا أَطْلَعَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «فَإِنَّهُ مِنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيْرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّيْنَ مِنْ

بَعْدِي»[(١)].

أَخْبَرَهُ اللهُ أَنَّهُ سَيَقَعُ اخْتِلافٌ، فَأَوْصَاهُمْ بِمَا يَصْنَعُونَ عِنْدَ الاخْتِلافِ، وَكَانُوا كَذَلِكَ، كَانَ الصَّحَابَةُ إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ رَجَعُوا إِلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَأَنْهَوا اخْتِلافَهُمْ وَرَجَعُوا إِلَى الحَقِّ (**فَلَمْ يَقُلْ فِيهِم إِلاَّ خَيْرًا**) النَّبِيُّ ﷺ أَثْنَى عَلَيْهِم، مَعَ مَا أَطْلَعَهُ عَلَى مَا يَحْصُلُ فِيهِمْ بَعْدَهُ.

قَوْلُهُ ﷺ: («**ذَرُوا أَصْحَابِي، لا تَقُولُوا فِيهِم إِلاَّ خَيْرًا**») ذَرُوا: يَعْنِي اتْرُكُوا أَصْحَابِي مِنَ الكَلامِ فِيهِم لا تَقُولُوا فِيهِم إِلاَّ خَيْرًا، وَأَصَحُّ مِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ: «**لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ**» فَالعَمَلُ القَلِيلُ مِنْ آحَادِهِمْ خَيْرٌ مِنَ العَمَلِ العَظِيمِ مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ؛ لِسَابِقَتِهِمْ بِالإِسْلامِ.

قَوْلُهُ: (**وَلا تُحَدِّثْ بِشَيْءٍ مِنْ زَلَلِهِمْ، وَلا حَرْبِهِمْ**) لا تَتَحَدَّثْ بِمَا جَرى بينهم إِلاَّ عَلَى وَجْهِ الاعْتِذَارِ عَنْهُم.

قَوْلُهُ: (**وَلا تَسْمَعْهُ مِنْ أَحَدٍ يُحَدِّثُ بِهِ، فَإِنَّهُ لا يَسْلَمُ لَكَ قَلْبُكَ إِنْ سَمِعْتَ**) لا تَسْتَمِع لِلَّذِينِ يَتَكَلَّمُونَ فِي الصَّحَابَةِ فِي المَجَالِسِ، أَوْ فِي الدُّرُوسِ، أَوْ فِي أَيِّ مَجَالٍ، وَلا تَحْضُرْ هَذِهِ المَجَالِسَ وَلا تَسْتَمِرَّ فِي سَمَاعِهَا، بَلِ اقْطَعْهَا وَابْتَعِدْ عَنْهَا؛ لِئَلَّا يَدْخُلَ شَيْءٌ قَلْبَكَ فَتَحْقِدَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ وَتُبْغِضَهُمْ فَتَهْلِكَ.

---

(١) سبق تخريجه.

[١٣٥] وَإِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَطْعَنُ عَلَى الآثارِ أَوْ يَرُدُّ الآثَار أَوْ يُرِيدُ غَيْرَ الآثَارِ فَاتَّهِمْهُ عَلَى الإِسْلامِ، وَلا تَشُكَّ أَنَّهُ صَاحِبُ هَوًى مُبْتَدِعٌ.

[١٣٦] وَاعْلَمْ أَنَّ جَوْرَ السُّلْطَانِ لا يُنْقِصُ فَرِيْضَةً مِنْ فَرَائِضِ الله الَّتِي افْتَرَضَهَا عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ، جَوْرُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَتَطَوُّعُكَ وَبِرُّكَ مَعَهُ تَامٌّ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، يَعْنِي الجَمَاعَةَ وَالجُمُعَةَ مَعَهُم، والجِهَادَ مَعَهُم، وَكُلَّ شَيْءٍ مِنَ الطَّاعَاتِ فَشَارِكْهُمْ فِيهِ فَلَكَ نِيَّتُكَ.

الشَّرْحُ

هَذاسَبَقَ بَيَانُهُ وَشَرْحُهُ فَلا حَاجَةَ لإِعَادَتِهِ.

[١٣٧] قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَدْعُو عَلَى السُّلْطَانِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ هَوًى، وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَدْعُو لِلسُّلْطَانِ بِالصَّلاحِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ إِنْ شَاءَ اللهُ؛ لِقَوْلِ الفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ: «لَوْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ مَا جَعَلْتُهَا إِلاَّ فِي السُّلْطَانِ».

قِيْلَ لَهُ: يَاأَبَا عَلِيٍّ، فَسِّرْ لَنَا هَذَا، قَالَ: «إِذَا جَعَلْتُهَا فِي نَفْسِي لَمْ تَعْدُنِي، وَإِذَا جَعَلْتُهَا فِي السُّلْطَانِ صَلَحَ، فَصَلَحَ بِصَلاحِهِ العِبَادُ وَالبِلادُ».

فَأُمِرْنَا أَنْ نَدْعُوَ لَهُمْ بِالصَّلاحِ، وَلَمْ نُؤْمَرْ أَنْ نَدْعُوَ عَلَيْهِم وَإِنْ جَارُوا وَظَلَمُوا؛ لأَنَّ ظُلْمَهُمْ وَجَوْرَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَصَلاحَهُم لأَنْفُسِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِيْنَ.

الشَّرْحُ

هَذِهِ العِبَارَةُ مَأْثُورَةٌ عَنِ السَّلَفِ (وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَدْعُو عَلَى السُّلْطَانِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ هَوًى) هَذِهِ نَزْعَةٌ خَارِجِيَّةٌ، وَنَزْعَةٌ اعْتِزَالِيَّةٌ؛ لأَنَّ الخَوَارِجَ والمُعْتَزِلَةَ هُمُ الَّذِيْنَ يَدْعُونَ عَلَى وُلاةِ أُمُورِ المُسْلِمِيْنَ، وَالوَاجِبُ العَكْسُ أَنْ يَدْعُوا لَهُمْ بِالصَّلاحِ وَالتَّوْفِيْقِ؛ لأَنَّ صَلاحَهُمْ صَلاحٌ لِلإِسْلامِ وَالمُسْلِمِيْنَ، فَأَنْتَ إِذَا دَعَوْتَ لَهُمْ فَإِنَّكَ تَدْعُو لِلْمُسْلِمِيْنَ؛ لأَنَّ صَلاحَ الوَالِي صَلاحٌ لِلرَّعِيَّةِ، فَهَذَا مَنْهَجُ السَّلَفِ: الدُّعَاءُ لِوُلاةِ الأُمُورِ بِالصَّلاحِ.

قَوْلُهُ: (وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَدْعُو لِلسُّلْطَانِ بِالصَّلاحِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ إِنْ شَاءَ اللهُ)، إِذَا رَأَيْتَهُ يَدْعُو لَهُمْ بَالصَّلاحِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ؛ لأَنَّ هَذَا هَدْيُ السَّلَفِ مَعَ وُلاةِ الأُمُورِ.

قَوْلُهُ: (لِقَوْلِ الفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ) الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ رحمه الله مِنْ أَكَابِرِ العُلَمَاءِ

وَالعُبَّادِ وَالزُّهَّادِ؛ يَقُولُ هَذِهِ العِبَارَةِ: (**لَوْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ مَا جَعَلْتُهَا إِلاَّ فِي السُّلْطَانِ**) هَذَا مِنَ النُّصْحِ، عَمَلًا بِقَوْلِهِ ﷺ: «**الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ**». قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لله ولكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ ولأَئِمَّةِ المُسْلِمِيْنَ وَعَامَّتِهِمْ**»[1] ومِنَ النَّصِيْحَةِ لأَئِمَّةِ المُسْلِمِيْنَ الدُّعَاءُ لَهُمْ بِالصَّلاحِ، وَمِنَ الغِشِّ لَهُمْ: الدُّعَاءُ عَلَيْهِم.

قَوْلُهُ: (**فَأُمِرْنَا أَنْ نَدْعُوَ لَـهُمْ بِالصَّلاحُ، وَلَمْ نُؤْمَرْ أَنْ نَدْعُوَ عَلَيْهِم وَإِنْ جَارُوا وَظَلَمُوا**) لأَنَّ الدُّعَاءَ عَلَيْهِم دُعَاءٌ عَلَى المُسْلِمِيْنَ، لأَنَّهُ إِذَا انْحَلَّ الأَمْرُ وَسَقَطَ السُّلْطَانُ فَإِنَّهُ تُسْفَكُ الدِّمَاءُ وَيَخْتَلُّ الأَمْنُ وَيَنْتَشِرُ الفَسَادُ، وَتُعَطَّلُ الحُدُودُ، فَفِي سُقُوطِهِ مَفَاسِدُ، وَفِي وَقْتِنَا الآنَ صَارَ مَنْ يَدْعُو لِلسُّلْطَانِ مُتَّهَمًا بِالمُدَاهَنَةِ عِنْدَ أَصْحَابِ الأَهْوَاءِ مِنَ الحِزْبِّيِينَ وأَتْبَاعِ الخَوَارِجِ، فَيَنْطَبِقُ عَلَيْهِم قَوْلُ المُؤَلِّفِ أَنَّهُمْ مُخَالِفُونَ للسُّنَّةِ وأَصْحَابُ أَهْوَاءٍ فَلْيُتَنَبَّهْ لِهَذَا.

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

[١٣٨] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَلا تَذْكُرْ أَحَدً مِنْ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِيْنَ - رضي الله عنهن - إِلاَّ بِخَيْرٍ.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (وَلا تَذْكُرْ أَحَدًا مِنْ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِيْنَ إِلاَّ بِخَيْرٍ) أُمَّهَاتُ المُؤْمِنِيْنَ: زَوْجَاتُ النَّبِيِّ ﷺ، وَاللهُ هُوَ الَّذِي سَمَّاهُنَّ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِيْنَ فِي قَوْلِهِ - سُبْحَانَهُ -: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦]، وَالمُرَادُ أُمَّهَاتُهُمْ فِي القَدْرِ وَالاحْتِرَامِ، وَحُرْمَةِ نِكَاحِهِنَّ بَعْدَ الرَّسُولِ ﷺ، وَلَسْنَ أُمَّهَاتِهِمْ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّمَا فِي القَدْرِ وَالاحْتِرَامِ، لَهُنَّ حَقُّ الأُمَّهَاتِ عَلَى المُسْلِمِيْنَ؛ لأَنَّهُنَّ زَوْجَاتُ النَّبِيِّ ﷺ، فَتَجِبُ مَحَبَّتُهُنَّ وَاحْتِرَامُهُنَّ وَعَدَمُ تَنَقُّصِ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ مَذْهَبِ الرَّافِضَةِ الَّذِيْنَ يَتَنَقَّصُونَ بَعْضَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهَذَا فِيهِ اتِّهَامٌ للهِ أَنَّهُ اخْتَارَ لِنَبِيِّهِ مَنْ لا تَصْلُحُ لَهُ، واتِّهَامٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ اخْتَارَ أُمًّا لِلْمُؤْمِنِيْنَ وَهِيَ لا تَصْلُحُ، وَهَذَا كُفْرٌ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

[١٣٩] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَتَعَاهَدُ الفَرَائِضَ فِي جَمَاعَةٍ مَعَ السُّلْطَانِ وَغَيْرِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَتَهَاوَنُ بِالفَرَائِضِ فِي جَمَاعَةٍ وَإِنْ كَانَ مَعَ السُّلْطَانِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ هَوًى.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَتَعَاهَدُ الفَرَائِضَ فِي جَمَاعَةٍ مَعَ السُّلْطَانِ وَغَيْرِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى) أَيْ: إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يُحَافِظُ عَلَى صَلاةِ الجَمَاعَةِ مَعَ السُّلْطَانِ وَمَعَ غَيْرِهِ، فَهَذَا دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَمِنْ أَهْلِ الإِيْمَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة:١٨] وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الَّذِي يَتَعَلَّقُ قَلْبُهُ بِالمَسَاجِدِ أَنَّهُ مِنَ السَّبْعَةِ الَّذِيْنَ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، فَقَالَ: «وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسَاجِدِ»، فَارْتِيَادُ المَسَاجِدِ لأَدَاءِ صَلاةِ الجَمَاعَةِ عَلامَةُ الإِيْمَانِ وَعَلامَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَالَّذِي يَعْتَزِلُ الصَّلاةَ مَعَ المُسْلِمِيْنَ، وَيَرَى أَنَّ المُسْلِمِيْنَ لَيْسُوا عَلَى حَقٍّ، وأَنَّهَا لا تَصِحُّ الصَّلاةُ مَعَهُمْ، هَذَا لا شَكَّ أَنَّهُ مُفَارِقٌ لِجَمَاعَةِ المُسْلِمِيْنَ وَمُشَاقٌّ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُسْلِمِيْنَ؛ وَلِذَلِكَ تَجِدُونَ أَهْلَ الأَفْكَارِ المُنْحَرِفَةِ لا يَقْرَبُونَ المَسَاجِدَ وَلا يُصَلُّونَ مَعَ المُسْلِمِيْنَ، بَلْ بَعْضُهُمْ يَحْكُمُ بِبُطْلانِ صَلاةِ المُسْلِمِيْنَ، فَهَذِهِ عَلامَةُ الشَّرِّ، وَعَلامَةُ الانْحِرَافِ وفَسَادِ العَقِيدَةِ وَالانْشِقَاقِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]، فَالوَاجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ مَعَ المُسْلِمِيْنَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، المُسْلِمُ يَكُونُ مَعَ المُسْلِمِيْنَ، وَلا يَنْعَزِلُ وَيَنْفَرِدُ، وَيَكُونُ مَعَ جَمَاعَةٍ يَنْحَازُونَ وَيُصْبِحُونَ

مُنْعَزِلِيْنَ عَنِ الْمُسْلِمِيْنَ، فهَذِهِ عَلامَةُ الهَوَى والشَّرِّ وَفَسَادِ الفِكْرِ وَالانْحِرَافِ.

قَوْلُهُ: (**وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَتَهَاوَنُ بِالفَرَائِضِ فِي جَمَاعَةٍ وَإِنْ كَانَ مَعَ السُّلْطَانِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ هَوًى**) إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَتْرُكُ صَلاةَ الجَمَاعَةِ:

فَإِنْ كَانَ يَتْرُكُهَا مَعَ السُّلْطَانِ فَهُوَ صَاحِبُ هَوًى وَهُوَ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ أَوِ الخَوَارِجِ الَّذِيْنَ يُكَفِّرُونَ وُلاةَ الْمُسْلِمِيْنَ بِالمَعْصِيَةِ.

أَمَّا إِذَا كَانَ يَعْتَزِلُ الجَمَاعَةَ مَعَ غَيْرِ السُّلْطَانِ فَهَذَا مُنَافِقٌ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَثْقَلُ الصَّلَوَاتِ عَلَى الْمُنَافِقِيْنَ: صَلاةُ العِشَاءِ، وَصَلاةُ الفَجْرِ**»[1] فَعَدَّ التَّخَلُّفَ عَنِ الصَّلاةِ نِفَاقًا، حَتَّى قَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «**وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ**»، فَالَّذِي يَتَخَلَّفُ عَنْ صَلاةِ الجَمَاعَةِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ، هَذَا دَلِيْلٌ عَلَى نِفَاقِهِ؛ لأَنَّ الْمُنَافِقِيْنَ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الصَّلاةِ خُصُوصًا بِاللَّيْلِ؛ لأَنَّ اللَّيْلَ لا يَرَاهُمْ فِيهِ أَحَدٌ، أَمَّا بِالنَّهَارِ فَيَحْضُرُونَ؛ لأَنَّ النَّاسَ يَرَوْنَهُمْ، وَهُمْ يُرَاؤُونَ بِأَعْمَالِهِمْ وَيُنَافِقُونَ.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٢٩)، ومسلم (١٠٣١).

[١٤٠] قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: والحَلالُ مَا شَهِدْتَ عَلَيْهِ وَحَلَفْتَ عَلَيْهِ أَنَّهُ حَلالٌ؛ وَكَذَلِكَ الحَرَامُ، وَمَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ فَهُوَ شُبْهَةٌ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (والحَلالُ مَا شَهِدْتَ عَلَيْهِ وَحَلَفْتَ عَلَيْهِ أَنَّهُ حَلالٌ) قَالَ ﷺ: «إِنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَ ذَلِكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهاتٌ»[١] هُنَاكَ حَلالٌ لا شَكَّ فِيهِ، وهُنَاكَ حَرَامٌ لا شَكَّ فِيهِ، وهُنَاكَ قِسْمٌ ثَالِثٌ مُشْتَبِهٌ لا يُدْرَى هَلْ هُوَ حَلالٌ أَمْ حَرَامٌ؟ وَهَذَا لا يَعْرِفُهُ إِلاَّ العُلَمَاءُ، وأَكْثَرُ النَّاسِ لا يَعْرِفُونَهُ، فَهَذَا حَقُّهُ أَنْ تَتَوَقَّفَ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَ مِنْ أَيِّ قِسْمٍ هُوَ، فَالحَلالُ تَأْخُذُهُ، والحَرَامُ تَتَجَنَّبُهُ، قَالَ ﷺ: «الإِثْمُ مَا حَاكَ فِي القَلْبِ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»[٢] فَهَذَا تَجِدُ نَفْسَكَ لا تَطْمَئِنُّ لَهُ، وَعَدَمُ اطْمِئْنَانِ نَفْسِكَ لَهُ دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّهُ فِيهِ شُبْهَةٌ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَتْرُكَهُ، (والحَلالُ مَا شَهِدْتَ عَلَيْهِ وَحَلَفْتَ عَلَيْهِ أَنَّهُ حَلالٌ) أَي: اطْمَأَنَنْتَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يُسَاوِرْكَ شَكٌّ فِيهِ، حَتَّى إِنَّكَ تَحْلِفُ عَلَيْهِ أَنَّهُ حَلالٌ؛ لأَنَّهُ بَيِّنٌ؛ كَمَا قَالَ ﷺ: «الحَلالُ بَيِّنٌ».

قَوْلُهُ: (وَكَذَلِكَ الحَرَامُ) الحَرَامُ أَيْضًا بَيِّنٌ مِمَّا نُصَّ عَلَى تَحْرِيْمِهِ؛ كالمَيْتَةِ وَالخَمْرِ وَلَحْمِ الخِنْزِيرِ، هَذَا حَرَامٌ بَيِّنٌ؛ لأَنَّ اللهَ حَرَّمَهُ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) حسن: أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٨) وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٣٤).

[١٤١] قَالَ المُؤَلِّفُ ﷺ: وَالمَسْتَورُ مَنْ بَانَ سِتْرُهُ، والمَهْتُوكُ مَنْ بَانَ هِتْكُهُ.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (وَالمَسْتَورُ مَنْ بَانَ سِتْرُهُ، والمَهْتُوكُ مَنْ بَانَ هِتْكُهُ) الأَصْلُ فِي المُسْلِمِ العَدَالَةُ والخَيْرُ فَلا تُسِئ بِهِ الظَّنَّ؛ لِهَذَا قَالَ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِيَّاكُم والظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ»[١] فَلا تَظُنَّ بِمُسْلِمٍ إِلاَّ خَيْرا مَا لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ خِلافُ ذَلِكَ، وَإِذَا عَثَرْتَ لَهُ عَلَى خَطَإٍ فعَلَيْكَ بِالسَّتْرِ، «مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة»[٢]، لَكِنْ مَعَ النَّصِيْحَةِ، تَسْتُرُ عَلَيْهِ وَلا تَفْضَحْهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:١٩].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح: سبق تخريجه.

[١٤٢] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَإِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يقُولُ: فَلانٌ نَاصِبيٌّ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ رَافِضِيٌّ وَإِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَقُولُ: فُلانٌ مُشَبِّهٌ، أَوْ فُلانٌ يَتكَلَّمُ بِالتَّشْبِيهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ جَهْمِيٌّ، وَإِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَقُولُ: تَكَلَّمْ بالتَّوْحِيدِ، وَاشْرَحْ لِي التَّوْحِيدَ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ خَارِجِيٌّ مُعْتَزِلِيٌّ، أَوْ يَقُولُ: فُلانٌ مُجبِّرٌ، أَوْ يَتكَلَّمُ بِالإِجْبَارِ، أَوْ يَتكَلَّمُ بِالعَدْلِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدَرِيٌّ؛ لأَنَّ هَذِهِ الأَسْمَاءَ مُحْدَثَةٌ أَحْدَثَهَا أَهْلُ البِدَعِ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَإِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَقُولُ: فَلانٌ نَاصِبِيٌّ) النَّوَاصِبُ هُمُ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ أَهْلَ البَيْتِ، وَالرَّوَافِضُ يَتَّهِمُونَ أَهْلَ السُّنَّةِ بِأَنَّهُمْ يُبْغِضُونَ أَهْلَ البَيْتِ، وَمَنْ يُبْغِضُ أَهْلَ البَيْتِ فَهُمْ نَوَاصِبُ. (فَاعْلَمْ أَنَّهُ رَافِضِيٌّ) لأَنَّ هَذَا مَذْهَبُ الرَّوَافِضِ، حَتَّى إِنَّهُمْ جَعَلُوا الصَّحَابَةَ نَوَاصِبَ؛ لأَنَّهُمْ - بزَعْمِهِمْ - يُبْغِضُونَ أَهْلَ البَيْتِ وَاغْتَصَبُوا مِنْهُم الخِلافَةَ، هَكَذَا يَقُولُونَ قَبَّحَهُمُ اللهُ، فَالَّذِي يَقُولُ: إِنَّ الصَّحَابَةَ نَوَاصِبُ أَوْ إِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ نَوَاصِبُ هَذَا دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّهُ مِنَ الرَّوَافِضِ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ لا يُبْغِضُون أَهْلَ البَيْتِ، بَلْ إِنَّهُمْ يُحِبُّونَهُمْ وَيَحْتَرِمُونَهُمْ وَيَحْفَظُونَ فِيهِم وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ولَكِنَّهُمْ لا يَغْلُونَ فِيهِم غُلُوَّ الرَّوَافِضِ، وَلا يَتَّخِذُونَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ، وَيَعْتَقِدُونَ فِيهِم العِصْمَةَ؛ كَمَا يَعْتَقِدُ الشِّيْعَةُ العِصْمَةَ لأَئِمَّتِهِمْ يُسَمُّونَهُمُ (الأَئِمَّةَ المَعْصُومِيْنَ)، وأَهْلُ السُّنَّةِ لا يَعْتَقِدُونَ فِيهِمُ العِصْمَةَ وَلا يَغْلُونَ فِيهِم، وَإِنَّمَا يُنْزِلُونَهُمْ مَنْزِلَتَهُمْ، يُحِبُّونَهُمْ لِقَرَابَتِهِمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ويُحِبُّونَهُمْ لإِيمَانِهِمْ، فَهُمْ يُحِبُّونَهُمْ لأَمْرَيْنِ: الإِيمَانُ والقَرَابَةُ، أَمَّا إِذَا وُجِدَتِ القَرَابَةُ وَلَمْ يُوجَدِ الإِيمَانُ فَإِنَّهُمْ لا حُبَّ لَهُمْ، فَأَبُو لَهَبٍ عَمُّ الرَّسُولِ ﷺ وَهُوَ فِي النَّارِ؛ لأَنَّ مُجَرَّدَ القَرَابَةِ لا يَكْفِي إِلاَّ مَعَ الإِيْمَانِ.

قَوْلُهُ: (**وَإِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَقُولُ: فُلانٌ مُشَبِّهٌ، أَوْ فُلانٌ يَتكَلَّمُ بِالتَّشْبِيهِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ جَهْمِيٌّ**)؛ لأَنَّ الجَهْمِيَّةَ وَالمُعْتَزِلَةَ وَالأَشَاعِرَةَ والمَاتُرِيدِيَّةَ يَرَوْنَ أَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ تَشْبِيهٌ، فَيُسَمُّونَ أَهْلَ السُّنَّةِ الَّذِينَ يُثْبِتُونَ لله الأَسْماءَ والصِّفَاتِ بالمُشَبِّهَةِ، لأَنَّهُمْ يُثْبِتُونَ الصِّفَاتِ، أَوْ يُسَمُّونَهُمْ مُجَسِّمَةً؛ لأَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ عِنْدَهُم يَقْتَضِي الجِسْمِيَّةَ لله، والأَجْسَامُ مُتَشَابِهَةٌ، فَهَذِهِ مَقَالاتُهُمْ، إِذَا رَأَيتَ مَنْ يَتَفَوَّهُ بِذَلِكَ، يَقُولُ: فُلانٌ مُشَبِّهٌ، فُلانٌ مُجَسِّمٌ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ جَهْمِيٌّ أَوْ مُعْتَزِلِيٌّ أَوْ مِمَّنْ تَتَلْمَذَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَقِيَّةِ الفِرَقِ؛ لأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةِ لله تَشْبِيهٌ وَتَجْسِيمٌ.

قَوْلُهُ: (**وَإِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَقُولُ: تَكَلَّمْ بِالتَّوْحِيدِ، وَاشْرَحْ لِيَ التَّوْحِيدَ. فَاعْلَمْ أَنَّهُ خَارِجِيٌّ مُعْتَزِلِيٌّ**) لأَنَّ التَّوْحِيدَ مِنْ أُصُولِ المُعْتَزِلَةِ، وَهُوَ عِنْدَهُم نَفْيُ الصِّفَاتِ، فعِنْدَهُم أَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ شِرْكٌ، وَنَفْيَ الصِّفَاتِ تَوحِيدٌ، فلا تَظُنَّ أَنَّهُ يُرِيدُ التَّوْحِيدَ الَّذِي هُوَ إِفْرَادُ الله بِالعِبَادَةِ، وَلَكِنَّ المُرَادَ بِهِ عِنْدَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ؛ لأَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ عِنْدَهُم يَقْتَضِي الشِّرْكَ؛ وَلِهَذَا يَقُولُونَ: القُرْآنُ جَاءَ بالشِّرْكِ، لأَنَّهُ يُثْبِتُ الأَسْماءَ وَالصِّفَاتِ لله ﷻ، فَهَذَا قَصْدُ الشَّيْخ ﵀ قَصْدُهُ التَّوْحِيدُ الَّذِي هُوَ عَلَى مَذْهَبِ المُعْتَزِلَةِ، أَمَّا التَّوْحِيدُ الَّذِي هُوَ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَهُوَ إِفْرَادُ الله بِالعِبَادَةِ، فَإِذَا طَلَبْتَ بَيَانَ هَذَا التَّوْحِيدِ - الَّذِي هُوَ إِفْرَادُ الله بِالعِبَادَةِ وَنَفْيُ الشِّرْكِ - فَهَذَا لا بَأْسَ بِهِ، بَلْ هُوَ مَطْلَبٌ جَلِيلٌ.

قَوْلُهُ: (**أَوْ يَقُولُ: فُلانٌ مُجَبِّرٌ، أَوْ يَتكَلَّمُ بِالإِجْبَارِ، أَوْ يَتكَلَّمُ بِالعَدْلِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدَرِيٌّ**) مِنْ أُصُولِ المُعْتَزِلَةِ أَيْضًا العَدْلُ، وَهُوَ نَفْيُ القَدَرِ؛ لأَنَّهُم يَقُولُونَ: لَوْ أَثْبَتْنَا القَدَرَ لَوَصَفْنَا اللهَ بِالجَوْرِ، حَيْثُ إِنَّهُ يُعَذِّبُهُمْ عَلَى شَيْءٍ قَدْ قَدَّرَهُ عَلَيْهِم، فَنَقُولُ لَهُمْ: اللهُ لَمْ يُعَذِّبْهُمْ عَلَى القَدَرِ، وَإِنَّما عَذَّبَهُمْ عَلَى أَفْعَالِـهِمْ، وَعَلَى كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ، لَمْ يُعَذِّبْهُمْ لأَنَّهُ قَدَّرَ عَلَيْهِم، إِنَّما يُعَذِّبُهُمْ بِأَفْعَالِهِمْ وشِرْكِهِمْ

ومَعْصِيَتُهُمْ، فالجَزاء عَلَى الأَعْمَال وَلَيْسَ عَلَى القَدَرِ، فَاللهُ لا يُثِيبُ أَحَدًا؛ لأَنَّهُ قَدَّرَ أَنَّهُ يَكُونُ مُؤْمِنًا، حَتَّى يُؤْمِنَ بِالفِعْلِ، ويَعْمَلَ بالإِيْمَانِ، وَلا يُعَذِّبُ أَحَدًا لِمُجَرَّدِ أَنَّهُ قَدَّرَ عَلَيْهِ فِعْلَ المَعْصِيَةِ حَتَّى يَفْعَلَ المَعْصِيَةَ وَيَفْعَلَ سَبَبَ العَذَابِ، فالثوَابُ وَالعِقَابُ مَنُوطَانِ بِأَفْعَالِ العِبَادِ، وَلَيْسَا مَنُوطَيْنِ بالقَدَرِ أَبَدًا، فَإِذَا رَأَيْتَ مَنْ يَقُولُ: فُلانٌ جَبْرِيٌّ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ مُعْتَزِلِيٌّ؛ لأَنَّ المُعْتَزِلَةَ يَقُولُونَ: الإِنْسَانُ حُرٌّ يَخْلُقُ فِعْلَ نَفْسِهِ، وَلَيْسَ مُقَدَّرًا عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَيَقُولُونَ: هُوَ الَّذِي فَعَلَ هَذَا بِدُونِ أن يُقَدِّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ. وَيَصِفُونَ مَنْ قَالَ: إِنَّ أَفْعَالَ العِبَادِ بِقَدَرِ الله أَنَّهُ جَبْرِيٌّ.

قَوْلُهُ: (**لأَنَّ هَذِهِ الأَسْمَاءَ مُحْدَثَةٌ أَحْدَثَهَا أَهْلُ البِدَعِ**) أَحْدَثَهَا أَهْلُ البِدَعِ مِنَ: الشِّيْعَةِ، والجَهْمِيَّةِ، والمُعْتَزِلَةِ، أَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ فَلَمْ يَدْخُلُوا فِي هَذِهِ الأُمُورِ إِلاَّ عَلَى مُقْتَضَى الكِتَابِ والسُّنَّةِ، فَأَثْبَتُوا الأَسْمَاءَ والصِّفَاتِ لله، وأَثْبَتُوا القَدَرَ وَآمَنُوا بِهِ، وَلَمْ يَقُولُوا: إِنَّهُ يَلْزَمُ عَلَيْهِ الإِجْبَارَ أَوْ يَلْزَمُ عَلَيْهِ الجَوْرُ مِنَ الله تعالى، وَلَمْ يَقُولُوا: إِنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ شِرْكٌ وَتَشْبِيهٌ. لَمْ يَقُلْ هَذَا إِلاَّ أَهْلُ البِدَعِ.

[١٤٣] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: قَالَ عَبْدُ الله بنُ المُبَارَكِ رَحِمَهُ اللهُ تعَالَى: «لَا تأَخذُوا عَنْ أَهْلِ الكُوْفَةِ فِي الرَّفْضِ شَيْئًا، وَلَا عَنْ أَهْلِ الشَّام فِي السَّيْفِ شَيْئًا، وَلا عَنْ أَهْلِ البَصْرَةِ فِي القَدَرِ شَيْئًا، وَلا عَنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ فِي الإرجَاءِ شَيْئًا، وَلا عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ فِي الصَّرْفِ شَيْئًا، وَلا عَنْ أَهْلِ المَدِيْنَةِ فِي الغِنَاءِ، وَلا تأَخذُوا عَنْهُمْ فِي هَذِهِ الأَشْيَاءِ شَيْئًا».

الشَّرْحُ

قَوْلُ عَبْدِ الله بْنِ المُبَارَكِ: «لَا تأَخذُوا عَنْ أَهْلِ الكُوْفَةِ فِي الرَّفْضِ شَيْئًا» لأَنَّ غَالِبَ الشِّيْعَةِ إِنَّمَا نَشَئُوا مِنَ الكُوفَةِ، فَلا تَأْخُذُوا عَنْهُمْ مِنْ مَذْهَبِهِمْ شَيْئًا، مِنْ طعنهمْ فِي الصَّحَابَة، وَغُلُوِّهِمْ فِي أَهْلِ البَيتِ.

ثُمَّ قَالَ: «ولا عَنْ أَهْلِ الشَّامِ فِي السَّيْفِ شَيْئًا» ظَاهِرُ كَلام المُصَنِّفِ أَنَّ الخَوَارِجَ يَغْلُبُ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّام، فَقَوْلُهُ: «فِي السَّيْفِ» يَعْنِي: الخُرُوجَ عَنْ وَلِيِّ الأَمْرِ وَقِتَال المُسْلِمِيْنَ، لَكِن هَذَا فِيهِ نَظَرٌ؛ لأَنَّ الخَوَارِجَ فِي العِرَاقِ وَلَيْسُوا فِي الشَّام، أَوْ كَانَ يَقْصِدُ حَرْبَهُمْ مَعَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ: «ولا عَنْ أَهْلِ البَصْرَةِ فِي القَدَرِ شَيْئًا»؛ لأَنَّ الاعْتِزَالَ نَشَأَ مِنَ البَصْرَةِ، والتَّصَوُّفَ نَشَأَ مِنْ أَهْلِ البَصْرَةِ.

ثُمَّ قَالَ: «ولا عَنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ فِي الإرجَاءِ شَيْئًا»؛ لأَنَّ الإِرْجَاءَ نَشَأَ مِنْ قُطْرِخُرَاسَانَ وَهُوَ مِنْ أَقْطَارِ بِلادِ فَارِسٍ، وكَانَتْ بِلادًا وَاسِعَةً، وَبِلادًا فِيْهَا عُلَمَاءُ، وَبِلادًا فِيْهَا خَيْرٌ كَثِيْرٌ وَعَادَاتٌ طَيِّبَةٌ لَكِنْ نَبَتَ فِيْهَا مَذْهَبُ الإِرْجَاءِ، والإِرْجَاءُ: هُوَ إِخْرَاجُ العَمَلِ عَنْ حَقِيْقَةِ الإِيْمَانِ، فيَقُولُون: الإِيْمَانُ لا يَدْخُلُ فِيهِ العَمَلِ، فالإِنْسانُ مُؤْمِنٌ وَلَو لَمْ يَعْمَلْ مَا دَامَ أَنَّهُ مُصَدِّقٌ بِقَلْبِهِ. وبَعْضُهُمْ يَقُول:

مُصَدِّقٌ بِقَلْبِهِ وَنَاطِقٌ بِلِسَانِهِ، وبَعْضُهُمْ يَقُولُ: حَتَّى وَلَو لَمْ يُصَدِّقْ بِقَلْبِهِ مَا دَامَ يَعْرِفُ مُجَرَّدَ مَعْرِفَةٍ فَهُوَ مُؤْمِنٌ. والعَمَلُ لا يَدْخُلُ فِي الإِيْمَانِ عِنْدَ جَمِيعِ فِرَقِ المُرْجِئَةِ، الإِنْسَانُ مُؤْمِنٌ عِنْدَهُم وَلَو لَمْ يَعْمَلْ، هَذَا مَذْهَبُ المُرْجِئَةِ، وَهَذَا مَذْهَبٌ بَاطِلٌ؛ لأَنَّ الإِيْمَانَ: قَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَاعْتِقَادٌ بِالقَلْبِ وَعَمَلٌ بِالجَوَارِحِ، مَا يَتَكَوَّنُ الإِيْمَانُ إِلاَّ مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ الثَّلاثَةِ؛ لأَنَّهُ مَنِ اعْتَقَدَ بِقَلْبِهِ وَلَمْ يَنْطِقْ بِلِسَانِهِ فَهَذَا شَأْنُ الكُفَّارِ؛ لأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ صِدْقَ الرَّسُولِ ﷺ، وَاليَهُودُ والنَّصَارَى يَعْرِفُونَ صِدْقَ الرَّسُولِ ﷺ، وَلَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِيْنَ لِمُجَرَّدِ مَعْرِفَتِهِم أَوِ اعْتِقَادِهِمْ بِالقَلْبِ دُونَ النُّطْقِ بِاللِّسَانِ، بَعْضُهُمْ يَقُولُ: النُّطْقُ بِاللِّسَانِ يَكْفِي وَلَو لَمْ يَعْتَقِدْ. فيَلْزَمُ عَلَى هَذَا أَنَّ المُنَافِقِيْنَ مُؤْمِنونَ، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - نَفَى عَنْهُمْ الإِيْمَانَ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:١١].

قَوْلُهُ: «وَلا عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ فِي الصَّرْفِ شَيْئًا» الصَّرْفُ: بَيعُ النَّقْدِ بِالنَّقْدِ؛ لأَنَّهُم يَتَسَاهَلُونَ فِيهِ.

قَوْلُهُ: «ولا عَنْ أَهْلِ المَدِيْنَةِ فِي الغِنَاءِ»؛ لأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُبِيحُ الغِنَاءَ، وَلا يَرَى فِي الغِنَاءِ بَأْسًا، فَلا يُؤْخَذُ عَنْهُم فِي هَذَا شَيْءٌ.

[١٤٤] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَبَا هُرَيْرَةَ، وَأَنَسَ ابنَ مَالِكٍ، وَأُسَيدَ بنَ الحُضَيرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَيُّوب، وابنَ عَوْنٍ، وَيُونُسَ بنَ عُبَيْدٍ، وَعَبْدَ الله ابنَ إِدْرِيسَ الأَوْدِي، وَالشَّعْبِيَّ، وَمَالِكَ بنَ مِغْوَلٍ، وَيزِيدَ ابنَ زُرَيعٍ، وَمُعَاذَ بنَ مُعَاذٍ، وَوَهْبَ بنَ جَرِيرٍ، وَحَمَّادَ ابنَ سَلَمَةَ، وَحَمَّادَ بنَ زَيدٍ، وَمَالِكَ بنَ أَنَسٍ، والأَوْزَاعِيَّ، وَزَائِدَةَ بنَ قُدَامَةَ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ، وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ، والحَجَّاجَ بنَ المِنْهَالِ، وأَحْمَدَ بنَ نَصْرٍ، وَذَكَرَهُمْ بِخَيْرٍ، وَقَالَ بِقَوْلِـهِمْ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلِ يُحِبُّ أَبَا هُرَيْرَةَ...) إلخ مَحَبَّةُ الصَّحَابَةِ عُمُومًا وَاجِبَةٌ؛ كَمَا سَبَقَ، وَهِيَ مِنَ الإِيمَانِ، لَكِنْ هُنَاكَ أَفْرَادٌ مِنَ الصَّحَابَةِ طَعَنَ فِيهِم أَهْلُ الأَهْوَاءِ، مِثْلُ: أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَاوِي الحَدِيثِ، الَّذِي رَوَى أَحَادِيثَ كَثِيْرَةً عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُمْ يُغِيظُهُمْ حِفْظُ السُّنَّةِ، فَلِذَلِكَ أَبْغَضُوا أَبَا هُرَيرَةَ بِسَبَبِ عِنَايَتِهِ بِروايَةِ الحَدِيثِ، وَحِفْظِهِ عَلَى الأُمَّةِ كَثِيْرًا مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَبْغَضُوهُ مِنْ أَجْلِ هَذَا.

(وَأَنَسُ بنُ مَالِكٍ) خَادِمُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (وَأُسَيدُ بنُ الحُضَيرِ) الأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَهُمْ يُبْغِضُونَ هَؤُلاءِ؛ لأَنَّهُمْ يَنْقِمُونَ عَلَيْهِم بَعْضَ الأَشْيَاءِ الَّتِي اخْتُصُّوا بِهَا مِنَ الفَضَائِلِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَوْلُهُ: (وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَيُّوبَ، وابنَ عَوْنٍ، وَيُونُسَ بنَ عُبَيْدٍ، وَعَبْدَ اللهِ بنَ إِدْرِيسَ الأَوْدِيَّ وَالشَّعْبِيَّ، وَمَالِكَ بنَ مِغْوَلٍ، وَيَزِيدَ بنَ زُرَيعٍ، وَمُعَاذَ بنَ مُعَاذٍ، وَوَهْبَ بنَ جَرِيرٍ، وَحَمَّادَ بنَ سَلَمَةَ، وَحَمَّادَ بنَ زَيدٍ، وَمَالِكَ بنَ أَنَسٍ،

والأَوْزَاعِيَّ، وَزَائِدَةَ بنَ قُدَامَةَ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ)؛ لأَنَّ هَؤُلاءِ مِنْ رُوَاةِ السُّنَّةِ، وَمِنْ حُفَّاظِ الحَدِيثِ، وعُلَماءِ الجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ، فَالَّذِي يُبْغِضُهُمْ يُبْغِضُ أَعْمالَهُمُ الطَّيِّبَةَ وَهُوَ حِفْظُهُمْ لِلسُّنَّةِ وَالعِنَايَةُ بِهَا، بِأَسَانِيدِهَا وَرِوَايَتِهَا وَرَدِّ الكَذِبِ والوَضْعِ عَنْهَا، فَهُمْ لَمْ يُبْغِضُوهُمْ إِلاَّ لِعَمَلِهِمْ فِي السُّنَّةِ هَذَا العَمَلَ الجَلِيْلَ الَّذِي حَفِظَ اللهُ بِهِ سُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ.

قَوْلُهُ: (وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ، والحَجَّاجَ بنَ المِنْهَالِ، وأَحْمَدَ ابنَ نَصْرٍ، وَذَكَرَهُمْ بِخَيْرٍ، وَقَالَ بِقَوْلِهِمْ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ) هَؤُلاءِ هُم الأَئِمَّةُ الَّذِيْنَ امْتُحِنُوا عَلَى القَوْلِ بِخَلْقِ القُرْآنِ، فَأَبَوْا أَنْ يَقُولُوا بِذَلِكَ فِي وَقْتِ المَأْمُونِ وَالمُعْتَصِمِ وَالوَاثِقِ الَّذِينَ امْتَحَنُوهُمْ بِسَبَبِ المُعْتَزِلَةِ؛ لأَنَّ المُعْتَزِلَةَ صَارُوا حَاشِيَةً لِلْخُلَفَاءِ، وَصَارُوا مُسْتَشَارِينَ لَهُمْ فَأَثَّرُوا فِيْهِم وَأَدْخَلُوا عَلَيْهِم مَذْهَبَ الاعْتِزَالِ وَأَفْتَوْهُمْ بِإِلْزَامِ النَّاسِ بِالقَوْلِ بِخَلْقِ القُرْآنِ فَحَصَلَتْ مِحْنَةٌ عَظِيمَةٌ، وَقِفَ مِنْهَا الإِمَامُ أَحْمَدُ المَوْقِفَ الصَّلْبَ وَالجَبَلَ الشَّامِخَ، وَلَمْ يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ، بَلْ صَمَدَ وَوَقَفَ وَصَبَرَ عَلَى العَذَابِ وَالإِهَانَةِ وَالسَّجْنِ، حَتَّى نَصَرَ اللهُ بِهِ هَذَا الدِّيْنَ، وَقَمَعَ به هَؤُلاءِ الزَّنَادِقَةَ، ومِنَ العُلَماءِ مِنْ قُتِلَ مِثْلُ أَحْمَدَ بنِ نَصْرٍ وَغَيْرِهِ، وابنِ نُوحٍ، فَقُتِلَ مَنْهُمْ أُنَاسٌ أَبَوا أَنْ يَقُولُوا بِخَلْقِ القُرْآنِ فَقَتَلُوهُمْ، والإِمَامُ أَحْمَدُ عَذَّبُوهُ، وطَالَبَ المُعْتَزِلَةُ بِقَتْلِهِ، لَكِنَّ اللهَ نَجَّاهُ مِنَ القَتْلِ، وَعَصَمَ الخَلِيْفَةَ مِنْ قَتْلِهِ، لَكِنَّهُمْ عَذَّبُوهُ وآذَوْهُ، فَصَبَرَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى أَيَّدَهُ اللهُ بِالمُتَوَكِّلِ ابنِ المُعْتَصِمِ فَقَدْ رَفَعَ عَنْهُ المِحْنَةَ وَأَكْرَمَهُ وَأَعَزَّهُ، وَأَظْهَرَ السُّنَّةَ رحمه الله.

وَهَذِهِ سُنَّةُ اللهِ أَنَّ الفَرَجَ يَأْتِي بَعْدَ الشِّدَّةِ، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشَّرح:٥-٦].

[١٤٥] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَجْلِسُ مَعَ أَهْلِ الأَهْوَاءِ فَاحْذَرْهُ، وَعَرِّفْهُ، فَإِنْ جَلَسَ مَعَهُ بَعْدَمَا عَلِمَ فَاتَّقِهِ، فَإِنَّهُ صَاحِبُ هَوًى.

الشَّرْح

(أَهْلُ الأَهْوَاءِ): هُمُ الَّذِيْنَ يَتَّبِعُونَ أَهوَاءَهُم وَنَزَعَاتِهِمْ، وَلا يَتَّبِعُونَ الكِتَابَ والسُّنَّةَ، إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ مَا تَهْوَاهُ أَنْفُسُهُمْ، فَإِذَا خَالَفَ الكِتَابُ والسُّنَّةُ أَهْوَاءَهُمْ، وَتَرَكُوا الكِتَابَ والسُّنَّةَ، وَمَا وَافَقَ أَهْوَاءَهُمْ أَخَذُوهُ لا عَنْ إِيْمَانٍ بِهِ، وَلَكِنْ لأَنَّهُ وَافَقَ أَهوَاءَهُمْ، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ اليَهُودِ، فَإِنَّ اليَهُودَ إِنَّمَا يُطِيعُونَ الرُّسُلَ فِيْمَا وَافَقَ أَهْوَاءَهُمْ، وَمَا خَالَفَ أَهْوَاءَهُمْ خَالَفُوا الرُّسُلَ فِيهِ، فَإِمَّا أَنْ يَقْتُلُوهُمْ، وَإِمَّا أَنْ يُكَذِّبُوهُمْ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة:٧٠]، وَقَالَ فِي المُنَافِقِيْنَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور:٤٨-٤٩]، هَذِهِ طَرِيقَةُ أَهْلِ الأَهْوَاءِ قَدِيْمًا وَحَدِيْثًا، فَالمِقْيَاسُ لِلْحَقِّ عِنْدَهُم هُوَ مَا وَافَقَ أَهْوَاءَهُمْ، وَمَا خَالَفَ أَهْوَاءَهُمْ فَهُوَ البَاطِلُ، وَلَو نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَى مُحَمَّدٍ فَإِنَّهُ عِنْدَهُمُ البَاطِلُ، هَذِهِ طَرِيْقَتُهُمْ، وَهَذَا مَا عَلَيْهِ فِرَقُ الضَّلالِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، فَإِنَّهُم لا يَقْبَلُونَ مَا جَاءَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، بَلْ لا يَقْبَلُونَ مَا جَاءَ فِي القُرْآنِ، وَلا يَقْبَلُونَ مَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ مِمَّا يُخَالِفُ نِحلَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ، فَإِمَّا أَنْ يُؤَوِّلُوهُ وَيُحَرِّفُوهُ، وَإِمَّا أَنْ يُكَذِّبُوهُ، هَذِهِ طَرِيْقَتُهُمْ، يَقُولُ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ فاحْذَرْ هَؤُلاءِ أَنْ تَجْلِسَ مَعَهُم؛ لأَنَّهُمْ يُؤَثِّرُونَ فِيكَ، وَرُبَّمَا تَقْتَنِعُ بِطَرِيْقَتِهِمْ فتكُونَ مَعَهُم، فَابْتَعِدْ عَنْهُمْ لا تُجَالِسْ أَهْلَ البِدَعِ، سَوَاءٌ كَانَتْ بِدَعًا فِي الاعْتِقَادِ؛ كَالجَهْمِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ، أَوْ بِدَعًا فِي العِبَادَةِ؛ كَالَّذِيْنَ يَعْبُدُونَ اللهَ عَلَى جَهْلٍ وَضَلالٍ، وَيَتَزَهَّدُونَ وَيَتَعَبَّدُونَ، وَلَكِنَّهُمْ عَلَى غَيْرِ دَلِيْلٍ، وَعَلَى غَيْرِ هُدًى، وَهَذَا يَنْطَبِقُ عَلَى الصُّوفِيَّةِ

وَمَنْ وَافقَهُمْ، مِمَّنْ هُمْ مُبْتَدِعَةٌ فِي العِبَادَةِ، أَوْ كَانَتْ بِدْعَتُهُمْ فِيمَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ، وَالبِدَعُ تَخْتَلِفُ، وَكُلُّهَا شَرٌّ لا يُتَسَاهَلُ فِيْهَا، وَلا يُقَالُ: هَذِهِ بِدْعَةٌ يَسِيرَةٌ؛ لأَنَّهَا كَالشَّرَارَةِ مِنَ النَّارِ، إِذَا تُرِكَتْ أَحْرَقَتْ مَا حَوْلَهَا، وَإِذَا بُودِرَتْ وَأُطْفِئَتْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ شَرِّهَا، البِدَعُ هَكَذَا، فَعَلَى المُسْلِمِيْنَ أَنْ يَحْذَرُوا مِنَ المُبْتَدِعَةِ وَلا يُحْسِنُوا بِهِم الظَّنَّ، أَوْ يَغْتَرُّوا بِمَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ مِنْ بَعْضِ المَظَاهِرِ، وَيَقُولُونَ: هَؤُلاءِ أَهْلُ عِبَادَةٍ، هَؤُلاءِ أَهْلُ تَوْبَةٍ، هَؤُلاءِ يُرَقِّقُونَ القُلُوبَ، هَؤُلاءِ أَهْلُ ذِكْرٍ هَؤُلاءِ يُتَوِّبُونَ العُصَاةَ، كَمَا يُقَالُ فِي جَمَاعَةِ التَّبْلِيْغِ، مَا دَامُوا مُبْتَدِعَةً صُوفِيَّةً فَلا تَغْتَرَّ بِهِمْ.

قَوْلُهُ: (**وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَجْلِسُ مَعَ أَهْلِ الأَهْوَاءِ فَاحْذَرْهُ**) إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَجْلِسُ مَعَ المُبْتَدِعَةِ فَاحْذَرْهُ؛ لأَنَّ جُلُوسَهُ مَعَهُمْ دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّهُ يُحِبُّهم وَيَأْلَفُهُمْ وَرُبَّمَا أَثَّرُوا فِيهِ، وَالمَرْءُ مِنْ جَلِيْسِهِ فَالَّذِي يُجَالِسُ أَهْلَ الخَيْرِ فَهَذَا دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّهُ يُحِبُّ الخَيْرَ وَأَهْلَهُ، والَّذِي يُجَالِسُ أَهْلَ الشَّرِّ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَأْلَفُ الشَّرَّ وَيُحِبُّ أَهْلَهُ، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ [الأنعام:٦٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ**﴾ [النساء:١٤٠]، وَأَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يَجْلِسَ مَعَ أَهْلِ الخَيْرِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**﴾ [الكهف:٢٨]، فَأَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَجْلِسَ مَعَ بِلالٍ وَعَمَّارٍ وَسَلْمَانَ فُقَرَاءِ الصَّحَابَةِ وَلا يَجْلِسْ مَعَ أَكَابِرِ قُرَيشٍ وَغَيْرِهِمْ، كَانَ ﷺ يَجْلِسُ مَعَهُم طَمَعًا فِي إِيمَانِهِمْ وَتَأْلِيفِهِمْ، ولكِنَّ اللهَ نَهَاهُ عَنْ ذَلِكَ؛ لأَنَّهُمْ قَالُوا: اطْرُدْ عَنَّا هَؤُلاءِ حَتَّى نَجْلِسَ وَنَسْمَعَ لَكَ. وَالنَّبِيُّ ﷺ مِنْ حِرْصِهِ عَلَى الخَيْرِ هَمَّ أَنْ يَجْعَلَ لِهَؤُلاءِ الضُّعَفَاءِ مَجْلِسًا آخَرَ، اسْتِجَابَةً لِطَلَبِ الأَكَابِرِ مِنْ قُرَيْشٍ طَمَعًا فِي إِسْلامِهِمْ،

فَنَهَاهُ اللهُ عَنْ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُنَفِّذَهُ، وَقَالَ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨] لأَنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَنَّ هَؤُلاءِ لا يَقْبَلُونَ وَلا يُؤْمِنُونَ، فَقَالَ لَهُ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٢].

وَقَوْلُهُ: (وَعَرِّفْهُ، فَإِنْ جَلَسَ مَعَهُ بَعْدَمَا عَلِمَ فَاتَّقِهِ، فَإِنَّهُ صَاحِبُ هَوًى) مَعْنَاهُ أَنَّكَ تُنَاصِحُهُ الْبُعْدَ عَنْ مُجَالَسَةِ أَهْلِ الشَّرِّ، فَإِنْ لَمْ يَقْبَلِ النُّصْحَ فَاعْتَزِلْهُ؛ لأَنَّهُ جَلَسَ مَعَ صَاحِبِ البِدْعَةِ عن عِلْمٍ، لا عَنْ جَهْلٍ.

[١٤٦] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَإِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ تَأْتِيهِ بِالأَثَرِ فَلا يُرِيدُهُ، وَيُرِيدُ القُرْآنَ فَلا تَشُكَّ أَنَّهُ رَجُلٌ قَدِ احْتَوَى عَلَى الزَّنْدَقَةِ، فَقُمْ مِنْ عِنْدِهِ وَدَعْهُ.

الشَّرْح

هُنَاكَ جَمَاعَةٌ يُسَمَّونَ القُرْآنِيَّةَ، لا يَحْتَجُّونَ إِلاَّ بِالقُرْآنِ بِزَعْمِهِمْ، وَيَرْفُضُونَ السُّنَّةَ، وَهَؤُلاءِ زَنَادِقَةٌ، لأَنَّ العَمَلَ بالسُّنَّةِ عَمَلٌ بِالقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، وَلأَنَّ السُّنَّةَ مُفَسِّرَةٌ لِلْقُرْآنِ، وَمُبَيِّنَةٌ لَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، وَهَؤُلاءِ القُرْآنِيَّةُ قَدْ أَخبَرَ عَنْهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «رُبَّ رَجُلٍ شَبْعَانَ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: بَيْنَنَا وبَيْنَكُم كِتَابُ اللهِ، فَمَا كَانَ فِيهِ مِنْ حَلالٍ أَحْلَلْنَاهُ، وَمَا كَانَ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ»، قَالَ ﷺ: «أَلا وَإِنِّي أُوتِيتُ القُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»(١)، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ يَعْنِي الرَّسُولَ ﷺ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤]، فالأَحَادِيثُ وَحْيٌ مِنَ اللهِ - جَلَّ وَعَلا -، وإِن كَانَتْ أَلْفَاظُهَا مِنَ الرَّسُولِ، لَكِنَّ مَعَانِيَهَا مِنَ اللهِ - جَلَّ وَعَلا -.

فَهَذَا الَّذِي يَحْتَجُّ بِالقُرْآنِ - بِزَعْمِهِ - وَلا يَحْتَجُّ بالسُّنَّةِ، زِنْدِيقٌ، أي: مُنَافِقٌ، الزِّنْدِيقُ يُراد به المُنَافِقُ، هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: (قَدِ احْتَوَى عَلَى الزَّنْدَقَةِ).

وَقَوْلُهُ: (فَقُمْ مِنْ عِنْدِهِ وَدَعْهُ) لا تَجْلِسْ مَعَهُ؛ لأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُ: هَذَا يَحْتَجُّ بِالقُرْآنِ، فَيَغْتَر بِهِ، وَهُوَ لَمْ يَحْتَجَّ بالقُرْآنِ، لأَنَّ القُرْآنَ أَمَرَ بِالأَخْذِ بِالسُّنَّةِ، فَهَذَا لَمْ يَحْتَجَّ بالقُرْآنِ، إِنَّمَا يُرِيدُ التَّغْطِيَةَ وَالتَّعْمِيَةَ عَلَى النَّاسِ.

---

(١) سبق تخريجه.

[١٤٧] قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: وَاعْلَمْ أَنَّ الأَهْوَاءَ كُلَّهَا رَدِيَّةٌ تَدْعُو كُلُّهَا إِلَى السَّيْفِ، وَأَرْدَؤُهَا وَأَكْفَرُهَا الرَّوَافِضُ والمُعْتَزِلَةُ والجَهْمِيَّةُ، فَإِنَّهُمْ يَرُدُّونَ النَّاسَ عَلَى التَّعْطِيلِ والزَّنْدَقَةِ.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (وَاعْلَمْ أَنَّ الأَهْوَاءَ كُلَّهَا رَدِيَّةٌ) الأَهْوَاء: مَا خَالَفَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ مِنَ المَذَاهِبِ وَالآرَاءِ وَالأَفْكَارِ، فَكُلُّ مَا خَالَفَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ مِنَ الآرَاءِ والمَذَاهِبِ وَالأَفْكَارِ وَالحِزْبِيَّاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنَ الأَهْوَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]، فَهَذَا هُوَ وَاجِبُ المُسْلِمِ أَنْ يَتَّبِعَ مَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِه، وَلا يَتَّبِعَ مَا رَغِبَتْ فِيهِ نَفْسُهُ، أَوْ قَالَ بِهِ فُلانٌ وَعلاَّنٌ، الوَاجِبُ أَنْ يَعْرِضَ أَقْوَالَ النَّاسِ عَلَى الكِتَابِ والسُّنَّةِ، فَمَا وَافَقَ الكِتَابَ والسُّنَّةَ أَخَذَ بِهِ، وَمَا خَالَفَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ تَرَكَهُ، هَذَا هُوَ صَاحِبُ الحَقِّ، أَمَّا الَّذِي يَذْهَبُ مَعَ النَّاسِ أَيْنَمَا ذَهَبُوا وَيكُونُ إِمَّعَةً وَلا يُفَكِّرُ فِيمَا هُمْ عَلَيْهِ، وَلا يَخْتَبِرُ مَا هُمْ عَلَيْهِ فَهَذَا صَاحِبُ هَوًى، يَتَّبِعُ هَوَاهُ.

قَوْلُهُ: (تَدْعُو كُلُّهَا إِلَى السَّيْفِ) يَعْنِي: أَنَّ الأَهْوَاءَ تَدْعُو إِلَى الفِتْنَةِ، فالحُرُوبُ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، وانْشِقَاقُ الكَلِمَةِ، إِنَّمَا جَاءَت عَنْ أَصْحَابِ الأَهْوَاءِ مِنَ المُعْتَزِلَةِ وَالخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ فهُمُ الَّذِينَ سَبَّبُوا الفِتْنَةَ، مَا جَاءَتِ الفِتَنُ إِلاَّ مِنْ قِبَلِهِمْ وَبِسَبَبِهِمْ، مَنِ الَّذِي قَتَلَ عُثْمَانَ رضي الله عنه؟ مَنِ الَّذِي قَتَلَ عَلِيًّا رضي الله عنه؟ مَنِ الَّذِي أَوْقَدَ الفِتْنَةَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلاَّ أَصْحَابَ الأَهْوَاءِ؟ مَنِ الَّذِي أَغْرَى المَأْمُونَ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ بِامْتِحَانِ أَهْلِ السُّنَّةِ حَتَّى سَحَبُوا إِمَامَهُمْ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ رحمه الله وضَرَبُوهُ وَسَجَنُوهُ إِلاَّ أَهْلَ الأَهْوَاءِ، مَنِ الَّذِي سَجَنَ شَيْخَ الإِسْلامِ

ابنَ تَيْمِيَّةَ حَتَّى مَاتَ فِي السِّجْنِ رَحِمَهُ اللهُ؟ إلاَّ هَؤُلاءِ أَهْلَ الأَهْوَاءِ، فَعَلَيْنَا أَنْ نَحْذَرَ مِنْ هَؤُلاءِ؛ لأَنَّ شَرَّهُمْ يَئُولُ فِي النِّهَايَةِ إِلَى تَمْزِيقِ كَلِمَةِ المُسْلِمِيْنَ، وَالخُرُوجِ عَلَى وَلِيِّ أَمْرِ المُسْلِمِيْنَ، وَتَفْرِيقِ جَمَاعَةِ المُسْلِمِيْنَ، لِيَكُونُوا شِيَعًا وَأَحْزَابًا بَدَلَ أَنْ يَكُونُوا أُمَّةً وَاحِدَةً.

قَوْلُهُ: (**وَأَرْدَؤُهَا وَأَكْفَرُهَا الرَّوَافِضُ والمُعْتَزِلَةُ والجَهْمِيَّةُ**) هَؤُلاءِ هُمْ شَرُّ أَصْحَابِ الأَهْوَاءِ، وَفِي قِمَّتِهَا الرَّافِضَةُ مِنَ الشِّيْعَةِ، سُمُّوا رَافِضَةً؛ لأَنَّهُمْ رَفَضُوا زَيْدَ بنَ عَلِيِّ بنِ الحُسَيْنِ لَـمَّا دَعُوهُ أَنْ يُوَافِقَهُمْ عَلَى سَبِّ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وقَالَ: «لا، أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَزِيرَا رَسُولِ اللهِ ﷺ» فَلَمَّا أَبَى أَنْ يُوَافِقَهُمْ قَالُوا: إِذًا نَرْفُضُكَ، فَسُمُّوا بِالرَّافِضَةِ.

وَالجَهْمِيَّةُ: أَتْبَاعُ الجَهْمِ بنِ صَفْوَانَ الَّذِي تَكَرَّرَ ذِكْرُهُ.

وَالمُعْتَزِلَةُ: أَتْبَاعُ عَمْرِو بنِ عُبَيْدٍ وَوَاصِلِ بنِ عَطَاءٍ الَّذَيْنِ اعْتَزَلُوا مَجَالِسَ الحَسَنِ البَصْرِيِّ، وانْحَازُوا وَلَمْ يَأْخُذُوا العِلْمَ عَنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ، فَسُمُّوا «مُعْتَزِلَةً».

قَوْلُهُ: (**فَإِنَّهُمْ يَرُدُّونَ النَّاسَ عَلَى التَّعْطِيلِ والزَّنْدَقَةِ**) التَّعْطِيلُ: نَفْيُ الأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ، وَالزَّنْدَقَةُ: هِيَ رَفْضُ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، والأَخْذُ بِدَلَهُمَا بِالأَهْوَاءِ والرَّغَبَاتِ.

[١٤٨] قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ تَنَاوَلَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرضي الله عنه فَاعْلَمْ أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ مُحَمَّدًا ﷺ وَقَدْ آذَاهُ فِي قَبْرِهِ.

[١٤٩] وَإِذَا ظَهَرَ لَكَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ مِنَ البِدَعِ، فَاحْذَرْهُ، فَإِنَّ الَّذِي أَخْفَى عَنْكَ أَكْثَرُ مِمَّا أَظْهَرَ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (**وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ تَنَاوَلَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ**) أَيْ: مَنْ سَبَّ أَصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ وَتَنَقَّصَهُمْ فَإِنَّهُ يَسُبُّ الرَّسُولَ ﷺ؛ لأَنَّهُمْ أَصْحَابُهُ وَأَعْوَانُهُ وأَنْصَارُهُ، فَإِذَا طَعَنَ فِيهِم طَعَنَ فِي الرَّسُولِ ﷺ، لأَنَّ الرَّسُولَ هُوَ الَّذِي جَمَعَهُمْ، وَهُوَ الَّذِي سَارَ بِهِمْ، وَهُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ شُئُونَهُمْ، فَهَذَا طَعْنٌ فِي الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ يَسْتَصْحِبُ أُنَاسًا أَشْرَارًا، فَهَذَا طَعْنٌ فِي الرَّسُولِ ﷺ، يَقُولُونَ: الجِبْتُ وَالطَّاغُوتُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَهَذَا طَعْنٌ فِي الرَّسُولِ ﷺ كَيْفَ يَكُونُ صَاحِبَاهُ وَوَزِيرَاهُ جِبْتًا وَطَاغُوتًا، إِذًا الرَّسُولُ لا يَفْهَمُ وَلا يَعْرِفُ، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ، الرَّسُولُ أَيْضًا يَمْدَحُ الصَّحَابَةَ وَيُثْنِي عَلَيْهِم إِذًا هُوَ لا يَعْرِفُ حَقِيقَتَهُمْ، يَقُول: «**لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ**»(١)، يَمْدَحُهُمْ، فإِذَا يَكُونُ الرَّسُولُ قَدْ غَلِطَ فِي مَدْحِهِمْ والثَّنَاءِ عَلَيْهِم وَهُمْ أَشْرَارٌ وَجِبْتٌ وَطَاغُوتٌ وَكَفَرَةٌ، هَذَا طَعْنٌ فِي الرَّسُولِ ﷺ، بَلْ هَذَا طَعْنٌ فِي القُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ**﴾ [الفتح:١٨]، قَالَ تَعَالَى: ﴿**لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ**﴾ [التوبة:١١٧]، وَقَالَ: ﴿**وَٱلسَّٰبِقُونَ**

---

(١) سبق تخريجه.

﴿ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠]، إذًا هَذَا قَدْحٌ فِي القُرْآنِ الَّذِي أَثْنَى عَلَيْهِم ومَدَحَهُمْ، فَلا يَسُبُّ الصَّحَابَةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ ذَرَّةٌ مِنْ إِيمَانٍ.

قَوْلُهُ: (**فَاعْلَمْ أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ مُحَمَّدًا ﷺ وَقَدْ آذَاهُ فِي قَبْرِهِ**) مَنْ يَسُبُّ الصَّحَابَةَ فَقَدْ آذَى النَّبِيَّ ﷺ فِي قَبْرِهِ؛ لأَنَّهُ ﷺ لا يَرْضَى أنْ يُسَبَّ أَصْحَابُهُ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾** [الأحزاب:٥٧]، فَالَّذِي يَسُبُّ الصَّحَابَةَ قَدْ آذَى اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلا يَكُونُ هَذَا خَاصًّا فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ، بَلْ يُؤْذِيهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وَمَنْ يَفْعَلْ هَذَا فَهُوَ مَلْعُونٌ **﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾** نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ.

[١٥٠] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ رَدِيءَ الطَّرِيْقِ والمَذْهَبِ، فَاسِقًا فَاجِرًا، صَاحِبَ مَعَاصٍ ظَالِمًا وَهُوَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ فَاصْحَبْهُ، وَاجْلِسْ مَعَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ تَضُرُّكَ مَعْصِيَتُهُ.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ رَدِيءَ الطَّرِيْقِ والمَذْهَبِ، فَاسِقًا فَاجِرًا، صَاحِبَ مَعَاصٍ ظَالِمًا وَهُوَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ فَاصْحَبْهُ) مُصَاحَبَتُكَ لِلْفَاسِقِ السُّنِّيِّ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الفِسْقِ وَفِعْلِ المَعَاصِي، ومُجَالَسَتُكَ لَهُ خَيْرٌ مِنْ مُجَالَسَتِكَ لِلْمُبْتَدِعِ؛ لأَنَّ العَاصِي يَعْرِفُ أَنَّهُ عَاصٍ، ويُرْجَى أَنَّهُ يَتُوبُ بِخِلافِ المُبْتَدِعِ فَإِنَّهُ يَعتَقِدِ أَنَّهُ عَلَى حَقٍّ، وَلا يَتُوبُ، فَالمُبْتَدِعَةُ لا يَتُوبُونَ فِي الغَالِبِ؛ لأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، ولَيْسَ هَذَا مَعْنَاهُ أَنَّكَ تُجَالِسُ العُصَاةَ، لكِنْ مَعْنَاهُ أَنَّ مُجَالَسَةَ العُصَاةِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ خَيْرٌ مِن مُجَالَسَةِ المُبْتَدِعَةِ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُمُ العِبَادَةَ والصَّلاحَ، هَذَا قَصْدُ المُؤَلِّفَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَلا شَكَّ أَنَّ البِدْعَةَ شَرٌّ وَأَحَبُّ إِلَى الشَّيْطَانِ مِنَ المَعْصِيَةِ؛ لأَنَّ صَاحِبَ البِدْعَةِ لا يَتُوبُ مِنْهَا، بِخِلافِ صَاحِبِ المَعْصِيَةِ فَإِنَّهُ يُرْجَى أَنْ يَتُوبَ مِنْهَا؛ لأَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا مَعْصِيَةٌ وَيَخْجَلُ وَلا يُبَيِّنُهَا بِخِلافِ المُبْتَدِعِ.

قَوْلُهُ: (وَهُوَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ فَاصْحَبْهُ) أَيْ: مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنِ الإِسْلامِ إِنَّمَا عِنْدَهُ كَبَائِرُ دُونَ الشِّرْكِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ بِدَعٌ، فمُجَالَسَتُكَ لَهُ أَخَفُّ مِنْ مُجَالَسَةِ المُبْتَدِعِ، وَإِنْ كَانَ المُبْتَدِعُ يُظْهِرُ الصَّلاحَ وَالتُّقَى؛ وَكَمَا ذَكَرْتُ لَيْسَ مَعْنَى هَذَا أَنَّ الشَّيْخَ يَقُولُ لَكَ جَالِسْ أَهْلَ المَعَاصِي! وَإِنَّمَا هُوَ يُقَارِنُ بَيْنَ مَفْسَدَةِ مُجَالَسَةِ العَاصِي، ومَفْسَدَةِ مُجَالِسِ المُبْتَدِعِ، فَمَفْسَدَةُ مُجَالِسِ المُبْتَدِعِ أَشَدُّ مِنْ مُجَالَسَةِ العَاصِي، فَكَيْفَ بصَاحِبِ السُّنَّةِ المُتَمَسِّكِ؟ إِذَا كَانَتْ مُجَالَسَةُ صَاحِبِ السُّنَّةِ العَاصِي خَيْرًا مِنْ مُجَالَسَةِ المُبْتَدِعَةِ، فَكَيْفَ بِمُجَالَسَةِ صَاحِبِ السُّنَّةِ المُهْتَدِي المُتَمَسِّكِ؟ هَذَا هُوَ

الجَلِيسُ الصَّالِحُ.

قَوْلُهُ: (**فَإِنَّهُ لَيْسَ تَضُرُّكَ مَعْصِيَتُهُ**) لأَنَّ مَعْصِيَتُهُ عَلَيْهِ، هَذَا مِنْ بَابِ المُقَارَنَةِ، لَكِنَّ المُبْتَدِعَ تَضُرُّكَ بِدْعَتُهُ.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ مُجْتَهِدًا فِي العِبَادَةِ مُتَقَشِّفًا مُحْتَرِقًا بِالعِبَادَةِ صَاحِبَ هَوًى، فَلا تَجْلِسْ مَعَهُ، وَلا تَسْمَعْ كَلامَهُ، وَلا تَمْشِ مَعَهُ فِي طَرِيْقٍ، فَإِنِّي لا آمَنُ أَنْ تَسْتَحْلِيَ طَرِيْقَهُ فَتَهْلَكَ مَعَهُ.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ مُجْتَهِدًا فِي العِبَادَةِ مُتَقَشِّفًا مُحْتَرِقًا بِالعِبَادَةِ صَاحِبَ هَوًى، فَلا تَجْلِسْ مَعَهُ، وَلا تَسْمَعْ كَلامَهُ) فَلا تَغْتَرَّ بِكَوْنِ المُبْتَدِعِ يُظْهِرُ التَّنَسُّكَ والعِبَادَةَ وَالزُّهْدَ وَالتَّقَشُّفَ، ويُصَلِّي بِاللَّيْلِ؛ فَمَا دَامَ عِنْدَهُ هَوًى وبِدْعَةٌ فَلا تَتَسَاهَلْ فِيهِ، وابْتَعِدْ عَنْهُ غَايَةَ الابْتِعَادِ، وكما قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «اقتصاد فِي سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنِ اجْتِهَادٍ فِي بِدْعَةٍ».

قَوْلُهُ: (وَلا تَمْشِ مَعَهُ فِي طَرِيْقٍ) هَذَا عَطْفٌ عَلَى مَا سَبَقَ مِنَ التَّحْذِيرِ مِنْ مُصَاحَبَةِ المُبْتَدِعَةِ ومُجَالَسَتِهِمْ، وَالرَّسُولُ حَذَّرَ مِنْ هَذَا، قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**»، «**إِيَّاكُمْ**» هَذَا تَحْذِيرٌ، وقَالَ: «**شَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا**»[1] فَالبِدْعَةُ شَرٌّ مِنَ المَعْصِيَةِ، والمُبْتَدِعُ شَرٌّ مِنَ العَاصِي فَيَجِبُ أَنْ يُتَنَبَّهَ لِهَذَا الأَمْرِ، (**وَلا تَمْشِ مَعَهُ فِي طَرِيْقٍ**)؛ لأَنَّهُ يُؤَثِّرُ فِيكَ وَيُدْخِلُ عَلَيْكَ البِدْعَةَ، لا سِيَّمَا وأَنْتَ تُحْسِنُ الظَّنَّ بِهِ، لِـمَا يَظْهَرُ مِنْهُ مِنَ العِبَادَةِ والتَّقَشُّفِ وَالزُّهْدِ، فَتَسْرِي عَلَيْكَ بِدْعَتُهُ، فَهُوَ خَطِيرٌ جِدًّا؛ كَمَا مَثَّلَ النَّبِيُّ ﷺ الجَلِيسَ الصَّالِحَ بِبَائِعِ المِسْكِ، فإِمَّا أَنْ يُعْطِيَكَ مِنْ مِسْكِهِ، وَإِمَّا أَنْ تَشْتَرِيَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً طَيِّبَةً مَا دُمْتَ جَالِسًا عِنْدَهُ، إِنْ لَمْ تَحْصُلْ مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ لا بِالهِبَةِ وَلا بِالبَيعِ، فإِنَّكَ تَجِدُ رَائِحَةَ المِسْكِ وأَنْتَ جَالِسٌ عِنْدَهُ، أَمَّا جَلِيسُ السُّوءِ فَهُوَ كَنَافِخِ الكِيرِ، إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً خَبِيثَةً.

---

(١) سبق تخريجه.

وَهَذَا يَنْطَبِقُ عَلَى جَمَاعَةِ التَّبْلِيغِ الَّذِينَ قَدِ اغْتَرَّ بِهِم كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ اليَوْمَ نَظَرًا لِمَا يَظْهَرُ مِنْهُم مِنَ التَّعَبُّدِ وَتَتْوِيبِ العُصَاةِ كَمَا يَقُولُونَ، وَشِدَّةِ تَأْثِيرِهِمْ فِيمَنْ يَصْحَبُهُمْ، لَكِنَّهُمْ يُخْرِجُونَ العُصَاةَ مِنَ المَعْصِيَةِ إِلَى البِدْعَةِ، وَالبِدْعَةُ شَرٌّ مِنَ المَعْصِيَةِ، وَالعَاصِي مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ خَيْرٌ مِنَ العَابِدِ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ، فَلْيُنْتَبَهْ لِذَلِكَ، وَمَا قُلْتُ هَذَا كَرَاهِيَةً لِلْخَيْرِ الَّذِي مَعَهُمْ إن كَانَ فِيهِمْ خَيْرٌ، وَإِنَّمَا قُلْتُهُ كَرَاهِيَةً لِلْبِدْعَةِ فَإِنَّ البِدْعَةَ تَذْهَبُ بِالخَيْرِ.

والبِدَعُ الَّتِي عِنْدَ جَمَاعَةِ التَّبْلِيغِ قَدْ ذَكَرَهَا مَنْ صَحِبَهُمْ ثُمَّ تَابَ مِنْ مُصَاحَبَتِهِمْ، وأُلِّفَتْ كُتُبٌ كَثِيرَةٌ فِي التَّحْذِيرِ مِنْهُم، وَبَيَانِ بِدَعِهِمْ.

وكَوْنُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بن إِبْرَاهِيمَ رَخَّصَ لِبَعْضِهِمْ فِي الدَّعْوَةِ فِي المَمْلَكَةِ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ، لأَنَّهُ لَمْ يَتَبَيَّن لَهُ أَمْرُهُمْ، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِم رَدًّا بَلِيغًا لَـمَّا تبَيَّنَ لَهُ أَمْرُهُمْ، كَمَا فِي مَجْمُوعِ فَتَاوَاهُ، وَقَدِ اشْتَرَطَ عَلَيْهِم الدَّعْوة إِلَى التَّوحِيدِ فَلَمْ يَفُوا بِهَذَا الشَّرْطِ، وَكَذَلِكَ كَوْنُ الشَّيْخِ ابنِ بَازٍ أَثْنَى عَلَيْهِم فِي أَوَّلِ الأَمْرِ لأَنَّهُ لَمْ يَتبَيَّن لَهُ أَمْرُهُمْ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَمْرُهُمْ تَرَاجَعَ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: «لا يَخْرُجُ مَعَهُمْ إِلاَّ مِنْ يُرِيدُ أَنْ يَدْعُوَهُمْ إِلَى الحَقِّ وَالتَّوحِيدِ، وَيُنْكِرَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ المُخَالَفَةِ»، هَكَذَا قَالَ رَحِمَهُ اللهُ، مَعَ أَنَّ صَاحِبَ البِدْعَةِ لا يَقْبَلُ الدَّعْوَةَ، وَكَذَا صَاحِبُ المَنْهَجِ لا يَتَرَاجَعُ عَنْ مَنْهَجِهِ الَّذِي بَايَعَ عَلَيْهِ شُيُوخَهُ.

قَوْلُهُ: (**فَإِنِّي لا آمَنُ أَنْ تَسْتَحْلِيَ طَرِيْقَهُ فَتَهْلَكَ مَعَهُ**) هَذِهِ هِيَ النَّتِيْجَةُ إِذَا مَشَيتَ مَعَهُ وجَالَسْتَهُ وَرَاقَتْ لَكَ حَالُهُ؛ فَإِنَّهُ تَسْرِي عَلَيْكَ بِدْعَتُهُ فَتَسْتَسِيغُهَا فَتهْلَكُ مَعَهُ، وتَكُونُ مُبْتَدِعًا، فَالخَطَرُ شَدِيْدٌ مِنَ المُبْتَدِعَةِ وَمَا أَكْثَرَهُمْ فِي هَذَا الزَّمَانِ، لَكِن يَجِبُ أَنْ نَعْرِفَ مَا هِيَةَ البِدْعَة؛ لأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِدْعَةٌ، البِدْعَةُ لَهَا ضَوَابِطُ، فَإِذَا تَحَقَّقَ أَنَّ هَذَا الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ بِدْعَةٌ فَلا تَجْلِسْ مَعَهُ، وَلا تُصَاحِبْهُ.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: رَأَى يُونُسُ بنُ عُبَيْدٍ ابْنَهُ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ عِنْدِ صَاحِبِ هَوًى، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ مِنْ أَيْنَ خَرَجْتَ؟ قَالَ: مِنْ عِنْدِ عَمْرِو بنِ عُبَيْدٍ، قَالَ: يَا بُنَيَّ، لأَنْ أَرَاكَ خَرَجْتَ مِنْ بَيتِ خُنْثَى أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَرَاكَ تَخْرُجُ مِنْ بَيْتِ فُلانٍ وَفُلانٍ، وَلأَنْ تَلْقَى اللهَ يَا بُنَيَّ زَانِيًا فَاسِقًا سَارِقًا خَائِنًا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَلْقَاهُ بِقَوْلِ أَهْلِ الأَهْوَاءِ.

أَلا تَرَى أَنَّ يُونُسَ بنَ عُبَيْدٍ قَدْ عَلِمَ أَنَّ الخُنْثَى لا يُضِلُّ ابْنَهُ عَنْ دِيْنِهِ، وَأَنَّ صَاحِبَ البِدْعَةِ يُضِلُّهُ حَتَّى يَكْفُرَ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (رَأَى يُونُسُ بنُ عُبَيْدٍ ابْنَهُ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ عِنْدِ صَاحِبِ هَوًى، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ مِنْ أَيْنَ خَرَجْتَ؟ قَالَ: مِنْ عِنْدِ عَمْرِو بنِ عُبَيْدٍ) عَمْرُو بنُ عُبَيْدٍ: هُوَ شَيخُ المُعْتَزِلَةِ: (قَالَ: يَا بُنَيَّ، لأَنْ أَرَاكَ خَرَجْتَ مِنْ بَيتِ خُنْثَى أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَرَاكَ تَخْرُجُ مِنْ بَيْتِ فُلانٍ وَفُلانٍ) الكَلِمَةُ هَذِهِ لَيْسَتْ وَاضِحَةً (خُنْثَى)، وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ (مِنْ بَيْتِ هِيتِيٍّ)، فَهِيَ غَيْرُ وَاضِحَةٍ أَيْضًا، لَكِنَّ المَقْصُودَ أَنْ لا تُجَالِس أَهْلَ البِدَعِ، فَلَوْ أَنَّكَ خَرَجْتَ مِنْ عِنْدِ صَاحِبِ سُنَّةٍ وَلَكِنَّهُ عَاصٍ هَذَا أَسْهَلُ مِنْ أَنْ تَجْلِسَ إِلَى صَاحِبِ بِدْعَةٍ، هَذَا مَا حَذَّرَ مِنْهُ يُونُسُ وَلَدَهُ؛ لأَنَّهُ جَلَسَ إِلَى عَمْرِو ابنِ عُبَيْدٍ رَأْسِ المُعْتَزِلَةِ، فَكَوْنُهُ يَجْلِسُ عِنْدَ مُسْلِمٍ صَاحِبِ سُنَّةٍ وَلَو كَانَ عِنْدَهُ نَقْصٌ فِي دِيْنِهِ فَإِنَّ هَذَا أَسْهَلُ وَأَخَفُّ ضَرَرًا مِنْ مُجَالَسَتِهِ لِلْمُبْتَدِعِ، ومِنْ بَابِ أَوْلَى التَّعَلُّمُ، لا تَتَعَلَّم مِنْ أَهْلِ الأَهْوَاءِ والبِدَعِ وَالمُحْدَثَاتِ، بل تَعَلَّمْ عَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ، عَلَى عُلَمَاءِ أَهْلِ السُّنَّةِ، عُلَمَاءِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ؛ كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بنُ سِيْرِينَ رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ هَذَا العِلْمَ دِينٌ فَانظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ» فَإِذَا كَانَ مُجَرَّدُ المُجَالَسَةِ فِيهَا هَذَا الخَطَرُ، فَكَيْفَ بِالتَّعَلُّمِ عَلَى المُبْتَدِعَةِ!

قَوْلُهُ: (**وَلأَنْ تَلْقَى اللهَ يَا بُنَيَّ زَانِيًا فَاسِقًا سَارِقًا خَائِنًا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَلْقَاهُ بِقَوْلِ أَهْلِ الأَهْوَاءِ**) يَقُولُ لابْنِهِ: كَوْنُكَ تَمُوتُ عَاصِيًا مُرْتَكِبًا لِكَبِيْرَةٍ دُونَ الشِّرْكِ فَأَنْتَ تَرْجُو الرَّحْمَةَ، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ**﴾ [النساء:٤٨]، وَحَتَّى لَوْ عُذِّبَ صَاحِبُ الكَبِيْرَةِ فِي النَّارِ فَإِنَّ مَآلَهُ إِلَى الجَنَّةِ، وَلا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ، أَمَّا صَاحِبُ البِدْعَةِ فَإِنَّهُ قَدْ تَجُرُّهُ بِدْعَتُهُ إِلَى الكُفْرِ فيَكُونُ مِنَ الخَالِدِيْنَ فِي النَّارِ، لأَنَّهُ أَحْدَثَ فِي دِينِ اللهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، والعَاصِي لَمْ يَقُلْ إِنَّ مَعْصِيَتَهُ دِينٌ، فَكَونُكَ تَمُوتُ عَلَى مَعْصِيَةٍ وَلَو كَبِيْرَةً دُونَ الشِّرْكِ أَخَفُّ مِنْ أَنْ تَمُوتَ عَلَى بِدْعَةٍ، هَذَا الكَلامُ واضِحٌ جِدًّا.

قَوْلُهُ: (**أَلا تَرَى أَنَّ يُونُسَ بنَ عُبَيْدٍ قَدْ عَلِمَ أَنَّ الخُنْثَى لا يُضِلُّ ابْنَهُ عَنْ دِيْنِهِ، وَأَنَّ صَاحِبَ البِدْعَةِ يُضِلُّهُ حَتَّى يَكْفُرَ**) هَذِهِ هِيَ الحِكْمَةُ فِي كَوْنِهِ لا يَجْلِسُ إِلَى المُبْتَدِعِ، أَمَّا أَنْ يَجْلِس إِلَى صَاحِبِ سُنَّةٍ وَإِنْ كَانَ نَاقِصًا فِي دِيْنِهِ وَإِيْمَانِهِ، فَإِنَّ الضَّرَرَ الَّذِي يَحْصُلُ بِمُجَالَسَةِ المُبْتَدِعِ أَشَدُّ مِنَ الضَّرَرِ الَّذِي يَحْصُلُ مِنْ مُجَالَسَةِ صَاحِبِ السُّنَّةِ العَاصِي، لأَنَّ صَاحِبَ البِدْعَةِ يَدْعُوكَ إِلَى البِدْعَةِ، وَإِلَى مُخَالَفَةِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، أَمَّا العَاصِي فَإِنَّهُ لا يُحَذِّرُكَ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، ولا يُحَذِّرُكَ مِن اتِّبَاعِ السُّنَّةِ أَبَدًا، فَفِيْهِ فَرْقٌ بَيْنَ تَوْجِيهِ هَذَا وتَوْجِيْهِ هَذَا، غَايَةُ مَا يَكُونُ أَنَّهُ قَدْ يُحَسِّنُ لَكَ فِعَلَ المَعْصِيَةِ فَقَطْ، أَمَّا إِنَّهُ يُحَذِّرُكَ مِنَ السُّنَّةِ؛ فَلا.

لا يُحَذِّرُكَ مِنَ السُّنَّةِ، بَلْ يَحْتَرِمُ السُّنَّةَ وَيُعَظِّمُ السُّنَّةَ بِخِلافِ المُبْتَدِعِ فَإِنَّهُ لا يُعَظِّمُ السُّنَّةَ.

[١٥١] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: واحْذَرْ ثُمَّ احْذَرْ أَهْلَ زَمَانِكَ خَاصَّةً، وَانْظُرْ مَنْ تُجَالِسْ، وَمِمَّنْ تَسْمَعُ وَمَنْ تَصْحَبُ، فَإِنَّ الخَلْقَ كَأَنَّهُمْ فِي رِدَّةٍ إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ مِنْهُمْ.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (واحْذَرْ ثُمَّ احْذَرْ أَهْلَ زَمَانِكَ خَاصَّةً)؛ لأَنَّهُ فِي وَقْتِ المُؤَلِّفِ البَرْبَهَارِيِّ رَحِمَهُ اللهُ عَظُمَتِ الفِتْنَةُ جِدًّا فيُحَذِّرُ مِنْ كُلِّ أَهْلِ زَمَانٍ ظَهَرَ فِيهِ الشَّرُّ والأَهْوَاءُ والبِدَعُ، فَهُوَ يُحَذِّرُ مِنْهَا، وَهَذَا لَيْسَ خَاصًّا بزَمَانِهِ، بَلْ كُلُّ زَمَانٍ تَظْهَرُ فِيهِ الشُّرُورُ، والأَهْوَاءُ، والدَّعواتُ البَاطِلَةُ فَإِنَّهُ يَشْتَدُّ الحَذَرُ عَلَى المُسْلِمِ فيَأْخُذَ حذرَهُ.

قَوْلُهُ: (فَإِنَّ الخَلْقَ كَأَنَّهُمْ فِي رِدَّةٍ إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ مِنْهُمْ) هَذَا فِي وَقْتِهِ رَحِمَهُ اللهُ وأَيْضًا هَذَا يتكَرَّرُ، فَوَقْتنَا هَذَا وَمَا بَعْدَهُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَشَدُّ؛ لأَنَّه كُلَّمَا تَأَخَّرَ الزَّمَانُ كَثُرَتِ الفِتَنُ، وَالشُّرُورُ، واسْتُغْرِبَتِ السُّنَّةُ، وَقَلَّ المُتَمَسِّكُونَ بِهَا، فَالخَطَرُ أَشَدُّ.

[١٥٢] قَالَ المُؤَلِّفُ ﷺ: وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَذْكُرُ ابنَ أَبِي دُؤَادٍ، وَبِشْرًا المَرِيسِيَّ، وَثُمَامَةَ، أَوْ أَبَا هُذَيلٍ، أَوْ هِشَامًا الفُوْطِيَّ، أَوْ وَاحِدًا مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، وَأَشْيَاعِهِمْ، فَاحْذَرْهُ فَإِنَّهُ صَاحِبُ بِدْعَةٍ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ كَانُوا عَلَى الرِّدَّةِ، وَاتْرُكْ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي ذَكَرَهُمْ بِخَيرٍ، وَمَنْ ذَكَرَ مِنْهُم.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَذْكُرُ ابنَ أَبِي دُؤَادٍ، وَبِشْرًا المَرِيسِيَّ، وَثُمَامَةَ، أَوْ أَبَا هُذَيلٍ، أَوْ هِشَامًا الفُوْطِيَّ) إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يُثْنِي عَلَى أَهْلِ الشَّرِّ وَعُلَمَاءِ الضَّلالِ، مِثْلِ هَؤُلاءِ الَّذِينَ هُمْ أَفْرَاخُ الجَهْمِيَّةِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ فَاسِقٌ وَأَنَّهُ فَاسِدٌ وَأَنَّهُ ضَالٌّ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَمْدَحْهُمْ إِلاَّ لأَنَّهُ يُحِبُّهُمْ وَيُسَوِّغُ طَرِيْقَتَهُمْ، وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَمْدَحُ أَهْلَ السُّنَّةِ مِثْلِ الإِمَامِ أَحْمَدَ، وابنِ المُبَارَكِ؛ وَكَذَلِكَ يَمْدَحُ عُلَمَاءَ التَّابِعِيْنَ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ خَيْرٍ؛ لأَنَّهُ مَا مَدَحَ أَهْلَ السُّنَّةِ إِلاَّ وَهُوَ يُحِبُّ السُّنَّةَ والتَّمَسُّكَ بِهَا، وَهَذَا يُعْطِينَا دَرْسًا فِي أَنَّ بَعْضَ الإِخْوَانِ أَوْ بَعْضَ طَلَبَةِ العِلْمِ يُثْنِي عَلَى بَعْضِ المُبْتَدِعَةِ أَوْ أَصْحَابِ الأَهْوَاءِ وَالأَفْكَارِ المُنْحَرِفَةِ، وَلا يَنْظُرُ إِلَى أَفْكَارِهِمْ وَإِلَى اتِّجَاهَاتِهِمْ، وَيَقَعُ فِي أَهْلِ الخَيْرِ، وَيَتَنَقَّصُ أَهْلَ الخَيْرِ؛ لأَنَّهُ يَسْمَعُ مِنْ أُولَئِكَ تَنَقُّصًا لَهُم وَيُصَدِّقُهُم، فَهَذَا خَطَرٌ شَدِيْدٌ، إِذَا تَنَقَّصَ أَهْلَ الخَيْرِ وَأَهْلَ العِلْمِ وَأَهْلَ السُّنَّةِ، وَمَدَحَ أَهْلَ الأَفْكَارِ المُنْحَرِفَةِ وَالتَّوَجُّهَاتِ المُنْحَرِفَةِ فَهَذَا خَطَرٌ شَدِيْدٌ، وَلَو لَمْ يُجَالِسْهُمْ، فَهَذَا مِمَّا يُحَذِّرُنا مِمَّا وَقَعَ فِيهِ كَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ الآنَ.

(ابنَ أَبِي دُؤَادٍ، وَبِشْرًا المَرِيسِيَّ) هُمَا اللَّذَانِ أَشَارا عَلَى المَأْمُونِ بِتَعْذِيبِ الإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ مِنَ الأَئِمَّةِ لأَجْلِ أَنْ يَقُولُوا بِخَلْقِ القُرْآنِ، (ثُمَامَةُ) ابنُ الأَشْرَسِ هَذَا مِنْ قَادَةِ أَهْلِ الضَّلالِ.

(وَأَبُو الهُذَيلِ) العَلاَّفُ مِنْ كِبَارِ المُعْتَزِلَةِ، وَ(هِشَامٌ الفُوْطِيُّ) مِنَ المُبْتَدِعَةِ.

قَوْلُهُ: (أَوْ وَاحِدًا مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، وَأَشْيَاعِهِمْ، فَاحْذَرْهُ) إِذَا رَأَيْتَهُ يُثْنِي عَلَى أَهْلِ الشَّرِّ وَأَهْلِ الانْحِرَافِ، فَاحْذَرْ مِنْهُ.

قَوْلُهُ: (فَإِنَّ هَؤُلاءِ كَانُوا عَلَى الرِّدَّةِ) أَيْ: بَعْضُهُمْ مُرْتَدٌّ، وَهُمْ أَئِمَّةُ الجَهْمِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ الَّذِينَ تَعَمَّدُوا مُخَالَفَةَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، هَؤُلاءِ لا شَكَّ فِي كُفْرِهِمْ، أَمَّا المُقَلِّدُ مِنْهُمْ فَيُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالضَّلالِ، وَلا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالكُفْرِ حَتَّى يُبَيَّنَ لَهُ، أَمَّا أَئِمَّتُهُمْ وَدُعَاتُهُمْ فَهُمْ يَعْرِفُونَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلالِ؛ فَلِذَلِكَ حُكِمَ عَلَيْهِم بِالرِّدَّةِ.

قَوْلُهُ: (وَاتْرُكْ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي ذَكَرَهُمْ بِخَيرٍ) لا تَغْتَرَّ بِمَدْحِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يُثْنِي عَلَيْهِمْ وَيَمْدَحُهُمْ، قَدْ يَكُونُ فِي أَهْلِ الضَّلالِ خِصَالٌ طَيِّبَةٌ، لَكِنِ انْظُرْ إِلَى مَا عِنْدَهُم مِنَ الضَّلالِ، فَلا تَغْتَرَّ بِخَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الخَيْرِ، وَتَغْفُلَ عَنِ الخِصَالِ الكَثِيرَةِ مِنَ الشَّرِّ، وَهَذِهِ أَيْضًا حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ، لأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُ: فُلانٌ عِنْدَهُ خَيْرٌ. وَلَو كَانَ مُنْحَرِفًا، لا خَيْرَ فِيهِ، كَمَا أَنَّ صَاحِبَ السُّنَّةِ وَلَو كَانَ عِنْدَهُ شَرٌّ قَلِيلٌ فَالْزَمْهُ؛ لأَنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ.

[١٥٣] قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: وَالمِحْنَةُ فِي الإِسْلامِ بِدْعَةٌ، وَأَمَّا اليَوْمَ فَيُمْتَحَنُ بِالسُّنَّةِ، لِقَوْلِهِ: «إِنَّ هَذَا العِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ»[1]، وقَوْلِهِ: «لا تَقْبَلُوا الحَدِيثَ إِلاَّ مِمَّنْ تَقْبَلُونَ شَهَادَتَهُ» فَتَنْظُرُ فَإِنْ كَانَ صَاحِبَ سُنَّةٍ لَهُ مَعْرِفَةٌ صَدُوقًا كَتَبْتَ عَنْهُ وَإِلاَّ تَرَكْتَهُ.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (وَالمِحْنَةُ فِي الإِسْلامِ بِدْعَةٌ، وَأَمَّا اليَوْمَ فَيُمْتَحَنُ بِالسُّنَّةِ) الأَصْلُ فِي المُسْلِمِ الخَيْرُ وَإِحْسَانُ الظَّنِّ به مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ خِلافُ ذَلِكَ، هَذِهِ هِيَ القَاعِدَةُ، فالمُؤَلِّفُ يَقُولُ: مَا دَامَ المُسْلِمُ لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ إِلاَّ الخَيْر فَإِنَّنَا نَقْبَلُ مِنْهُ الخَيْرَ، حَتَّى المُنَافِقُ، الرَّسُولُ ﷺ قَبِلَ ظَاهِرَ المُنَافِقِيْنَ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى الله تعالى، فَما دَامَ لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ شَيْءٌ فَأَنْتَ تُحْسِنَ الظَّنَّ بِهِ، لَكِن إِذَا ظَهَرَ مِنْهُ بُغْضٌ لِلسُّنَّةِ، ولأَهْلِ السُّنَّةِ؛ فَحِينَئِذٍ احْذَرْهُ، هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: (والمِحْنَةُ فِي الإِسْلامِ بِدْعَةٌ) يَعْنِي أَنَّ أيَّ مُسْلِمٍ لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ سُوءٌ فَلا تَمْتَحِنْهُ.

(وَأَمَّا اليَوْم) أَيْ: فِي وَقْتِهِ فَصَارَ يُمْتَحَنُ بِالسُّنَّةِ، لأَنَّهَا كَثُرتْ الفِرَقُ الضَّالَّةُ الَّتِي تَدَّعِي الإِسْلامَ، فَلابُدَّ أَنْ يُعْرفَ مَنْ هُوَ عَلَى السُّنَّةِ، ولا يُغْتَرَّ بِكَوْنِهِ يَدَّعِي الإِسلامَ.

فَالَّذِي يُحِبُّ أَهْلَ السُّنَّةِ هَذَا دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ، والَّذِي يُحِبُّ أَهْلَ البِدْعَةِ هَذَا دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ.

قَوْلُهُ: («إِنَّ هَذَا العِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ») التَّعَلُّمُ يَكُونُ عَلَى أَيْدِي عُلَماءِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَلا يَكُونُ عَلَى أَيْدِي عُلَماءِ البِدْعَةِ.

---

(١) ثبت هذا الكلام عن محمد بن سيرين في مقدمة «صحيحه».

قَوْلُهُ: (**«لا تَقْبَلُوا الحَدِيثَ إلاَّ مِمَّنْ تَقْبَلُونَ شَهَادَتَهُ»**) يَعْنِي: لا تَقْبَلُوا مِنَ الرُّوَاةِ لِلحَدِيثِ إلاَّ مَنْ تَقْبَلُونَ شَهَادَتَهُ عِنْدَ القَاضِي، لأَنَّهُ قَدْ كَثُرَ الضُّعَفَاءُ فِي الرِّوَايَةِ، وَكَثُرَ الكَذِبُ فِي الرِّوَايَةِ، هَذَا فِي حَقِّ مَنْ يَعْرِفُ عِلْمَ الحَدِيثِ، أَمَّا مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى كُتُبِ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ.

قَوْلُهُ: (**فَتَنْظُر فَإِنْ كَانَ صَاحِبَ سُنَّة لَهُ مَعْرِفَةٌ صَدُوقًا كَتَبْتَ عَنْهُ وَإِلاَّ تَرَكْتَهُ**) هَذَا بَيَانٌ لِقَوْلِهِ: «**إِنَّ هَذَا العِلْمَ دِينٌ**» انْظُرْ فِيمَنْ تَتَعَلَّمُ عَلَيْهِ وَتَرْوِي عَنْهُ الحَدِيثَ فَإِنْ رَأَيْتَهُ صَاحِبَ سُنَّةٍ وَاسْتِقَامَةٍ فَاكْتُبْ عَنْهُ الحَدِيثَ وَارْوِهِ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ بِخِلافِ ذَلِكَ فَلا تَأْخُذْ عَنْهُ الحَدِيثَ، لأَنَّ هُنَاكَ مَنْ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ وَهُوَ كَذَّابٌ، وَمَا أَكْثَر الوَضَّاعِيْنَ، هَذَا مِنْ حَيْثُ رِوَايَةُ الحَدِيثِ بِسَنَدِهِ، أَمَّا مِنْ حَيْثُ نَقْلُ الحَدِيثِ فارْجِعْ إِلَى كُتُبِ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ.

[١٥٤] قَالَ المُؤَلِّفُ ﷺ: وَإِذَا أَرَدْتَ الاسْتِقَامَةَ عَلَى الحَقِّ وَطَرِيْقِ أَهْلِ السُّنَّةِ قَبْلَكَ، فَاحْذَرِ الكَلامَ، وَأَصْحَابَ الكَلامِ وَالجِدَالِ وَالمِرَاءِ وَالقِيَاسِ وَالمُنَاظَرَةِ فِي الدِّيْنِ، فَإِنَّ اسْتِمَاعَكَ مِنْهُمْ وَإِنْ لَمْ تَقْبَلْ مِنْهُمْ يَقْدَحُ الشَّكَّ فِي القَلْبِ، وَكَفَى بِهِ قَبُولًا، فَتَهْلَكُ، وَمَا كَانَتْ زَنْدَقَةٌ قَطُّ، وَلا بِدْعَةٌ، وَلا هَوىً، وَلا ضَلالَةٌ، إِلاَّ مِنَ الكَلامِ وَالجِدَالِ وَالمِرَاءِ وَالقِيَاسِ، وَهِيَ أَبْوَابُ البِدْعَةِ، وَالشُّكُوكِ وَالزَّنْدَقَةِ.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (**وَإِذَا أَرَدْتَ الاسْتِقَامَةَ عَلَى الحَقِّ وَطَرِيْقِ أَهْلِ السُّنَّةِ قَبْلَكَ، فَاحْذَرِ الكَلامَ، وَأَصْحَابَ الكَلامِ**) مِنْ فِتَنِ أَهْلِ الضَّلالِ أَنَّهُمْ جَلَبُوا عِلْمَ الكَلامِ والجَدَلِ وَعِلْم المَنْطِقِ، وَجَعَلُوهُ الأَدِلَّةَ وَالبَرَاهِيْنَ الَّتِي يَعْتَمِدُون عَلَيْهَا فِي عَقِيْدَتِهِمْ، وَتَرَكُوا الكِتَابَ والسُّنَّة، لأَنَّهُمَا لا تُفِيدَانِ اليَقِيْنَ عِنْدَهُمْ، وَأَدِلَّةُ المَنْطِقِ وَعِلْمِ الكَلامِ عِنْدَهُم أَدِلَّةٌ يَقِيْنِيَّة وَبَرَاهِيْنُ قَطْعِيَّةٌ، فَبِذَلِكَ دَخَلَ الشَّرُّ عَلَى المُسْلِمِيْنَ عَنْ طَرِيْقِ عُلَمَاءِ الكَلامِ وَالجَدَلِ وَالمَنْطِقِ، الَّذِيْنَ يَعْتَمِدُونَ عَلَى قَوَاعِدِ المَنْطِقِ وَعِلْمِ الكَلامِ، وَيَجْعَلُونَهَا بَرَاهِيْنَ وأَدِلَّةً، وَلا يَعْتَمِدُونَ عَلَى الكِتَابِ والسُّنَّةِ؛ لأَنَّ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ بِزَعْمِهِمْ لا يُفِيدَانِ الْيَقِينَ، وَأَمَّا هَذِهِ القَوَاعِدُ فَهِيَ تُفِيْدُ اليَقِيْنَ عِنْدَهُم ويُسَمُّونَهَا (البَرَاهِيْنَ).

قَوْلُهُ: (**وَالجِدَالِ وَالمِرَاءِ وَالقِيَاسِ وَالمُنَاظَرَةِ فِي الدِّيْنِ**) أُمُورُ الدِّيْنِ لا يَجُوزُ أن تُجْعَلَ مَحَلًّا للأَخْذِ وَالرَّدِّ والجِدَالِ وحُرِّيَّةِ الرَّأْيِ كَمَا يَقُولُونَ، وَأَنْ تَخْضَعَ لِلصُّحُفِ وَالجَرَائِدِ وَتُلاكَ بِهَا الأَلْسِنَة؛ لأَنَّ أُمُورَ الدِّيْنِ تُحْتَرَمُ ويُقْتَصَرُ فِيْهَا عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ الكِتَابُ والسُّنَّةُ وَلا يَصِيرُ فِيْهَا جِدَالٌ أَبَدًا، هَذِهِ هِيَ القَاعِدَةُ والمَنْهَجُ السَّلِيْمُ، وَهَذَا مُقْتَضَى الإِيْمَانِ باللهِ وَرَسُولِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿مَا

﴿يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر:٤]، الَّذِيْنَ يُجَادِلُونَ فِي القُرْآنِ هَلْ هُوَ كَلامُ الله أَوْ هُوَ كَلامُ البَشَرِ، هَلْ يُفِيدُ اليَقِيْنَ أَوْ لا يُفِيْدُ اليَقِيْنَ أَوْ... أَوْ... إِلَى آخِرِهِ، هَذَا مِنَ الجِدَالِ بِآيَاتِ الله ﷻ، يَعْنِي كَأَنَّهُمْ لا يَثِقُونَ فِي آيَاتِ الله فَيُجَادِلُونَ فِيْهَا، أَوْ أَحَادِيثِ رَسُولِ الله ﷺ المَعْصُوم الَّذِي لا ﴿يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ [النجم:٣]؛ كَأَنَّهَا مَحَلُّ شَكٍّ وَأَخْذٍ وَرَدٍّ، وأُمُورُ الدِّينِ لَيْسَ فِيْهَا مُنَاظَرَةٌ بَلْ هِيَ أُمُورٌ ثَابِتَةٌ، يُسَلَّمُ لَهَا، وَلَيْسَ فِيْهَا شَكٌّ حَتَّى تُطْرَحَ لِلبَحْثِ كَمَا يَقُولُونَ.

قَوْلُهُ: (**فَإِنَّ اسْتِمَاعَكَ مِنْهُمْ وَإِنْ لَمْ تَقْبَلْ مِنْهُمْ يَقْدَحُ الشَّكَ فِي القَلْبِ**) يَعْنِي: اسْتِمَاعَكَ إِلَى الجِدَالِ فِي أُمُورِ الدِّيْنِ مِنْ هَؤُلاءِ وَإِنْ لَمْ تُصَدِّقْهُمْ؛ يُؤَثِّرُ فِي قَلْبِكَ، وَتَتَهَاوَنُ فِيْهَا فِي المُسْتَقْبَلِ؛ لأَنَّهُ إِذَا كَثُرَ الإِمْسَاسُ قَلَّ الإِحْسَاسُ كَمَا يَقُولُونَ، قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ هَذِهِ الفَضَائِيَّاتُ وَمَا يَدُورُ فِيهَا مِنَ الجِدَالِ فِي الدِّيْنِ والعَقِيدَةْ كَانَ المُسْلِمُونَ فِي هَذِهِ البِلادِ عَلَى عَقِيْدَةٍ سَلِيمَةٍ، وَلَيْسَ عِنْدَهُم شُكُوكٌ وَلا أَوْهَامٌ، وَلا أَحَدَ يَتَجَرَّأُ مِنْهُمْ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي مَسْأَلَةٍ مِنْ مسَائِلِ الدِّيْنِ، بَلْ يَرْجِعُونَ فِيْهَا إِلَى عُلَمَائِهِمْ، أَمَّا الآنَ فَصَارَتْ أُمُورُ الدِّيْنِ مَحَلَّ الجِدَالِ وَالأَخْذِ وَالرَّدِّ، وحُرِّيَّةِ الرَّأْيِ كَمَا يَقُولُونَ، بِسَبَبِ هَذِهِ الفَضَائِيَّاتِ الخَبِيثَةِ، فَالأَمْرُ خَطِيْرٌ جِدًّا، يَقُولُ قَائِلُهُمْ: هَذِهِ المَسْأَلَةُ فِيْهَا خِلافٌ، وَالعُلَمَاءُ يَكْتُمُونَ هَذَا عَنَّا، فَهَذَا يَقْدَحُ فِي نُفُوسِ النَّاسِ، العُلَمَاءُ يَعْلَمُونَ الخِلافَ، وَلَكِنْ لا يُبَيِّنُونَهُ لِلنَّاسِ إِنَّمَا يُبَيِّنُونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، ويَبْحَثُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ؛ لأَنَّهُمْ أَهْلٌ لِذَلِكَ، أَمَّا إِنَّهُمْ يَذْكُرُونَهُ لِلنَّاسِ وَعَلَى المَنَابِرِ وَفِي الإِذَاعَةِ، يَقُولُونَ: المَسْأَلَةُ فِيْهَا خِلافٌ، وفِيْهَا أَقْوَالٌ، هَذَا فِيهِ تَشْكِيكٌ فِي الدِّيْنِ فلا يَجُوزُ.

قَوْلُهُ: (**وَمَا كَانَتْ زَنْدَقَةٌ قَطُّ، وَلا بِدْعَةٌ، وَلا هَوىً، وَلا ضَلالَةٌ، إلاَّ مِنَ الكَلامِ وَالجِدَالِ وَالمِرَاءِ وَالقِيَاسِ**)؛ لأَنَّهُ يَفْتَحُ المَجَالَ لِلنَّاسِ لِلْجَدَلِ فِي أُمَورِ الدِّيْنِ، (**وَالقِيَاسِ**) يَعْنِي: القِيَاسَ الفَاسِدَ، أَمَّا القِيَاسُ الصَّحِيحُ فَهَذَا مِنْ أُصُولِ

الأَدِلَّةِ، فَالقِيَاسُ ثَلاثَةُ أَنْوَاعٍ:

الأَوَّلُ: قِيَاسُ الأَوْلَى، بِأَنْ يُقَالَ: كُلُّ كَمَالٍ لا يَسْتَلْزِمُ نَقْصًا فَاللهُ تَعَالَى أَوْلَى بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧].

الثَّانِي: قِيَاسُ التَّمْثِيلِ، بِأَنْ يُقَالَ: صِفَاتُ الخَالِقِ مِثْلُ صِفَاتِ المَخْلُوقِ كَمَا تَقُولُهُ المُمَثِّلَةُ، وَهَذَا بَاطِلٌ.

الثَّالِثُ: قِيَاسُ العِلَّةِ، وَهَذَا مِنْ أَدِلَّةِ أُصُولِ الفِقْهِ، يُسْتَعْمَلُ فِي المَسَائِلِ الفِقْهِيَّةِ، وَهَذَا يَقُولُ بِهِ جُمْهُورُ أَهْلِ العِلْمِ.

[١٥٥] قَالَ المؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: فَاللهَ اللهَ فِي نَفْسِكَ، وَعَلَيْكَ بِالآثَارِ وأَصْحَابِ الأَثَرِ وَالتَّقْلِيدِ، فَإِنَّ الدِّيْنَ إِنَّمَا هُوَ بِالتَّقْلِيدِ، يَعْنِي: لِلنَّبِيِّ ﷺ وأَصْحَابِهِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِم أَجْمَعِيْنَ، وَمَنْ قَبْلَنَا لَمْ يَدَعُونَا فِي لَبْسٍ فَقَلِّدْهُمْ وَاسْتَرِحْ وَلا تُجَاوِزِ الأَثَرَ وَأَهْلَ الأَثَرِ.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (فَاللهَ اللهَ فِي نَفْسِكَ، وَعَلَيْكَ بِالآثَارِ وأَصْحَابِ الأَثَرِ وَالتَّقْلِيدِ) المُرَادُ بِالتَّقْلِيدِ الاتِّبَاعُ، وَلَيْسَ هُوَ التَّقْلِيدَ الَّذِي عِنْدَ المُتَأَخِّرِيْنَ، بَلِ المُرَادُ بِهِ: الاتِّبَاعُ وَالاقْتِدَاءُ بِأَهْلِ العِلْمِ وَأَهْلِ الصَّلاحِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٠]، وقَوْلِهِ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف:٣٨]، فَهذَا اتِّبَاعٌ، والتَّقْلِيدُ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى الاتِّبَاعِ عَلَى الحَقِّ مَحْمُودٌ، أَمَّا التَّقْلِيدُ الأَعْمَى الَّذِي بِدُونِ دَلِيْلٍ فَهَذَا هُوَ المَرْدُودُ، فَالتَّقْلِيدُ عَلَى قِسْمَيْنِ:

- تَقْلِيْدٌ بِمَعْنَى الاتِّبَاعِ عَلَى الحَقِّ، وَهَذَا مَحْمُودٌ.
- تَقْلِيْدٌ مِنْ غَيْرِ دَلِيْلٍ، ومِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةِ مَا عَلَيْهِ المُقَلَّدُ مِنْ حَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ، وهَذَا هُوَ المَذْمُومُ.

(وعَلَيْكَ بالآثَارِ) يَعْنِي: الْزَمِ السُّنَّةَ وَالأَحَادِيثَ.

قَوْلُهُ: (فَإِنَّ الدِّيْنَ إِنَّمَا هُوَ بِالتَّقْلِيدِ، يَعْنِي: لِلنَّبِيِّ ﷺ وأَصْحَابِهِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِم أَجْمَعِيْنَ) وَهَذَا هُوَ الاتِّبَاعُ.

قَوْلُهُ: (وَمَنْ قَبْلَنَا لَمْ يَدَعُونَا فِي لَبْسٍ) مَنْ قَبْلَنَا مِنَ القُرُونِ المُفَضَّلَةِ وَالأَئِمَّةِ لَمْ يَدَعُونَا فِي لَبْسٍ مِنْ دِيْنِنَا، بل بَيَّنُوا لَنَا هَذَا الدِّيْنَ وَأَصَّلُوهُ وَحَرَّرُوهُ، فَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ أَنْ نَتَّبِعَهُمْ فِي ذَلِكَ وَنَسِيْرَ عَلَى مَنْهَجِهِمْ؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يُقَصِّرُوا فِي بَيَانِ هَذَا الدِّيْنِ وتَأْصِيلِهِ،

وَنَفْيِ البِدَعِ، والشَّوَائِبِ الَّتِي أُلْحِقَتْ بِهِ، وَجَدَّدُوهُ وَوَضَّحُوهُ رَحِمَهُمُ اللهُ.

قَوْلُهُ: (**فَقَلِّدْهُمْ وَاسْتَرِحْ**) لا تُكَلِّفْ نَفْسَكَ فَقَدْ كُفِيْتَ، فَإِنَّكَ عَلَى حَقٍّ إِذَا قَلَّدتَهُمْ.

قَوْلُهُ: (**وَلا تُجَاوِزِ الأَثَرَ وَأَهْلَ الأَثَرِ**) لا تُجَاوِزِ الحَدِيثَ وَأَهْلَ الحَدِيثِ فَإِنَّهُمْ عَلَى الحَقِّ، وَهُمُ الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ، لَـمَّا سُئِلَ الإِمَامُ أَحْمَدُ رحمه الله: مَنِ الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ؟ قَالَ: «إن لَمْ يَكُونُوا أَصْحَابَ الحَدِيثَ فَلا أَدْرِي مَنْ هُمْ».

[١٥٦] قَالَ المُؤَلِّفُ ﵀: وَقِفْ عِنْدَ مُتَشَابِهِ القُرْآنِ وَالحَدِيثِ وَلا تَقِسْ شَيْئًا.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (وَقِفْ عِنْدَ مُتَشَابِهِ القُرْآنِ وَالحَدِيثِ وَلا تَقِسْ شَيْئًا) قَالَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٧-٩]، فَأَخْبَرَ - سُبْحَانَهُ - أَنَّهُ أَنْزَلَ القُرْآنَ فِيهِ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ وَاضِحَةُ المَعْنَى لا تَحْتَاجُ فِي تَفْسِيرِها إِلَى غَيْرِهَا، وآيَاتٌ مُتَشَابِهَاتٌ تَحْتَاجُ فِي تَفْسِيرِها إِلَى غَيْرِهَا مِنْ كِتَابِ الله وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَذَلِكَ كَالمُطْلَقِ وَالمُقَيَّدِ، وَالمُجْمَلِ وَالمُبَيَّنِ، والنَّاسِخِ وَالمَنْسُوخِ، كُلُّ هَذَا مَوْجُودٌ فِي كَلامِ الله، وَكَلامِ رَسُولِهِ، فَأَهْلُ الزَّيْغِ يَأْخُذُونَ المُتَشَابِهَ وَيَتْرُكُونَ المُحْكَمَ، لأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الفِتْنَةَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ نَسْتَدِلُّ بِكَلامِ الله وَكَلامِ رَسُولِهِ ﷺ ويَأْخُذُونَ طَرَفًا وَهُوَ المُتَشَابِه، وَيَتْرُكُونَ الطَّرَفَ الآخَرَ الَّذِي يُفَسِّرُهُ ويُوَضِّحُهُ، وَيُقَيِّدُهُ وَيُبَيِّنُهُ، أَمَّا الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ الثَّابِتُونَ فِيهِ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فَيَرُدُّونَ المُتَشَابِهَ إِلَى المُحْكَمِ، فَيُفَسِّرُهُ ويُوَضِّحُهُ وَيُبَيِّنُهُ لَهُمْ فيَعْمَلُونَ بِالقُرْآنِ كُلِّهِ، وَبِالسُّنَّةِ كُلِّهَا، وَيَقُولُونَ: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أَمَّا أَهْلُ الزَّيْغِ فَيَأْخُذُونَ طَرَفًا وَيَتْرُكُونَ الطَّرَفَ الآخَرَ، وَيَقُولُونَ: هَذَا مِنَ القُرْآنِ، نَعَمْ هُوَ مِنَ القُرْآنِ وَلَكِنْ هُوَ فِي نَفْسِهِ غَيْرُ وَاضِحٍ يَحْتَاجُ إِلَى تَوْضِيحٍ، واللهُ قَدْ وَضَّحَهُ فِي آيَاتٍ أُخَرَ، والرَّسُولُ ﷺ قَدْ وَضَّحَ فِي أَحَادِيثَ صَحِيحَةٍ فَيُرَدُّ كَلامُ الله وَكَلامُ رَسُولِهِ إِلَى

بَعْضِهِ، فَيُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيُوَضِّحُ بَعْضُه بَعْضًا، هَذِهِ طَرِيقَةُ أَهْلِ العِلْمِ الرَّاسِخِينَ، أَمَّا أَهْلُ الزَّيْغِ فَإِنَّهُمْ يَأْخُذُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَيَتْرُكُونَ بَعْضَهُ، وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، بَعْضُهُمْ يَفْعَلُ هَذَا عَنْ تَعَمُّدٍ ويُرِيدُ التَّضْلِيلَ، وبَعْضُهُمْ يَفْعَلُ هَذَا عَنْ جَهْلٍ لأَنَّهُ مُتَعَالِمٌ لا يَدْرِي، لَمْ يَدْرُسِ الأُصُولَ، وَلَمْ يَدْرُسْ عُلُومَ القُرْآنِ وَعُلُومَ الحَدِيثِ والمُصْطَلَحِ وأُصُولِ الفِقْهِ، لَمْ يَدْرُسْ هَذِهِ الأُمُورَ، غَايَةَ مَا هُنَاكَ أَنَّهُ كَثِيرُ المُطَالَعَةِ وَكَثِيرُ الحِفْظِ فَظَنَّ أَنَّهُ عَالِمٌ، إِذَا كَانَ يَحْفَظُ كَثِيرًا وَيُطَالِعُ كَثِيرًا، لَكِنْ لَيْسَ عِنْدَهُ أُصُولُ العِلْمِ وَقَوَاعِدُهُ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَتعَلَّمْ عَلَى أَهْلِ العِلْمِ، فَهَذَا عَلَى جَهْلٍ وَهُوَ فِي نَفْسِ الأَمْرِ ضَالٌّ؛ لأَنَّ الطَّرِيْقَ الَّذِيَ يَسِيرُ فِيهِ طَرِيْقُ ضَلالٍ، أُمُورُ الدِّينِ وَأُمُورُ الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ تَحْتَاجُ إِلَى عِنَايَةٍ، وَتَحْتَاجُ إِلَى تَعَلُّمٍ، وَتَحْتَاجُ إِلَى تَلَقٍّ عَنْ أَهْلِ العِلْمِ، فَهُمْ بَيْنَ أَمْرَينِ:

إِمَّا زَائِغٌ يَعْرِفُ أَنَّهُ مُخْطِئٌ وَلَكِنْ يُرِيدُ التَّضْلِيلَ، وَيقُولُ: هَذِهِ آيَةٌ، وَهَذَا حَدِيْثٌ وَأَنَا أَسْتَدِلُّ مِنْ كَلامِ اللهِ وَمِنْ كَلامِ رَسُولِهِ. وَيَغُرُّ النَّاسَ.

وَإِمَّا جَاهِلٌ لا يَدْرِي مَا طَرِيقَةُ الاسْتِدْلالِ، وَلا طَرِيقَة فَهْم النُّصُوصِ، لا يَعْرِفُ هَذِهِ الأُمُورَ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَتَعَلَّم عَلَى أَهْلِ العِلْمِ إِنَّمَا تَعَلَّمَ عَلَى الوَرَق.

فَالأَمْرُ خَطِيرٌ جِدًّا؛ لِذَلِكَ يَتَعَيَّنُ عَلَى طَلَبَةِ العِلْمِ أَنْ يَعْتَنُوا بِهَذَا الأَمْرِ، وَأَنْ يَدْرُسُوهُ دِرَاسَةً حَقِيْقِيَّةً عَلَى أَهْلِ العِلْمِ، وَعَلَى أَهْلِ البَصِيْرَةِ إِنْ كَانُوا يُرِيدُونَ الهُدَى والخَيْرَ، وَإِلاَّ فَالمَسْأَلَةُ خَطِيْرَةٌ جِدًّا، وَلَيْسَ الأَمْرُ مَقْصُورًا عَلَيْهِم أَنَّهُمْ يَهْلَكُونَ وَحْدَهُمْ، لَكِنْ يُهْلِكُونَ غَيْرَهُمْ مِمَّنْ يَقْتَدِي بِهِمْ وَيَتْبَعُهُمْ، فَأَدِلَّةُ الشَّرْعِ مُتَرَابِطَةٌ بَعْضُها بِبَعْضٍ، والأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ مُتَرَابِطَةٌ وَالَّذِي يَقْطَعُ الصِّلَةَ بَيْنَهَا يَقْطَعُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيَكُونُ مِنَ الَّذِيْنَ قَالَ اللهُ

فِيهِمْ: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٥]، وَالعِيَاذُ بِاللهِ.

قَوْلُهُ: (ولا تَقِسْ شَيْئًا) المُرَادُ: القِيَاسُ البَاطِلُ.

مَثَلًا: قَالَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤] وَفِي الآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ [البقرة:٢٤٠] جَعَلَ عِدَّةَ الوَفَاةِ سُنَّةً كَامِلَةً، بِأَيِّ الآيَتَيْنِ تَأْخُذُ؟ العُلَمَاءُ جَمَعُوا بَيْنَ الآيَتَيْنِ بِأَنَّ الآيَةَ الأَخِيرَةَ هَذِهِ كَانَتْ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ، حَيْثُ كَانَتِ المُتَوَفَّى عَنْهَا تَبْقَى فِي بَيْتِهَا سَنَةً كَامِلَةً فِي العِدَّةِ، ثُمَّ خَفَّفَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا - فَأَنْزَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ يَعْنِي: بَلَغْنَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ لا جُنَاحَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ العِدَّةِ وَتَتَزَوَّجَ وَتَتَزَيَّنَ وَتَتَطَيَّبَ، لأَنَّهَا انْتَهَتْ عِدَّتُهَا.

اللهُ - جَلَّ وَعَلا - أَمَرَ بِقَطْعِ يَدِ السَارِقِ، فقالَ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، أَيُّ اليَدَيْنِ تُقْطَعُ، وَمِنْ أَيِّ مَكَانٍ تُقْطَعُ، وَكَمِ المَبْلَغُ الَّذِي تُقْطَعُ بِهِ اليَدُ؟ كُلُّ هَذَا لَيسَ فِي القُرْآنِ، إِنَّمَا هَذَا فِي سُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ الَّذِي وَكَلَ اللهُ إِلَيْهِ بَيَانَ القُرْآنِ، فَبَيَّنَ أَنَّ الَّتِي تُقْطَعُ اليَدُ اليُمْنَى، وَالقَطْعُ مِنْ مِفْصَلِ الكَفِّ وَأَنَّهُ لا يَجُوزُ القَطْعُ إِلاَّ إِذَا بَلَغَتِ السَّرِقَةُ النِّصَابَ ثَلاثَةَ دَرَاهِمَ أَوْ رُبعَ دِينَارٍ، فَالسُّنَّةُ مُفَسِّرَةٌ لِلْقُرْآنِ.

اللهُ أَمَرَ بِإِقَامِ الصَّلاةِ، كَمِ الصَّلَوَاتُ؟ وَمَا مَوَاقِيتُهَا؟ وَمَا أَعْدَادُ الرَّكَعَاتِ؟ مِنِ الَّذِي بَيَّنَ هَذَا؟ هُوَ الرَّسُولُ ﷺ فِي السُّنَّةِ، السُّنَّةُ تُفَسِّرُ القُرْآنَ وَتُوَضِّحُهُ

وَتَدُلُّ عَلَيْهِ، فَالمَسْأَلَةُ تَحْتَاجُ إِلَى عِلْمٍ، وَتَحْتَاجُ إِلَى بَصِيْرَةٍ، وَتَحْتَاجُ إِلَى فِقْهٍ فِي دِينِ اللهِ عَجَّلَ.

كَذَلِكَ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»[1] هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الَّذِي يَقْتُلُ المُؤْمِنَ يَكُونُ كَافِرًا خَارِجًا مِنَ المِلَّةِ، لَكِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ**﴾ [البقرة:١٧٨]، فَسَمَّى القَتِيلَ أَخًا لِلْقَاتِلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**مِنۡ أَخِيهِ**﴾ يَعْنِي: القَتِيلَ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ القَاتِلَ لا يَخْرُجُ مِنَ الإِسْلامِ، وَأَنَّ الأُخُوَّةَ الإِيْمَانِيَّةَ بَاقِيَةٌ، فَيَكُونُ المُرَادُ بِالكُفْرِ فِي قَوْلِهِ: «**لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا**» الكُفْرَ الأَصْغَرَ الَّذِي لا يُخْرِجُ مِنَ المِلَّةِ، وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ**﴾ [الحُجُرات:٩] مِنَ المُؤْمِنِيْنَ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لا يَزُولُ الإِيْمَانُ بِالاقْتِتَالِ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ، وَإِنَّمَا هَذَا كَبِيْرَةٌ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ وَهُوَ كُفْرٌ أَصْغَرُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿**إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ**﴾ جَعَلَ المُتَقَاتِلِيْنَ إِخْوَةً، فَلا بُدَّ مِنَ التَّرَوِّي فِي هَذِهِ الأُمُورِ وَالتَّفَقُّهِ فِي دِينِ اللهِ، وَأَخْذِ العِلْمِ مِنْ مَصَادِرِهِ وَعَنْ حَمَلَتِهِ.

وَكَمَا أَنَّ فِي القُرْآنِ آيَاتٍ مُتَشَابِهَةً فَكَذَلِكَ فِي الحَدِيثِ أَحَادِيثُ مُتَشابِهَةٌ يُرَدُّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَيُوَضِّحُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيُفَسِّرُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥).

[١٥٧] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَلا تَطْلُبْ مِنْ عِنْدِكَ حِيْلَةً تَرُدُّ بِهَا عَلَى أَهْلِ البِدَعِ، فَإِنَّكَ أُمِرْتَ بَالسُّكُوتِ عَنْهُمْ، وَلا تُمَكِّنْهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ مُحَمَّدَ بنَ سِيْرِينَ رَحِمَهُ اللهُ مَعَ فَضْلِهِ لَمْ يُجِبْ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ البِدَعِ فِي مَسْأَلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلا سَمِعَ مِنْهُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: «أَخَافُ أَنْ يُحَرِّفَهَا فَيَقَعُ فِي قَلْبِي شَيْءٌ».

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَلا تَطْلُبْ مِنْ عِنْدِكَ حِيْلَةً تَرُدُّ بِهَا عَلَى أَهْلِ البِدَعِ) إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَرُدَّ عَلَى أَهْلِ البِدَعِ، فَلا تَرُدَّ عَلَيْهِم بِجَهْلٍ فَإِنَّ هَذَا يَزِيدُ البَلاءَ بَلاءً، فَلا تَرُدَّ عَلَيْهِم إِلاَّ بعِلْمٍ، إِذَا كَانَ عِنْدَكَ عِلْمٌ واسْتِعْدَادٌ لِمَعْرِفَةِ الرَّدِّ فَرُدَّ وَإِلاَّ فَلا تَدْخُلْ فِي هَذَا المَيْدَانِ، فَيَكُونُ مَا تُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا تُصْلِحُ، لا تَرُدَّ عَلَيْهِم بِهَوَاكَ أَوْ بِمَا يَتَراءَى لَكَ مِنَ الفِكْرِ، لا تَرُدَّ إِلاَّ بعِلْمٍ، وَإِلاَّ فَتَوَقَّفْ.

قَوْلُهُ: (فَإِنَّكَ أُمِرْتَ بِالسُّكُوتِ عَنْهُمْ) إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ فَاسْكُتْ، نَعَم اكْرَهْ مَا هُمْ عَلَيْهِ وأَنْكِرْهُ بِقَلْبِكَ لَكِن لا تَدْخُلْ مَعَهُم فِي رَدٍّ بِدُونِ عِلْمٍ فيَكُونُ مَا تُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا تُصْلِحُ.

قَوْلُهُ: (وَلا تُمَكِّنْهُمْ مِنْ نَفْسِكَ)؛ لأَنَّكَ إِذَا رَدَدْتَ بِجَهْلٍ مَكَّنْتَهُمْ مِنْ أَنَّهُمْ يَرُدُّونَ عَلَيْكَ وَيَتَغَلَّبُونَ عَلَيْكَ، ويَذْكُرُونَ الأَخْطَاءَ الَّتِي وَقَعْتَ فِيْهَا فتَكُونُ أَنْتَ المُخْطِئَ، لَكِنْ إِذَا رَدَدْتَ بِعِلْمٍ وَحُجَجٍ مَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَرُدُّوا عَلَيْكَ.

قَوْلُهُ: (أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ مُحَمَّدَ بنَ سِيْرِين رَحِمَهُ اللهُ مَعَ فَضْلِهِ لَمْ يُجِبْ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ البِدَعِ فِي مَسْأَلَةٍ وَاحِدَةٍ) مُحَمَّدُ بن سِيْرِينَ مِنْ كِبَارِ التَّابِعِيْنَ ومِنْ أَهْلِ العِلْمِ المَشْهُورِينَ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يَدْخُلْ فِي الرَّدِّ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ؛ لأَنَّهُ يَرَى أَنَّ الرَّدَّ عَلَيْهِ

لا يُجْدِي، لأَنَّ سُؤَالَهُ لَيْسَ سُؤَالَ عِلْمٍ وَإِنَّمَا سُؤَالُ تعَنُّتٍ، وهَذَا مِنَ الحِكْمَةِ، لأَنَّ قَصْدَ أَهْلِ الشَّرِّ أنْ يُثِيرُوا الشَّرَّ، فَهُوَ لَـمَّا أَدْرَكَ مِنْهُمْ هَذَا وأَنَّهُمْ لَيْسُوا مُسْتَرْشِدِينَ وَلا طَالِبِيْنَ لِلْحَقِّ وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ التَّشْوِيشَ سَكَتَ عَنْهُمْ وَتَرَكَهُمْ، والشَّاعِرُ يَقُول:

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلا تُجِبْهُ ... فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السُّكُوتُ

قَوْلُهُ: (**وَلا سَمِعَ مِنْهُ آيَةً مِنْ كِتَابِ الله ﷻ**) إِذْ مَنْ يَقُول: أُسْمِعُكَ آيَة أَوْ نُرِيدُ أنْ نَبْحَثَ فِي مَعْنَاهَا. وَهُوَ يَعْرِفُ مَقْصُودَهُ وَأَنَّهُ لَيْسَ قَصْدُهُ الاسْتِرْشَادَ فَإِنَّهُ لا يُجِيبُه، وَلا يُفَسِّرُ لَهُ الآيَةَ.

(**فَقِيلَ لَهُ، فقَالَ: «أَخَافُ أَنْ يُحَرِّفَهَا فَيَقَعُ فِي قَلْبِي شَيْءٌ»**) إِذَا فَتَحَ لَهُ المَجَالَ رُبَّمَا يَقَعُ فِي قَلْبِ ابنِ سِيْرِينَ شَيْءٌ مِنْ شُبُهَاتِهِ؛ فَهُوَ يُرِيدُ سَدَّ هَذَا البَابِ.

[١٥٨] قَالَ المُؤَلِّفُ ﵀: وَإِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَقُولُ: إِنَّا نَحْنُ نُعَظِّمُ اللهَ، إِذَا سَمِعَ آثَارَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ جَهْمِيٌّ، يُرِيدُ أَنْ يَرُدَّ أَثَرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَدْفَعُهُ بِهَذِهِ الكَلِمَةِ، وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُعَظِّمُ اللهَ وَيُنَزِّهُهُ إِذَا سَمِعَ حَدِيْثَ الرُّؤْيَةِ(١)، وَحَدِيْثَ النُّزُولِ(٢)، وَغَيْرَهُ، أَفَلَيْسَ قَدْ رَدَّ أَثَرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا قَالَ: إِنَّا نَحْنُ نُعَظِّمُ اللهَ أَنْ يَنْزِلَ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ فَقَدْ زَعَمَ أَنَّهُ أَعْلَمُ بِاللهِ مِنْ غَيْرِهِ، فَاحْذَرْ هَؤُلاءِ، فَإِنَّ جُمْهُورَ النَّاسِ مِنَ السُّوقَةِ وَغَيْرِهِمْ عَلَى هَذَا الحَالِ، وَحَذِّرِ النَّاسَ مِنْهُمْ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَإِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَقُولُ: إِنَّا نَحْنُ نُعَظِّمُ اللهَ، إِذَا سَمِعَ آثَارَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ جَهْمِيٌّ) لأَنَّ الجَهْمِيَّ إِذَا سَمِع أَحَادِيثَ الصِّفَاتِ مِثْلَ حَدِيْثَ النُّزُولِ، وَحَدِيْثِ رُؤْيَةِ المُؤْمِنِيْنَ اللهَ ﷻ، قَالَ: إِنَّنَا نُعَظِّمُ اللهَ ﷻ. أَيْ: إِنَّنَا نُعَظِّمُهُ عَنْ هَذِهِ الأَحَادِيثِ؛ لأَنَّهَا عِنْدَهُ تَقْتَضِي تَشْبِيهَ اللهِ بِخَلْقِهِ، وَهَذَا تَنَقُّصٌ للهِ فيَكُونُ عِنْدَهُ أَنَّ أَحَادِيثَ الرَّسُولِ فِيْهَا تَنَقُّصٌ للهِ، وفِيْهَا تَشْبِيهٌ، فَهُوَ لا يُرِيدُ تعظِيْمَ اللهِ التَّعظِيْمَ الحَقِيْقِيَّ، لَكِن لَهُ هَدَفٌ مِنْ هَذِهِ الكَلِمَةِ، وهُوَ يُرِيدُ أَنَّهُ لا يَعْمَل بِهَذِهِ الأَحَادِيثِ.

قَوْلُهُ: (يُرِيدُ أَنْ يَرُدَّ أَثَرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَدْفَعُهُ بِهَذِهِ الكَلِمَةِ) أَيْ: بِكَلِمَةِ (نُعَظِّمُ اللهَ)، فَهِيَ كَلِمَةُ حَقٍّ وَلَكِنْ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ، يُرَادُ بِهَا رَدُّ أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ الصَّحِيحَةِ الثَّابِتَةِ عَنْ رَسُولِ اللهِ؛ لأَنَّهُ زَعَمَ أَنَّهَا تَنَقُّصٌ للهِ ﷻ.

---

(١) سبق تخريجها.

(٢) سبق تخريجها.

قَوْلُهُ: (**فَقَدْ زَعَمَ أَنَّهُ أَعْلَمُ بِاللهِ مِنْ غَيْرِهِ**)؛ أيْ: أَنَّهُ أَعْلَمُ بِاللهِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ وَهَلْ بَعْدَ هَذَا الكُفْرِ كُفْرٌ وَالعِيَاذُ بِاللهِ.

قَوْلُهُ: (**فَإِنَّ جُمْهُورَ النَّاسِ مِنَ السُّوقَةِ وَغَيْرِهِمْ عَلَى هَذَا الحَالِ**) السُّوقَةُ: يَعْنِي العَوَامَّ، إِذَا سَمِعُوا كَلِمَةً تُعَظِّمُ اللهَ؛ أَخَذُوا كلامَ الجَهْمِيِّ عَلَى ظَاهِرِهِ لأَنَّهُمْ لا يَدْرُونَ مُرَادَهُ.

[١٥٩] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَإِذَا سَأَلَكَ أَحَدٌ عَنْ مَسْأَلَةٍ فِي هَذَا البَابِ وَهُوَ مُسْتَرْشِدٌ فَكَلِّمْهُ وَأَرْشِدْهُ، وَإِذَا جَاءَكَ يُنَاظِرْكَ؛ فَاحْذَرْهُ، فَإِنَّ فِي المُنَاظَرَةِ: المِرَاء وَالجِدَال وَالمُغَالَبَة والخُصُومَة وَالغَضَبَ، وَقَدْ نُهِيتَ عَنْ جَمِيعِ هَذَا جِدًّا، وَهُوَ يُزِيلُ عَنْ طَرِيْقِ الحَقِّ، وَلَمْ يَبْلُغْنَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ فُقَهَائِنَا وَعُلَمَائِنَا أَنَّهُ نَاظَرَ أَوْ جَادَلَ أَوْ خَاصَمَ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَإِذَا سَأَلَكَ أَحَدٌ عَنْ مَسْأَلَةٍ فِي هَذَا البَابِ وَهُوَ مُسْتَرْشِدٌ فَكَلِّمْهُ وَأَرْشِدْهُ) السَّائِلُ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

القِسْمُ الأَوَّل: سَائِلٌ مُسْتَرْشِدٌ، فَهَذَا لَهُ الحَقُّ فِي أَنَّكَ تُجِيبُهُ وَتَوَضِّحُ لَهُ، وَتُشَجِّعُهُ.

القِسْمُ الآخر: سَائِلٌ مُتَعَنِّتٌ مُعْتَرِضٌ يُشَبِّهُ عَلَى النَّاسِ، فَهَذَا احْذَرْهُ وَلا تَدْخُلْ مَعَهُ فِي مَيْدَانٍ، فَإِنَّكَ إِذَا تَرَكْتَهُ انْحَسَمَ الأَمْرُ، وَإِذَا دَخَلْتَ مَعَهُ فَإِنَّ الأَمْرَ يَزِيدُ شَرًّا، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُحَرِّكَ الفِتْنَةَ.

(فِي هَذَا البَابِ) يَعْنِي: بابَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

قَوْلُهُ: (وَإِذَا جَاءَكَ يُنَاظِرْكَ؛ فَاحْذَرْهُ) إِنْ كَانَ قَصْدُهُ المُنَاظَرَةَ والمُجَادَلَةَ فَاتْرُكْهُ، لا تَدْخُلْ مَعَهُ؛ لأَنَّهُ يُرِيدُ الضَّلالَ وَيُرِيدُ التَّلْبِيسَ.

قَوْلُهُ: (فَإِنَّ فِي المُنَاظَرَةِ: المِرَاء وَالجِدَال وَالمُغَالَبَة والخُصُومَة وَالغَضَب) لِذَلِكَ لَـمَّا دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى الإِمَامِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ وَهُوَ فِي الحَلْقَةِ، قَالَ: إِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، كَيْفَ اسْتَوَى؟ فَأَطْرَقَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ بِرَأْسِهِ حَتَّى عَرِقَ مِنَ الحَيَاءِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: «الاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَمَا أُرَاكَ إِلاَّ رَجُلَ

فِتْنَةٍ» فَأَمْرْ بِهِ فَأَخْرِجَ؛ لأَنَّهُ لا يَقْصِدُ الاسْتِرْشَادَ وَإِنَّمَا يَقْصِدُ التَّشْبِيهَ عَلَى النَّاسِ وَنَفْيَ الاسْتِوَاءِ وَتَفْسِيْرَهُ بِغَيْرِ تَفْسِيْرِهِ الصَّحِيحِ.

قَوْلُهُ: (**وَلَمْ يَبْلُغْنَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ فُقَهَائِنَا وَعُلَمَائِنَا أَنَّهُ نَاظَرَ أَوْ جَادَلَ أَوْ خَاصَمَ**) أَيْ: لَمْ يَفْعَلْ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْمُخَاصَمَةِ الَّتِي يُرَادُ بِهَا إِثَارَةُ الفِتْنَةِ وَتَشْكِيكُ النَّاسِ وَنَشْرُ البَلْبَلَةِ، أَحَدٌ مِنَ الأَئِمَّةِ وَالعُلَمَاءِ وَسَلَفِ هَذِهِ الأُمَّةِ أَوْ دَخَلَ هَذَا المَيْدَانَ، وَإِنَّمَا يُرْشِدُونَ السَّائِلَ الْمُسْتَرْشِدَ لا السَّائِلَ الْمُتَعَنِّتَ الَّذِي لا يُرِيدُ الفَائِدَةَ وَإِنَّمَا يُرِيدُ إِثَارَةَ الفِتْنَةِ والجِدَالَ، والْمُنَاظَرَةَ، والدِّيْنُ وَاضِحٌ وَللهِ الحَمْدُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر:٤]، وَالقُرْآنُ وَاضِحٌ بَيِّنٌ فَلَيْسَ فِيهِ جِدَالٌ، نُؤْمِنُ به ونُثْبِتُ مَا جَاءَ بِهِ، نُؤْمِنُ بِهِ لَفْظًا ومَعْنًى وَنَعْملُ به كَمَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ. هَذَا هُوَ الوَاجِبُ عَلَيْنَا.

قَالَ المُؤَلِّفُ رحمه الله: قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ رحمه الله تَعَالَى: «الحَكِيمُ لا يُمارِي وَلا يُدَارِي، حِكْمَتُهُ يَنْشُرُهَا؛ إِنْ قُبِلَتْ حَمِدَ اللهَ، وَإِنْ رُدَّتْ حَمِدَ اللهَ».

وجَاءَ رَجُلٌ إِلَى الحَسَنِ فَقَالَ: أَنَا أُنَاظِرُكَ فِي الدِّيْنِ، فَقَالَ الحَسَنُ: «أَنَا عَرَفْتُ دِينِي، فَإِنْ ضَلَّ دِينُكَ فَاذْهَبْ فَاطْلُبْهُ».

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ رحمه الله تَعَالَى: «الحَكِيمُ لا يُمارِي وَلا يُدَارِي) الحَسَنُ البَصْرِيُّ: هُوَ الحَسَنُ بنُ أَبِي الحَسَنِ البَصْرِيُّ الإِمَامُ المَشْهُورُ مِنَ التَّابِعِيْنَ، يَقُولُ: «الحَكِيْمُ» أَي: الَّذِي عِنْدَهُ حِكْمَةٌ، وَالحِكْمَةُ: وَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ؛ وَكَذَلِكَ الحَكِيْمُ يَعْنِي الفَقِيهَ، فالحَكِيْمُ يُرادُ بِهِ مَعْنيَانِ: المَعْنَى الأَوَّلُ مُرَادُهُ الَّذِي يَضَعُ الأُمُورَ فِي مَوَاضِعِهَا، ويُرادُ بِهِ أَيْضًا الفَقِيْهُ لأَنَّ الحِكْمَةَ هِيَ الفِقْهُ وَمَعْرِفَةُ مُرَادِ اللهِ وَرَسُولِهِ، «لا يُمارِي» لا يُجادِلُ جِدالًا عَقِيمًا لَيسَ القَصْدُ مِنْهُ الفَائِدَةَ، «ولا يُدَارِي» لا يُدَارِي أَهْلَ البَاطِلِ وَيَسْتَسْلِمُ لَهُمْ.

قَوْلُهُ: (حِكْمَتُهُ) يَعْنِي: عِلْمَهُ (يَنْشُرُهَا؛ إِنْ قُبِلَتْ حَمِدَ اللهَ) هَذَا هُوَ المَطْلُوبُ، وَإِنْ لَمْ تُقبَلْ فَإِنَّهُ يَكُونُ أَبرَأَ ذِمَّتَهُ وَبَلَّغَ الحُجَّةَ.

قَوْلُهُ: (حَمِدَ اللهَ)؛ لأَنَّهُ أَقَامَ الحُجَّةَ، وَبَلَّغَ الحُجَّةَ، وَأَدَّى مَا عَلَيْهِ، وهِدَايَةُ القُلُوبِ بِيَدِ اللهِ سبحانه وتعالى.

قَوْلُ الحَسَنِ: «أَنَا عَرَفْتُ دِينِي، فَإِنْ ضَلَّ دِينُكَ فَاذْهَبْ فَاطْلُبْهُ» هَذِهِ كَلِمَةُ حِكْمَةٍ، لَـمَّا قَالَ: أَنَا أُنَاظِرُكَ فِي الدِّيْنِ، فَقَالَ الحَسَنُ: «أَنَا عَرَفْتُ دِينِي» يَعْنِي: أَنَا لَسْتُ فِي لَبْسٍ حَتَّى أُنَاظِرَ وأَتَجَادَلَ مَعَكَ، أَمَّا أَنْتَ إِذَا كَانَ دِينُكَ لَيسَ مَعَكَ فَاذْهَبْ واطْلُبْهُ وَالتَمِسْهُ.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ الدِّيْنَ هُوَ التَّقْلِيدُ، والتَّقْلِيدُ لأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

الشَّرْحُ

تَقَدَّمَ شَرْحُ هَذَا.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَسَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَوْمًا عَلَى بَابِ حُجْرَتِهِ يَقُولُ أَحَدُهُمْ: أَلَمْ يَقُلِ اللهُ كَذَا؟ وَيَقُولُ الآخَرُ: أَلَمْ يَقُلِ اللهُ كَذَا؟ فَخَرَجَ مُغْضَبًا، فَقَالَ: «أَبِهَذَا أَمَرْتُكُمْ؟! أَمْ بِهَذَا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ؟! أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَه بِبَعْضٍ؟!»[1] فَنَهَاهُمْ عَنِ الجِدَالِ.

الشَّرْحُ

المُنَاظَرَةُ إِنَّمَا تَكُونُ فِي الأَشْيَاءِ الخَفِيَّةِ الَّتِي لا يُدْرَى مَنِ الحَقُّ مَعَهُ، فَهَذَا يَحْصُلُ فِيهِ مُنَاظَرَةٌ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَّضِحَ الحَقُّ وَيَتَبَيَّنَ مَعَ أَيِّ الفَرِيقَيْنِ أَوْ مَعَ أَيِّ الرَّجُلَيْنِ، أَمَّا إِذَا تَوَضَّحَ الحَقُّ واسْتَبَانَ فَلا نَقْبَلُ المُنَاظَرَةَ؛ لأَنَّ المُنَاظِرَ يُرِيدُ التَّأْثِيرَ فِي الحَقِّ وَصَرْفَ النَّاسِ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «أَبِهَذَا أَمَرْتُكُمْ...» هَذَا حَدِيْثٌ عَظِيْمٌ، لَـمَّا سَمِعَ النَّبِيّ ﷺ قَوْمًا يَتَجَادَلُونَ فِي القُرْآنِ وَيَأْخُذُونَ الآيَاتِ المُتَشَابِهَاتِ وَيَحْتَجُّونَ بِهَا، كُلٌّ يَأْخُذُ آيَةً تُعَارِضُ الآيَةَ الأُخْرَى، وَيَقُولُ: «أَلَمْ يَقُلِ اللهُ كَذَا؟» ثُمَّ يَقُولُ الآخَرُ: «أَلَمْ يَقُلِ اللهُ كَذَا؟» فَهَذِهِ طَرِيقَةُ أَهْلِ الزَّيْغِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧]، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «أَبِهَذَا أَمَرْتُكُمْ؟!» الرَّسُولُ يَنْهَى عَنْ هَذَا، قَالَ: «لا تَضْرِبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَه بِبَعْضٍ» كِتَابُ اللهِ لا يَتَضَارَبُ أَبَدًا وَلا يَتَعَارَضُ، إِذَا وُفِّقَ العَالِمُ لِفَهْمِهِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَتَعَارَضُ وَيَتَضَارَبُ عِنْدَ الجَاهِلِ الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ أُصُولُ العِلْمِ الصَّحِيحِ.

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٢/ ١٧٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «المشكاة» (٢٣٧).

قَالَ المؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَكَانَ ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَكْرَهُ المُناظَرَةَ، ومَالِكُ بنُ أَنَسٍ، ومَنْ فَوْقَهُ، ومَنْ دُونَهُ، إِلَى يَوْمِنا هَذَا، وَقَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ أَكْبَرُ مِنْ قَوْلِ الخَلْقِ، قَالَ اللهُ - تَبارَكَ وَتَعالَى-: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر:٤].

وسَأَلَ رَجُلٌ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ: مَا ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ [النازعات:٢]؟ فَقَالَ: «لَوْ كُنْتَ مَحْلُوقًا، لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ».

وقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المُؤْمِنُ لا يُمارِي، وَلا أَشْفَعُ لِلْمُمارِي يَوْمَ القِيامَةِ، فَدَعُوا المِرَاءَ لِقِلَّةِ خَيْرِهِ».

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (وَكَانَ ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَكْرَهُ المُناظَرَةَ) المُرادُ المُناظَرَةُ الَّتِي القَصْدُ مِنْها التَّشْوِيشُ عَلَى النَّاسِ، وَكُلٌّ يَنْتَصِرُ لِرَأْيِهِ، لا يُرِيدُ الحَقَّ وَإِنَّما يُرِيدُ أَنْ يَنْتَصِرَ لِرَأْيِهِ وَأَنْ يَغْلِبَ خَصْمَهُ، هَذِهِ مُناظَرَةٌ مَذْمُومَةٌ، أَمَّا إِنْ كَانَ القَصْدُ مِنْها الوُصُولَ لِلْحَقِّ، ومَعْرِفَةِ الحَقِّ مَعَ مَنْ كَانَ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى الحَقِّ فَهَذا شَيْءٌ مَطْلُوبٌ.

قَوْلُهُ: (ومَالِكُ بنُ أَنَسٍ، ومَنْ فَوْقَهُ، ومَنْ دُونَهُ، إِلَى يَوْمِنا هَذَا) يَعْنِي يَكْرَهُونَ المُناظَرَةَ مَعَ أَنَّ المُناظَرَةُ قَدْ تَتَعَيَّنُ أَحْيانًا لَكِنَّ الإِنْسانَ فِي عافِيَةٍ لا يَدْخُلُ فِي المُناظَرَةِ إِلاَّ عِنْدَ الضَّرُورَةِ، وَإِذَا كَانَ عِنْدَهُ اسْتِعْدادٌ وَتَجَرَّدَ عَنِ الهَوَى، لا يَكُونُ هَمُّهُ أَنَّهُ يَنْتَصِرُ، بَلْ يَكُونُ هَمُّهُ أَنْ يَنْتَصِرَ الحَقُّ، سَواءٌ كَانَ مَعَهُ أَوْ مَعَ خَصْمِهِ، هَذِهِ المُناظَرَةُ الصَّحِيحَةُ؛ لِهَذَا جاءَ عَنِ الإِمامِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «مَا نَاظَرْتُ أَحَدًا إِلاَّ أَحْبَبْتُ أَنْ يَظْهَرَ الحَقُّ عَلَى يَدِهِ فَانْتَفَعَ»؛ لأَنَّهُ لَيْسَ قَصْدُهُ الهَوَى وَأَنْ يَنْتَصِرَ هُوَ، بَلْ قَصْدُهُ ظُهُورُ الحَقِّ، وَبَيانُ الحَقِّ، سَواء مَعَهُ أَوْ مَعَ غَيْرِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر:٤] المُجَادَلَةُ فِي آيَاتِ اللهِ تَكُونُ بِإِنْكَارِهَا، وَتَكُونُ بِضَرْبِ بَعْضِ القُرْآنِ بِبَعْضٍ، وَمُعَارَضَةِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ هَذَا فِعْلُ الكُفَّارِ؛ لِهَذَا لَـمَّا سَمِعُوا النَّبِيَّ ﷺ يَدْعُو فِي صَلاتِهِ يَقُولُ: «يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ» قَالُوا: انْظُرُوا إِلَى هَذَا يَزْعُمُ أَنَّ لَهُ إِلَهًا وَاحِدًا وَهُوَ يَقُولُ: «يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ» يُلَبِّسُونَ عَلَى النَّاسِ أَنَّ الرَّحْمَنَ إِلَهٌ مُسْتَقِلٌّ، وَالرَّحِيمَ إِلَهٌ مُسْتَقِلٌّ، فَأَنْزَلَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠].

قَوْلُهُ: **(وسَأَلَ رَجُلٌ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ)** وَهُوَ صُبَيغُ بنُ عِسْلٍ الَّذِي كَانَ مَشْهُورًا بِالجِدَالِ، وَالفُضُولِيَّاتِ فِي عَهْدِ عُمَرَ رضي الله عنه سَأَلَه عَنْ: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ مَا هِيَ؟ وَهُوَ لَيْسَ بِحَاجَةٍ إِلَى هَذَا، كَانَ الوَاجِبُ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ أُمُورِ دِيْنِهِ، وَعَنْ أُمُورِ عَقِيْدَتِهِ، أَمَّا السُّؤَالُ عَنْ: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ فَهَذَا مَيسُورٌ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ، وَلا يَحْتَاجُ إِلَى الوُقُوفِ عِنْدَهُ، فالوَاجِبُ أَنْ يَسْأَلَ عَمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا وَحَاجَتُهُ إِلَيْهِ أَكْثَرُ، فَفُضُولُ الأَسْئِلَةِ لا يَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَشْغَلَ نَفْسَهُ، وَيَشْغَلَ مُدَرِّسَهُ بِهَا، إِنَّمَا يَسْأَلُهُ عَنْ أُمَّهَاتِ المَسَائِلِ وَعَنِ المُهِمَّاتِ.

قَوْلُهُ: **(لَوْ كُنْتَ مَحْلُوقًا)** يَعْنِي: حَلِيْقَ الرَّأْسِ؛ لأَنَّ هَذِهِ صِفَةُ الخَوَارِجِ، هُمُ الَّذِيْنَ يَسْأَلُونَ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الأَسْئِلَةِ، فَلَوْ كَانَتْ عَلَيْكَ عَلامَتُهُمْ لأَوْجَعْتُكَ ضَرْبًا، فَهَذَا السُّؤَالُ مِنْ جِنْسِ أَسْئِلَةِ الخَوَارِجِ؛ لأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ عَنْ أَشْيَاءَ لَيْسُوا بِحَاجَةٍ إِلَيْهَا.

قَوْلُهُ: **(لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ)** يَعْنِي: قَتَلْتُكَ؛ لأَنَّ الخَوَارِجَ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَتْلِهِمْ، قَالَ: «**فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُم، وَلَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**» وَالخِطَابُ هَذَا خِطَابٌ لِوُلاةِ الأُمُورِ وَلَيْسَ خِطَابًا لِكُلِّ أَحَدٍ، فَلا تَأْخُذْ مَعَكَ سِلاحًا

وَتَقْتُلَ كُلَّ مَنِ اتَّهَمْتَهُ أَنَّهُ مِنَ الخَوَارِجِ، فهَذِهِ فَوْضَى، الَّذِي يَقْتُلُ هُوَ وَلِيُّ الأَمْرِ، وَعُمَرُ هُوَ وَلِيُّ الأَمْرِ رضي الله عنه.

قَوْلُهُ ﷺ: «**المُؤْمِنُ لا يُمَارِي، وَلا أَشْفَعُ لِلْمُمَارِي يَوْمَ القِيَامَة، فَدَعُوا المِرَاءَ لِقِلَّةِ خَيْرِهِ**» المِرَاءُ: هُوَ الجِدَالُ بِغَيْرِ فَائِدَةٍ، الَّذِي يَبْعَثُ عَلَى التَّشْكِيكِ، وَيَشْغَلُ الوَقْتَ بِغَيْرِ فَائِدَةٍ، المُمَارَاةُ وَالمُجَادَلَةُ وَالمُنَاظَرَةُ، كُلُّهَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ، «**المُؤْمِنُ لا يُمَارِي**» أيْ: مِنْ عَلامَاتِ المُؤْمِنِ أَنَّهُ يَتَجَنَّبُ المُمَارَاةَ الَّتِي لا فَائِدَةَ فِيهَا، «**وَلا أَشْفَعُ لِلْمُمَارِي يَوْمَ القِيَامَةِ**» هَذَا وَعِيْدٌ شَدِيْدٌ لِلْمُمَارِي فِيهِ التَّحْذِيْرُ مِنَ المُمَارَاةِ، «**فَدَعُوا المِرَاءَ لِقِلَّةِ خَيْرِهِ**» يَقُولُ بَعْضُ العُلَمَاءِ فِي كُتُبِ العَقَائِدِ المَنْظُومَةِ:

فَلا مِرَاءَ وَمَا فِي الدِّينِ مِنْ جَدَلٍ ... وَهَلْ يُجَادِلُ إِلاَّ كُلُّ مَنْ كَفَرَ

[١٦٠] قَالَ المؤَلِّفُ ﷺ: وَلا يَحِلُّ لِرَجُلٍ مُسْلِمٍ أَنْ يَقُولَ: فُلانٌ صَاحِبُ سُنَّةٍ، حَتَّى يَعْلَمَ مِنْهُ أَنَّهُ قَدِ اجْتَمَعَتْ فِيهِ خِصَالُ السُّنَّةِ، لا يُقَالُ لَهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ حَتَّى تَجْتَمِعَ فِيهِ السُّنَّةُ كُلُّهَا.

الشَّرْحُ

لا تُزَكِّ الشَّخْصَ وَتَمْدَحْهُ إِلاَّ عَنْ عِلْمٍ؛ لِئَلَّا يَغْتَرَّ النَّاسُ بِمَدْحِكَ لَهُ وَهُوَ لَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِذَا تَحَقَّقْتَ مِنْهُ وَمِنْ طَرِيْقَتِهِ، وَمِنْ عَلْمِهِ وَمِنِ اسْتِقَامَتِهِ فَإِنَّكَ تُزَكِّيهِ، أَمَّا أَنْ تَنْبَعِثَ فِي مَدْحِهِ وَتَزْكِيَتِهِ وَأَنْتَ لا تَعْلَمُ عَنْهُ شَيْئًا فَهَذِهِ تُزَكِّيَةٌ خَطِيْرَةٌ تَغُرُّ النَّاسَ بِهَذَا الشَّخْصِ، فَلَيْتَ الَّذِينَ يُزَكُّونَ النَّاسَ يَتَوَقَّفُونَ عَنْ ذَلِكَ، فَلا يُزَكُّونَ إِلاَّ مَنْ تَوَفَّرَتْ فِيهِ شُرُوطُ التَّزْكِيَةِ؛ لأَنَّ التَّزْكِيَةَ شَهَادَةٌ، فَإِذَا كَانَتِ التَّزْكِيَةُ غَيْرَ صَحِيْحةٍ صَارَتْ شَهَادَةَ زُورٍ.

قَوْلُهُ: (قَدِ اجْتَمَعَتْ فِيهِ خِصَالُ السُّنَّةِ) خِصَالُ السُّنَّةِ تَكُونُ فِي العَقِيدَةِ وَفِي العِلْمِ وَفِي العَمَلِ وَفِي الاقْتِدَاءِ بالسَّلَفِ الصَّالِحِ، أَمَّا أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ إِلاَّ خَصْلَةٌ وَاحِدَةٌ فَلا تَحْكُمْ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ بِمُوجِبِ خَصْلَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ شَيْءٍ وَاحِدٍ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنْهَا؟!

[١٦١] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: قَالَ عَبْدُ الله بنُ المُبَارَكِ رَحِمَهُ اللهُ: «أَصْلُ اثْنَيْنِ وَسَبْعِيْنَ هَوًى أَرْبَعَةُ أَهْوَاءٍ، فَمِنْ هَذِهِ الأَرْبَعَةِ أَهْوَاءٍ تَشَعَّبَتِ الاثْنَانِ وَسَبْعُونَ هَوًى: القَدَرِيَّةُ، وَالمُرْجِئَةُ، وَالشِّيْعَةُ، والخَوارِجُ».

الشَّرْح

قَوْلُ عَبْدِ الله بنِ المُبَارَكِ: «أَصْلُ اثْنَيْنِ وَسَبْعِيْنَ هَوًى أَرْبَعَةُ أَهْوَاءٍ، فَمِنْ هَذِهِ الأَرْبَعَةِ أَهْوَاءٍ تَشَعَّبَتِ الاثْنَانِ وَسَبْعُونَ هَوًى: القَدَرِيَّةُ، والمُرجِئَةُ، وَالشِّيْعَةُ، والخَوَارِجُ» هَذَا ذَكَرَهُ المُؤَلِّفُ فِي أَوَّلِ الرِّسَالَةِ وَشَرَحْنَاهُ هُنَاكَ.

قَوْلُهُ: (أَهْواءٍ) لأَنَّ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى الافْتِرَاقِ هُوَ الهَوَى، كُلٌّ يَتَّبِعُ هَوَاهُ، ولَوِ اتَّبَعُوا الحَقَّ مَا تَشَعَّبُوا إِلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةٍ، الَّذِي يَتَّبِعُ الحَقَّ مَا يَتَشَعَّبُ بِهِ الهَوَى، فَكُلُّ وَاحِدٍ يَرْكَبُ هَوَاهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣]، كُلُّ وَاحِدٍ يَتَّبِعُ هَوَاهُ، والأَهْوَاءُ لا تَنْتَهِي وَلَكِنَّ الحَقَّ وَاحِدٌ لا يَتَقَسَّمُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ صِرَاطٌ وَاحِدٌ ﴿فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فَالَّذِي يَخْرُجُ عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ يَقَعُ فِي هَذِهِ السُّبُلِ المُتَفَرِّقَةِ الَّتِي لا نِهَايَةَ لَهَا.

قَوْلُهُ: (القَدَرِيَّةُ) وَهُمُ الَّذِيْنَ يَتَكَلَّمُونَ فِي القَدَرِ، لأَنَّ الإِيْمَانَ بِالقَدَرِ هُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ الإِيْمَانِ السِّتَّةِ: «أَن تُؤْمِنَ بِالله وَمَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1] بِأَنَّ اللهَ قَدَّرَهُ وَكَتَبَهُ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ وَشَاءَهُ وَأَرَادَهُ وَأَوْجَدَهُ تَعَالَى، هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، الإِيْمَان بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ بِهَذِهِ المَرَاتِبِ الأَرْبَعِ، المُخَالِفُونَ لَهُمْ عَلَى فِرْقَتَيْنِ:

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

الفِرْقَةُ الأَوْلَى: القَدَرِيَّةُ النفاة الَّذِيْنَ يَنْفُونَ القَدَرَ، وَيَقُولُونَ: كُلُّ وَاحِدٍ يَخْلُقُ فِعْلَ نَفْسِهِ، وَلَمْ يُقَدِّرْهُ اللهُ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا هُوَ الَّذِي فَعَلَهُ مُسْتَقِلًّا، وَهَذَا قَوْلُ المُعْتَزِلَةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ.

الفِرْقَةُ الأُخْرَى: القَدَرِيَّةُ المُجَبِّرَةُ: الَّذِيْنَ يَغْلُونَ فِي إِثْبَاتِ القَدَرِ، وَيَقُولُونَ: العَبْدُ لَيْسَ لَهُ اخْتِيَارٌ وَلا إِرَادَةٌ وَلا فِعْلٌ، وَإِنَّمَا هُوَ فِعْلُ اللهِ فِيهِ، فَهُوَ كَالرِّيشَةِ يُحَرِّكُهَا الهَوَاءُ، وَكَالميتِ بِيَدِ الغَاسِلِ مُجْبَرٌ لَيْسَ لَهُ اخْتِيَارٌ، هَؤُلَاءِ يُسَمَّونَ المُجَبِّرَةَ، غَلَوا فِي إِثْبَاتِ القَدَرِ - وَالعِيَاذُ بِاللهِ - حَتَّى سَلَبُوا مِنْ الْعَبْدِ اخْتِيَارَهُ وَأَفْعَالَهُ وَجَعَلُوهُ مُجْبَرًا عَلَى أَفْعَالِهِ، لا يُصَلِّيَ بِاخْتِيَارِهِ، وَلا يَزْنِي بِاخْتِيَارِهِ، وَلا يُزَكِّي بِاخْتِيَارِهِ، وَلا يَأْخُذُ الرِّبَا بِاخْتِيَارِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مُجْبَرٌ. كُلُّ وَاحِدٍ عِنْدَهُم مُجْبَرٌ، هَذَا قَوْلُ الجَبْرِيَّةِ.

قَوْلُهُ: (**المُرْجِئَةُ**) هَذَا فِي بَابِ الإِيْمَانِ، والإِيْمَانُ وَهُوَ - كَمَا عَرَّفَهُ أَهْلُ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ -: قَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَاعْتِقَادٌ بِالقَلْبِ وَعَمَلٌ بِالجَوَارِحِ، يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالمَعْصِيَةِ.

المُرْجِئَةُ يَقُولُونَ: الأَعْمَالُ لا تَدْخُلُ فِي الإِيْمَانِ. فَإِذَا كَانَ مُعْتَقِدًا بِقَلْبِهِ وَلَو تَرَكَ جَمِيعَ الأَعْمَالِ، لَوْ مَا صَلَّى، وَلا صَامَ، وَلا فَعَلَ أَيَّ شَيْءٍ، يَدْخُلُ الجَنَّةَ، والإِيْمَانُ لا يَزِيدُ وَلا يَنْقُصُ عِنْدَهُم؛ لأَنَّهُ فِي القَلْبِ، فَإِيْمَانُ أَبِي بَكْرٍ وَإِيْمَانُ أَفْسَقِ النَّاسِ عِنْدَهُم سَوَاءٌ؛ لأَنَّهُ فِي القَلْبِ.

قَوْلُهُ: (**الشِّيْعَةُ**) هُمُ الَّذِيْنَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَهْلَ البَيْتِ، وَيَتَشَيَّعُونَ لِعَلِيٍّ وَذُرِّيَّتِهِ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ ظُلِمُوا حَقَّهُمْ، وَأَنَّ الخِلافَةَ كَانَتْ لِعَلِيٍّ بَعْدَ الرَّسُولِ، وَأَنَّ عَلِيًّا هُوَ وَصِيُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَنَّ الصَّحَابَةَ سَلَبُوهَا مِنْهُ وَغَصَبُوهَا مِنْهُ فَهُمْ ظَلَمَةٌ وَطَوَاغِيتُ، هَذَا اعْتِقَادُهُمْ وَالعِيَاذُ بِاللهِ.

قَوْلُهُ: (**والخَوارِجُ**) هُمُ الَّذِيْنَ يَخْرُجُونَ عَلَى وَلي الأَمْرِ بِالسَّيْفِ، إِذَا حَصَلَ مِنْهُ خَطَأٌ لا يَصِلُ إِلَى حَدِّ الكُفْرِ، وَيَشُقُّونَ عَصَا الطَّاعَةِ ويُكَفِّرُونَ المُسْلِمِيْنَ بِالكَبَائِرِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ، فَمَذْهَبُهُمْ يَتكَوَّنُ مِنْ شَيْئَيْنِ:

الأَوَّلُ: الخُرُوجُ عَلَى وُلاةِ أَمْرِ المُسْلِمِيْنَ، وَشَقُّ عَصَا الطَّاعَةِ.

والآخرُ: تَكْفِيرُ مُرْتَكِبِ الكَبَائِرِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ، يَحْكُمُونَ عَلَى الزَّانِي بِأَنَّهُ كَافِرٌ، وَعَلَى السَّارِقِ بِأَنَّهُ كَافِرٌ، وَعَلَى آكِلِ الرِّبَا بِأَنَّهُ كَافِرٌ، هَكَذَا مَذْهَبُ الخَوَارِجِ، وَهُوَ مَذْهَبُ الغُلُوِّ والتَّشَدُّدِ وَالعِيَاذُ بِالله، وَيَحْمِلُونَ السَّيْفَ عَلَى المُسْلِمِيْنَ، قَالَ ﷺ: «**يُقَاتِلُونَ أَهْلَ الإِيْمانِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ**»[1] مَا عُهِدَ فِي التَّارِيخِ أَنَّ الخَوارِجَ قَاتَلُوا الكُفَّارَ قَطُّ، وَإِنَّما يُقَاتِلُونَ المُؤْمِنِيْنَ دَائِمًا وَأَبَدًا.

---

(١) سبق تخريجه.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَمَنْ قَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وعُثْمَانَ وَعَلِيًّا عَلَى جَمِيع أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ وَلَمْ يَتكَلَّمْ فِي البَاقِيْنَ إِلاَّ بِخَيرٍ وَدَعَا لَهُمْ، فَقَدْ خَرَجَ مِنَ التَّشَيُّعِ أَوَّلِهِ وآخِرِهِ.

الشَّرح

قَوْلُهُ: (فَمَنْ قَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وعُثْمَانَ وَعَلِيًّا عَلَى جَمِيع أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ وَلَمْ يَتكَلَّمْ فِي البَاقِيْنَ إِلاَّ بِخَيرٍ وَدَعَا لَهُمْ) هَذَا مَذْهَبُ أَهْلُ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ خِلافًا للشِّيْعَةِ، فَأَهْلُ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ يُقَدِّمُونَ: أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ، ثُمَّ عُثْمَانَ، ثُمَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والشِّيْعَةُ يَقُولُونَ: عَلِيٌّ هُوَ الخَلِيْفَةُ بَعْدَ الرَّسُولِ، وخِلافَةُ الثَّلاثَةِ بَاطِلَةٌ، وَيُكَفِّرُونَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ.

قَوْلُهُ: (ولم يَتكَلَّمْ فِي البَاقِيْنَ) مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ، (إِلاَّ بِخَيْرٍ) وَثنَاءٍ عَلَيْهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، (وَدَعَا لَهُمْ) بَدَلَ أَنْ يَلْعَنَهُمْ كَمَا تَلْعَنُهُمُ الشِّيْعَةُ، أَوْ يَذُمَّهُمْ كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ النَّاسِ؛ يَذُمُّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ أَوْ يَتكَلَّمُ فِي الصَّحَابَةِ، مَعَ أَنَّ الوَاجِبَ العَكْسُ، الوَاجِبُ الثَّنَاءُ عَلَيهِم ومَدْحُهُمْ، وَعَدَمُ الدُّخُولِ فِي حَقِّهِمْ وَتَخْطِئَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ؛ لأَنَّ اللهَ رَضِيَ عَنْهُمْ ومَدَحَهُمْ فِي آيَاتٍ كَثِيْرَةٍ، وَالرَّسُولُ ﷺ مَدَحَهُمْ وَرَضِي عَنْهُمْ، وَالَّذِي يَتكَلَّمُ فِي الصَّحَابَةِ أَوْ فِي أَحَدٍ مِنْهُمْ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الضَّلالِ وَيَكُونُ مُخَالِفًا للهِ وَلِرَسُولِهِ فِي حَقِّ الصَّحَابَةِ، فَلا يَجُوزُ أَبَدًا الدُّخُولُ فِي حَقِّ الصَّحَابَةِ لا فِي أَفْرَادِهِمْ وَلا فِي جَمَاعَتِهِمْ إِلاَّ بِخَيْرٍ؛ لِمَا لَهُمْ مِنَ المِيْزَةِ عَلَى الأُمَّةِ، فَهُمْ خَيْرُ القُرُونِ، وَأَفْضَلُ القُرُونِ بِشَهَادَةِ رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي»[1] يَعْنِي القَرْنَ الَّذِي فِيهِ الرَّسُولُ ﷺ فَهُمْ خَيْرُ القُرُونِ، (وَلَمْ يَتكَلَّمْ فِي

---

(١) سبق تخريجه.

البَاقِيْنَ) لا فِي أَفْرَادِهِمْ وَلا فِي مَجْمُوعِهِمْ (إلا بخَيْرٍ).

قَوْلُهُ: (فَقَدْ خَرَجَ مِنَ التَّشَيُّعِ أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ) مَنْ قَدَّمَ الخُلَفَاءَ الأَرْبَعَةَ عَلَى تَرْتِيْبِهِمْ، وَأَثْنَى عَلَى بَقِيَّةِ الصَّحَابَةِ فَهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَفِيهِ البَرَاءَةُ مِنَ التَّشَيُّعِ.

وَمَنْ قَالَ: الإِيْمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الإِرْجَاءِ أَوَّلِهِ وآخِرِهِ.

وَمَنْ قَالَ: الصَّلاةُ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وفَاجِرٍ، والجِهَادُ مَعَ كُلِّ خَلِيْفَةٍ، وَلَمْ يَرَ الخُرُوجَ عَلَى السُّلْطَانِ بِالسَّيْفِ، وَدَعَا لَهُمْ بِالصَّلاحِ، فَقَدْ خَرَجَ مِنْ قَوْلِ الخَوَارِجِ أَوَّلِهِ وآخِرِهِ.

وَمَنْ قَالَ: المَقَادِيرُ كُلُّهَا مِنَ اللهِ عَجَلًّا، خَيْرُهَا وَشَرُّهَا، يُضِلُّ مِنْ يَشَاءُ، ويَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَقَدْ خَرَجَ مِنْ قَوْلِ القَدَرِيَّةِ أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ، وَهُوَ صَاحِبُ سُنَّةٍ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَمَنْ قَالَ: الإِيْمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الإِرْجَاءِ أَوَّلِهِ وآخِرِهِ) لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ المُرْجِئَةَ مِنْ أُصُولِ الفِرَقِ الضَّالَّةِ بَيَّنَ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ وَأَنَّهُ ضِدُّ مَذْهَبِهِمْ، لأَنَّ أَهْلَ السنة يَرَوْنَ أَنَّ الإِيْمَانَ قَوْلٌ وعَمَلٌ وَاعْتِقَادٌ وَأَنَّهُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الأَدِلَّةُ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ بِخِلافِ مَذْهَبِ المُرْجِئَةِ الَّذِينَ يَرونَ أَنَّ العَمَلَ لَيْسَ دَاخِلًا فِي حَقِيقَةِ الإِيْمَانِ.

قَوْلُهُ: (وَمَنْ قَالَ: الصَّلاةُ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وفَاجِرٍ، والجِهَادُ مَعَ كُلِّ خَلِيْفَةٍ، وَلَمْ يَرَ الخُرُوجَ عَلَى السُّلْطَانِ بِالسَّيْفِ، وَدَعَا لَهُمْ بِالصَّلاحِ) هَذَا بَرِيءٌ مِنْ فِرْقَةِ الخَوَارِجِ؛ لأَنَّهُ ذَكَرَ الفِرَقَ الأَرْبَعَ، فَمِنِ الْتَزَمَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِوَلِيِّ أَمْرِ المُسْلِمِيْنَ، وَلَمْ يَخْرُجْ عَلَيْهِ بِسَبَبِ خَطَأٍ أَخطَأَ فِيهِ وَهُوَ دُونَ الكُفْرِ، أَوْ مَعْصِيَةٍ وَقَعَ فِيهَا وَهِيَ دُونَ الكُفْرِ فَهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ، وَهُوَ الصَّلاةُ خَلْفَ الأُمَرَاءِ مِنَ المُسْلِمِيْنَ، والجِهَادُ مَعَهُم فِي سَبِيلِ اللهِ، والدُّعَاءُ لَهُمْ بِالصَّلاحِ

والتَّوْفِيْقِ هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ مَعَ وُلاةِ الأُمُورِ، فَمَنْ خَالَفَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَعِنْدَهُ نَزْعَةٌ مِنْ نَزْعَةِ أَهْلِ الضَّلالِ، مِنْ نَزْعَةِ الخَوَارِجِ.

(**والجِهَادُ مَعَ كُلِّ خَلِيفَةٍ**) إِذَا أَمَرَ بِالجِهَادِ فَإِنَّهُ يَجِبُ الجِهَادُ مَعَهُ.

فَهَذَا هُوَ الوَاجِبُ: السَّمْعُ والطَّاعَةُ، وَالصَّلاةُ خَلْفَهُمْ، والجِهَادُ مَعَهُم، وَعَدَمُ الخُرُوجِ عَلَيْهِم بِالقِتَالِ كَمَا تَفعَلُ الخَوَارِجُ، فَهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ فِي وُلاةِ الأُمُورِ، عَكْسُ مَا تَقُولُهُ الخَوَارِجُ والمُعْتَزِلَةُ.

قَوْلُهُ: (**وَمَنْ قَالَ: المَقَادِيرُ كُلُّهَا مِنَ اللهِ ﷻ، خَيْرُهَا وَشَرُّهَا، يُضِلُّ مِنْ يَشَاءُ، ويَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَقَدْ خَرَجَ مِنْ قَوْلِ القَدَرِيَّةِ أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ**) كُلُّ شَيْءٍ يَحْدُثُ فَهُوَ مِنْ قَدَرِ اللهِ: الكُفْرُ وَالإِيمَانُ، والمَعْصِيَةُ والطَّاعَةُ، وَالفَقْرُ وَالغِنَى، والمَرَضُ وَالصِّحَّةُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ، كُلُّ مَا يَجْرِي فِي الكَوْنِ فَإِنَّهُ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، لا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ خِلافًا لِلْقَدَرِيَّةِ بِقِسْمَيْهَا: النُّفَاةِ والمُجَبِّرَةِ.

(**يُضِلُّ مِنْ يَشَاءُ**) وَلا يُضِلُّ إِلاَّ مَنِ ارْتَكَبَ سَبَبَ الضَّلالَةِ، فَاللهُ يُضِلُّهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ**﴾ [الصف:٥]، وَلَمْ يَأْتِ فِي القُرْآنِ إِهْلاكٌ أَوْ إِضَلالٌ أَوْ عَذَابٌ إِلاَّ وَيَذْكُرُ سَبَبَهُ مِنْ قِبَلِ العَبْدِ، وَأَنَّ اللهَ قَدَّرَهُ عَلَيْهِ بِسَبَبٍ مِنَ العَبْدِ؛ وَلِذَلِكَ نَقُولُ: يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ بَعَدْلِهِ، يُقِيمُ العَدْلَ عَلَى أَهْلِ الضَّلالِ، وَلا يَجْعَلُهُمْ مِثْلَ أَهْلِ الهُدَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿**أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ**﴾ [القلم:٣٥-٣٦]، ويَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ ﷻ.

[١٦٢] قَالَ المُؤَلِّفُ ﵀: وَبِدْعَةٌ ظَهَرَتْ هِيَ كُفْرٌ بِاللهِ العَظِيْمِ، وَمَنْ قَالَ بِهَا فَهُوَ كَافِرٌ بِاللهِ لا شَكَّ فِيهِ، مَنْ يُؤْمِنُ بِالرَّجْعَةِ، ويَقُولُ: عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ ﵁ حَيٌّ، وَسَيَرجِعُ قَبْلَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمُحَمَّدُ بنُ عَلِيٍّ، وَجَعْفَرُ بنُ مُحَمَّدٍ، وَمُوسَى بنُ جَعْفَر، ويتكَلَّمُونَ فِي الإِمَامَةِ، وأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الغَيْبَ، فَاحْذَرْهُمْ فَإِنَّهُمْ كُفَّارٌ بِاللهِ العَظِيْمِ، وَمَنْ قَالَ بِهَذَا القَوْلِ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (مَنْ يُؤْمِنُ بِالرَّجْعَةِ) هَذَا عِنْدَ الشِّيْعَةِ، فَهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الأَمْوَاتَ مِنَ الأَئِمَّةَ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ يَرْجِعُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَيقُومُونَ بِالعَدْلِ، وَيُخْرِجُونَ عُمَرَ وَأَبَا بَكْرٍ والصَّحَابَةَ مِنْ قُبُورِهِمْ وَيُحْرِقُونَهُمْ.

قَوْلُهُ: (وَمَنْ قَالَ بِهَا فَهُوَ كَافِرٌ بِاللهِ لا شَكَّ فِيهِ) الَّذِي يَقُولُ بِالرَّجْعَةِ عَلَى هَذَا النَحْوِ لا شَكَّ أَنَّهُ كَافِرٌ بِاللهِ ﷻ.

قَوْلُهُ: (ويَقُولُ: عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ ﵁ حَيٌّ) الغُلاة مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُونَ: عَلِيٌّ لَـم يمُتْ وَهُوَ فِي السَّحَابِ ويَعْبُدُونَهُ.

قَوْلُهُ: (وَمُحَمَّدُ بنُ عَلِيٍّ) بنِ الحُسَيْنِ البَاقِرُ، (وَجَعْفَرُ بنُ مُحَمَّدٍ) بنِ عَلِيٍّ بنِ الحُسَيْنِ وَهُوَ جَعْفَرٌ الصَّادِقُ، (وَمُوسَى بنُ جَعْفَرٍ) الكَاظِمُ بنُ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ؛ وَلِذَلِكَ الرَّافِضَةُ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ بـ(المُوسَوِيَّةِ) و(المُوسَوِيَّةُ) نِسْبَةً إِلَى مُوسَى الكَاظِمِ.

قَوْلُهُ: (وَيَتكَلَّمُونَ فِي الإِمَامَةِ، وَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الغَيْبَ) يَعْتَقِدُونَ فِي أَئِمَّتِهِمْ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الغَيْبَ، وَأَنَّهُمْ يَشْرَعُونَ مَا شَاءوا، وَيَنْسَخُونَ مَا شَاءوا مِنَ الشَّرْعِ؛ لأَنَّ اللهَ فَوَّضَ هَذَا إِلَيْهِمْ.

(وَأَنَّهُمْ) أَي: الأَئِمَّةَ (يَعْلَمُونَ الغَيْبَ) وَهَلْ أَحَدٌ يَعْلَمُ الغَيْبَ إِلاَّ اللهُ؟

قَوْلُهُ: (فَاحْذَرْهُم فَإِنَّهُم كُفَّارٌ بِالله العَظِيْمِ) مَنِ ادَّعَى عِلْمَ الغَيْبِ أَوْ أَنَّ أَحَدًا يَعْلَمُ الغَيْبَ إِلاَّ مِنْ عَلَّمَهُ اللهُ مِنْ رُسُلِهِ فَهُوَ كَافِرٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧] هَذَا خَاصٌّ بِالرُّسَلِ، لأَجْلِ مَصْلَحَةِ الأُمَّةِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، وَلِيَكُونَ مُعْجِزَةً لَهُمْ أَمَّا غيرُ الرُّسُلِ فَلا أَحَدَ يُطْلِعُهُ اللهُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الغَيبِ.

[١٦٣] قَالَ المُؤَلِّفُ ﷺ: قَالَ طُعْمَةُ بنُ عَمْرٍو، وسُفْيَانُ ابنُ عُيَيْنَةَ - رَحِمَهُمَا اللهُ -: «مَنْ وَقَفَ عِنْدَ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ، فَهُوَ شِيعِيٌّ، لا يُعَدَّلُ، وَلا يُكَلَّمُ، وَلا يُجَالَسُ، وَمَنْ قَدَّمَ عَلِيًّا عَلَى عُثْمَانَ رضي الله عنهما فَهُوَ رَافِضِيٌّ، قَدْ رَفَضَ آثَارَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ورضي الله عنهم، وَمَنْ قَدَّمَ الأَرْبَعَةَ عَلَى جَمِيعِهِمْ، وَتَرَحَّم عَلَى البَاقِينَ وَكَفَّ عَنْ زَلَلِهِمْ، فَهُوَ عَلَى طَرِيْقِ الاسْتِقَامَةِ وَالهُدَى فِي هَذَا البَابِ».

الشَّرْحُ

مَنْ تَوَقَّفَ فِي شَأْنِ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ، وَقَالَ: إِنَّ الخِلافَةَ لِعَلِيٍّ وَلَيْسَتْ لِعُثْمَانَ فَهُوَ شِيْعِيٌّ، فَكَيْفَ بِالَّذِي يَقُولُ: إِنَّ الخِلافَةَ لَيْسَتْ لأَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ بَلْ هِيَ لِعَلِيٍّ وَهُوَ الوَصِيُّ؟!

قَوْلُهُ: (لا يُعَدَّلُ، وَلا يُكَلَّمُ، وَلا يُجَالَسُ) فَهُوَ شِيعِيٌّ يُتَبَرَّأُ مِنْهُ (لا يُعَدَّل) يَعْنِي: لا يُحْكَمُ بِعَدَالَتِهِ، (وَلا يُكَلَّمُ) تَكْلِيمَ إِكْرَامٍ وانْبِسَاطٍ وَمُوَافَقَةٍ، (وَلا يُجَالَسُ)؛ لأَنَّ ضَرَرَهُ يَنْتَشِرُ عَلَى مَنْ جَالَسَهُ؛ لأَنَّ دُعَاةَ الضَّلالِ يُؤَثِّرُونَ فِي جُلَسَائِهِمْ وَمَنْ صَحِبَهُمْ.

قَوْلُهُ: (وَمَنْ قَدَّمَ عَلِيًّا عَلَى عُثْمَانَ رضي الله عنهما فَهُوَ رَافِضِيٌّ) يَعْنِي فِي الخِلافَةِ، أَمَّا مَسْأَلَةُ الأَفْضَلِيَّةِ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ فَهِيَ مَسْأَلَةُ نِزَاعٍ بَيْنَ العُلَمَاءِ، بَعْضُهُمْ يُفَضِّلُ عَلِيًّا، وبَعْضُهُمْ يُفَضِّلُ عُثْمَانَ، أَمَّا الخِلافَةُ فَمَنْ قَدَّمَ عَلِيًّا عَلَى عُثْمَانَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الضَّلالِ؛ لأَنَّ الصَّحَابَةَ وفِيهِم عَلِيٌّ نَفْسُهُ أَجْمَعُوا عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ رضي الله عنه.

قَوْلُهُ: (قَدْ رَفَضَ آثَارَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ) سُمُّوا بِالرَّافِضَةِ؛ لأَنَّهُمْ قَالُوا لِزَيدِ بنِ عَلِيٍّ: مَا تَقُولُ فِي أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ؟ قَالَ: أُحِبُّهُمْ وَأَتَوَلاَّهُمْ؛ لأَنَّهُمَا وَزِيرَا جَدِّي رَسُولِ اللهِ ﷺ. فقَالُوا: إِذًا نَرْفُضُكَ، فَرَفَضُوهُ فَسُمُّوا بِالرَّافِضَةِ؛

لأَنَّهُمْ رَفَضُوا زَيدَ بنَ عَلِيٍّ.

قَوْلُهُ: (**وَمَنْ قَدَّمَ الأَرْبَعَةَ عَلَى جَمِيعِهِمْ**) أَيْ: جَمِيعِ الصَّحَابَةِ (**وَتَرَحَّمَ عَلَى البَاقِيْنَ**) مِنَ الصَّحَابَةِ كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ الكَلامِ.

قَوْلُهُ: (**وَكَفَّ عَنْ زَلَلِهِمْ**) كَفَّ عَمَّا صَدَر بَعْضِهِمْ مِنْ أَخْطَاءٍ؛ لأَنَّهُمْ لَيْسُوا مَعْصُومِيْنَ فِي أَفْرَادِهِمْ، فَقَدْ يَقَعُ بَعْضُ الأَخْطَاءِ مِنْ بَعْضِهِمْ، وَلَكِنْ لَهُمْ مِنَ الفَضَائِلِ، وَلَهُمْ مِنَ الإِيْمَانِ مَا يُغَطِّي خَطَأَهُمْ، وَلَهُمْ مِنَ الصُّحْبَةِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مَا يُغَطِّي مَا قَدْ يَقَعُ مِنَ الخَطَأِ اليَسِيرِ.

قَوْلُهُ: (**فَهُوَ عَلَى طَرِيْقِ الاسْتِقَامَةِ وَالهُدَى فِي هَذَا البَابِ**) مِنِ اعْتَقَدَ فِي الصَّحَابَةِ بِهَذَا فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الهُدَى، حَيْثُ قَدَّمَ مَنْ قَدَّمَهُ اللهُ مِنْهُمْ، وَتَرَضَّى عَنِ البَاقِيْنَ وَلَمْ يَلْتَمِسْ لَهُمُ الأَخْطَاءَ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ؛ لأَنَّ هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ فِي صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

[١٦٤] وَالسُّنَّةُ أَنْ تَشْهَدَ أَنَّ العَشَرَةَ الَّذِيْنَ شَهِدَ لَـهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالجَنَّةِ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ لا شَكَّ فِيهِ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَالسُّنَّةُ أَنْ تَشْهَدَ أَنَّ العَشَرَةَ[1] الَّذِيْنَ شَهِدَ لَـهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالجَنَّةِ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ) السُّنَّةُ أَنْ تَشْهَدَ لِمَنْ شَهِدَ الرَّسُولُ ﷺ لَهُ بِالجَنَّةِ وَهُمُ العَشَرَةُ: الخُلَفَاءُ الأَرْبَعَةُ، وَطَلْحَةُ، والزُّبَيْرُ، وَسَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَسَعِيْدُ بنُ زَيدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيلٍ ابنُ عَمِّ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، وأَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ ﵃، هَؤُلاءِ هُمُ الَّذِيْنَ شَهِدَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِالجَنَّةِ، فَنَحْنُ نَشْهَدُ لَهُمْ بِالجَنَّةِ، بِشَهَادَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَوْلُهُ: (لا شَكَّ فِيهِ) مَنْ شَكَّ أَنَّ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلاءِ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَإِنَّهُ يَكُونُ كَافِرًا، فَمَا بَالُكَ بِالَّذِي يَلْعَنُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَيَصِفُهُمَا بِأَنَّهُمَا صَنَمَانِ؟!

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

[١٦٥] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَلا تُفْرِدْ بِالصَّلاةِ عَلَى أَحَدٍ إِلاَّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلَى آلِهِ فَقَطْ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَلا تُفْرِدْ بِالصَّلاةِ عَلَى أَحَدٍ إِلاَّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلَى آلِهِ فَقَطْ) الصَّلاةُ فِي اللُّغَةِ: هِيَ الدُّعَاءُ، وَأَمَّا الصَّلاةُ فِي الشَّرْعِ: فَهِيَ العِبَادَةُ المُبْتَدَأَةُ بِالتَّكْبِيرِ والمُخْتَتَمَةُ بِالتَّسْلِيمِ لِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ قِيام وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ وَجُلوسٍ وقِراءَةٍ لِلْقُرْآنِ وَتَكْبِيرٍ وَتَسْبِيحٍ فَهِيَ أَعْمَالٌ وأَقْوَالٌ مُفْتَتَحَةٌ بِالتَّكْبِيرِ مُخْتَتَمَةٌ بِالتَّسْلِيْم، هَذِهِ هِيَ الصَّلاةُ فِي الشَّرْعِ.

فَإِذَا جُمِعَ بَيْنَ الآلِ والأَصْحَابِ، فَالآلُ: هُمُ القَرَابَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ، والأَصْحَابُ: جَمْعُ صَحَابِيٍّ وَقَدْ لا يَكُونُ مِنْ قَرَابَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَقَدْ يَكُونُ.

وإِذَا أُفْرِدَ الآلُ دَخَلَ فِيهِمُ الصَّحَابَةُ؛ لأَنَّ الآلَ يُطْلَقُ إِطْلاقَيْنِ:

- إِطْلاقٌ يُرَادُ بِهِ القَرَابَةُ وَهُمُ الَّذِيْنَ تَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ.
- وإِطْلاقٌ يُرَادُ بِهِ أَتْبَاعُهُ، فَإِنَّ الأَتْبَاعَ يُقَالُ لَهُمْ: (آلٌ) مِثْلُ (آل فِرْعَونَ) يَعْنِي: أَتْبَاعَ فِرْعَونَ، وَ(آلُ مُحَمَّدٍ) أَتْبَاعُ مُحَمَّدٍ ﷺ.

أَمَّا الصَّلاةُ عَلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ مُنْفَرِدًا كَالصَّحَابِيِّ وَحْدَهُ أَوِ المُسْلِمِ وَحْدَهُ فَهَذَا يَجُوزُ مَا لَمْ يُتَّخَذْ شِعَارًا، تَقُولُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى فُلانٍ فَهَذَا جَائِزٌ مَا لَمْ يُتَّخَذْ شِعَارًا كَمَا هُوَ عِنْدَ الرَّافِضَةِ، وَأَمَّا الصَّلاةُ عَلَى غَيْرِ الرَّسُولِ ﷺ بَعْضَ الأَحْيَانِ فَلا بَأْسَ بِذَلِكَ، فَقَدْ قَالَ ﷺ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى**»[١]، وَاللهُ - جَلَّ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٢٦)، ومسلم (١٠٧٨) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما.

وَعَلا - أَمَرَهُ بِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادْعُ لَهُمْ ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣].

قَوْلُهُ: (وَعَلَى آلِهِ فَقَطْ) آلُهُ: المُرَادُ بِهِمْ أَتْبَاعُهُ.

❧

[١٦٦] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وتَعْلَم أَنَّ عُثْمانَ بن عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قُتِلَ مَظْلُومًا، وَمَنْ قتلَهُ كَانَ ظَالِمًا.

[١٦٧] فَمَنْ أَقَرَّ بِمَا فِي هَذَا الكِتَابِ وَآمَنَ بِهِ وَاتَّخَذَهُ إِمَامًا، وَلَمْ يَشُكَّ فِي حَرْفٍ مِنْهُ، وَلَمْ يَجْحَدْ حَرْفًا وَاحِدًا؛ فَهُوَ صَاحِبُ سُنَّةٍ وَجَمَاعَةٍ، كَامِلٌ قَدِ اكْتَمَلَتْ فِيهِ الجَمَاعَةُ، وَمَنْ جَحَدَ حَرْفًا مِمَّا فِي هَذَا الكِتَابِ، أَوْ شَكَّ فِي حَرْفٍ مِنْهُ، أَوْ شَكَّ ووَقَفَ، فَهُوَ صَاحِبُ هَوًى.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وتَعْلَم أَنَّ عُثْمانَ بن عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قُتِلَ مَظْلُومًا) هَذَا سَبَق بَيَانُهُ.

قَوْلُهُ: (فَمَنْ أَقَرَّ بِمَا فِي هَذَا الكِتَابِ وَآمَنَ بِهِ وَاتَّخَذَهُ إِمَامًا، وَلَمْ يَشُكَّ فِي حَرْفٍ مِنْهُ، وَلَمْ يَجْحَدْ حَرْفًا وَاحِدًا؛ فَهُوَ صَاحِبُ سُنَّةٍ وَجَمَاعَةٍ) مَا ذُكر فِي هَذَا الكِتَابِ هُوَ اعْتِقَادُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ، فَلَمْ يَقُلْ: مَنْ لَمْ يَعْتَقِدْ مَا قُلْتُ وَإِنَّما قَالَ: مَنْ لَمْ يَعْتَقِدْ مَا فِي هَذَا الكِتَابِ وَهُوَ أُصُولُ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ ـ فَلا مَأْخَذَ عَلَيْهِ فِي هَذَا الكَلام كَما ظَنَّهُ بَعْضُ القُرَّاءِ ـ لأَنَّهُ دَوَّنَ فِي هَذَا الكِتَابِ أُصُولَ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ، فَمَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا مِنْهَا أَوْ أَنْكَرَهَا فَهُوَ ضَالٌّ لا شَكَّ.

قَوْلُهُ: (فَهُوَ صَاحِبُ سُنَّةٍ وَجَمَاعَةٍ، كَامِلٌ قَدِ اكْتَمَلَتْ فِيهِ الجَمَاعَةُ)؛ لأَنَّهُ اعْتَقَدَ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ مِمَّا ذُكِرَ فِي هَذَا الكِتَابِ، وَإِذَا اعْتَقَدَ اعْتِقَادَ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ صَارَ مِنْهُمْ، وَمَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا مِنِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ صَارَ مِنَ المُبْتَدِعَةِ.

[١٦٨] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **وَمَنْ جَحَدَ أَوْ شَكَّ فِي حَرْفٍ مِنَ القُرْآنِ أَوْ فِي شَيْءٍ جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لَقِيَ اللهَ تَعَالَى مُكَذِّبًا، فَاتَّقِ اللهَ وَاحْذَرْ وَتَعَاهَدْ إِيمَانَكَ.**

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (**وَمَنْ جَحَدَ أَوْ شَكَّ فِي حَرْفٍ مِنَ القُرْآنِ أَوْ فِي شَيْءٍ جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ**) مَنْ شَكَّ فِي شَيْءٍ مِنَ القُرْآنِ وَلَو فِي حَرْفٍ مِنَ القُرْآنِ فَهُوَ كَافِرٌ؛ لأَنَّهُ مُكَذِّبٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ شَكَّ فِي شَيْءٍ مِنْ كَلامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الثَّابِتِ عَنْهُ، كَأَنْ يَقُولَ: وَلَو صَحَّ هَذَا الحَدِيثُ عَنِ الرَّسُولِ، وَلَكِنْ أَنَا لا أَعْتَقِدُ مَا فِيهِ، أَوْ أَشُكُّ أَوْ أَتَوَقَّفُ فَهُوَ مُكَذِّبٌ لِلرَّسُولِ ﷺ؛ لأَنَّ الوَاجِبَ التَّصْدِيْقُ الجَازِمُ لِكَلامِ اللهِ وَكَلامِ رَسُولِهِ ﷺ وَأَنْ لا يَتَرَدَّدَ الإِنْسَانُ أَوْ يَتَوَقَّفَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ يُؤْمِنُ بِالقُرْآنِ كُلِّهِ، ويُؤْمِنُ بِمَا صَحَّ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ كُلِّهِ عَلَى مَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ لا يَشُكُّ أَوْ يَتَوَقَّفُ فِي ذَلِكَ، هَذَا سَبِيلُ أَهْلِ الإِيمَانِ: التَّصْدِيْقُ بِمَا فِي كِتَابِ اللهِ وَبِمَا فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَوْلُهُ: (**فَاتَّقِ اللهَ وَاحْذَرْ وَتَعَاهَدْ إِيمَانَكَ**) أَي: اتَّقِ اللهَ أَنْ يَقَعَ فِي نَفْسِكَ شَكٌّ فِي كَلامِ اللهِ، أَوْ شَكٌّ فِي كَلامِ الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ شَكٌّ فِي اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، تَفَقَّدْ إِيمَانَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ.

[١٦٩] قَالَ المؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: ومِنَ السُّنَّةِ أَنْ لا تُطِيعَ أَحَدًا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلا الوَالِدَيْنِ والخَلْقَ أَجْمَعِيْنَ، لا طَاعَةَ لِبَشَرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلا يُحِبُّ عَلَيْهِ أَحَدًا، وَاكْرَهْ ذَلِكَ كُلَّهُ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (ومِنَ السُّنَّةِ أَنْ لا تُطِيعَ أَحَدًا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ) هَذَا أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ أَخْذًا مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ»(١)، وَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ -: «إِنَّمَا الطَّاعَةُ بِالمَعْرُوفِ»(٢) فَمَنْ أَمَرَ بِمَعْصِيَةِ اللهِ فَلا تُطِعْهُ فِي هَذِهِ المَعْصِيَةِ وَلَو كَانَ أَبَاكَ أَوْ أُمَّكَ أَوْ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْكَ أَوْ هُوَ وَلِيُّ أَمْرٍ أَوْ سُلْطَانٍ، قَالَ تَعَالَى فِي اليَهُودِ وَالنَّصَارَى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١] لَمَّا أَطَاعُوهُمْ فِي المَعْصِيَةِ.

قَوْلُهُ: (ولا الوَالِدَيْنِ والخَلْقَ أَجْمَعِيْنَ) قَالَ تَعَالَى فِي الوَالِدَيْنِ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ [لقمان:١٤-١٥]، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٨]، فَلا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ مَهْمَا كَانَ هَذَا المَخْلُوقُ، وَلَو كَانَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْكَ كَالوَالِدَيْنِ فَكَيْفَ بِغَيْرِهِمَا.

قَوْلُهُ: (وَلا يُحِبُّ عَلَيْهِ أَحَدًا، وَاكْرَهْ ذَلِكَ كُلَّهُ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى) أَيْ: لا تُحِبَّ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

المَعْصِيَةَ أَوْ تُحِبَّ مَنْ أَمَرَ بِهَا بَلْ تَكْرَهُ ذَلِكَ، تَكْرَهُ المَعْصِيَةَ وَتَكْرَهُ أَهْلَهَا، وَمَنْ أَمَرَ بِهَا، وذَلِكَ لِقَوْلِهِ ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»[1] فتَكْرَهُ المَعَاصِي وَتَكْرَهُ أَهْلَهَا، هَذَا مِنَ الإِيمَانِ.

❧❧❧

---

(١) سبق تخريجه.

[١٧٠] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِأَنَّ التَّوْبَةَ فَرِيضَةٌ عَلَى العِبَادِ، أَنْ يَتُوبُوا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ كَبِيْرِ المَعَاصِي وَصَغِيرِهَا.

الشَّرْح

قَوْلُهُ: (وَالإِيمَانُ بِأَنَّ التَّوْبَةَ فَرِيضَةٌ عَلَى العِبَادِ) يَجِبُ الإِيمَانُ بِأَنَّ التَّوْبَةَ فَرْضٌ، التَّوْبَةُ مِنَ الذُّنُوبِ فَرْضٌ، قَالَ اللهُ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]، وقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [التحريم:٨]، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحُجُرات:١١]، فَيَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَتُوبَ مِنْ ذُنُوبِهِ وَسَيِّئَاتِهِ وَلا يَسْتَمِرَّ عَلَيْهَا أَوْ يُصِرَّ عَلَيْهَا أَوْ يَتَسَاهَلَ بِهَا وَيقُول: هَذِهِ سَهْلَةٌ، لا يَتَسَاهَل بِهَا فَهِيَ مِنَ المَعَاصِي، بَلْ يُبَادِرْ بِالتَّوْبَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ﴾ [آل عمران:١٣٥-١٣٦]، فَأَثْنَى اللهُ عَلَيْهِم وَوَعَدَهُمْ، قَالَ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٧-١٨] إِذَا حَضَرَ المَوْتُ لا تُقْبَلُ التَّوْبَةُ، وَإِنْ كَانَ الإِنْسانُ لا يَزَالُ حَيًّا فَلا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ عِنْدَ حُضُورِ المَوْتِ فَعَلَيْهِ أَنْ يُبَادِرَ بِالتَّوْبَةِ وَلا يُؤَجِّلَهَا فَوْرَ مَا يُخْطِئ يَتُوبُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، والإِنْسانُ لَيْسَ مَعْصُومًا يَقَعُ مِنْهُ خَطَأٌ، وتَقْصِيرٌ، وذَنْبٌ، وَلكِنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلا - بِرَحْمَتِهِ فَتَح بَابَ التَّوْبَةِ، وَدَعَاكَ إِلَيْهَا، وَوَعَدَكَ أَنْ يَغْفِرَ لَكَ إِذَا صَدَقْتَ فِي تَوْبَتِكَ، حَتَّى الكَافِرِ إِذَا تَابَ تابَ اللهُ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ

﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[الأنفال:٣٨] مِنَ الكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَقَتْلِ النُّفُوسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، إِذَا تَابُوا تَابَ اللهُ عَلَيْهِم، وَفِي الحَدِيثِ: «**التَّوْبَةُ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا**»(١)، فَالمُسْلِمُ بِحَاجَةٍ إِلَى التَّوْبَةِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَغْفِرُ اللهَ وَيَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْم أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ، قَالَ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى اللهِ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**»(٢) ويُحْصِي لَهُ أَصْحَابُهُ فِي المَجْلِسِ «أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ» أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وَهُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَكَيْفَ بِغَيْرِهِ؟ فَنَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَى التَّوْبَةِ إِلَى اللهِ ﷻ، والإِنْسَانُ لَيْسَ مَعْصُومًا يَقَعُ مِنْهُ ذُنُوبٌ، وَيَقَعُ مِنْهُ تَقْصِيرٌ، وَيَقَعُ مِنْهُ خَطَأٌ، فَهُوَ بِحَاجَةٍ إِلَى التَّوْبَةِ، وَالحَمْدُ للهِ أَنَّ اللهَ فَتَحَ لَنَا بَابَ التَّوْبَةِ وَوَعَدَنَا أَنْ يَقْبَلَ مِنَّا وَأَنْ يَمْحُوَ ذُنُوبَنَا.

---

(١) قال الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٣/ ١٤١): «لا أعرف له أصلًا».

قلت: إنما الوارد عن النبي ﷺ: «**الهجرة تجب ما قبلها**». أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٤٨).

[١٧١] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالجَنَّةِ؛ فَهُوَ صَاحِبُ بِدْعَةٍ، وَضَلالَةٍ، شَاكٌّ فِيمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ: (وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالجَنَّةِ؛ فَهُوَ صَاحِبُ بِدْعَةٍ، وَضَلالَةٍ) الشَّهَادَةُ بِالجَنَّةِ أَوْ بِالنَّارِ هَذَا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ فِيهِ تَفْصِيلٌ:

فَمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِجَنَّةٍ أَوْ نَارٍ شَهِدْنَا لَهُ بِذَلِكَ؛ لأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لا ﴿يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤].

أَمَّا مَنْ لَمْ يَأْتِ دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّهُ فِي الجَنَّةِ أَوْ أَنَّهُ فِي النَّارِ، فَنَحْنُ لا نَشْهَدُ بِجَنَّةٍ أَوْ بِنَارٍ لأَحَدٍ، بَلْ نَرْجُو لِلْمُحْسِنِ وَنَخَافُ عَلَى المُسِيْءِ، هَذَا مِنْ حَيْثُ الأَفْرَادُ.

أَمَّا مِنْ حَيْثُ العُمُومُ فَنَحْنُ نَعْتَقِدُ أَنَّ المُؤْمِنِيْنَ فِي الجَنَّةِ، وَأَنَّ الكُفَّارَ كُلَّهُمْ فِي النَّارِ، مِنْ حَيْثُ العُمُومُ، أَمَّا مِنْ حَيْثُ الأَفْرَادُ فَلا بُدَّ مِنَ التَّفْصِيْلِ فَنَحْنُ لا نَجْزِمُ لأَحَدٍ بِجَنَّةٍ أَوْ نَارٍ إِلاَّ بِدَلِيْلٍ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، وَقَدْ شَهِدَ النَّبِيُّ ﷺ لأُنَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّهُمْ فِي الجَنَّةِ فَنَحْنُ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ بِأَعْيَانِهِمْ وَأَشْخَاصِهِمْ وَهُمْ: العَشَرَةُ المَشْهُودُ لَهُمْ بِالجَنَّةِ، الخُلَفَاءُ الأَرْبَعَةُ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وعُثْمَانُ وعَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَسَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وسَعِيْدُ بنُ زَيدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيلٍ، وأَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ، وعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، هَؤُلاءِ شَهِدَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِذَلِكَ، ونَقْطَعُ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ بِأَعْيَانِهِمْ، ونُؤْمِنُ بِأَنَّ الصَّحَابَةَ كُلَّهُمْ فِي الجَنَّةِ الَّذِيْنَ مَاتُوا عَلَى الصُّحْبَةِ وَلَمْ يَرْتَدُّوا؛ لأَنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلا - قَالَ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]، وقَالَ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ

﴿وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة:١٠٠]، فصَحَابَةُ رَسُولِ الله ﷺ كُلُّهُمْ فِي الجَنَّةِ بِشَهَادَةِ الله سبحانه وتعالى، وَخُصَّ مِنْهُمْ العَشَرَةُ، وَأَهْلُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ وَأَهْلُ بَدْرٍ الَّذِيْنَ وَرَدَ لَهُمْ فَضْلٌ خَاصٌّ، والَّذِيْنَ آمَنُوا وَأَنْفَقُوا قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِيْنَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا، فَالَّذِيْنَ أَسْلَمُوا قَبْلَ الفَتْحِ هَؤُلاءِ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِيْنَ أَسْلَمُوا بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، الصَّحَابَةُ يَتَفَاضَلُونَ بِلا شَكٍّ، ولكِنْ كُلُّهُمْ رضي الله عنهم وَأَرْضَاهُمْ وَلا أَحَدَ يَطْعَنُ فِي صَحَابِيٍّ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ الله ﷺ إلاَّ أَهْلَ الأَهْوَاءِ وَأَهْلَ البِدَعِ مِنَ الخَوَارِجِ وَالرَّافِضَةِ وَغَيْرِهِمْ، فَالَّذِي يَطْعَنُ فِي الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ: أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ رضي الله عنهم وَيَصِفُهُمْ بِالظُّلْمِ، وَيَصِفُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ بِأَنَّهُمَا صَنَمَا قُرَيْشٍ وَأَنَّهُمَا الجِبْتُ وَالطَّاغُوتُ، هَذَا أَعْظَمُ ضَلالًا مِنَ اليَهُودِ والنَّصَارَى، فاليَهُودُ والنَّصَارَى لا يَقُولُونَ هَذَا فِي صَحَابَةِ رَسُولِ الله ﷺ وَهُمْ يَهُودٌ وَنَصَارَى، وهَؤُلاءِ يَدَّعُونَ الإِسْلامَ وَيَقُولُونَ هَذِهِ المَقَالَةَ الشَّنِيْعَةَ، وَلَو قِيْلَ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى: مَنْ خَيْرُكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ مُوسَى، وَلَوْ قِيْلَ لِلنَّصَارَى: مَنْ خَيْرُكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ عِيْسَى، وهُؤُلاءِ لَوْ قِيْلَ لَهُم: مِنْ شَرُّكُمْ؟ قَالُوا: صَحَابَةُ رَسُولِ الله ﷺ نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ، فَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ خَطِيْرَةٌ جِدًّا.

[١٧٢] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: قَالَ مَالِكُ بنُ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ لَزِمَ السُّنَّةَ وَسَلِمَ مِنْهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ مَاتَ، كَانَ مَعَ النَّبِيِّيْنَ والصِّدِّيْقِيْنَ والشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ، وإِنْ كَانَ لَهُ تَقْصِيرٌ فِي العَمَلِ».

وقَالَ بِشْرُ بنُ الحَارِثِ رَحِمَهُ اللهُ: «السُّنَّةُ هِيَ الإِسْلامُ، والإِسْلامُ هُوَ السُّنَّةُ».

وقَالَ فُضَيلُ بنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللهُ: «إِذَا رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ فَكَأَنَّمَا أَرَى رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِذَا رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ البِدَعِ فَكَأَنَّمَا أَرَى رَجُلًا مِنَ المُنَافِقِيْنَ».

وقَالَ يُونُسُ بنُ عُبَيْدٍ رَحِمَهُ اللهُ: «العَجَبُ مِمَّنْ يَدْعُو اليَوْمَ إِلَى السُّنَّةِ، وَأَعْجَبُ مِنْهُ المُجِيبُ إِلَى السُّنَّةِ».

الشَّرْحُ

١ - قَوْلُ الإِمَامِ مَالِكِ بنِ أَنَسٍ رضي الله عنه: «مَنْ لَزِمَ السُّنَّةَ وَسَلِمَ مِنْهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ مَاتَ، كَانَ مَعَ النَّبِيِّيْنَ والصِّدِّيْقِيْنَ والشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ» مَنْ لَزِمَ السُّنَّةَ: أَيْ: سُنَّةَ الرَّسُولِ ﷺ عِلْمًا وعَمَلًا وَاعْتِقَادًا وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ، وَسَلِمَ مِنْهُ صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمْ يَطْعَنْ فِيهِم أَوْ فِي أَحَدٍ مِنْهُمْ صَارَ مَعَ النَّبِيِّيْنَ والصِّدِّيْقِيْنَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِيْنَ؛ لأَنَّهُ مُطِيعٌ للهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩].

قَوْلُهُ: (وَسَلِمَ مِنْهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ) فَلَمْ يَنْتَقِصْهُمْ وَيَطْعَنْ فِيهِمْ، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ يَعْنِي: الصَّحَابَةَ

المُهَاجِرِيْنَ والأَنْصَارَ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠]؛ وَلِهَذَا قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ ﷺ في العَقِيدَةِ الوَاسِطِيَّةِ: «وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ: سَلامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلسِنَتِهِمْ لأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ» وَذَكَرَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ هَذِهِ سَلامَةُ الأَلْسُنِ ﴿وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا﴾ هَذِهِ سَلامَةُ القُلُوبِ لأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَوْلُهُ: (وإِنْ كَانَ لَهُ تَقْصِيرٌ فِي العَمَلِ) وإِنْ حَصَلَ عِنْدَهُ تَقْصِيرٌ فِي العَمَلِ فَإِنَّ اللهَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

٢- قَوْلُ بِشْرِ بنِ الحَارِثِ ﷺ: «**السُّنَّةُ هِيَ الإِسْلامُ، والإِسْلامُ هُوَ السُّنَّةُ**» العِبَارَةُ هَذِهِ سَبَقَتْ فِي أَوَّلِ الكِتَابِ.

٣- قَوْلُ فُضَيلِ بنِ عِيَاضٍ ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ فَكَأَنَّمَا أَرَى رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»؛ لأَنَّهُ تَابِعٌ لَهُمْ، لأَنَّ مَنْ تَبِعَهُمْ صَارَ مِنْهُمْ، وَهُوَ كَمَا قَالَ مَالِكٌ ﷺ: «أُولَئِكَ مَعَ الَّذِيْنَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم» فَمَنِ اتَّبَعَهُمْ صَارَ مِنْهُمْ.

قَالَ: «**وَإِذَا رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ البِدَعِ فَكَأَنَّمَا أَرَى رَجُلًا مِنَ المُنَافِقِيْنَ**» إِذَا رَأَيْتَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ البِدَعِ والأَهْوَاءِ المُخَالِفِيْنَ لأَهْلِ السُّنَّةِ فَكَأَنَّمَا رَأَيْتَ رَجُلًا مِنَ المُنَافِقِيْنَ الَّذِيْنَ كَانُوا يَدَّعُونَ الإِسْلامَ فِي الظَّاهِرِ وَهُمْ كُفَّارٌ فِي البَاطِنِ يُرِيدُونَ المُخَادَعَةَ، فَأَهْلُ الأَهْوَاءِ وَأَهْلُ البِدَعِ فِيهِم شِبْهٌ مِنَ المُنَافِقِيْنَ؛ لأَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ الإِسْلامَ وَلَكِنَّهُمْ يَبْتَدِعُونَ وَلا يَتَّبِعُونَ السُّنَّةَ، هَذِهِ صِفَةُ المُنَافِقِيْنَ.

٤- قَوْلُ يُونُسَ بنِ عُبَيْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**العَجَبُ مِمَّنْ يَدْعُو اليَوْمَ إِلَى السُّنَّةِ، وَأَعْجَبُ مِنْهُ المُجِيبُ إِلَى السُّنَّةِ**» صَارَتِ السُّنَّةُ غَرِيبَةً، غريبًا مَنْ يَدْعُو إِلَيْهَا، وَأَغْرَبُ مِنْهُ مَنْ يَعْمَلُ بِهَا، فَلا شَكَّ أَنَّهُ يَأْتِي أَزْمَانٌ تَكُونُ السُّنَّةُ غَرِيبَةً فِي أَهْلِهَا، وَكُلَّمَا تَأَخَّرَ الزَّمَانُ صَارَتِ السُّنَّةُ غَرِيبَةً، وَأَهْلُ السُّنَّةِ غُرَبَاءَ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «**بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**» قَالُوا: مَنِ الغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الَّذِيْنَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ**»[1].

هَؤُلاءِ هُمُ الغُرَبَاءُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ فَهُمْ يَتَمَسَّكُونَ بِالسُّنَّةِ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى مَا نَالَهُمْ مِنَ الأَذَى، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الغُرْبَةِ بَيْنَ النَّاسِ؛ لأَنَّ الَّذِيْنَ يُخَالِفُونَهُمْ كَثِيْرُونَ، فَهُمْ يَعِيْشُونَ فِي غُرْبَةٍ بَيْنَ النَّاسِ.

---

(١) سبق تخريجه.

قَالَ المُؤَلِّفُ ﵀: وكَانَ ابنُ عَوْنٍ ﵀ يَقُولُ عِنْدَ المَوْتِ: «السُّنَّةَ، السُّنَّةَ، وَإِيَّاكُمْ وَالبِدَعَ» حَتَّى مَاتَ.

وَقَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ ﵀ تَعَالَى: «مَاتَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي، فَرُئِيَ فِي المَنَامِ، فَقَالَ: قُولُوا لأَبِي عَبْدِ الله: عَلَيْكَ بِالسُّنَّةِ، فَإِنَّ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي رَبِّي ﷻ عَنِ السُّنَّةِ».

وَقَالَ أَبُو العَالِيَةِ ﵀: «مَنْ مَاتَ عَلَى السُّنَّةِ مَسْتُورًا فَهُوَ صِدِّيقٌ، الاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ نَجَاةٌ».

الشَّرْحُ

١- قَوْلُ ابنِ عَوْنٍ: «**السُّنَّةَ، السُّنَّةَ**» أَيِ: الزَمُوا السُّنَّةَ، مَنْصُوبٌ عَلَى الإِغْرَاءِ، أَيِ: الْزَمُوا السُّنَّةَ وَتَمَسَّكُوا بِهَا.

قَوْلُهُ: «**وإِيَّاكُم**» تَحْذِيرٌ، «**وَالبِدَعَ**» مَا خَالَفَ السُّنَّةَ، أَوْصَى بِهَذَا عِنْدَ المَوْتِ، مِنْ بَابِ النُّصْحِ للأُمَّةِ.

٢- قَوْلُ الإِمَامِ أَحْمَدَ ﵀: «**مَاتَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي، فَرُئِيَ فِي المَنَامِ، فَقَالَ: قُولُوا لأَبِي عَبْدِ الله: عَلَيْكَ بِالسُّنَّةِ، فَإِنَّ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي رَبِّي ﷻ عَنِ السُّنَّةِ**» هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ الإِمَامِ أَحْمَدَ إِمَامِ أَهْلِ السُّنَّةِ، الصَّابِرِ عَلَى المِحْنَةِ ﵀، مَاتَ فَرُئِيَ فِي المَنَامِ، فَأَوْصَى مَنْ رَآهُ أَنْ يُبَلِّغَ الإِمَامَ أَحْمَدَ ﵀، بِأَنْ يَتَمَسَّكَ بِالسُّنَّةِ، وَيَقُولَ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي رَبِّي عَنِ السُّنَّةِ**» فَهَذَا فِيهِ الحَثُّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِالسُّنَّةِ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا.

٣- قَوْلُ أَبِي العَالِيَةِ ﵀: «**مَنْ مَاتَ عَلَى السُّنَّةِ مَسْتُورًا فَهُوَ صِدِّيقٌ**» الصِّدِّيقُ: هُوَ كَثِيرُ الصِّدْقِ وَهُوَ فِي المَرْتَبَةِ الَّتِي تَلِي النَّبِيِّينَ، فمَقَامُ الصِّدِّيقِيَّةِ مَقَامٌ

رَفِيعٌ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ مُلازَمَةُ الصِّدْقِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ هُوَ الصِّدِّيقُ فَقَالَ: «**لا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ**»(١) يَصْدُقُ فِي نَفْسِهِ، وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ فِيمَا يَقُولُهُ النَّاسُ، وَلا يُشِيعُ كُلَّ مَا سَمِعَ، وَكُلَّ مَا قِيلَ، بَلْ يَتَثَبَّتُ، وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ؛ لأَنَّهُ هُوَ صَادِقٌ فِي نَفْسِهِ فَلا يُخْبِرُ وَلا يَقُولُ إلاَّ مَا هُوَ صِدْقٌ هَذَا هُوَ الصِّدِّيقُ.

قَوْلُهُ: «**مَاتَ عَلَى السُّنَّةِ**» أَيْ: مُتَمَسِّكًا بِالإِسْلامِ، والْمُرَادُ بِالسُّنَّةِ الإِسْلامُ، وَالإِسْلامُ هُوَ السُّنَّةُ، مَنْ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ «مَسْتُورًا» لَمْ يَتَبَيَّنْ مِنْهُ شَيْءٌ يُخَالِفُ فَإِنَّهُ يَمُوتُ صِدِّيقًا.

قَوْلُهُ: «**الاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ نَجَاةٌ**» أَيِ: التَّمَسُّكُ بِالسُّنَّةِ نَجَاةٌ مِنَ الفِتَنِ، ومِنَ العَذَابِ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُم فَسيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ**»(٢)، اللهُ - جَلَّ وَعَلا - يَقُولُ: ﴿**وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ**﴾ [آل عمران:١٠٣]، وَقَالَ - جَلَّ وَعَلا -: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ**﴾ [الأنعام:١٥٣]، هَذِهِ وَصِيَّةُ اللهِ وَوَصِيَّةُ رَسُولِهِ ﷺ وَهِيَ التَّمَسُّكُ بِالسُّنَّةِ وَالاعْتِصَامُ بِهَا.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَقَالَ سُفيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ أَصْغَى بِأُذُنِهِ إِلَى صَاحِبِ بِدْعَةٍ خَرَجَ مِنْ عِصْمَةِ الله، وَوُكِلَ إِلَيْهَا» يَعْنِي إِلَى البِدَعِ.

وَقَالَ دَاوُدُ بنُ أَبِي هِنْدٍ رَحِمَهُ اللهُ: «أَوْحَى اللهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى إِلَى مُوسَى بنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لا تُجَالِسْ أَهْلَ البِدَعِ، فَإِنْ جَالَسْتَهُمْ فَحَاكَ فِي صَدْرِكَ شَيْء مِمَّا يَقُولُونَ أُكْبِبْتَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ».

وَقَالَ الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ جَالَسَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ لَمْ يُعْطَ الحِكْمَةَ».

وَقَالَ الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللهُ: «لا تَجْلِسْ مَعَ صَاحِبِ بِدْعَة، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تنْزِلَ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ».

وَقَالَ الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ أَحَبَّ صَاحِبَ بِدْعَةٍ؛ أَحْبَطَ اللهُ عَمَلَهُ، وَأَخْرَجَ نُورَ الإِسْلامِ مِنْ قَلْبِهِ».

وَقَالَ الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ جَلَسَ مَعَ صَاحِبِ بِدْعَةٍ فِي طَرِيْقٍ، فَجُزْ فِي طَرِيْق غَيْرِهِ».

الشَّرْحُ

١- قَوْلُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ أَصْغَى بِأُذُنِهِ إِلَى صَاحِبِ بِدْعَةٍ خَرَجَ مِنْ عِصْمَةِ الله» سَبَقَ لَنَا الحَدِيثُ عَنِ الفِرَارِ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ، وَعَدَمِ مُجَالَسَتِهِمْ وَمُصَاحَبَتِهِمْ، فَمَنْ صَاحَبَهُمْ وَأَصْغَى إِلَى أَقْوَالِهِمْ وَلَمْ يُنْكِرْهَا، هَلَكَ مَعَهُم، فَلا يَجُوزُ لَكَ أَنْ تُصْغِيَ إِلَى أَهْلِ البِدَعِ، وَتَسْتَمِعَ لَهُمْ وَتَقُولَ: أَنَا مُؤْمِنٌ قَوِيُّ الإِيمَانِ وَعَارِفٌ بِالعَقِيدَةِ وَلا يُؤَثِّرُونَ فِيَّ، هَذَا غُرُورٌ، قَدْ يُفْتَنُ الإِنْسَانُ، فَالبُعْدُ عَنْهُم وَعَدَمُ سَمَاعِ أَقْوَالِهِمُ البَاطِلَةِ عِصْمَةٌ، أَمَّا إِذَا أَصْغَيْتَ إِلَيْهِمْ فَإِنَّكَ حَرِيٌّ أَنْ

تُفْتَنَ مَعَهُم.

قَوْلُهُ: «**وَوُكِلَ إِلَيْهَا يَعْنِي إِلَى البِدَعِ**»؛ لأَنَّ مَنِ اعْتَصَمَ بِالله عَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ اسْتَمَعَ إِلَى البِدَعِ فَإِنَّهُ حَرِيٌّ أَنْ يُفْتَنَ بِهَا، وَيُوْكَلَ إِلَيْهَا، ويَخْرُج مِنْ عِصْمَةِ الله ﷻ.

٢- قَوْلُ دَاوُدَ بنِ أَبِي هِنْدٍ رحمه الله: «**أَوْحَى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى مُوسَى بنِ عِمْرَانَ** عليه السلام: **لا تُجَالِسْ أَهْلَ البِدَعِ، فَإِنْ جَالَسْتَهُمْ فَحَاكَ فِي صَدْرِكَ شَيْءٌ مِمَّا يَقُولُونَ أُكْبِبْتَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**» هَذَا مَرْوِيٌّ عَنْ مُوسَى عليه السلام «**أَنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيْهِ: لا تُجَالِسْ أَهْلَ البِدَعِ**» هَذَا وَهُوَ كَلِيمُ الله يَنْهَاهُ اللهُ عَنْ مُجَالَسَةِ أَهْلِ البِدَعِ وَالمُخَالِفِيْنَ؛ لأَنَّهُ حَرِيٌّ إِذَا جَالَسَهُمْ أَنْ يَتَأَثَّرَ بِهِمْ فَكَيْفَ بِغَيْرِهِ؟

قَوْلُهُ: «**فَحَاكَ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ مِمَّا يَقُولُونَ**» هَذَا هُوَ الخَطَرُ، أَنَّكَ إِذَا جَالَسْتَهُمْ وَسَمِعْتَ كَلامَهُمْ فَإِنَّهُ يَحِيكُ فِي نَفْسِكَ أَوْ قَدْ يَحِيكُ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ مِنْهُ، فَلا تَعْتَمِدْ عَلَى قُوَّةِ إِيمَانِكَ أَوْ عِلْمِكَ؛ لأَنَّهُ عِنْدَهُم زَيفٌ، وَعِنْدَهُمْ تَزْوِيرٌ، وَعِنْدَهُمْ كَلامٌ مَعْسُولٌ، وَعِنْدَهُمْ أَسَالِيبُ، فعَلَيْكَ أَنْ تَحْذَرَ مِنْهُم، ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ**﴾ فاحذرهم ﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ [المنافقون:٤]، فَلا تَتَسَاهَلْ مَعَ أَهْلِ البِدَعِ، وتَسْتَمِعَ إِلَيْهِمْ، أَوْ تَجْلِسَ إِلَيْهِمْ.

٣- قَوْلُ الفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ رحمه الله: «**مَنْ جَالَسَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ لَمْ يُعْطَ الحِكْمَةَ**» أي: حُرِمَ مِنَ الحِكْمَةِ، وَالحِكْمَةُ: هِيَ الفِقْهُ فِي دِيْنِ الله، فَالَّذِي يُجَالِسُ أَهْلَ البِدَعِ يُحْرَمُ مِنَ الفِقْهِ فِي دِينِ الله عُقُوبَةً لَهُ.

٤- قَوْلُ الفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ: «**لا تَجْلِسْ مَعَ صَاحِبِ بِدْعَةٍ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ**»؛ لأَنَّ صَاحِبَ البِدْعَةِ يَنْزِلُ عَلَيْهِ العَذَابُ وَالغَضَبُ وَالزَّيْغُ، فَيُخْشَى أَنْ يُصِيبَكَ شَيْءٌ مِمَّا أَصَابَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ**

ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨]، وَقَالَ تَعَالَى للمُؤْمِنين: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠]، وَهَذَا فِيهِ التَّحْذِيرُ مِنْ مُجَالَسَة أَهْل الضَّلال وَأَهْل الأَهْوَاءَ ومُجَالَستِهم ومُصَاحَبَتِهِمْ وَالاسْتِمَاعِ إِلَى كَلامِهِمْ أَوْ قَرَاءَةِ كُتُبِهِمْ، عَلَيْكَ بِالابْتِعَادِ عَنْ هَذِهِ الأُمُورِ، واللهُ الْمُسْتَعَانُ، الَّذِي يَعْمَلُ هَذَا الآنَ يَقُولُونَ عَنْهُ مُنْغَلِقٌ وَمُتَحَجِّرٌ، وَعِنْدَهُ شَكٌّ فِي النَّاس إِلَى آخِرِ مَا يَقُولُونَ.

٥- قَوْلُ الفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ: «مَنْ أَحَبَّ صَاحِبَ بِدْعَةٍ» فَحَرِيٌّ أَنْ يُحْبِطَ اللهُ عَمَلَهُ، هَذَا وَعِيدٌ شَدِيْدٌ خُصُوصًا إِذَا كَانَتِ البِدْعَةُ مُكَفِّرَةً، فَإِنَّهُ قَدْ يَسْتَحْسِنُ كَلامَهُمْ وَشِرْكَهُمْ وَكُفْرَهُمْ، فَيَحْبَطُ عَمَلُهُ، وهَذَا مِنْ بَابِ التَّحْذِيرِ، فَالإِنْسانُ لا يُعْجَبُ بِنَفْسِهِ، أَوْ يَظُنُّ أَنَّهُ لا يَتَأَثَّرُ؛ لا، فَالإِنْسَانُ بَشَرٌ.

٦- قَوْلُ الفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ جَلَسَ مَعَ صَاحِبِ بِدْعَةٍ فِي طَرِيْقٍ، فَجُزْ فِي طَرِيْقٍ غَيْرِهِ» حَتَّى فِي الطَّرِيْقِ، إِذَا رَأَيْتَهُ فِي طَرِيْقٍ لا تَذْهَبْ مَعَهُ، ولا تُصَاحِبْهُمْ فِي الطَّرِيْقِ وَفِي السَّفَرِ، يُؤَثِّرُونَ فِيكَ، فَأَيْنَ الَّذِينَ يَذْهَبُونَ مَعَ الْمُبْتَدِعَةِ وَيُصَاحِبُونَهُمْ بِحُجَّةِ الدَّعْوَةِ؟!

قَالَ المُؤَلِّفُ ﷺ: وَقَالَ الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ: «مَنْ عَظَّمَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْمِ الإِسْلامِ، وَمَنْ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِ مُبْتَدِعٍ؛ فَقَدِ اسْتَخَفَّ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ﷻ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَنْ زَوَّجَ كَرِيمَتَهُ مِنْ مُبْتَدِعٍ فَقَدْ قَطَعَ رَحِمَهَا، وَمَنْ تَبِعَ جَنَازَةَ مُبْتَدِعٍ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطٍ مِنَ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ».

وَقَالَ الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ ﷺ: «مَنْ جَلَسَ مَعَ صَاحِبِ بِدْعَةٍ وَرِثَهُ العَمَى».

وَقَالَ الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ: «آكُلُ مَعَ يَهُودِيٍّ وَنَصْرَانِيٍّ وَلا آكُلُ مَعَ مُبْتَدِعٍ، وَأُحِبُّ أَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَاحِبِ بِدْعَةٍ حِصْنٌ مِنْ حَدِيدٍ».

وَقَالَ الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ: «إِذَا عَلِمَ اللهُ مِنَ الرَّجُلِ أَنَّهُ مُبْغِضٌ لِصَاحِبِ بِدْعَةٍ؛ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ قَلَّ عَمَلُهُ، وَلا يَكُنْ صَاحِبُ سُنَّةٍ يُمَالِئُ صَاحِبَ بِدْعَةٍ إِلاَّ نِفَاقًا، وَمَنْ أَعْرَضَ بِوَجْهِهِ عَنْ صَاحِبِ بِدْعَةٍ، مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ إِيمَانًا، وَمَنِ انْتَهَرَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ آمَنَهُ اللهُ يَوْمَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَمَنْ أَهَانَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ، رَفَعَهُ اللهُ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، فَلا تَكُنْ صَاحِبَ بِدْعَةٍ فِي اللهِ أَبَدًا».

انْتَهَى وَاللهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ.

الشَّرح

١- قَوْلُ الفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ ﷺ: «مَنْ عَظَّمَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْمِ الإِسْلامِ» لأَنَّ البِدْعَةَ ضِدُّ الإِسْلامِ، فَإِذَا شَجَّعْتَ المُبْتَدِعَ فَقَدْ أَعَنْتَ عَلَى هَدْمِ الإِسْلامِ، لأَنَّ الإِسْلامُ هُوَ السُّنَّةُ، وَالسُّنَّةُ هِيَ الإِسْلامُ، كَمَا سَبَقَ، فَالوَاجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ لا يُعَظِّمَ أَهْلَ البِدَعِ، وَلا يَمْدَحُهُمْ، وَلا يُثْنِي عَلَيْهِم،

وَالآنَ - كَمَا تَسْمَعُونَ - مِنْ مَدْحِ الكُفَّارِ وَاليَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِم وَأَنَّهُمْ أَصْحَابُ التَّقَدُّمِ وَالرُّقِيِّ وَالحَضَارَةِ وَأَنَّنَا مُتَخَلِّفُونَ وَمُتَأَخِّرُونَ إِلَى آخِرِ مَا يَقُولُونَ، هَذَا مِنْ أَشَدِّ النِّفَاقِ وَالعِيَاذُ بِالله.

قَوْلُهُ: «**وَمَنْ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِ مُبْتَدِعٍ؛ فَقَدِ اسْتَخَفَّ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ﷻ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»؛ لأَنَّ المُبْتَدِعَ مُخَالِفٌ لِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ، فَإِذَا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِهِ مُنْبَسِطًا مَعَهُ فَإِنَّهُ يَكُونُ قَدْ خَالَفَ مَا جَاءَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ هَجْرِهِمْ وَبُغْضِهِمْ وَالابْتِعَادِ عَنْهُم وَعَدَمِ الرِّضَى عَنْهُمْ، لأَنَّ الابْتِسَامَ يَدُلُّ عَلَى الرِّضَى وَالانْبِسَاطَ مَعَهُم.

قَوْلُهُ: «**وَمَنْ زَوَّجَ كَرِيمَتَهُ مِنْ مُبْتَدِعٍ فَقَدْ قَطَعَ رَحِمَهَا**» الوَاجِبُ عَلَى مَنْ عِنْدَهُ مُولِيَةٌ: بِنْتٌ أَوْ أُخْتٌ أَوْ مَنْ يَتَوَلَّى عَقْدَ نِكَاحِهَا أَنْ يَخْتَارَ لَهَا الكُفْءَ الصَّالِحَ قَالَ ﷺ: «**إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَونَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ**»[(١)]، فَإِذَا لَمْ تَتَحَرَّ لِمُولِيَتِكَ المَرْضِيَّ فِي دِينِهِ وَأَمَانَتِهِ يَحْصُلُ فَسَادٌ كَبِيرٌ، حَيْثُ يَتَزَوَّجُهَا وَاحِدٌ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ أَوْ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ فَتَضِلُّ مَعَهُ، وَتَكُونُ أَنْتَ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ.

قَالَ: «**وَمَنْ تَبِعَ جَنَازَةَ مُبْتَدِعٍ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطٍ مِنَ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ**» إِذَا مَاتُوا لا تُصَاحِبْ جَنَائِزَهُمْ؛ لأَنَّهُم يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الغَضَبُ وَالعَذَابُ وَيُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ.

٢- قَوْلُ الفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ: «**مَنْ جَلَسَ مَعَ صَاحِبِ بِدْعَةٍ وَرِثَهُ العَمَى**» يَعْنِي العَمَى فِي البَصِيْرَةِ، وَعَمَى القَلْبِ.

٣- قَوْلُ الفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ: «**آكُلُ مَعَ يَهُودِيٍّ وَنَصْرَانِيٍّ وَلا آكُلُ مَعَ مُبْتَدِعٍ**»؛ لأَنَّ اليَهُودِيَّ وَالنَّصْرَانِيَّ مَعْرُوفٌ أَنَّهُ صَاحِبُ دِينٍ وَمِلَّةٍ دِينِيَّةٍ مُخَالِفَةٍ لِدِيْنِنَا، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، أَمَّا المُبْتَدِعُ فَإِنَّهُ يَدَّعِي الإِسْلامَ، أَمَّا اليَهُودِيُّ أَوِ

---

(١) سبق تخريجه.

النَّصرَانِيُّ فَلا يَدَّعِي الإِسْلامَ، وَتعْرِفُ أَنَّهُ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ، لَكِنَّ الْمُشْكِلَةُ فِيمَنْ يَدَّعِي الإِسْلامَ، وَتَثِقُ بِهِ، وَتَجْلِسُ مَعَهُ فَيَجُرُّكَ إِلَى الشَّرِّ، وخَطَرُهُ أَشَدُّ مِنْ خطَرِ العَدُوِّ الْمُصَرِّحِ بِالعَدَاوَةِ.

قَوْلُهُ: «**وَأُحِبُّ أَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَاحِبِ بِدْعَةٍ حِصْنٌ مِنْ حَدِيدٍ**» يَعْنِي: يَمْنَعُ الاخْتِلاطَ بِهِ.

٤- قَوْلُ الفُضَيْلِ: «**إِذَا عَلِمَ اللهُ مِنَ الرَّجُلِ أَنَّهُ مُبْغِضٌ لِصَاحِبِ بِدْعَةٍ؛ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ قَلَّ عَمَلُهُ**»؛ لأَنَّ هَذَا مِنَ الوَلاءِ وَالبَرَاءِ؛ الوَلاءُ لأَهْلِ الإِيمَانِ، وَالبَرَاءُ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ، هَذَا أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ العَقِيدَةِ.

قَوْلُهُ: «**وَلا يَكُنْ صَاحِبُ سُنَّةٍ يُمَالِئُ صَاحِبَ بِدْعَةٍ إِلاَّ نِفَاقًا**» إِذَا مَالأَ صَاحِبُ السُّنَّةِ صَاحِبَ البِدْعَةِ فَهَذَا نَوْعٌ مِنَ النِّفَاقِ.

قَوْلُهُ: «**وَمَنْ أَعْرَضَ بِوَجْهِهِ عَنْ صَاحِبِ بِدْعَةٍ، مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ إِيمَانًا**» لأَنَّ هَذَا مِنَ البَرَاءِ.

قَوْلُهُ: «**وَمَنِ انْتَهَرَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ آمَنَهُ اللهُ يَوْمَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ**» مَنِ انْتَهَرَهُ بِالكَلامِ، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلا - يُجَازِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَوْمَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ بِالجَزَاءِ الحَسَنِ؛ لأَنَّهُ أَنْكَرَ الْمُنْكَرَ، أَمَّا إِذَا أَثْنَى عَلَيْهِ وَمَدَحَهُ فَإِنَّ هَذَا مِنَ النِّفَاقِ، وِمِنْ مُوَالاةِ أَعْدَاءِ اللهِ.

قَوْلُهُ: «**وَمَنْ أَهَانَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ، رَفَعَهُ اللهُ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ**» الوَاجِبُ عَدَمُ إِكْرَامِ أَهْلِ البِدَعِ بِالمَجْلِسِ أَوْ بِالمَدْحِ أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الإِكْرَامِ، الوَاجِبُ إِهَانَتُهُمْ؛ لأَنَّ اللهَ أَهَانَهُمْ، وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الوَلاءِ وَالبَرَاءِ.

قَوْلُهُ: «**فَلا تَكُنْ صَاحِبَ بِدْعَةٍ فِي اللهِ أَبَدًا**» عَلَيْكَ مُجَانَبَةَ البِدَعِ وَلا تَتَسَاهَلْ فِيهَا أَبَدًا، مِنْ أَجْلِ أَنْ تُحَافِظَ عَلَى دِينِكَ وَعَلَى سُنَّةِ نَبِيِّكَ.

مُحتويات الكتاب



مُحتَويَاتُ الكِتَابُ

الموضوع — الصفحة


تم بحمد الله